

النفسية الكاشفة

بمجموعه محمد بن عبد الوهاب

المجلد السابع

من الدخان الى اخر الناس

دار الأنوار

التفسير الكاشف



جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الرابعة

دار الأنوار

طباعة - نشر - توزيع

بيروت - لبنان

Email: daralanwar2009@yahoo.com

بمجموعه من المؤلفات

التفسير الكاشف

المجلد السابع

دار الأنوار

سورة المدحان

٥٩ آية مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أنزلناه في ليلة مباركة الآية ١ - ٩ :

حَمَّ * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ *
فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * رَحْمَةً
مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا
إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ * لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ
الْأُولَئِينَ * بَلْ لُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ *

اللغة :

الليلة المباركة هي ليلة القدر . ويُفْرَقُ بين . وحكيم محكم .

الإعراب :

واللكتاب المبين الواو للقسم ، وجملة إنا أنزلناه جواب القسم ، وقال صاحب

سورة اللخنان

مجمع البيان : لا يجوز ذلك لأنك لا تقسم بالشيء على نفسه .. ويرده ان القسم وقع على وقت نزوله لا عليه بالذات . وأمرأ نصب على الاختصاص أي أعني بهذا الأمر أمرأ حاصلًا من عندنا . ورحمة مفعول من أجله لمرسلين أو لأنزلناه . وربكم أي هو ربكم .
المعنى :

(حم) تقدم الكلام في مثله بأول سورة البقرة (والكتاب المبين إنا أنزلناه في ليلة مباركة) هي مباركة لتزول القرآن فيها ، وإذا عطفتنا على هذه الآية قوله تعالى : « إنا أنزلناه في ليلة القدر » وقوله : « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن - ١٨٥ البقرة » ج ١ ص ٢٨٤ إذا فعلنا ذلك تبين معنا ان هذه الليلة المباركة هي ليلة القدر وأنها احدى ليلي شهر رمضان المبارك ، وذكرنا في المجلد الأول ص ٢٨٥ ان بدء نزول القرآن كان في ليلة القدر ، لا ، انه أنزل كاملاً فيها، فراجع . (انا كنا مندرين) بالعذاب الأليم من عصي وأفسد في الأرض، وقد جاء هذا الانذار في القرآن الكريم الذي أنزل على قلب محمد (ص). (فيها يفرق كل أمر حكيم أمرأ من عندنا) . يفرق بين ، وضمير فيها يعود الى الليلة المباركة ، وحكيم محكم . واختلف المفسرون في المعنى المراد من الأمر الحكيم ، فذهب أكثرهم الى أن الله سبحانه يقسم الأزواق والآجال في هذه الليلة بين عباده ، وأيضاً يغفر الكثير من الخطايا عن يشاء .

وقال آخرون : ان المراد بالأمر الحكيم هو ما جاء في القرآن من تبيان كل شيء من أمور الدين .. وقال سبحانه فيها ، ولم يقل فيه أي في القرآن لأنه أنزل في ليلة القدر ، أما قوله تعالى في سورة القدر : « تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر » فعناه ان أول عهد النبي (ص) بشهود الملائكة كان في تلك الليلة ، وبأني البيان ان شاء الله .

(إنا كنا مرسلين رحمة من ربك) أي ان الله سبحانه أرسل محمداً رحمة للعالمين كما في الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء : « وما ارسلناك الا رحمة للعالمين » . (انه هو السميع العليم) يسمع الأقوال ، ويعلم النوايا (رب السموات والأرض وما بينهما ان كنتم موقنين) . ان العاقل إذا نظر الى الكون بتجرد وإمعان يشهد شهادة لإخلاص وإيقان بأن الله هو مالك الكون بما

الجزء الخامس والعشرون

فيه ، وانه (لا إله إلا هو يحيي ويميت) . ولا أحد يهب الحياة إلا هو ، وإذا جاء الأجل فلا يعمله شيء ، وأيضاً لا يقربه شيء (ربكم ورب آبائكم الأولين) فكيف تمبدون الأوثان وتطيعون الشيطان من دون الله ؟ (بل هم في شك يلعبون) . شكوا في البعث ونبوة محمد (ص) مع قيام البيئات والدلائل ، وتلهوا عن عاقبتهم وعما يراد بهم .

يوم تأتي السماء بدخان مبين الآية ١٠ - ٢١ :

فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ * يَغْشى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ *
 رَبَّنَا اكشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ * أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ
 رَسُولٌ مُّبِينٌ * ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ * إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ
 قَلِيلًا * إِنكُمْ عَائِدُونَ * يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ *
 وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ * أَن أَدْوَا إِلَيَّ
 عِبَادَ اللَّهِ إِنَّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ
 بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * وَإِنِّي عُنْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْتَجُمُونِ * وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا
 لِي فَاَعْتَرِلُونِ *

الذمة :

فارتقب فانتظر . وليس المراد بالدخان هنا الدخان المعروف ، وإنما المراد ان الانسان كان لما به يرى بينه وبين السماء كالدخان ، وبأني البيان . ويشقى يحبط . والذكري التذكر والانعاظ . وقتنا بلونا وامتحنا . وعنت لذت .

سورة الدخان

الإعراب :

يوم مفعول به لارتقب . وجملة يفشى الناس صفة ثانية لدخان . وهذا عذاب أليم مبتدأ وخبر ، والجملة مفعول لقول محذوف . ربنا أي يا ربنا . ومعلم مجنون أي هو معلم مجنون . وقليلاً أي كشافاً قليلاً أو زماناً قليلاً . ويوم نبطش «يوم» متعلق بفعل محذوف دل عليه منتقمون ، والتقدير ننتقم يوم نبطش الخ . والمصدر من ان ادوا مجرور بياء محذوفة . وعباد الله مفعول أدوا . والمصدر من ان ترجمون مجرور بمن محذوفة ، وأصل ترجمون ترجموني .

المعنى :

(فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين يفشى الناس) . الخطاب من الله سبحانه لنبيه الكريم محمد (ص) يعمده فيه باستجابة دعائه على قريش .. وذلك ان قريشاً بعد أن بالغوا في أذى الرسول (ص) دعا عليهم ، وقال : اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف ، فقطع الله عنهم المطر ، واجدبت الأرض وأصاب قريشاً الجهد والجوع حتى أكلوا العظام والميتة .. وكان الرجل لما به من الجوع يرى بينه وبين السماء كالدخان ، فقالوا : (هذا عذاب أليم ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون) . أتوا النبي (ص) وقالوا له : سل الله سبحانه أن يكشف عنا هذا العذاب ، ونحن نؤمن برسالتك .

(أتى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول أمين ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون) . معلم بفتح اللام مع التشديد .. وعدوا بالتذكر والامتناع ان كشف الله عنهم العذاب .. ولكنهم لا يتوبون ولا يوفون بالوعد ، ألم يشاهدوا دلائل التوحيد ومع ذلك أشركوا بالله ؟ . ألم يأتيهم الرسول بالبينات الواضحة فكذبوه ، وقالوا : هو مجنون يتلقى بعض الكلمات من جني أو إنسي وبقيةا علينا ؟ . (انا كاشفو العذاب قليلاً انكم عائدون) . المراد بالعذاب هنا عذاب القمط والجوع، وعائدون ناكثون ، والمعنى سترفع عنهم ما هم فيه بعض الوقت ونحن نعلم أنهم ناكثون بالوعد .. ولكن من باب إلقاء الحجمة وقطع المصلحة (يوم نبطش البطشة الكبرى

الجزء الخامس والعشرون

إنا منتقمون) . هذا تهديد بأن الله سيأخذهم يوم القيامة بعذاب مهين على عتوهم وتمردهم .

والخلاصة ان قريشاً آذوا النبي (ص) فدعا عليهم ، ولما سبهم السوء استجاروا به ووعدوه بالتوبة ، ولكنهم نكثوا بعد أن فرج الله عنهم، فهددهم سبحانه بجهم وبس المهاد .

(ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم) . ضمير قبلهم يعود الى قريش ، والمعنى ان الله اختبر آل فرعون بالنعيم والتمكين في الأرض كما اختبر قريشاً بكشف العذاب عنهم ، وأرسل سبحانه موسى الى قوم فرعون كما أرسل محمداً الى قريش ، فمصوا جميعهم وعتوا عن أمر الله ، وقال موسى لفرعون وقومه : (ان ادوا اليّ عباد الله انبي لكم رسول أمين) . كان فرعون يضطهد بني اسرائيل ، يذبح المواليد الذكور منهم . ويبقي الاناث للخدمة، فطلب منه موسى أن يرسلهم معه ليذهب بهم حيث يشاء ، ومثله قوله تعالى : « فأرسل معنا بني اسرائيل ولا تعذبهم - ٤٧ طه ، ج ٥ ص ٢٢٠ .

(وان لا تعلوا على الله اني آتاكم سلطان مبين) . هذا من كلام موسى لقوم فرعون ، ومعناه لا تتعالوا على طاعة الله ، فإن لديّ الحجة الكافية الوافية بإثبات الحق (واني عدت بربّي وربكم أن ترجمون) ألوذ بالله والتجأ اليه ان أردتم بي سوءاً (وان لم تؤمنوا لي فاعتزلون) أي اعتزلوني ، ودعوني وشأني لا علي ولا معي ان لم تصدقوني وتنجّبوا لدعوتي .

هؤلاء قوم مجرمون الآية ٢٢ - ٣٣ :

فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هُوَ أَهْلَاءُ قَوْمٍ مُّجْرِمُونَ * فَأَسْرِبِ عِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ *
وَأَتْرِكُ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ * كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ *
وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَآكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا

سورة النحان

قَوْمًا آخَرِينَ * فَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ *
وَلَقَدْ فَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ * مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ
عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ * وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَأَتَيْنَاهُمْ
مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ *

اللفظ :

رهُوَأ سَاكِنًا . وَفَاكِهِينَ مُتَمَعِّينَ . فَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ كِتَابَةَ عَن
عَدَمِ الْإِهْتِمَامِ بِشَأْنِهِمْ .

الإعراب :

رهُوَأ حَالٌ مِنَ الْبَحْرِ . وَكَمْ مَفْعُولٌ تَرَكَوْا . وَكَذَلِكَ خَبَرٌ لِمَبْتَدَأِ مَحْذُوفٍ أَيْ
الْأَمْرُ كَذَلِكَ . مِنْ فِرْعَوْنَ بَدَلَ مِنَ الْعَذَابِ بِإِعَادَةِ حَرْفِ الْجَرِّ ، مَعَ حَذْفِ الْمُضَافِ
أَيْ مِنْ عَذَابِ فِرْعَوْنَ . عَلَى عِلْمٍ حَالٌ أَيْ عَالِمِينَ . وَعَلَى الْعَالَمِينَ مُتَعَلِّقٌ بِاخْتِرْنَاهُمْ .

المعنى :

(فدعا ربه ان هؤلاء قوم مجرمون). يشس موسى من فرعون وقومه فدعا عليهم،
وقال : اللهم عجل لهم الهلاك في الدنيا بسبب كفرهم واجرامهم ، فاستجاب الله
دعاه وقال له : (فأسر بعبادي ليلاً انكم متبعون) . أمر سبحانه أن يخرج هو
وبنو اسرائيل ليلاً من مصر ، وأعلمه ان فرعون وقومه سيتبعونهم (واترك البحر
رهُوَأ أَنَّهُمْ جُنْدٌ مَفْرُقُونَ) . اسلك الطريق في البحر ، فإذا قطعتة الى الجانب
الآخر ، فدعه كما هو ، لأن جيش العدو سيدخله ويفرق بكامله .

الجزء الخامس والعشرون

(كم تركوا من جنات وعبور وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوماً آخرين) . كان آل فرعون في ألد مطعم ومشرب ، لهم السلطان والقصور والأنهار والنار ، فأرسل الله اليهم موسى يدعوهم الى العدل وعدم الفساد في الأرض ، فلم يستجيبوا لداعي الله ، فأهلكهم وأورث ما كانوا فيه لقوم لا يمتون اليهم بسبب ولا نسب .. قال الشيخ المراغي عند تفسير هذه الآية : « تغلب على مصر الآشوريون والبابليون حيناً ، والحبش حيناً آخر ، ثم الفرس مدة واليونان أخرى ، ثم الرومان من بعدهم ، ثم العرب ثم الطولونيون والأخشيديون والفاطميون والأيوبيون والمالكي والترك والفرنسيون والانكليز ، وما نحن اولاؤه نجاهد لتخطى بخروجهم من ديارنا ، ونتمكن من استقلال بلادنا » .

وكان هذا الشيخ في عهد الملك فاروق بن فؤاد ، ونعطف على قوله والآن يحتل الصهاينة سيناء والضفة الشرقية من قناة السويس بمعونة الولايات المتحدة قائدة الاستعمار الجديد ، والمصريون مجاهدون ويقاثلون ليخرجوا المعتدين من أرضهم .. وهكذا الحياة جهاد ونضال ، ولأن يستشهد الانسان والبنديقية في يده ، يدافع بها عن وطنه وكرامته ، خير من أن يعيش عيش الذل والهوان .

(فما بكت عليهم السماء والأرض) . هذا كناية عن عدم الاهتمام بآل فرعون حين أغرقهم الله في اليم (وما كانوا منظرين) بل عجل سبحانه لهم الهلاك في الدنيا (ولقد نجينا بني اسرائيل من العذاب المهين) وهو قتل أبنائهم واستخدام نساءهم وبناتهم وتسخير رجالهم في أشق الأعمال (من فرعون انه كان عالياً من المسرفين) الذين تجاوزوا كل حد في الفساد والظلم والتعالي والتعاطف .

(ولقد اخترناهم على علم على العالمين) . وصف سبحانه بني اسرائيل في كتابه بأبيح الأوصاف ، وسجل عليهم أعظم الجرائم كالغدر والاحتيا والتمرد على الحق وأكل المال بالباطل ، ووصفهم بالكفر والظلم ، ولعنهم في العديد من الآيات ، وهددهم بأشد العقوبات .. ومن هنا أجمع المفسرون على ان المراد بالعالمين في هذه الآية واخوانها ان الله فضل الاسرائيليين على العالمين في زمانهم ، لا في كل زمان .. وقلنا في ج ١ ص ٩٥ : ان الله فضلهم على أهل ذلك الزمان من جهة واحدة فقط ، وهي ان الله أرسل منهم العديد من الأنبياء .

والآن استوحينا من الآية التي نحن بصددنا ان المراد بالعالمين فيها فرعون ومن أقر له بالربوبية فقط ، وليس كل أهل ذلك الزمان ، أما السر في تفضيل بني اسرائيل على فرعون ومن استجاب له فواضح ، وهو ان الاسرائيليين لم يعبدوا فرعون كقدماء المصريين. (وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين). المراد بالآيات هنا المعجزات كفلق البحر وتظليل الغمام وانزال المن والسلوى وتفجير الماء من الحجر، والمراد بالبلاء المبين النعمة الظاهرة قال تعالى : « ونبلوكم بالشر والخسرة فتنه ۳۵ الأنبياء » .

أهم خبر أم قوم تبع الآية ۳۴ - ۴۲ :

إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ * إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ *
 فَأَتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ * أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَعٍ وَالَّذِينَ مِن
 قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ * وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
 وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ *
 إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ * يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْتَىٰ عَنْ مَوْتَىٰ شَيْئًا وَلَا
 هُمْ يُنصَرُونَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ *

اللغة :

بمنشرين بمبعوثين . وتبع اسم لأحد ملوك اليمن ، والتبابعة لقب ملوك اليمن
 كالفراعنة والقيصرية . ويوم الفصل يوم القيامة .

الإعراب :

إن هي « ان » نافية . وممنشرين الباء زائدة وممنشرين خبر نحن . والذين من قبلهم منصوب بفعل محذوف أي وأهلكنا الذين من قبلهم . ولاعين حال . وأجمعين تأكيد لضمير ميقاتهم . ويوم لا يعني بدل من يوم الفصل .

المعنى :

(إن هؤلاء يقولون إن هي إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين) . هؤلاء إشارة الى مشركي مكة . قالوا : لا حياة ولا نشور بعد الموت، واحتجوا بقولهم : (فأتوا بآياتنا ان كنتم صادقين) انهم لا يؤمنون بأن الله قادر على إحياء الموتى إلا اذا رأوا ذلك عيناً .. وذهلوا عن النشأة الأولى ، وان الذي أوجد الانسان ، ولم يكن شيئاً مذكوراً – قادر على أن يحيي العظام وهي رميم .

(أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكتهم إنهم كانوا مجرمين) . كان للتبعية دولة وصوله في اليمن وغداً كانوا أحسن حالاً وأكثر مالا من قريش، ولما عتوا عن أمر ربهم أخذهم الوباء والدمار ، وكذا أهلكت قوم نوح وعاداً وعمود لكفرهم وإجرامهم ، فمن آمن قومك يا محمد عواقب الكفر والفساد ؟ ولو اعتبروا لأبصروا وآمنوا ، ولكنهم قوم لا يفقهون (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لآعين ما خلقناهما إلا بالحق) . إن الله حكيم ، والحكيم منزّه عن العبث ، فلا يخلق شيئاً إلا لمصلحة تعود الى الخلق .. والغاية من خلق الانسان أن يحيا حياة طيبة خالدة الى ما لا نهاية ، وعليه فلا بد من البعث والنشور، وإلا كان خلق الانسان عبثاً . أنظر تفسير الآية ٣٣ من سورة لقمان فقرة ٤ لماذا خلق الله الانسان ؟ . (ولكن أكثرهم لا يعلمون) ان الله خلق الكون بما فيه الحكمة وغرض صحيح .

(ان يوم الفصل ميقاتهم أجمعين) . يوم الفصل هو يوم القيامة الذي يجمع الله الناس فيه لتقاس الحساب وجزاء الأعمال ، وميقاتهم هو موعد ذلك الجمع والحساب والجزاء (يوم لا يعني مولى عن مولى شيئاً ولا هم ينصرون) . لا جاه

ولا مال ولا أنساب ولا حيم .. لا شيء على الإطلاق ينفع في ذلك اليوم إلا صالح الأعمال فهو وحده الشفيع عند الله (إلا من رحم الله) ولكن الله يرحم من هو أهل لرحمته كالذي له سوابق تقربه من خالقه جل وعز (انه هو العزيز الرحيم) .
لا ناصر ولا راحم غداً إلا الله فهو ذو العزة والرحمة تدعن الخلائق لقدرته ،
وتفتقر الى رحمته .

طعام الأثيم وطعام المتقين الآية ٤٣ - ٥٩ :

إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ * طَعَامُ الْأَثِيمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلْيِ
الْحَمِيمِ * خُذُوهُ فَاعْتَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ * ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ
عَذَابِ الْحَمِيمِ * ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ * إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ
تَمْتَرُونَ * إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * يَلْبَسُونَ
مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ * كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ *
يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِينَ * لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ
الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * فَضلاً مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ
الْعَظِيمُ * فَإِنَّمَا يَسْرُنَاهُ لِبَلْسَانِكَ لَئَلَّيْكُمْ يَتَذَكَّرُونَ * فَأَرْقُبْ إِيَّاهُمْ مُرْتَقِبُونَ *

اللفظ :

شجرة الزقوم لا بد أن تكون رديئة الطعم لأنها طعام أهل النار، وتقدم الكلام
عنها في الآية ٦٢ من سورة الصافات . والمهل خثارة الزيت . والحميم الشديد
الحرارة . اعتلوه سوقوه بصف . وسواء الجحيم وسطها . والسندس ضرب من
الحريير الرقيق . والاستبرق الغليظ منه . ارتقب انتظر .

الإعراب :

في جنات بدل من مقام أمين بإعادة جرف الجسر . متقابلين حال من واو يلبون . كذلك خبر مبتدأ محذوف أي الأمر كذلك . آمنين حال من واو يدعون . وفضلاً منصوب على المضمرية أي تفضل فضلاً .

المضى :

بعد ان ذكر سبحانه المجرمين في الآيات السابقة ، وان موعدهم يوم القيامة - ذكر أحوالهم في هذا اليوم ، وهي :

١ - (ان شجرة الزقوم طعام الأثيم) . والأثيم من كثرت في الدنيا ذنوبه وأثامه .. وقد بين سبحانه ان طعامه يوم القيامة من شجرة اسمها الزقوم، ووصف ثمرها بأنه (كالمهل يظي في البطون كظي الحميم) . والمهل خثارة الزيت ، والحميم الشديد الحرارة ، وغير بعيد أن يكون هذا كناية عن ألم العذاب وشدته، وقال الملا صدرا في الأسفار : ان شجرة الزقوم هي الاعتقادات الباطلة والأخلاق السيئة التي تقود صاحبها الى النار ، وفي بعض الروايات ان البخل شجرة من أشجار النار ، والسخاء شجرة من أشجار الجنة .

٢ - (خلوه فاعتلوه الى سواء الجحيم) . أي يقال ثلاثكة العذاب: سوقوا الأثيم بمنف الى وسط النار (ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم) . يومئذ هذا الى أن في جهنم ثمراً وحاماً وملابس ، وكلها من نار السموم .

٣ - (ذق انك أنت العزيز الكريم ان هذا ما كنتم به تمرون) . تقول ثلاثكة العذاب للطاغية الأثيم : لقد أنكرت يوم البعث ، وزعمت انك صاحب الجلالة والمهمنة .. فذق الآن جزاء تعاطلك وتعاليك .. ومهما شككت فإنا بشاك ان الذين يلبون أوقات العباد، ويصنعون منها أسلحة جهنمية لقتل الأبرياء الأمنين ونسائهم وأطفالهم ، ولا يرون حقاً ولا عدلاً إلا فيما يهون ويشاؤون ، لا أشك أبداً ان هؤلاء يستحقون هذا النوع من العذاب ، بل أشد وأقسى لو كان هناك عذاب فوق هذا العذاب . انظر ج ٤ ص ٤٥٦ فقرة « جهنم والأسلحة الجهنمية » .

سورة الدخان

وبعد ان بيّن سبحانه أحوال المجرمين أشار الى أحوال المتقين يوم القيامة
بالآيات التالية :

(ان المتقين في مقام أمين) لا خوف عليهم ولا هم يحزنون (في جنات
وعيون) يتمتعون فيها كما يشاؤون (يلبسون من سندس واستبرق متقابلين) .
ثيابهم من الحرير الرقيق والسميك ، ويجلسون على أسرة في اتجاه بعضهم البعض
يسمرون شاكرين ذاكرين أنعم الله ورضوانه (كذلك وزوجناهم بحور عين)
لم يطمئنن قبلهم انس ولا جان (يدعون فيها بكل فاكهة آمنين) . يطلبون
فاكهة قائمة دائمة لا يخافون لها نفاداً وانقطاعاً . (لا يدفون فيها الموت إلا
الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم) . كل انسان يموت الموتة الأولى ، ويتقل
بعدها إلى الجنة أو النار ، ولا فناء في هذه ولا تلك ، ولكن الفناء أيسر بكثير
من حياة وسط الجحيم (فضلاً من ربك ذلك هو الفوز العظيم) وأي فضل وفوز
أعظم من النجاة من عذاب النار وغضب الجبار .

(فإنما يسرناه بلسانك لعلمهم يتذكرون) .. ضمير يسرناه للقرآن ، وضمير
لعلمهم للعرب ، والخطاب في لسانك للرسول الأعظم (ص) ، والمعنى أنزلناه قرآناً
عربياً لينتفع العرب بتعاليمه ويتعظوا بعظاته (فارتقب انهم مرتقبون) . انتظر
قليلاً يا محمد ، وسترى ان العاقبة لك عليهم ، وهم أيضاً يدعون بأن الدائرة
ستدور عليك ، ولكن: « هلك من ادعى وخاب من اقرى ، ومن أبلى صفحته
للحق هلك » كما قال الإمام علي (ع) .

سورة البجائية

وتسمى سورة الشريعة أيضاً ، وهي مكية ، وآها ٣٧ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ان في السموات والأرض لآيات للمؤمنين الآية ١ - ٦ :

حَمَّ * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ
يُوقِنُونَ * وَاختِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ
فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ *
تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ *

اللمة :

المراد بالآيات هنا الدلائل والحجج . ويث يفرق . واختلاف الليل والنهار
تعاقيها . وتصريف الرياح تغييرها جنوباً وشمالاً وشدة وضمناً .

الإعراب :

تنزيل مبتداً ومن الله الخبر ، ويجوز أن يكون تنزيل خبراً لمبتدأ محذوف !

سورة الجاثية

هذا تنزيل الكتاب ، ومن الله متعلق بتزليل . لآيات اسم ان وفي السموات والأرض خبرها وآيات مبتدأ مؤخر . وفي خلقكم خبر مقدم وما يث عطف على خلقكم . واختلاف الليل والنهار أي في اختلاف الليل والنهار خبر مقدم وآيات لقوم مبتدأ مؤخر . تلك آيات الله مبتدأ وخبر .

المعنى :

(حم) تقدم مثله في أول سورة البقرة (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) . المراد بالكتاب القرآن ، وكله من أوله الى آخره وحي من الله ، لا من سواه ، وقال صاحب روح البيان : ان وصف الله بالعزيز هنا يشعر بأن القرآن معجزة تقهر كل من يتحداها ، وان وصفه بالحكيم يرمي الى ان القرآن يشتمل على حِكْمٍ بالغة نافعة .. وليس من شك ان القرآن أعجز ويعجز كل من يعارضه ، وانه ينبوع الحكمة ومصدرها .

ثم أشار سبحانه الى الدلائل الحسية الناطقة بوجوده وعظمته ، منها : (ان في السموات والأرض لآيات للمؤمنين) أي لمن يريد ان يؤمن بالحق لأنه حق ، والمراد بالآيات هنا ما يستنتجه العقل من نظام الكون وسيره على سنن لا تحوِيل فيها ولا تبديل ، ولسولا ثباتها واستمرارها لما أمكن رصدها وقياسها والاستفادة منها ، وبالتالي لم يكن لعلم الفلك وما يتصل به عين ولا أثر (وفي خلقكم وما يث من دابة آيات لقوم يوقنون) . من أراد علم اليقين بوجود الله فليفكر ويتأمل في نفسه وفي أي حي من الأحياء ، فهل يجد في واحد منها عضواً من أعضائه لا وظيفة له ، أو غريزة من غرائزه لا حكمة لها ؟ وبدل هذا دلالة قاطعة على الارادة والتصميم ، وإذا لم نَرَ المصمم بالحس فقد رأينا آثاره رأي العين ، وعليه يكون إيماننا بالغييب مستنداً الى الحس والمشاهدة .

(واختلاف الليل والنهار) . أشار سبحانه في كتابه مرات الى اختلاف الليل والنهار لينبه العقول الى السر العجيب في دورة الأرض لأنها السبب الموجب لمحجىء الليل بعد النهار ، ومحجىء النهار بعد الليل ، ومها قيل ويقال عن أسباب دورة الأرض حول نفسها أو حول الشمس فإن هذه الأسباب وغيرها من الأسباب

الجزء الخامس والعشرون

الكونية تنتهي الى ارادة الخالق الأول وقدرته وحكمته ، ويستحيل في نظر العقل أن يكون مبدأ هذا الكون المعجب مادة عمياء تتحكم بها الصدفة والقوضى التي لا قصد لها ولا غاية .

(وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها) . المراد بالرزق هنا كل شيء علوي له أثر في الحياة كالماء وحرارة الشمس، وفيها من الدلالة على وجود الخالق ما في خلق السموات والأرض لأن الكل وجد لحكمة وغرض صحيح (وتصريف الرياح) جنوباً وشمالاً وغرباً وشرقاً وباردة وحارة (آيات لقوم يعقلون) كل ذلك وما إليه دليل قاطع على ارادة عليم حكيم .

(تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق) . وهكذا يضع سبحانه أمام العقل مشاهد ودلائل حسية على معرفة الخالق وقدرته (فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون) . من لا ينتفع ببيان الله ، ويفتنق بأدلة فلا تجدي معه أية حجة . وتكرر معنى هذه الآيات كثيراً في كتاب الله ، من ذلك الآية ١٦٤ من سورة البقرة ج ١ ص ٢٥١ .

ومن نهج البلاغة : ما الجليل واللطيف والتجميل والخفيف والقوي والضعيف في خلقه الا سواء ، وكذلك السماء والهواء والرياح والماء ، أنظر الى الشمس والقمر والنبات والشجر والماء والحجر واختلاف هذا الليل والنهار ، وتفجر هذه البحار ، وكثرة هذه الجبال ، وطول هذه القلال - أي رؤوس الجبال - وتفرق هذه اللغات والألسن المختلفة .. فالويل لمن جحد المقدر ، وأنكر المديبر .. زعموا أنهم كالنبات ما لهم زارع ، ولا لاختلاف صورهم صانع ، ولم يلجأوا الى حجة فيما ادعوا ، ولا تحقيق لما ادعوا ، وهل يكون بناء من غير بانٍ ، أو جنابة من غير جانٍ ؟ .

ويل لكل اذك ائيم الآية ٧ - ١٥ :

وَيَلُ لِكُلِّ اَفَاكٍ اٰئِيْمٍ * يَسْمَعُ اٰيَاتِ اِلٰهِ تُنْتَلٰى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا

سورة الجاثية

كَانَ لَمْ يَسْمَعَهَا فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا
هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ * مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا
كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ *
هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزِ أَلِيمٍ *
اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ
فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا
يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ *
مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ *

اللغة :

أفأك كثير الكذب . وأثيم كثير الإثم . ويطلق الرجز على معانٍ ، منها القلدر
والانحراف عن الحق إلى الباطل ومنها شدة العذاب وهذا المعنى هو المراد من
الرجز في الآية، أي عذاب من النوع الشديد الأليم . وتطلق أيام الله على أيام نعمته
وقضته .

الإعراب :

مستكبراً حال من ضمير يصر . كان مخففة من الثقيلة واسمها محذوف أي كأنه .
وأليم بالرفع صفة لعذاب . وجميعاً حال مما في السموات وما في الأرض . وضمير

الجزء الخامس والعشرون

منه يعود على الله سبحانه والمجرور متعلق بمحذوف صفة للجميع . ويفضروا مجزوم
بجواب أمر محذوف أي قل لهم : اغضروا يفضروا . فلنفسه متعلق بمحذوف خبراً
لمبتدأ محذوف أي فضع صلاحه عائد لنفسه . فعملها ايضاً خبر لمبتدأ محذوف أي
فضرر إساءته عائد عليها .

المعنى :

(ويل لكل أثمك أثم يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها
فبشره بعذاب أليم واذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزواً) . بعد ان وضع سبحانه
أمام العقل الدلائل الحسية القليلة للجزم واليقين . بوجوده تعالى ، وقال : من لم
يؤمن بها ظن يؤمن بأي دليل غيرها - بعد هذا هدد وتوعد من لا يتدبر هذه
الدلائل ، وينتفع بها ، وأسماه بالأفالك الأثيم ، وتوعدته بالعذاب الأليم ، ووصفه
بمعاندة الحق وتجاهله تعالياً وتعاضماً ، وانه لم يكتف بذلك حتى سخر منه واستهزأ
به .. ولا فرق في يوم الحساب بين هذا الكافر الساخر من الحق وأهله ، وبين
من آمن به قولاً لا فعلاً ، وبالنظر لا بالعمل ، قال تعالى : « ولا تكونوا
كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون - ٢١ الأنفال » أي لا يقبلون ولا يعملون.
وقال الإمام علي (ع) : البصير من سمع فتفكر ، ونظر فأبصر ، وانتفع بالعبر .
(اولئك لهم عذاب مهين من ورائهم جهنم ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئاً
ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ولم عذاب عظيم) . اولئك اشارة الى كل
أفالك أثم ، والمراد بما كسبوا ، أموالهم وأولادهم وجاههم . وبما اتخذوا ، أصنامهم
وأوثانهم ، والمعنى ان الذين استكبروا على الحق وسخروا منه مصيرهم الى جهنم
يصلونها وبئس المهاد ، ولا ينجيهم من عذابها صنم ولا ولد ولا جاه ولا مال
(هذا هدى) . هذا اشارة الى القرآن ، وما من شك انه هدى لمن اثم به ،
وقوة لمن اعتمد عليه (والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم) .
المراد بالآيات هنا الدلائل الكونية على وجود الله وعظمته ، والعذاب والرجز
والأليم كلمات مترادفة أو متقاربة المعنى ، والفرض من التكرار تأكيد العذاب اللاتق
بالأفالك الأثم الذي يستعمل على الحق ويسخر منه .

سورة الجاثية

(الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) . ان فضل الله تعالى في البر والبحر والجو ، ومن نعمه تعالى في البحر اللحم والملح والأحجار الكريمة والمواصلات والتزهة والرياضة وغير ذلك ، وتقدم مثله في العديد من الآيات ، منها الآية ٦٦ من سورة الاسراء ج ٥ ص ٦٥ والآية ٤٦ من سورة الروم وغيرها .

(وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) . في هذا العالم الواسع منافع وطاقات لا ييلفها الاحصاء، وبالرغم من تقدم العلم في عصرنا فإن ما خفي عنه أكثر مما استبان له من تلك الطاقات ، ولكن الله سبحانه زود الانسان بالاستعداد التام لاكتشاف كل ما في الكون مسن قوى وامكانيات والاستفادة بها لئلا يتجه انجهاً علمياً انسانياً ، لا تجارياً ، وبذل جهداً أكثر وأطول .. وتجدر الاشارة الى ان كلمة « جميعاً » تسمى الى ان في الانسان من المؤهلات ما يستطيع معها الوصول الى القمر وغيره من الكواكب . انظر ج ٦ ص ١٠١ فقرة « القرآن والفكر » . وتقدم مثله في الآية ٢٠ من سورة لقمان .

(قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزي قوماً بما كانوا يكسبون) . المراد بأيام الله هنا أيام نعمته وعذابه، والذين لا يرجونها هم مشركو العرب. وقد أمر سبحانه نبيه الكريم أن يدعو المؤمنين الى الصفح عن أساء اليهم، ويدفعوه بالتى هي أحسن ، والله سبحانه يتولى حساب المسيء وجزاءه (من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ثم الى ربكم ترجعون) . المعنى واضح . وتقدم نظيره في الآية ١٠٤ من سورة الانعام ، وبالحرف الواحد في الآية ٤٦ من سورة فصلت .

أيضاً بنو اسرائيل الآية ١٦ - ٢٠ :

وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ

الطِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَآتَيْنَاكُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا
إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا يَنْهَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ
فَاتَّبِعَهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ
مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ *
هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ *

اللفظ :

المراد بالكتاب هنا التوراة والانجيل لأن عيسى (ع) من بني اسرائيل . والمراد
بالحكم فهم ما في التوراة والانجيل . وبالطيات المن والسوى . وبيئات من الأمر
أي واضحات مما أنزلنا من أحكام الدين . وبغياً عناداً للحق . على شريعة من
الأمر أي على طريقة من أمرنا وديننا . والبصائر الدلائل التي يبصر بها العاقل
الحق . ولقوم يوقنون يطلبون علم اليقين .

الإعراب :

بغياً مفعول من أجله لاختلافوا . وشيئاً مفعول مطلق ليغفوا أي شيئاً من الاغواء .

المعنى :

(ولقد آتينا بني اسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ووزقناهم من الطيات وفضلناهم
على العالمين) . في الآيات السابقة ذكر سبحانه الأفاكين الأثمين الذين كفروا

سورة الجاثية

بدلائل الله وآياته ، وهزأوا بالحق وأهله ، ولما كان بنو اسرائيل أصدق مثل لهذه الأوصاف عقب سبحانه بذكرهم وبما هم عليه من الجحود والآثام ، مع ان الله قد أمد لهم وأنعم عليهم بالتوراة والانجيل اللذين أشار اليها بكلمة الكتاب ، وأفهمهم ما فيها من المواعظ والأحكام ، وهذا هو المراد من الحكم ، وجعل منهم أنبياء ، وأنزل عليهم المن والسلوى، وفضلهم على آل فرعون حيث أغرقهم وأراح الاسرائيليين من عذابهم .

(وآيتناهم بينات من الأمر) . أوضح سبحانه لبي اسرائيل كل ما يحتاجون اليه من أمور الدين ، ولم يبق عنراً ولا سبباً لاختلافهم وتفرقهم (فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم) . لقد علموا علم اليقين ما أنزل الله على موسى ، ولكنهم تجاهلوه وحرفوه تبعاً لأهوائهم ومصالحهم : « من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا » - ٤٦ النساء . وقوله تعالى: « اختلفوا » يشير الى القليل النادر الذي ثبت على الحق (ان ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) . قد يتغلب المبطل على الحق في الحياة الدنيا، أما في الآخرة فإن الكلمة العليا للحق وحده ، وإلا كان الحق أسوأ حالاً من المبطل . وتقدم مثله في الآية ٩٣ من سورة يونس ج ٤ ص ١٩٠ .

ضربت الذلة على اسرائيل بحكم التوراة :

جاء في القرآن الكريم عن نبي اسرائيل قوله تعالى : « ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا - ١١٢ آل عمران » . وتكلمنا مطولاً حول هذه الآية في ج ٢ ص ١٣٣ ، وقلنا : ان اسرائيل قاجدة من قواعد الاستمرار ، وانها زائلة لا محالة عاجلاً أو آجلاً .

والآن نقل من نصوص الأسفار - أي الكتاب المقدس عند اليهود - ما يدل بصراحة ووضوح على ان الله كتب على اسرائيل الذلة والمسكنة حتى يومها الأخير . فقد جاء في سفر الملوك الثاني اصحاح ١٧ الآية ١٩ و ٢٠ : « فغضب الرب جداً على اسرائيل .. فزدل الرب كل نسل اسرائيل وأذلهم » . وفي سفر ارميا اصحاح ٩ الآية ١٥ و ١٦ : « ها أنا ذا أطعم هذا الشعب أفتيتنا واسقيهم

الجزء الخامس والعشرون

العظيم وأبددهم في أم لم يعرفوها هم ولا آباؤهم ، وأطلق وراءهم السيف حتى افنيهم . . وأيضاً في سفر التثنية اصحاح ٢٨ الآية ٦٢ و ٦٣ : « فتتقون نفراً قليلاً .. فتتأصلون من الأرض . . الخطاب لبني اسرائيل ، الى غير ذلك من النصوص الدالة على بغي اليهود وفسادهم وذلمهم وهوانهم .

ونسأل الصهانية : اذا كنتم شعب الله المختار كما تزعمون فلماذا حكم الرب عليكم وعلى نسلكم بالذلة والرزالة والتشريد الى ان تتأصلوا من الأرض ؟ وكيف قطع الرب عهداً على نفسه أن يجعل اورشليم رجماً ومأوى لبنات آوى كما جاء في سفر ارميا اصحاح ٩ الآية ١١ : « واجعل اورشليم رجماً ومأوى بنات آوى، ومدن يهوداً اجعلها خراباً بلا ساكن ، ؟ . وما هو الكتاب المقدس لدولتكم الدينية النصرانية كما قال بومبيدو رئيس جمهورية فرنسا . هل هو التوراة التي وصفتكم ووصفت عاصمتكم بقولها : « هكذا قال الرب : أيتها المدينة - أي اورشليم - السفاكة الدم .. يا نجمة الاسم يا كثيرة الشعب ، هوذا رؤساء اسرائيل كل واحد حسب استطاعته كانوا فيك لأجل سفك الدماء - سفر حزقيال اصحاح ٢٢ الآية ٣ و ٦ .

لقد وصف القرآن الكريم بني اسرائيل بأبشع العوت وأقبحها ، ولكنه لم يزد شيئاً عما جاء في التوراة والكتاب المقدس عند اليهود .. وقد جاء ذم اورشليم في انجيل لوقا اصحاح ١٣ : « يا اورشليم يا اورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين ، ويقول الانجيل : ان اليهود في كل زمان ومكان يشاركون في الجريمة أجدادهم الذين صلبوا السيد المسيح لأنهم راضون بأفعالهم مؤمنون بأقوالهم : انه ابن زنا ودجال .. وما جاء في الانجيل يتفق تماماً مع المبدأ الاسلامي القائل : « العامل بالظلم والمعين له والراضي به شركاء . .

ومن أجل هذا عارضت الكنيسة القبطية بابا روما حين أصدر هو وأعوانه وثيقة تبرئة يهود الجليل من دم المسيح .. وتجدر الاشارة إلى أن هذه الوثيقة أصدرها بابا روما قبيل عدوان اسرائيل على البلاد العربية بقليل .

(ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها) . الشريعة في اللغة مورد الماء ، وقد استعملت للأحكام الدينية لأنها تحيي الأرواح كما يحيي الماء الأجسام ، والمراد

سورة الجاثية

بالأمر هنا الدين ، والمعنى لقد جعلناك يا محمد على عقيدة التوحيد وخلع الشرك والانداد ، واعطيناك الشريعة السهلة السمحة ، فتمسك بها وادعُ إليها ، أما قوله تعالى : (ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون) فعناه ان المجرمين لا يتبعون إلا الهوى والغرض ، وما عليك إلا أن تمضي في دعوتك ولا تأخذك فيها لومة لائم ، وهو سبحانه يكفيك كيد الكائدين وشر المتآمرين .

(أنهم لن يفزوا عنك من الله شيئاً) لأن من عجز أن يلدغ عن نفسه فهو عن مؤازرة غيره أعجز (وان الظالمين بعضهم أولياء بعض) . لا يجسد المجرم في الحياة الدنيا من يناصره ويؤازره إلا من كان على شاكلته في الإجرام والآثام.. والطيبون أعداء له وحرب عليه ، أما في الآخرة فيلعن المجرمون بعضهم بعضاً (والله ولي المتقين) دنيا وآخرة (هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون) . هذا إشارة الى القرآن ، والبصائر الدلائل التي تبصر بها الحق وطريق الهداية ، وما من شك أن من يأم بالقرآن فهو على علم اليقين بأنه على هدى من ربه ، ودخل في رحته . وتقدم مثله في الآية ٢٠٣ من سورة الاعراف ج ٣ ص ٤٤١ .

اتخذ الله هواه الآية ٢١ - ٢٦ :

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ * وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلَيُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمِهِ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُمِلُّكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ * وَإِذَا تُتْلَىٰ

عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَتَّبِعُ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبِعُوا آيَاتِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلِ اللَّهُ يُخَيِّكُمُ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ *

اللفظ :

اجترح واقترف واكتب بمعنى واحد .

الإعراب :

أم حسب ، أم ، للإضراب أي بل أحب . والمصدر من أن نجعلهم ساد مسد مفعولي حسب . وسواء مفعول ثانٍ لنجعلهم . وعيائهم ومئاتهم فاعل سواء لأنه بمعنى مسترٍ . وما يحكمون ، ما ، مصدرية والمصدر المنسب فاعل ساء . وعلى علم حال . وان هم ، ان ، نافية . والمصدر من ان قالوا خبر كان .

المعنى :

(أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون) . هل يصح في الافهام أن يكون المحسن والمسيء بمنزلة سواء عند الله وفي نظري العقل ؟ اذن ، فما معنى تعدد الأسماء وتباينها ؟ وما هو الفارق بين الخير والشر والهدى والضلال ؟ وأخذ علماء الكلام مضمون هذه الآية وقالوا : ان الله سبحانه وعد الطائع بالثواب . وتوعد العاصي بالعقاب ، وما وقع في الدنيا شيء من ذلك ، فوجب أن يعيد سبحانه الانسان الى الحياة بعد موته ليحصل الوفاء بوعدته تعالى ووعيده . وأيضاً الله عادل ما في

سورة الجاثية

ذلك رب ، وقد رأينا الظالم يقضي حياته دون أن يقتصر أحد منه للمظلوم ، ولولا الاعادة للحساب والجزاء لكان المظلوم أسوأ حالاً من الظالم وكان الله ظالماً . تعالى عن ذلك علواً كبيراً .

أما نعيم الدنيا فما هو بعلامة على رضا الله ، ولا بؤسها دليل على غضبه ، قال الإمام علي (ع) : أباها الناس ان الدنيا دار مجاز ، والآخرة دار قرار ، فخذوا من ممركم لمفركم .. واخرجوا من الدنيا قلوبكم من قبل أن تخرج منها أبدانكم ، فزيها اختبرتم ، ولغيرها خلقتم .

(وخلق الله السموات والأرض بالحق) . هذا تعليل لنفي المساواة بين المحسن والمسيء ، وبيانه ان الله سبحانه خلق الكون حقاً وعدلاً ، لا عبثاً وباطلاً ، لأنه متره عنها ، وعليه فيستحيل أن يساوي بين المحسن والمسيء ، وإلا كان خلق الكون عبثاً وباطلاً ، لأن من يجوز العبث عليه في شيء يجوز عليه أيضاً في غيره (ولنجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون) . هذا هو النهج القويم نتج الحق والعدل ، من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره . أنظر تفسير الآية ٤ من سورة يونس ج ٤ ص ١٣٢ فقرة : الحساب والجزاء حتم .

والخلاصة ان الله حكيم متره عن الخطأ ، وحكمته تعالى تحتم إحياء الانسان بعد موته ليميز بين المحسن والمسيء ، ويجزي كلاً بما يستحق وإلا كان الخلق عبثاً ، قال تعالى في الآية ١١٥ من سورة المؤمنون : « أفحسبم انما خلقناكم عبثاً وانكم الينا لا ترجعون فتعالى الملك الحق ، أي تتره عن العبث .

(أفرايت من اتخذ إلهه هواه) ؟ . من الناس من لا يؤمن بشيء إلا بنفسه ومصلحته .. وقد يهمل ويكبر بل ويصوم ويصلي ما دام ذلك لا يراحم شيئاً مما يحب ويهوى ، فهواه هو المعبود الحق عنده ، وما عداه وسيلة لا غاية أو عادة لا عبادة ، وهذا هو المقصود من قوله تعالى : « اتخذ إلهه هواه » . وقال قائل : انما سمي هوى لأنه هوى بصاحبه إلى النار ، وقد أخذ هذا من قوله تعالى : « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى - ٤٠ » . وفي بعض التفاسير ان المشرك الجاهلي كان يهوى الحجر فيعبده ،

الجزء الخامس والعشرون

ثم يرى غيره فيهواه فيلقي الأول ، وهكذا من يتخذ إلهه هواه .. وليس من شك ان المشرك الجاهلي أخف جرماً عند الله من العملاء الذين يبيعون دينهم وضميرهم بالمزايمة ، ويعقدون الصفقة مع من يزيد .

(وأضله الله على علم) . الله سبحانه لا يضل أحداً ، كيف ؟ . وقد نهى سبحانه عن الضلال وتوعد عليه ، ولكن من يسلك طريق الضلال مختاراً بدعاه وشأنه ، ولا يشملها بلطفه وعنايته بعد أن علم جلت حكمته من العبد الضال الاصرار والنعاد . أما قوله تعالى : (وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة) فعناه ان الله تعالى قد أعمى المعاند عن ادراك الحق ورؤيته وسماعه بعد أن بينه له وحته عليه وأعرض عنه من غير مبرر ، قال تعالى : « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين - ه الصف ه . (فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون) ؟ من لا يتفتح بنصائح الله ، ويتعظ بمواعظه ، فلا تنفعه العظات والنصائح .

(وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر) . قال المادويون أو الدهريون عبر بما شئت ، قالوا : ان الانسان خليط من أشياء مادية تجمعت من هنا وهناك وتفاعلت ، فإذا مات فإلى فناء ولا شيء بعد الموت تماماً كالنبات والحشرات ، وما نراه في الانسان من إدراك وإحساس فهو من افراز الجسم ووليد الظروف والملايسات أي ان عقل الانسان وعاطفته من الأعراض الثانوية التي لا اصالة لها ولا استقلال .

(وما لهم بذلك من علم ان هم الا يظنون) أي ان قولهم هذا دعوى بلا دليل . بل قام الدليل على فسادها وبطلانها لأن الذي يتحكم بالمادة ويخصمها لمصلحتها ، ويحللها في مصانعه ويعرف الكثير عنها ولا تعرف هي شيئاً عنه ، ان هذا الانسان العجيب لا بد أن يكون أعظم من المادة وأرفع منها مستوى . وسبق الكلام عن ذلك مراراً ، منها عند تفسير الآية ٧٨ من سورة النحل ج ٤ ص ٥٣٦ .

(وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حججهم إلا أن قالوا ائتوا بآياتنا ان كنتم صادقين) . وهذا تماماً كقول من قال : أنا لا أصدق أن شجرة التفاح تثمر في الصيف إلا إذا رأيتها تحمل الثمر في الشتاء ، وان هذا الطفل إذا كبر

سورة الجاثية

فبت لحية الا إذا رأيتها الآن في وجهه ذاهلاً ان لكل شيء أجلاً ، وان لكل أجل كتاباً لا يتقدم ولا يتأخر . وتقدم مثله في الآية ٣٦ من سورة الدخان : (قل الله يجيبكم ثم يجيبكم ثم يجمعكم الى يوم القيامة لا ريب فيه) . إذا كان الله هو الذي أحيا الانسان من قبل ولم يكن شيئاً مذكوراً ، وهو الذي يجيبه فما الذي يمنعه من إحيائه ثانية ؟ . (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ان النشأة الثانية أهون وأيسر من النشأة الأولى . وتقدم في العديد من الآيات ، منها الآية ٢٨ من سورة البقرة و ٦٦ من سورة الحج .

كل أمة تدعى الى كتابها الآية ٢٧ - ٣١ :

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْحَرِقُ
 الْمُبْطِلُونَ * وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ
 تُجْرَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا
 نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
 فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ * وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا
 أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ *

اللغة :

جاثية باركة على الراكب . نستسخ نستكب أي نجعل الملائكة تكتب .

الإعراب :

يوم متعلق بيخسر المبتلون . ويومئذ بدل من يوم . اليوم تجزون أي يقال لهم :
 اليوم تجزون . أفلم تكن آياتي أي يقال لهم : أفلم تكن الخ .

المعنى :

(وفقه ملك السموات والأرض) . يشير سبحانه بهذا إلى قدرته على الإحياء بعد الموت ، لأن من خلق السموات والأرض ولم يميّ خلقهم قادر ، ولا ريب ، على أن يحيي الموتى (ويوم تقوم الساعة يومئذ يحشر البطولون) لأن مأواهم النار في هذا اليوم ، وما لهم من ناصرين (وترى كل أمة جاثية) . يحشر سبحانه الناس يوم القيامة باركين على الركب ينتظرون الحساب والجزاء ، وغير بعيد أن يكون هذا كناية عن هول المطلع وروعة الفرع .

(كل أمة تدعى الى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون) . المراد بالكتاب هنا صحيفة الأعمال ، والمعنى ان كل أمة ، وكل امسرى مجزي بما أسلف ، وقادم على ما قدم ، وفي نهج البلاغة : « اذا هلك المرء قال الناس : ما ترك ، وقالت الملائكة ما قدم . » (هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون) . يقال غداً للهجرين : هذا ما كتبناه عنكم ، انه صورة طبق الأصل عن أعمالكم لا زيادة فيه ولا نقصان ، لأن الله قد أمر ملائكة الحفظ والصدق أن تسجل أفعالكم ، وتحفظ عليكم عدد أنفسكم التي قضيتوها في المعصية ولا تسركم من الكنية ظلمة ، ولا يكنكم منهم حجاب : « ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً - ٤٩ الكهف ، ج ٥ ص ١٣٥ .

(فأما الذين آمنوا و عملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته ذلك هو الفوز المبين) . سلكوا طريق الأمان . فقادهم الى رحمة الله ورضوانه . وفي نهج البلاغة لن يفوز بالخير إلا عامله ، ولا يخزي جزاء الشر إلا فاعله (وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوماً مجرمين) ؟ . يقول سبحانه غداً للعتاة المشردين تقریباً وتوبيخاً : سمعتم صوت الحق فلم تستجيبوا له ، ورأيتم الواضحات من دلائله فأعرضتم عنها عناداً واستكباراً ، واسترحتم الى الفساد والضلال ، فأنتم اليوم من الخاسرين .

سورة الجاثية

اليوم نساكم الآية ٣٢ - ٣٧ :

وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا
السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّبِعِينَ* وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا
عَمَلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ* وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنفَسَاكُمْ كَمَا
نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ* ذَلِكُمْ
بِأَنَّكُمْ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا وَغَرَّبْتُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ
مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ* فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ
رَبِّ الْعَالَمِينَ* وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ*

اللغة :

حاق بهم أحاط أو حل بهم . نساكم تركم ونهملكم . لا يُستعَبون لا يطلب
منهم العتي والاعتذار . والمراد بالكبرياء هنا السلطان القاهر .

المعنى :

(وإذا قيل ان وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلم ما ندري ما الساعة
إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين) . ما زال الحديث عن المجرمين ، وقوله
تعالى : « والساعة لا ريب فيها » بيان وتفسير لوعده الله ، والمعنى ان المجرمين
كانوا إذا قال لهم المؤمنون : ان البعث لحق ، والحساب والجزاء حق قالوا :
لسنا على يقين من البعث ، ولا نعرف عنه شيئاً سوى الظن ، فأتونا بما يدل عليه .

وتسأل : ان الله سبحانه حكى عنهم في الآية ٢٤ من هذه السورة أنهم نفوا البعث بلسان الجزم كما يدل قولهم : « ما هي إلا حياتنا الدنيا » ثم حكى عنهم هنا أنهم يظنون ظناً وما هم بمستيقنين أي أنهم لا يجزمون في أمر البعث سلباً ولا إيجاباً ، فكيف تجمع بين الآيتين ؟ .

قال الرازي : يغلب على الظن أنهم كانوا فريقين : فريقاً كان جازماً بنفي البعث ، وآخر كان شاكاً فيه .. أما نحن فيغلب على ظننا أنهم فريق واحد ، وان معنى الآيتين واحد أيضاً ، وهو أنهم لا يؤمنون بالبعث لأنه لا دليل بزعمهم يوجب اليقين به ، وإنما هو غيب في غيب .

(وبدا لهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون) . زرعو في الدنيا الجرائم والآثام ، فحصدوها وجنوا ثمارها في الآخرة ، وسخروا من جهنم وعذابها فكانوا لها حطباً (وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ومآواكم النار وما لكم من ناصرين) جحدوا يوم القيامة وسخروا منه ومن آمن به ، فأهلهم الله في ذلك ولم يشملهم برحمته ، بل أذاقهم عذاب ذلك اليوم ، وأراهم سبحانه من قدرته وسطوته فيه ما كانوا به يمترون . وتقدم مثله في الآية ٥١ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٣٦ .

(ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزواً وغرتكم الحياة الدنيا) . ذلكم إشارة الى العذاب ، والمعنى ان السبب الموجب لعذابهم هو كفرهم باليوم الآخر، وإعراضهم عن القرآن ، واستخفافهم بآياته حين يتلى عليهم ، واطمئنانهم الى الدنيا وزينتها (فالיום لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون) . ضمير منها يعود الى النار، والمعنى أنهم خالدون فيها ، ولا يطلب منهم أن يسترضوا الله بقول أو فعل، لأن الآخرة دار حساب وجزاء لا دار عمل واسترضاء .

(فله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين) . احمدا الله وحده لأنه خالق كل شيء (وله الكبرياء في السموات والأرض) . والمراد بكبريائه تعالى انه لا كبير يُخاف ويُرْجى إلا هو وحده ، وقد وصف الإمام علي (ع) العارفين بالله : وصفهم بقوله : عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم (وهو العزيز) الذي لا يقهره شيء (الحكيم) في تدبير خلقه .

الجزء السادس والعشرون

سورة الاحقاف

٣٥ آية كلها أو جلها مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أين الدليل ان كنتم صادقين الآية ١ - ٦ :

حَمَّ * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا
مُعْرِضُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا
مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ اتَّبِعِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا
أَوْ آثَارَهُ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ
اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ *
وَإِذَا نُحِشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ *

اللفظ :

أم لهم شريك أي نصيب . وأثارة من علم بقية أو شيء منه .

سورة الأحقاف

الإعراب :

من قبل هذا متعلق بمحذوف صفة لكتاب أي بكتاب منزل من قبل هذا .
أو إثارة عطف على كتاب . ومن لا يستجيب مفعول يدعو . وضمير هـ هم
يعود الى الأصنام . وعن دعائهم متعلق بغافلين ، وعبادتهم متعلق بكافرين .

المعنى :

(حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) . تقدم بالحرف الواحد في أول
سورة الجاثية وأول سورة الزمر (ما خلقنا السموات والأرض وما بينها إلا بالحق
وأجل مسمى) . الله حكيم لا يخلق شيئاً إلا بالحق ، والعبث في حقه مستحيل ،
وقد خلق الكون بما فيه لحكمة وغرض صحيح ، وقدّر لغنائه وزواله أمداً معيناً ،
وبعدّه يكون الحساب والجزاء في الدار الثانية . وتقدم مثله في الآية ٨ من سورة
الروم ج ٦ ص ١٣٢ .

(والذين كفروا عما أنزلوا معرضون) . خوف سبحانه المجرمين من يوم
القيامة وأهواله ، وأقام عليه الدلائل الواضحة ، فأبوا إلا العتو والعتاد (قل أرايتم
ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات) ؟
المراد بالشرك هنا النصيب ، والمعنى أخبروني يا عبادة الأصنام : ما الذي دعاكم
الى تأليهها وعبادتها ؟ هل خلقت شيئاً من الأرض أو في الأرض ، أو اشتركت
مع الله في خلق السموات أو بعضها أو ماذا؟ (اتوني بكتاب من قبل هذا)
القرآن كالتوراة أو الانجيل أو غيرها يقول : ان الأصنام شركاء لله في خلقه أو
شفعاء لديه أو شيء يذكر (أو إثارة من علم ان كنتم صادقين) . واذا لم يكن
لديكم دليل من النقل فهل عندكم دليل من العقل على صدق ما تقولون وصحة ما
تعبدون ؟ . وتقدم مثله في الآية ٤٠ من سورة فاطر .

الوثنية في عصر الفضاء :

وتسأل لماذا اهتم سبحانه هذا الاهتمام البالغ بالرد على عبدة الأوثان في هـله الآية وغيرها مع العلم بأن الأمر أهون وأيسر من ذلك ، فإن نفي الألوهية عن الأصنام بمكان من البداة والوضوح تماماً كنفى البصر عن الأعمى ، والظلمة عن النور ٢ .

الجواب : كان تقديس الأصنام وعبادتها جزءاً لا يتجزأ من حياة الناس منذ عهد نوح الى عهد الرسول الأعظم (ص) ، وبينها آلاف السنين .. وحتى في عصرنا هذا، عصر الفضاء، تنتشر الوثنية في شرق الأرض وغربها .. وهـل هذه التماثيل القائمة الآن في المعابد وعلى مفارق الطرق ورؤوس الجبال ، وهذه الرسوم على الجدران وفي المفكرات ، وهناك ، والتي تحمكي الآلهة بزعم الزاعمين ، هل تقديس تلك التماثيل وهذه الرسوم إلا ضرب من الوثنية وعبادة الأصنام ؟ .. وهنا يكمن السر لاهتمام الاسلام والقرآن في الرد على عبدة الأوثان ، وتجلى عظمة محمد (ص) في تكريم الانسان وتزويجه عن عبادة ما صنعت يده ، قال الشاعر :

بكت على الانسان ينحت صخرة ويعبدها للضع يوماً أو الضراً
وكفاه اولى بالعبادة لو درى هـما نحتا هذه الصخور كما يدري

(ومن أصل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له الى يوم القيامة) . المراد بقوله : الى يوم القيامة ان الأصنام لا تجيب أبداً ، ولا يمكن أن تجيب ، والمعنى لا أحد أكثر جهلاً وضلالاً من الذي يعبد ما لا يسمع نادياً، ولا يجيب داخياً (وهم عن دعائهم غافلون) . ضمير « هم » وواو « غافلون » يعودان الى الأصنام ، وضمير دعائهم يعود الى المشركين ، والمعنى ان المشركين يعبدون الأصنام ، ولكن الأصنام في غفلة عنهم ولا يشعرون بوجودهم (واذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) . وأيضاً يوم القيامة عندما يحشر الله الناس للحساب والجزاء تبرا أكلة المشركين منهم ، ويكفرون بهم وعبادتهم . انظر تفسير الآية ٢٨ من سورة يونس ج ٤ ص ١٥٢ .

سورة الأحقاف

أم يقولون افتراه الآية ٧ - ١٢ :

وَإِذَا تُلِيٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِّنْ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفَعَّلُ بِي وَلَا بِيَكُمُ إِنِ اتَّبَعْتُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِن عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَأَمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكَارٌ قَدِيمٌ * وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّنَذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ *

الغفة .:

فلا تملكون لي فلا تغفون عني . تفيضون فيه تتكلمون فيه . والبدع من الأشياء ما لا مثل له .

الإعراب :

بينات حال من آياتنا . وكفروا للحق اللام للتعديفة والمجرور متعلق بقال

الجزء السادس والعشرون

لا بكفروا مثل قال له . أم يقولون « أم » للاستفهام . كفى به شهيداً الباء زائدة والضمير فاعل أي كفى الله شهيداً؛ وشهيداً تمييز . بيني وبينكم بمنزلة الكلمة الواحدة أي بيننا . وما أدري « ما » نافية . ما يفعل بي « ما » مبتدأ والخبر يفعل . ومن قبله متعلق بمحذوف خبراً لكتاب موسى أي وكتاب موسى كائن من قبله . وإماماً حال من الضمير في كائن . ولساناً حال من الضمير في مصدق . والمصدر من لينذر متعلق بمصدق . وبشرى عطف على المصدر المنسبك أي للأنذار والتبشير .

المعنى :

(وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين) . ضمير عليهم يعود الى مشركي العرب ، والمراد بآياتنا وبالحق - هنا القرآن ، وللحق متعلق بقال ، ومعنى بينات ان آيات القرآن واضحة لا غموض فيها ولا تعقيد ، وبالرغم من وضوح القرآن وظهور الدلائل على أنه حق وصدق فقد وصفه المفترون الطغاة بالسحر المبين ، لا لشيء إلا لأنه جعلهم وسائر الناس بمنزلة سواه . وتقدم هذا في العديد من الآيات .

(أم يقولون افتراه قل ان افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً) . أيزعم المشركون يا محمد ان هذا القرآن افتراه منك واختلاق ؟ فقل لهم : كيف أكذب على الله وأنا أشد الناس خوفاً منه ؟ وهل تغنون عني شيئاً من غضب الله وعذابه إن كذبت عليه وافترت ؟ وإنما قال لهم هذا اعتماداً على ما يعرفونه في الرسول الأعظم (ص) من رجاحة العقل وكراهية الكذب وغيره من رذائل الأخلاق . (هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيداً بيني وبينكم) . ان الله سبحانه لا تخفى عليه خافية من أقوالكم وأفعالكم ، وأنتم محاسبون عليها ، وهو تعالى بما يعلمه مني ومنكم يشهد لي بالصدق والأمانة ، وعليكم بالكذب والخيانة (وهو الغفور الرحيم) يغفر لكم ويشملكم برحمته ان تبتم وأنتم .

(قل ما كنت بدعاً من الرسل) . لست بأول رسول يبلغ العباد رسالات

سورة الأحقاف

ربه ، فقد سبقني الكثير من الأنبياء والمرسلين (وما أدري ما يفعل بي ولا بكم). النبي (ص) يعلم حاله وحال المشركين في الآخرة لأن الله أخبره بذلك كما في العديد من الآيات ، بالإضافة الى ان هذا العلم من لوازم النبوة ووظائفها ، وقد تواتر في الحديث ان النبي (ص) بشر أكثر من واحد بالجنة ، وعليه يكون المعنى ان النبي لا يعلم ما يحدث له في هذه الحياة ؟. وبأي شيء يمتحنه الله ويتليسه ؟ وأيضاً هو لا يعلم ما يحدث للمشركين ؟ هل ينتقم منهم في هذه الدار ، أو يؤخر عذابهم الى يوم يعثون ؟.

(إن أتبع إلا ما يوحى إليّ وما أنا إلا نذير مبين) . وليس من شأن النذير أن يعلم الغيب ، وإنما هو يبلغ عن الله ما يوحى اليه تعالى بما يحدث له وللمشركين في هذه الحياة . وتجدر الاشارة الى ان هذا كان قبل نزول الآيات الناطقة بأن العاقبة لدين الله ورسوله ولو كره المشركون ، أو هو أسلوب من أساليب الدعوة الى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة .

(قل أرأيتم ان كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني اسرائيل على مثله فأمن واستكبرتم ان الله لا يهدي القوم الظالمين) . السورة التي نفسرها مكية ما عدا هذه الآية ، فإنها نزلت في عبدالله بن سلام ، حيث أسلم في المدينة، وكان عالماً كبيراً من علماء بني اسرائيل ، هذا ما جاء في أكثر التفسير ، والمعنى قل يا محمد للذين زعموا ان القرآن سحرٌ مفترى، قل لهم : أخبروني عن حالكم عند الله ان ثبت ان القرآن حق وصدق ، وآمن به عالم من بني اسرائيل كعبدالله ابن سلام الذي يدرك أسرار الوحي ويشهد بأن تعاليم القرآن تماماً مثل تعاليم التوراة التي أنزلها الله على موسى ، ماذا يكون حالكم إذا بقيتم على ضلالكم وعنادكم ؟. أنظلمون أنفسكم مختارين وتعرضونها لنقمة الله وعذابه ؟.

(وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا اليه) . كان أكثر للذين استجابوا لدعوة الرسول (ص) في بداية الدعوة - من المستضعفين ، فانخذ الكبار الطغاة من ذلك سبباً للطعن برسالة الرسول لأن الحق يزعمهم يُعرف بالرجال المترفين ، ولا يُعرف الرجال بالحق ، فكل ما يفعله المترفون حق ، وكل ما يفعله غيرهم باطل .. ولكن من صارع الحق صرعه . ولذا لم تخص الأيام حتى

الجزء السادس والعشرون

احتل العبد الحبشي بلال ظهر الكعبة ينادي لا إله إلا الله محمد رسول الله، وحطم الرسول الأعظم (ص) أوثان قريش ووضعها تحت قدميه ، وهو يقول : « جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً » . وفي تفسير الرازي ان أمة لعمر أسلمت ، وكان يضربها حتى يفتّر ، فقال الكفار : لو كان الاسلام خيراً ما سبقتنا اليه أمة عمر .. ولكن عمر أسلم بعد ذلك ، وحارب الروم والفرس على الاسلام .

(وإذ لم يهتدوا به فيقولون هذا افك قديم) . ضمير لم يهتدوا ويقولون يعود الى كفار قريش ، وضمير به الى القرآن ، ووصفه الطغاة بالقديم لأن فيه بزعمهم خرافات وأساطير أكل الدهر عليها وشرب .. قالوا هذا لا لشيء إلا لأنهم لا يؤمنون إلا بمصالحهم ومكاسبهم ، والقرآن ينكرها ويحاربها .

(ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين) . القرآن كالتوراة التي نزلت على موسى ، كل منها إمام يهدي الى الحق ورحمة لمن آمن به وعمل بموجبه ، وقد بشرت التوراة بمحمد: «الذي يمدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر - ١٥٧ الأعراف » . وأيضاً القرآن مصدق بهذه التوراة ، وينطق بلسانكم أيها العرب وينذر من أساء بالعذاب ، ويبشر من أحسن بالثواب فكيف تقولون تارة : انه سحر، وحينئذ: خرافات واساطير ، ولا تقولون ذلك عن التوراة؟

وحله وفصاله ثلاثون شهراً الآية ١٣ - ١٦ :

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ* أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ*
وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ
وَفَصَّالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ

سورة الأحقاف

أَوْزَعِنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّْ وَأَنْ أَعْمَلَ
صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ *
أُولَئِكَ الَّذِينَ تَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ
فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَّ الصَّدَقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ *

اللغة :

فصاله فطامه . وبلغ أشده صار بالغاً مدركاً . أوزعني ألهمني . وأصلح لي
في ذريتي اجعل لي خلفاً صالحاً .

الإعراب :

خالدين حال من ضمير أصحاب . وجزاء نصب على المصدر أي يجوزون جزاء .
وإحساناً نصب على المصدر أي ان يحسن إحساناً . وكرهاً صفة لمفعول مطلق
مخدوف أي حملاً كرهاً أو حال أي كارهة . والمصدر من ان أشكر مفعول أوزعني .
وصالحاً صفة لمخدوف أي عملاً صالحاً . وعد الصدق منصوب على المصدر أي
وعد الله وعد الصدق .

المعنى :

(ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) .
في الآية ١٠٣ من سورة الأنبياء وصف سبحانه حال أهل الجنة بقوله : « لا يحزنهم
الفرع الأكبر وتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون » . وفي الآية التي
نحن بصدها قال سبحانه : ان هؤلاء هم الذين التزموا في الحياة الدنيا بدين الله

الجزء السادس والعشرون

وشريعته عقيدة وقولاً وعملاً ، وهذا هو المراد من الاستقامة . وذُكرت هذه الجملة بالحرف في الآية ٣٠ من سورة فصلت ، وتكلمنا حولها مفصلاً .

(أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون) . أولئك إشارة الى الذين آمنوا واستقاموا ، وقوله تعالى بما كانوا يعملون توضيح وتأكيـد بأنه لا إيمان ولا استقامة بلا عمل .

(ووصينا الانسان بوالديه إحساناً حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً) . أي انها قاست الكثير في حمله ووضعته وحضانه أيضاً . وفي بعض الروايات ان حتى الأم أحق وأوجب من حق الأب لأنها حملت ولدها حيث لا يحمله أحد ، ووَاقَتَهُ بالسمع والبصر وجميع الجوارح مسرورةً مستبشرة ، ورضيت بأن تجوع وبشبع ، وتظماً ويُرُوى ، وتعمرى ويكتسى . فليكن الشكر لها والبر بها على قدر ذلك .. وكان الولد من قبل يرى ان من واجبه السمع والطاعة لوالديه ، أما الآن فيعتمد ان عليهما الخضوع لأمره دون قيد أو شرط . وتقدم الأمر بالبر بالوالدين في الآية ٨٣ من سورة البقرة والآية ٣٥ من سورة النساء والآية ١٥١ من سورة الانعام والآية ٢٣ من سورة الإسراء .

(وحمله وفصاله ثلاثون شهراً) . وإذا عطفنا على هذه الآية قوله تعالى : « وفصاله في عامين - ١٤ لقمان » اذا فعلنا ذلك تبين معنا ان أقل الحمل ستة أشهر ، لأنه إذا أسقطنا عامي الرضاع من الثلاثين شهراً تبقى ستة أشهر لمدة أقل الحمل، ولقد أقر الطب الحديث هذه النظرية. وقال الشيخ المراغي المصري في تفسيره:

« أول من استنبط هذا الحكم علي كرم الله وجهه .. وروى محمد بن اسحاق صاحب السيرة ان رجلاً تزوج من امرأة ، فولدت له لثام ستة أشهر ، فشكا ذلك الى عثمان ، فبعث اليها ، ولما جاءت أمر برجمها ، فبلغ ذلك علياً فأناه وقال له : أما تقرأ القرآن ؟ قال عثمان : بلى . قال علي : أما سمعت قوله تعالى : « وحمله وفصاله ثلاثون شهراً » وقوله « حولين كاملين » . فلم يبق بعد الحولين إلا ستة أشهر ، قال عثمان : والله ما فطنت لهذا ، علي بالمرأة . فوجدوها قد فرغ منها . قال معمر بن عبدالله : فوالله ما الغراب بالغراب ولا البيضة بالبيضة أشبه من هذا الحمل بأبيه ، ولما رآه أبوه قال : ابني والله لا أشك فيه . »

سورة الأحقاف

(حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة) . متى بلغ الغلام مبلغ الرجال بالاحتلام أو بالسن ، وكان عاقلاً في تصرفاته كان له ما للبالغين الراشدين ، وعليه ما عليهم من التكاليف الشرعية . ولكن جماعة من المفسرين قالوا : ان هذه الآية تشير الى موضوع آخر ، وهو نضج الانسان وكمال عقله وجسمه بدليل قوله تعالى : « وبلغ أربعين سنة » لأن هذا النضج يبدأ في الغالب بسن الثلاثين ، ويستمر في النمو حتى الأربعين حيث يبلغ الغاية في طاقاته ومؤهلاته .

ومها يكن فإن السن والمؤهلات لا توجب الوعي وأصالة الرأي إذا لم يمر الانسان بالكثير من التجارب .. وغير بعيد أن يكون ذكر الأربعين سنة في الآية للإشارة الى ان الانسان في الغالب يمر بعد بلوغ هذه السن بتجارب نافعة . وقال المفكرون وأهل السير : ان الله ما بعث نبياً إلا بعد الأربعين من عمره سوى عيسى ويحيى (قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً ترضاه) . العاقل يطلب من الله سبحانه التوفيق والعون على تأدية الشكر له تعالى بالطاعة والانقياد ، وأعظم النعم كلها الهداية الى الحق والعمل بموجبه ، أما وجود الانسان من حيث هو فما هو بنعمة عليه ولا على غيره إذا لم يكن وسيلة للعمل الصالح . وجاءت هذه الآية بالحرف في سورة النمل الآية ١٩ ج ٦ ص ١٣ .

(وأصلح لي في ذريتي) . الأبناء عبء ثقيل على الآباء ، بل كارثة بتربيتهم ومطالبهم وهمومهم .. ولكن الأب المسكين يرى رغبته وسعادته في هذه الكارثة إذا منّ الله عليه بذرية صالحة ، وإلا تراكمت المصائب والكوارث (اني تبت اليك واني من المسلمين) . وفيه إيماء الى ان الله لا يتقبل من مذنب ولا يستجيب لدعائه إلا إذا تاب من ذنوبه ، واستقام في أقواله وأفعاله (أولئك نتقبل عنهم أحسن ما عملوا) عن هنا بمعنى « من » مثلها في قوله تعالى : « ان الله هو يقبل التوبة عن عباده - ١٠٥ التوبة » . والمراد بأحسن ما عملوا غير السيئات ، أما

(١) قال الشافعية والحنابلة : يتحقق البلوغ بـ ١٥ سنة في الفلام والجارية . وقال المالكية : ١٧ فيهما . وقال الحنفية : ١٨ في الفلام و ١٧ في الجارية . وقال الامامية : ١٥ فيه و ٩ فيها .

الجزء السادس والعشرون

هي فيعفو الله عنها كما قال : (ونتجاوز عن سيئاتهم) لأنهم تابوا وأخلصوا (في أصحاب الجنة) أي معهم وفي عدادهم (وعود الصدق الذي كانوا يوعدون) بقبول الأعمال والتجاوز عن السيئات وبدخول الجنة ، ووعده تعالى الصدق ، وقوله الحق .

قال لوالديه أف لكما ١٧ - ٢٠ :

وَالَّذِي قَالَ لِيُؤْتِنَا أَفٌ لَكُمْ أَتَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ
مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَفِihanِ اللَّهِ وَيَلْكَ آمِنٌ إِنَّ وَعَدَ اللَّهُ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا
هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ
قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ * وَلِكُلِّ
دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوقِيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * وَيَوْمَ يُعْرَضُ
الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا
فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ
الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ *

الذقة :

أف كلمة تدل على التضجر . وملك الهلاك لك . وأساطير الأولين أباطيلهم .
والمراد بالقول هنا كلمة العذاب . أذهبت طيباتكم في حياتكم الدنيا استوفيت نصيبكم
من الطيبات في الحياة الدنيا .

سورة الأحقاف

الإعراب :

والذي مبتدأ والمراد به الجنس لا شخص معين، وأولئك الذين حق خبره . أف لكما أف اسم فعل ولكما متعلق به . والمصدر من ان أخرج مجرور بباء محذوفة . ويليك مفعول لفعل محذوف أي أزمك الله الويل . وليوفيهم متعلق بمحذوف أي بعثاهم ليوفيهم . وجملة أذهبتم مفعول لقول محذوف أي يقال لهم أذهبتم الخ .

المعنى :

(والذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني ان أخرج وقد خلت القرون من قبلي)؟ من هو هذا الولد الذي يتحدث عنه القرآن ، ويقول : انه كافر عاقّ بوالديه؟ الجواب : ان الله لم يذكر شخصاً بالذات ، وظاهر الآية يدل على ان المراد به كل ولد كفر باليوم الآخر ، وله أبوان مؤمنان قد اجتهدا في نصحه وهدايته وخوفاه من غضب الله وعذابه ، فقال لهما ساخطاً متبرماً : بعداً لكما كيف يخرج الانسان من قبره ، وقد أصبح تراباً وبياباً ؟ فهل حدث ذلك لغيري في عصر من العصور حتى يحدث لي ؟.

وتصدق هذه الآية على الكثير من شباب هذا العصر حتى كأنها نزلت فيهم .. ولو أنهم سألوا وناقشوا بقصد المعرفة والاهتداء الى الحقيقة لوجب علينا أن نرحب بهم وبأسئلتهم ونقاشهم ، ونبذل جهد المستطیع لاقتناعهم عملاً بقوله تعالى : « لتبيننه للناس ولا تكتمونه - ١٨٧ آل عمران » وإيماناً منهم بأنهم أحوج الناس للبيان والهداية .

(وهما يستغيثان الله ويليك آمن ان وعد الله حق) . استغاثا بالله من كفر وليدهما ، ودعوا عليه بالهلاك ، وأكدوا له ان البعث حق . وفي الغالب يكون دعاء الوالدين على الولد أشبه باللغو في الايمان ، ولكن كلمة يستغيثان الله توميء الى عمق الحرقه واللوعة ، وشدة الألم والأسف لكفر الولد العاق وتمرده ، ومع هذا أصر على الضلال (فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين) . أجاب على شفقة والديه ونصحهما بقوله : ان كلامكما هذا لا يعبر عن شيء سوى السخف والأباطيل ..

وهكذا ينظر الكثير من أبناء هذا الجيل الى الآباء والأمهات .. والغريب ان أحدهم لو سمع من شاب مثله ما سمعه من أبويه لما وقف منه هذا الموقف الساخر .
 (أولئك الذين حق عليهم القول في أم قد خلت من قبلهم من الجن والانس).
 اولئك اشارة الى كل من عاند الحق وأعرض عن دعوة المخلصين . وحق عليهم القول أي كلمة العذاب .. وهذه هي سنة الله في الأمم الماضية والحاضرة أيضاً ، سواء في ذلك الانس والجن (انهم كانوا خاسرين) . لأنهم نكصوا عن دعوة الحق ، واستنشوا الناصح الأمين (ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون) . تتفاوت مراتب الناس يوم القيامة بحسب أعمالهم في الدنيا، وأوضح تفسير لهذه الآية قوله تعالى : « يوم تجرد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء - ٣٠ آل عمران » .

(ويوم يعرض الذين كفروا على النار) أي يعذبون بها وتقول لهم ملائكة العذاب : (أذهبتم طياتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها) . جمعتم المال وكترتم منه المسالين بالسلب والنهب ، وشيدتم المصانع وناطحات السحاب على حساب المستضعفين ، وتقلبتم في اللذات والشهوات ، وقد استوفيتم بذلك حظوظكم بكاملها ، ولم تدخروا شيئاً ليومكم هذا (فالיום تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون) . أعرضتم عن الحق علواً واستكباراً ، وملأتم الأرض ظلماً وفساداً ، فدنقوا الآن مرارة البغي ، كما ذقتم حلاوته بالأمس .

وفي تفسير الشيخ المراغي ان رسول الله (ص) كان إذا سافر آخر عهده من أهله بفاطمة ، وأول من يدخل عليه من أهله فاطمة متى عاد من سفره . وقدم من بعض الغزوات وتوجه الى بيتها كعادته ولما أراد الدخول على ابنته فاطمة رأى على بابها ستاراً من شعر غليظ ، ورأى على الحسن والحسين سوارين من فضة ، فرجع ولم يدخل .. فلما رأت ذلك فاطمة ظنت أنه لم يدخل من أجل ما رأى ، فهتكت السر ، وأرسلت السوارين الى أبيها : فأعطاهما لبعض المعوزين ، وقال : ان هؤلاء أهل بيتي - يشير الى فاطمة ومن في بيتها - ولا أحب أن يأكلوا طياتهم في حياتهم الدنيا .

وَأذْكُرْ آخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ
 يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ
 عَظِيمٍ * قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّ عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ
 مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا أَعْلِمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي
 أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ * فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أُوذِيِّتَيْهِمْ قَالُوا هَذَا
 عَارِضٌ مُنْظَرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ *
 تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِينُهُمْ كَذَلِكَ
 نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ * وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا
 لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا
 أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا
 بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَفْنَا الْآيَاتِ
 لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً
 بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ *

اللغة :

في القاموس المحيط : الأحقاف جمع حقف بكسر الحاء ، وهو العوج من

الجزء السادس والعشرون

الرمل، وفي مجمع البحرين للطريحي ان عاداً كانت بين جبال من بلاد اليمن . ومن بين يديه ومن خلفه أي من قبله ومن بعده . لتأفكنا لصرفنا . والعارض هو السحاب الذي يعرض في أفق السماء . وحق بهم حل أو نزل بهم . وصرفنا الآيات جملناها أنواعاً .

الإعراب :

ان لا تعبدوا «ان» بمعنى أي مفسرة لأنذر قومه . والمصدر من لتأفكنا متعلق بجنتنا . والهاء في رأوه تعود الى ما تعدنا . وعارضاً حال من مفعول رأوه لأن رأى هنا بصرية تعمل في مفعول واحد . وريح خبر مبتدأ محذوف أي هو ريح . كذلك نجزي الكاف بمعنى مثل قائمة مقام المفعول المطلق أي مثل ذلك الجزاء نجزي . مكناهم فيها ان « ما » بمعنى الذي و « ان » نافية أي مكنا عاداً من المال والقوة ما لم نكنكم فيه يا قريش . وآلهة مفعول ثانٍ لاتخذوا ، والمفعول الأول محذوف أي اتخذوهم . وقرباناً مفعول من أجله أي اتخذوهم آلهة ليقربوهم الى الله مثل قوله تعالى حكاية عنهم : « ما نعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى - ٣ الزمر » .

المضى :

ذكر سبحانه قصة هود مع قومه عاد في سورة الأعراف الآية ٦٥ - ٧٢ ج ٣ ص ٣٤٧ وأيضاً في سورة هود الآية ٥٠ - ٦٠ ج ٤ ص ٢٣٨ وأيضاً في سورة الشعراء الآية ١٢٣ - ١٤٠ ج ٥ ص ٥٠٨ الى غير ذلك من الآيات السابقة واللاحقة . ولذا نوجز هنا ما أمكن اعتماداً على ما سبق .

(واذكر أخا عاد اذ أنذر قومه بالأحقاف) . اذكر يا محمد لقومك قصة هود مع قومه لعلهم يتعظون ويعتبرون ، وقد كانوا عرباً مثل قومك ، وأكثر منهم قوة ومالاً ، وكانت ديارهم قريبة من بلد قومك لأنهم سكنوا الأحقاف ، وهي من أرض اليمن المتصلة بالحجاز - كما قيل - (وقد خلت النذر من بين

سورة الأحقاف

يديه ومن خلفه) . المراد بالنذر الرسل ، وضمير يديه وخلفه يعود الى هود ، والمعنى اذكر يا محمد لقومك أيضاً ان هوداً لم يكن أول المرسلين ، ولا هو آخرهم ، بل أرسل الله كثيرين من قبل هود ومن بعده ، وكان ينذر قومه بهذا النداء الذي جاء على لسان كل نبي : (الا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) ان بقيتم على ما أنتم عليه من الشرك والضلال .

(قالوا أجبنا لتأفكنا عن آهتنا فآتتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين) . أتريدنا يا هود أن نترك عبادة الأصنام ، ونعبد إلهاً واحداً .. ان هذا شيء عجاب ! . وتهددنا بعذاب عظيم ؟ عجل به ان كان تهديدك حقاً وصدقاً (قال إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به اليكم ولكني أراكم قوماً تجهلون) . أمرني ربي أن انذركم بالعذاب ، فأطعت وأنفرت ، أما متى يقع العذاب ؟ وما هو نوعه ولونه فعلمه عند الله ، ولا أعلم من ذلك شيئاً ، ولكني أعلم علم اليقين انكم في غمرة الجهل والضلال (فلما رأوه عارضاً مستقبلاً أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا) . الهاء في رأوه للعذاب ، وعارضاً أي عرض في الأفق، ومستقبلاً أوديتهم متوجهاً إليها ، والمعنى ظنوا العذاب سحاباً من الغيث ، ففرحوا به ، وبشر بعضهم بعضاً بالخصب والرخاء .

فقال لهم هود أو لسان الحال والواقع : (بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شيء بأمر ربها) . رأوا سحاباً في الأفق ، ظاهره الرحمة وباطنه العذاب ، فاندفعوا بالظاهر ، وذهلوا عما وراءه من المخبات والمفاجآت ، فأخذهم العذاب ، وهم في سكرة من كواذب الأمانى والآمال .. وهله نهاية من تمادى في غوايته ، وانقاد الى رغبته (فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم) التي أصبحت قبوراً لأجسامهم . والعاقل من انظر بهم وبأثامهم ، وخاف بطش الله عند النعمة والرخاء ، ورجا رحمته عند الشدة والضراء (كذلك نجزي المجرمين) في الدنيا والآخرة ، أو في الآخرة فقط على ما توجه الحكمة البالغة .

(ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه) . أهلكنا عاداً لما طغوا وبغوا ، وقد كنا أعطيناهم من القوة والمال ما لم نعطكم مثله يا عتاة قريش .. ألا تخشون أن يصيبكم مثل ما أصاب عاداً وغيرهم من الأمم الماضية ؟ (وجعلنا لهم سمماً وأبصاراً

الجزء السادس والعشرون

وأفئدة) تماماً كما جعلنا لكم) فأغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء) لأنهم لم يتصعوا بشيء منها ، بل كانوا كالمجنون والأبكم والأصم والأعمى فما يعود الى التذكير والتحذير .. فلا يفرحكم يا أهل مكة ما يعجبكم من أسمعكم وأبصاركم وعقولكم فإنها لا تنفي عنكم من شيء اذا نزل بكم العذاب (إذ كانوا يمجدون بآيات الله وحق بهم ما كانوا به يستهزئون) . جحدوا الحق ودلائله ، وسخروا منه ومن أهله ، وأمعنوا في البغي والضلال ، فكان جزاؤهم الهلاك والدمار .

(ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون). الخطاب في حولكم لمشركي مكة ، والمراد بالقرى أهلها وهم عاد وثمود ومن جاورهم ، وصرفنا الآيات بيئنا لهم أنواعاً من الدلائل والعظات، وأنذرناهم بالأقوال والأفعال كي يتعظوا ويرتدعوا، فأبوا إلا كفوراً، فحق عليهم العذاب ودمرناهم تدميراً (فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة) . عبدوا الأصنام ليقربوهم من الله ، ويتقنوهوم من بأسه ، ولما نزل بهم العذاب لم تنن الأصنام عنهم شيئاً (بل ضلوا عنهم) أضاعوهم ولم يهتدوا الى مكانهم .. وفي هذا ما فيه من الزرأيسة والاستخفاف بهم وبأصنامهم (وذلك إفكهم وما كانوا يفترون) . ذلك إشارة الى عدم نجدة الأصنام ، وانها لا تسعف من كان يعبدها ويرجوها وقت الضيق ، والمعنى ان قول المشركين بأن الأصنام شفعاؤنا عند الله ، وتنجيننا من عذابه هو إفك واقراء .

الجن يستمعون القرآن الآية ٢٩ - ٣٢ :

وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفْرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ * قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ

سورة الأحقاف

طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ * يَا قَوْمَنَا أَدْبَعُوا دَاعِيَّ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ
مِن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَّ اللَّهِ فَلَيْسَ
بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ *

اللغة :

المراد بصرفنا هنا وجهنا . وقضى فرغ .

الإعراب :

إذ متعلقة بمحذوف أي واذكر إذ صرفنا . والماء في حضوره للقرآن . ومصداقاً
صفة لكتاب . ويغفر مجزوم بـجواب الأمر ، وهو آمنوا . ويجركم عطف على
يغفر . ومن لا يجب « من » اسم شرط ولا يجب فعل الشرط ، وجوابه فليس
بمعجز والباء زائدة إعراباً ومعجز خبر ليس ، واسمها ضمير مستتر يعود الى من .

المعنى :

(وإذ صرفنا اليك نقرأ من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا
فلا قضي ولما الى قومهم مندرين) . من وظيفة العقل ان يحكم بإمكان وجود
الشيء أو امتناعه ، فإذا حكم بإمكانه وعدم امتناعه لجأنا للتثبت من وجوده في
الخارج الى وسائل الاثبات التي تتفق وطبيعة الشيء الذي نريد اثباته ، فإن كان
من الأمور الحسية فعلينا أن نثبته بالحس والتجربة ، وان كان من الأمور العقلية
فالطريق الى التعرف على وجوده هو العقل ، وان كان من الأمور الغيبية
– غير وجود الإله – فلا طريق إلى معرفته إلا الوحي ، فإذا أنزل وجب التعمد
به .. وليس من شك ان العقل لا يأبى وجود كائنات غيبية – أي غائبة عنا

الجزء السادس والعشرون

تباين ما عرفناه وألفناه من المخلوقات ، بل نحن على يقين ان ما نجھل من الكائنات أكثر مما نعلم ، من ذلك وجود الجن ، فقد ذكرهم سبحانه في العديد من آياته ، منها قوله تعالى حكاية عنهم : « وإنا منا الصالحون ومنا دون ذلك - ١١ الجن » . وقد دفع الله بنفر من هؤلاء الصالحين الى الرسول الأعظم (ص) ، واستمعوا اليه وهو يتلو القرآن ، فقال بعضهم لبعض : اسكتوا وتدبروا معانيه ، فسكتوا وأصغوا بإمعان ، ورأوا فيه الهدى والنور فآمنوا به وبمحمد (ص) ، ولما فرغ الرسول من التلاوة سارعوا الى قومهم منفرين ومبشرين بالاسلام .

(قالوا يا قومنا انا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي الى الحق والى صراط مستقيم) . قالوا لقومهم : سمعنا كتاباً من محمد (ص) يشبه الكتاب الذي أنزله الله على موسى ، وهو مصدق لما جاء به الأنبياء من الدعوة الى الايمان بالتحديد والبعث ، وأيضاً هو يرشد الى الصواب وعمل الخير : « فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجياً يهدي الى الرشد فآمنوا به ولن نشرك بربنا أحداً ، ١-٣ الجن » . ونحن اذا لم نر الجن الذين تأثروا بالقرآن وآمنوا به فقد سمعنا ورأينا الكثير من العلماء والعقلاء تأثروا بكلمات القرآن بمجرد الاستماع اليها ، وآمنوا إيماناً لا يشوبه ريب انه من لدن حكيم عليم .

(يا قومنا اجيبوا داعي الله وآمنوا به يخفر لكم من ذنوبكم ويخرجكم من عذاب اليم) . استجيبوا الى دعوة الحق ، واتبعوا الداعي اليها يكفر عنكم سيئاتكم ويخلصكم في رحمته ، وينجكم من غضبه وعذابه (ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء) . أبدأ لا مهرب من الله إلا اليه ، ولا نجاة من عذابه إلا بالاخلاص والعمل الصالح (أولئك في ضلال مبين . أولئك اشارة الى الذين لم يستجيبوا لداعي الله .. ومن لم يستجب له فقد نكب عن طريق الحق والرشاد .

سورة الأحقاف

ليس هذا بالحق الآية ٣٣ - ٣٥ :

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَغَيِّ بِخَلْقِهِنَّ
بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُغَيِّبَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَيَوْمَ يُعْرَضُ
الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبَّنَا قَالَ فَذُوقُوا
الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا
تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ
نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ *

اللفظة :

لم يعي من الإعياء وهو العجز أي لم يعجز . والعزم الجهد والثبات . وبلاغ
كفاية .

الإعراب :

بقادر الباء زائدة إعراباً وقادر خبر ان الله الخ . وربنا الواو للقس . وبلاغ
خبر مبتدأ محذوف أي هو بلاغ أو الذي وعظم به بلاغ .

المعنى :

(أو لم يروا ان الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على
أن يغيبي الموتى بل انه على كل شيء قدير) . هذا الكون العجيب الذي دل على

الجزء السادس والعشرون

قدرة الخالق وعظمته يدل أيضاً وبطريق أولى على انه تعالى قادر على إحياء الموتى ، لأن السبب الموجب للأمرين واحد ، وهو قدرة من اذا قال للشيء كن فيكون ، قال الإمام علي (ع) : عجبت لمن أنكر النشأة الأخرى وهو يرى النشأة الأولى . وتقدم هذا المعنى في عشرات الآيات وبآني الكثير ، من ذلك قوله تعالى : « أفعمينا بالخلق الأول - ١٥ ق . فكيف نعيا بالخلق الثاني ؟ » .

(ويوم يعرض الذين كفروا على النار) أي يعذبون بها ، ويقال لهم : (أليس هذا بالحق) الذي كفرتم به من قبل ؟ (قالوا بلى وربنا) . أنكروا في الدنيا حيث يضرهم الإنكار ، وأقروا في الآخرة حيث لا ينفعهم الإقرار شيئاً (قال فدوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) بل وتسحرون من الذين آمنوا بحساب الله وعذابه ، ومثله : « ولو ترى اذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فدوقوا العذاب بما كنتم تكفرون - ٣٠ الأنعام ، ج ٣ ص ١٧٩ .

(فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل). جاء في كثير من التفسير ان اولي العزم خمسة : نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد، ولقد كان لكل واحد منهم شريعة خاصة أوجب الله العمل بها على جميع خلقه الى عهد الذي يليه من الخمسة ، فتنسخ اللاحقة الشريعة السابقة الى شريعة محمد (ص) سيد المرسلين، وخاتم النبيين، فإنها ناسخة غير منسوخة الى يوم القيامة ، أما الأنبياء الآخرون فقد كان كل واحد منهم يعمل بشريعة من تقدمه من اولي العزم .. وفي هذا روايات عن أهل بيت النبي (ص) وتومى اليه الآية ١٣ من سورة الشورى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى » حيث خص سبحانه الخمسة بالذكر دون غيرهم ، وكلمة شرع ظاهرة بالشريعة ، والخطاب في « اليك » لمحمد (ص) .

(ولا تستعجل - العذاب - لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار) . الخطاب في لا تستعجل لمحمد (ص) وضمير « لهم » وكأنهم يعود الى الذين كفروا برسائه ، والمراد بما يوعدون عذاب جهنم، والمعنى لا تستعجل العذاب يا محمد للذين كفروا فإنه نازل بهم في الآخرة لا محالة ، أما مكوثهم في

سورة الأحقاف

الدنيا وان طال فإنهم سوف يرونه لحظات حين يتزل بهم العذاب .. ومثله ومتاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد - ١٩٧ آل عمران ه . وفي نهج البلاغة :
انما الدنيا متاع أيام قلائل يزول منها ما كان كما يزول السراب ، أو كما يتقشع السحاب .

(بلاغ) أي القرآن بلاغ لرسالات الله تعالى ، وهو حجة كافية ، وموعظة شافية لمن طلب الرشد والهداية (فهل يهلك إلا القوم الفاسقون) ؟ كلا .. وإن المتقين في مقام أمين ، في جنات وعيون - ٥٢ اللخان .

سورة محمد

٣٨ آية كلها أو جلها مدنية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.

وَأَمَّا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ آيَةً ۖ - ١ - ٦ :

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ * فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبِ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَتَخْتَمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَمَا مَنَا بَعْدُ وَإِنَّمَا فِدَاءٌ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ * وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَاتِهَا لَهُمْ *

اللغة :

يطلق البال على القلب تقول : خطر بيالي أي بقلبي أو بدمعي ، ويطلق على الشأن والحال ، وهذا هو المراد هنا . انمختموهم أكثرتم فيهم القتل . الوثاق بفتح الواو وكسرهما . وهو ما يُشد به من قيد أو حبل ، وقيل : فشدوا الوثاق كناية عن الأسر .

الإعراب :

ذلك مبتدأ وبأن الذين الخ متعلق بمحذوف خبراً أي ذلك كائن بسبب اتباعهم الباطل . فضرب الرقاب مصدر منصوب نائب مناب فعل أمر محذوف ، والأصل فاضربوا الرقاب ضرباً . وكل من منأ ، وفداءً ، نائب مناب فعل محذوف ، والأصل إما تمنون منأ وإما تفادون فداءً .

المعنى :

(الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم) . صدوا تأتي بمعنى أعرضوا ، وبمعنى منعوا ، وعلى الأول يكون معنى كفروا وصدوا واحداً ، والعطف من باب التفسير ، وعلى الثاني يكون المعنى أنهم لم يؤمنوا وأيضاً منعوا الناس عن الإيمان ، وهذا هو الظاهر من دلالة اللفظ . وأضل أعمالهم أي أبطلها حتى كأنها لم تكن ، والمعنى ان من أعرض عن الاسلام ومنع الناس عنه فلا يقبل الله من عمله شيئاً ، لأن الاسلام شرط أساسي في ثواب الآخرة ، قال تعالى : وما منعهم ان تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله - ٥٤ التوبة .

(والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كثّر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم) . بعد ان قال سبحانه : انه لا يقبل من الكافرين قال : أما من يعمل من الصالحات وهو مؤمن بالله وبالقرآن الذي لا ريب فيه - أما هذا فإن الله يقبل منه ، ويصفح عن ذنوبه اذا تاب منها ، ويصلح

الجزء السادس والعشرون

شأنه في الدنيا بالتوفيق والهداية الى الخير ، وفي الآخرة بإدخاله الجنة (ذلك بأذن اللذين كفروا اتبعوا الباطل وان الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم) . ذلك اشارة الى ثواب الصالحين ، وعقاب المجرمين ، والمعنى ان للحق أهلاً، وللباطل أهلاً ، والله سبحانه يوفي كلاً منها أعمالهم انه بما يعملون خبير (كذلك يضرب الله للناس أمثالهم) . فبين للصالح ثواب أمثاله من الصالحين ليكون على يقين من صلاحه وهدايته ، وبين للمجرم عقاب المجرمين من أمثاله لعله يهتدي ويرتدع .

(فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى اذا اخنتهم فشدوا الوثاق فإما متاً بعد واما فداءً حتى تضع الحرب أوزارها) . هذه الآية من أمهات الآيات ومحكماتها ، وموضوعها هام ، وهو القتال ، لذا نبدأ بتفسير مفرداتها ، ثم نبين المعنى المحصل منها .. والمراد باللقاء هنا مواجهة أعداء الاسلام والمسلمين في جبهة الحرب والقتال . وضرب الرقاب كناية عن القتل سواء أكان بضرب الرقبة أم بغيره ، وانما خص سبحانه الرقاب بالذكر لأنها من الأعضاء الرئيسية. وأخنتهم أي أكثرتم فيهم القتل حتى ظفرت بهم وتمكنتم منهم . فشدوا الوثاق أحكموا وثاق الأسير منهم بقيد أو حبل أو سجن كيلا يفر ويعيد الكرة عليكم . فلما متاً أي أن تموتوا بالصفح على الأسير من غير عوض . وأما فداءً أن تطلقوا سراحه بعوض . وحتى تضع الحرب أوزارها أي حتى يستسلم العدو ويلقي السلاح لأن أوزار الحرب سلاحها .

ومعنى الآية بمجموعها ان أعداء دين الله اذا أصروا على الكفر ، والتخيم بهم أيها المسلمون في ساحة القتال فاقتلوهم ، ولا تأخذكم بهم رافة في دين الله ، واصعدوا لهم ، وامضوا في قتلهم وقتلهم حتى تتمكنوا منهم ، وعندئذ أحكموا أسر من بقي منهم كيلا يفلت ، ويعيد الكرة عليكم ، ومتى تم ذلك كان الخيار للنبي أو نائبه في اطلاق الأسير بفداء أو من غير فداء حسب مقتضيه المصلحة..وتجدر الاشارة الى ان معنى هذه الآية والآية ٦٧ من سورة الأنفال : « ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ، ج ٣ ص ٥٠٧ ان معنى الآيتين واحد ، وهو لا أسر إلا بعد الإنحان .

(ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليلو بعضكم ببعض) . ذلك اشارة

الى ما بينه سبحانه من قتل أعداء الله وأسره في ساحة الحرب ، والمعنى انه جل وعز لو أراد أن ينتقم من أعدائه في الدنيا من غير قتال لأهلكهم بما لديه من جنود السموات والأرض ، ولكنه تعالى أمر المؤمنين بالجهاد وابتلاهم بالكافرين لتظهر الأفعال التي يُستحق بها الثواب والعقاب .

(والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم) . ان الله يقا تل من عصاه بمن أطاعه ، وإذا قُتل المطيع فلن يذهب دمه سدى .. كيف ؟ وقد استشهد في سبيل الله ومن أجل الله .. ومن أوفى من الله لمن أخلص له وعمل من أجله ؟ وقد بين سبحانه أجر العاملين من أجله ، بينه بقوله : (فلن يضل أعمالهم) بل تعود عليهم بالخير ، وذلك بأنه تعالى (سيهديهم) الى منازلهم في الجنة تماماً كما كانوا يهتدون الى منازلهم في الدنيا (ويصلح بهم) أي شأنهم في يوم يفر المرء من أخيه وأمه وبينه (ويدخلهم الجنة عرفها لهم) أي بينها لهم بأنهارها وأثمارها ، وقصورها وحورها ، وما إلى ذلك مما تشبهه الأنفس وتلد الأعين .

ان تنصروا الله ينصركم الآية ٧ - ١٤ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ *
وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَصْلٌ أَعْمَاهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنزِلَ
اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَاهُمْ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ
عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْتَالُهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّ
اللَّهُ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ * إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ
الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ
كَفَرُوا بَتَّمَتُّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ * وَكَأَيِّن

مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ أَهْلَكَنَاهُمْ فَلَا تَصِرْ لَهُمْ *
أَقْنُ كَانَ عَلَى بَيْتِنَا مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ *

الغنة :

تصاً لهم هلاكاً لهم . والمثرى المقر .

الإعراب :

والذين كفروا مبتدأ والخبر فعل مضمر أي فأتعنناهم تصاً . وكأين بمعنى كم ،
ومحلها الرفع بالابتداء وجملة أهلكتناهم خبر . وضمير الغائب في أهلكتناهم يعود
الى أهل القرية . أفن مبتدأ وكمن خبر .

المعنى :

(يا أيها الذين آمنوا ان تصبروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) . وتثبيت الأقدام
كتابة عن الصلاة والنجاة . والآية واضحة الدلالة على ان الله سبحانه مع أهل
الحق والعدل ينصرهم ويأخذ بأيديهم ، وفي معناها كثير من الآيات ، كالأية
١٢٨ من سورة النحل ، ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، والآية ٣٨
من سورة الحج ، ان الله ينافع عن الذين آمنوا ، والآية ٤٠ منها ، ولينصرن الله
من ينصره ان الله لقوي عزيز ، والآية ٥٧ من سورة المائدة ، فإن حزب الله
هم الغالبون .

والنصر من الله سبحانه على أنواع ، منها النصر على الأعداء بالقتال وقوة
السلح، كانتصار الرسول الأعظم (ص) على حنة الكفر والظلم من قريش وغيرهم ،
ومنها النصر بطلب من السماء كالخسف والظوفان والريح العاتية ، ومنها النصر

بقوة الحججة والبرهان عند نقاش الخصم وجداله ، ومنها النصر بعلو الشأن وخلود الذكر في الدنيا، ومنها النصر في الآخرة يوم تسود وجوه وتبيض وجوه وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد - ٤٩ ابراهيم .

وإذا تبين معنا ان النصر من الله على أنواع ، وان قوله تعالى : « ان تنصروا الله ينصركم » مطلق غير مقيد بنوع من أنواع النصر ، ولا مقرون بصفة من صفاته ، إذا تبين هذا علمنا ان المراد من النصر في الآية أي نصر كان .. وليس من شك انه كائن لا محالة ، ولو في اليوم الآخر الذي لا ريب فيه ، وعليه فلا وجه للاعتراض أو السؤال : كيف وعد الله سبحانه المحقين بنصره مع ان تاريخ البشرية متخبط بأخطر المظالم والاعتداءات على الطيبين والمخلصين ؟ . وسبق الكلام عن هذا الموضوع مفصلاً عند تفسير الآية ٣٨ من سورة الحجج ج ٥ ص ٣٣١ فقرة « لا يخلو المؤمن من ناصر » .

الدولة الاسلامية :

ونشير بهذه المناسبة الى ان بعض الفئات تدعو الآن الى قيام دولة اسلامية ، وأي مسلم يخلص لله فيما يدين بأبى أن يكون للاسلام سلطان ينفذ أحكام القرآن ، وللمسلمين ما يوحد كلمتهم ويجمع قوتهم ، وينقذها من التفتت والتشتت ؟ .

ولكن نسأل : هل توجد هذه الدولة بمجرد رفع الشعارات واذاعة البيانات ، أو بتكثير العمام على رؤوس الجهلاء والدخلاء ؟ وهل من الممكن أن تنبثق عن ٧٠٠ مليون مسلم منتشرين في شرق الأرض وغربها ، ولهم قوميات متعددة ، ومذاهب سياسية مختلفة ، وفرق متباينة ، وبعضهم يخضع للدول اشتراكية ، وبعضهم للدول رأسمالية ، وآخرون لهم كيان مستقل أو شبه مستقل . وإذا تكونت هذه الدولة من المسلمين العرب أو غير العرب فهل تستطيع أن تواجه مسؤولياتها ، وتنجح في حل مشاكل المسلمين في الأقطار الأخرى ؟ ثم هل تكون هذه الدولة سنية أو شيعية أو منها ؟ وترك الجواب عن هذه التساؤلات للمخلصين من ذوي الاختصاص .

لقد عانى المسلمون الكثير من الهزائم والاذلال ، وكفى بهزيمة •
 واذلالاً ، والسبب الأول والأخير هو التمزق والتفرق، والعلاج معروف عند اجمعي
 وهو الوقوف صفاً واحداً ضد العدو المشترك الذي حددته حرب حزيران، وأبرزته
 واضحا للعيان ، فن أخلص لله وأراد النصح للاسلام والمسلمين حقاً وصدقاً فعليه
 أن يحرص جهوده كلها في العمل من أجل تعاون المسلمين على الخلاص والتحرر
 من القوى الفاسدة الداخلية والخارجية ، ومتى تمت التصفية وتحققت الحرية الكاملة
 فكّر المخلصون في دولة إسلامية أو غيرها مما فيه لله رضا ، وللمسلمين صلاح .
 وخير ما نؤيد به إشارتنا هذه قول الإمام أمير المؤمنين (ع) في نهج البلاغة :
 « ان المبتدعات المشبهات من المهلكات .. وان في سلطان الله عصمة لأمركم ،
 فأعطوه طاعتكم .. أو لينقلن الله عنكم سلطان الاسلام » . وإذا انتقل سلطان
 الاسلام عن السلف لتفرق أهوائهم وشتات كلمتهم فهل يعود البنا ونحن أكثر تفرقاً
 وشتاتاً ؟

وتسأل : أصحيح ما يقال : ان المصدر لفكرة الدولة الاسلامية هو الصهيونية
 لتربر بها دولتها الدينية العنصرية ، وتقول لمن عاب عليها ذلك : ان المسلمين
 يطلبون أيضاً بدولة دينية ؟

الجواب : ان دين اليهود عدو الحياة والانسانية ، لأن الله في عقيدتهم إله
 قَبَلِي لا يعنيه من العالم أحد سوى اسرائيل وحدها ، وان جميع الناس خلقهم الله
 عبيداً لهم كما جاء في كتاب « الكنز المرصود » للدكتور يوسف حنا نصرالله ،
 وكتاب « البقاء اليهودي » للصهيونية روز مارين .

أما الاسلام فهو دين الحياة والرحمة والانسانية جمعاء ، ولا شيء أدل على ذلك
 من الآيات والأحاديث التي أعلنت بأن الاسلام يهدي للتي هي أقوم ، وانه يرتكز
 على العقل والفضيلة ، وان دعوة الله والرسول انما تجب تليتها لأنها تدعو الى حياة
 أفضل ، ومعنى هذا ان الاسلام علماني عقلائي أي يهتم بالانسان بما هو انسان ايأ
 كان ولو يهودياً ، شريطة أن لا يعتدي على أخيه الانسان .. وأين هذا من دين
 اليهود الذين أسموا أنفسهم شعب الله الخاص ؟

(والذين كفروا فتمسأ لهم) لا يرون غير الخزي والملاك (وأضل أعمالهم)

فلا تعود عليهم بخير (ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم) . كرهوا الرسول (ص) والقرآن الذي نزل عليه لا لشيء إلا لأنه أرادهم للحق وهم له كارهون ، فكانوا من الأخرسين أعمالاً . والإضلال والإحباط بمعنى واحد ، وهو الضياع وعدم الجدوى من العمل ، وكرر سبحانه ليشير إلى أن ضياع العمل لا ينفك عن الكفر بالقرآن وكرهيته .

(أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) . كيف كذّب المشركون برسالة محمد (ص) وهم ينظرون في الأرض آثار الماضين ، ويسمعون بأن الله انتقم منهم لما كذبوا الرسل ؟ . وتقدم مثله بالحرف الواحد في العديد من الآيات (دمر الله عليهم) أهلكهم بأولادهم وأزواجهم وأمورهم (وللكافرين أمثالها) . ان حكم الله في الطغاة واحد ، فإذا دمر على الأوائل لطفناهم فهو يدمر أيضاً على الأواخر لنفس السب .

(ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وان الكافرين لا مولى لهم) . ذلك إشارة إلى التدمير والتحطيم ، والمعنى ان الله أهلك الكافرين حيث لا ناصر لهم من دون الله ولا شفيع ، أما المؤمنون فالله يتولى أمورهم ويدافع عنهم وينعم عليهم (ان الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار) . المعنى واضح ، وتقدم في كثير من الآيات (والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم) . انهم تماماً كالبهائم يأكلون ولا يفكرون في شيء ، فكان مصيرهم جهنم يصلونها وبئس القرار ، قال الإمام علي (ع) : « ما خلقت ليشغلي أكل الطيبات كالبهيمة المربوطة همها علفها ، أو المرسله شغلها تقمها - أي التقاط القمامة - نكرش من أعلافها وتلهو عما يراد بها » .

(وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم) . هذا تهديد للذين تأمروا على اغتيال الرسول الأعظم (ص) واضطروه الى الهجرة من بلده مكة الى المدينة . انظر تفسير الآية ٣٠ من سورة الانفال ج ٣ ص ٤٧٢ . وفي تفسير الطبري عن ابن عباس ان النبي (ص) لما خرج من مكة قال : أنت أحب بلاد الله الى الله ، وأنت أحب بلاد الله لي ، فلو أن المشركين لم يخرجوني لم أخرج منك ، فأعنى أعداء الله من عتا على الله في حرمه أو قتل

غير قاتله . فأنزل الله سبحانه الآية . (أفن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم) . ليس سواءً عند الله من أخذ الحق من معدنه ، وكان على بصيرة من أمره ، ومن قاس الحق والعدل بأهوائه وأغراضه ، ومع هذا يرى انه من أحسن الناس عملاً .

صفة الجنة الآية ١٥ - ١٩ :

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءُهُمْ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنفًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ * وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ * قَبَلُ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ * فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلِّبِكُمْ وِمَثْوَاكُمْ *

الفة :

آسن متغير . حم شديد الحرارة . آنفأ أي من أول وقت يقرب منا . وآتاهم

سورة محمد

تقواهم وفقهم اليها، واطرأها علاماتها ودلائلها . وذكرهم تذكرهم . متقلبكم ذهابكم ومجيئكم في أعمال الدنيا . مثواكم المراد بمثواكم مضاجعكم للنوم أو سكونكم ، وقيل : مصيركم في الآخرة .

الإعراب :

مثل الجنة مبتدأ أول وأنهار مبتدأ ثان وفيها خبره والجملة خبر الأول، وقيل: خبر مثل الجنة محذوف تقديره ما أتوه عليكم من أوصافها . ولهم فيها من كل الثمرات متعلق بمحذوف خبراً لمبتدأ محذوف أي أنواع من كل الثمرات . ومغفرة مبتدأ والخبر محذوف أي ولهم مغفرة ومن ربهم متعلق بمغفرة . كمن هو خالد في النار خبر لمبتدأ محذوف أي: أمن هو خالد في الجنة كمن هو خالد في النار . آنفاً ظرف زمان عند الزمخشري وحال عند أبي حيان الأندلسي . أي قريباً . والمصدر من أن تأتيهم بدل اشتغال من الساعة . وبغية في موضع الحال أي مباغثة أو صفة للمفعول مطلق محذوف . فأتى لهم خبر مقدم وذكرهم مبتدأ مؤخر . وإذا جاءتهم جملة معترضة ، وفي جاء ضمير مستتر يعود الى الساعة ، والتقدير فأتى لهم ذكرهم اذا جاءتهم الساعة .

المعنى :

(مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن) . المراد بمثل الجنة صفتها ، والمعنى ان الله أخبر عباده أن من أوصاف الجنة ، فيها أنهار من ماء باق على أصله وحقيقته لم يغيره شيء (وأنهار من لبن لم يتغير طعمه) ولا لونه ولا رائحته (وأنهار من خمر لذة للشاربين) تلذ في القوم ولا تنهب بالعقل (وأنهار من عسل مصفى) من الشمع وغيره (ولهم فيها من كل الثمرات) ومنها ما لا يعرفون لها نظيراً في الدنيا . وفي بعض كتب الصوفية ان المراد بالماء هنا العلم ، وباللبن العمل ، وبالخمر لذة المحبة ، وبالصل حلاوة المعرفة والقرب من الله .

الجزء السادس والعشرون

وسبق منا أكثر من مرة ان كل ما جاء في كتاب الله وجب العمل بظاهره حتى يثبت العكس من النقل أو العقل ، والعقل لا يأبى شيئاً من أوصاف الجنة التي دل عليها ظاهر الآيات فوجب الأخذ به وابقاؤه على حقيقته ودلالته .

وتسال : ان الله سبحانه ذكر في غير مكان من كتابه ان أهل الجنة يتنعمون فيها بلذة معنوية لا حسية، كحب الله لهم ، ومرضاته عنهم، وارتفاع شأنهم عنده، من ذلك قوله تعالى : « في مقعد صدق عند مليك مقتدر » آخر القمر . وقوله : « سيجعل لهم الرحمن ووداً - ٩٦ مريم » . فما هو وجه الجمع بين ما دل من الآيات على ان نعيم الجنة يكون باللذة الحسية وما دل منها على انه يكون باللذة المعنوية ؟ .

الجواب : لا مانع من الجمع بين اللذتين والعمل بالدالتين .. فأهل الجنة يتنعمون بحب الله وبعلو الشأن عنده ، وأيضاً يتنعمون بالطيبات من المآكل والمشرب . قال الملا صدرا في الأسفار : « أما الجنة فهي كما دل عليه الكتاب والسنة مطابقاً للبرهان .. فلا موت فيها ولا هرم ولا غم ولا سقم ولا دثور ولا زوال ، وهي دار المقامة والكرامة لا يمس أهلها نصب ولا لغوب ، وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ، وهم فيها خالدون ، وأهلها جيران الله وأولياؤه وأحباؤه ، وأهل كرامته ، وانهم على مراتب متفاضلة ، منهم المتنعمون بالتسبيح والتكبير ، ومنهم المتنعمون باللذات المحسوسة كأنواع المآكل والمشرب والفواكه والأرائك والخور العين واستخدام الولدان والجلوس على البارق والزرابي ولبس السندس والحريير والاستبرق ، وكل منهم إنما يتلذذ بما يشتهي ويريد على حسب ما تعلق به همنه . »

(ومغفرة من ربهم) . الذين يتنعمون بملذات الدنيا وشهواتها يحاسبون عليها حساباً عسيراً : « يحاسبون إنما نعدهم به من مال وبين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون - ٥٦ المؤمنون » . أما أهل الجنة فإنهم يتقبلون في نعيمها وهم في أمن وأمان من حساب الله وعقابه (كمن هو خالد في النار) . في الكلام حذف دل عليه السياق ، والتقدير أفمن هو خالد في الجنة كمن هو خالد في النار لا يستونون (وسقوا ماءً حميماً فقطع امعاءهم) . كيف يستونون، وأصحاب الجنة

يشربون الماء العذب واللبن والخمر وَالْعسل المصفى ، وأصحاب النار يشربون حميماً وصديداً يقلي في البطون ٩.

(ومنهم من يستمع اليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين اوتوا العلم ماذا قال آنفاً) ؟. ضمير منهم يعود إلى الناس ، ومن للتبعيض ، والبعض المقصودون هم الكافرون أو المنافقون ، والخطاب في اليك للرسول (ص) ، والذين اوتوا العلم هم علماء أهل الكتاب، والمعنى ان الذين يحضرون مجلسك يا محمد من الكافرين أو المنافقين يقولون ساخرين حين يخرجون من عندك وبعد أن استمعوا إلى كلام الله ، يقولون لمن حضر معهم من علماء أهل الكتاب : لم نفهم ماذا قال محمد ونحن في مجلسه الذي فارقتاه قريباً ، فهل فهمتم أنتم شيئاً ؟.. وهذا دينن من لا يعجبه شيء إلا ما يعبر عن نزواته وشهواته .

(اولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم) . وقوله سبحانه : اتبعوا أهواءهم: يشير إلى جواب عن سؤال مقدر، وهو لماذا طبع الله على قلوبهم ؟ فأجاب لأن الأهواء رانت على قلوبهم حتى كأن الله قد ختم عليها أو خلقهم من غير قلوب ، وبتعبير الآية ه من سورة الصف : « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم . (والذين اهتموا زادهم هدى) . طلب المؤمنون الهداية بصدق وإخلاص ، فكان الله دليلهم وكفيلهم ، وزادهم علماً بالخيرات ، وشملهم بعنايته وتوفيقه إلى ما يعود عليهم بالخير دنياً وآخرة، وهذا هو المراد بقوله تعالى : (وآتاهم تقواهم) . (فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة) . ضمير ينظرون يعود الى الذين قالوا ساخرين بالرسول الأعظم (ص) : ماذا قال آنفاً . قالوا هذا ذاهلين عن يوم القيامة الذي يأخذهم على الغرة ، ويقفون فيه أمام الله لنقاش الحساب وفصل الخطاب (فقد جاء اشراتها) الضمير للساعة ، والمراد بالاشراط هنا الدلائل والحجج القاطعة على البعث ، وقد جاءت في كتاب الله وعلى لسان محمد (ص) بشتى الأساليب : ولم تدع عنراً لمنكر .

(فأتى لهم إذا جاءتهم ذكراهم) . في الكلام تقديم وتأخير ، والأصل فاتى لهم ذكراهم إذا جاءتهم الساعة ، والمعنى لقد ذكرهم في الدنيا الرسول الأعظم فلم يتذكروا ، وحين بُعثوا ورأوا العذاب تذكروا وندموا، ولكن حيث لا يتصفون

الجزء السادس والعشرون

بشيء (فاعلم انه لا إله إلا الله) هو يحيي ويميت ويعاقب ويثيب .. وغير بعيد أن يكون معنى فاعلم انه لا إله إلا الله هنا ادعُ الى الله ووجدانيته (واستغفر للذنب وللمؤمنين والمؤمنات) . والاستغفار من الذنب محبوب لله تعالى ، ومطلوب بالذات ، سواء أكان هناك ذنب أم لم يكن (والله يعلم متقلبكم) في الأعمال (ومثواكم) مفرم حين تتركون العمل أو مصيركم في الآخرة كما قبيل . وأياً ما كان فإن الله سبحانه يعلم حال عباده في الدنيا والآخرة ، وحين يتحركون ويسكنون .

طاعة وقول معروف الآية ٢٠ - ٢٣ :

وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ
وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ
نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ * طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا
عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صدَّقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ * فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ
أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ
اللَّهُ فَأَصْمُمُوهُمْ وَأَعَمِّيْهِمْ أَبْصَارَهُمْ *

اللغة :

محكمة واضحة بنصها . والمراد بالمرض هنا الشك والنفاق . وأولى تستعمل بمعنى أحق وأجدر وبمعنى الويل ، وهو المقصود من قوله تعالى : فأولى لهم . وعزم الأمر جد ولزم . والمراد بأن توليتم ولاية الحكم .

الإعراب :

لولا بمعنى هلا . وسورة بالرفع مفعول لفعل لم يُسَمَّ فاعله . ومن الموت على حذف مضاف أي من أجل نزول الموت . فأولى لهم مبتدأ وخبر . وطاعة مبتدأ وقول معروف عطف عليه والخبر محذوف أي خير لهم ، وهذا الإعراب نقله أبو حيان الأندلسي عن الخليل وسيبويه ، وقيل : طاعة خبر لمبتدأ محذوف أي أمرنا طاعة . واسم كان ضمير مستتر يعود الى الصدق المفهوم من قوله تعالى : صدقوا الله . والمصدر من أن تفسدوا خبر عسيتم . وان توليتم جملة معترضة .

المعنى :

(ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فإذا انزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون اليك نظر المغشي عليه من الموت) . ومن أجل استقامة الكلام لا بد من تقدير جار ومجرور متعلق بنزلت ، والتقدير لولا نزلت سورة بالقتال ، أما الدليل على هذا المحذوف فقوله تعالى : « وذكر فيها القتال » والحاجة يعبرون عن مثله بأنه حذف من الأول لدلالة الثاني عليه . ومحكمة واضحة بنصها على القتال ، والمعنى ان المؤمنين الخالص كانوا يتمنون أن يأمرهم القرآن بجهاد أهل الكفر والبغي ، ويتهافون - إذا دعوا اليه - على بذل الأنفس في سبيل الله فرحين مستبشرين بلقاء الله وثوابه ، أما الذين في قلوبهم مرض وهم المنافقون فقد كانوا أشد الناس كراهية للجهاد والقتال ، وإذا نزلت فيه آية انهارت أعصابهم من الخوف ، ونظروا الى النبي (ص) نظرة الحنق والملح تماماً كالذي ينظر الى الموت وهو نازل به (فأولى لهم) قال كثير من المفسرين : معناه الويل لهم أي الموت والهلاك ، ويتفق هذا مع سياق الآية .

(طاعة وقول معروف) . هذه جملة مستأنفة ، ومعناها طاعة الله وقول يقبله الرسول من « المنافقين » خير لهم من شحن الصدور بالغيظ والنفاق، والنظر إلى الرسول بخد وخوف (فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم) . لو ان المنافقين أخلصوا لله واستجابوا لدعوة الرسول حين واجهوا الأمر الواقع

الجزء السادس والعشرون

بإعلان الجهاد ، وأصبح فرضاً لازماً، لو فعلوا ذلك لكان خيراً لهم دنياً وآخرة ، ولكنهم أبوا إلا الفساد والضلال .

(فهل عسيب ان توليتم أن تصدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم) . أظهرتم الاسلام أيها المنافقون كرمأ له وخوفاً من قوته وسلطانه .. ولماكم لو ملكتم القوة والسلطان للأنتم الأرض فساداً بعبادة الأصنام وسفك الدماء ونهب الأموال وقطع الأرحام (أولئك الذين لعنهم الله) بالبعد عن رحمته (فأصمهم وأعمى أبصارهم) . لما تصاموا عن نداء الحق ، وتعاموا عن رؤيته أصم الله أسمعهم وأعمى أبصارهم ، وبكلمة سلكوا طريق الهلاك مختارين فأهلكهم الله . وما ظلمناهم ولكن ظلما لأنفسهم - ١٠١ هود .

أفلا يتدبرون القرآن الآية ٢٤ - ٣١ :

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا * إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُوا عَلَى
أَذْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَى لَهُمْ *
ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ
وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ * فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ
وَأَذْبَارَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَاحْبَطَ
أَعْمَالَهُمْ * أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ
أَضْغَانَهُمْ * وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيَئِهِمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ
الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ * وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ
وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَنَّكُمْ

الفة :

يتدبرون القرآن يتفكرون فيه ويتفهمون معانيه . وسؤل زين . وأمل طوول لهم الأمانى والآمال . والسبأ العلامة . ولحن القول فحواء ومغزاه .

الإعراب :

أم على قلوب «أم» منقطعة ومثلها أم حسب . الشيطان مبتدأ وجملة سؤل خبر ، والجملة من المبتدأ والخبر خبر ان الذين ارتدوا . فكيف خبر لمبتدأ محذوف أي فكيف حالهم . ان لن «ان» مخففة من الثقيلة واسمها محذوف أي انه لن . فلعرفتهم عطف على لأريناكمهم واللام في لعرفتهم واقعة في جواب لو وكررت في المعطوف للتأكيد . واللام في لعرفتهم في جواب قسم محذوف .

المعنى :

(أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) . ضمير يتدبرون يعود الى المنافقين ، لأن هذه الآيات والتي قبلها تتحدث عنهم .. وكل ما جاء في القرآن من الدلائل في خلق السموات والأرض على وجود الخالق ، ومن الحجج البالغة على البعث ونبوة محمد (ص) ، وعلى قبح الشرك والظلم والفساد في الأرض ، كل ذلك وما اليه من العبر والعظات ظاهر الدلالة واضح المعنى ، لا غموض فيه ولا تعقيد ، بالاضافة الى ما يستثيره اسلوب القرآن في قلب القارىء والسامع من الخشوع والاحساس - اذن - فأبال الكافرين والمنافقين لم يتأثروا بهذا المعجز ؟ هل فقدوا الأسماع والأبصار ، أم استغلقت على أفئدتهم أقفال العمى والرين ؟ .

(ان الذين ارتدوا على أديبارهم بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سؤل لهم وأمل لهم) . المرتد مسن آمن بالحق ثم كفر به ، وفي حكمه من عرف الحق بالدليل القاطع ولكن جحد لهوى في نفسه ... هو في حكم المرتد لأن علمه بالحق بمنزلة الايمان به ، وكراهيته له تماماً كالاتداد عنه ، أما من أصر الكفر وأظهر

الجزء السادس والعشرون

الإيمان فهو منافق ومرتدّ أيضاً ، منافق لأنه أظهر خلاف ما أضمر ، ومرتد لأنه يعامل في الدنيا معاملة المؤمنين ، وفي الآخرة معاملة الكافرين ، فكأنه مؤمن ومرتد في آن واحد .. ولفظ الآية يتناول الأصناف الثلاثة لأن الدلائل الظاهرة التي قامت على التوحيد والبث ونبوة محمد (ص) هي الحججة عليهم التي أرادها الله بقوله : « من بعد ما تبين لهم الهدى » ولكن الشيطان أغراهم بالنفاق والارتداد عن الحق ومعاندته ، ووعدهم المواعيد الكاذبة ، ووسوس لهم بتحقيق الأمانى والآمال .

(ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر) . ضمير قالوا للمنافقين ، والمراد بالذين كرهوا ما نزل الله اليهود الذين جاؤوا الرسول (ص) لأن اليهود أشد الناس كراهية لكل ما أنزل وبخاصة القرآن، والمعنى ان المنافقين قالوا لليهود : نحن معكم على محمد ونشارككم في عداته، ولكن ظروفنا الخاصة لا تسمح لنا بإعلان الكفر به ونصب العداة له ، فدعونا نتظاهر بالاسلام ونطيعكم في الكيد له والتأمر عليه (والله يعلم إسرارهم) أي إسرار الطرفين اليهود والمنافقين لأنه تعالى لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء

(فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم) . تهربوا من الجهاد خوف القتل فهل يتهربون من الموت وضرباته ، والبث وأهواله ؟ (ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه) يعذبهم الله سبحانه عند الموت وبعده أيضاً لأنهم آثروا سخطه على رضوانه (فأحبط أعمالهم) فلا تجديهم شيئاً (أم حسب الذين في قلوبهم مرض ان لن يخرج الله أضغانهم) أضمر المنافقون الحقد والعداء للنبي (ص) والصحابية ، وأظهروا لهم الحب والولاء ، وظنوا ان الله سبحانه لن يظهر ما تخفي صدورهم وتكن ضمايرهم من الكفر والأحقاد .

(ولو نشاء لأريناكم فلعرفتهم بسيماهم) . قوله تعالى : لأريناكم أي لعرفناكم بهم ، وقوله : فلعرفتهم بسيماهم معناه متى عرفناكم نحن بهم عرفتهم أنت بالعلامات الفارقة ، والغرض من هذا التفريع الذي يشبه التكرار هو التأكيد بأن النبي لا يغيب عنه شيء مخبره الله به ، أما غير النبي فيجوز أن يخطيء في فهمه .. ويدل ظاهر الآية على أنها نزلت قبل أن يعرف النبي (ص) المنافقين لأن « لو » للامتناع ، ولكن النبي (ص) قد عرف المنافقين بعد ذلك لقوله تعالى : (ولتعرفنهم في

لحن القول) . ولحن القول فحواه ومزماه ، كالاتذارات الكاذبة التي كان يعتذر بها المنافقون ، ونيلهم من الأخيار ، وثنائهم على الأشرار ، وغير ذلك من فلتات اللسان التي تعكس الرياء والنفاق . وعن أنس : لم يخف منافق بعد هذه الآية على رسول الله (ص) . وأيضاً كان النبي (ص) يعرف المنافقين بأفعالهم ، فلقد كانوا يتهربون من الجهاد ، ويتناقلون عند البذل في سبيل الله .

(والله يعلم أعمالكم) . هذا تهديد لكل من يظهر الخير ، ويضمّر الشر (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم) . الله يعلم المجاهدين والصابرين قبل أن يختبرهم ، ولكنه يعامل الناس معاملة المختبر بالأمر والنهي ليظهر علمه للعيان ويتميز الخبيث من الطيب بالأفعال التي يستحق عليها الثواب والعقاب ، ويأخذ عباده بالحجة كما هو شأن العادل الحكيم . وفي نهج البلاغة : ان الله استنصركم وله جنود السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ، واستقرضكم وله خزائن السموات والأرض وهو الغني الحميد ... أراد أن يبلوكم أيكم أحسن عملاً ، فبادروا بأعمالكم تكونوا مع جيران الله في داره .

ولا تبطلوا أعمالكم الآية ٣٢ - ٣٨ :

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ بِأَعْمَالِهِمْ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ * فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَبْرُكَنَّ أَعْمَالَكُمْ * إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ الْوَلِيُّ وَإِنْ تَوَمَّنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ

وَلَا يَسْتَلْكُمْ أَمْوَالِكُمْ * إِنْ يَسْتَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخُلُوا وَيُخْرِجْ أَعْضَانَكُمْ *
 هَا أَنْتُمْ هُوَ لَاءَ تَدْعُونَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ
 يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلُ عَنِ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا
 يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ *

الغنة :

شاقوا خالفوا وعاندوا . يتركم من وتره اذا تقصه : والمراد ان الله لا يظلمكم
 أعمالكم . فيحفكم من الاحياء ، وهو الالحاح في السؤال .

الإعراب :

فلن يغفر الله لهم خبر ان الذين كفروا . وتدعوا عطف على فلا تهوا .
 والأعلون جمع الأعلى . ها أنتم ، ها ، للتنبية وأنتم مبتدأ وهؤلاء بدل منه وجملة
 تدعون خبر . فتكم من يبخل « من » اسم موصول مبتدأ . ومن يبخل « من »
 اسم شرط . ويبخل عن نفسه أي يمسك عن نفسه ، ولذا عُدِّي الفعل بعن
 لا بعل .

المضى :

(ان الذين كفروا وصلوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعدما تبين لهم الهدى لن
 يضروا الله شيئاً وسيحيط أعمالهم) . دعا الرسول الأعظم (ص) الى الاسلام بالدلائل
 والبيئات ، فكفر به أرباب المصالح والأهداف ، ومنعوا الناس عنه بالقوة والمال
 والدعايات الكاذبة ، ولكن الله قد أعز نبيه وأظهر دينه ، وأبطل عمل الخائنين ..

سورة محمد

وحتى اليوم يعاني الاسلام والمسلمون الكثير من قوى الشر ، وأخطرها بعض الدول والهيكل التي تحمل اسم الاسلام وتتعاون مع أعدى أعدائه الاستعمار والصهيونية ، وقد آن للمسلمين أن يفضوا عنهم غبار الحقد والشقاق ، ويتحدوا ضد عدوهم المشترك .

(يا أيها الذين آمنوا) بالله والرسول واليوم الآخر (اطيعوا الله وأطيعوا الرسول) أي اعملوا بوحى من إيمانكم ، فقله تعالى : اطيعوا الله بعد قوله : يا أيها الذين آمنوا مثل قوله : « فن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ١١٠ الكهف » . (ولا تبطلوا أعمالكم) بالشرك والنفاق ولا بالبن والأذى ولا بالسيئات اللاتي يذهبن بالحسنات . قال تعالى : « انما يتقبل الله من المتقين » وفي الحديث : « لا يقبل عمل إلا بالتقوى » .
وقال الإمام علي (ع) : كونوا على قبول العمل أشد عناية منكم على العمل .

(ان الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم) في الآخرة لأن الله سبحانه يحشر الانسان على ما مات عليه ، ويحاسبه حساباً يختم به حياته من الكفر أو الايمان . وتقدم مثله في الآية ١٦١ من سورة البقرة ج ١ ص ٢٤٨ والآية ٩١ من سورة آل عمران ج ٢ ص ١٠٦ .

القرآن وسياسة الحرب :

(فلا تنهوا وتدعوا إلى السلم) . لقد أثبتت الحوادث ان من وهن أمام عدوه وتيب سطوته ، وخاف مجابته فقد زوده بالسلاح الذي يقتله به ويخضعه لأمره . قال الإمام علي (ع) : قرنت الهيبة بالحية، والحياء بالحرمان . أنظر ج ٦ ص ٢٤٠ فقرة « الحرب النفسية » . والسياسة الحكيمة في الحرب عند قادتها وأهل الاختصاص ان لا ينهار الانسان أمام عدوه ، وأيضاً أن لا يستهين بقوته ، بل يعد له العدة ومجابه بثبات مستهيناً بكل ما يصيبه من مشاق وآلام ، وقد رسم القرآن الكرم هذه السياسة بقوله : « فلا تنهوا وتدعوا إلى السلم » أي لا تنهاروا أمام أعدائكم وتستسلموا لقوتهم وطفيتهم ، ويقوله : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة - ٦٠ »

الجزء السادس والعشرون

الأطفال ، أي لا تستهينوا بقوتهم واحشدوا ل حربهم كسل ما تملكون من طاقات بشرية واقتصادية .

(وأنتم الأعلون) إذا كنتم صفاً واحداً ، وبدأ واحدة على عدو الله وعدوكم وإلا فشلتم وذهبت ربحكم كما نصت الآية ٤٦ من سورة الأفعال (والله معكم) إذا ليتم دعوته إلى الجهاد بالنفس والنفيس لتكون كلمة الحق هي العليا ، وكلمة الباطل هي السفلى ، أما من يؤثر الدعة والراحة ، ويستسلم للهوان وقوى الضلال والفساد فإن الله يتخلى عنه ، ويكفه لمن استسلم له (ولن يترك أعمالكم) . من أصيب بنفسه أو أهله أو ماله من أجل الدين أو الوطن أو أي حق كان - فإن تضحيته هذه لن تذهب سدى ، بل هي عز للدين وللوطن في الحياة الدنيا، وذخر له في الآخرة عند الله .

وتسأل : ان قوله تعالى : « فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وأنتم الأعلون » يدل بصراحة على ان للقوي أن يبطش بعدوه الضعيف ، ولا يكثر بسم ولا رحمة . وليس من شك ان هذا يناقض الانسانية والعدالة ، ولا يتفق مع قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة - ٢٠٨ البقرة » .

الجواب : ان قوله تعالى : « فلا تهنوا وتدعوا الى السلم » معناه إذا بليتم بعدو متوحش شرس لا يقيم وزناً للحق والعدالة ، ولا يلتزم بقانون ولا بميثاق ، ولا يفهم إلا بلغة العنف والقسوة ، إذا بليتم بهذا العدو فاصمدوا له ولا تهابوه وابطشوا به ، ولا تأخذكم في الحق رافة ولا هودة ، فان القضاء عليه قضاء على الشر ، وخير للانسانية جمعاء .

ومن غريب الصدف أن أكتب هذه الكلمات في اليوم الذي أغارت فيه اسرائيل بطائرات الفانتوم الأمريكية وقذائفها - على مدرسة بحر البقر الابتدائية بالجمهورية العربية المتحدة ، وقتلت ٤٧ طفلاً تراوح سنهم بين السادسة والثانية عشرة ، ما عدا الجرحى .

والولايات المتحدة الأمريكية هي المسؤولة عن قتل وجرح اولئك الصغار ،

وعن الغارة الماثلة على معمل أبي زعلب الأهلي التي راح ضحيتها ٣٣ عاملاً بين قتيل وجريح ، هي المسؤولة عن جرائم اسرائيل حيث أمدتها بالسلاح والمال ، وأمرتها أن تفعل في البلاد العربية ما تفعله هي في فيتنام .. فقد نقلت الصحف والاذاعات ان جنود الولايات المتحدة قتلوا أهل قرية بأكملهم في فيتنام ، ولم ينجُ منهم طفل ولا امرأة ، وما كان لهذه القرية ولا المدرسة الأطفال أي شأن في الحرب .. فهل يجدي السلم شيئاً مع هؤلاء السفاكين ؟ اللهم إلا إذا كان معنى السلم الاستسلام للجور والظلم .

(انما الحياة الدنيا لعب ولهو) لمن ركن اليها ، وخُدع بأباطيلها بل هي شر على من أثار الحروب من أجلها، وهي دار خبير لمن انعط بها ، وتزود منها لآخرته (وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم) . وعطف التقوى على الإيمان يدل على ان مجرد الاعتراف والتصديق لا أجر عليه عند الله، بل لا بد من العمل مع الإيمان ، وأوضح من هذه الآية في الدلالة على ذلك قوله تعالى : « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات انا لا نضيع أجر من أحسن عملاً » - ٣٠ الكهف .

(ولا يسألكم أموالكم أن يسألكموها فيحفظكم تخلصوا ويخرج أضغانكم) لا يسألكم أموالكم أي لا يطلب منكم أن تخرجوا من جميع أموالكم ، ولا أن تبدلوا الكثير منها الذي يضر بكم .. ويحفظكم أي يلبح عليكم ويجهدكم ، ومعنى الآية بمجموعها ان الله سبحانه جعل للفقراء نصيباً في أموال الأغنياء ، وراعى في تقدير هذا النصيب وتحديد مصلحة المحتاجين بما يسد خللتهم ، ومصلحة الباذلين بما لا يضر بهم ، ولا يمس بحاجة من حاجاتهم الضرورية ، ولو ان الله جلت حكمته سأل الأغنياء أكثر من هذا النصيب وألح عليهم في بذله لأمسكوا وحقدوا على الاسلام ونبي الاسلام .

(ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله) . قال جماعة من المفسرين : المراد بسبيل الله الجهاد .. والصحيح انه يشمل كل ما فيه لله رضا، وللناس صلاح بجهة من الجهات (فنكم من يبخل ومن يبخل فلإنما يبخل عن نفسه) . يبخل الشحيح بحق الله ، وادخره لنفسه عند حاجتها ، فجاءت النتيجة على العكس مما

الجزء السادس والعشرون

أراد ، حيث عرض نفسه لغضب الله وعذابه ، وحرّمها من رضوانه وثوابه .
أنظر فقرة « المال هو المحك » ج ٢ ص ١٠٧ .

(والله الغني وأنتم الفقراء) إلى فضله ورحمته ، وما استغنى عبد من عباده
إلا بسبب منه تعالى ، أما هو فغني بالذات لا باستفادة ، وفاعل لا بآلة ،
ومقدر لا بفكرة (وان تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم) . ان
تعرضوا عن دعوة الله ، وتصروا على التمرد والمصيان ينهبكم ويأت بخلق جديد
يستحوون بحمده ولا يعصون له أمراً . وتقدم مثله في الآية ١٩ من سورة ابراهيم
ج ٤ ص ٤٣٦ والآية ١٦ من سورة فاطر .

سورة الفتح

٢٩ آية مدنية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إنا فتحنا لك الآية ١ - ٥ :

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا * هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَاللَّهُ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا *

المعنى :

(إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً) . للفتح معان ، والمراد به هنا النصر لأنه أول ما يتبادر إلى الافهام ، ولأن النبي (ص) قال : نزلت عليّ آية هي أحبّ إليّ من الدنيا وما فيها ، ثم تلا : إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً . وعليه يكون المعنى إنا

الجزء السادس والعشرون

نصرناك يا محمد نصراً ظاهراً ، واختلف المفسرون في نوع هذا النصر وتحديدته على أقوال أنها الطبرسي إلى أربعة والرازي إلى خمسة . وأكثر المفسرين أو الكثير منهم على ان المراد بالنصر هنا صلح الحديبية لأن هذه السورة نزلت بعد الهدنة التي عقدها النبي (ص) مع أهل مكة في الحديبية .. ومع هذا فأرجح الأقوال عندنا ان المراد بالنصر هنا إعلاء كلمة الاسلام وقوة المسلمين ، وخذلان أعدائه المنافقين والمشركين ، لأن الفتح في الآية مطلق غير مقيد بصلح الحديبية أو بفتح مكة أو النصر على الروم والفرس أو غير ذلك ، وعليه تكون هذه الآية مرادفة للآية ٣٣ من سورة التوبة : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » . وبكلمة واحدة المراد بالنصر الجنس لا الفرد .

(ليفخر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) . وتساءل : متى أذنب النبي حتى يصفح الله عن ذنبه ؟ وما هو ذنبه المتقدم والتأخر ؟ وأين عصمة الأنبياء الرادعة عن الذنب ؟ وكيف يكون الفتح سبباً للمغفرة ؟ وما هي العلاقة بينهما؟ .

الجواب : ليس المراد بالذنب هنا ذنب الرسول حقيقة وواقعاً ، كيف وهو معصوم عن الخطيئة والخطأ ؟ وإنما المراد ان المشركين كانوا يعتقدون بأن النبي مذنب في دعوته الى التوحيد ونبذ الشرك وفي محاربه الأوضاع السائدة والتقاليد الموروثة ، أما المغفرة فالمراد بها ان هؤلاء المشركين اكتشفوا مؤخرأ ومع الأيام والأحداث ان محمداً (ص) بريء من كل ذنب ، وانه رسول الله حقاً وصدقاً ، وانهم كانوا هم المذنبين في اتهامه والظن برسالته .. وتوضيح ذلك ان الرسول الأعظم (ص) دعا الى التوحيد وندد بالأصنام وأهلها ، وحارب الظلم والاستغلال ، وما الى ذلك من مفاصد الجاهلية وتقاليدها .. وأي شيء أعظم ذنباً وجرمأ - عند الجاهلي وغيره - من الظن بمقدساته الدينية وعادات آبائه وأجداده التي هي جزء من طبيعته وكيانه ، ولكن بعد أن أظهر الله دينه ونصر نبيه بالدلائل والبيئات ودخل الناس في دين الله أفواجاً ، ومنهم المشركون الذين كانوا ينظرون الى النبي (ص) نظرهم الى من يجرم عليهم وعلى آلتهم وآبائهم ، بعد هذا كله تبين لهم ان محمداً هو الحق ، وانهم هم المخطئون .

سورة الفتح

والخلاصة ان المراد بذنب الرسول ذنبه في زعم أعدائه المشركين لا ذنبه في الواقع ، والمراد بالمغفرة مغفرتهم له هذا الذنب المزعوم أي توبتهم مما كانوا يظنون بني الرحمة ، أما نسبة الذنب الى الرسول في ظاهر الكلام ، ونسبة المغفرة الى الله ، أما هذه فأمرها سهل لأن المجاز يتسع لها ولأكثر منها .. أما وجه الصلة بين الفتح وهذه المغفرة فواضح لأن الفتح هو السبب الموجب للكشف عن صدق الرسول وبراهنه من الذنب المزعوم الذي رماه به المشركون من قبل الفتح .

(وبم نعمته عليك) بانتصارك على أعداء الله وأعدائك وبعلو شأنك دنيا وآخرة (ويهديك صراطاً مستقيماً) وهو الشريعة الإلهية التي تضمن للناس خيرهم وصلاحهم في كل زمان ومكان (وينصرك الله نصراً عزيزاً) . والنصر العزيز هو الذي يكون بالحق وللحق ، وبالجهاد المشروع لا بالفدر والمؤامرات ، ولا بمساندة أهل البغي والانتقابات .

(هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم) . المراد بالسكينة هنا الرضا والاطمئنان عن وعي ، لأن الحوادث علمت بأن اطمئنان الجاهل ينتهي به الى أسوأ العواقب ، والمعنى ان الله أعز دينه ونصر نبيه ليفرح المؤمنون وتطمئن قلوبهم ويزدادوا يقيناً بربههم ، وثقة بنبيهم ، وقوة في دينهم . (والله جنود السموات والأرض) . هذا كناية عن عظمة الله في قدرته وإلا فهو غني عن العالمين لأنه يقول للشيء : كن فيكون . وفيه إيماء الى أنه لو شاء سبحانه لأهلك المشركين من غير جهاد وقاتل ، ولكن ليبلو عباده أيهم أحسن عملاً (وكان الله عليماً حكيماً) في خلقه وتديبره .

(ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً) . قال الطبري : حين نزل قوله تعالى : انا فتحنا لك فتحاً مبيناً الخ . قال المؤمنون لرسول الله (ص) : هنيئاً لك يا رسول الله ، فلقد بين الله لك ماذا يفعل بك ، فإذا يفعل بنا نحن ؟ فنزل قوله : ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات الخ . وليس من شك - وان لم تصح هذه الرواية - ان الله يكفر سيئات التائبين ويدخل المؤمنين في رحمته وجنته ، ومن دخل الجنة فقد فاز بالسهم الأوفر .

ويعذب المنافقين الآية ٦ - ٩ :

وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ
ظَنَّ السَّوْءَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ
جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا * وَاللَّهُ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا
حَكِيمًا * إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا *

اللفظ :

الدائرة ما تحيط بالشيء . والسوء الشر . والمراد بتعزروه هنا تنصروه، وبتوقروه
تعظموه . وبكرة وأصيلاً صباحاً ومساءً .

الإعراب :

الظالمين صفة لأهل الشرك والفاق . وظن السوء مفعول مطلق لظالمين . ومصيراً
تمييز . وشاهداً حال . وبكرة وأصيلاً مفعول فيه أي تسبحوه في الصباح والمساء .

المعنى :

(ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظالمين بالله ظن السوء
عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً) .
السوء القبح والشر والفساد ، وظن السوء وسوء الظن بمعنى واحد ، والمراد هنا
بظن السوء بالله تعالى الظن بأنه ، جلت حكمته ، لن يبعث من في القبور ،

سورة الفتح

ولن ينصر الاسلام ونبي الاسلام ، وما إلى ذلك من ظنون المنافقين والمشركين .. ومعنى الآية مجملها ان الله كما أعد لأهل الإيمان جنات النعيم فقد أعد أيضاً للذين أساءوا به الظن كأهل النفاق والشرك ، أعد لهم الشر يحيط بهم من كل جانب ، والغضب واللعنة وسوء المصير ، نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها .

(والله جنود السموات والأرض وكان الله عزيزاً حكيماً) . ذكر . سبحانه هذه الآية حين أشار إلى أهل الإيمان وثوابهم في الآية السابقة ، وذكرها هنا وهو يشير إلى أهل النفاق والشرك ، والقصد من التكرار التنبيه إلى انه تعالى قادر على الإنعام والانتقام كي يعمل العبد بطاعة الله أملاً بثوابه ، ويتعد عن معصيته خوفاً من عذابه (إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً) . يشهد غداً الرسول الأعظم (ص) بين يدي الله تعالى انه قد بلغ العباد ما أوحى به اليه ، وبشر الطائع بالنجاة ، وحذر العاصي من الهلاك . وتقدمت هذه الآية بالحرف الواحد في سورة الأحزاب الآية ٤٥ ج ٦ ص ٢٢٨ .

(لثؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلاً) . الهاء في تعزروه وتوقروه راجعة إلى دين الله ، وقيل : إلى رسول الله .. والمعنى واحد ، الهاء في تسبحوه إلى الله بالذات ، والمراد بالتسبيح في الغدو والعشي الصلوات الخمس . والمعنى ان الله أرسل محمداً إلى الخلائق ليؤمنوا بالله ورسالة محمد (ص) ويتصروا لدين الله بالذب عنه والجهاد في سبيله ، وليحترموا أحكام الله بطاعتها والعمل بها ، ويحافظوا على الصلوات الخمس .

بيعة الرضوان تحت الشجرة الآية ١٠ - ١٤ :

إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَسْئُولٌ بِهِ أَجْرًا عَظِيمًا * سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا

فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِالسَّيِّئَةِ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ
 اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
 خَبيراً * بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزَيَّنَ
 ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ ظَنًّا سَوْئاً وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً * وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ
 بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعيراً * وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ
 وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً *

اللغة :

المخلفون جمع مخلف ، وهو المتروك ، والمخالفون القاعدون . والعربي عام
 والاعرابي خاص بمن يسكن البادية . وبوراً هلكى .

الإعراب :

جملة انما يبايعون الله خبر ان الدين . ويد الله فوق أيديهم مبتدأ وخبر والجملة
 خبر ثان لإن الذين الخ . أجزأ مفعول ثان لسيؤتيه لأن الفعل هنا بمعنى يعطيه .
 وشيئاً مفعول مطلق ليملك أي شيئاً من الملك . وان لن ، ان ، مخففة واسمها
 محذوف أي انه . وأبدأ ظرف زمان للتأكيد في المستقبل نقياً مثل لا أفعله أبدأ أو
 اثباتاً مثل افعله أبدأ .

خلاصة القصة :

(ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فن نكت فلانما ينكت

سورة الفتح

على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً) . تشير هذه الآية الكريمة الى بيعة الرضوان تحت الشجرة ، وهذه حكايتها :

في سنة ست للهجرة كان المشركون هم المسيطرين على مكة والبيت الحرام ، وفي أواخر هذه السنة خرج رسول الله (ص) من المدينة المنورة مع ألف وأربعمئة من المسلمين قاصدين مكة المكرمة يريدون العمرة ، ولا يفكرون في حرب . ولما بلغوا مكاناً يسمى الحديبية علم أبو سفيان بمقدمهم ، فجمع قريشاً وقرروا مجتمعين أن يمتنعوا الرسول ومن معه ويصدوهم عن بيت الله الحرام بقوة السلاح، وجمعوا الفرسان لذلك ، وجعلوا عليهم خالد بن الوليد ، ثم سعى السفراء بين النبي (ص) وبينهم ، وكان سفراء قريش يطلبون من النبي أن يعود الى المدينة ولا يدخل مكة ، ويحييهم النبي بأننا لم نأت لقتال أحد ، وقد جئنا زائرين البيت الحرام، ومن صدنا عنه قاتلناه .

وكان عروة بن مسعود أحد سفراء قريش الى رسول الله (ص) ، وقد رأى الصحابة يتفانون في حب الرسول ، فلا يتوضأ إلا ابتدروا وضوؤه ، ولا يصبغ إلا أخذوا بصاقه ، ولا يسقط من شعره شيء إلا تهاكوا عليه ، فعاد وهو في دهشة مما رأى ، وقال : « يا معشر قريش إنني قد جئت كسرى في ملكه ، وقبصر في ملكه ، والنجاشي في ملكه ، واني ما رأيت ملكاً في قومه قط مثل محمد في أصحابه ، لقد رأيتهم لا يسلمونه لشيء أبداً ، فروا رأيكم » .

وأرسل رسول الله (ص) لقريش عثمان بن عفان لأنه قريب أبي سفيان ، وقال له : أخبرهم اننا لم نأت لقتال ، وإنما جئنا زواراً لهذا البيت معظمين لحرمة ، ومعنا الهدى نحره ونصرف .. ولما بلغهم عثمان قالوا : لا كان هذا أبداً . وانقطعت أخبار عثمان ، وشاع انه قد قُتل ، وحين بلغت هذه الشائنة سماع النبي (ص) قال : لا تبرح حتى تناجز القوم ، ودعا الى مبايعته ، وكان جالساً تحت شجرة هناك، فأسرع أصحابه يبايعونه على الطاعة والموت في سبيل الله .

وقد وصف سبحانه هذه البيعة بأنها بيعته بالذات ، وانه قد أخذها بيده ، وان من نقضها ونكث بها فقد خان الله وتعرض لغضبه وسطوته ، وان من وفى بها ولم ينقض الميثاق فإن له عند ربه لزلزلي وحسن مأب ، وذلك حيث يقول

الجزء السادس والعشرون

عز من قائل : « ان الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فن نكت فإنما ينكت على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً » . وقد اشتهرت هذه البيعة ببيعة الرضوان ، وأيضاً يطلق عليها بيعة الشجرة ، وبيعة الرضوان تحت الشجرة لقوله تعالى : « لقد رضي الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة - ١٨ الفتح » .

ولما رأت قريش ما رأت من صلابة الرسول (ص) رضخت للصلح، وتم الاتفاق على أن لا يدخل المسلمون مكة هذا العام حتى إذا كان العام القادم دخلوها معتمرين ، وأقاموا فيها ثلاثة أيام لا يعملون من السلاح إلا السيوف في أعمادها . ودعا الرسول (ص) علي بن أبي طالب ، وقال له : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم ، فاعترض مندوب قريش وقال : اكتب باسمك اللهم ، فقبل النبي وكتب علي ، ثم قال النبي : اكتب هذا ما صالح محمد رسول الله ، فاعترض مندوب قريش وقال : اكتب اسمك واسم أبيك ، فقبل النبي وتلكأ علي ، فقال له النبي (ص) : ولك مثلها وأنت مضطهد . يشير بذلك إلى مسألة الحكمين في صفين ، وهذا من علم الغيب الذي أوحى الله به إلى نبيه الكريم وهو من أقوى الدلائل على نبوته وصدقه في رسالته .

ولما وقع الطرفان وثيقة الصلح تحلل النبي (ص) والصحابة من إحرامهم ، ونحروا الهدي وحلقوا رؤوسهم ، ومكثوا أياماً بالحدبية ، ثم انصرفوا إلى المدينة، وفي السنة التالية توجه النبي والصحابة إلى مكة معتمرين ، ودخلوها وهم يهللون ويكبرون وينادون : لا إله إلا الله وحده، نصر عبده، وأعز جنده، وخذل الأحزاب وحده . وأقاموا بمكة ثلاثة أيام يطوفون وينحرون ، وتسمى هذه العمرة عمرة القضاء لأنها مكان العمرة التي منعه منها المشركون ، وفيها نزل قوله تعالى : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين حلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون - ٢٧ الفتح » .

المخلفون من الأعراب :

(سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا) . حين

سورة الفتح

أراد النبي (ص) الخروج إلى مكة عام الحديبية استنفر المسلمين وحثهم على السفر معه ، فامتنع قوم من الأعراب المشركين حول المدينة وآخرون من المنافقين، امتنعوا وأبوا الخروج مع رسول الله (ص) ظناً منهم ان قريشاً لن تدع عمداً يدخل مكة أو تهلك ، وقال بعضهم لبعض : ما لنا وللتعرض لهذه الأخطار ؟ . وبعد أن تم الصلح على ما ذكرنا قال سبحانه لنبيه الكريم : إذا رجعت يا محمد إلى المدينة اعتذر الذين تخلفوا عنك بأن تدبير أهلهم وأموالهم هو الذي منعه من صحبتك ، ويطلبون منك كذباً ونفاقاً أن تصفح عنهم ، وتطلب من الله أن يرضى عنهم ويمفو عما سلف ، وقد كذبهم سبحانه بقوله : (يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم) كما هو شأن المنافقين في كل زمان ومكان .

(قل فمن يملك لكم من الله شيئاً ان أراد بكم ضرراً أو أراد بكم نفعاً). أتكذبون على الله وهو يعلم سركم وجهركم ، ويبدد خبركم وشركم ، ومن الذي يرد أمره عنكم خيراً كان أم شراً ؟ (بل كان الله بما تعملون خبيراً) وأيضاً يخبر به نبيه الكريم ويقول له : انكم تظهرون غير ما تضمرون (بسل ظننتم ان لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبداً وزين ذلك في قلوبكم) . تخلفتم عن النبي ظناً منكم بأن الله لن ينصر النبي والذين آمنوا معه وان الغلبة ستكون لأعداء الله على أوليائه (وظننتم ظن السوء) . ظننتم ان المسلمين ذاهبون إلى الموت لا محالة ، ولا سند لهذا الظن إلا وسوسة الشيطان بأن الله لن يعز دينه وينصر نبيه، ولا يلفظ بمن آمن به وأخلص له (وكنتم قوماً بوراً) أي هلكتي ، وكل من أسلم زمامه للشيطان قاده إلى الهلاك .

(ومن لم يؤمن بالله ورسوله فلإنا اعتدنا للكافرين سعيراً) خالدين فيها لا يجدون ولياً ولا نصيراً (والله ملك السموات والأرض) ولا مالك غيره ، ولا حول ولا قوة إلا به ، فن أخلص له واتكل عليه فهو كافيه ، ومن التجأ إلى غيره أوكله إليه (يغفر لمن يشاء) ممن يستحق المغفرة لأن الله حكيم ويستحيل أن يغفر لمن يفسك الدماء ظلماً ، ويهدم المدارس على الأطفال الصغار ، ويسلب الجائعين أقواتهم (ويمدب من يشاء) ممن يستحق العذاب ، وما ربك بظلام للعبيد (وكان الله غفوراً رحيماً) بمن يرحم نفسه وغيره ، وإلا فن لا يرحم لا يرحم . وما للظالمين من أنصار .

ذرونا نتبعكم الآية ١٥ - ١٧ :

سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِمٍ لِتَأْخُذُوا مَا ذَرُّوْنَا تَتَّبِعَكُمْ
يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ
قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ نَحْمَدُوتَنَّا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا * قُلْ
لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ
أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا
تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى
الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا *

اللغة :

مغائِم اسم مكان أو زمان الغنيمة ، والمراد بها هنا كسب المال بالغزو . والبأس
القوة والشجاعة . والحرج الضيق والمراد به هنا الأثم .

الإعراب :

مغائِم ممنوع من الصرف لأنه على وزن مفاعل . والمصدر من لتأخذوها متعلق
بانطلقتم . وقليلاً صفة للمفعول مطلق محذوف أي فقهاً قليلاً . أو يسلمون عطف
على تقاتلونهم .

(سيقول المخلفون اذا انطلقتم الى مغام لتأخذوها فرونا نتبعكم) . هؤلاء المخلفون هم الذين أبوا الخروج مع النبي (ص) حين توجه الى مكة في أواخر سنة ست للهجرة ، وهم الذين عناهم الله بقوله في الآية السابقة . و سيقول لك المخلفون من الاعراب شغلنا أموالنا الخ... لقد رغب النبي اليهم في المسير معه ، فخافوا من قريش وقالوا : أموالنا وأهلنا ، وبعد أن رجح النبي من الحديبية مكث في المدينة الى أوائل سنة سبع ، ثم خرج غازياً الى خيبر ، وكان فيها مغام كثيرة ، تحركت لها شهوة المخلفين ، فقالوا للنبي والمؤمنين : خذنا معكم الى تلك المكاسب والمغام !.. عرضوا أنفسهم هنا للخروج ، وبالأمس دُعوا اليه فتذرعوا بمشاغل الأهل والأموال خوفاً من الجهاد والقتال .. وهذا منطق من أسرته المطامع ولا يتحرك إلا بوحى منها .

(يريدون أن يبدلوا كلام الله) . ضمير يريدون ويبدلوا يعود الى المخلفين ، والمراد بكلام الله هنا وغده تعالى بحرمان المخلفين من المغام التي أشار اليها سبحانه بقوله : « إذا انطلقتم إلى مغام لتأخذوها » . ولكن الله ، جلت حكمته ، لم يبين لنا ما هي هذه المغام ؟ هل هي مغام خيبر أو غيرها ؟ ومع هذا قال المفسرون : ان الله سبحانه وعد أهل بيعة الرضوان بالحديبية ، وعدمهم أن تكون مغام خيبر مختصة بهم دون غيرهم . وقال الرازي : هذا هو الأشهر عند المفسرين ، وقال المراغي : « وفيه أخبار صحيحة » .. وليس هذا ببيد لأن غزوة خيبر كانت الأولى بعد صلح الحديبية .

ومها يكن فإن الله سبحانه أمر نبيه الكريم أن يقول للمخلفين : (لن تتبونا) إلى أخذ المغام لأنكم رفضتم اتباعنا إلى مكة خوفاً من القتل (كذلك قال الله من قبل) فهو الذي أخبرنا بأنه لا نصيب لكم في المغام (فيقولون بل تحسبونا) كلا .. ان الله لم يجرمنا من الغنائم ، ولكن أنتم الذين حرمتونا حسداً لنا وبغياً علينا (بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً) . هذا رد منه تعالى على قولهم : « تحسبونا » ومعناه كلا ، ليس الأمر كما زعمتم ، وإنما هو جهلكم ومعصيتكم لأكثر أحكام الله .

الجزء السادس والعشرون

(قل للمخلفين من الأعراب) وهم الذين أبوا الخروج مع رسول الله (ص) إلى مكة (ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد) . والداعي هو رسول الله (ص) فإنه دعاهم بمسد غزوة خيبر إلى غزوة حنين والطائف وتبوك (تقاتلونهم أو يسلمون) أي ان الأشداء الذين ستدعون إلى قتالهم يُخبرهم الرسول بين أمرين : إما السيف وإما الاسلام ، فهل تلبون دعوة الرسول أو تنكصون على أعقابكم كما فعلتم من قبل ؟ . وبكلام آخر ان صمودكم في قتال اولي البأس الشديد هو المحك لصدقكم ، وليس أخذ الغنائم (فإن تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً) وهو الغنيمة في الدنيا والجنة في الآخرة ، أو الجنة وعلو المنزلة عند الله لمن يقتل منكم في سيئه .

(وان تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً أليماً) وأي عذاب أشد ألماً من عذاب جهنم ؟ (ليس على الأعمى حرج ولا على الأبرص حرج ولا على المريض حرج) . لا إثم على هؤلاء الأصناف الثلاثة إذا تخلفوا عن الجهاد من أجل الدعوة الى الاسلام ، أما الجهاد للدفاع العدو وردعه عن الاعتداء فهو حتم على الجميع رجالاً ونساءً وصغاراً ومميزين وكباراً أصحاء وغير أصحاء .. من كل حسب طاقته (ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ومن يتولّ يعذبه عذاباً أليماً) . المعنى وإضح ، وهو الجنة لمن أطاع ، والنار لمن عصى ، وقد تكرر هذا المعنى في عشرات الآيات لمناسبة ذكر عمل الخير والشر ، وللتنبية بأن الله عادل وحكيم ، وان الانسان لن يترك سدى ، وانه سيلقى الله بأعماله ، وانها هي وحدها موضوع الحساب ومقياس الجزاء .

اذ يبايعونك تحت الشجرة الآية ١٨ - ٢٤ :

لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا * وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا * وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً

سورة الفتح

تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً
لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ
أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا * وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ
كَفَرُوا لَوْلُوا الْأَذْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَايًّا وَلَا نَصِيرًا * سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي
قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا * وَهُوَ الَّذِي كَفَّ
أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ
عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا *

الإعراب :

اذ في محل نصب برضي . ومغاثم كثيرة مفعول لفعل محذوف أي وأثابهم
مغاثم . ولتكون عطف على محذوف أي لتشكروا الله ولتكون، واسم لتكون ضمير
مستتر يعود الى هذه . وأخرى صفة لمفعول محذوف وهو مغاثم ، والتقدير وعدكم
الله مغاثم أخرى . وسنة الله نصب على المصدر أي سن الله ذلك سنة .

المعنى :

(لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة) . يشير سبحانه
بهذا إلى بيعة الرضوان تحت الشجرة ، وأنه راضٍ عنها وعن أهلها . وسبق الكلام
عن هذه البيعة عند تفسير الآية ١٠ من هذه السورة بعنوان « خلاصة القصة » .
فراجع . (فعمل ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ومغاثم كثيرة
ياخذونها) . الضمير في قلوبهم يعود إلى أهل بيعة الرضوان، وقد امتلأت قلوبهم

الجزء السادس والعشرون

بالصدق والاخلاص لله ورسوله ، والمراد بالسكينة الراحة والاطمئنان ، وبالفتح القريب صلح الحديبية حيث كان من آثاره دخول المسلمين مكة معتمرين على كره من قريش ، وفي رواية ان عمر بن الخطاب سأل النبي (ص): أفتح هو يارسول الله ؟ قال : نعم . أما المغامم الكثيرة فقال المفسرون أو أكثرهم : ان المراد بها مغامم خيبر لأنها اشتهرت بكثرة الأموال والعقار .. والأرجح انها كل غنيمة حصل عليها أهل بيعة الرضوان لأن الله سبحانه أطلق كلمة الغنائم ولم يقرنها بشيء خاص ، وخلاصة المعنى ان الله سبحانه من على أهل بيعة الرضوان بالطمأنينة وصلاح الحديبية وبنعم كثيرة لأنه قد علم منهم الاخلاص في دينهم والصدق في عزمهم على الجهاد في سبيله تعالى (وكان الله عزيزاً حكيماً) . وكل نجاح ناله المسلمون ودفع بهم إلى الأمام فهو أثر من آثار عزة الله وقدرته ، وتدبيره وحكمته .

(وعدكم الله مغامم كثيرة تأخذونها) . المغامم الكثيرة هنا كل ما غنمه المسلمون في عهد الرسول (ص) وبعده ، وعليه يكون الفرق بين المغامم المذكورة في الآية السابقة والمغامم المذكورة في هذه الآية - ان الأولى تختص بأهل بيعة الرضوان تحت الشجرة ، والثانية لجميع المسلمين في كل زمان ومكان (فمجل لكم هذه) الاشارة بهذه الى حادثة صلح الحديبية لأن هذا الصلح هو الذي عجله الله للمسلمين ، أما مغامم خيبر فقد كانت بعد هذا الصلح ، ولولا كلمة « هذه » لقلنا : المعجل الصلح ومغامم خيبر معاً .

(وكف أيدي الناس عنكم) . قال الطبري : اختلف أهل التأويل في المراد بهؤلاء الناس . فقيل : انهم اليهود . وقال آخرون : انهم قريش .. وفي رأينا ان المراد بهم أعداء الاسلام والمسلمين الذين حاولوا القضاء عليه وعليهم ، وما منعهم إلا الضعف والعجز (ولتكون آية للمؤمنين) . في تكون ضمير يعود إلى حادثة صلح الحديبية ، وقد جعلها الله علامة للمؤمنين على انه معهم وناصرهم على أعدائهم .. ولم تخلص الأيام حتى تبين للمؤمنين ان صلح الحديبية كان خيراً لهم وشرّاً على المشركين (ويهديكم صراطاً مستقيماً) الى كل ما يعود عليكم بالضعف دنياً وآخره .

(وأخرى لم تقدرُوا عليها قد أحاط الله بها) . أخرى صفة لمغامم محنوقة ،

سورة الفتح

والمعنى ان الله وعدكم مغام تفترون الآن على أخذها ، وأيضاً وعدكم مغام أخرى تعجزون الآن عن أخذها ، ولكن الله تعالى قد حفظها لكم ، ولا بد أن تأخذوها في المستقبل القريب أو البعيد (وكان الله على كل شيء قديراً) فلا يعجز أن يهكم من الغنائم فوق ما تتصورون وأكثر مما تأملون (ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأديار ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً) . كأن سائلاً يسأل : من أين وكيف يغتم المسلمون أموال الكافرين ، هم أقرباء في عدتهم وعددهم ، ويستمتتون في الدفاع عن أنفسهم؟ فأجاب سبحانه بأن الله مع المؤمنين ينصرهم ويدافع عنهم ، والله غالب على أمره . أما الكافرون فلا ملجأ لهم إلا السيف أو الفرار .

(سنة الله التي خلت من قبل ولن نجد لسنة الله تبديلاً) . من سنن الله تعالى فيمن مضى من أنبيائه الى خاتمهم محمد(ص) أن تكون لهم الغلبة على أعدائهم. وإذا سأل سائل ان هذا لا يتفق مع الآيات التي نصت بوضوح على أن اليهود كانوا يقتلون الأنبياء بغير حق - أحلتها الى الجواب المفصل في ج ٥ ص ٣٣١ وما بعدها .

(وهو الذي كف أيديهم عنكم وإيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيراً) . ضمير هو يعود الى تعالى ، وضمير أيديهم الى مشركي قريش . وقيل : ان المراد ببطن مكة الحديبية لأنها قريبة من مكة ، وقال آخرون: ان المراد داخل مكة .. وهذا هو المعنى المتبادر الى الافهام من كلمة « بطن » وعليه يكون المعنى انكم أيها المسلمون دخلتم مكة من كل أقطارها ظافرين منتصرين ، وخضعت لكم من غير حرب ، وهي عاصمة الشرك ومقل المشركين .. وهذا من فضل الله ونعمه الكبرى عليكم ، لأنه هو الذي منعه من قتالكم بإلقاء الرعب في قلوبهم ، ومنعه من قتالهم بالنهي عنه . وتجدر الاشارة الى أن صلح الحديبية كان في سنة ست ، وعمرة القضاء في سنة سبع ، وفتح مكة في سنة ثمان .

هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا
 أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ
 تَطَّوُّوهُمْ فَتَصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعْرَةٌ بَغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ
 لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ
 كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى
 رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا
 وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا *

اللفظة :

الهدى ما يهتدى الى بيت الله من الانعام . والمكوف المحبوس . والمراد بتطوؤهم
 هنا تقتلوهم . والمراد بالمرة هنا المساءة والمشقة . وتزايلا تميزوا . والحمية الالفة .

الإعراب :

الهدى عطف على مفعول صلُّوكم أي وصلوا الهدى . ومعكوفاً حال من
 الهدى . والمصدر من أن يبلغ مجرور بمن محذوفة أو منصوب بترج الخافض .
 والمصدر من أن تطوؤهم بدل اشتمال من مفعول لم تعلموهم أي لم تعلموا وطاهم
 مثل: أعجبتني زيد علمه، أي أعجبتني علم زيد . وحية الجاهلية بدل من الحمية وأهلها
 حلف تفسير على أحق بها .

المعنى :

(هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والمهدي معكوفاً أن يبلغ محله) .
 قلنا عند تفسير الآية ١٠ من هذه السورة: ان المشركين منعوا الرسول (ص) والصحابة
 من زيارة المسجد الحرام سنة ست للهجرة ، وكان معهم سبعون ناقة - على ما
 قيل - ساقوها للنحر بمكة وهي التي عناها سبحانه بقوله : « والمهدي معكوفاً أن
 يبلغ محله » ومعكوفاً أي محبوساً للنحر ، ومحله أي محل نحره وهو مكة . أيضاً
 قلنا عند تفسير الآية ٢٤ : ان المسلمين فتحوا مكة من غير قتال سنة ثمان ، لأن
 الله ألقى الرعب من المسلمين في قلوب المشركين .. والآية التي نحن بصددنا نشر
 الى هذا المعنى وتؤكد ان أهل مكة لم يسكتوا ويكفوا عن قتال النبي والصحابة
 حين دخلوا مكة - إلا خوفاً من المسلمين ، والدليل على ذلك - كما صرحنا
 الآية - ان هؤلاء المكيين هم الكافرون الذين منعوا المسلمين من زيارة المسجد
 الحرام ومن وصول المهدي الى مكة لينحر فيها ، ويأكل منه البائس الفقير .
 ثم أشار سبحانه الى بعض فوائد السلم والكف عن القتال في فتح مكة ، بقوله :

١ - (ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطوهم فتصيهم
 منهم معرفة بغير علم) . حين دخل النبي (ص) مكة فائماً كان فيها جماعة من
 المسلمين نساء ورجالاً ولكنهم كانوا غير معروفين ولا متميزين عن المشركين لأنهم
 كتموا ايمانهم خوفاً من أعداء الاسلام ، ولو دارت رحى الحرب لأصاب ضررها
 المسلم والكافر .. فربما قتل المسلم أخاه المسلم الذي يكتم ايمانه ، وهو يظن انه يقتل
 كافراً ، وفي ذلك ما فيه من المشقة على المسلمين بما يلزمهم من الكفارة ودية
 قتل الخطأ ، بالإضافة الى ان أعداء الدين يتخفون منه وسيلة للطن والتشهير بأن
 المسلمين يقتل بعضهم بعضاً .

٢ - (ليدخل الله في رحمته من يشاء) . المراد بالرحمة هنا الاسلام ، والمعنى
 ان الله سبحانه كف الأيدي عن القتال في فتح مكة لأنه يعلم ان بعض أهلها
 المشركين سيهتدون ويسلمون ، وهذا ما حدث بالفعل (او تزيلوا لعذبتنا الذين
 كفروا منهم عذاباً ألياً) . أي لو تميز كل فريق عن الآخر ، وعرف المسلم
 من الكافر لأذن الله للمسلمين بقتال الكافرين ، وأنزل بهم أشد العذاب .

الجزء السادس والعشرون

(إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حية الجاهلية) . يشير سبحانه بالذين كفروا الى عتاة الشرك الذين منعوا النبي سنة ست للهجرة من زيارة المسجد الحرام ، لا لشيء إلا لأن قلوبهم مفعمة بالتعصب وأنفة الكبرياء .. وهذا وحده يستوجب الإذن بقتالهم وقتلهم ، ولكن الله سبحانه كف أيدي المسلمين عنهم حرصاً على حياة من كتم إيمانه ومن سيدخل في الاسلام منهم بعد فتح مكة .

(فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها) . المراد بالسكينة هنا الرضا والصبر الجميل ، وبألزمهم أوجب على المؤمنين ، أما كلمة التقوى فقيل : ان المراد بها قول لا إله إلا الله .. والأرجح ان المراد بها العمل بالتقوى ، والمعنى ان النبي (ص) قبيل صلح الحديبية على الرغم من كبرياء المشركين وعتوهم ، وكره هذا الصلح بعض الصحابة وأصرروا على القتال ، ولكن الله سبحانه ألهمهم الصبر الجميل على غطسة المشركين ، وأمرهم أن يقبلوا الصلح ويرضوا به فسمعوا وعملوا بما يوجهه الايمان والتقوى ، ولا بدع فإنهم أهلها وأولى الناس بالعمل بها ، فلقد جاهدوا وضحوا بالكثير في سبيل الله ، وصبروا صبر الأحرار والأبرار (وكان الله بكل شيء عليم) . يعلم المتقين والمجرمين ، ويجزي كلاً بما كسبوا وهم لا يظلمون .

رويا الرسول الآية ٢٧ - ٢٩ :

لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّوْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنِ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا* هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا* مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا

سورة الفتح

يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سَيِّئًا فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ
ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ
فَأَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ
وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا *

اللمة :

الرؤيا ما يرى في المنام والجمع الرؤى . وسباهم علامتهم . ومثلهم وصفهم .
وشطأ الزرع ما ينخرج عليه من أغصان وورق وثمر ، والجمع أشطاء . فاستغلظ
صار غليظاً . واستوى استقام . وعلى سوقه على أصوله .

الإعراب :

قال أبو حيان الأندلسي في البحر المحيط : صدق يتعدى الى مفعولين، تقول
صدقت زيداً الحديث ، وقد يتعدى الى الثاني بحرف جر فتقول : صدقته في
الحديث . لتدخلن اللام واقعة في جواب قسم محذوف . وآمنين حال مقارنة .
ومحلقين ومقصرين حال مقدرة أي الحلق والتصبير يقمان بعد الدخول . ومحمد
مبتدأ ورسول الله صفة والذين معه عطف على محمد وأشداء خبر ورحماء خبر ثانٍ .
وركعاً سجداً حال أي راكعين ساجدين لأن ترى هنا بصرية تتعدى الى مفعول
واحد . وسباهم في وجوههم مبتدأ وخبر ، ومن أثر السجود حال . وذلك مثلهم
مبتدأ وخبر ، وفي التوراة حال . وكزرع متعلق بمحذوف خبراً لمبتدأ محذوف
أي هم كاثنون كزرع . وضمير آزره يعود الى الزرع . وجملة يعجب حال .

المعنى :

(لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلفين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون) . يدل ظاهر الآية والحديث المتواتر ان رسول الله (ص) رأى في منامه انه هو وأصحابه قد دخلوا مكة آمنين ، وطاقوا بالبيت العتيق كما يشاءون ، وقد حلق البعض رؤوسهم ، وقصر آخرون ، فأخبر النبي أصحابه بما رأى ، ففرحوا واستبشروا وظنوا أنهم داخلوا مكة في العام الذي كانت فيه الرؤيا ، وسار النبي (ص) بهم متجهاً الى مكة ، ولما بلغوا الحديبية صدهم المشركون ، وعاد المسلمون الى المدينة كما أسلفنا .. وهنا وجد المنافقون منفذاً للطعن وقالوا : ما حلقنا ولا قصرنا ولا رأينا المسجد الحرام ، فأين تأويل الرؤيا ؟. وذهلوا أو تجاهلوا ان النبي (ص) لم يعين وقت الدخول ، وقال قائل لرسول الله : ألم تقل : لتدخلن المسجد الحرام آمنين ؟. قال : نعم ، ولكن لم أقل في هذا العام ، ولما كان العام القادم وهو السابع للهجرة دخل المسلمون مكة معتمرين ، وطاقوا بالبيت كما يشاءون ، وحلق من حلق، وقصر من قصر ، ومكثوا ثلاثة أيام رجعوا بعدها الى المدينة ، وتسمى هذه العمرة عمرة القضاء ، وفيها نزل قوله تعالى : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا » حيث تحقق ما رآه الرسول وأخبر به .

(فعمل ما لم تعلموا) . لقد علم الله ان في تأجيل العمرة الى ما بعد صلح الحديبية مصلحة يجهلها المسلمون ، وهي تجنب القتال ، واسلام العديد من المشركين الذين صدوا الرسول والصحابة عن المسجد الحرام عام الحديبية (فجمل من دون ذلك فتحاً قريباً) . ذلك اشارة الى تأويل الرؤيا بدخول المسلمين المسجد الحرام آمنين ، والمراد بالفتح صلح الحديبية ، أو هو وفتح خيبر ، والمعنى ان هذا الصلح والذي بعده أيضاً بأيام وهو فتح خيبر - قد تحققا قبل تأويل الرؤيا، وهما نصر كبير تماماً كدخول المسجد الحرام (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله) . المراد بالرسول محمد (ص) وبالهدى ودين الحق الاسلام ، وقد ظهر وانتشر في شرق الأرض وغربها ، لأنه يدعو الى العمل من أجل حياة أفضل ، وينهى عن كل ما من شأنه أن يقف حجر عثرة في طريقها . وتقدم

سورة الفتح

مثله في الآية ٣٣ من سورة التوبة ج ٤ ص ٣٤ (وكفى بالله شهيداً) على أنه يظهر الاسلام على الدين كله .

الصحابة والقرآن :

حكى سبحانه في كتابه العزيز ان موسى بن عمران دعا بني اسرائيل الى القتال بأمر من الله ، فقالوا له : « فاذهب أنت وربك فقاتلنا انا ههنا قاعدون - ٢٤ المائدة » . وأيضاً حكى ، عظمت كلمته ، ان قوم السيد المسيح حاولوا قتله وصلبه ، وان حواريه قالوا له : « هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ؟ » . ولما قال لهم نبيهم : « اتقوا الله » . « قالوا نريد أن نأكل منها - ١١٣ المائدة » . وأنزل جل وعز سورة خاصة في ذم المنافقين من أصحاب الرسول (ص) وغيرها عشرات الآيات ، وأيضاً أنزل الكثير في المدح والثناء على المتقين الأبرار منهم ، من ذلك قوله : « لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة - ١٨ الفتح » . وقوله : « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه - ١٠١ التوبة » . وقوله :

(محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم) يجتمع المجرمون يداً واحدة على صيد الفريسة ، ثم يتناحرون على أكلها .. أما المخلصون فلهم على نبيج واحد لا تلون فيه ولا اختلاف على شيء ، اخوان في دين الله يتعاطفون ويتعاونون فيما بينهم تماماً كالأسرة الواحدة ، وأعوان للحق وأهله ، وحرب على الباطل وحزبه .. وهذه هي بالذات صفة الخالص من أصحاب محمد (ص) بشهادة الله تعالى حيث عطفهم على نبيه الكريم، ووصفهم واياهم بالغضب لله والرضا لله .. وأدرك هذا الدكتور طه حسين ، وهو الأديب الذي يفهم بالاشارة ولحن الدلالة، قال في كتاب « مرآة الاسلام » : « لم يكن اسلام الأنبياء طاعة ظاهرة ، وإنما كان إسلامهم أوسع وأعمق وأصدق ما يمكن أن يكون الاسلام ، وإسلام الصالحين من أصحاب النبي (ص) كذلك لم يكن ضيقاً يقف عند الطاعة الظاهرة ، وإنما كان أوسع وأعمق من هنا » .

الجزء السادس والعشرون

ثم ضرب الدكتور طه عمار بن ياسر مثلاً على هذا الاسلام الواسع العميق وقال : « كان عمار بن ياسر يقاتل مع علي بصفتين في حماس أي حماس ، وهو شيخ قد بلغ التسعين أو تجاوزها ، وكان يقاتل عن ايمان أي ايمان بأنه بدافع عن الحق ، وكان يوم قتل يخرس الناس ويقول : من راثع الى الجنة ؟ اليوم ألفى الأعبة محمداً وحزبه .. وكان قتل عمار تثنياً لعلي والصالحين من أصحابه ، وتشكيكاً لمعاوية ومن معه ، ذلك ان كثيراً من المهاجرين والأنصار رأوا النبي (ص) يمسح رأس عمار ويقول له : وبحك يا ابن سمية تقتلك الفئة الباغية » .

(تراهم ركعاً سجداً) أي ان منظرهم يوحي الى الرائي بأنهم من أهل الركوع والسجود ، وان لم يرههم راكعين ساجدين (يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيأهم في وجوههم . أثر السجود) . ليس المراد بأثر السجود هنا سواد الجبهة ، كلا فإن أكثر هذا السواد أو الكثير منه رياء ونفاق ، وانما المراد به الصفاء والاشراق الذي يحدث بالوجه من أثر العبادة ، والمعنى ان الصحابة ركعوا وسجدوا رغبة في مرضاة الله وثوابه ، وخوفاً من غضبه وعقابه ، وقد تجلى اثر ذلك في وجوههم لكل متوسم ، لأن العبادة الخالصة لوجهه تعالى تحدث في نفس العابد المخلص طهراً وصفاء تظهر دلالة على صفحات الوجه تماماً كما تظهر عليه دلائل الحزن والفرح .

(ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الانجيل كزرع أخرج شطأه فأزره فاستغلظ فاستوى على سوقه) . هذا كناية عن ان أصحاب الرسول (ص) يكونون في البداية قليلاً ، ثم يزدادون ويكثرون .. وتوضيح هذه الكناية أو هذا المثل ان التوراة والانجيل قد بشرتا بمحمد (ص) ، ووصفا أصحابه بزرع نما وأينع وكثرت ثماره وفروعه ، واشتبك بعضها ببعض ، واستقامت على أصولها ، وبلغت غايتها من القوة والكثافة (يعجب الزراع) بحسنه ونموه .. وغير بعيد أن يكون المراد بالزرع هنا رسول الله (ص) ما دام المراد بالزرع أصحابه (ص) لأنه هو الذي رفعهم الى ما بلغوه من العظمة وعلو الدرجات ، وبفضله انتصروا في المعارك التي خاضوها في عهده ومن بعده . وقال سبحانه « الزراع » ولم يقل الزارع تعظيماً لشأن الرسول (ص) . نقول هذا على سبيل الاحتمال ، وقد سبقنا اليه من قرأ

سورة الفتح

«الزراع» . (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيماً) .
المعنى واضح . وتقدم مثله في الآية ٩ من سورة المائدة ج ٣ ص ٢٦ .

هل الاثنا عشرية باطنيون ؟

نشر الأديب المصري الدكتور مصطفى محمود على التوالي ١٣ مقالاً في مجلة « صباح الخير » ، تكلم فيها عن إعجاز القرآن ، وقصة الخلق ، وبعض الموضوعات الغيبية ، ثم جمع المقالات في كتاب أسماه « محاولة لفهم عصري للقرآن » وطبع ووزع في الشهر الثالث أو الرابع من سنة ١٩٧٠ ، وفي مقال « رب واحد ودين واحد » عد المؤلف الشيعة الاثني عشرية مع الفرق الباطنية ، وانهم تماماً كاليابية والخوراج يفسرون القرآن تفسيراً باطنياً ، فكتبت اليه بأن الاثني عشرية أبعد الناس عن هذه البدع والضلالات ، وان كتبهم تشهد بذلك ، وهي في تناول كل يد ، وأرشدته الى بعضها ، والى ما قاله شيوخ الأزهر المنتصفين عن الشيعة الإمامية كالمرحوم الشيخ شلتوت ، وغيرهم ممن نشروا في مجلة « الاسلام » التي تصدر في القاهرة عن « دار التقريب » .

وفي مساء ١٥ - ٤ - ١٩٧٠ ارتفع صوت الهاتف ، واذا بالدكتور مصطفى محمود يكلمني من « تريونف اوتيل » بيروت .. واجتمعنا لأول مرة ، وتحدثنا عن كتابه « الله والانسان » ، ورددي عليه بكتاب « الله والعقل » .. ثم موعداً ولقاء بيبي في اليوم التالي ، وكان حديثنا عن الاسلام والباطنية ، فقال الأديب المصري فيما قال : « ان بعض الشيعة يفسرون مرج البحرين يلتقيان بعلي وفاطمة » .

قلت له : هل من العدل والمنطق أن تُدان طائفة تبلغ عشرات الملايين بقول واحد منها لا يمثل إلا نفسه ؟ وهل من الضروري اذا فسر شيخ آية قرآنية تفسيراً باطنياً أن تكون طائفته باطنية تدين بالتفسير الباطني للقرآن ، واذا فسر أديب مصري بيتاً من الشعر تفسيراً رمزياً أن يكون جميع الشعراء وكل من يفسر الشعر

(١) واجاد في تصوير الموسيقى الباطنية في القرآن . انظر ما كتبناه بهذا العنوان في ج ٦ ص ٣٠٠ .

الجزء السادس والعشرون

في مصر رمزيين . وان للشعبة الاثني عشرية كتباً في العقائد تسالموا عليها وأجمعوا على الأخذ بها ، كأوائل المقالات للشيخ المفيد، وقواعد العقائد لنصير الدين الطوسي ، وشرحه للعلامة الحلبي ، وما جاء في شرح التجريد من التوحيد وصفات الله والقضاء والقدر والنبوة والإمامة والمعاد .

وكانت تظهر أمامي - وأنا أبحث وأنتقب في المصادر - تفسير باطنية لشيوخ من السنة ، فأهلها لأنها لا تلتقي مع تفسيري وغايتي في شيء ... وحين احتج الدكتور بمرج البحرين فكرت طويلاً لعملي أتذكر تفسيراً واحداً من تلك التفسير لأتقضى به قول الدكتور ، فخذلني الذاكرة وأنا في أشد الحاجة الى مؤازرتها .. ثم انتقلنا الى موضوع آخر .. ومن الصدق اني كنت أفسر سورة الفتح حين جرى النقاش بيننا ، وفي اليوم التالي وصلت بالتفسير الى قوله تعالى : « كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه » وإذا بقي أقرأ في تفسير روح البيان لاسماعيل حقي والتسهيل للحافظ بن أحمد الكلبي ، وهما من أهل السنة ، قرأت فيها ما نعصه بالحرف : « كزرع أخرج شطأه بأبي بكر ، فآزره بعمر ، فاستغلظ بعثمان فاستوى على سوقه بعلي » . فانتقل بي هذا التفسير الباطني الى ما قرأته منذ زمان في كتاب حياة الامام أبي حنيفة للسيد عفيفي ان السيوطي قال : « ذكر العلماء ان النبي (ص) بشر بالإمام مالك في حديث : « يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل يطلبون العلم فلا يجدون أعلم من عالم بالمدينة » وبشر بالإمام الشافعي في حديث : « لا تسبوا قريباً فإن عالمها يملأ الأرض علماً » وبشر بالإمام أبي حنيفة في حديث : « لو كان العلم معلقاً عند الثريا لتناوله رجال من أبناء فارس » .

وفي الحال اتصلت هاتفاً بالدكتور مصطفى محمود ، وقرأت له تفسير الكلبي وحقي ، وقلت له : هل تجيزني أن أنسب هذا التفسير الى جميع السنة واجعلهم والبايين سواء كما فعلت أنت ونسبت الاثني عشرية الى ما نسبت لا لشيء إلا لأن واحداً منهم قال ما قال ؟ فا زاد في الجواب شيئاً على قوله : « تمام .. تمام » .

سورة الحجرات

١٨ آية مدنية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي الآية ١ - ٥ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقَدَّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ
إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ
صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ
أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ
اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ *
إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ
صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ *

اللغة :

امتحن قلوبهم للتقوى أي أخلصها للتقوى من امتحن الذهب بانداز وأذابه ليميز
جيده من رديته . والحجرات جمع حجرة ومن ورائها أي من خارجها .

الإعراب :

لا تقدموا الأصل لا تقدموا . أصواتكم منصوبة بالفتحة لأن التاء من أصل الكلمة. والمصدر من أن تحبط مفعول من أجله لا ولا تجهروا. وأولئك الذين امتحن الله الخ مبتدأ وخبر والجملة خبر ان الذين يفضون . ولهم مفعلة جملة ثانية . والمصدر من انهم صبروا فاعل لفعل محنوف أي لو ثبت صبرهم .

المعنى :

ذكر سبحانه المؤمنين في هذه الآية بأمور :

١ - (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله) . لا تسرعوا الى قول أو فعل يتصل بالدين والصالح العام حتى يقضي به الله على لسان رسوله الكريم (واتقوا الله ان الله سميع عليم) . في نهج البلاغة : « اتق الله بعض التقى وإن قل ، واجعل بينك وبين الله سترأ ، وإن رق ، وأدنى شيء يتقي به الانسان خالقه أن يكف عن قول : لو أحل الله هذا الشيء الذي حرم ، أو حرم ذلك الذي أحل ، وبا ليت النبي فعل كذا ، أو لم يفعل الذي فعل ، وما الى ذلك من الجرأة والجمل .

٢ - (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) . رفع الصوت بلا ضرورة غير مستحسن ، قال سبحانه : « واخفض من صوتك إن انكر الأصوات لصوت الحمير - ١٩ لقمان ، ج ٦ ص ١٦٣ فكيف إذا ارتفع في محضر العطاء ومجلسهم ؟ والرسول الأعظم (ص) سيد النبيين وأشرف الخلق أجمعين .

٣ - (ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ان تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون) . لا تخاطبوا النبي (ص) كما يخاطب بعضكم بعضاً ، ومن يفعل ذلك فقد أبطل إيمانه من حيث لا يريد ولا يشعر ، ومن بطل إيمانه بطل عمله ، وكان من الخاسرين (ان الذين يفضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن

سورة الحجرات

الله قلوبهم للتقوى - أي أخلصها للعمل الصالح - لهم مغفرة وأجر عظيم) .
 يتلى الله عباده بأنواع المحن ليتذكر متذكر ، ويزدجر مزدجر ، فمن تذكر وصر
 استخلصه الله وهداه سواء السبيل ، وأنعم عليه بالظفران وأجر الصابرين ، وتوسم
 الآية الى أن الخطاب المهذب والأسلوب اللائق - من الإيمان ، قال الإمام علي (ع) :
 « لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه » .
 (ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون) . الخطاب في
 ينادونك لرَسُول الله (ص) ، والحجرات جمع حجرة ، وهي الغرفة ، وكان
 للنبي (ص) تسع زوجات لكل واحدة منهن حجرة من جريد النخل ، وعلى بابها
 ستار من الشعر . وقال المفسرون : انطلق ناس من العرب الى المدينة ، ووقفوا
 وراء حجرات النبي ونادوا يا محمد اخرج الينا ، فربص النبي قليلاً ثم خرج
 اليهم ، ووصفهم سبحانه بأن أكثرهم لا يعقلون لما في فعلهم ذلك من البداوة
 والجفاء (ولو أنهم صبروا حتى تخرج اليهم لكان خيراً لهم) لأن في الأناة
 وترك العجلة أجراً لهم وثواباً ، وتعظيماً لرسول الله ، ورعاية للأدب (والله
 غفور رحيم) تتسع رحمته ومغفرته للهمج الرعاع وغيرهم .

ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا الآية ٦ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا
 بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَيَّ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ *

اللغة :

بجهالة أي بغير علم .

الإعراب :

المصدر من أن تصيبوا مفعول من أجله لتبينوا أي لتلا تصيبوا . فتصبجوا منصوب بأن مضمرة . ونادمين خبر تصبجوا .

المعنى :

اشتهر بين المفسرين ان رسول الله (ص) بعث الوليد بن عقبة بن أبي معيط الى بني المصطلق ليأخذ منهم الزكاة ، فاستقبلوه بمجمعهم تكريماً له ، ولكنه ظن بهم الشر وانهم يريدون الايقاع به ، فانصرف الى النبي (ص) وقال له : ممنوني وطردوني . فغضب النبي (ص) وقال له بعض الصحابة : نفزوهم يا رسول الله . فنزلت الآية في تبرئة بني المصطلق ، وقيل غير ذلك في سبب نزولها .. ونحن لا نثق بشيء من أسباب النزول إلا اذا ثبت بنص القرآن أو بخبر متواتر ، بالإضافة الى ان ظن الوليد بالشر لا يستوجب الفسق ، وانما هو خطأ واشتباه ، والمخطيء لا يسمى فاسقاً وإلا استحق اللوم والعقوبة حتى ولو تحفظ واجتهد .

وأبأ كان سبب النزول فإن الآية لا تقتصر عليه ، بسبب تعداه الى غيره لأن المورد لا يخصص الوارد ، ولا فرق بينه وبين غيره من أفراد العام ، وانما ذكر بالذات لأمر لا يمت الى تخصيص اللفظ بصلة ، وعليه يجب الأخذ بظاهر الآية ، وهو يدل على حرمة الأخذ بقول الفاسق دون التمهيص والتثبت من خبره خوفاً من الوقوع فيما لا تحمد عقباه كالإضرار بالآخرين والتدامة حيث لا ينفع الندم ، وبكلمة الإمام علي (ع) « من سلك الطريق الواضح ورد الماء ، ومن خالف وقع في التيه » وهذا نجد تفسير قوله تعالى : « أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبجوا على ما فعلتم نادمين » .

واستدل بهذه الآية جماعة من شيوخ العنة والشيعة على وجوب الأخذ بقول الثقة مطلقاً بلا شرط البحث عن صدقه فيما أخبر، وشرح بعضهم وجه الاستدلال بكلام خامض وممقد ، ويتضح بأن الآية تضمنت مبدأ عاماً يقاس به الخبر الذي لا يصح الاعتماد عليه والعمل به إلا بعد التثبت وهو خبر الفاسق ، وأيضاً يقاس به الخبر

سورة الحجرات

الذي يعتمد عليه مطلقاً ومن غير تثبيت وهو خبر الثقة ، لأن الله سبحانه وأناط الاعتماد على خبر الفاسق بالتبين والتثبيت ، ولم يتعرض لخبر الثقة ، ومعنى هذا ان العمل بخبر الثقة لا يجب فيه التثبيت ، ولو وجب لبيّن واشترط التثبيت فيه تماماً كما اشترطه في خبر الفاسق ، وحيث لا بيان فلا شرط .

وفي رأينا ان قوله تعالى : « ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ، لا يدل إلا على وجوب التثبيت من خبر الفاسق ، وان هذا الشرط لا بد منه قبل العمل بخبر الفاسق ، ولا دلالة للآية على هذا الشرط بالنسبة الى خبر الثقة ، لا نقياً ولا اثباتاً .. ونحن مع القائلين بأن السند الأول للأخذ بخبر الثقة هو طريقة العقلاء قديماً وحديثاً ، وسكوت الشارع عنها ، وهي بمرأى منه ومسمع .. أجل ، ان قوله تعالى : « ان تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم ناديين » يوسء الى ان أي خبر نأمن معه من الوقوع في الشبهات والمحرمات يجوز العمل به أياً كان المخبر .. وبالبداهة لا نكون آمنين من ذلك إلا بالاعتماد على قول الثقة ، أو بعد التثبيت من خبر الفاسق .

الله حب اليكم الايمان الآية ٧ - ٨ :

وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ
وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ
الْكَفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ * فَضَلَّآ مِنِ اللَّهِ
وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ *

اللغة :

عنتم أصابكم نعب ومشقة . والمراد بالفسوق هنا القول المحرم كالكذب والغيبة
أما العصيان فيشمل معصية الله بالقول والفعل .

الإعراب :

فيكم خبر ان ورسول الله اسمها ، والفرض من هذا الاخبار أن يعظموا الرسول ، ولا يخبروه إلا بالصدق والواقع . فضلاً منصوب على المصدر أو مفعول من أجله لفعل محذوف أي فعل الله ذلك تفضلاً وانعاماً .

المعنى :

(واعلموا ان فيكم رسول الله) وأشرف الأولين والآخرين ، فعليكم أن تعظموه ولا تخبروه إلا بالحق والصدق (لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم) . هذا أمر من الله تعالى موجه الى المؤمنين بأن يسموا للرسول ويطيعوا ولا يشيروا عليه بما يعلم من الله ما لا يعلمون، ولو استجاب الى الكثير مما يدعونه اليه لتعبوا ووقعوا في الجهد والإثم .

(ولكن الله حيب اليكم الايمان وزينه في قلوبكم وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون) . أمر الله عباده أن يؤمنوا به ويطيعوه ، وبين لهم محاسن الايمان والطاعة ، ورجبتهم في ذلك بكل أسلوب ، ووعد من آمن وعمل صالحاً بالثواب الجزيل والأجر العظيم ، ونهاهم عن الكفر والمعصية وبين مساوئها ، وهدد من كفر وعصى بأشد العذاب، ووصف هذا العذاب بما لا يمكن أن يحده عقل أو يتصوره انسان إلا بعد البيان ، وأي انسان يتصور عذاباً ما هو بالموت ولا بالحياة !

وأرسل سبحانه رسله الى الناس ليبلغوا أمره ونبيه ووعدته ووعيده ، فمنهم من استجاب حقاً وصدقاً ، ومنهم من أعرض وعاند ، ومنهم من استجاب خوفاً على مصالحه وطمعاً بالغنيمة ، والذين استجابوا لله والرسول حقاً وصدقاً في كل ما دعا اليه هم الراشدون المعنيون بقوله تعالى : « حيب اليكم الايمان وزينه في قلوبكم ، الخ . أي حيبه سبحانه اليهم وزينه في قلوبهم بما بينه من محاسن الايمان والترغيب فيه بالثواب الجزيل ، وكرههم في الكفر بما بينته من مساوئه، والتهديد عليه بالعذاب الأليم .

سورة الحجرات

وتسأل : ان الله سبحانه يبيّن ذلك للمؤمنين والكافرين ، فلماذا خص المؤمنين بالذكر دون غيرهم ؟ .

الجواب : أجل ، ولكن ما كل من سمع ببيان الله آمن وانضج به ، ولا كل من نصحه الله قبل نصيحته ، بل قبل الطيرون وأعرض المجرمون ، فذكر سبحانه وأنهى على من استمع القول فاتبع أحسنه ، وأهمل من أعرض وتولى (فضلاً من الله ونعمة والله عليم حكيم) . ليس من شك ان الذي يختار الهدى على الضلال له الفضل والأجر ، ولكن الفضل الأكبر لمن مهّد طريق الهدى وأرشد اليه وزود السالك بالقدرة على سلوكه ، وقدماً قيل : وما السبب لو لم ينجح السبب .

وان طائفتان من المؤمنين اقتتلا الآية ٩ - ١٠ :

وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ *

اللغة :

تفيء ترجع . واقسطوا اعدلوا .

الإعراب :

طائفتان فاعل لفعل مقدر أي وان اقتتل طائفتان . وجمع سبحانه و اقتتلا ،

بالنظر الى المعنى لأن الطائفة جماعة من الناس ، وثى « بينها » بالنظر الى لفظ طائفتين .

المعنى :

(وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينها) . للاسلام تعاليم وإرشادات لبناء المجتمع وإصلاحه ، منها وجوب حماية الانسان في دمه وماله وعرضه، وحرية في القول والفعل ، لا سلطان عليه لأحد ولا لشيء إلا الحق ، فإذا خرج عنه وانتهك حرمة بالاعتداء على الآخرين فقد رفع هو الحصانة عن نفسه ، قال تعالى : « ولقد كرمنا بني آدم - ٧٠ الإسراء » أنظر ج ٥ ص ٦٦ قسرة « بماذا كرم الله بني آدم » . وقال مخاطباً نبيه الكريم : « لست عليهم بمسيطر - ٢٢ الغاشية » . وقال : « انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويغيثون في الأرض بغير الحق - ٤٢ الشورى » .

ومنها التعاطف والتكافل بما يعود على الجميع بالخير والصلاح، فإذا ما حدث خصام وقاتل بين فئتين من المؤمنين فعلى المؤمنين الآخرين أن يتلافوا ذلك ، ويصلحوا على أساس الحق والعدل حرصاً على وحدة الجماعة وجمع الشمل ، وفي الحديث الشريف : « الا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال : اصلاح ذات البين .

(فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلتا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله) . إذا أبت إحدى الفئتين الرضوخ للحق بالحسنى، وأصرت على العدوان فعلى المؤمنين الآخرين ان يحموا الفئة الأخرى من الظلم بالحكمة والموعظة الحسنة ، فإن لم ترتدع الفئة الباغية إلا بالقتال قاتلوا في حدود التأديب والدفاع المشروع الذي يحقق الأمن للجميع (فإن فاءت فاصلحوا بينها بالعدل واقسطوا ان الله يحب المقسطين) . فإن تابت الفئة الباغية ، وانتهت عن بغيتها فإن الله غفور رحيم ، وما لأحدٍ عليها من سبيل ، وعلى المؤمنين أن يبذلوا الجهد لازالة ما حدث في نفوس الطرفين . وقال الجصاص الحنفي في كتاب أحكام القرآن ، وهو يتكلم حول هذه الآية:

سورة الحجرات

« قاتل علي بن أبي طالب الفئة الباغية بالسيف ، ومعه كبراء الصحابة وأهمل بدر من قد علم مكانهم ، وكان محقاً في قتاله لهم لم يخالف فيه أحداً إلا الفئة الباغية التي قاتلته واتباعها .. وقال أبو بكر المالكى المعروف بابن العربي المعافري في أحكام القرآن : « تقرر عند علماء الاسلام ، وثبت بدليل الدين ان علي بن أبي طالب كان إماماً ، وان كل من خرج عليه باغٍ ، وان قتاله واجب حتى ينفي الى الحق . »

الاحوة الدينية والاحوة الانسانية :

(انما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون) . هذا تأكيد للأمر بإصلاح ذات البين مع الاشارة الى أن هذا الاصلاح تفرضه رابطة الاحوة . وفي الحديث : المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يعيبه .

وتسأل : لماذا قال سبحانه : انما المؤمنون اخوة ، ولم يقل : انما الناس اخوة ، وقال الرسول الأعظم (ص) : المسلم أخو المسلم ، ولم يقل : الانسان أخو الانسان ؟ مع العلم بأن الرب واحد والأصل واحد والحلقة واحدة والمساواة بين بني الانسان واجبة ، فالحب ينبغي أن يكون عاماً لا خاصاً تماماً كرحمة الله التي وسعت كل شيء ؟. وأي فرق بين أن نقسم بني آدم على أساس ديني أو اقتصادي كما فعلت الماركسية أو على أساس الجنس والعرق كما دانت النازية أو على أساس النار والدولار كما هي السياسة الأمريكية ؟. ثم ما هو السبب لما عانته وتعاينته الانسانية من الويلات والمشكلات التي تقودها الآن الى المصير المدمر المهلك بعد أن ملك الانسان أبشع قوى التدمير والاهلاك ؟. هل يكمن هذا السبب في طبيعة الانسان بما هو انسان أو ان السبب الأول والأخير يكمن في الانقسامات بشقي أنواعها ؟. وبالتالي هل على بني الانسان أن يتعاطفوا ويتراحوا على أساس ديني أو أساس انساني ؟.

الجواب : هذه التساؤلات بكاملها حق ، وجوابها واحد وواضح تحمله هذه التساؤلات معها وتدل عليه كلماتها ، وهو ان التعاون والتكافل يجب أن يكون بين

الجزء السادس والعشرون

بني الانسان قاطبة دون استثناء، وهذه هي دعوة الاسلام بالذات، وبدل عليها عشرات الآيات والروايات ، نكتفي منها بذكر آية ورواية ، قال تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم - ١٣ الحجرات . فنداؤه تعالى بيا أيها الناس مع قوله : من ذكر وأنثى .. وأتقاكم دليل قاطع وواضح على ان دعوة القرآن انسانية عالمية تعتبر الانسان أنحاً للانسان مهما كانت عقيدته وقوميته وجنسيته ، ومثل هذه الآية معنى ووضوحاً قول الرسول الأعظم (ص) : « الناس سواسية كأسنان المشط ، ألا لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأحمر على أسود ، ولا لأسود على أحر إلا بالتقوى .. كلكم من آدم وآدم من تراب . . . بالاضافة الى الآية ٣٠ من سورة الروم التي تنص على ان دين الاسلام هو دين الفطرة ، والآية ٢٣ من سورة الأنفال التي تدل على ان دين الله هو دين الحياة .

وبهذا يتبين معنا ان كتاب الله وسنة رسوله يعتبران الايمان بالانسان جزءاً متمماً للإيمان بالله ورسله وكتبه ، وعليه يكون المراد بالمؤمن في الآية والمسلم في الحديث هو الذي يؤمن بالله وبالانسان بما هو انسان .. وبكلام آخر لا صراع ولا تناقض بين الاخوة الانسانية والاخوة الاسلامية ، بل هذه تدعم تلك، وتريدها قوة ورسوخاً .

لا يسخر قوم من قوم الآية ١١ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءِ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِاللُّغَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ *

سورة الحجرات

اللغة :

قيل : ان كلمة قوم لا تقع إلا على الذكور بدليل عطف النساء عليهم واللمز الطعن والعيب بقول أو فعل يقال : لزمه أي عابه . والنيز اللقب ، ولكن المراد هنا بتنازوا بالألقاب تعابروا بها ولقب بعضهم بعضاً بالعيب المكروه . والمراد بالاسم الفسوق ذكر العيب .

الإعراب :

عسى هنا تامة والمصدر من ان يكونوا فاعل . وهم ضمير فصل .

المعنى :

(يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكنّ خيراً منهن) . عند تفسير الآية ٥٥ من سورة الفرقان ج ٥ ص ٤٧٨ قلنا : ان الظالم يعامله الله غداً معاملة الكافر ، وان عومل في الدنيا معاملة المسلم اذا نطق بالشهادتين .. ومن سخر من الأبرياء فهو ظالم وسفيه ، وقد هدده الله بأشد العقوبات ، من ذلك قوله عز من قائل : « فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم - ٨٠ التوبة » . وقوله : « إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون وإذا مروا بهم يتغامزون وإذا انقلبوا الى أهلهم انقلبوا فكهين - الى - فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون » . آخر المطففين وقوله : « ويل لكل همزة لمزة » .

كيف تكسب الأصدقاء ؟

تذكرت ، وأنا أفسر هذه الآية ، اني منذ ١٦ سنة أو أكثر قرأت ترجمة كتاب « كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر بالناس » لـ « دابل كارنيجي » . وأيضاً

الجزء السادس والعشرون

تذكرت حكمة بالغة للإمام زين العابدين (ع) تتصل بهذا الموضوع ، وهي أجمع وأبلغ أثراً من الكتاب المذكور على الرغم من رواجه وترجمته الى أكثر من لغة.. وكان الإمام يقصد بحكمته تفسير قوله تعالى : « لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم » . وهذه هي :

« اياك أن تتكلم بما سبق الى القلب أنكاره وان كان عندك اعتذاره ، فليس كل من تُسممه شراً يمكنك أن تُوسعه عنراً .. واجعل من هو أكبر منك بمنزلة الوالد ، والصغير بمنزلة الولد ، والترب بمنزلة الأخ ، فأبي هؤلاء تحب أن تهتك ستره ؟ وان عرض لك الشيطان ان لك فضلاً على غيرك فانظر : ان كان أكبر منك فقل : قد سبقني بالايمان والعمل الصالح فهو خير مني ، وان كان أصغر منك فقل : قد سبقته بالمعاصي والذنوب فهو خير مني ، وان كان تريك فقل : أنا على يقين من ذنبي وفي شك من أمره فما لي أدع يقيني لشكبي ، وان رأيت الناس يعظمونك فقل : هذا فضل أخذوا به ، وان رأيت منهم جفاء فقل : هذا للذنب أحدثه ، فإنك ان فعلت ذلك سهل الله عليك عيشك وكثر أصدقاؤك وقل أعدائك ، وفرحت بهمهم ، ولم تأسف على جفاء من جفاك » .

ومها قال العلماء والحكماء في هذا الموضوع فلن يزيدوا شيئاً عما انطوت عليه هذه الحكمة البالغة ... ولا بدع فإن قائلها ابن الوحي ، وخازن علمه، والمتأدب بأدبه .

(ولا تلمزوا أنفسكم) . لا يظن بعضكم على بعض ، ولا تقولوا لأحد ما لا يحبون أن يقال لكم (ولا تنابزوا بالألقاب) . لا يخاطب أحدكم غيره بلقب يكرهه ، وقال الفقهاء : إذا لم يُقصد من اللقب النقص والاستخفاف فلا بأس، كالأعرج والأحبد والأعمش لمن اشتهر بذلك (بنس الاسم الفسوق بعد الايمان). فيه تفسيران : الأول لا تقولوا للمؤمن : يا كافر وما أشبه . الثاني من عاب غيره بما يكره يصير فاسقاً بعد ان كان مؤمناً ، وهذا أرجح من الأول عند كثير من المفسرين (ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون) . من تاب من الذنب كمن لا ذنب له ، ومن أصر عليه فقد ظلم نفسه لأن الله يتنم من المذنبين

سورة الحجرات

الظن والتجسس والغيبة الآية ١٢ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ
وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُّبُ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ
أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهَتْهُمُوهُ وَأَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ*

الإعراب :

المصدر من أن يأكل مفعول يجب . وميتاً حال من اللحم .

المعنى :

في الآية السابقة نهى سبحانه عن السخرية واللمز والتنازير بالألقاب ، وندد بمن
يفعل شيئاً من ذلك ، وفي هذه الآية نهى عن سوء الظن والتجسس والغيبة ،
والتفصيل فيما يلي :

الظن :

١ - (يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ان بعض الظن إثم). هذه
الفقرة من الآية يمكن تلخيصها بجملة واحدة هي كل انسان بريء حتى تثبت
ادانته ، ويمكن أن نشرحها بمصاحفات طوال ، فنحدد ما يقتضيه الأصل في الظن
هل هو صحة الأحذبة ، أو وجوب الاجتناب عنه في سائر الأحوال ، أو عند
تعذر العلم ؟ وهل العلم بالأحكام الشرعية الفرعية متعذر أو غير متعذر ؟ وعلى
الأول هل نأخذ بكل ظن أياً كان سببه وكانت مرتبته ؟ وعلى الثاني ما هي
للمسائل العلمية الى الأحكام الشرعية ؟ الى آخر التفريعات المدونة في أصول الفقه

التي أمضينا في دراستها أمدأ غير قصير . ومن الخير أن نلتزم التفسير الوسط بين الإيجاز والاطناب . وقبل كل شيء نمهد ببيان الفرق بين الشك والظن والعلم ، فالشك ذو استواء كفتي الاحتمالين اثباتاً ونفيّاً ، والظن ترجح كفة أحدهما على الآخر ، مع بقاء الطريق مفتوحاً للذي خف ميزانه ، والعلم تعين أحدهما مع سد الطريق على الآخر من الأساس .

وقد تظن بإنسان خيراً أو شراً ، وقد تكون مصيباً في ظنك أو مخطئاً .. ولا بأس عليك اطلاقاً في حسن الظن بأخيك أصبت أو أخطأت ، ظهر اثر ذلك في أقوالك وأفعالك أو لم يظهر ، قال الرسول الأعظم (ص) : « ظنوا بالمومنين خيراً » . وقال الإمام علي (ع) : « ضع أمر أخيك على أحسنه » . أنظر ج ١ ص ١٤١ فقرة « أصل الصحة » . وبهذا يتبين معنا لماذا قال سبحانه : « اجتنبوا كثيراً من الظن » ولم يقل : كل الظن ، فإن كلمة كل من صيغ العموم تشمل حسن الظن وسوء الظن ، أما كلمة كثير فقد تستعمل بمعنى بعض وبمعنى معظم ، وهذا هو المراد بكلمة كثير في الآية ، والقصد هو حصر موضوع الآية ودلالاتها بسوء الظن .

وسوء الظن من حيث هو ودون أن يظهر أثره في قول أو فعل - ما هو محرم وصاحبه غير مسؤول عنه ، لأن الانسان لا حرية له في ظنونه وتصوراته ، وإنما توحى بها الظروف والأسباب الخارجة عن ارادته واختياره .. أجل ، عليه أن لا يعول على ظن السوء ، ويعتبره كأنه لم يكن ، وإذا عول عليه وظهر اثر ذلك في قول أو فعل كان مسؤولاً ومستحقاً للذم والعقاب ، وهذا هو الظن الذي أراده سبحانه بقوله : « ان بعض الظن إثم » . قال الرسول الأعظم (ص) : « ثلاثة لا يسلم منها أحد : الطيرة ، والحسد ، والظن .. فإذا تطيرت فامض ، وإذا حسدت فلا تبغ ، وإذا ظننت فلا تحقق » . وعلى هذا يكون معنى قوله تعالى : « اجتنبوا كثيراً من الظن » لا تمولوا عليه ، ولا تعملوا به تماماً مثل قوله : « لا يفتنكم الشيطان » .

٢ - (ولا تجسسوا) . التجسس تتبع العورات والعثرات . ، والبحث عنها في الخفاء ، وهو محرم كتاباً وسنة وإجماعاً وعقلاً ، فن الكتاب قوله تعالى : « ولا تجسسوا » . وقوله : « لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم - الى - حتى يؤذن لكم - ٢٨ النور ، ج ٥ ص ٤١٢ . ومن السنة قول الرسول الأعظم (ص) : « من اطلع عليك فحذفته بحصاة ففقت عينيه فلا جناح عليك » . وقد أجمع الفقهاء قولاً واحداً على العمل بهذا الحديث . أما العقل فإنه يعتبر التجسس غزواً لحياة الناس ، واعتداء على حرياتهم وأشيائهم الخاصة بهم من معلومات وعادات .

تذكرت ، وأنا أكتب هذه الكلمات مقالاً مطولاً في هذا الموضوع ، نشرته جريدة الأهرام عدد ٢٧ - ٦ - ١٩٦٩ ، قرأته آنذاك ، واحتفظت به في ملف قصاصات الصحف التي احتفظ بها وادخرها الى وقت الحاجة ، فرجعت الى المقال ، وقرأته من جديد ، فإذا بي أقرأ ما لا يلبغه الخيال ، وفيما يلي بعض ما جاء فيه :

« لقد تساقطت الجدران في الولايات المتحدة حتى أصبح الأمريكيون بفضل الغزو الالكتروني المنظم يشعرون بأن الجدران ليست لها آذان وحسب ، بل عيون وعدسات أيضاً ، كما تقول مجلة التايم .. لقد اخترعوا في الولايات المتحدة جهازاً بحجم المليم الصغير ، يترق ويسجل السمع ، ويمكن وضعه في « الجاكت » كالزرر ، وهو في متناول كل فرد ، ويتراوح ثمنه بين ١٠ و ١٥ دولاراً .. وفي نيويورك تجار يعلنون في الصحف عن أجهزة تسرق السمع من بيوت الناس ومنازلهم ، وتعرض في الأسواق كلبب الأطفال ، ولا يزيد ثمنها على ١٨ دولاراً ، وإذا وُضع واحد من هذه الأجهزة في سيارة تقبع في اتجاه العمارة - سجل كل كلمة تقال في داخل العمارة .. بل هناك جهاز لاستراق السمع لا يزيد حجمه على حبة العدس الصغيرة يمكن أن يوضع في القلم وما أشبه ، وتعمل بطاريتيه بين ١٨ و ٥٠ ساعة .. وأيضاً اخترعوا في الولايات المتحدة جهازاً صغيراً للارسال ، يلبس ما يدور في البيوت على بعد ٥٠ قدماً منها ، وثمانه ٤٠٠ دولار .. وأعجب من ذلك

الجزء السادس والعشرون

كله كاميرا تصور من وراء الجدران كل ما يفعله الانسان بالحمام والمخدع في أحلك الظلمات .. وأيضاً يمكن رسم وشم على الطفل ساعة ولادته ، وبسبه تُرصد جميع حركاته طول حياته .. ويوجد في أنحاء الولايات المتحدة شركات تجمع المعلومات والتحركات الخاصة للشخصيات السياسية والعلمية والأدبية والمالية وغيرهم وتسجل أقوالهم وتصور أفعالهم حتى الجنسية مع الزوجات وغيرهن ، وتزود من شاء هذه المعلومات مقابل دولار واحد ، وتسمى هذه الشركات بنوك المعلومات.. كل ذلك وما اليه يحدث على علم من السلطة دون أن تحرك ساكناً ، لأنه معتاد ومألوف تماماً كبيع الجرائد .

هذا قليل من كثير .. فقد ألفت الباحثون كتباً خاصة في هذا الموضوع، ولو اقتصر تجسس الأمريكيين على بعضهم البعض لقلنا مع الموالين لهم : ان لكل بلد تمام الحرية في أن يختار لنفسه ما يشاء .. ولكن الأمريكيين تجاوزوا ذلك الى التجسس على دول الأرض وشعوبها بالطائرات والأقمار الصناعية .. ولا تعجب أيها القارئ فإن الولايات المتحدة بلد الحضارة والديمقراطية ، وسيدة العالم الحر ، وقائدة الاستعمار الجديد ، وفوق ذلك تؤمن بالله والمثل العليا .. ولا شيء أدل على إيمانها بالله واليوم الآخر من مذبحه « سنونج ماي »^١ بفييتنام الجنوبية ، ومن تزويدها اسرائيل بأحدث الأسلحة لتتضي بها على شعب فلسطين ، وتقتل أبناءه بالجملة ، وتلقي الصواريخ من طائرات الفانتوم على أطفال المدارس في الجمهورية العربية المتحدة .. حقاً ان الولايات المتحدة أعظم دولة في هذا الميدان .. والعاقبة للمتقين .

الفية :

٣- (ولا يغضب بضمضمك بعضاً أيجب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه

١ هي قرية مسالمة تضم ٥٠٠ نسمة معظمهم من الشيوخ والنساء والاطفال ، ذبح الجنود الامريكويون جميع من فيها بابشع صورة ، ولم يبقوا منها باقية ٠٠ حدثت هذه الجريمة المذمعة في الشهر الثالث من سنة ١٩٦٨ .

سورة الحجرات

واتقوا الله ان الله تواب رحيم . الغيبة أن تذكر شخصاً معيناً بما يكره ، قال الرسول الأعظم (ص) : « الغيبة ذكرك أخاك بما يكره ، فإن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته » ، والبهتان أعظم من الغيبة، وهي محرمة كتاباً وسنةً واجماعاً .

وقد شبه سبحانه من استغيب بالميت لأنه غائب ، وشبه عرضه بلحمه، وقول السوء فيه بالأكل والنهش . ومعنى فكرهتموه : أنتم من أكل لحم الميت فينبغي أن تأنفوا من غيبة الغائب أيضاً لأنها من باب واحد، ولا شيء أدل من الغيبة على الخسة والضعفة ، قال الإمام علي (ع) : « الغيبة جهد العاجز » ، والله سبحانه لا يغير الغيبة حتى يغيرها من استغيب .. واستثنى الفقهاء من تحريم الغيبة الملحد ، والحاكم الجائر ، والفاسق المعلن بالفسق لأن من ألقى جلاباب الحياة فلا غيبة له ، ونصح من استشارك في مشاركة شخص معين أو توكيله في أمر هام ، وتجريح الشاهد عند القاضي ، وراوي حديث الرسول (ص) ، والمتظلم من ظالمه ، قال تعالى : « لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم - ١٤٨ النساء » . وفي مكاسب الشيخ الأنصاري : « ان موارد استثناء الغيبة لا تنحصر في عدد لأن الغيبة انما تحرم اذا لم يكن في التشهير مصلحة أقوى وإلا وجب الاعلان والتشهير تفضيلاً لأقوى المصلحتين ، كما هي الحال في كل معصية من حقوق الله وحقوق الانسان » . أنظر ج ٢ ص ٤٧٧ .

أكرمكم عند الله أتقاكم الآية ١٣ - ١٨ :

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ * قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ

شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
 ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ
 الصَّادِقُونَ * قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا
 فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا
 تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ
 كُنْتُمْ صَادِقِينَ * إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ
 بِمَا تَعْمَلُونَ *

اللمعة :

شعوب جمع شَعب وهو أعظم من القبيلة . والأعراب سكان البادية . والمراد
 بالاسلام هنا النطق بالشهادتين . لا يلتكم لا ينقصكم .

الإعراب :

لتعارفوا الأصل لتعارفوا ، والمصدر المنسبك متعلق بجمعناكم . ولما يدخل أي
 لم يدخل بعد . وشيئاً مفعول مطلق ليلتكم . وأولئك مبتدأ والصادقون خبر وهم ضمير
 فصل ، والجملته خبر « المؤمنون » . والمصدر من أن أسلموا مجرور بياء مقترنة ،
 ومثله ان هداكم .

المعنى :

(يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجمعناكم شعباً وقبائل لتعارفوا)

سورة الحجرات

ان أكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير . كل الناس يعلمون ان الأب آدم والأم حواء .. ولكن الغرض من قوله تعالى : « خلقناكم من ذكر وأنثى ، ان يعلم الناس ، كل الناس ، انهم اخوة والاخوة سواسية في الحقوق والواجبات ، قوله : « لتعارفوا » فعناه ليس القصد من اختلافكم في البلدان والأنساب والألوان أن تفرقوا شعباً ، وتتأخروا وتتفاخروا بشعوبكم وأبائكم وأجناسكم .. كلا ، وإنما القصد أن تتعاطفوا وتتعاونوا على ما فيه خيركم وصلاحكم .. وأفضل الناس عنده تعالى أخوفهم منه ، وأنفعهم لعباده .

وهذه الآية دعوة من القرآن الكريم إلى امة انسانية وعالم واحد يجمعه العدل والمحبة ، وهذا العالم أمل الصفوة من المفكرين وحلم المصلحين ، وفي يقيننا ان الاعتراف بحقوق الانسان سيظل حبراً على ورق ومجرد نظرية إذا لم تتحقق الوحدة الانسانية الشاملة التي دعا اليها القرآن منذ أكثر من ألف وثلاثمئة سنة .. فلقد وقعت الولايات المتحدة ومعها اسرائيل وثيقة حقوق الانسان ، ومع ذلك تقترف الأولى جريمة إبادة الجنس البشري في شعب فيتنام والثانية في شعب فلسطين .

أكتب هذه الكلمات يوم ٢٣ نيسان سنة ١٩٧٠ واللجنة الدولية التابعة للأمم المتحدة تحقق في انتهاكات اسرائيل لحقوق الانسان ، وقد سجلت اللجنة في محاضرها ان اسرائيل هدمت في الأراضي المحتلة على المدنيين بيوتهم رجالاً ونساء وأطفالاً وتركت الجثث تحت الأنقاض ورفضت السلطات الاسرائيلية دفنها ، وانها تعتدي على الأماكن المقدسة والمستشفيات ، وتعذب المواطنين العرب بالنار والكهرباء ، وتتأصل الأعضاء الحساسة من أجساد الكبار ، وتقطع أيدي الصغار وتبقر بطونهم بمراى من الآباء والأمهات .. الى غير ذلك من الجرائم الوحشية والابادة الجماعية .

(قالت الأعراب آمننا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم وان تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم - أي لا ينقصكم - من أعمالكم شيئاً ان الله غفور رحيم) . عند تفسير الآية ٨٢ من سورة البقرة ج ١ ص ١٣٨ نكلمنا عن الفرق بين المؤمن والمسلم ، ونقل هنا ما ذكره الدكتور طه حسين حول هذه الآية في كتاب « مرآة الاسلام » لأنه أديب يستشهد بفهمه على أسرار البلاغة قال :

الجزء السادس والعشرون

« كان في عهد النبي (ص) مؤمنون ومسلمون ، فما عسى أن يكون الفرق بين الإيمان والاسلام ؟. أما الإيمان فالظاهر من هذه الآية انه شيء في القلب قوامه الاخلاص لله والتصديق بكل ما أوحى الى الرسول في أعماق الضمير، ونتيجة هذا الإيمان الاستجابة لله ولرسوله في كل ما يدعوان اليه من غير جمجمة ولا لجلجة ولا تردد مها تكن الظروف والخطوب والكوارث والأحداث .. ولازمة أخرى من لوازم هذا الإيمان هي الخوف العميق من الله اذا ذكر اسمه والثقة العميقة به اذا جد الجدد وازدياد التصديق اذا تليت آياته .. والإيمان يزيد وينقص .. أما الاسلام فهو الطاعة الظاهرة بأداء الواجبات واجتناب المحظورات وان لم يبلغ الإيمان الصادق .. فن الناس من يسلمون خوفاً من البأس كما أسلم الطلقاء من قريش يوم فتح مكة، ومنهم من يسلم خوفاً وطمعاً كالأعراب الذين ذكرهم الله في هذه الآية . »

(انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون) المؤمنون حق الإيمان هم الذين لا تشوبهم الريبة في عقائدهم ، ويبدلون النفس والنفس لاحقاق الحق وإبطال الباطل . وتقدم مثله في أكثر من آية ، من ذلك الآية ٨٨ من سورة التوبة ج ٤ ص ٨٢ .

(قل أنعلمون الله بدينكم والله يعلم ما في السموات وما في الأرض والله بكل شيء عليم) . قالت الأعراب : آمنا . فأجابهم سبحانه : أنجبرون الله بإيمانكم ، وهو يعلم السر وأخفى ، وله الاحاطة بكل شيء ، والغلبة على كل شيء . ثم هل يكون الإيمان بمجرد الادعاء ؟ . وكفى بالمرء جهلاً ان لا يعرف قدره .

(يٰمَنونَ عَلَيْكَ انْ أَسْلَمُوا قَل لَّا نَمْنُوا عَلَيْكَ إِسْلامَكَ بَلْ اللهُ يَمُنْ عَلَيْكُمْ انْ هَدَاكُمْ للإيمان ان كنتم صادقين) . المراد بمنته تعالى لطفه وتفضله ، لأنه نهي عن المن، وما كان الله لينهي عن شيء ثم يفعله ، والمراد بهدأيته الى الإيمان الارشاد الى الحق والترغيب فيه ، والمعنى ان الاعراب ومن على شاكلتهم من أهل الجهل يمتنون بدينهم على ربهم ونيبهم ، ويطلبون عليه الثمن .. والله سبحانه هو صاحب الفضل عليهم حيث أرشدهم الى الإيمان ورغبهم فيه على لسان نبيه الكريم ، فعليهم أن يحمدوه شكراً على تفضله وانعامه ، لا ان يمتنوا ويطلبوا الثمن .. هذا،

سورة الحجرات

ان صدقوا في دينهم وأخلصوا في إيمانهم ، وإلا استحقوا من الله ما أعد للكاذبين والخائنين (ان الله يعلم غيب السموات والأرض والله بصير بما تعملون) . يعلم سبحانه الإيمان الصادق والكاذب ، ويميز بين الأعمال التي يطلبون بها الدنيا ، والأعمال التي يقصدون بها وجه الله ، والأعمال بشئ أنواعها مع الإيمان أو الكفر هي ميزان العدل للحساب والجزاء .

سورة

٤٥ آية مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والقرآن المجيد الآية ١ - ١١ :

قَالَ الْكَافِرُونَ * بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ
هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ * إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ * قَدْ عَلِمْنَا
مَا تَنْقَصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ * بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا
جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٌ * أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ
بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ * وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا
رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ
مُنِيبٍ * وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ *
وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ * رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيْتًا
كَذَلِكَ الْخُرُوجُ *

اللفظ :

المجيد : الكريم العظيم . والرجع هنا الرد الى الحياة بعد الموت . وتنقص منهم

سورة ق

تأكل من لحومهم . ومريخ مختلط ومضطرب . وفروج شقوق . ورواسي جبال .
وكل زوج كل صنف . ومنيب راجع . وحب الحصيد حب الزرع المحصود .
وباسقات طويلات . والطلع أول ما يخرج من النخلة في أكامها . ونضيد منضود
بعضه ملتصق ببعض وعلى بعض .

الإعراب :

والقرآن الواو للقسم والجواب محذوف انكم لمبعوثون ، والدليل على هذا الجواب
« أنذا متنا الخ » .. والمصدر من ان جاءهم مجرور بمن مقدرة . وكيف مفعول
مطلق لأن المعنى أيّ بناء بنيناها . وتبصرة وذكرى مفعول من أجله لأنبتنا .
والحصيد صفة لمحذوف أي حب النبات الحصيد . والنخل عطف على حب .
وباسقات حال من النخل . ورزقاً مفعول من أجله .

المعنى :

(ق) تقدم الكلام عن مثله في أول سورة البقرة (والقرآن المجيد) . أقسم سبحانه
بالقرآن لظهار عظمته، ووصفه بالمجيد لكثرة منافعه وفوائده (بل عجبوا ان جاءهم
منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب) . أجل، عجيب في منطلق الذين ينظرون
الى كل شيء من خلال المال ، ولا يرون الفضل والفضيلة إلا في البنك والبقار.
وتقدم مثله في الآية ٢ من سورة يونس ج ٤ ص ١٣٠ والآية ٩٠ من سورة
الإسراء و ٨ من سورة الفرقان و ٤ من سورة ص (أنذا متنا وكنا تراباً ذلك
رجع بعيد) . أنكروا البعث لأنهم عاجزون عن إدراكه .. ونحن نؤمن بعجزهم
هذا ، ولكن هل العجز عن إدراك الشيء دليل على عدم ثبوته ؟ . وأي عاقل
يتخذ من جهله بالأشياء دليلاً على نفيها ، أما الشبهة التي أوقعتهم بهذا الجهل
فقد بينوها بقولهم : « من يحيي العظام وهي رميم » ؟ . وقال تعالى في جوابهم :
« يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم - ٨٠ يس » . وتكرر هذا
المعنى في العديد من الآيات

(قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ) . والكتاب الحفيظ كتابة عن انه تعالى أحاط بكل شيء علماً .. وهذه الآية جواب عن شبهة أوردها منكرو البعث ، وتوضيحها ان جسم الانسان بعد الموت تأكله الأرض ، ويصبح بعض ذراتها المنتشرة في شرقها وغربها ، فكيف 'تجمع' وتعاد الى ما كانت عليه؟ فأجاب سبحانه عن ذلك بأنه يعلم ان الأرض تأكل جسم الميت وان أجزاءه تنتشر في شرقها وغربها ، ومع هذا فهو قادر على جمعها واعادتها الى الحياة .

شبهة الآكل والمأكول :

وتُعرف هذه الشبهة عند الفلاسفة وعلماء الكلام بشبهة الآكل والمأكول .. وقد ذكرها الملا صدرا في المجلد الرابع من أسفاره ، وقال : « احتج من أنكسر البعث بأنه وإن أكل الانسان انساناً فالأجزاء المأكولة ان أعيدت في بدن الآكل لم يكن الانسان المأكول معاداً ، وان أعيدت في بدن المأكول لم يكن الآكل معاداً ، ولزم أن تكون الأجزاء المأكولة بعينها منعمة ومعذبة اذا أكل مؤمن كافراً .. وأجيب عن ذلك في الكتب الكلامية بأن المبدأ هو الأجزاء التي منها ابتداء الخلق وهي الأعضاء الأصلية عندهم ، والله يحفظها ، ولا يجعلها جزءاً لبدن آخر » .

ثم قال صاحب الأسفار ما معناه : ان هذا الجواب لا يفي بالفرض ، والحق ان كل ما هو ممكن في نظر العقل ، ودل عليه الوحي يجب الإيمان به ، والبعث ممكن عقلاً ، وثابت وحياً ، فوجب التصديق والإيمان ، أما أقيسة الفلاسفة وأهل المنطق فما هي بمعصومة عن الخطأ . هذا ما قاله صاحب الأسفار ، وهو الذي اعتمدنا عليه، وذكرناه مراراً فيما تقدم.. وحاول بعض الشيوخ أن يثبت البعث الجسماني بحكم العقل مع صرف النظر عن الوحي ، ولكنه لم يأت إلا بالتكلف والتمحل .

(بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريب) . المراد بالحق هنا القرآن ، وبالمریب المختلط المضطرب ، وقد وصف به سبحانه حال الذين قالوا عن رسول الله (ص) : انه مجنون ، وتارة انه ساحر، وأخرى انه كاهن ، وحيناً انه شاعر .. وهكذا يخبط في التيه كل من حاد عن جادة الحق .

سورة ق

(أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج) . المراد بالبناء هنا ان كواكب السماء محكمة في صنعها ، مستقرة في نظامها تسير عليه بكل دقة ، والمراد بالزينة الجمال ، أما قوله تعالى : « وما لها من فروج » فهو على حذف مضاف أي ما لكل كوكب من كواكبها فتوق وفتور ، كما في الآية ٣ من سورة الملك : « هل ترى من فتور » . والمعنى ألم ينظر المكذبون بالبعث الى ان بناء الكواكب لا يشبه بناء البشر في شيء لأن كل كوكب على ضخامته هو قطعة واحدة لا فواصل فيه ولا انفصام ، أما البناؤون من البشر فإنهم يبنون لبنة فوق لبنة ، بينها فتوق وفتور ، وهم أعجز من أن يبنوا بيتاً صغيراً كبناء الكوكب الطبيعي .

والآية رد صريح وحجة دامغة على من استبعد فكرة البعث ، وقال : « أئذا متنا وكنا تراباً ذلك رجح بعيد » . ووجه الرد : ان الذي خلق الكواكب بلا فتوق وفتور لا يعجز عن بعث الانسان بعد موته لأن هذا أيسر من ذلك : « لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس - ٥٧ غافر » . والبعث خلق :

(والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج) . أي مهدناها وجعلناها مستقراً للانسان ، وألقينا فيها رواسي أقفا فيها الجبال كيلا تتمد وتضطرب ، ومن كل زوج بهيج أخرجنا من الأرض أشكالاً وألواناً من النبات يسر الناظرين ، ويعطيب للأكلين . وتقدم مثله في العديد من الآيات ، منها الآية ٣ من سورة الرعد ج ٤ ص ٣٧٤ (تبصرة وذكرى لكل عبد منيب) . خلق سبحانه الكون بما فيه من نظام وإحكام ليكون آية على عظمته تعالى لمن تدبر وأبصر ، وفيه اشارة الى ان علاقة الانسان بالكون الذي يعيش فيه لا تنحصر بالمادة فقط ، بل هي قلبية أيضاً .

(ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد، والنخل باسقات لها طلع نضيد) . الطلع أول ما يظهر من الثمر ، والنضيد المنضود التراكم بعضه فوق بعض كحب السنابل .. وصف سبحانه الماء بالبركة لأنه لا حياة للأرواح والأجسام بلا ماء ، والمراد بحب الحصيد حب النبات المحصود ، ووصف النخل بالطول للاشارة الى ان النخلة وقت الانبات تكون قصيرة ، ثم ترتفع بالأسباب

التي أودعها الله بالطبيعة . قال الإمام علي (ع) : « ما دلت الدلائل إلا على ان فاطر النملة هو فاطر النحلة لديق تفصيل كل شيء ، أي ان دقة الصنع والتفصيل في النملة الصغيرة والنحلة الكبيرة الطويلة تدل على ان الصانع واحد (رزقاً للعباد) وهم أعجز من أن يرزقوا أنفسهم بأنفسهم (وأحيينا به بلدة ميتاً) هذا تمهيد لقوله تعالى : (كذلك الخروج) . فإحياء الانسان بعد الموت تماماً كإحياء البلد الميت بالماء . وتقدم مثله في العديد من الآيات منها الآية ٥٧ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٤٢ .

أفينا بالخلق الأول الآية ١٢ - ٢٢ :

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَمَثُودُ* وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ
وَأَخْوَانُ لُوطٍ* وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ
فَصَحَّ وَعِيدُ* أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ*
وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَّمْهُ مَا نُوسِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ
مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ* إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ*
مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ* وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ
بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ* وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ*
وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ* لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا
فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ*

(كذبت قبلهم) أي قبل الذين كذبوا محمداً (ص) . (قوم نوح) تقدمت قصة نوح في ج ٤ ص ٢٢٢ وما بعدها (وأصحاب الرس) وهي بئر ، وتقدمت الإشارة الى أصحاب الرس في ج ٥ ص ٤٦٨ (وثمود) وهم قوم صالح ، وقصتهم في ج ٤ ص ٢٤٣ (وعاد) قوم هود ، وتقدم الكلام عنهم في ج ٤ ص ٢٣٧ (وفرعون) تكررت قصته مع موسى وبني اسرائيل مرات ومرات . انظر ج ٣ ص ٣٧٠ الى ٣٨٦ (واخوان لوط) . انظر ج ٣ ص ٣٥٢ (وأصحاب الأيكة) أي الغيضة الملتفة الشجر ، وتقدمت الإشارة الى أصحاب الأيكة في ج ٥ ص ٥١٥ (وقوم نوح) وهو تبع الحميري ، وسبق الكلام عنه عند تفسير الآية ٣٧ من سورة اللخان (كل كذب الرسل فحق وعيد) وهو العذاب الذي وعدهم الله به على لسان رسله (أفعمينا بالخلق الأول) ؟ هل عجزنا عن النشأة الأولى كي نعجز عن الثانية : « كما بدأنا أول خلق نعيده - ١٠٤ الأنبياء » .

(بل هم في لبس من خلق جديد) . اللبس الشك ، والخلق الجديد البعث ، والشك حسن بل هو ضروري على أن يكون باعثاً على البحث والنظر ، أما النفي بلا دليل ولمجرد الشك فهو جهل وضلال .

(ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب اليه من حبل الوريد) . الله قريب من كل شيء بعلمه لأن ما من شيء إلا وهو منه ، إذن ، فلا شيء يبعد عنه ، وإنما خص سبحانه حبل الوريد بالذكر لأنه أقرب الى الانسان من أي عضو آخر ، ويضاف الى ذلك ان فيه قوام الحياة (اذ يتلقى التلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) . يدل ظاهر الآية على ان الله يقيم على الانسان رقيبين : يقعد أحدهما عن يمينه ، والآخر عن شماله يسجلان عليه كل ما يلفظ من قول . وقال كثير من المفسرين : ان هذين الرقيبين من الملائكة ، وان أحدهما يكتب الحسنات ، وهو الذي يجلس على يمين الانسان ، والآخر يكتب السيئات ، وهو الذي يجلس على شماله .. ويصح تفسير الرقيبين بأنها كناية عن ان الانسان مسؤول عما يقول ويفعل ، وانه لا يستطيع عند نقاش الحساب أن يسر أو ينكر سيئة من سيئاته لقيام المحجة عليه .

الجزء السادس والعشرون

وقلنا يصح هذا التفسير لأنه يلتقي مع التفسير الأول الذي دل عليه ظاهر الآية ، ونتيجتها واحدة .

وتسأل : ان الله غني بعلمه وحفظه عن الرقابة والرقباء والكتابة والكااتين ، فما هو القصد من اقامة الرقباء ؟ .

الجواب : القصد أن يجابه سبحانه المجرمين بما لا يجدون لانكاره حيلة ولا وسيلة .. وتومىء الآية من بعيد الى ان القاضي لا يجوز أن يقضي بعلمه . انظر تفسير الآية ٢٠ من سورة فصلت ج ٦ ص ٤٨٥ .

(وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد) . سكرة الموت غرته وشدته ، وقوله تعالى بالحق يومئذ الى انه عند نزول الموت تنكشف الحقيقة للمحتضر ، ويعلم علم اليقين ان البعث حق لا ريب فيه، وذلك اشارة الى البعث ، والخطاب في كنت لمن أنكر البعث ، وضمير منه يعود الى البعث، والمراد بتحديد تنكر ، والمعنى يقال لمن أنكر البعث حين ينزل به الموت : هذا هو البعث الذي كنت تنكره ، ومثله : هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون - ٢١ الصافات .

(ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد) . يشير سبحانه بهذه النفخة الى يوم القيامة : ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداد الى ربهم ينسلون - ٥١ يس .

(وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد) . سائق يسوقها الى محشرها ، وشاهد يشهد عليها بما فعلت (لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد) . هذا اشارة الى يوم الحساب والجزاء ، أما البصر الحديد فالمراد به ان الحقيقة تتجلى عند الموت وبعده لمنكر البعث فيعرف ما أنكروا وينكر ما عرفوا ، والمعنى يقال غداً للجاحد : أيها الشقي كفرت بهذا اليوم ، واتبعت أهواءك ، وذهلت عما يراد بك ، وقد انزاحت الأباطيل عنك الآن ، وعرفت الحقيقة ، ولكن حيث لا مهرب من عذاب الحريق .

مناع للخبر الآية ٢٣ - ٣٥ :

وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ * أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَتِيدٍ *

مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ * الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقَيْنَاهُ فِي
 الْعَذَابِ الشَّدِيدِ * قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ
 بَعِيدٍ * قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ * مَا يُبَدَّلُ
 الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ * لِلْعَبِيدِ * يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ
 وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ * وَأَزَلَّتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَذَا مَا
 تُوَعَّدُونَ لِكُلِّ أَوَابٍ حَفِيفٍ * مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ
 مُنِيبٍ * أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ * لَهُمْ مَا يَشَاؤُونَ فِيهَا
 وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ *

اللغة :

أزلت اقتربت . أواب تواب . حفيظ حافظ لأحكام الله .

الإعراب :

هذا ما لدي معناه هذا شيء ثابت لدي ، وعليه فهذا مبتدأ ، وما نكرة
 موصوفة خير ، ولدي متعلق بمحذوف صفة وعتيد صفة ثانية . والذي جعل بدل
 من كفار . ألقيا كلام مستأنف . وألف القيا للتثنية ، وهما الساتق والشهيد
 اللذان ذكرهما سبحانه في الآية السابقة . وجههم ممنوعة من الصرف للعلمية والتأنيث .
 وغير بعيد صفة لموصوف مقدر أي مكاناً غير بعيد . لكل أواب بدل من المتقين
 بإعادة حرف الجر . وهذا ما توعدون مبتدأ وخبر والجملة معترضة . ومن خشي

الجزء السادس والعشرون

الرحمن بدل ثانٍ من المتقين . وبسلام متعلق بمحذوف حالاً من فاعل ادخلوها أي سالمين .

المعنى :

(وقال قرينه هذا ما لدي عتيد) . الضمير في قرينه يعود الى من تقدم ذكره في الآية ١٧ وهو الملك القعيد الشهيد الذي يكتب أقوال الموكل به، والمعنى ان هذا الكاتب يقول لله سبحانه : هذا كتاب ما وكتلتي به ، وفيه كل ما كان منه على حقيقته ، ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا بولتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً - ٤٩ السجدة .

(ألقيا في جهنم كل كفار عنيد مناع للخير معتد مريب الذي جعل مع الله إلهاً آخر) . في الآية ٢١ قال سبحانه : « وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد » وفي الآية التي نفسرها حكى جل جلاله أنه يقول غداً للسائق والشهيد : خذا الى جهنم من أشرك بي ، وكفر بالحق وعانده ، وأعرض عن الخير وصد الناس عنه ، ثم يعاود سبحانه القول عليها مكرراً ومؤكداً : « فألقياه في العذاب الشديد » .

وتجسد الاشارة الى أنه تعالى وصف هنا مناع الخير بالمعتدي المريب ، وفي الآية ١٢ من سورة القلم وصفه بالمعتدي الاثيم حيث قال : « مناع للخير معتد اثم » وإذا عطفنا على هذه الآية قوله تعالى : « ان شجرة الزقوم طعام الاثيم كالمهل يبغي في البطون كغلي الحميم - ٤٦ الدخان » . إذا فعلنا ذلك تبين معنا ان جريمة مناع الخير لا تعادلها جريمة ، وان عذابه لا يقاس به عذاب .

(قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد) . هذا القرين غير الأول ، فقد كان الأول من الكرام الكاتبين بدليل قوله تعالى : « هذا ما لدي عتيد » أي هذا الذين سجلته هو حق لا ريب فيه ، أما القرين الثاني فهو من الأبالسة الغاوين الذي أشار اليهم سبحانه بقوله : « ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين - ٣٦ الزخرف » والدليل ان هذا هو المترادف قول

سورة ق

القرين الثاني: « ربنا ما اطعته » فإن القرين الأول لا يحتمل فيه الاطغاء والإغواء كي ينفيه عن نفسه لأن الله قد اختاره لمهمة الكتابة على علم بصلاحه وأمانته .. يضاف الى ذلك قوله تعالى : « لا تختصموا لدي » فإن الاختصاص غسداً يكون بين المجرمين بعضهم مع بعض لا بينهم وبين غيرهم ، قال تعالى : « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين - ٦٧ الزخرف » .

(قال لا تختصموا لدي وقد قدمت اليكم بالوعيد) . الخطاب من الله سبحانه الى المجرم وقرينه الشيطان ، والمعنى لا يقل بعضكم لبعض : أنت أغويتني ويقول الآخر : ما أغويتك ، فإن اليوم يوم حساب وجزاء ، ولا ينتفع المرء فيه بكلام ولا بغيره إلا بعمله الصالح ، وقد دعوتكم اليه ، وأنذرت من خالف منكم لقاء يومكم هذا فأبيتم إلا كفوراً (ما يبذل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد) . المراد بالقول هنا أمره سبحانه في الآية السابقة للسائق والشهيد : « ألقيا في جهنم كل كفار عنيد » وهذا اللقاء حتم وعدل، هو حتم لأن الله أمر به ولا تبديل لأمره ، وهو عدل لأن المجرم أهل له .

وتسأل : لقد ذهب كثير من العلماء الى ان الخلف بالوعيد جائر على الله دون الوعد ، وبهذا جاءت السنّة النبوية حيث قال الرسول الأعظم (ص) : « من وعد لأحد على عمله ثواباً فهو منجز له، ومن أوعده على عمله عقاباً فهو بالخيار » . يضاف الى ذلك ان العقل يستحسن الوفاء بالوعد ، ولا يستقبح الخلف بالوعيد ، فا هو الوجه - اذن - لقوله تعالى : « ما يبذل القول لدي » ؟ .

وأجاب بعض العلماء بأن الله سبحانه لا يعفو جزافاً ، بل لسبب موجب : والعفو كذلك ليس من تبديل القول في شيء .. ونضيف نحن الى هذا الجواب ان المراد بالوعيد هنا الوعيد بعذاب « مناع الخبير » وليس كل وعيد وتهديد ، لأن هذا المعتدي الأثيم لا كفارة له ولا شفيع عند الله - كما نظن - .

(يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد) . هذا كناية عن شدة لهبها ، وأليم عذابها ، وانها لا تضيق بالمجرمين بالغاً ما يبلغ عددهم ، وقد وصف سبحانه جهنم في العديد من آياته بأوصاف رهيبة مخيفة تقشعر منها جلود الذين يخشون ربهم ، أما الذين في قلوبهم مرض فيسخرون منها وعن آمن بها

الجزء السادس والعشرون

(وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد) . هذا على طريقة القرآن ، يقرن جزاء من أساء بثواب من أحسن .. هناك الشدائد والآلام ، وهنا النعيم والجنان ، وقوله تعالى : « غير بعيد » تأكيد لكلمة أزلفت لأنها بمعنى اقتربت ، والمراد بقرب الجنة من المتقين أنهم لها ، وهي لهم (هذا ما توعدون) . لقد علمت أيها المتقون على موعود من الله ، والله منجز وعده ، فإليكم هذا النعيم الذي لا يحده وصف ، ولا يبلغه عقل .

(لكل اواب حفيظ من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب) . هذه الصفات الأربع علامات تدل على المتقين ، فمن علامة أحدهم انه تواب يتعد عن المصيبة خوفاً من الله ، ويحافظ على الطاعة أملاً بثواب الله ، وهو في إيمانه واخلاصه على سبيل واحد ، سواء أكان غائباً عن الناس أم حاضراً بينهم ، على عكس المرائي الذي يكسل اذا كان وحده ، وينشط أمام الناس ، وهذا المتقي هو الذي يلتقى الله سبحانه بقلب منيب سليم . وبكلام آخر للإمام علي (ع) يصف به من اتقى وأتى الله بقلب سليم : « أطاع من يديه وتجنب من يرديه ، وأصاب سبيل السلامة يبصر من بصره وطاعة هادٍ أمره ، وبادر الى الهدى قبل أن تغلق أبوابه وتقطع أسبابه » .

(ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود لهم ما يشاءون فيها ولدننا مزيد) . أنتم أيها المتقون في جنة « لا ينقطع نعيمها ، ولا يظعن مقيمها ، ولا يهرم خالدها ، ولا يياس ساكنها » .. ولكم على اللوام فوق ما تشتهون وتقرحون . وبعد ، فإن هذا التفاوت الهائل بين الجنة والنار يكشف كشفاً قاطعاً عن مدى البعد والتفاوت بين درجات المتقين والمجرمين ، وان الفرق بين منازلهم عند الله تعالى تماماً كالفرق بين الجنة والنار .

يوم ينادي المنادي الآية ٣٦ - ٤٥ :

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ
هَلْ مِنْ مَّحِيصٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى

سورة ق

السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ * وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي
سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ * فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ
بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ * وَبِمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ
وَأَدْبَارَ النُّجُودِ * وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِي الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ * يَوْمَ
يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ * إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ
وَلِإِنَّا لَمَصِيرُ * يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا
يَسِيرٌ * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ
مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ *

اللغة :

القرن أهل العصر الواحد ، فإذا هلك أكثرهم قيل : انقضى قرنهم . فتعبوا
في البلاد طافوا فيها . والمحيص المهرب . واللغوب التعب . وخبير أي بقهار
تقهرهم على الإيعان .

الإعراب :

كم في محل نصب بأهلكنا ، ومن قرن بيان لها وبطشاً تمييز . ومن محيص
من ، زائدة ومحيص مبتدأ والخبر محذوف أي هل محيص ثابت لهم . ولغوب
فاعل مسنا ومن زائدة . واستمع يوم ينادي على حذف مضاف أي استمع حديث
يوم ينادي الخ . ويوم يسمعون بدل من يوم ينادي . يوم تشقق يوم متعلق
بالمصير . وسيراً جمع سريع ، وهو حال من ضمير عنهم والعامل تشقق .

المعنى :

(وكم أهلكننا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشاً فقبوا في البلاد هل من حيص) . تقبوا في البلاد طافوا فيها ، والمحيص المهرب ، والمعنى كان في الزمان الغابر أم أكثر حضارة وأقوى عدة وعدداً من الذين كذبوك يا محمد ، وكانت لهم صلوات مع كثير من البلاد ، كل ذلك وما إليه لم يغن عنهم حين نزل بهم العذاب ، ولم يجلدوا من أمر الله مهرباً ألا يخشى قومك أن يصيهم مثل ما أصاب الماضين ؟ وتكرر هذا التذكير في آيات كثيرة ، منها الآية ٩ من سورة الروم ج ٦ ص ١٣٢ (ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) . ذلك إشارة الى التذكير بهلاك الماضين ، وذكرى تذكرة وعبرة ، وله قلب أي سليم ، وألقى السمع أي استمع وأصغى الى ما يتلى عليه من العظات ، وشهيد حاضر القلب والعقل ، والمعنى ان الذي ذكرناه عن هلاك المكذبين عظة كافية شافية لمن أبصر واعتبر . (ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب) أي تعب ، والأيام الستة كناية عن الدفءات أو عن تطور الكون من حال الى حال . انظر تفسير الآية ٥٤ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٣٨ .

(فاصبر على ما يقولون) من الأباطيل والسهو ، فإن العاقبة لمن صبر صبر الأحرار (وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس) إشارة الى صلاة الفجر (وقيل الغروب) صلاة العصر (ومن الليل فسبحه) صلاة المغرب والعشاء . وتقدم مثله في الآية ١٢٩ من سورة طه ج ٥ ص ٢٥٤ (وأدبار السجود) إشارة الى التعقيب والصلوة النافذة بعد الانتهاء من الفريضة (واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج) . الخطاب في استمع لرسول الله (ص) ، ويوم ينادي على حذف مضاف أي استمع لما نوحه اليك من حديث يوم النداء ، لا نفس النداء ، والمراد بالمكان القريب ان النداء يسمعه الجميع حتى كان المنادي قريب منهم على الرغم من ان الصيحة تأتي من السماء ، وبهذا يتبين وجه الجمع والتوفيق بين هذه الآية وبين قوله تعالى : « أولئك ينادون من مكان بعيد - ٤٤ فصلت » . والمعنى استمع لما نحدثك به يا محمد عن صيحة البعث

سورة ق

للحساب والجزاء ، وهذه الصبيحة بعيدة بالنظر الى أنها تأتي من السماء وقريبة بالنظر الى أنها تصل الى كل سمع حتى اسماع الموتى ، فيخرجون من الاجداث كأنهم جراد منتشر : « هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت وردوا الى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون - ٣٠ يونس » .

(انا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير) . الحياة والموت بيد الله ، واليه مصير الخلائق . وتقدم مثله مراراً ، من ذلك الآية ٥٦ من سورة يونس (يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً ذلك حشر علينا يسر) . تشقق الأرض عن الأولين والآخرين فيخرجون من قبورهم مسرعين ، وهم أكثر عدداً من النمل والرمل ، وأحسنهم حالاً من وجد لقدميه موضعاً ، ولنفسه متسعاً كما قال الامام علي (ع) .

(نحن أعلم بما يقولون) من تكذيب الرسول ونفي البعث (وما أنت عليهم بجبار) . فتجبرهم وترغهم على الإيمان بالله واليوم الآخر ، انما أنت مذكر (فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) . ومن لا يخاف أيضاً لإلقاء الحجية عليه ، وإنما خص سبحانه الخائف بالذكر للإشارة إلى أنه هو الذي ينتفع بالتذكير دون غيره ، ومثله : « فذكر ان نعت الذكرى سيذكر من يخشى ويتجنبها الأشقي - ٩ الأعلى » . فقولته تعالى : « ويتجنبها الأشقي » دليل قاطع على ان الأمر بالتذكير عام ، نعت الذكرى أم لم تنفع .

سورة الذاريات

٦٠ آية مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والذاريات ذروا الآية ١ - ١٤ :

وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا * فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا * فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا * فَالْمُقَسَّمَاتِ
أَمْرًا * إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٍ * وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ * وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُوكِ *
إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ * يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنَافِكُ * قِيلَ الْخَرَّاصُونَ *
الَّذِينَ هُمْ فِي عَمْرَةٍ سَاهُونَ . يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ * يَوْمَ هُمْ عَلَى
النَّارِ يُفْتَنُونَ * ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ *

اللغة :

المراد بالذاريات الرياح . والوقر السحاب تحمله الرياح . فالجاريات يسرا الرياح تجري يسر وسهولة . فالمقسمات أمر الرياح توزع السحاب على البلاد . والمراد بما توعدون البعث . وبالدين الحساب والجزاء . وبالحبك الأحكام والنظام . ويؤفك يُصرف . والخرص الكذب والظن من غير أساس . والمراد بالفتنة في قوله تعالى :
« يفتنون وفتنتكم » العذاب .

الإعراب :

والذاريات الواو للقسم . وذرواً مفعول مطلق . وقرأ مفعول به . يسراً صفة لمفعول مطلق مقدر أي جرياً يسيراً . أمراً مفعول به . وانما توعدون وانما كلمتان « ان » التي تنصب الاسم وترفع الخبر و « ما » الموصولة ، والعائد محذوف أي ان الذي توعدونه من الحساب والجزاء ، والجملتان جواب القسم في والذاريات . والسماء الواو للقسم . وانكم جوابه . وضمير عنه يعود الى الدين . والذين بدل من « الخراصون » . وهم مبتدأ وفي غمرة خبر وساهون خبر ثان . أيان بمعنى متى خبر مقدم ويوم مبتدأ مؤخر أي متى وقت يوم الدين . ويوم هم « يوم » منصوب بفعل مقدر أي يقع يوم هم و « هم » مبتدأ ويفتون خبر وعلى النار متعلق به . وجملة ذوقوا مفعول لقول مقدر . وهذا الذي مبتدأ وخبر .

المعنى :

(والذاريات ذرواً فالحمالات وقرأ فالجاريات يسراً فالقسيمات أمراً) . في تفسير هذه الأوصاف الأربعة آراء ، يقول بعضها : المراد بالذاريات الرياح ، وبالحمالات السحاب ، وبالجاريات السفن ، وبالقسيمات الملائكة ، وأرجح الأقوال ان الأربعة بكاملها من أوصاف الرياح ، فهي ذاريات لأنها تذرو التراب وغيره ، قال تعالى : « هسيماً تذروه الرياح - ٤٥ الكهف » . وأقسم سبحانه بالرياح للإشارة الى منافعتها ، ولأن الله أن يقسم بما شاء من خلقه . أنظر ج ٦ ص ٣٣٠ فقرة « الله والقسم بخلقه » . الوصف الثاني « فالحمالات وقرأ » بكسر الواو ، وهو الحمل الثقيل ، والمراد هنا ان الرياح تحمل السحاب الثقيل ، قال تعالى : « وهو الذي يرسل الرياح بشرراً بين يدي رحمة حتى اذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت - ٥٧ الأعراف » . الوصف الثالث « فالجاريات يسراً » تجسري الرياح بيسر وسهولة ، وهي تحمل السحاب . الوصف الرابع « فالقسيمات أمراً » الرياح تفرق الأمطار على البلاد، كما قال سبحانه في آية ٥٧ من (الأعراف): « سقناه لبلد ميت » .

الجزء السادس والعشرون

(انما توعدون لصادق وان الدين لواقع) . هذا جواب قسم « والناربات » والمراد بما توعدون الإحياء بعد الموت ، وبالدين الحساب والجزاء، والمعنى ان الله يبعث من في القبور لا محالة ، وانه تعالى يجزي الانسان بأعماله ، ان خيراً فخير ، وان شراً فشرّ (والسما ذات الحيك) بضم الحاء والباء ، وفي تفسيره أقوال أرجحها انه الخلق الحسن - بفتح الحاء - أي ان في خلق السماء إحكاماً ونظاماً وزينة وجمالاً (انكم لفي قول مختلف) . الخطاب لمن كذب الرسول الأعظم (ص). وأقوالهم كلها خلط واضطراب .. وكذب ووهم .. فنها عن الرسول (ص) : انه مجنون الى شاعر وساحر. وعن القرآن: انه أساطير الى رجز من نظم محمد(ص) (يُوَفِّكُ عَنْهُ مَن أَفْكَ) أي يُصَرِّفُ عَنْهُ مِنَ الدِّينِ وَالْحَقِّ مِنْ صَرَفِهِ عَنْهُ الْمَسْوِيُّ وَالْجَهْلِيُّ ، وَمِثْلُهُ تَمَاماً ، لَا يَمَعَى عَنْ ذَلِكَ إِلَّا أَعْمَى .

(قتل الخراصون) وهم الذين يبينهم سبحانه بقوله : (الذين هم في غمرة ساهون) . غمرهم الجهل والضلال من فرع الى قدم ... فوزعوا ظنونهم جزافاً ومن غير أساس على الأرض والسماء ، وعلى البعث والجزاء ، وقالوا : لله شركاء من الأحجار ، وبنات من الجن والملائكة ، أما البعث فحديث خرافة (يسألون ايان يوم الدين) ؟ يقولون ساحرين : متى يكون البعث والحساب ؟ فيجيبهم سبحانه : (يوم هم على النار يتنون) . يكون البعث يوم يعرضون على جهنم ويحرقون فيها . ويقال : فنتت الشيء أي أحرقت بال نار ليخرج ما فيه من الغش ، وتقول ملائكة العذاب للمجرمين : (ذوقوا فنتتكم هذا الذي كنتم به تستمجلون) . هذا هو العذاب الذي تعجلتم به ، وسخرتم بالأمس منه .. فكيف رأيتم طعمه ومذاقه ؟ .

حق السائل والمعروم الآية ١٥ - ٣٠ :

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ

يَسْتَغْفِرُونَ* وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ* وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ
لِّلْمُوقِنِينَ* وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ* وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ*
فَوَرَبَّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ* هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ
صَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ* إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ
قَوْمٌ مُنْكَرُونَ* فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ* فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ
قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ* فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشْرُوهُ
بِعِلْمٍ عَلِيمٍ* فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَخَةٍ فَصَكَتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ
عَقِيمٌ* قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ*

اللغة :

المجوع النوم ليلاً . ومنكرون مجهولون لا نعرفهم . فراغ ذهب ومال سراً
عن ضيوفه . فأوجس أحس . وصرة بفتح الصاد صبيحة وضجة .

الإعراب :

آخذين حال من الضمير الذي تعلق به « في جنات وعيون » . وما آتاهم
مفعول آخذين . وجملة يهجعون خبر كانوا و « ما » زائدة إعراباً . و« قليلاً »
صفة لمفعول مطلق مقدر أي كانوا يهجعون هجوعاً قليلاً من الليل . وفي أنفسكم
متعلق بمحذوف خبر مبتدأ محذوف أي وفي أنفسكم آيات . ومثل حال، وما زائدة
إعراباً، والمصدر من أنكم تنطقون مجرور بالاضافة أي مثل نطقكم . وسلاماً مفعول

مطلق لفعل مقدر أي نسل عليك سلاماً . وسلام مبتدأ والخبر محذوف أي عليكم سلام . وقوم خبر لمبتدأ محذوف أي أنتم قوم . وخيفة مفعول أرجس . وعجوز خبر لمبتدأ محذوف أي أنا عجوز .

المعنى :

(ان المتقين في جنات وعيون أخذين ما آتاهم ربهم أنهم كانوا قبل ذلك محسنين) . يأخذ سبحانه من الصالحين أعمالهم ، ويشبههم عليها ، كما قال : « يأخذ الصدقات - ١٠٤ التوبة » أي يتقبلها ويشب عليها ، وأيضاً يأخذ الصالحون ما آتاهم الله من ثواب ويتقبلونه بغبطة وسرور . وبتعبير الآية ١٨٨ من سورة المائدة : « رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم » . (كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون) . كانوا ينامون في الليل ، ولكن قليلاً ، وكثيراً ما اتصل تهجدهم بالأسحار ، فيأخذون فيها بالتسبيح والاستغفار .

قال الإمام علي (ع) في وصفهم : « أما الليل فصافون أقدامهم تالين لأجزاء القرآن يرتلونها ترتيباً .. فإذا مروا بآية فيها تشويق ركعوا إليها طمعاً ، وتطلعت إليها أنفسهم شوقاً .. وإذا مروا بآية فيها تخويف أصغوا إليها سامع قلوبهم وظنوا ان زفير جهنم وشهيقها في أصول آذانهم ، فهسم حانون على أوساطهم مفترشون لجباههم وأكفهم وأطراف أقدامهم . يطلبون إلى الله في فكاك رقابهم » .

(وفي أموالهم حق للسائل والمحروم) . السائل هو الذي يطلب من الناس الحسنات والصدقات ، والمحروم الفقير الذي يستنكف عن السؤال ، ويصدق عليه قوله تعالى : « يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً- ٢٧٣ البقرة » وكلمة فقير تعني وتؤكد شرعاً ان الفقير شريك للغني في ماله ، وان هذا غاصب ظلوم إذا منع الفقير من حقه . وتكلمنا عن ذلك مفصلاً بعنوان « الزكاة » في ج ١ ص ٤٢٨ وبمعنوان « الغني وكيسل لا أصيل » في ج ٢ ص ٢١٧ .

الله والمعرفة الحسية :

(وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون) . من تأمل في أي كائن من الكائنات ونظر اليه نظرة الفاحص المدقق لا بد أن يتهي إلى التساؤل : من الذي دبّر وأحكم هذا الصنع ؟ . ولا يجد جواباً مقنعاً وتفسيراً صحيحاً إلا وجود قوة عالمة هادية . وإذا لم يقتنع بهذا الجواب فلا يجد أمامه إلا الصدفة والطبيعة العمياء ، وليس من شك أنها تزيد جهلاً وعمى .

وقال الماديون : لا طريق إلى المعرفة إلا الحس والتجربة ، والله لا يقع تحت الحس ولا هو موضوع للتجربة ، فلايمان به - إذن - لا يستند إلى دليل ، بل هو جهل وضلال .

الجواب أولاً : لا نعلم ان أسباب المعرفة تنحصر بالحس والتجربة ، بل هناك أيضاً معرفة عقلية نصل إليها عن طريق القوي الذهنية ، ومن أسقط العقل عن الاعتبار ونفى الحجة عنه فقد نفى الانسانية من الأساس ، إذ لا انسانية بلا عقل حاسم قاطع .. يضاف إلى ذلك إلى ان من نفى المعرفة عن العقل فقد ناقض نفسه بنفسه حيث نفى معرفة العقل بالعقل ، واستدل على عدم الشيء بوجوده .

ثانياً : لو سلمنا - جدلاً - بأنه لا طريق إلى المعرفة إلا الحس والمشاهدة فإننا نثبت وجود الله ونؤمن به عن هذا الطريق بالذات .. وهو موجود في كل مشهد من مشاهد الطبيعة ، وقد بلغت هذه المشاهد النهاية من البدهة والوضوح ، وأوصلتنا إلى العلم بالمبدع المصور بمجرد النظر إليها والتأمل فيها بدون الرجوع إلى المختبرات والمصانع .. ولو توقف العلم بالله على التحليل في المختبرات لانحصر وجوب الايمان بالمتخصصين بهذا الفن وحدهم ، ولما صح منه تعالى علواً كبيراً أن يخاطب العموم بقوله : « يا أيها الناس اتقوا ربكم » مع العلم بأنه ، جلت عظمتة ، أوجب الايمان به على جميع عبادته .. ولكن بعد أن قدم لهم الدليل القاطع لكل معذرة على وجوده ، أقام سبحانه هذا الدليل من القطرة والعقل ومن الحس أيضاً عملاً بالمبدأ العادل القاتل : « البينة على من ادعى » .

الجزء السادس والعشرون

وليس في قولنا هذا جرأة وسوء أدب لأنه جل جلاله هو القائل : « سترهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق - ٥٣ فصلت . » ونفس الانسان وما في الآفاق من الكائنات هي من المشاهد المحسوسة الدالة على وجوده تعالى ، وبها يظهر الحق الذي لا ريب فيه ، ومن تتبع آي الذكر الحكيم يجد نفسه أمام العديد من هذه الآيات الكونية التي تدعو إلى الإيمان بالله عن طريق المعرفة التي هي ثمرة الحس والعقل ، من ذلك قوله تعالى : « أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء - ١٨٤ الأعراف » أي شيء محسوس وملموس .

ان الإيمان بالله إيمان بما لا تراه العين ولا تلمسه اليد ، ولكن هذا الإيمان تفرضه وتحتمه المراتب والملموسات، تماماً كما يؤمن الطبيب العارف بوجود نوع من المرض في الجسم السقيم ، ويحدد ماهيته بمجرد أن يلمس الجسم أو ينظر إليه دون أن يرى الميكروب الذي تولد منه المرض .. وما من أحد مؤمناً كان أو ملحداً إلا وهو يؤمن إيماناً قاطعاً بأشياء كثيرة لا تقع تحت الحس لأن هذا الإيمان يحتمه الحس بالذات ، والذين يعتمدون على التجربة يعنون بها الاستدلال من شيء تدركه الحواس .

(وفي السماء رزقكم وما توعدون) . قوله : « رزقكم » على حذف مضاف أي أسباب رزقكم كالطرر وما إليه ، وقديماً قيل : لولا السماء لما كان للناس بقاء . واختلفوا في تفسير « وما توعدون » فن القائل : ان المراد به الجنة والنار ، وقائل : انه الخير والشر ، وقال ثالث : بل المراد ان الرزق مقسوم ومكتوب .. وفي رأينا ان المراد بما توعدون أسباب الرزق بالذات بدليل ان الله سبحانه أشار في الآية إلى ان في الأرض وفي أنفسنا آيات محسوسة ملموسة تدل على وجود الله وعظمته ، ثم عقب بعد ذلك بأن في السماء أيضاً آيات محسوسة تدل عليه تعالى وعلى عظمته ، وبالبداهة ان الآيات السماوية المحسوسة هي المطر والكواكب وليست الجنة والنار وما إليها .

(فودب السماء والأرض انه لحنّ مثل ما انكم تنطقون) . قال الرازي : « البصير في (انه) عائد الى القرآن . فكأنه قال : ان القرآن لحنّ نطق به

سورة الداريات

الملك نطقاً مثل ما انكم تنطقون . . وليس من شك ان القرآن حق لا ريب فيه وان جبريل قد نطق به أيضاً ، ولكن لم يسبق للقرآن ولا للملك ذكر من أول السورة الى هنا ، والذي ذكر في الآية ١٢ هو يوم الدين ، ثم أشار سبحانه الى ما في الأرض والسماء وأنفسنا من الدلائل على وجود المسدع ، فالأولى لإرجاع الضمير الى ذلك كله ، وعلى هذا يكزن المعنى انه سبحانه قد أقسم بجلاله ان الله حق والبعث حق ولا ينبغي الشك في ذلك بعد أن قامت عليه الدلائل تماماً كما لا ينبغي للانسان أن يشك فيما نطق به .. وروي ان أعرابياً قال حين سمع هذه الآية : « من الذي أغضب الجليل حتى أجهأ الى اليمن » . وليس هذا ببعيد على من نشأ على الفطرة التي ولد عليها .

وبالمناسبة قال أهل اللغة : النطق نوعان : خارجي ، وهو اللفظ ، ودخلي ، وهو الفكر والادراك ، وقال أهل المنطق في تعريف الانسان : انه حيوان ناطق أي مفكر ، وقال «ديكارت» : « أنا أفكر وإذن فأنا موجود » وهذه حقيقة بدئية تنفي الشك في وجود المفكر لأنها خرجت منه بالذات ، وعلى هذا فلنا أن نفسر قوله تعالى : « مثل ما انكم تنطقون » بمثل ما انكم تلفظون ، وأيضاً لنا أن نفسره بمثل ما انكم تفكرون لأن كلاً من وجود الضمير والتلفظ ينفي الشك عن وجود المفكر والمتلفظ .

(هل أتاك حديث ضيف ابراهيم المكرمين) . كلمة ضيف تستعمل في المذكر والمؤنث والواحد والجماعة ، والمراد بضيف ابراهيم الملائكة الذين جاؤوا ليبيروهم بإسحق وإهلاك قوم لوط ، ووصفهم سبحانه بالمكرمين لأنهم كرام عنده وعند عباده المؤمنين (إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلام قوم منكرون) . حيوه فردة التحية ، وقال : هؤلاء أناس لا نعرفهم (فراغ الى أهله فجاه بمجل سمين) . أسرع ابراهيم الى عياله وأمرهم أن يهيئوا لضيوفه عجللاً سمياً ، وكان ما أراد ونضج العجل (فقربه اليهم) ليأكلوا ، فأبوا (قال ألا تأكلون؟) ولكنهم أصروا على الامتناع لأنهم ليسوا بشرأ يأكلون الطصام (فأوجس منهم خيفة) لأنه فوجيء بأمر لا يعرف عواقبه ، ولما رأوا ما به (قالوا لا نخف وبشروه بغلام عليم) . أعلموه بحقيقة ما جاؤوا به من البشارة بإسحق (فأقبلت

الجزء السادس والعشرون

امرأته (سارة لما سمعت البشرى (في صرة) ارتفع صوتها من الدهشة (فصكت وجهها) ضربته بيدها فرحاً وتعجباً (وقالت عجوز عقيم) فكيف ألد ؟ . (قالداً كذلك قال ربك انه هو الحكيم العليم) . الله يعلم انك عجوز عقيم ، ولكن شاءت حكمته أن يهبك على الكبر غلاماً كاملاً ، واذا أراد الله شيئاً فهو يقول له : كن فيكون .. وأوجزنا تفسير هذه الآيات لوضوحها، ولأنها تقدمت في سورة هود الآية ٦٩ - ٧٣ ج ٤ ص ٢٤٧ وفي سورة الحجر الآية ٥١ - ٥٦ ص ٤٨١ من المجلد المذكور .

الجزء السابع والعشرون

قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ * قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ *
لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ * مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ *
فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ
الْمُسْلِمِينَ * وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ * وَفِي مُوسَى
إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ
أَوْ مَجْنُونٌ * فَأَخَذْنَا هُوْدَهُ فَجَبَدْنَا هَمَّ فِي آلِهِمْ * وَهُوَ مُلِيمٌ * وَفِي عَادٍ
إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ * مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ
كَالرَّمِيمِ * وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ * فَفَعَتُوا عَنْ أَمْرِ
رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ * فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا
كَانُوا مُنْتَصِرِينَ * وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ *

اللغة :

فما خطبكم فاشأنكم ؟ ومسوِّمة عليها علامة . وبسلطان مبين بحجة واضحة .
والمراد بالركن هنا القوة والسلطان أي أعرض لأنه يملك السلطان والقوة ، ومثله :
« أو آوى الى ركن شديد - ٨٠ هود » . والمليم هو الذي يفعل ما يلام عليه .
والريح العقيم هي التي لا خير فيها من المطر أو تلقح الشجر ونحوه . والرميم
البالي . والصاعقة العذاب .

الإعراب :

فما خطبكم مبتدأ وخبر . ومسومة صفة لحجارة . وفي موسى متعلق بمحذوف
خبر لمبتدأ محذوف أي وفي موسى آية . وساحر خبر لمبتدأ مقدر أي هذا ساحر .
وفي عاد وفي ثمود مثل وفي موسى . وقوم نوح بالنصب على تقدير وأهلكنا
قوم نوح .

المضى :

(قال فما خطبكم أيها المرسلون) . ابراهيم (ع) يسأل ضيوفه بعد أن عرف
هويتهم : إلى أين ؟ وماذا تبغون ؟ (قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين) أي
قوم لوط ، وهم مجرمون ومسرفون لأنهم كانوا يأتون الرجال شهوة من دون
النساء (لترسل عليهم حجارة من طين مسومة عند ربك للمسرفين) . لنهلكهم
بحجارة معلمة من طين صلب أعدها الله لمن تجاوز الحد في الكفر ، وأسرف في
البغي والفساد (فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين) لئلا يصيبهم ما أصاب
المجرمين المسرفين (فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين) وهم بيت لوط إلا
امرأته كانت من المالكين (وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم) . ضمير
فيها يعود إلى قري قوم لوط أو مدينتهم ، والمراد بالآية الآثار التي تنبئ عن
اهلاكهم وعذابهم ، لتكون تبصرة لمن تدبر وعبرة لمن انمظ . وتقدمت هذه
الآيات في سورة الأعراف الآية ٨٠ - ٨٤ ج ٣ ص ٣٥٣ وفي سورة هود الآية
٧٧ - ٨٣ ج ٤ ص ٢٥٥ .

(وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين) . أرسل سبحانه موسى
بمعجزات كافية وافية إلى فرعون ليردعه عن غيه وضلاله (فتولى بركته) أعرض
مغتراً بجنده وسلطانه (وقال ساحر أو مجنون) .. ولماذا موسى ساحر أو مجنون
في منطق فرعون ؟ لأنه قال له : لست إلهاً يُعبد ، وحفره مغية البغي والظنيان
(فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم) . طفى وبغى وقال : أنا ربكم
الأعلى فكان عاقبة أمره إغراقاً ولوماً .. ومن نافلة القول ان نشير إلى ما سبق من

الجزء السابع والعشرون

التكرار ، وفي ج ٥ ص ٢٠٦ ذكرنا السبب الموجب لتكرار قصة موسى ، أما هنا فنقول : الله أعلم .

(وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم) . عادٌ هم قوم هود، وقد أهلكهم الله بريح عاصفة قاصفة (ما تدر من شيء أنت عليه إلا جعلته كالريم) لا تمر بشيء إلا تهدم وطمطم .. وسبقت قصة هود مع قومه في سورة الأعراف الآية ٦٥ - ٧٢ ج ٣ ص ٣٤٧ وفي سورة هود الآية ٥٠ - ٦٠ ج ٤ ص ٢٣٩ .
 (وفي هود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين) هود قوم صالح . وهذه الآية تشير الى ما جاء في الآية ٦٥ من سورة هود : ه فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكتوب ه . (فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون) . عصوا الله والرسول ، فأنزل سبحانه عليهم العذاب من السماء ، ولما رأوه خارت قواهم (فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين) وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال . وتقدمت قصة صالح مع قومه هود في سورة الأعراف الآية ٧٣ - ٧٩ ج ٣ ص ٣٥٠ وفي سورة هود الآية ٦١ - ٦٨ ج ٤ ص ٢٤٤ (وقوم نوح من قبل) أغرقهم الله بذنوبهم (انهم كانوا قوماً فاسقين) يفعلون الموبقات ، وينتهكون المحرمات . وتقدمت قصة نوح في سورة الأعراف الآية ٥٩ - ٦٤ ج ٣ ص ٣٤٤ وفي سورة هود الآية ٢٥ - ٤٩ ج ٤ ص ٢٢٢ .

ومن كل شيء خلقنا زوجين الآية ٤٧ - ٦٠ :

وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ* وَالْأَرْضَ قَرَشْنَاهَا فَغَنَمَ الْإِبْهَادُونَ*
 وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ* فَاقْرَأُوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ* وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ
 مُبِينٌ* كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ

أَوْ مَجْنُونٌ * أَتَوَّصُوا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ * فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ
بِمَلُومٌ * وَذَكَرْ فَإِنَّ الدُّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ * وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ
وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ *
إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ * فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ
ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ * فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ
الَّذِي يُوْعَدُونَ *

الغفة :

بأيد أي بقوة . وموسعون اشارة إلى أن القضاء يتسع باستمرار على مدى
الأيام ، ويأتي التفصيل . والفرار إلى الله معناه اللجوء اليه والاعتصام بحبله .
وتواصوا أوصى بعضهم بعضاً . وبمعلوم أي بمسؤول .

الإهراب :

والسماة مفعول لفعل مقدر أي بنينا السماة بنيناها . والأرض أيضاً مفعول لفعل
مقدر أي فرشنا الأرض فرشناها . فنعم الماهدون المخصوص بالمدح محذوف أي
نحن . وكذلك خبر " لبتداً مقدر أي الأمر كذلك . أتواصوا الهمة للانكار .

المعنى :

(والسماة بنيناها بأيدٍ وإنا لموسعون) . قال بعض المفسرين : المراد بموسعين
ان الله يوسع الرزق على خلقه بالمطر .. والمعنى الذي يتفق مع الواقع ومدلول الآية

الجزء السابع والعشرون

معاً أن يكون المراد بالسما هنا المعنى الظاهر من كلمة السماء وهو الفضاء الواسع الرحب بما فيه من النجوم وغيرها . والمراد بموسعين ان الله سبحانه يزيد الفضاء اتساعاً باستمرار وعلى مدى الأيام ، قال أهل الاختصاص : ان الفضاء يتمدد بين المجرات باستمرار ، وان حجم الفضاء العالمي الآن يبلغ نحو عشرة أضعاف حجمه منذ بداية تمدده .. ويقول « سير جيتز » : يبلغ متوسط البعد بين المجرات بعضها مع بعض نحو مليون ونصف من السنين الضوئية مع العلم ان الضوء يقطع ٦ ملايين مليون من الأميال في سنة واحدة .. ويقول « كامو » : انه قد علم بواسطة المراصد الكبرى ان بين النجوم مسافات ضخمة تُقدر بنحو خمسمائة مليون سنة ضوئية ، وانه قد أحصى من المجرات نحو مئة مليون مجرة ، وانه يحتتمل وجود مجرات أخرى على مسافات أبعد . (التكامل في الاسلام لأحمد أمين العراقي ج ٣ ص ٦٧ طبعة أولى) .

ونحن لا نتحمس لتطبيق القرآن على العلم الحديث للمحاذير التي ذكرناها في ج ١ ص ٣٨ .. ولكن لا نجد مفراً من القول : ان هذه الآية الكريمة أصدق شاهد على ان معجزة محمد بن عبدالله (ص) هي المعجزة الأبدية الوحيدة من بين معجز الأنبياء أجمعين ، وانها تزداد رسوخاً ووضوحاً كلما تقدم العلم خطوة الى الأمام .

(والأرض فرشتها فتمع الماهلون) . مهد وهياً سبحانه الأرض للانسان ، وبسط فيها يده ليبيي ويعمل للحياة والخير ، لا للشر والدمار ، أطلق يده ليعمل واشترط عليه أن يكف الأذى عن أخيه الانسان ، لا ليلقي بالصواريخ وقنابل التنازل على مدارس الأطفال ودور الحضارة ، ومستشفيات المرضى ومصانع العمال ، وعلى كل من ينشد الحرية ، ويرفض العبودية إلا لله وحده .

(ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون) . يدل ظاهر الآية على أن الله سبحانه خلق في كل جنس من الكائنات زوجين ذكراً وأنثى ، سواء أكان إنساناً أم حيواناً او نباتاً ام جراداً لأن كلمة كل شيء تعم الجميع ... ولا ننري هل اكتشف العلماء هذه الحقيقة او أنهم ما زالوا في طريق الوصول اليها ؟ والذي قرأناه من أقوال العلماء في هذا الباب ان ما من ذرة في الكون إلا وهي مؤلفة

سورة الذاريات

من كهيرب موجب وسالب أي انها تحتوي على عنصر يجذب وآخر يدفع ، فهل تنطبق الآية على ذلك ؟ .

(ففروا الى الله اني لكم منه نذير مبين) . وكل من كف الأذى عن غيره ، وصدق في أقواله وأخلص للحق والعدل في أفعاله فقد فر من الباطل الى الحق ، ومن الضلال إلى الهدى ، وعمل بما أمر الله، أراد ذلك أو لم يرد . اما الكاذب الخائن فهو أعدى أعداء الله ، وان هتّل وكبّر ، وتعبّد وتصلّق . (ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر إني لكم منه نذير مبين) . والشرك أشكال ، منه عبادة الأصنام ، ونسبة الولد الى الله .. ومنه أيضاً التلون في الدين والعمل لحساب أعداء الله والانسانية باسم الاسلام وصالح المسلمين .

(كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون) . قال لك المكذوبون يا محمد تماماً مثل ما قال الأولون لأنبيائهم ، وما حظك في ذلك بأذى من حظهم (أتواصوا به بل هم قوم طاغون) . غريب أن يتشابه الأولون والآخرون في تكذيب المحقّين والمصلحين .. هل اجتمعوا وتواصوا بذلك كلا ، ما اجتمعوا ، ولا رأى او قلّد بعضهم بعضاً ، وإنما جمعهم عداء الباطل للحق ، والجهل للعلم (فتول عنهم فا انت بلوم) لا تذهب نفسك حشرات على كفرهم وطمعاهم يا محمد فا أنت بمسؤول عن دينهم ولا عن أقوالهم وافعالهم (وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين) . لا مهمة لك يا محمد إلا ان تبلغ القرآن وتعظ به جميع الناس ، وإذا لم تنتفع بالموعظة من أصر على الكفر والفساد فينتفع بها من يبحث عن الحق ليؤمن به ويعمل بموجبه .

(وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) . وعبادة الله وحده تعني التحرر من عبادة الإنسان للإنسان ، ومن عبادة المال والجاه ، وجميع الأهواء والشهوات ، وان لا يخضع إلا للحق والعدل ، وأيضاً تعني الجهاد لنصرة الحق وأهله ، والعمل لخير الدنيا والآخرة ، وما من رب ان من سلك هذه السبل أدت به الى دار السلام ، وعلى هذا تكون الغاية من خلق الجن والانس ان يحيا حياة طيبة دائمة في دار الله وجواره شريطة ان يتحرروا من العبودية بشئ انواعها ، ويعملوا صالحاً، ومن اعمل وقصر فلا يلومن إلا نفسه ، وما ربك بظلام للعبيد . وتكلمنا مفصلاً عن ذلك في ج ٦ ص ١٧١ فقرة « لماذا خلق الله الانسان ؟ » .

الجزء السابع والعشرون

وتسأل : وماذا تصنع بالحديث القدسي : « كنت أكثراً مخفياً فأردت ان أعرف فخلقت الخلق في عرفوني » فإنه يدل بوضوح على ان الغاية من الخلق هي معرفة الله ؟.

الجواب : ان هذا الحديث يتفق تماماً مع التفسير الذي ذكرناه لأن من عرف الله حق المعرفة استغنى بعبادته عن عبادة الناس والجاه والمال، وعمل لمرضاه وجته.

(ما اريد منهم من رزق وما اريد ان يطعمون) . وكأنه تعانى علواً كبيراً يقول : ما خلقت الخلق لأستغلهم في مصائبي وحقولي ، ولا لأتخذ منهم سوقاً لتصريف سلمي وبضائمي، ولا لأحارب بهم من يراحمي على الاستغلال والاحتكار ، كلا ان الله غني عن العالمين ، وانما خلقتهم ليعملوا بدأ واحدة لخيرهم أجمعين ، ويجاهدوا من يحاول الاعتداء على حريتهم وكرامتهم ، وينتهب أموالهم وأرضهم وديارهم (ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين) . ومعنى الله هو الرزاق انه تعالى خلق الأرض للانسان معاشاً ، وزوده بجميع الأدوات التي تمكنه من استثمارها من أجل حياته كالعقل والقوة والسمع والبصر ، وقال له : اعمل لديناك وآخرتك ، ولا تعتد ان الله لا يحب المعتدين ، تماماً كما لو اعطيت ولدك مالا، وقلت له : تاجر به لمعاشك ، وكن أميناً في معاملتك .

(فإن للذين ظلموا ذنوباً مثل ذنوب أصحابهم) . المراد بالظالمين هنا الطغاة المترفون الذين كذبوا رسول الله (ص) والمعنى ان نصيب هؤلاء من العذاب تماماً كصيب الأمم السابقة الذين كذبوا الرسل (فلا يستعجلون) العذاب الذي هو نازل بهم لا محالة .. وما أقرب اليوم من الغد (فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون) به ويستعجلون مجيئه .. فكم من مستعجل أمرأ ود – حين مجيئه – انه لم يكن .

سورة الطور

٤٩ آية مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والطور الآية ١ - ١٦ :

وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ * فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ * وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ *
وَالسَّفِّ الْمَرْفُوعِ * وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ *
مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ * يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرَأً * وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا *
فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ * يَوْمَ يَدْعُونَ
إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً * هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحْرٌ هَذَا
أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ * أَصَلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ
إِنَّمَا تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ *

اللغة :

قال الفيروز ابادي في قاموسه المحيط : يطلق الطور على فناء الدار وعلى كل جبل . وعلى جبل قرب أيلة يضاف الى سيناء وسينين ، وعلى جبلين بالقلمس ؛

الجزء السابع والعشرون

وتأخر برأس العين ، وعلى جبل مطل على طبرية . والرق جلد رقيق يكتب فيه .
والبحر المسجور أي امتلاً وفاض . وتمور تضطرب . والمراد بالخوض هنا حديث
الباطل . ويدعون يذفون . أصلوها قاسوا حرها .

الإعراب :

والطور الواو للقسم . وما بعد الطور عطف عليه . في رق متعلق بمسطور .
ان عذاب ربك الخ جواب القسم . يوم تمور . يوم « يوم » متعلق بواقع . ويوم يدعون
« يوم » بدل من يوم المتقدمة . وسحر خبر مقدم وهذا مبتدأ مؤخر . وسواء
خبر لمبتدأ محذوف أي الصبر وعلمه سواء .

المعنى :

(والطور وكتاب مسطور في رق منشور والبيت المعمور والسقف المرفوع والبحر
المسجور) . الطور هنا هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى ، وقد أقسم به
سبحانه في هذه الآية وفي الآية ٢ من سورة التين ، والمراد بكتاب مسطور كل
كتاب سماوي لأن « كتاب » نكرة ، وهي شائعة في جنسها ، والتعيين يحتاج الى
قرينة، وبمجرد ذكر الطور لا يصلح قرينة لارادة التوراة من كلمة كتاب، وقوله تعالى:
« مسطور في رق منشور » معناه ما أنزل الله كتاباً إلا وقد جعله في متناول كل
يد ، وان كل انسان يستطيع الوصول اليه والى معرفة ما فيه تماماً كما تقول :
هذا كتاب الله بين أظهركم ينطق بحلاله وحرامه . وفي نهج البلاغة : أشهد ان
محمداً عبده ورسوله أرسله بالدين المشهور والكتاب المسطور . (والبيت المعمور)
الكعبة : « واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت - ١٢٧ البقرة » . (والسقف
المرفوع) السماء : « وجعلنا السماء سقفاً - ٣٢ الأنبياء » أي كالسقف في عين
الرائي (والبحر المسجور) المملوء الذي يفيض بالماء : « وإذا البحار سجرت
- ٦ التكويرة أي امتلأت وفاضت . أقسم سبحانه بهذه الكائنات الخمسة للإشارة

سورة الطور

الى قدرته عزّ من قادر . انظر تفسير الآية ١ من سورة الصافات ، فقرة ١ الله
والقسم بخلقه ، ج ٦ ص ٣٣٠ .

(ان عذاب ربك لواقع) على المجرمين لا محالة . والجملة جواب القسم
(ما له من دافع) تماماً كالموت لا يملك رده إلا الذي يحيي ويميت (يوم تمور
السماء موراً) أي تذهب الجاذبية ، ويختل التوازن بين كواكب السماء وتحدث
الفوضى ويعم الخراب (وتسير الجبال سيراً) ومتى مارى السماء ارتجت الأرض
وزالت الجبال عن أماكنها ، وتشير الآياتان الى قيام الساعة وخراب الكون حيث
تحشر الخلائق للحساب والجزاء (فويل يومئذ للمكذبين الذين هم في خوض يلعبون) .
لعبوا بالدنيا ولعبت بهم .. ولكن شتان فما هم بأكفء لها ، ولذا صرعتهم وعجلت
بهم الى جهنم وبش القرار (يوم يدعون الى نار جهنم دعاً) . يدفعون اليها بعنف
وتقول لهم ملائكة العذاب : (هذه النار التي كنتم بها تكذبون) فذوقوا عذاب
الحريق ذلك بما قدمت أيديكم وان الله ليس بظلام للعبيد .

(أفسح هذا أم أنتم لا تبصرون) ؟ خوفهم الرسول الأعظم (ص) من نار
جهنم ، فقالوا له : انك لساحر .. وفي يوم الجزاء يجعلهم سبحانه لجهنم حطباً ،
ويقول لهم : ماذا ترون الآن ؟ هل محمد ساحر ؟ وهل عذاب الحريق سحر ؟
(أصلوها) ولا كالنار يشقى من فيها (فاصبروا او لا تصبروا سواء عليكم) .
فالعذاب هو هو لا يخفف ولا ينقطع (انما تجزون ما كنتم تعملون) من بغي وفساد .

أهل الجنة الآية ١٧ - ٢٨ :

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ * فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمُ وَوَقَّاهُمْ رَبُّهُمُ
عَذَابَ الْجَحِيمِ * كُلُّوا وَأَشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * مُتَّكِنِينَ عَلَى
سُرُرٍ مَّصْفُوقَةٍ وَزَوْجَانَهُمْ يُجُورِينَ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمُ
بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ

بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ* وَأَمْدَدْنَا هُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ* يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيمٌ* وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ* وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ* قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ* فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السُّومِ* إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ*

اللغة :

فاكهين يجوز أن يكون من الفاكهة أي طيب النفس ، وان يكون من الفاكهة اي يتلذذون بها ، وكل من المعنيين يتناسب مع جنات ونعيم ، والمعنى الثاني انب لقوله تعالى : « كلوا واشربوا هنيئاً ، اي طعاماً سائغاً وشراباً سائغاً . ما ألتناهم ما انقصنا من ثواب عملهم . يتنازعون يتعاطون . لا لغو فيها ولا تأتيم اي ان خمر الجنة لا تذهب بعقل الشارب فيلغو ويأثم في كلامه . ومشفقين خائفين من عذاب الله . والسوم النار .

الإعراب :

فاكهين حال من الضمير في خبر ان المحلوف اي استقروا في جنات ونعيم فاكهين . وهنيئاً صفة لمفعول مطلق مقدر اي أكلاً هنيئاً وشراباً هنيئاً . متكئين حال من فاعل كلوا واشربوا . والذين آمنوا مبتدأ وألحقنا بهم خبر . وبما كسب متعلق برهين . وفي أهلنا متعلق بمشفقين .

المعنى :

(ان المتقين في جنات ونعيم فاكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم).

سورة الطور

اتقوا الله في الدنيا فوقاهم في الآخرة عذاب النار ، وجعل الجنة لهم ثواباً يتمتعون فيها ، لا يشغلهم عن ملذاتها شاغل (كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون) . أنتم أيها المتقون أحق بهذا النعيم لأنكم عملتم له بإخلاص .. وتدل الآية على أنه لا كرامة عند الله لمخلوق كائناً من كان إلا بالعمل ، أما المناصب والأنساب والأموال فما هي بشيء إلا إذا كانت وسيلة للخير والصالح العام (متكئين على سرر مصفوفة) . والانتكاه على السرر مع الضرع للملذات يدل على التحرر من مشاكل الحياة وأتاعها (وزوجناهم بحور عين) بحار العقل والطرف من حسنهن وكماهن .. وبأهلها من نعمي ! .

(والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم) . ليس من شك ان الأطفال الصغار لا يعذبون بحال ، سواء أكان آباؤهم من الأخيار أم الأشرار ، إذ لا عقاب بلا عصيان ، ولا عصيان بلا تكليف ، وقد رفع سبحانه القلم عن الصبي حتى يحتمل ، وكرر سبحانه في العديد من الآيات : « ولا تزر وازرة وزر أخرى -- ١٦٤ الأنعام » . أما قول من قال : ان ولد الكافر يدخل النار لأنه لو عاش لاعتنق دين أبيه ، أما هذا القول فتروك لأن الله يحاسب الانسان على ما فعل ، ولا يحاسبه على ما لو استطاع لفعل .

وتسأل : هل الأطفال الصغار يحشرون ويدخلون الجنة ؟ .

الجواب : لا سبيل الى معرفة ذلك إلا كتاب الله وسنة نبيه ، لأن العقل لا يحكم هنا بشيء سلباً ولا إيجاباً . ولا شيء في الكتاب والسنة المتواترة يدل على أن أطفال الكافرين يحشرون .. وفي حديث عن الرسول الأعظم (ص) : ان أطفال المؤمنين يُهدون الى آباؤهم المتقين يوم القيامة . وقال كثير من المفسرين : ان الكبار المؤمنين من ذرية المتقين يلحقون بدرجة آباؤهم العليا في الجنة ، وان كانوا دونهم في العمل الصالح لكي تقر بهم أعينهم ، واستدلوا بقوله تعالى : (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء) أي تزيد للأبناء كرامة للآباء ، ولا نقص الآباء شيئاً من ثوابهم ودرجاتهم .

وقال الامامية والحنفية والشافعية والحنابلة : يُحكم بإسلام الطفل تبعاً لأحد أبويه ، فإن كانا مسلمين فذاك ، وان كان أحدهما مسلماً والآخر كافراً فالطفل يحكم بالمسلمين

الجزء السابع والعشرون

سواء أكان المسلم هو الأب أم كان كافراً لكن الأم كانت مسلمة ، أما المالكية فقالوا : العبرة بإسلام الأب فقط ولا أثر لإسلام الأم بالنسبة الى الطفل .

(كل امرئ بما كسب رهين) فعليه وحده ثبته أعماله ، وبها يُقبل غداً على الله ، ولا يُسأل عما فعل سواء (وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون) . خص سبحانه الفاكهة واللحم بالذكر لأنها سببا الطعام (يتنازعون كأساً لا لغو فيها ولا تأثيم) . يشربون منعشاً بلا سكر ولا عريضة ، ولا ما يستوجب الإثم والمؤاخذه على قول أو فعل (ويطوف عليهم غلجان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون) صفاء وبهاء .. وقوله تعالى : ولهم إشارة الى ان الغلجان يأثمرون بأمرهم ويتهنون بنهيهم .

(وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون) يسأل بعضهم بعضاً: كيف كان في دار الدنيا ؟ وبماذا استحق من الله هذه الكرامة . وتقدم مثله في الآية ٥٠ من سورة الصافات (قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين) . اتقينا الله في دار الدنيا خوفاً من غضبه وطمعاً في ثوابه (فنّ الله علينا) برحمته وخصتنا بنعمته (ووقانا عذاب السموم) الذي يذيب الجلود ، ويشوي الوجوه (انا كنا من قبل ندعوه انه هو البر الرحيم) . كنا في الدنيا رحماء أبراراً ، فكان الله بنا في الآخرة برأ رحماً .

لا عذر لمن أنكر نبوة محمد الآية ٢٩ - ٤٤ :

فَذَكَرْ فَما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ * أمْ يَقُولُونَ شاعِرٌ
تَرَبَّصْ بِهِ رَبِّبَ الْمُنُونِ * قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ *
أمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُمْ بِهَذَا أمْ هُمْ قَوْمٌ طاعُونَ * أمْ يَقُولُونَ نَقولُهُ بَلْ
لَا يُؤْمِنُونَ * فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صادِقِينَ * أمْ خُلِقُوا مِنْ
غَيْرِ شَيْءٍ أمْ هُمْ الخالِقُونَ * أمْ خُلِقُوا السَّمواتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا

يُؤْفِقُونَ* أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمَصِيطُونَ* أَمْ لَهُمْ سُلْمٌ
يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلَيَاتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ* أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ
الْبَنُونَ* أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ* أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ
فَهُمْ يَكْتُوبُونَ* أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ*
أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ* وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ
السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ*

اللغة :

الكاهن هو الذي يوهم الناس بأنه يعلم بعض الغيب عن طريق اتصاله بالجن .
والتربص الانتظار . وكلمة المنون تأتي بمعنى المنية وبمعنى الدهر ، والمراد هنا
بريب المنون حوادث الدهر وضرباته القاسية بالموت ونحوه . وتطلق الأحلام على
الأماني والعقول ، ويستقيم المعنى على المعنيين . والتقول الافتعال والاختلاق .
ومغرم بفتح الميم التزام بالفرامة . ومثقلون محملون أنقالاً . وكسفاً بكسر الكاف
جمع كسفة وهي القطعة من الشيء . ومركوم متراكم .

الإعراب :

انت اسم « ما » النافية . وبكاهن الباء زائدة لإعراباً . وكاهن خبر . وبنعمة
ربك اعتراض بين الاسم والخبر . والباء بنعمة لبيان السبب وليست للقسم كما في
مجمع البيان ، ويتعلق المحرور بها بما دل عليه معنى الكلام أي ان الله نزهك
يا محمد عن الجنون والكهانة بفضلته وكرمه . و « دام » المكررة في الآيات معناها
الاستفهام مع التوبيخ والانكار . وشاعر خبر مبتدأ مقدر أي هو شاعر . وتقوله

الجزء السابع والعشرون

فعل ماضٍ مثل تكلفه وتعصفه . ومن مغرم متعلق بـ «مضلون» . فالذين كفروا مبتدأ و «هم» ضمير فصل والمكيدون خبر . وغير الله صفة لإلآه . ومن السماء متعلق بمحذوف صفة للكسف . وساقطاً حال او صفة لأن رأى هنا بصرية .

المعنى :

تشير هذه الآيات الى حال الرسول الأعظم (ص) مع المشركين حين دعاهم الى التوحيد ونيز الشرك .. وقد ابتدأ سبحانه بمخاطبة نبيه الكريم :

١ - (فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون) . امض في سبيلك ، وثابر يا محمد على مهمتك ، وهم الدعوة الى الله والتخويف من عذابه ، ولا تكثرت بما يقوله عنك بعض المعاندين : انك كاهن تدعي علم الغيب .. ويقوله آخرون : انك مجنون .. فأنت محمد الله وفضله أبعد من كان ويكون عن أكاذيبهم ومزاعمهم .. وكيف تكون كاهناً أو مجنوناً وقد جعلك الله أميناً على وحيه ، واختارك لرسالته ؟.

٢ - (أم يقولون شاعر تربص به ريب المنون) . قال بعضهم لبعض : محمد شاعر يتكلم من نسج الخيال .. فاثبتوا على تكذيبه ، وانتظروا أياماً ، فإن هلك فذاك ما تبتغون ، وان عاش افضح بمزاعمه .. ثم افترقوا على هذا (قل تربصوا فلاني معكم من المتربصين) . أمر سبحانه نبيه الكريم أن يقول لهم : انتظروا .. وأنا أيضاً أنتظر وسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ، ويصبح من النادمين .

٣ - (أم تأمرهم أحلامهم بهذا) الاقراء والضلال . والمراد بأحلامهم عقولهم البالية وأمانتهم الخادعة .

٤ - (أم هم قوم طاغون) . انهم على علم اليقين انك رسول الله حقاً وصدقاً ، ولكنهم ينكرون الحق بغياً وعناداً حرصاً على مناصبهم ومكاسبهم .

٥ - (أم يقولون تقوله) اختلق القرآن من تلقائه (بل لا يؤمنون) يخن ولا يكفون عن باطل (فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين) في ان القرآن

سورة الطور

شعر وكهانة ، فما أكثر ما عندهم من الكهنة والشعراء . وتقدم مثله في الآية ٢٣ من سورة البقرة ج ١ ص ٦٤ .

٦ - (أم خلقوا من غير شيء) صدقة .. لا خالق ولا مدبر .. ولا هدف ولا مسؤولية .. لا شيء تماماً كما تخلق الحشرات في العفونة والقدرات .

٧ - (أم هم الخالقون) أنفسهم بإرادتهم وقدرتهم ؟

٨ - (أم خلقوا السموات والأرض) . وتساءل : ان المشركين لا يدعون أنهم الخالقون لأنفسهم ولا لغيرهم ، بل نص القرآن على اعترافهم بأن الله هو الذي خلقهم وخلق السموات والأرض ، قال تعالى : « ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله - ٨٧ الزخرف » . وقال : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله ٦١ العنكبوت » - إذن - فما هو المرر لقوله تعالى : « أم هم الخالقون أم خلقوا السموات والأرض » ؟

الجواب : أنهم من الوجهة النظرية يعترفون بأن الله هو خالق كل شيء .. ولكنهم من الوجهة العملية يتصرفون تصرف من لا يؤمن بالله ولا يعترف بوجوده .. بل يدل تصرفهم على أنهم يدعون الخلق والربوبية .. وإلى هذا يوصى قوله تعالى : (بل لا يوقنون) . وينطبق هذا الوصف على الكثير من الذين يدعون الإيمان بالله واليوم الآخر في زماننا .

٩ - (أم عندهم خزائن ربك) ؟ وإذا اعترفوا بأن الله خالق كل شيء فهل يدعون بأن الله فوض اليهم إدارة ملكه واختيار انبيائه ، وتقسيم الأرزاق والأعمار على عباده ؟ وتقدم مثله في الآية ٣٢ من سورة الزخرف .

١٠ - (أم هم المصيطرون) على الخلائق وجميع الكائنات .. شاء الله أم أبى .

١١ - (أم لهم سلم يستمعون فيه) وإذا لم يدعوا شيئاً من ذلك فهل يدعون أنهم ارتقوا بمحمد الى الله وسموه يقول : ان محمداً يفترى الكذب على الله ؟ (فليأت مستمعهم بسلطان مبين) . هذا هو منطق الحق والعدل ، والنهائية في انصاف الخصم .. فلكل انسان أن يدعي ما شاء حتى علم الغيب ، شريطة أن يقيم البينة الواضحة على دعواه ، وإلا فهو مفترٍ كذاب .

الجزء السابع والعشرون

١٢ - (أم له البنات ولكم البنون) . لا فرق إطلاقاً بين قولهم : محمد شاعر وكاهن ومجنون وبين قولهم : لله البنات ولهم البنون .. ولا ينحصر الافتراء على الرسول بالقول : انه مجنون ، ولا بنسبة الشريك والولد الى الله .. فكل من حرم حلالاً أو حلل حراماً فقد اقرى الكذب على الله والرسول .

١٣ - (أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون) . لماذا كذبوا رسول الله ؟ هل ألزمهم بغرامة يعجزون عنها ولا يستطيعون اداها ؟

١٤ - (أم عندهم الغيب فهم يكتبون) . هل هم كتبة الوحي عند الله يسجلون الأرزاق والأعمار ومن يختار من الأنبياء ، وما طلب منهم سبحانه في يوم من الأيام أن يسجلوا اسم محمد مع أسماء الأنبياء .

١٥ - (أم يريدون كيداً فالذين كفروا هم المكيدون) . هذه هي الحقيقة . اهم لا يدعون شيئاً ، ولا يريدون شيئاً إلا المكر والاساءة الى محمد (ص) .. ولكن ستدور عليهم دائرة السوء لأن المكر السيء لا يجتق إلا بأهله .

١٦ - (أم لهم إله غير الله سبحانه الله عما يشركون) . ومن هو ؟ وأين هو هذا الإله الذي يرد عنهم عذاب الله عند نزوله ؟ تعالى الله علواً كبيراً عن الأمثال والأضداد .

(وان يروا كسفاً من السماء ساقطاً يقولوا سحب مركوم) . لو رأوا العذاب وجهاً لوجه لكابروا وقالوا: هذا سحب وسراب . ومثله قوله تعالى حكاية عنهم : ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا انما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون - ١٤ الحجر ، ج ٤ ص ٤٦٩ .

والخلاصة ان الله سبحانه لم يدع عنراً لمن كذب أو يكذب بنبوة محمد (ص) إلا أن ينكر وجود الخالق من الأساس .

للهم حتى يلاقوا يومهم الآية ٤٥ - ٤٩ :

فَدَرُّهُمْ حَتَّى يَلْأُقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ * يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ

سورة الطور

كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ* وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ
وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ* وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا
وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ* وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ*

الغنة :

يُصْعَقُونَ يهلكون . بأعيننا بحراستا . وإدبار النجوم بكسر الهززة وقت مغيبها
عن الأعين نهاراً .

الإعراب :

يومهم مفعول به ليلاقوا لأن المعنى أنهم يلاقون اليوم بالذات، ولو قال: يلاقون
عملهم يوم القيامة لكان يوم مفعولاً فيه . ويوم لا يبغي بدل من يومهم . وادبار
مفعول فيه لفعل محذوف أي وسببته في إدبار النجوم .

المعنى :

(فترهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون) . ما زال الكلام عن الذين
كذبوا رسول الله (ص) . والمعنى لا تكثرت يا محمد بتكذيبهم وعنادهم ، فإن
لهم يوماً لا يجدون فيه مفرأ من الهلاك والعذاب الأليم (يوم لا يبغي عنهم كيدهم
شيئاً ولا هم ينصرون) . لا حيلة تدفع في هذا اليوم، ولا ناصر ينفع (وان للذين
ظلموا عذاباً دون ذلك) أي يعذبون عذاباً آخر قبل يوم القيامة ، وقال بعض
المفسرين : انه عذاب القبر . وقال آخرون : بل هو ما حل بهم يوم بدر .. أما
نحن فلا نحدد ، بل نسكت عما سكت الله عنه (ولكن أكثرهم لا يعلمون)

الجزء السابع والعشرون

بأن للذين ظلموا عذاباً قبل يوم القيامة وفيه (واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا) .
المراد بحكم الله هنا إمهال الظالمين الى يومهم الموعود، وبأعيننا ان الرسول الأعظم (ص)
في حصن الله الحصين من أذى الأعداء ومكرهم (وسبح بحمد ربك حين تقوم
ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم) . اذكر الله في جميع الحالات والأوقات ، فإن
ذكره أحسن الذكر ، ووعده الذاكرين المتقين أصدق الوعد .

سورة النجم

٦٢ آية مكة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رآه .. عند سدره المنتهى الآية ١ - ١٨ :

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ
الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ
فَأَسْتَوَىٰ * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ
أَوْ أَدْنَىٰ * فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ *
أَفَتَأْرُونَ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ * وَلَقَدْ رَآهُ نَزَلَةً أُخْرَىٰ * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ *
عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ * إِذْ يَغْشَى السُّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا
طَغَىٰ * لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ *

: اللغة :

هوى سقط . وضل هنا بمعنى ضاع . وغوى من الغواية . وعلمه هنا بمعنى
بلغه عن الله، وشديد القوى جبريل . والمراد بالمرّة بكسر الميم الهيئة الحسنة . فاستوى

الجزء السابع والعشرون

استقام مثل فاستوى على سؤقه . والأفق الأعلى الجوى . وتدل امتد الى أسفل . والقاب المقدار . وتمازونه تجادلونه . والتزلة بفتح النون المرة من التزول . والمراد بسفرة المنتهى مكان الانتهاء . وجنة المأوى هي جنة الخلد . ويفشى يسر ويغشى أو يأتي . وزاغ مال . وطحى تجاوز .

الإعراب :

والنجم الواو للقسم . وإذا متعلق بفعل القسم المحذوف . وهو بالأفق الأعلى مبتدأ وخبر والجملة حال من ضمير فاستوى . ونزلة منصوبة على الظرفية لأنها بمعنى مرة . وإذ يفشى إذا ، منصوبة براءه .

المعنى :

(والنجم اذا هوى) . ذكر صاحب البحر المحيط عشرة أقوال في تفسير « والنجم اذا هوى » وأقربها ان المراد بالنجم كل نجم لأن الألف واللام للجنس ، وان معنى هوت النجوم انها تسقط ، تتأثر في الفضاء يوم القيامة بدليل قوله تعالى : « واذا الكواكب انتثرت - ٢ . انفطار » فإن القرآن ينطق بعبه ببعض .. وفي هذا القسم إشارة الى أن من أنكر نبوة محمد (ص) يلقي جزاءه يوم القيامة (ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى) . هذا هو المقسم عليه ، وهو ان محمداً (ص) ينطق ويفعل بالوحي من الله ، لا بالشك والجهل ، ولا بغواية غاير ، ولا بدافع من ميوله وأهوائه .. وكيف ينطق النبي أو يفعل عن الهوى ، وقد جاء ليصلح ويقضي على الفساد والأهواء ؟ .

فكان قاب قوسين :

هذه الآيات من قوله تعالى : « علمه شديد القوى » الى قوله : « آيات ربه الكبرى » - تشير الى حادثة معينة لا سبيل الى معرفتها إلا الوحي ، لأن موضوع -

سورة النجم

الحادثة هو ظهور جبريل مرتين لرسول الله (ص) على الصورة التي خلقه الله عليها لا على الصورة السني اعتاد النبي أن يراه فيها حين يبلّغه الوحي . وقد كثّر المفسرون الكلام حول هذه الآيات ، وأطنب بعضهم في أوصاف جبريل وأجنحته بلا حجة ودليل .. أما نحن فنتصر على ما يدل عليه ظاهر اللفظ ولا ياباه العقل غير ملتزمين بقول راوٍ أو مفسر إلا على هذا الأساس ، والله المستعان :

١ - (علمه شديد القوى) . علمه أي بلّغه، والضمير يعود الى صاحبكم ، وهو محمد (ص) : والمفعول الثاني لعلمه محذوف أي الوحي ، وشديد القوى فاعل علمه ، وهو جبريل (ع) ، والمراد بالقوى هنا الصفات التي تؤهل جبريل لتبليغ الوحي كالحفظ والأمانة والدقة في الأداء حتى كان النبي (ص) يسمع الوحي من الله مباشرة ، والدليل على ان المراد بالقوى الحفظ والأمانة قوله تعالى في وصف جبريل : « وانه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين - ١٩٣ الشعراء » . وأيضاً كلمة علمه توميء الى ذلك . وعليه يكون المعنى ان جبريل القوي الأمين بلغ محمداً الوحي على حقيقته تماماً كما هو في علم الله .

٢ - (ذو مرة فاستوى) . ذو مرة صفة لجبريل ، والمراد بالمرة بكسر الميم الهيئة والصورة ، واستوى استقام، والمعنى ان جبريل ظهر للنبي (ص) مستوياً كما خلقه الله .

٣ - (وهو بالأفق الأعلى) . ضمير هو لجبريل أي ان جبريل حين ظهر على صورته للنبي امتد مرتفعاً في الجو ، وقال المفسرون : الأفق الأعلى مطلع الشمس أي المشرق ، والأفق الأدنى مغربها ، وعلى أيسة حال فإن القصد هو الإخبار عن جبريل بأن صورته امتدت في الجو ، ولا يهم أن يكون هذا الجو لجهة المشرق أو المغرب .

٤ - (ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى) . في كل من دنا وتدلى ضمير يعود الى جبريل ، ودنا أي قرب من النبي (ص) ، وتدلى نزل ، وفي الكلام تقديم وتأخير ، والأصل ثم تدلى فدنا ، والقاب المقدار ، والمعنى ان جبريل بعد أن ظهر للنبي كما خلقه الله ، وارتفع جسمه بالأفق ، بعد هذا عاد الى الصورة التي كان يلقى النبي بها حين يبلّغه الوحي ، وقرب منه حتى لم يكن

الجزء السابع والعشرون

بينها سوى مقدار قوسين بل أقل من ذلك. والمعروف ان جبريل كان يأتي النبي (ص) في صورة دحية الكلبي .

٥ - (فأوحى الى عبده ما أوحى) . الضمير المستتر في أوحى يعود الى الله لا إلى جبريل ، لأن الضمير البارز في عبده يفسر الضمير المستتر ، والمراد بعبده أي عبد الله هو محمد (ص) ، والمعنى ان جبريل بعد أن عاد إلى الصورة التي كان يلتقى بها النبي (ص) ودنا منه ، بعد هذا أوحى الله على لسان جبريل إلى عبده محمد أموراً هامة .

٦ - (ما كذب الفؤاد ما رأى) . معناه ان رسول الله (ص) رأى جبريل بصره وقلبه تماماً كما خلقه الله ، فلا العين أخطأت فيما رأت ، ولا القلب شك فيما رأت العين بل أيقن وجزم بصدقها (أفئارونه على ما يرى) ؟ . الخطاب للمشركين ، والمعنى أنكذبون محمداً وتجادلونه فيما رأت عيناه وآمن به قلبه وعقله ، وهو من عرفتم صدقه وأمانته ، وعقله واترانه ؟ .

٧ - (ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى) . الضمير المستتر في رآه يعود إلى رسول الله (ص) ، والهاء إلى جبريل ، والنزلة المرة من النزول ، والمراد بسدرة المنتهى مكان الانتهاء والحد الأقصى الذي يبلغ اليه مخلوق حتى ولو كان من الملائكة .

وقال جماعة من المفسرين : ان في السماء السابعة شجرة تقع عن يمين العرش ، وتسمى هذه الشجرة بسدرة المنتهى .. وهذا القول يفتقر إلى دليل ، ومهما يكن فنحن غير مسؤولين عن معرفتها بالضبط مادام الله سبحانه قد سكنت عن التحديد. والذي نفهمه من الآية مع ملاحظة ما جاء في سورة الإسراء - ان جبريل (ع) حمل النبي (ص) ليلة المعراج ، وطاف به في السموات حتى انتهى به المطاف إلى الحد الأقصى الذي عبّر عنه سبحانه بسدرة المنتهى ، فوقف عنده ولم يتجاوزها إلى غيره لجهة العلو ، أما جنة المأوى فقد تضاربت الأقوال في تفسيرها .. والظاهر أنها جنة الخلد التي جعلها الله ثواباً للمتقين بدليل قوله تعالى : « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى - ٣٩ النازعات ، فإن القرآن ينطق ببعضه ببعض .

سورة النجم

والمعنى المحصل ان رسول الله (ص) رأى جبريل مرتين كما خلقه الله : المرة الأولى هي المشار إليها بقوله سبحانه : « فاستوى وهو بالأفق الأعلى » الخ وتقدم الكلام عنها . والمرة الثانية كانت في ليلة المعراج حيث طاف جبريل في السماء بالنبي (ص) حتى بلغ به مكان الانتهاء والحد الأقصى الذي لا يتجاوزه مخلوق كائناً من كان .. هذا كل ما دل عليه ظاهر اللفظ أو ما فهمنا نحن من الظاهر، وما عداه فهو - في رأينا - من الغيب المحجوب .

(إذ يغشى السدرة ما يغشى) . يغشى فعل يكون بمعنى يغطي ، وبمعنى يأتي، تقول : يغشى فلان فلاناً أي يأتيه، وتفسير الآية يصح بالمعنيين لأن المراد انه يوجد عند سدرة المنتهى عجائب من آثار قدرة الله وعظمته ما لا يبلغه وصف ولا يحده عقل ، ولذا أهتم سبحانه ، وترك التفصيل (ما زاغ البصر وما طغى) .. كلا ، ما حاد بصر النبي (ص) عن الواقع ولا تجاوز عنه ، وكل ما رآه في جبريل وفي السماء ليلة المعراج هو حق وصدق (لقد رأى من آيات ربه الكبرى) . ورؤية الآيات التي شاهدها الرسول في معراجه هي فوق الحساب وفوق الزمان والمكان .. ومستحيل أن يراها انسان إلا بقدرة الله ومشيئته . وتكلمنا عن الإسراء والمعراج عند تفسير الآية ١ من سورة الإسراء ج ٥ ص ٨ فقرة : « الإسراء بالروح والجسد » .

اللات والعزى ومناة الآية ١٩ - ٢٦ :

أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ * أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ
الْأُنثَىٰ * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ * إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ
وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى
الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَىٰ * أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّىٰ * فَلِلَّهِ

الْآخِرَةُ وَالْأُولَى * وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً
إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى *

اللمعة :

اللات والعزى ومناة أصنام لأهل الجاهلية . وضيوى جائرة .

الإعراب :

الثالثة صفة لمناة والأخرى صفة ثانية مؤكدة لأن الثالثة لا تكون إلا أخرى .
وأنتم تأكيد لفاعل سميتوما . وآباؤكم عطف على هذا الفاعل . ومن سلطان «من»
زائدة إعراباً وسلطان مفعول أنزل الله . وما تهوى الأنفوس عطف على الظن .
وأم مقطوعة بمعنى بل . وكم خبرية ومعناها التكثير وعملها الرفع بالابتداء والخبر
جملة لا تغني .

المعنى :

(أفرايم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى) . الخطاب لمشركي قريش ،
وكانوا يعبدون هذه الأصنام ويقولون : هي بنات الله أو ترمز إليها ، ولذا أنشوا
اللات ومناة بالثناء والعزى بالألف ، وقد سفه سبحانه عقولهم بقوله : (ألكم
الذكر وله الأئني تلك إذا قسمة ضيزى) ظالمة جائرة ، ومثله : « ويجعلون لله
ما يكرهون - ٦٢ النحل ، ج ٤ ص ٢٥ (إن هي - الأصنام - إلا
أسماء سميتوما أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان) لأنها أحجار لا تضر ولا
تنفع .. وتقدم الكلام عن الأصنام وعبدتها في عشرات الآيات .. وكفى رداً على
من يعبدها ويقدمها قوله تعالى : « إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا
ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب

سورة النجم

والمطلوب - ٧٣ الحج ه . وقال أديب معاصر : إذا سلبتك الذبابة حياتك بمرض تنفله اليك فمن يستطيع ان يرد لك تلك الحياة . وإذا سلبتك ذرةً من طعامك تتحول فوراً الى سكر في أمعائها، فهل يستطيع عباقرة الكيمياء لو اجتمعوا ان يستردوا ذرتك ؟.

(ان يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس). المراد بالظن هنا الجهل ، والانسان يكبح هواه بعقله وعلمه ، فإن كان جاهلاً أو ضعيف العقل تحكمت به الأهواء وقادته الى المهالك (ولقد جاءهم من ربهم الهدى) فقالوا : قلوبنا غلف وفي آذاننا وقر ، فحقت عليهم كلمة العذاب (أم للانسان ما تمنى) . تمنى المشركون شفاعة الأصنام ، فرد عليهم سبحانه : هل يتحقق للانسان كل ما يتمناه ؟ . وبكلمة ان عبدة الأصنام جمعوا بين الجهل والهوى والأمانى التي تعمي وتعم .. فتراكم الجهل على الجهل (فله الآخرة والأولى) الملك والأمير له وحده دنيا وآخرة ، ولا شيء لأبي كائن . (وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى) ٩ . قالوا : نحن لا نعبد الأصنام إلا لتشفع لنا عند الله ! . فقال لهم سبحانه : ان ملائكة السماء على عظمتهم وكرامتهم لا يشفعون عنده إلا بإذنه فكيف تشفع لكم أحجار صماء ؟ . وتكلمنا عن الشعاة عند تفسير الآية ٤٨ من سورة البقرة ج ١ ص ٩٧ فقرة الشفاة ه .

الظن لا يغني عن الحق الآية ٢٧ - ٣٢ :

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمُونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى *
وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً * فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا *
ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى * وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ

أَسَاؤًا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِي الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى * الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ
كِبَائِرَ الْإِنْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ
بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا
تُرْكَوْا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى *

اللمة :

مبلغهم من العلم منتهى علمهم . والمراد باللمم هنا صفار الذنوب . وأنشأكم
خلقكم . وأجنة جمع جنين .

الإعراب :

المصدر من ليجزي متعلق بمحذوف دل عليه سياق الكلام أي خلق الله الناس
ليجزى ، وقيل : متعلق بمعنى أعلم بمن ضل واهتدى . والذين يجتنبون بدل من
الذين أحسنوا . واللمم مستثنى منقطع .

المعنى :

(ان الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى) . كذبوا بالحق
جهلاً أو عناداً ، وكلٌّ من الجهل والعناد يصلح تفسيراً وسبباً لافترائهم على الله
بأن له شركاء وصاحبة وبنات .. ولم يكتفوا بنسبة البنات اليه تعالى حتى ابتدعوا
لهن أسماء معينة (وما لهم به من علم ان يتبعن إلا الظن) فيبتنون أشياء لا وجود
لها ولا دليل عليها إلا صورة وهمية مرت بأذهانهم .. وفي الآية ١٨ من سورة
يونس رد عليهم سبحانه بأنه لا يعلم ان له بنات وشركاء ، وذلك حيث قال:

سورة النجم

عز من قائل : « قل أنتنثون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون » .. (وان الظن لا يغني من الحق شيئاً) . ولو اتبع الناس رجم الظنون لما استقام شيء في هذه الحياة . وتقدم مثله بالحرف الواحد في الآية ٣٦ من سورة يونس ج ٤ ص ١٥٩ .

(فاعرض عن نولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا) . الخطاب لرسول الله (ص) والمقصود كل من آمن بالله واليوم الآخر تماماً مثل اتبع الحق وأقم الصلاة . والمعنى لا تجادل الذين يترأضون في النفي والضلال ، ولا يؤمنون بشيء ولا يرون أية قيمة لشيء إلا لأنفسهم ومكاسيهم : « وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها - ٢٥ الأنعام ، . فلام - إذن - الجدل والنقاش ؟ . أنظر ج ٢ ص ٦٦ فقرة « الحق وأرباب المنافع » ، و ج ٥ ص ٣٠٨ فقرة « جدال أهل الجهل والضلال » .

(ذلك مبلغهم من العلم) . متتهى العلم والحق عندهم انه لا علم ولا دين ولا ضمير ولا حق وقيم .. لا شيء إلا الملمات وتكديس الثروات. أنظر ج ٥ ص ٤٥٣ فقرة « منطق أرباب المال : بنك وعقار » (ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى) . ان ربك يا محمد يعلم ان الذين كذبوا بنبوتك لا يرتدعون عن الضلال ، وأيضاً يعلم انك على الهدى أنت ومن اتبعك من المؤمنين ، لأنه محيط بكل شيء ، وقادر على ثواب من آمن واهتدى ، وعذاب من ضل وغوى .

(والله ما في السموات وما في الأرض ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى) . هذه الآية تهديد ووعيد لمن أشار اليه سبحانه بقوله : « تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا » . ووجه التهديد ان الدنيا والآخرة بيد الله لأنه هو وحده مالك الكون بما فيه ، فن أعرض عن الآخرة ، وطلب الدنيا ، وسمى لها سعيها يؤنه منها ، وما له في الآخرة إلا العذاب ، حيث يلقي كل انسان جزاء عمله ، ان خيراً فخير ، وان شراً فشر .

(الذين يجتنبون كبائر الأثم والقوا حش إلا اللهم ان ربك واسع المغفرة) . كبائر الأثم عظام الذنوب كالكفر والشرك والذلم ، وكل ما تجاوز الحد في القبح

الجزء السابع والعشرون

فهو فحش كالزنا واللواط ، وذنوب كبير أيضاً ، أما اللمم فهي صغار الذنوب التي لا يكاد يخلو منها إنسان إلا من عصم الله كالنظرة ومجرد الجلوس الى مائدة الخمر . وتكلمنا عن ذلك مفصلاً عند تفسير الآية ٣١ من سورة النساء ج ٢ ص ٣٠٦ . ومعنى الآية ان من أطلع عن الكبائر فإن الله سبحانه يشمل بهضوه وإحسانه ، وان اقرّف بعض الصغائر .. وليس معنى هذا ان للانسان أن يقرّف الصغائر .. كلا ، وإلا كانت من المباحات ، وانما المراد ان من اجتنب الكبائر فله أن يأمل العفو والصفح من ربه وان ارتكب بعض الهنات ، وإلا كانت الجنة وقفاً على أهل العصمة دون غيرهم . وفي نهج البلاغة : أشد الذنوب ما استهان به صاحبه .. وان يستعظم الانسان من معصية غيره ما يستقل أكثر منه من نفسه ، ويستكثر من طاعته ما يحقر من طاعة غيره .

(هو أعلم بكم اذ انشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنّة في بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى) . أجل ، ان الله أعلم بالانسان من نفسه بالغا ما يبلغ من العلم .. ومستحيل أن يعلم من نفسه ما يعلمه الله منه ، لأنه تعالى هو الذي أوجده وأحياه ، ويميته وينشئه ، وهو معه يعلمه منذ تكوينه في بطن أمه الى النفس الأخير .. يضاف الى ذلك ان جميع جوارح الانسان حتى قلبه هي شهود عليه عند خالقه . وأصدق شاهد ينطق بتزكية الانسان واخلاصه هو عمله الصالح . وتقدم مثله في الآية ٤٩ من سورة النساء ج ٢ ص ٣٤٦ والآية ٢١ من سورة النور ج ٥ ص ٤٠٩ .

ليس للانسان إلا ما سعى الآية ٣٣ - ٤١ :

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى * وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى * أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهوَ
يَرَى * أَمْ لَمْ يُبْنَأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى * أَلَا
تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى * وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ
سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى *

اللغة :

أكدى قطع وأمسك . وصحف موسى التوراة . ووفى تم وأكمل . والوزر الأثم .

الإعراب :

قليلًا صفة لمخنوف أي عطاءً قليلًا . وإبراهيم على حذف مضاف أي وبما في صحف إبراهيم . أن لا تزر : وان ، مخففة واسمها مخنوف أي انه، والمصدر المسبك عطف على ، بما في صحف موسى . . وان ليس وان ، مخففة أيضاً والمصدر عطف أن لا تزر . وكذا وان سعيه .

المعنى :

(أفرأيت الذي تولى وأعطى قليلًا وأكدى) أي منع ، والمعنى أخبرني يا محمد عن الرجل الذي أعرض عن ذكر الله ، وكان قد بذل شيئاً يسيراً من ماله أو نفسه في سبيل الخير، ثم منع وأمسك عن البذل .. هذا ما دل عليه ظاهر كلامه تعالى .. ويأتي السؤال : هل أراد سبحانه رجلاً خاصاً يعرفه النبي (ص) أو أراد مثلاً عاماً لكل من يصدق عليه هذا الوصف ؟ قال بعض المفسرين : نزلت هذه الآية في الوليد بن المغيرة . وقال آخر : انها نزلت في عثمان بن عفان .. وكل من القولين يفتقر الى الدليل .. اذن ، فالآية على دلالتها من الشمول والاطلاق .

(أعنده علم الغيب فهو يرى) ؟ هل علم هذا المعرض المسك انه في أمان من عذاب يوم القيامة حتى أعرض وأمسك ؟ وانتي له هذا العلم مع ان الله سبحانه قد أنزل في كتبه ما يكذب زعمه ان ادعى ذلك (أم لم يبنأ بما في صحف موسى وإبراهيم الذي وفى) . ألم يسمع هذا المعرض المسك بما أنزل الله في التوراة وفي صحف إبراهيم الذي وفى بعهد الله وميثاقه على أكمل وجه، ألم يسمع أو يخبره خبر بأن الله قد أنزل في هذين الكتابين (الا تزر وازرة وزر أخرى) أي ان

الجزء السابع والعشرون

كل انسان يؤخذ ببنية، ولا أحد يحمل عنه أوزاره وأثقاله . وتكررت هذه الآية في سورة الأنعام ١٦٤ ، وفي سورة الاسراء الآية ٩٥ ، وفي سورة فاطر الآية ١٨ ، وفي سورة الزمر الآية ٧ .

(وان ليس للانسان إلا ما سعى) . المراد بالسمي هنا العمل والحركة في هذه الحياة . وتدل الآية على ان الاسلام هو دين الحياة لأنها تنص بصراحة على أن الله ينظر الى عباده من خلال أعمالهم في الحياة الدنيا ، ويعاملهم بموجبها، ومعنى هذا ان الانسان كلما عاش الحياة بأبعادها وفي أعماقها ، وعمل لخيرها وحل مشاكلها - فقد اقترب من الله ودين الله ، واستحق منه الرحمة والكرامة ، وانه كلما تهرب من الحياة وابتعد عن همومها ومشاكلها مكتفياً بالتكبير والتهليل والصوم والصلاة - فقد ابتعد عن الله ودينه ورحمته .

(وان سعيه سوف يرى) أي سوف يحاسبه الله على عمله يوم القيامة ، فالمراد بالرؤيا هنا الحساب وإلا فإن الله سبحانه يعلم كل شيء حتى خطرات الوساوس (ثم يجزاه الجزاء الأوفى) . واضح لا يحتاج الى تفسير تماماً كقوله تعالى : واني لا اضيع عمل عامل منكم من ذكر وأنثى - ١٩٥ آل عمران ٤ .

الى ربك المنتهى الآية ٤٢ - ٦٢ :

وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ * وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ
وَأَحْيَا * وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ * مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ *
وَأَنَّ عَلَيْهِ النُّشْأَةَ الْآخِرَىٰ * وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ * وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ
السَّعْرَىٰ * وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ * وَنَمُودًا فَمَا أَبْقَىٰ * وَقَوْمَ نُوحٍ
مِّن قَبْلُ لَإِنَّمَا كَانَوْا قَوْمًا ظَالِمِيْنَ * وَأَطْعَمَهُمْ أَطْعَامًا مُّؤْتِكَةً * وَفَجَّشَا مَا

سورة النجم

عَشِي * فَيَا آلاءَ رَبِّكَ تَتَّارِي * هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذْرِ الْأُولَى * أَزِفَتْ
الْآزِفَةُ * لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ * أَقْبِنْ هَذَا الْحَدِيثَ تَعَجَّبُونَ *
وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ * وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ * فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا *

اللغة :

تُغْنَى تُرَاقِ فِي فَرْجِ الْأُنْثَى . وَالنَّشْأَةُ الْأُخْرَى الْجَعَثُ . وَالْمِرَاءُ بِأَغْنَى
هَذَا أَنَّهُ تَعَالَى كَفَى عِبْدَهُ وَأَغْنَاهُ عَنْ سُؤْلِ النَّاسِ . وَالْمِرَادُ بِأَقْبِنِ أَنَّهُ أَعْطَاهُ
أَيْضاً مَا يَغْنَى مِنَ الْمَالِ وَيُدْخِرُ بَعْدَ الْكِفَايَةِ ، وَفِي تَفْسِيرِ الرَّازِيِّ أَنَّ الْإِقْنَاءَ فَوْقَ
الْإِغْنَاءِ . وَالشَّعْرَى نَجْمٌ مُضِيءٌ ، وَفِي تَفْسِيرِ الطَّرِي : كَانَ بَعْضُ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ
يَعْبُدُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ . وَالْمِرَادُ بِالْمُؤْتَفِكَةِ قَرَى قَوْمِ لُوطٍ . وَأَهْوَى أَسْقَطَهَا فِي
الْأَرْضِ أَيْ خَسَفَ بِهَا الْأَرْضُ . وَغَشَاهَا غَطَاهَا الْعَذَابُ . وَآلَاءُ اللَّهِ نِعْمَةٌ . تَتَّارِي
تَشَكَّى . وَأَزِفَتْ دَنَتْ . وَالْمِرَادُ بِالْآزِفَةِ السَّاعَةِ . وَكَاشِفَةٌ مِنَ الْكَشْفِ ، وَيَأْتِي بِمَعْنَى
الْإِظْهَارِ مِثْلَ كَشَفِ أَمْرِهِ أَيْ أَظْهَرَهُ ، وَأَيْضاً يَأْتِي بِمَعْنَى الْإِزَالَةِ مِثْلَ كَشَفِ اللَّهِ
غَمَّكَ أَيْ أزاله . وَسَامِدُونَ لَاهُونَ .

الإعراب :

وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى وَمَا بَعْدَهُ عَطْفٌ عَلَى مَا تَقَدَّمَ وَهُوَ أَنَّ لَيْسَ لِلنَّاسِ إِلَّا مَا سَمَى .
وَتُمُودٌ وَقَوْمٌ نُوحٍ عَطْفٌ عَلَى عَادَ . وَالْمُؤْتَفِكَةُ مَفْعُولٌ أَهْوَى . فَغَشَاهَا مَا غَشَى
فَاعِلٌ غَشَاهَا ضَمِيرٌ مُسْتَرٌ يَعُودُ إِلَى الْعَذَابِ وَمَا مَفْعُولٌ .

المعنى :

(وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى) . هَذِهِ الْآيَةُ وَمَا بَعْدَهَا هِيَ مِنْ جُمْلَةِ الْآيَاتِ الَّتِي

الجزء السابع والعشرون

ذكر سبحانه انه أنزلها في صحف موسى وإبراهيم ، والمراد بالمتنهي موقف الانسان بين يدي الله لنقاش الحساب الذي لا منجى منه (وانه هو أضحك وأبكى) . الضحك اشارة الى فرح أهل الجنة ، والبكاء الى ترح أهل النار ، ومن الجائز أن يكونا إشارة الى ما أودعه الله في الانسان من غريزة اللذة والألم والحزن والفرح ، وقد ذهب جماعة من الفلاسفة الى أن الانسان لا يتحرك إلا بتأثير من جذب اللذة كالجنس أو من خوف الألم كالجوع .

المادة والحياة :

(وانه هو أمات وأحيا) . هو سبحانه يهب الحياة ويأخذها ، أما قول من قال : ان المادة أصل الحياة وسببها فهو مجرد ادعاء تكذبه بديهة العقل لأن المادة لا تتحرك بطبيعتها بل بعلة مغايرة لها ، وأي عاقل يقبل القول بأن المادة الصماء أنشأت بنفسها لنفسها أبصاراً وأسماعاً وأفتدة ، وإذا كانت الحياة صفة تلازم المادة فلماذا ظهر النمو والحركة والحس والتفكير في بعضها دون بعض ؟ . وان قال قائل : ان لبعض أفراد المادة استعداداً للحياة دون بعض قلنا في جوابه : من أين جاءت هذه التفرقة ؟ هل جاءت من داخل المادة أو خارجها . فإن كانت من الداخل وجب أن تكون كل مادة صالحة لاستقبال الحياة ، وإلا لزم أن يكون الشيء الواحد سبباً لوجود الشيء وعدمه في آن واحد ، وان جاءت بسبب خارج عن المادة فهو الذي نقول .

(وانه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى) . يريق الذكر منه في رحم الانثى فيتم التلقيح ، ويتكون الجنين ذكراً أو أنثى ، فن الذي أوجد الاستعداد في الجسم لهذه النطفة ؟ ومن الذي أوجد فيها ملايين الخلايا الحية؟ وهل يستطيع العلماء أن يصنعوا خلية واحدة يتكون منها ذكر أو أنثى؟ بل هل يستطيعون أن يميزوا بين الخلية التي يتكون منها الذكر والتي تتكون منها الأنثى؟ واذا استندت النطفة الى أسباب طبيعية فإن هذه الأسباب تنتهي الى السبب الأول الذي أوجد الطبيعة (وان عليه النشأة الأخرى) . ضمير عليه يعود الى الله تعالى ، والمعنى ان البعث حتم لا بد منه (وانه هو أغنى وأفقى) . انه سبحانه كفى بعض عباده

سورة النجم

وأغناه عن الحاجة الى غيره ، وأعطى البعض الآخر ما يقتني ويدخر زيادة على ما يكفيه أي هياً له أسباب الغنى والقبية . وقال أحد العارفين : من ذاق طعم الغنى عن الناس فقد حصل على نصيب وافر من الغنى ، وان في ذلك لشرفاً عظيماً . (وانه هو رب الشعري) بكسر الشين وتشديدها ، وهي نجم مضيء ، وخصها سبحانه بالذكر لأن بعض أهل الجاهلية كانوا يعبدونها ، وقيل : انها أضخم من الشمس بعشرين مرة ، وانها تبعد عن الشمس مقدار مليون ضعف بُعد الشمس عنا (وانه أهلك عاداً الأولى) وهم قوم هود ، وتقدم الكلام عنهم مرات ، ووصفهم سبحانه بالأولى بالنسبة الى من تأخر عنهم من الأمم ، وقال صاحب مجمع البيان : بل لأن ثم عاداً أخرى (وثمود فما أبقي) منهم أحداً ، وهم قوم صالح ، وأيضاً سبق الكلام عنهم وعن قوم نوح الذين أشار اليهم سبحانه بقوله : (وقوم نوح من قبل انهم كانوا هم أظلم وأطغى) من عاد وثمود (والمؤتفكة) قرى قوم لوط (أهوى) بها الى بطن الأرض (فغشاها ما غشى) من العذاب (فبأي آلاء ربك تتبارى) . الخطاب لكل انسان ، والآلاء النعم ، وتبارى تشك وتجادل . (هذا نذير من النذر الأولى) . قال أكثر المفسرين : ان هـ هذا إشارة الى القرآن أو محمد (ص) . وليس من شك ان كلاً من القرآن والرسول الأعظم هما من النذر الأولى من نوعها وصفاتها . ومع هذا فإن الذي تفهمه ان الله سبحانه أشار به وهذاه الى ما ذكره من الدلائل والعظات التي تضمنت أموراً هامة جديرة بالتأمل والدراسة كمسألة ان كل انسان هو وحده المسؤول عن جرمه وجريته ، وان الله ينظر اليه من خلال عمله ، وانه لا مصدر للحياة إلا الله ، وان مصير الطغاة الى الهلاك ، وهذه وما اليها من أهم موضوعات العلوم الكونية والانسانية ، واذا ذكرها سبحانه ليستدل الانسان على وجود الله وعظمته فإن ذكرها بالذات يومية الى ان معانيها وأهدافها انما تتجلى للعلماء وانهم أحق الناس بمعرفة الله والايان به والخوف منه : هـ إنما يخشى الله من عباده العلماء - ٢٨ فاطر هـ .

(أذفت الآزقة) . أذفت ذنت ، والآزقة الدانية ، والمراد بها الساعة ، وانما وصفها سبحانه بالدانية لأنها آتية ، وكل آت قريب .. وكل ما أدير كأنه ما كان (ليس لها من دون الله كاشفة) ضمير هـاء يعود الى الآزقة أي الساعة ، ولك ان تفسر الكشف بالعلم كقوله تعالى : وبسألونك عن الساعة ايان مرساها قل انما علمها

الجزء السابع والعشرون

عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو - ١٨٦ الأعراف . . وأيضاً لك ان تفسرها بقوله : « من قبل ان يأتي يوم لا مرد له من الله - ٤٣ الروم . . (أفن هذا الحديث تعجبون وتضحكون) ؟ هذا الحديث إشارة الى قيام الساعة . وقيل الى القرآن . وكل منها صحيح لأن الكافرين قد عجبوا من البعث : « فقال الكافرون هذا شيء عجيب أنذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد - ٣ ق . . وأيضاً عجبوا من القرآن : « أو عجبتم ان جاءكم ذكر من ربكم - ٦٣ الأعراف . . (ولا تكون وأنتم سامدون) أي لاهون ، وكان الأولى أن تبكوا على أنفسكم التي ظلمتموها بالكفر والبغي : « فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً جزاء بما كانوا يكسبون - ٨٢ التوبة . .

(فاسجدوا لله واعبدوا) . قال الحنفية والشافعية والامامية والحنابلة : يجب السجود عند تلاوة هذه الآية لأن الرسول الأعظم (ص) سجد عند تلاوتها، وسجد من كان معه . وقال المالكية : لا يجب .

سورة القمر

٥٥ آية مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وانشق القمر الآية ١ - ٨ :

اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ * وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَعْتَبٌ * وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أُمَّةٍ مُسْتَقِرَّةٌ * وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ * حِكْمَةٌ بِاللِّغَةِ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ * فَتَوَلَّى عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَكْرٍ * خَشَعُوا أَبْصَارَهُمْ تَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنْهُمْ جِرَادٌ مُنْتَشِرٌ * مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ *

: اللغة :

مستقر بكسر القاف أي له غاية ينتهي إليها . والزجر المنع ، ومزدجر بفتح الجيم من الفعل المطاوع ازدجر ازدجاراً ، تقول ازدجرته فازدجر . وبالغنة بلغت الغاية من الموعظة . ونكر بضم النون والكاف وهي الشيء المنكر الذي تمافه النفوس . وخشعاً جمع خاشع وهو الذليل . والاجداث القبور . ومهطعين مسرعين .

الإعراب :

كل أمر مستقر مبتدأ وخبر . ما فيه مزدجر « ما » اسم موصول فاعل جاءهم وفيه خبر مقدم ومزدجر مبتدأ مؤخر والجملة صلة الموصول . وحكمة بدل من « ما فيه » وبالفة صفة . فا تفي « ما » نافية . يوم يدع الداع « يوم » منصوب بفعل مقدر أي اذكر يسوم يدع ، والداع أصله بالياء وحذفت تخفيفاً . وخشماً حال من فاعل يخرجون والأصل يخرجون من الاجداث خشماً ، وأبصارهم فاعل لحشع . ومهطعين حال ثانية .

المعنى :

(اقربت الساعة) وأزفت الآزفة بمعنى واحد ، وهو ان يوم القيامة آتٍ لا ريب فيه (وانشق القمر) . قال أكثر المفسرين : ان المشركين طلبوا من رسول الله (ص) أن يشق القمر فرتين ان كان صادقاً .. فسأل ربه ، فانشق القمر ، ثم عاد الى ما كان .. وليس من شك ان هذا ممكن في ذاته ، ولكن الامكان شيء ، والوقوع شيء آخر ، لأن الوقوع يفتقر الى دليل الاثبات ، ولا دليل على ان الانشقاق حدث في عهد الرسول الأعظم (ص)، بل الأدلة قائمة على العكس ، وهي :

أولاً : ان هذا لا يتفق مع العديد من الآيات التي نصت بصراحة على ان النبي (ص) لم يستجب لاقتراح المشركين في طلب الخوارق والمعجزات ، وانه أجابهم بما أمره الله : « قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً - ٩٤ الإسراء » . وفي الآية ٥٩ من هذه السورة أي سورة الإسراء يبين سبحانه ان المقترحين يظنون على الكفر حتى ولو أجيبوا الى ما يقترحون : « وما منعا ان نرسل بالآيات الا ان كذب بها الأولون » . وقال أيضاً : « وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها وان يروا سبيل الرشدا لا يتخذوه سبيلاً » وان يروا سبيل النبي يتخذوه سبيلاً ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين - ١٤٦ الأعراف » .. هذا ، الى ان الله سبحانه لم يبق عنراً لتلطل بعد ان تحلى العالم كله بقوله : « وان

سورة القمر

كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين - ٢٣ البقرة .

ثانياً : ان انشقاق القمر حدث كوني هام ، فلو وقع لرآه أهل الشرق والغرب ، ودوته العلماء والمؤرخون الأجانب وغيرهم ، كما دونوا ما هو دونه من الأحداث .

ثالثاً : ان الانشقاق من الموضوعات التي لا تثبت إلا بالخبر المتواتر ، وخبر الانشقاق، من أخبار الآحاد ، فلا يصح الاعتماد عليه في هذا الباب ، والفرق بين الخبر الواحد والمتواتر ان رواة الثاني كثيرون ومختلفون في ظروفهم وأهدافهم بحيث لا يجمعهم على الكذب جامع - بحسب العادة - والخبر الواحد بعكس ذلك ، ولك ان تفرق بينها بأن الخبر المتواتر يفيد الاطمئنان دون الخبر الواحد .

رابعاً : ان قوله تعالى : « وانشق القمر » بعد قوله : « اقتربت الساعة » - يدل على ان القمر ينشق حين تقوم الساعة ، وان المراد من الانشقاق هنا هو نفس المراد منه في قوله : « اذا السماء انشقت - انشقاق » أي يتصدع ما فيها من الكواكب يوم القيامة .

(وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر) لا نهاية له على مدى الأيام . وفي الآية ٢٤ من سورة المدثر حكى سبحانه عن الوليد بن المغيرة انه قال : « ان هذا إلا سحر يؤثر ، أي يروى (وكذبوا واتبعوا أهواءهم) . لقد أعماههم الهوى والجهل عن كل حجة ودليل ، فكذبوا بكتاب الله ولقائه على الرغم من الدلائل الواضحة (وكل أمر مستقر) . هذا تهديد لمن أعرض عن القرآن ، والمعنى ان كل شيء ثابت في علم الله تعالى لا تخفى عليه خافية ، ومنه إعراض من أعرض عن القرآن ، ومثله قوله تعالى في الآية ٦٦ من سورة الأنعام : « وكذب به قومك وهو الحق قل لست عليكم بوكيل لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون » . (ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر) . المراد بالأنباء هنا كل آية في القرآن فيها عظة وعبرة ، وترغيب وترهيب ، أو تدل على طريق الإيمان بالله واليوم الآخر والوحي الذي نزل على رسول الله (ص) ، والمعنى ان الله سبحانه يبين للمشركين على لسان نبيه محمد الدلائل الكافية على الحق ، والمواعظ الوافية

الجزء السابع والعشرون

في الزجر عن الباطل (حكمة بالغة) . كل ما جاء في القرآن فهو حكمة بلغت الغاية في العظة والدلالة على الحق ، ولكن (فا تغي النذر) مع العناد والاصرار على الكفر والضلال .

(فتول عنهم) يا محمد لأنك قد بلغتهم رسالات ربك ، فلم يستجيبوا ، وبالفت في النصيحة فلم يقبلوا (يوم يدعو الداع الى شيء نكر خشعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث) . والنكر بضم النون والكاف ، وهو ما تنكره النفوس ولا تطبق له حلاً ، والمراد به هنا العذاب .. وهذا تهديد ووعد للذين أعرضوا عن الحق ، وان لهم يوماً اسود لا مفر من عذابه ، وهو اليوم الذي يخرجون من القبور الى لقاءه وحسابه أذلاء خاضعين بموج بعضهم ببعض من الحيرة والدهشة (كأنهم جراد منتشر) لكثرتهم حيث يجمع الله الأموات بعد إحيائهم ، ويلحق آخرهم بأولهم، وفيه إيماء الى ان الحشر يكون بالروح والجسم معاً (مهطعين الى الداع) مسرعين الى دعوة الله للحساب والجزاء (يقول الكافرون هذا يوم عسر شديد الأهوال والمخاطر ، عظيم الآلام والمخاوف ، ومثله : « يوم يخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم الى نصب يوفضون خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون - ٤٤ المعارج » .

نوح الآية ٩ - ١٧ :

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ*
فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ* فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ*
وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْآلَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ* وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ
ذَاتِ الْأَوَاحِ وَدُسْرٍ* تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءَ لِمَنْ كَانَ كُفِرَ* وَلَقَدْ
تَرَكْنَاهَا آيَةً قَبْلَ مِنْ مُدْكِرٍ* فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ* وَلَقَدْ
يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ قَبْلَ مِنْ مُدْكِرٍ*

اللمة :

ازدجر أي ردعوه وزجره عن التبليغ . ومنهم منكب ومتدفق . وقد قدر أي قدره الله . ودر بضم الدال والسين جمع دسار مثل كتب وكتاب ، وهو المسار . وبأعيننا بجر استنا . ومدكر معتبر .

الإعراب :

مجنون خبر مبتدأ محذوف أي هو مجنون . واني مظلوب أي بأني مظلوب . وعيونا تمييز محمول عن مفعول والأصل وفجرنا عيون الأرض . وجزاء مفعول من أجله . وآية حال من مفعول تركناها . وكيف خبر كان مقدم،وعذابي اسمها .

المعنى :

أشار سبحانه في الآيات السابقة ان محمداً (ص) أنذر قومه فا أغتت النذر .. وفي الآيات التي نحن بصدها أشار الى ان شأن محمد (ص) في ذلك مع قومه تماماً كشأن نوح مع قومه (كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا) لئن كذَّب بك قومك يا محمد فقد كذَّب قوم نوح عبدنا نوحاً : وقوله تعالى : فكذبوا تفسير لقوله : كذبت ، فكانَ سائلاً يسأل : من كذبت هذه الجماعة ؟ فأجاب سبحانه بأنهم كذبوا عبدنا نوحاً (وقالوا مجنون) تماماً كما قالت قريش عن الرسول الأعظم (ص).. وهذا الشتم عادي وطبيعي بالنسبة الى العاجزين عن الجواب (وازدجر) يشير بهذا سبحانه الى ما جاء في الآية ١١٦ من سورة الشعراء : ه قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين ، ردعوه وزجره عن التبليغ، وهددوه إذا هو أصر بالرجم والقتل .

(فدعا ربه اني مظلوب فانتصر) . لما ضاق نوح بقومه وضاقوا به التجأ الى خالقه وقال : لقد غلبت على أمري ، وقلَّتْ حيلتي ، وانتهى دوري في التبليغ والانداز ، وبقي أمرك وقضاؤك في هؤلاء الكفرة الفجرة ، فانتمم منهم بعدابك،

الجزء السابع والعشرون

وانصهر للدينك ورسولك .. وتجملد الاشارة الى أن نوحاً ما دعا على قومه إلا بعد اليأس من هدايتهم ، فلقد لبث يدعوهم بلا جدوى ألف سنة إلا خمسين عاماً كما جاء في الآية ١٤ من سورة العنكبوت (ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيوناً) . دعا نوح على قومه ، فاستجاب الله لدعوته ، وأغرقهم بماء تدفق من السماء ، وتفجرت من الأرض (فالتقى الماء على أمر قد قدر) . التقي الماء المتدفق من السماء مع الماء المتفجر من الأرض ، فكان محرأ عظيماً أتى على كل شيء ، وما سلم إلا من كان في السفينة . وكان هذا الطوفان والاهلاك بأمر الله وقدره ، فقوله تعالى : « على أمر قد قدر » في معنى قوله تعالى : « وكان أمر الله قدراً مقدوراً - ٣٨ - الأحزاب » .

(وحملناه على ذات ألواح ودسر) . ضمير حملناه يعود الى نوح. والألواح الأخشاب ، ودسر مسامر ، والمعنى ان سفينة نوح كانت عادة كغيرها مصنوعة من الخشب والمسامر ولكنها (تجري بأعيننا) بحفظ الله وحراسته ، ولهذا نجت من المخاطر وإلا ما استطاعت الصمود لأهوال الطوفان (جزاء لمن كان كفر) . وكلمة الجزاء تشير الى السبب الموجب للطوفان وإهلاك من هلك به من الكافرين . (ولقد تركناها آية فهل من مدكر). أي ترك سبحانه أخبار سفينة نوح لتكون عظة لمن يتعظ بالمر ، ويتنوع بالنذر (فكيف كان عذابي ونذر) . حقاً كان الطوفان مدمراً ، أما نوح البشير النذير فقد كان صادقاً فيما بلغ وأنذر . (ولقد يسرنا القرآن للذكر) . أنزل سبحانه القرآن للتذكير والانتعاض ، ويسر معانيه على الافهام ليستمعوا به ، لا ليتفخروا بكلماته أو يتداووا بآياته او يحرفوها ويشتروا بها ثمناً قليلاً (فهل من مدكر)؟ هل يعتبر ويتعظ بما جاء في القرآن الجاحلون والذين يتاجرون بالدين ويحرفون الكلم عن مواضعه تبعاً لأهوائهم وأغراضهم . وتسلمت قصة نوح في سورة هود وغيرها .

هود وصالح الآية ١٨ - ٣٢ :

كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ

رَبِّمَا صرَّصراً فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ * تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ
 مُنْقَعِرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ
 فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ * كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ * فَقَالُوا أَبَشْرًا مِنَّا وَاحِدًا
 نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ * أَلَلْقِيَ الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ
 هُوَ كَذَّابٌ أَشِرُّ * سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ * إِنَّا مُرْسِلُو
 النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ * وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ آلَاءَ قِسْمَةٍ يَبْنِمُ كُلُّ
 شَرِبٍ مُحْتَضَرٍ * فَتَادُوا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي
 وَنُذْرِي * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَيْمِ الْمُحْتَظِرِ *
 وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ *

: اللغة :

صرصر من الصر وهو البرد أي شديدة البرد ، وقيل : من الصرير وهو
 الصياح أي شديدة الصياح . وتترع تطلع . واعجاز أسافل . ومنقعر متلع . والسر
 الجنون يقال : سر فلان فهو مسرور أي جنٌ فهو مجنون . وأشر بطر ومتعظم .
 وشرب بكسر الشين وتخفيفها نصب . ومحتضر بفتح الضاد يحضره صاحبه في نوبته
 دون غيره . وهشم يابس متكسر . ومعتظر بكسر الظاء . والمراد بالمحظر هنا ما
 يجمعه صاحب الحظيرة من الحشيش اليابس لتأكله الماشية .

الإعراب :

جملة كأنهم اعجاز حال من الناس . وبشراً مفعول لفعل مقدر أي أنتبح
بشراً. ومناً : صفة. وواحدأ صفة ثانية لبشر . وفتنة مفعول من أجله لهـمرسلوهـ .

المعنى :

(كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر) ؟ . عاد قوم هود كذبوا نبيهم ،
فأخذهم الله بالعذاب الأليم ، وبيّن نوع هذا العذاب بقوله : (إنا أرسلنا عليهم
ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر) . أرسل سبحانه عليهم ريحاً باردة عنيفة في
يوم عسير وخطير ، فلقد استمرت ريح العذاب في هذا اليوم حتى أفتتهم عن
آخريهم (تتزعج الناس كأنهم اعجاز نخل منقعر) . اقتلعتهم الريح الصرصر من
أماكنهم ، وألقت بهم صرعى تماماً كأسافل نخل اقتلعت من الأرض (فكيف
كان عذابي ونذر) ؟ . كرر سبحانه هذا السؤال مبالغة في التحذير والانتذار
(ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) ؟ . أنظر الآية ١٧ من هذه السورة
فالنص والتفسير واحد .

(كذبت ثمود بالنذر) . ثمود قوم صالح . وجمع سبحانه النذر مع ان الذي
كذبوه كان نذيراً واحداً ، وهو صالح لأن تكذيب أي نبي هو تكذيب لجميع
الأنبياء لوحدة الرسالة والمرسل (فقالوا أبشراً منا واحداً نتبعه إنا إذا لفي ضلال
وسمر) ؟ صالح منا وفينا .. وعرفناه صغيراً وكبيراً .. فكيف نتبعه ؟ ولا يتبعه
ويصدقه إلا ضال أو مجنون .. أجل ، لو كان له مال وعبيد وإماء لمان الخطب
وكان لتصديقه وجه (أألقي عليه الذكر من بيننا) ؟ مستحيل .. كيف وهو
واحد منا ؟ « ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذا لخاسرون - ٣٤ المؤمنون » .
(بل هو كذاب أشر) . ويكفي في الدلالة على كذبه انه واحد منهم .. هذا
هو منطقتهم .. إذن ، فالمسألة مسألة أشخاص وأفراد ، لا مسألة حتى ومبادئ..
فلا بدع، فهنا هو منطق أرباب المناصب والمكاسب في كل زمان ومكان .. وأيضاً
منطق أهل الجهل والتقليد .

سورة القمر

(نيعلمون غداً من الكتاب الأشر) . هل هو صالح أو الذين كذبوه ؟ .
 أجل ، سيعلمون عما قريب أنهم هم المفترون البطرون عندما يمتحنهم الله بالثاقة ،
 فيعقرونها ، ويحل عليهم غضب من ربهم وعذاب مهين (إنا مرسلو الثاقة فتنة
 لهم) ابتلاء وامتحاناً يتميز به الحبيث من الطيب (فارتقيهم واصطبر) انتظر
 قليلاً يا صالح ، واصبر على أذاهم ، وسترى ما يحل بهم من العذاب والموان .
 (ونبتهم ان الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر) . اخبرهم ان الماء مناصفة
 بينهم وبين الثاقة .. هم يحضرون يوماً يستوفون فيه نصيبهم من الماء، وتخصر هي
 يوماً لنفس الفرض (فنادوا صاحبهم فتاعلى ففر) . لم ترضهم قسمة الماء هذه
 فدعوا أشقى رجل فيهم ليعقر الثاقة ، فطبي الشقي الدعوة ، قال تعالى : « كذبت
 ثمود بطغواها اذ انبث أشقاها - ١٢ الشمس » . ففقر الثاقة ، ووقع العذاب ..
 واختلف المفسرون في قوله تعالى : « فتاعلى » ، ماذا أراد به ؟ . فن قائل : المراد
 ان الشقي شرب الحمر ثم عقر الثاقة . وقائل : انه حمل آلة العقر وأقبل على
 الثاقة وعقرها .. وغير بعيد أن يكون المراد بالتعاطي هنا الاقدام بدون اكتراث .
 (فكيف كان عذابي ونذر) ؟ . كان مدمراً ، والتكرار مبالغة في التحذير
 والانذار (إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر) . أخذتهم
 صيحة العذاب فأصبحوا كفتات النبات اليابس تنفروه الرياح . وقال الرازي :
 « استعمل المشيم كثيراً في الحطب المكسر اليابس » . وهذا المشيم يحظره صاحب
 الحظيرة لماشيتة ، وعليه يكون وصف المشيم بالمحتظر مجازاً لا حقيقة (ولقد يسرنا
 القرآن للذكر فهل من مدكر) . وعسى أن يتضح بهذا التكرار من ضل سواء
 السبيل . وتقدمت قصة هود وصالح في سورة هود وغيرها .

لوط الآية ٣٣ - ٤٤ :

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالَّذُرِّ* إِذَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ
 نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ* نِعْمَةٌ مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ* وَلَقَدْ

الجزء السابع والعشرون

أَنْذَرْتُمْ بَطْشَتَنَا فَتَارُوا بِالنَّذْرِ* وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا
أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنَذْرِي* وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ*
فَذُوقُوا عَذَابِي وَنَذْرِي* وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ*
وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذْرُ* كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أُخْذَ
عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ*

اللغة :

حاصباً هواء يحمل الحصباء . تماروا شكوا وجادلوا . وراودوه طلبوا منه
ونازعوه في ارادته . والضيف اسم جنس يقع على الواحد والجماعة . وبكرة صباحاً .
ومستقر ثابت ومستمر أي ان العذاب بقي حتى أفتانهم أو ان عذاب الدنيا يتصل
بعذاب الآخرة .

الإهراب :

حاصباً صفة لمقدر أي هواء أو عذاباً حاصباً . ونعمة مفعول من أجله لنجبتانهم .
وكذلك الكاف بمعنى مثل صفة للمفعول مطلق محذوف أي جزاء مثل ذلك الجزاء
نجزي . بكرة ظرف زمان والعامل فيه صبتهم .

المعنى :

(كذبت قوم لوط بالنذر) تماماً كما كذبت قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم
وغيرهم ، والسر واحد وهو صراع الحق مع الباطل ، والعدل مع الجور .. ثم
يُبين سبحانه نوع العذاب الذي أنزله بقوم لوط : (إنا أرسلنا عليهم حاصباً)

سورة القمر

أي رماهم بالحصباء التي تحملها الريح بالاضافة الى الخسف ، وهذه الحصباء هي التي ذكرها سبحانه في الآية ٣٣ من سورة الذاريات : « نرسل عليهم حجارة من طين » . (إلا آل لوط نجيناهم البحر) . أنجى لوطاً ومن آمن معه من العذاب حيث أخرجهم آخر الليل من القرية الظالم أهلها (نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر) . انتقم سبحانه ممن عصى ، وأنعم على من أطاع عملاً يبدأ العدالة ، ولكن الرازي قال : « ولو أهلكوا - أي آل لوط - لكان ذلك عدلاً » .. والله أصدق حديثاً ، وهو القائل : « تمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته - ١١٥ الأنعام » . أي ان العدل فيما تم منه تعالى ، وما عداه فهو ظلم .

(ولقد أنزلهم بطشتنا فهاروا بالنذر) . خوّفهم لوط من عذاب الله ، فشكوا وسخروا ، بل هددوا وتوعدوا و « قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين - ١٦٧ الشعراء » . (ولقد راودوه عن ضيفه) . سمعوا ان اضيافاً دخلوا على لوط ، فأسرعوا اليه ، وقالوا له بوقاحة وصلف : أعطنا اضيافك لنفجر بهم ونفضح (فطمسنا أعينهم) أعمى الله أبصارهم عن اضياف لوط ، ثم أرسل عليهم العذاب ، وقال لهم : (فنوقوا عذابي ونذر) وهو الذي شككتم فيه وسخرتم منه (ولقد صبّحهم بكرة عذاب مستقر) . أتاهم العذاب صباحاً ، واستمر حتى أفنّاهم عن آخرهم (فنوقوا عذابي ونذر) . ذكر سبحانه هذا بعد عذاب الضمى ، ثم كرره بعد العذاب الحاصب (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) ؟ . كرر ، جلت حكمته ، هذه الآية أربع مرات : الأولى بعد الاشارة الى قصة نوح ، والثانية بعد قصة هود ، والثالثة بعد قصة صالح ، والرابعة بعد قصة لوط ، والغرض ان نعتبر وننظت بكل قصة من هذه الأربع لأنها كافية وافية في التذكير والوعظ . وتقدمت قصة لوط في سورة هود وغيرها . (ولقد جاء آل فرعون النذر) . ومثله « ثم بثنا من بعدهم موسى بآياتنا الى فرعون ومثله - ١٠٣ الأعراف » . (كذبوا بآياتنا كلها) وكانت نعماً « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات - ١٠١ الإسراء » ذكر سبحانه خمساً منها في الآية ١٣٢ من سورة الأعراف : « فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات » والأربع الباقية أشار إليها سبحانه في آيات متفرقة

الجزء السابع العشرون

وهي اليد والمصا وحل العقدة من لسان موسى وانفلاق البحر (فأخذناهم أخذ عزيذ مقتدر) . أغرق سبحانه فرعون وملائه في الم، وكان من قبل يقول لقومه : **ه** أنا ربكم الأعلى ؛ .. فأذاه الله عذاب الخزي في الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر .

كل شيء خلقناه بقدر الآية ٤٣ - ٥٥ :

أَكْفَارَكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلِيَّتِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ * أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنتَصِرُونَ * سَيَهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ * بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ * إِنَّ الْأَجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ * يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ * إِنَّا نَدَّبْ شَيْءٌ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ * وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَّمِمْ بِالْبَصْرِ * وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ قَبْلَ مِنْ مُدْكِرٍ * وَكُلَّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ * وَكُلَّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرَّ * إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَتَهْرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقْتَدِرٍ *

: اللة :

الزبر جمع زيور، وهو الكتاب . والمراد بالفضال هنا الهلاك وبالسعر التيران . وأشياكم أي لشباهكم . وستطر مطور . ونهر يفتح النون والماء اسم جنس مثل حجر ويسعمل في الأنهار .

: الإعراب :

لم لكم أوله مقطعة أي بل لكم . وفي الزبر متعلق بمحطوف صفة لبراة

سورة القمر

أي براءة مكتوبة في الزبر . ذوقوا أي يقال لهم : ذوقوا . وسقر علم لجهم وهو ممنوع من الصرف للتعريف والتأنيث . وواحدة صفة لمقدر أي كلمة واحدة . وفي مقعد متعلق بمحذوف خبراً ثانياً لأن المتقين .

المعنى :

(أفكاركم خير من أولئكم) ؟ الخطاب للذين كذبوا محمد (ص) ، وأولئكم إشارة الى الأمم البائدة المهالكة بسبب كفرها وعنادها، وقد ذكر سبحانه في الآيات السابقة ما حل بهم من أنواع العذاب ، والمعنى : لستم خيراً ممن أهلكنا ، بل أنتم شر مكاناً ، وأشد على الرحمن عتياً ، فهل أنتم أن يخفف بكم أو يرسل عليكم حاصباً كما فعل بالذين قبلكم ؟ (أم لكم براءة في الزبر) ؟ هل أنزل الله في كتاب من كتبه انكم في أمان من عذابه؟ (أم يقولون نحن جميع منتصم) ؟ أم تدعون انكم جمع لا يقهر ؟ (سيهزم الجمع ويولون الدبر) يوم نزلت هذه الآية كانت القوة للمشركين لأنهم الأكثرية الغالبة ، أما المسلمون فكانوا أفراداً ضعافاً ، وكان في استطاعة أي مشرك أن يؤذي المسلمين، وهو آمن .. وما مضت الأيام حتى انعمت الآية ، وولى المشركون الأدبار ، وأصبحت كلمة الاسلام والمسلمين هي العليا ، واستبان للقریب والبعيد ان قوله تعالى : « سيهزم الجمع » هو حق وصدق . وهذه واحدة من البيئات القاطعة على ان الله سبحانه ينطق على لسان رسوله الأعظم (ص)

(بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر) . الضمير في موعدهم يعود الى الجميع من قوم نوح الى كفار العرب الذين كذبوا محمداً (ص) والمعنى كل ما أصاب المكذبين من عذاب الدنيا فما هو بشيء إذا قيس بعذاب الآخرة .. فكل بلاء دون النار عافية (ان المجرمين في ضلال وسعُر يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مسي سقر) . هذا تفسير وبيان لقوله تعالى : « والساعة أدهى وأمر » . فأهل النار لا يقاسون أهوالها وكفى ، بل تُنكل بهم ملائكة العذاب بشق أنواع التنكيل ، كالمسح على الوجوه ، والضرب بمقامع من حديد ، الى ما لا يبلغه الوصف .

كل شيء بمقدار :

(إنا كل شيء خلقناه بقدر) . وفي آية ثانية : « وخلق كل شيء قدره تقديرًا - ٢ الفرقان » . وفي ثالثة : « وكل شيء عنده بمقدار - ٨ الرعد » . وفي رابعة : « الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى - ٣ الأعلى » . الى كثير من الآيات التي تدل على ان ما من كائن إلا وهو على مقدار معين من العناصر والصفات لا تزيد ولا تنقص عما ينبغي أن تكون ، وان كل ما فيه قد رتب ترتيباً دقيقاً ومحكماً ، ووضع في المكان المناسب لوظيفته ومهمته .. واذا بحثنا عن السبب الموجب لذلك فلا نجد أي سبب يقبله العقل إلا ارادة الله التي هي وراء كل شيء . قال « كنت » : « ان الطبيعة كالمعمل الفني ، واستدللنا على مصدرها تماماً كالاستدلال بالأثر الفني على مصدره » .

وتسأل : ألا يجوز أن يكون هذا النظام من عمل الصدفة ؟

الجواب : ان الصدفة كاسمها .. مستحيل أن تتكرر ، وتفسير الحوادث بها تهرب من حكم العقل والواقع، ولذا قال العلماء : لا يلجأ الى الصدفة إلا عاجز .. هذا ، ولو صحت نظرية الصدفة لانهارت العلوم من الأساس لأن للعلم قواعد عامة ومطرده وإلا لم يكن علماً ، على العكس من الصدفة التي لا تتعدى موضوعها الخاص ، وإلا لم تكن صدفة .. وإذا بطلت الصدفة بطل معها المذهب المادي القائل : ان المادة هي الأصل لكل شيء .. وأي عاقل يستسخ القول بأن الكون وجد صدفة ، وكل ما فيه من قانون ونظام هو نتيجة الصدفة، وان المادة خضعت للنظام بالصدفة .. وبهذا نجد تفسير قول الشاعر :

وفي كل شيء له آية تدل على انه واحد

وقول من قال : « ليس بالامكان أبدع مما كان » أي ان كل شيء قد وضع في المكان المناسب ولو حاد عنه قيد شعرة لاستبان فيه الخلل والنقص . (وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر) . هذا كناية عن ان الله سبحانه إذا أراد شيئاً يوجد بالفعل وبمجرد أن يريد ، ولا يفترق الى زمان على الاطلاق ، لا كلمح بالبصر أو أقرب ، وانما ذكر سبحانه لمح البصر لمجرد التقريب ..

سورة القمر

ويتعبر الفلاسفة: ان نسبة ارادته تعالى الى مراده هي كنسبة اليجاد الى الوجود.
(ولقد اهلكنا اشياعكم فهل من مذكر) ؟ لقد كان فيما مضى اقوام اعجبتهم
انفسهم كما اعجبتم ايها المشركون العرب ، وكذبوا رسلهم كما كذبت رسلكم
محمدأ (ص) فدمرهم الله تدميراً ، فاتعظوا بهم قبل أن يتعظ بكم .

(وكل شيء فعلوه في الزبر وكل صغير وكبير مستطر) . ما من قول أو
فعل حقيراً كان أم خطيراً إلا وهو مثبت على صاحبه في علم الله، ومحاسب عليه،
ومجزى به ، والرابع من حاسب نفسه قبل أن يحاسب (ان المتقين في جنات
ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر) . المتقون هم الذين نظروا لأنفسهم ،
ولم يمرضوها للتهلكة بمحبة الله ، وحاسبوها على كل صغيرة وكبيرة ، فكانوا
عند الله من المقربين .

سورة الرحمن

٧٨ آية مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

خلق الانسان علمه البيان الآية ١ - ١٣ :

الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ * الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ
بِحُسْبَانٍ * وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ * وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ *
أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ *
وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ * فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ * وَالْحَبُّ
ذُو الْعَصْفِ * وَالرَّيْحَانُ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ *

• اللغة

البيان كل ما دل على القصد . وبحسبان بتقدير وتدبير . والنجم من نجم الشيء اذا طلع ، والمراد به هنا النبات الذي لا ساق له كالهندباء في قبال الشجر الذي له ساق . والأنام الخلق . والأكمام جمع كم بكسر الكاف ، وهو غلاف الثمرة ووعاؤها . والعصف ورق الشجر . والريحان النبات المعروف ، وقيل : المراد به كل نبت طيب الرائحة . والآلاء النعم .

سورة الرحمن

الاعراب :

قال صاحب مجمع البيان : الرحمن خبر لمبتدأ محذوف ، والأرجح انه مبتدأ وما بعده خبر . ورفعها مفعول لفعل محذوف يفسره الفعل الموجود . والمصدر من أن لا تطفوا مفعول من أجله لوضع أي وضعه لثلاث تطفوا فيه .

المضى :

(الرحمن) . ذكر سبحانه في هذه السورة العديد من نعمه على عباده، وابتدأها جل وعز بكلمة الرحمن لأنها تومئ الى الإنعام والأفضال .
(علم القرآن) أي نزله . والقرآن يشبه الكون في جهات ، منها ان القرآن من كلامه تعالى ، والكون وجد بكلمة «كن» . ومنها ان كلاً منها يدل بالحس على قدرة الله وعظمته، فالكون تراه العيون، والقرآن تسمعه الآذان، ومن ثم قال أحد المؤمنين : ان لله كتابين : أحدهما يُتلى ويُسمع ، وهو القرآن . وثانيها يُنظر ويُلمس ، وهو الكون . ومنها ان كلاً من الكون والقرآن فيض من قدرة الله وحدها ، ويستحيل أن يأتي أحد بشيء من مثله . ومنها ان كلاً منها نعمة كبرى أسبغها سبحانه على الانسان ، فهو يتمتع بحجر الأرض والسماء ، ويهتدي بنور القرآن الى طريق الهناء وسعادة الدارين .. ولذا امتنّ سبحانه على الانسان بالشمس والقمر والأرض والمطر ، وبالرياح والزرع والأشجار والأنعام .. الى ما لا يبلغه الإحصاء .

(خلق الانسان علمه البيان) . المراد بالبيان كل ما يدل على المقصود من لفظ أو خط أو رسم أو اشارة .. أجل ، ان الكلام أظهر افراد البيان ، وأداته وهو اللسان أطوع أعضاء الانسان للانسان ، وأكثرها حركة ، وأعظمها سرعة ، ولا يعرف التعب والملل ، ولا توجد هذه الصفة في سائر الأعضاء .
والبيان وبخاصة الكلام من أعظم النعم وأتمها، فبه يعبر الانسان عن مقاصده ، ويفهم مقاصد الآخرين ، ويتجاوب معهم ويتعاطف ، ويقضي حاجته وحاجة غيره ، وبالبيان يستبين الكفر والإيمان ، وعليه تركز العلوم والآداب والفنون ،

الجزء السابع والعشرون

وتعرف الأديان ، قال بعض العلماء : « كل ما يتناول العلم يعبر عنه باليان ، ولا شيء إلا والعلم متناول له . »

(والشمس والقمر بحسبان) . أي يجريان بانتظام كامل ، وقوانين ثابتة ، وبهذا الانتظام تُحفظ الحياة على الأرض ، وتختلف الفصول ، وتُعرف الأوقات (والنجم والشجر يسجدان) . قال أكثر المُفسرين : المراد بالنجم هنا النبات الذي لا ساق له كالبقول لأن الله سبحانه ذكره مع الشجر في مقابلة الشمس والقمر ، أما السجود هنا فعناه ان كلاً من البقل والشجر يدل على وجود الله وعظمته بما فيه من دقة الصنع . أنظر تفسير الآية ٤٤ من سورة الإسراء ج ٥ ص ٤٧ فقرة « كل شيء يسبح بحمده . »

(والسماء رفعها ووضع الميزان) . المراد بالسماء ما فيها من الكواكب ، وبالميزان كل ما تُعرف به حقائق الأشياء ومقاديرها مادياً كان كالصاع والمتر والميزان ذي الكفتين ، أو معنوياً كالوحي وبديهة العقل والفطرة ، ومراد أيضاً ان هذا الكون العجيب قد انتظم واستقام لأن الله سبحانه قد رفع الكواكب الى مواقعها الطبيعية بحيث لو انحرف كوكب منها عن المكان الذي قدره الله له لاختل نظام الكون وتبدل كل شيء .. وأيضاً لا يستقيم أي مجتمع بشري إلا اذا خضع لموازين أخلاقية (ألا تطغوا في الميزان وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان) . المراد بالطغيان هنا الاعتداء بالسلب والنهب ، والمراد بالخسران الاعتداء بعدم تسليم الحق للويه : والقسط هو ترك الاعتداء بشئ أنواعه ، فتؤدي ما عليك ، ولا تأخذ أكثر من حقلك .. ومستحيل أن يعيش المجتمع حياة هادئة لا مشاكل فيها ولا تعقيد اذا أهمل الحق والعدل ، وساد فيه الطغيان والخسران .

والخلاصة ان هذه الآية - على إيجازها - قد أشارت الى ما يتم به ويستقيم نظام الكون والمجتمع ، والأول نظام تكويني ، وقد أمه الله سبحانه على أكمل وجه ، والثاني نظام تشريعي أوجب سبحانه على عباده مراعاته والعمل بموجبه .

(والأرض وضعها للأنام) فرأشاً ومعاشاً ، والمراد بالأنام كل ما فيه روح من انسان وحيوان (فيها فاكهة) كثيرة وغيرها من الأطعمة والأشربة (والنخل ذات الأكام) وهي أوعية الطلع تتشق وتخرج منها الثمار عند بلوغها النضج ،

سورة الرحمن

وإنما خص سبحانه شجرة النخل بالذكر لمكانتها عند العرب آنذاك (والحب ذو العصف) . الحب لقوت الانسان ، والعصف ، وهو ورق الشجر والنبات ، لقوت الحيوان (والربحان) للشم والزينة .. طعام وفاكهة وأزهار .. كل ذلك من خيرات الأرض وبركاتها التي أنعم الله بها على عباده .. وهم يعيشون فيها فساداً وطفياناً .

(فبأي آلاء ربكما تكذبان) . الآلاء النعم ، والخطاب في تكذبان للجن والانس بدليل قوله تعالى : « للانام » الشامل للتوعين بالاضافة الى ما يأتي من قوله في هذه السورة : « سنفرغ لكم ايها الضلالان » وقوله : « يا معشر الجن والانس » . والمعنى هل ينكر أحد من الجن والانس شيئاً من النعم التي ذكرها الله سبحانه ؟ وكيف يجحدها ، وهو يتقلب فيها ويتمتع بها ؟ .. وربما استظهر بها على عباد الله .

كل يوم هو في شان الآية ١٤ - ٣٠ :

خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ* وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ* فَبِأَيِّ آيَاءِ رَبِّكَ تُكذِّبَانِ* رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ* فَبِأَيِّ آيَاءِ رَبِّكَ تُكذِّبَانِ* مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ* بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ* فَبِأَيِّ آيَاءِ رَبِّكَ تُكذِّبَانِ* يُخْرِجُ مِنْهَا اللُّؤْلُؤَ وَالْمَرْجَانَ* فَبِأَيِّ آيَاءِ رَبِّكَ تُكذِّبَانِ* وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ* فَبِأَيِّ آيَاءِ رَبِّكَ تُكذِّبَانِ* كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ* وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ* فَبِأَيِّ آيَاءِ رَبِّكَ تُكذِّبَانِ* يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ* فَبِأَيِّ آيَاءِ رَبِّكَ تُكذِّبَانِ*

المعنى :

(خلق الانسان من صلصال كالفخار) . المراد بالانسان آدم أبو البشر ، والصلصال الطين اليابس غير المطبوخ ، فإذا طُبِّخ فهو فخار . وفي ج ٤ ص ٤٧٤ جمعتا بين أربع آيات ، وهي « ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حمأ مسنون - ٢٦ الحجر » . والآية ٥٤ من سورة الفرقان « وهو الذي خلق من الماء بشراً » . والآية ٥٩ من سورة آل عمران « كمثل آدم خلقه من تراب » . والآية ٢ من سورة الأنعام « هو الذي خلقكم من طين » . وأثبتنا انه لا طريق الى معرفة أصل الانسان إلا الوحي من خالق الانسان ، وعند تفسير الآية ١١ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٠٥ فقرة « حول أصل الانسان » أشرنا الى الرد على نظرية « داروين » .

(وخلق الجبان من نار) . قلنا مرات : نحن نؤمن بوجود الجن لأن الوحي أثبت ، والعقل لا يفتيه . وعند تفسير قوله تعالى : « والجبان خلقناه من قبل من نار السموم - ٢٧ الحجر » ج ٤ ص ٤٧٥ - قلنا : ان علماء الاختصاص اكتشفوا نوعاً من الحشرات لا تحيا إلا بالهواء السام ، ونوعاً آخر لا يحيا إلا في آبار البترول والمواد الملتصبة ، ومعنى هذا ان عناصر الكائنات الحية على أنواع، منها من ماء ومنها من نار، وأيضاً منها في علم الشهادة ومنها في عالم الغيب (فبأي آلاء ربكنا تكذبان) ؟ أم خلق الانسان من صلصال كالفخار أم يخلق الجبان من نار أم غيره ؟ . ومارج لمب بلا دخان . وأخشى ان يقول الذين يطبقون الوحي على العلم الحديث : ان هذا المارج يبشر الى اكتشاف الغاز والسيبتوت .

أما تعدد قوله تعالى : « فبأي آلاء ربكنا تكذبان » فهو لتعدد الأسباب الموجبة ، وهي النعم المسؤول عنها واختلاف أنواعها، تماماً كما تقول لمن تراكمت عليه أياديك : لقد أنقذتك من يد عدوك بعد ان تمكن منك، واهبطتك الأموال ، فبأيها تكذّب ؟ وطلّمت أولادك، وبنيت لك داراً ، فبأيها تكذّب ؟ . - اذن - فلا تكرار ولا تأكيد لشيء واحد .

(رب المشرقين ورب المغربين) . المراد بالمشرقين والمغربين هنا مشرقا الشمس

سورة الرحمن

والقمر ومغربهما ، وهذا المعنى هو المتبادر إلى الأذهان دون غيره .. وليس من شك ان أكثر الأحياء تحتاج إلى شروق الشمس والقمر وغروبها ، بل قالوا : ان الحياة لا تستقيم على الأرض إلا بذلك (فبأي آلاء ربكما تكذبان) ؟ أبنةمة الشروق أم نعمة الغروب أم غيرها ؟ .

(مرج البحرين يلتقيان بينها برزخ لا يبغيان) . تطلق كلمة بحر على الماء الكثير عذباً كان أم غير عذب ، والمراد بالبحرين هنا مياه البحار والأنهار ، ومرج أي التقى طرفاهما واختلطا ، والبرزخ الحاجز ، والمراد به هنا قدرة الله تعالى ، ولا يبغيان أي لا يبغى احدهما على الآخر ، فيغيره عما كان عليه . انظر تفسير قوله تعالى : « وهو الذي مرج البحرين هذا عذاب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينها برزخاً وحجراً محجوراً - ٥٣ الفرقان » ج ٥ ص ٤٧٢ .. ولكل من البحار والأنهار منافع ومغانم خلقت الله وعباده (فبأي آلاء ربكما تكذبان) ؟ أبنةمة البحار أم نعمة الأنهار أم غيرها ؟ .

(يخرج منها اللؤلؤ والمرجان) . لقد حار أكثر المفسرين أو الكثير منهم في تفسير هذه الآية . ذلك بأنهم جزموا ان اللؤلؤ والمرجان لا يخرجان إلا من البحر المالح ، مع ان الله سبحانه قال : « يخرج منها » أي من العذب وغيره .. وقد تمحلوا في التساويل والتخريج .. أما الرازي فقال : كيف يمكن الجزم بأن اللؤلؤ والمرجان لا يخرجان إلا من الماء المالح ، والذين قطعوا المغاوز وداروا البلاد قد خفيت عليهم الأمور الأرضية فكيف بما في قصر البحار ؟ وهب ان التواصين ما أخرجوا اللؤلؤ إلا من المالح وما وجدوه إلا فيه ، لكن لا يلزم من هذا ان لا يوجد في غيره .. فظاهر كلام الله أولى بالاعتبار من كلام الناس .

ونحن على هذا المنطق القويم ، ويؤيده قول الشيخ المراغي في تفسيره : « قد ثبت في الكشف الحديث ان اللؤلؤ كما يستخرج من البحر المالح يستخرج من البحر العذب ، وكذلك المرجان وان كان الغالب انه لا يستخرج إلا من الماء المالح (فبأي آلاء ربما تكذبان) أي فبأي هذه النعم تكذبان .

ونُسب الى الشيعة الامامية أنهم يعتقدون بأن المراد بالبحرين عسلي وقاطمة ، وبالبرزخ محمد (ص) ، وباللؤلؤ والمرجان الحسن والحسين ، وأنا بوصفي الشيعي

الجزء السابع والعشرون

الامامي أنفي هذه العقيدة عن الشيعة الامامية على وجه الجزم والاطلاق وانهم يحرمون تفسير كتاب الله تفسيراً باطنياً ، واذا وجد منهم من يقول : المراد بالبحرين علي وفاطمة الخ فانه لا يعبر إلا عن رأيه الخاص ، وقد جاء مثله في بعض تفاسير السنة ، من ذلك تفسير الدر المنثور للسيوطي الشافعي : « أخرج ابن مردويه عن ابن عباس ان البحرين علي وفاطمة ، والبرزخ النبي واللؤلؤ والمرجان الحسن والحسين ، وأيضاً أخرج هذا عن انس بن مالك . وأغرب من هذا ان اسماعيل حقي نقل في تفسيره روح البيان عن بعض العلماء : ان نصف المائة الذين أشار اليهم سبحانه بقوله : « ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » هم أبو حنيفة والشافعي ومالك وابن حنبل .

(وله الجوار المنشآت في البحر كالاعلام) . الجسوار السفن ، والمنشآت المصنوعات أو المرتفعات ، والأعلام الجبال ، والمعنى ان السفن تجري في الماء بما ينفع الناس . وتقدم مثله في العديد من الآيات ، منها الآية ٣١ من سورة لقمان ج ٦ ص ١٦٨ (فبأي آلاء ربكما تكذبان) ؟ أمخلقكم وخلق مواد السفينة أم ياجرائها في الماء أم غيره ؟ (كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاکرام) . المراد بوجه الله ذاته تعالى ، وهو ، جلت عظمته ، حي بالذات كما هو موجود بالذات .. وكل ما هو موجود بالذات لا يفنى ولا يتغير ، وهو سبحانه مصدر الحياة وواهبها (فبأي آلاء ربكما تكذبان) ؟ أمجلاله وعظمته أم بجوده وكرمه أم بغير ذلك من النعم .

الله والانسان وابن عربي :

لمحي الدين ابن عربي في الجزء الرابع من الفتوحات كلام حول قوله تعالى : « ذو الجلال والإكرام » ، هذا توضيحه : انما عطف سبحانه الاكرام على الجلال لأن الانسان إذا سمع وصف الله بالجلال دون الاكرام تملكه اليأس والقنوط من الوصول إلى الله تعالى لأنه لا يرى نفسه شيئاً في جنب العظمة الإلهية .. فأزال سبحانه هذا الوهم عن الانسان ، أزاله بعطف الاكرام على الجلال لأن الجمع بين هذين الوصفين معناه ان الله وإن كان عظيماً فإنه يكرم الانسان وينظر اليه به .

سورة الرحمن

العناية تفضلاً منه وكرماً ، ولما علم الانسان بمكانته هذه عند الله أحس بكرامته ، وشعر بأنه لو لم يكن كريماً لما اعتنى الله به هذه العناية .. وزاد تعظيماً لله لأنه علم بأنه عظيم عند الله .

ونعطف على قول ابن عربي ان من أنكر وجود الله فقد أسقط نفسه عن كل اعتبار ، وتكبر لذاته وكرامته من حيث لا يريد لأنه أساء لمن أوجده وكرمه واستحق منه العذاب « ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون - ٨٢ القصص » .

(يسأله من في السموات والأرض) . المراد بالسؤال هنا الحاجة والافتقار ، والمعنى ان جميع الكائنات تفقر اليه سبحانه في بقائها وفي جميع حالاتها كما تفقر اليه في أصل وجودها ، وانه يمدّها بالبقاء في كل لحظة بحيث لو تحل عنها طرفة عين فادونها لم تكن شيئاً مذكوراً (كل يوم هو في شأن) . المراد باليوم هنا الوقت من غير تحديد ، والمعنى ما من كائن إلا ويتقل من حال إلى حال على مدى الأيام ، ولذا قيل : دوام الحال من المحال ، والكائن في جميع حالاته مفتقر إلى الله تعالى ، فالقوي يفقر اليه في بقاء قوته ، والضعيف مفتقر اليه لازالة ضعفه .. وليس معنى هذا ان يقعد الانسان عن السعي والعمل تاركاً الأمر إلى الله .. كلا ، فإن الله سبحانه قد أمر بالسعي وحث عليه وهو القائل : « وأن ليس للانسان إلا ما سعى - ٣٩ النجم » وإنما معناه ان يعمل الانسان معتقداً ان وراءه قوة خفية تعينه على العمل وتمهد له سبيل النجاح (فبأي آلاء ربكسا تكذبان) ؟ . أبما يمدكم به من العناية في كل آن أم بغيره من النعم ؟ .

لا تفنون إلا بسطان الآبة ٣١ - ٤٥ :

سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ
وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا
لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا

شَواظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَّاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ * فَيَأْتِي آيَاتُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ *
فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ * فَيَأْتِي آيَاتُ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ * فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ * فَيَأْتِي آيَاتُ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ سِيَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ *
فَيَأْتِي آيَاتُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ *
يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنِ * فَيَأْتِي آيَاتُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ *

اللفظة :

المراد هنا بسفرغ لكم مجرد التهديد لأن الله سبحانه لا يشغله شأن ولا يصفه لسان ومعناه سنحاسبكم . والثقلان الانس والجان . ومن معاني الشواظ لب بلا دخان . ومن معاني النحاس دخان بلا لب . ووردة أي لونها كحمررة الورد . والدهان ما يدهن به . والسيا العلامة . والنواصي جمع ناصية وهي مقدم الرأس . والحميم الماء الحار . والآن الحاضر .

المعنى :

(سفرغ لكم ايها الثقلان) أي سنحاسبكم ، وهو تهديد ووعد لمن أذنب وتمرد من الانس والجان . وفي البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي « سمي الانس والجان بالثقلين لثقلها على وجه الأرض » ، وفي الحديث : اني تارك فيكم الثقلين : كتاب الله وعترتي أهل بيتي سُميا بذلك لعظمها وشرفها . (فبأي آيات ربكما تكذبان) ؟ . أبقدرته تعالى على البعث والحساب والجزاء أم بماذا ؟ . والحساب والجزاء من أعظم النعم على الخلق وإلا كان المظلوم أسوأ حالا ومآلا من الظالم .

سورة الرحمن

(يا معشر الجن والانس ان استظمتن ان تغفلوا من أقطار السموات والأرض فانظروا لا تغفلون إلا بسلطان) . أبدأ لا نجاة لكم من لقاء الله، ولا مهرب من أرضه وسمائه إلا ان تفروا من الله إلى الله بتوفيق منه إلى التوبة والانسلاخ عن الذنب ، وهذا هو المراد بقوله تعالى : « إلا بسلطان » لأن التوبة والانسلاخ اليه تعالى قوة وحسن يقي الثائب المخلص من غضب الله وعذابه (فبأي آلاء ربكما تكذبان) ؟ أبقرته عليكم ام بتحذيره وانذاره ام بغير ذلك ؟ .

(يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران) . قالوا : الشواظ لب بلا دخان ، والنحاس هنا دخان بلا لب ، ومهما يكن فإن المعنى المحصل من الآية هو الإشارة إلى أهوال الساعة وآلامها ، وان المجرم لا خلاص له من هذه الآلام والأهوال بشفيح ولا ناصر (فبأي آلاء ربكما تكذبان) ؟ أبغضاب من طغى وبغى أم بماذا ؟ (فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان) . تنوب السماء بما فيها من كواكب كما ينوب الدهن على النار ، ويصبح لون هذا السائل كحمره الورد .. والغرض من هذا التشبيه وما اليه مما جاء في سائر الآيات هو الإشارة الى خراب الكون ودماره يوم تقوم الساعة (فبأي آلاء ربكما تكذبان) ؟ ومن أظلم وأشقى ممن كذب بالصدق وتعالى على الحق ؟ .

(فيومئذ لا يسأل عن ذنبه انس ولا جان) . وإذا عطفنا على هذه الآية قوله تعالى : « وقضوهم أنهم مسؤولون - ٢٤ الصافات » إذا فعلنا ذلك تبين لنا ان في يوم القيامة مواقف يُسأل الناس في بعضها عما كانوا يعملون ، وفي بعضها لا سؤال ولا جواب بل انتظاراً للسؤال والحساب أو بعد الفراغ منه . انظر تفسير الآية ٦٥ من سورة يس ج ٦ ص ٣٢١ (فبأي آلاء ربكما تكذبان) ؟ بموقف العرض للحساب أم بموقف الانتظار له ؟ وكلاهما ضنك وألم ، ما في ذلك ريب .. ولكن الجزاء نعمة من الله حيث (يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام) . يؤخذ مبنياً للمجهول، وبالنواصي مفعول نائب عن الفاعل وهم ملائكة العذاب ، والمعنى ان للمجرمين علامات تدل عليهم وتميزهم عن الصالحين ، وفوق ذلك تجمع ملائكة العذاب نواصيهم الى أقدامهم بالقيود والأغلال، ويسحبونهم في النار على وجوههم (فبأي آلاء ربكما تكذبان) من المواعظ والزواجر .

الجزء السابع والعشرون

(هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون) . هذا أبلغ جواب لمن كذب بعذاب الله ، وهو أن يلقي فيه : « ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون - ٤٢ سبأ » .

(بطوفون بينها وبين حميم آن) . ضمير بينها يعود الى جهنم ، والحميم شراب حار ، أما وصفه بالآن فإنه يوحي بأن هذا الشراب بلغ الغاية والنهاية من الحرارة حتى كأن المجرمين يشربون منه وهو على النار ، والمعنى لا عمل للمجرمين إلا التردد بين الجحيم وشراب الحميم (فبأي آلاء ربكما تكذبان) ؟ . بعذاب الجحيم أم بشارب الحميم ؟ وكل منها نعمة من الله لأنه حكم العدل ، وسيف الحق .

هل جزاء الاحسان إلا الاحسان الآية ٤٦ - ٧٨ :

وَلَمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * ذَوَاتَا أَفنانٍ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهَا عِشَابٌ مُّجْتَرِيانِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُتَكَيِّفِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَّانَتُهَا مِن أَسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّ أَنْسُ قُلُوبُهُنَّ وَلَا لَجانُ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * وَمِن دُونِهَا جَنَّاتٌ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُدْهَمَمَاتٍ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهَا

عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ * فَيَأِي آيَةَ رَبُّكَ تُكذِّبَانِ * فِيهَا فَآكِيَةٌ وَتَخْلُ
 وَرَّمَانٌ * فَيَأِي آيَةَ رَبُّكَ تُكذِّبَانِ * فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ * فَيَأِي
 آيَةَ رَبُّكَ تُكذِّبَانِ * حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ * فَيَأِي آيَةَ رَبُّكَ
 تُكذِّبَانِ * لَمْ يَطْمِئِنَّ أَنْسُ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ * فَيَأِي آيَةَ رَبُّكَ
 تُكذِّبَانِ * مُتَكَيِّفِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ وَعَبْقَرِيِّ حِسَانٍ * فَيَأِي آيَةَ
 رَبُّكَ تُكذِّبَانِ * تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ *

المعنى :

بعد أن هدد سبحانه وتوعده من طفلي وبغى آمن ووعد من اتقى وصدق
 بالحسنى ، وعده بجنة تفوق الوصف بطعامها وشرابها وحورها وولدانها وأشجارها
 وأنهارها وأثاثها وحليها .. إلى ما نعرف له مثيلاً وما لا نعرف .. وأكثر هذه
 الآيات واضحة المعنى لا تحتاج إلى تفسير ، بالإضافة إلى أنها تكرر لما سبق ، لذا
 نختصر في التفسير إلا إذا مست الحاجة .

(ولمن خاف مقام ربه جنتان) . المراد بمقام الله انه قائم على كل نفس
 يعلم سرها وجهرها . وعن الإمام جعفر الصادق (ع) : ان من علم ان الله يراه
 ويسمع ما يقول فيحجزه ذلك عن القبيح فقد خاف مقام ربه .. وللمفسرين أقوال
 في معنى الجنتين ، أقربها إلى الافهام انها حديثتان في الجنة لأن الجنة في اللغة
 الحديقة ، ويؤيد ذلك قوله تعالى في وصف الجنتين : (ذواتا أفنان) أي أغصان
 تمتد وتورق وتثمر (فبأي آلاء ربكنا تكذبان) ؟ هل تكذبان يا معشر الجن
 والانس بهذه النعمة التي ذكرتها ؟ . وكل سؤال يأتي بهذه الصيغة فالمسؤول عنه
 هو نفس النعمة التي ذكرها سبحانه قبل السؤال - اذن - لا داعي لذكره وبيان
 المسؤول عنه .

الجزء السابع والعشرون

(فيها عينان تجريان) المعنى واضح ومع هذا قال أحد المفسرين : أي تسرحان.. وقال آخر : أي تجريان بين الشجر .. وقال ثالث : اسم احدهما التسميم ، واسم الأخرى السليل .. وقال رابع : تجريان لمن كانت عيناه تجريان بالدموع خوفاً من الله .. ولا مصدر لهذه التفسير إلا حرص أصحابها على الكلام .. ولماذا يحرصون على الكلام؟ لأنهم مفسرون .. (فيها من كل فاكهة زوجان) . للفاكهة الواحدة نوعان كالعنب والزبيب ، والتمر والرطب ، والتفاح السكري وغيره - مثلاً - (متكئين على فرش بطائنها من استبرق) وهو الحرير الغليظ (وجنى الجنتين دان) . الجنى الثمر، ودان قريب ، ومثله « قطفوها دانية - ٢٣ الحاقة » . (فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان) . قال صاحب البحر المحیط : « ضمير فيهن عائد الى الجنان الدال عليهن جنتان في الآية السابقة ، اذ كسل فرد لبه جنتان ، فصح انها جنان كثيرة » أما ضمير قبلهم فيعود الى أزواج الحور ، وقاصرات الطرف صفة لموصوف مقدر ، وهو الحور، والمعنى ان الحور لا ينظرون الى غير أزواجهن ، وأيضاً هن أباكار كما خلقتن (كأنهن الياقوت والمرجان) بهاء وجبالاً .

الأجر حق والزيادة تفضل :

(هل جزاء الاحسان إلا الاحسان) . كل ما يراه الناس حسناً أو احساناً فهو عند الله كذلك ، شريطة ان لا يبابه العقل السليم ولا ينهى عنه الشرع القويم ، وإلا فإن أهل الجاهلية كانوا يستحسنون عبادة الأصنام وظلم الضعيف بخاصة المرأة . حتى في عصرنا يستحسن الملايين عبادة الأصنام والانسان ، ويجعلون لله أولاداً وأنداداً .. وما من شك ان هذه من أقيح العادات .. فإذا عمل الانسان عملاً ، ورآه الناس حسناً ، ولم يرد فيه نهي من العقل والشرع - فإن صاحبه يستحق من الله الأجر والكرامة ، ويزيده من فضله أضافاً على ما يستحق : « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة - ٢٦ يونس » .

وقال جماعة من علماء الكلام : ان الثواب من الله على فعل الواجب تفضل لا مكافأة فيه ولا استحقاق . وقال آخرون : بل هو مكافأة واستحقاق . وقال الإمام

سورة الرحمن

علي (ع) : « لو كان لأحد ان يجري له ولا يجري عليه لكان ذلك خالصاً لله سبحانه دون خلقه لقدرته على عباده ولعدله في كل ما جرت عليه صروف قضائه ، ولكنه جعل حقه على العباد ان يطيعوه ، وجعل جزاءهم عليه مضاعفة الثواب فضلاً منه وتوسعاً بما هو من المزيد أهله . »

ومعنى هذا ان الله له وعليه ، ولا شيء أصرح في الدلالة على ذلك من قوله : « لو كان لأحد ان يجري ولا يجري عليه لكان ذلك خالصاً لله سبحانه دون خلقه . »
فله سبحانه الطاعة على عباده ، وعليه ، جلت حكمته ، الأجر والمكافأة على مقدار العمل ، وما زاد فهو تفضل منه تعالى وتوسع . ويتفق هذا مع حكم العقل والقطرة ، فإن الناس كل الناس يرونك مفضلاً ومحسناً اذا اعطيت من عمل لك فوق أجرته واستحقاقه ، أما اذا أدبته أجرة عمله بلا زيادة ونقصان فأنت عندهم من الأوفياء ، لا من المحسنين الكرماء . هذا ، الى ان الاسلام بأصوله وفروعه يتبنى على فكرة العدل ، والأجر على العمل حق واجب الأداء في منطق العدل وحكمه .
(ومن دونها جتان) . الضمير في دونها يعود الى الجنتين في قوله تعالى :

« ولئن خاف مقام ربه جتان » أي ان هناك جنتين أخريين ، أوصافها أدنى من أوصاف السابقتين ، ومعنى هذا ان في الجنة درجات متفاوتات ، ومنازل متفاوتات تبعاً لدرجات المؤمنين في إيمانهم ، وتفاوت العاملين في أعمالهم ، وهذا ما يستدعيه منطق الحق ومبدأ العدل ، وبه يتبين ان الجنتين في قوله تعالى : « ولئن خاف مقام ربه جتان » هما للذين أقوى إيماناً ، وأنفع أعمالاً ، وأكثر جهاداً من غيرهم ، وان الجنتين في قوله : « من دونها جتان » هما للذين أقل عملاً وجهاداً من أصحاب الجنتين الأولين (مدهامتان) أي يميل لونها الى السواد من شدة الخضرة (فيها عينان نضاختان) ينبع منها الماء ، أما العينان المتضمتان فلنهما تجريان ، والنضخ دون الجري وكما ان الجنتين هنا دون الجنتين هناك كذلك العينان .

(فيها فاكهة ونخل ورمان) . قال بعض المفسرين : ان انخل والرمان ليسا من الفاكهة ، ولذا عطفوا عليها . وقال الرازي : الفاكهة منها أرضية كالبطيخ ونحوه ، ومنها شجرية كالنخل وغيره ، وعليه يكون عطف النخل والرمان على الفاكهة من باب عطف الخاص على العام (فيهن خيرات حسان) . نساء خيرات

الجزء النابع والعشرون

في أخلاقهن حسان في خلقهن (حور مقصورات في الخيام) . قال صاحب مجمع البيان : أي محبوسات في الحجال ، وهي قباب تُضرب على النساء الملازمات للبيوت . وقال غيره : بل المراد الخيام بالذات ، فإن لبمضها من الجمال والروعة ما ليس لكثير من البيوت .. وهذا أقرب لظاهر القظ من الحجال (لم يطمئن أنس قبلهم ولا جان) أي أنهم أبكار . وتقدم بالحرف في الآية ٥٦ من هذه السورة (متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان) . الرفرف الوسادة أي المخدة أو المستند ، والعبقري ضرب من البسط (تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام) . فقه العظمة والكبرياء، ومنه الإكرام والإفضال على خلقه . انظر فقرة « الله والانسان وابن عربي » عند تفسير الآية ٢٧ من هذه السورة .

سورة الواقعة

٩٦ آية مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اذا وقعت الواقعة الآية ١ - ٢٧ :

اِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِمَنْ لَوْفَعَتِهَا كَازِبَةٌ * خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ * اِذَا رَجَّتِ
الْاَرْضُ رَجًّا * وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا * فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا * وَكُنْتُمْ
اَزْوَاجًا ثَلَاثَةً * فَاَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا اَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَاَصْحَابُ
الْمَشَامَةِ مَا اَصْحَابُ الْمَشَامَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * اُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ *
فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * ثَلَاثَةٌ مِنَ الْاُولَئِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الْاٰخِرِينَ * عَلٰى سُرُرٍ
مَوْضُوئَةٍ * مُتَكِيْنَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ * يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ *
بِاَكْوَابٍ وَاَبَارِيْقٍ وَاَكَّاسٍ مِنْ مَّعِيْنٍ * لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ *
وَقَاكِهٍ مَّاءٍ يَتَخِفَتُونَ * وَلَحْمٍ طَيْرٍ مَّاءٍ يَشْتَبُونَ * وَحُورٌ عِيْنٌ * كَاَمْثَالِ
اللُّوْلُؤِ الْمَكْنُونِ * جَزَاءً بِمَا كَانُوْا يَعْمَلُوْنَ * لَا يَسْمَعُوْنَ فِيْهَا لَغْوًا
وَلَا تَأْنِيًا * اِلَّا قِيْلًا سَلَامًا سَلَامًا *

اللغة :

الواقعة القيامة . وبُسِّتْ فُتت . وهبأ مئبأ غبارأ متفرقأ . وأزواجأ أصنافأ .
وأصحاب الميمة هم الذين يعطون كتبهم بإيمانهم . وأصحاب المشأمة هم الذين يعطونها
بشألمهم . والثلة الجماعة . وموضونة منسوجة . وأكواب جمع كوب وهو قدح لا عروة
له ولا خرطوم . وأباريق جمع ابريق له عروة وخرطوم . وكأس إناء بشرب
فيه . ومعين ظاهر للعيان أو مأخوذ من عين لا تنضب . لا يصدعون لا يصيبهم من
شربها أي شيء مسن الصداع وغيره . ولا ينزفون لا يفنى شربها . والمكنون
المصون . والنفر سقط القول . والتأثم ما يستوجب الأثم .

الإعراب :

خافضة رافعة خبر مبتدأ محذوف أي هي خافضة ، والجملة جواب اذا وقعت
خلافأ للكثير من المفسرين لأن المعنى يستقيم على هذا الإعراب ، وليس لوقعتها
كاذبة اعتراض بين الشرط وجوابه . واذا رجت بدل من اذا وقعت . فأصحاب
الميمة مبتدأ أول و « ما » استفهام مبتدأ ثان وأصحاب الميمة خبر « ما » والجملة
خبر المبتدأ الأول ، ومثله وأصحاب المشأمة ، والرابط إعادة المبتدأ بلفظه .
والسابقون مبتدأ والثانية تأكيد ، وأولئك مبتدأ ثان والمقربون خبر « السابقون » .
وفي جنات متعلق بـ « المقربون » . وثلة خبر مبتدأ محذوف أي هم ثلة . ومن
الأوليين متعلق بمقدر صفة . وعلى سرر متعلق بمحذوف حالاً . متكئين حال من
الضمير الذي تعلق به على سرر . متقابلين حال من ضمير متكئين . وكأس وفاكهة
ولحم عطف على أكواب . وحوور عين مبتدأ والخبر محذوف أي ولهم حور عين .
وجزاء مفعول من أجله لفعل مقدر أي يفعل الله ذلك جزاء . وقيلأ استثناء منقطع .
وسلامأ بدل من قيل .

المعنى :

(اذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها كاذبة) . المراد بالواقعة هنا القيامة والمعنى

سورة الواقعة

ان الناس في الحياة الدنيا بين مصدق ومكذب بأمر الآخرة ، أما إذا جاءت ووفيت كل نفس ما كسبت فعندئذ تعترف ولا تكذب..كيف والآخرة (خافضة رافعة) .
تخفف المجرمين ، وترفع المتقين (إذا رجعت الأرض رجاً وبست الجبال بساً فكانت هباءً منثراً) . يشير سبحانه بهذا الى خراب الكون ، فلأرض تدمرها الزلازل ، والجبال تتحول الى غبار .

(.وكنتم أزواجاً ثلاثة) . يجمع الله الناس يوم القيامة ، ويجعلهم ثلاثة أصناف :

١ - (فأصحاب المينة ما أصحاب المينة) . وهم الذين يُعطون غداً كتبهم بإيمانهم ، قال تعالى : « فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرأوا كتابه اني ظننت اني ملاق حسايه فهو في عيشة راضية في جنة عالية - ٢٠ الحاقة » . وهذا الصنف وان كان من الناجين ، ولكنه دون الصنف الثالث .

٢ - (وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة) . وهم الذين يُعطون كتبهم بشألمهم ، قال سبحانه : « وأما من أوتي كتابه بشأله فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه ولم أدر ما حسايه يا ليتها كانت القاضية - ٢٧ الحاقة » .

٣ - (والسابقون السابقون) . أطلق سبحانه هنا سبق ولم يبين الى شيء يسبقون ويسرعون ، ولكن بينه في مكان آخر : « ان الذين هم من خشية ربهم مشفقون والذين هم بآيات ربهم يؤمنون والذين هم بربهم لا يشركون والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم الى ربهم راجعون اولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون - ٦١ المؤمنون » فالسابقون - اذن - هم الذين يؤمنون بالله وحده لا شريك له ، وباليوم الآخر ، ولا يتوانون عن طاعته خوفاً من غضبه وعذابه ، ويضحون بالعالم في سبيله طلباً لمرضاه وثنابه (أولئك المقربون في جنات النعيم) . لهم الحظ الأوفر من التقرب الى جلاله تعالى ، والنصيب الأكبر من نعيمه .

(ثلة من الأولين وقليل من الآخرين) . السابقون الذين لهم عند الله المنزلة العليا هم جماعة كثيرة من الأولين ، وقليلة من الآخرين .. واختلف المفسرون في من هم الأولون والآخرون في هذه الآية ؟. فقال فريق منهم : ان المراد بالأوليين من آمن وسبق الى الخيرات قبل محمد (ص) . وقال الفريق الآخر : ان كلاً من الأولين والآخرين من أمة محمد (ص) .. وفي رأينا ان الأولين اشارة الى عصر

الجزء السابع والعشرون

الاسلام الذهبي يوم كان له قوة وسلطان، وكان المسلمون يؤمنون به قولاً وعملاً، ويدافعون عنه بالأرواح والأموال، وان الآخرين اشارة الى القلة الضليلة من المؤمنين في العصور المتأخرة التي يصدق عليها قول الإمام علي (ع) : « يأتي على الناس زمان لا يبقى فيه من القرآن إلا رسمه ، ومن الاسلام إلا اسمه ، مساجدهم يومئذ عامرة من النبي خراب من الهدى ، سكانها وعمارها شر أهل الأرض، منهم تخرج الفتنة واليهم تأوي الخطيئة .. يقول الله تعالى : فبني حلفت لأبمن عسى أولئك فتنة اترك الحليم فيها حيران ، . وآية فتنة وبلاء أشد وأعظم من الصهيونية والاستعمار .

(على سرر موضونة) منسوجة بما يتناسب مع أجساد أهل الجنة النواعم ، ووجوههم النواضر (متكئين عليها متقابلين) لا أشغال ولا هموم عيال (يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين) . أقذاح من عسل مصفى ، وكأس من خمر لينة للشاربين ، وأباريق من رحيق مختم .. وفي ذلك فليتنافس المتنافسون . (لا يصدعون عنها ولا يترفون) . لا صداع رأس، ولا ذهاب عقل من شربها ، ولا نهاية لما (وفاكهة مما يتخيرون ولحم طير مما يشتهون وحوار عين كأمثال اللؤلؤ المكنون) . شراب نقي ، ولحم طري ، والفاكهة ألوان ، والمحور عين وحسان ، وخلم وحشم وفراش وأسرة ، وراحة واطبشان، لا نبات ولا كربات .. كل ذلك (جزاء بما كانوا يعملون) للخير والمصلحة العامة بلا رياء ولا تطيل وتزوير (لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قلاباً سلاماً سلاماً) . ومن أين يسمعون الحجر والإثم ، ولا ناطق في الجنة إلا بخير ؟. كل هذه النعم هي للسابقين ، أما أصحاب اليمين فقد بين سبحانه نصيبهم فيما يلي :

أصحاب اليمين الآية ٢٨ - ٤١ :

وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ * وَظِلٍّ تَمْدُودٍ * وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ * وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَا مَقْطُوعَةٍ

وَلَا تَمْنُوْا عِيَةً * وَفُرُشٍ مَّرْفُوْعَةٍ * اِنَّا اَنْشَاْنَا هُنَّ اِنْشَاءً * فَجَعَلْنَا هُنَّ
اَبْكَارًا * عُرْبًا اَتْرَابًا * لِاَصْحَابِ الْيَمِيْنِ * ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْاَوَّلِيْنَ * وَثَلَاثَةٌ
مِّنَ الْاٰخِرِيْنَ *

اللغة :

الصدر شجر معروف . ومخضود لا شوك له . ومن معاني الطلح الموز . ومنضود
ونضيد . ونضد بمعنى واحد أي متسقي والمراد هنا ان قطوف الموز متسقة بالثمار
من أعلاها الى أسفلها . وعربياً جمع عروب وهي المرأة المتوددة الى زوجها .
واترباً جمع ترب أي متساويات في السن .

الإعراب :

أصحاب اليمين مبتدأ أول وما أصحاب اليمين ما استفهام مبتدأ ثان
وأصحاب اليمين خبر والجملة خبر المبتدأ الأول . وفي صدر مخضود خبر لمبتدأ
مقدر أي هم كائنون في صدر مخضود وما بعده عطف عليه . وعربياً صفة
للابكار . ولأصحاب اليمين متعلق بأنشأناهن . وثلاثة خبر لمبتدأ مخوف أي هم ثلثة .

المعنى :

(وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين) . بعد ان ذكر سبحانه ما أعدّه للسابقين
من الكرامة والتم ذكر ما أعدّه لمن هم أدنى إيماناً من السابقين . وأصحاب أصحاب
اليمين لأنهم يؤتون كتبهم بإيمانهم كما قلنا ، وهذا هو نصيبهم من الجنة
(في صدر مخضود) لا شوك له . (وطلح منضود) وهو الموز الذي نضد
ثمره بترابك بمضه على بعض (وظل مملود) الى غير أجل ، فإن العرب تقول

الجزء السابع والعشرون

لطويل الأمد : مملود (وماء مسكوب) يجري بلا انقطاع (وفاكهة كثيرة) كفاً وكيفاً (لا مقطوعة ولا ممنوعة) . ان شجر الدنيا يشتر في آن دون آن ، وثمره لصاحبه يمنع عنه من شاء ، أما شجر الآخرة فثمره دائم ، وفي تناول كل يد (وفرش مرفوعة) عالية ووثرية ، وطريف قول بعض المفسرين : ان علو السرير يبلغ مسافة خمسمائة سنة .

(إنا أنشأناهم إنشاءً فجعلناهم أبقاراً عرباً أتراباً) . أعد الله سبحانه لأصحاب اليمين نساءً أبقاراً يتحبن لأزواجهن ، وكلهن في سن واحدة ، وقلرها أحد المفسرين بثلاث وثلاثين سنة ، أما قامة الواحدة منهن فقلرها بستين ذراعاً في سبعة أذرع تماماً كقامة آدم على حد قوله .. وغرضنا من هذه الإشارة التنبيه الى ان بعض التفسير لا يجوز الاعتماد عليها لأنها قول بلا علم (لأصحاب اليمين) متعلق بأنشأناهم ، وكرر سبحانه أصحاب اليمين لمجرد التأكيد بأن ما ذكره هو لأصحاب اليمين (ثلة من الأولين وثلة من الآخرين) الكلام مستأنف ، ومعناه ان أصحاب اليمين بعضهم من عصر سابق ، وآخرون من عصر لاحق ، وهم بطبيعة الحال أقل عدداً من أصحاب الشمال الذين يشتر اليهم في الآيات التالية، هم أقل لأن الصالحين قليل : « وقليل من عبادي الشكور - ١٣ سبأ ، .

أصحاب الشمال الآية ٤٢ : ٥٧ :

وَأَصْحَابُ الشَّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشَّمَالِ * فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٌّ مِنْ
يَحْمُومٍ * لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ * إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ * وَكَانُوا
يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ * وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * قُلْ إِنْ
وَعظماً أئنا لمبعوثون * أو آبلونا الأولون * قُلْ إِنْ الْأُولَى
وَالْآخِرِينَ * لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم * ثم إنكم أيها الضالون

الْمَكْذُوبُونَ * لَا يَكُونُ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُقُومٍ * قَالِثُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ *
فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ * فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهَيْمِ * هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ
الدِّينِ *

اللفظ :

السموم ربيع حارة تنفذ في مسام البدن . والحميم الماء الحار . واليحموم الأسود
الهييم . مترفين منعمين . والحنث العظيم نقض العهد المؤكد باليمين أو الذنب
العظيم . والهييم الإبل يصيبها داء العطش تشرب ولا تروى .

المعنى :

(وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال) . ذكر سبحانه أولاً ما أعده للسابقين
من الأجر العظيم ، ثم ما أعده لأصحاب اليمين من رحمة وثواب ، ويذكر في
الآيات التي نحن بصددتها ما يقاسيه أصحاب الشمال من ألوان العذاب، منها أنهم (في
سموم وحميم) . تلفحهم ربيع ساخنة محرقة تنفذ الى داخل الجسم فتسم اللحم
والدم . ويشربون ماء يغلي في البطون (وظل من يحموم) . ويطلق اليحموم على
الأسود الهييم من كل شيء ، وعلى اللدخان الكثيف ، ويصح المعنى على أحدهما
وعليهما معاً (لا بارد ولا كريم) . اليحموم ظل ، ولكنه لا يجلب برداً ولا
يدفع حرّاً تماماً كالمتجبر من الرضاء بالنار .

(أنهم كانوا قبل ذلك مترفين) . طفوا وبنوا على عباد الله وبلاده، وسلبوا
وهبوا أقوات الخلائق وأرزاقهم ، وتنموا بها كما يشتهون من لباس أنيق، وطعام
هني ، وشراب سائغ ، ومسكن فاره ، فكان جزاؤهم عند الله عذاب الحريق ،
وشراب الحميم ، وطعام الزقوم ، وريح السموم ، وظل من يحموم (وكانوا

الجزء السابع والعشرون

يصرون على الحنث العظيم) . قيل : المراد بالحنث العظيم الذنب العظيم ، وهو الشرك ، وغير بعيد ان يكون الحنث اشارة الى اصرارهم على الإيمان الكاذبة بأنه لا بعث ولا جزاء كما حكى سبحانه عنهم ذلك في الآية ٣٨ من سورة النحل : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت » . وقسمهم هذا نتيجة لشركهم ، وعليه يصح تفسير الحنث العظيم بالشرك .

(وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون) . قالوا ساخرين : أينقلب التراب انساناً ؟ . ونسوا ان الله خلقهم من تراب ثم من نطفة (قل ان الأولين والآخرين لمجموعون الى ميقات يوم معلوم) . قل لهم يا محمد : أجل ، ان الله يجمع غداً الخلائق لنقاش الحساب ، وجزاء الأعمال ، ولو تركهم سدى بلا رادع ولا سائل لكان ظالماً وعابثاً .. تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً . وتقدم مثله مراراً ، منها في الآية ٥ من سورة الرعد ج ٤ ص ٣٧٨ والآية ٤٩ من سورة الإسراء و الآية ٨١ من سورة المؤمنون .

(ثم انكم أيها الضالون المكذبون) . ضلوا عن طريق الهدى ، فكذبوا بالحق ، ونازعوا بالجهل ، فكان جزاؤهم ومصيرهم (لأكلون من شجر من زقوم فالثون منها البطون) . ونعرف بأننا نجعل حقيقة هذه الشجرة ، وما أكثر ما نجعل .. ولكننا على علم اليقين بأنها تشير الى سوء العذاب ، وقد شبه سبحانه طلعها برؤوس الشياطين في الآية ٦٢ من سورة الصافات . انظر ج ٦ ص ٣٠٤ (فشاربون عليه من الحميم) . طعامهم أمرّ من العلقم وأنّ من الجيف ، وشراهم آجن ساخن (فشاربون شرب الميم) وهي الابل المصابة بالاستسقاء أو داء العطش لا يرونها شيء (هذا نزلهم يوم الدين) . هذا اشارة الى حال أصحاب الشمال ، ويوم الدين يوم القيامة ، والنزل ما يُعد للنازل من مأكّل ومشرب ، وهو شر نزل طعاماً وشرباً ولباساً وفرشاً .. وفوق ذلك تُغلّ الأيدي الى الأعناق ، وتقرن النواصي بالأقدام .. نعوذ بالله من سوء العاقبة والمصير .

أفرايتم ما تحمّلون الآية ٥٨ - ٧٥ :

فَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ * أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ * أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ

أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ * نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ *
 عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ
 الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ * أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ
 الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمَغْرُمُونَ *
 بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ
 مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا
 تَشْكُرُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ
 الْمُنشِئُونَ * نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَرَحْمَةً لِّلْمُتَّقِينَ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ
 رَبِّكَ الْعَظِيمِ *

الغنة :

تتمون تغفون المني في الأرحام . بمسبوقين بمظلوبين . نبذل أمثالكم نأني
 بخلق مثلكم النشأة الأولى الحلقة الأولى . وحطاماً هشيماً . وتفكّهون تتمجبون .
 ومغرمون ملزومون بالفرامة . وأجاجاً ملحاً مرأ . تورون تغدحون . وتذكرة موعظة .
 ومتاعاً منفعة . والمقرون هم الذين يتزولون القواء أي القفر ، والأولى ان يراد
 بالمقوين المستمعون كما يأتي .

الأحزاب :

فلولا تصدقون . فلولا تذكرون « لولا » طلب بمعنى هلا . والمصدر من ان

نبدل متعلق بمسبوقين . وجملة إنا لمخرومون مفعول لقول مقدر .

المعنى :

(نحن خلقناكم فلولا تصدقون) ؟ . آمنوا وصدقوا بأن الله خلقهم ، ولكنهم أنكروا وكذبوا انه يعيدهم بعد الموت للحساب والجزاء . لأن الأول في عقيدتهم ممكن ، أما الثاني فستحيل .. فرد عليهم سبحانه بأن ابتداء الخلق واعادته بعد الموت هما من باب واحد بالنسبة الى قدرة الله تعالى: بل الاعادة أهون لأن الخلق إيجاد من لا شيء ، والاعادة جمع لأجزاء متفرقة . فيلزمكم . وهذه هي الحال ، أحد أمرين : إما الاعتراف بهما معاً ، وإما انكارهما معاً ، ومن اعترف بأحدهما دون الآخر فقد ناقض نفسه بنفسه ، وبسمى هذا بدليل التلازم بين شيئين لا ينفك أحدهما عن الآخر بحال ، ولذا يستدل بأحدهما على الثاني سلباً وإيجاباً . ثم ضرب سبحانه أمثلة من خلقه يدل وجودها على امكان المعاد وهي :

١ - (أفرأيتم ما تمنون أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون) ؟ . من الذي خلق من منيكم بشراً سواً بجميع أعضائه وغرائزه ؟ أنتم أم الله ؟ . لقد قدّمتم المني في رحم المرأة وانتهى دوركم ولم تتعهدوه بشيء اطلاقاً .. فمن الذي صبر المني علقه ، والعلقة مضفة ، والمضفة عظماً ، وكسا العظام لحماً الخ ؟ . فإن قلتم: كل ذلك من عمل الطبيعة وحدها . قلنا : ومن أوجد الطبيعة ؟ . فإن قلتم: أوجدت نفسها بنفسها . قلنا : من الذي وهبها الحياة والاحساس والادراك ؟ وان قلتم : هي . قلنا : انها صماء عمياء وفاقد الشيء لا يعطيه . وان قلتم : نشأت الحياة في المادة من غير قصد . قلنا : وعليه فإن كلامكم هذا صدر عنكم من غير قصد !.. ان العقل لا يستسيغ أي تفسير للحياة ونظام الكون إلا بعلمة فاعلة عاقلة وجدت من غير فاعل ، ولا يمكن الارتقاء في سلسلة العال الى ما لانهاية وإلا لم يكن للوجود عين ولا أثر .

(نحن قدرنا بينكم الموت) ان مالك الموت هو مالك الحياة. والمعنى هو الموجد (وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون) . ان الله سبحانه لا يغلبه غالب ، ولا يفوته هارب ، وهو على كل شيء قدير ، وبقدرته تعالى

سورة الواقعة

نقل الخلق من العلم الى الوجود ، وبها يتقلهم الى عالم لا يعرفون عنه شيئاً ، ولو أراد سبحانه أن يستبدل بالمصاة من خلقه قوماً مطيعين لفضل ولاراد لما أراد، وفيه تهديد ووعيد لمن أعرض وتولى عن دعوة الحق : « وان تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم - ٣٨ محمد . (ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون) . علمتم بأننا خلقناكم من لا شيء فهل نعجز عن جمع أجزائكم بعد تفرقتها واعادتها الى ما كانت عليه ؟ . وأبلغ تفسير لهذه الآية قول الإمام علي (ع) : عجبت لمن أنكر النشأة الأخرى وهو يرى النشأة الأولى .

٢ - (أفرايتم ما تخرثون أنتم تزرعونوه أم نحن الزارعون) ؟ . الانسان يبذر ويغرس ويحرق ويسقي ما في ذلك ريب .. أما البذر والغرس والماء والأرض والنمو ، أما هذه وغيرها كالشمس والهواء فن أين ؟ . فإن قالوا : أنها من فاعل غير عاقل . قلنا لهم : وعليه فقولكم هذا من قائل غير عاقل (لو نشاء لجملائه حطاماً فظلمتم تفكهون) . الماء في جملائه يعود للزرع المفهوم من قوله تعالى : « ما تخرثون ، والحطام المهشم قال تعالى : « فاختلط ب نبات الأرض فأصبح هشياً تذروه الرياح - ٤٥ الكهف » وتفكهون تتمجبون مما حل بزرعكم من الآفات وتقولون : (إنا للمرمون) قد تعبنا كثيراً وأنفقنا كثيراً على هذا الزرع ، ولزمننا من أجله ديون وغرامات ، ولم تنتفع بشيء .. وتقولون أيضاً (بل نحن محرمون) من الحبيب والرزق ، ولا شيء آلم للنفس من احساسها بالحرمان .

٣ - (أفرايتم الماء الذي تشربون أنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون) ؟ المزن السحاب ، ويشير به سبحانه الى أنه هو الذي أوجد في الطبيعة أسباب المطر، والمعنى : وهذا الماء الذي هو أصل الحياة ، ولا غنى عنه بحال ، هذا الماء من الذي أوجد أسبابه في الطبيعة وأحكمها ؟ أنتم أم الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً ؟ وقد نبه سبحانه في كثير من الآيات الى أنه يحيي الموتى تماماً كما يحيي الأرض بالمطر : « ومن آياته انك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ان الذي أحيائها لمحيي الموتى انه على كل شيء قدير - ٣٩ فصلت . (لو نشاء لجملائه اجاجاً فلولا تشكرون) ؟ الاجاج هو الماء الذي بلغت

الجزء السابع والعشرون

ملوحته حدأ جملة مرأ كالعقم ، والمعنى : لو أراد الله أن يجعل الماء ملحاً أجاجاً لا ينتفع به في شرب ولا زرع لفعل ، ولكن جملة عذباً فراتاً رفقاً بكم ورحمة لكم ، ومع ان هذه النعمة تستوجب الشكر بطبعها فإن الله يجزي الشاكرين .

٤ - (أفرايتم النار التي تورون) ؟ والنار نعمة تماماً كالماء ، ولولاها لما تقدم الانسان خطوة واحدة في حياته ، وبقي الى يومه الأخير يمش مع الوحوش في الغابات والمغاور .

(أنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون) ؟ للنار أسباب شتى ، منها القدر بزناد الحشب أو الصلب أو بالحجر ، ومنها غير ذلك مما يكتشفه العلماء في المستقبل أو لا يكتشفونه .. الله أعلم ، وكذلك الوقود ، منه الشجر والفحم الحجري والبتروال والكهرباء والذرة والشمس .. الى ما الله به أعلم .. وجاء ذكر الشجر في الآية على سبيل المثال دون الحصر، قال المفسرون : ان العرب كانوا يستخرجون النار من الزناد ، وهو عبارة عن عودين يحك أحدهما بالآخر ، ويسمى الأعلى زنداً والأسفل زنده .. وقد ضرب الله مثلاً لاستخراج النار بما يتفق وحياة العرب آنذاك .

(نحن جعلناها تذكرة) موعظة تُذكر بالبعث لأن من أخرج النار من الشجر الأخضر يجبي الخلق بعد موته (ومتاعاً للمقوين) والمراد بالمتاع المنفعة . قال الطبري : « اختلف أهل التأويل في معنى المقوين ، فمن قائل : أنهم المسافرون . وقائل : أنهم المستمتعون » . وهذا القول أرجح من الأول لأن النار ينتفع بها المسافر والمقيم (فسبح باسم ربك العظيم) . الخطاب للنبي (ص) والمقصود العموم، والمعنى نزه الخالق الأعظم عن كل ما لا يليق بعظمته . والمسلمون يقرأون هذا التسيح في ركوعهم ، أما سبح اسم ربك الأعلى فيقرأونه في سجودهم .

لا يحسه الا المطهرون الآية ٧٦ - ٩٦ :

فَلَا أُقِيمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ

كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ
 الْعَالَمِينَ * أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَفْتِحُونَ * أَنْتُمْ مُذْهِبُونَ * وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ
 تُكَذِّبُونَ * فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ * وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ * وَنَحْنُ
 أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ * وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ * فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ *
 تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ
 وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَكَ
 مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمَكْذِبِينَ الضَّالِّينَ * فَأَنزَلُ
 مِنْ أَجْحِمٍ * وَتَصْلِيَةٌ جَهِيمٌ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ
 رَبِّكَ الْعَظِيمِ *

: اللغة :

مواقع النجوم مواضعها وأماكنها . ومكنون مصون . ومدنون من المداهنة ،
 تقول : داهنه أي خدعه وأظهر له خلاف ما أضمر . والحلقوم موضع النفس
 وجرى الطعام . غير مدنين أي غير محاسبين ولا مجزيين . وروح وريحان كتابة
 عن راحة الروح والجسم . وتصلية الجحيم أي صالي النار ومعذب بها . وحق اليقين
 واليقين الحق بمعنى واحد ، وهو اليقين المطابق للواقع الذي لا شك فيه .

: الإعراب :

قال أحد المفسرين : ان «لا» في «فلا اقم» زائدة إعراباً مثل «للا يعلم أهل

الجزء السابع والعشرون

الكتاب : أي ليعلم ، ومثل « ما منعك الا تسجد » أي ان تسجد . لا يعمه
نهي بصيغة النفي ، وانشاء بصيغة الإخبار . فهذا الحديث متعلق بـ « مدهنون » .
ورزقكم على حذف مضاف أي شكر رزقكم . والمصدر من أنكم تكذبون مفعول
ثان لتجملون أي تجملون الشكر تكديباً . فلولا بمعنى هلا ودخلت على فعل مقدر
أي فلولا ترجمونها . والضمير المستتر في بلغت يعود الى النفس التي دل عليها
سياق الكلام . واذا هنا لا تتضمن معنى الشرط ، بل هي بمعنى حين أي فلولا
ترجمونها حين بلغت الحلقوم . واما ان كان من المقربين اسم كان مقدر أي ان
كان المتوفى من المقربين . فروح مبتدأ والخبر مقدر أي فله روح . فلام مبتدأ
ولك خبر والخطاب لصاحب اليمين . فنزل مبتدأ والخبر محذوف أي فله نزل .
وحتى اليقين من باب اضافة الشيء الى نفسه او الصفة الى الموصوف مثل مسجد
الجامع .

المعنى :

(فلا أقسم بمواقع النجوم وانه لقسم لو تعلمون عظيم) . أشرنا في فقرة
الاعراب الى أن أكثر المفسرين قالوا : ان « لا » هنا زائدة ، وقال آخرون :
انها أصل ، وان المعنى لا أقسم لأن الأمر أوضح من أن يحتاج الى قسم . والصحيح
الأول بدليل قوله تعالى : « وانه لقسم لو تعلمون عظيم » اي انه تعالى قد أقسم
بالفضل ، وان قسمه عظيم ، وعند تفسير الآية ١ من سورة الصافات ج ٦ ص ٣٣٠
قلنا : ان الله أن يقسم بما شاء من خلقه لأن كل مخلوق يدل على وجود خالقه
وعلمه وحكمته ، فكيف إذا كان للمقسم به اثره البالغ في اتقان الكون ونظامه ،
وصيائه من الخراب والدمار كوضع النجوم في مواضعها وترتيبها في أماكنها بحيث
لو حاد نجم منها عن مكانه قيد شعرة لانهار الكون وذهب كل شيء ، وقوله
تعالى : « لو تعلمون » يرمي الى ان أكثر الناس يجهلون هذه الحقيقة بخاصة
أهل المصوّر الأول .

الاسلام وقادة الفكر الأوروبي :

(انه لقرآن كريم) . أجل، ان القرآن كريم يغني عن كل مرشد ودليل، ويشفي من داء الجهل والفضلال ، ويهدي الى منازل الكرامة والسلامة ، ويحرر من قيود الظلم والعبودية .. أما السر لأوصافه هذه وكثير غيرها فلأن القرآن الكريم يستجيب لكل حاجة من حاجات الحياة، ويربط الدين بالعمل في الدنيا حياة طيبة عادلة لا مشاكل فيها ولا عدوان .. حتى سعادة الآخرة لا يتألم إلا من أخلص وعمل صالحاً .. أبداً لا طريق الى الله ، ولا الى النجاة من غضبه وعذابه إلا العمل النافع : « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض - ١٨ الرعد » .

ومن هنا أجمع المسلمون قولاً واحداً على ان الله سبحانه ما شرع ولن يشرع حكماً إلا لخير الانسان ومصالحته ، وانه من المستحيل أن يشرع حكماً فيه ضرر على أحد أياً كان ، وانه اذا نُسب الى شريعة القرآن حكمٌ لا يتفق مع هذا المبدأ فهو من جهل الجاهلين أو دسائس الوضاعين ، أما الآيات الدالة على ذلك فتعد بالعشرات ، منها قوله تعالى على لسان نبيه شعيب : « ان اريد إلا الاصلاح - ٨٨ هود » وقوله : « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم - ٧ المائدة » وقوله : « ان الله بالناس لرؤوف رحيم - ١٤٣ البقرة » وقوله : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون - ٣٠ الروم » .

هذا هو الاسلام في حقيقته وواقعه ، وفي كتاب الله وعلمه ، لا شيء فيه إلا ما يحتاج اليه الانسان ويطلبه بغريزته وفطرته النقية الصافية التي ولد عليها ، وتميز بها عن جميع الكائنات ، لا ما يتطلبه الطمع والجشع ، والبغي والعدوان .. وقد أدرك هذه الحقيقة الكثير من فلاسفة الغرب وشعرائه وأدبائه، فأكبروا الاسلام وأشادوا بالرسول الأعظم (ص) لا لشيء إلا بدافع من حب الخير والحق والعدل، ولو اتسع لنا المقام لذكرنا الكثير من أقوالهم، ولكن ما لا يدرك كله أو جله فلا يترك كله ، ونختار من بين اولئك الأعلام : « جوته » الألماني و « لامرتين »

الجزء السابع والعشرون

الفرنسي و «تولستوي» الروسي و «برنارد شو» الانكليزي، وهم كما ترى مختلفون في ثقافتهم وقوميتهم واتجاهاتهم .

قرأ «جوته» الشاعر الالماني الكبير - القرآن ، وأدرك ما فيه فأكبره واحتفل ببلغة القدر التي نزل فيها القرآن ، وقرأ تاريخ الرسول الكريم (ص) فألف النشيد المحمدي ، وكتب مسرحية محمد (ص) ، ومن أقواله : اذا كان الاسلام هو التسليم لله لا للأهواء والأغراض ففي الاسلام نحيماً ، وعليه نموت .

وقال «لامرتين» شاعر فرنسا العظيم : « ان كل ما في حياة محمد (ص) يدل على انه لم يكن يضمخ خداعاً أو يعيش على باطل .. انه هادي الانسان الى العقل ، ومؤسس دين لا فرية فيه . »

وقال «تولستوي» الفيلسوف الروسي الانساني : « مما لا ريب فيه ان محمداً خدم الهيئة الاجتماعية خدمات جليلة ، ويكفيه فخراً أنه هدى مئات الملايين الى نور الحق والسكينة والسلام ، ومنح للانسانية طريقاً للحياة ، وهو عمل عظيم لا يقوم به إلا انسان أوتي قوة وإلهاماً وعوناً من السماء . »

وقال برنارد شو الأديب الانكليزي العالمي : « يجب أن يدعى محمد منقذ الانسانية .. انني أعتقد انه لو تولى رجل مثله زعامة العالم الحديث لنجح في حل مشاكله بطريقة تجلب الى العالم السلام والسعادة .. ان محمداً هو أكمل البشر من الغابرين والحاضرين ، ولا يتصور وجود مثله في الآتين» .

وقول برنارد شو: « محمد أكمل البشر من الغابرين والحاضرين » معناه ان رسالة محمد (ص) لا تغني عنها أية رسالة من رسائل الأنبياء السابقين .. حتى عيسى وابراهيم . أما قول برنارد شو : « ولا يتصور وجود مثل محمد في الآتين » فعناه لا أحد يستطيع بعد محمد أن يأتي الانسانية بمجديد يفيدها وينفعها أكثر مما أتى به محمد ، ومعناه أيضاً ان دعوة محمد ودين محمد يغني عن كل دين وكل دعوة وشريعة ونظام ، ولا يغني عنه شيء .

وكلنا يعلم ان برنارد شو في طليعة قادة الفكر الأوروبي في القرن العشرين ، عصر الذرة والقضاء، وان شهادته هذه هي نتاج البحث الطويل ، والتفكير العميق ، والتحليل الدقيق.. وهذه الشهادة من برنارد شو هي تعبير ثانٍ أو تفسير لقوله تعالى:

سورة الواقعة

« وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين - ١٠٧ الأنبياء » أي كل العالمين في كل زمان وكل مكان . وأيضاً هي تفسير لقوله سبحانه : « ولكن رسول الله وخاتم النبيين - ٤٠ الأحزاب » ، وأيضاً هي أي شهادة برنارد شو دليل قاطع على صدق المسلمين في عقيدتهم « بأن محمداً هو أكمل البشر من العابرين والحاضرين ، ولا يتصور وجود مثله في الآين » على حد قول برنارد شو .

وبعد ، فإهو رأي الشباب المنتكرين لدين آبائهم وأجدادهم ؟ ما رأيهم في قول برنارد شو ؟ وهل هم أعلم وأحرص منه على الانسانية ، ام انهم يتكلمون بوحى من أعداء الاسلام والانسانية من حيث لا يشعرون ؟

(في كتاب مكنون) أي مصون . واختلفوا : من أي شيء مصون ؟ فقال بعضهم : مصون من التراب والغبار !.. كما في تفسير الطبري . وقال آخرون : انه مصون في اللوح المحفوظ .. وفي رأينا انه لا موجب لهذا النزاع والخلاف لأن الله سبحانه يبين معنى الصيانة بقوله : (لا يمسه إلا المطهرون تنزيل من رب العالمين) أي ان القرآن وحي من الله لا من الشياطين ، وما هو بالسحر ولا أساطير الأولين كما يزعم الجاحلون .

واتفق فقهاء المذاهب على تحريم مس كتابة القرآن إلا للمتطهر المتوضئ ، واختلفوا في كتابته وتلاوته لغير الطاهر . فقال الحنفية : لا تجوز كتابته وتيجوز تلاوته له عن ظهر قلب . وقال الشافعية : لا تجوز كتابته ولا تلاوته إلا بقصد الذكر كالنسمية على الأكل . وقال المالكية : لا تجوز الكتابة وتيجوز التلاوة عن حاضر وظهر قلب . وقال الحنابلة : لا تجوز كتابته ويجوز حمله حرزاً بخاتل . وقال الإمامية : لا تحرم التلاوة على الجنب إلا سور العزائم الأربع : وهي اقرأ ، والنجم ، وحم السجدة ، وألم تنزيل . وتيجوز الكتابة .

(أقبهذا الحديث أنتم مدهنون) . المراد بالحديث القرآن ، وأنتم خطاب للمناقين الذين داهنوا ، فأظهروا الاعتراف بالقرآن ، وأضمرنا الجحود والانكار (وتجمعون رزقكم انكم تكذبون) . المراد بالرزق النعمة ، وبالتكذيب كفرانها ، والمعنى ان القرآن نعمة من الله عليكم أيها المداهنون ، فكيف قابلتموها بالجحود والكفران ؟ . وقال جماعة من المفسرين : انهم كانوا اذا أمطروا قالوا : بلدما

الجزء السابع والعشرون

صنع الطبيعة ، فكان ذلك كفرأ منهم بأنعم الله ، وفيهم نزلت هذه الآية ..
وهذا بعيد لأن الحديث عن القرآن لا عن الأمطار .

(فلولا إذا بلغت الحلقوم وأنتم حيثئذ تنظرون) . في بلغت ضمير مستمر يعود الى النفس التي دل عليها سياق الكلام ، وأنتم خطاب لمن شاهد الميث وهو مختصر ، سواء أكان من أهله أم من غيرهم ، والمعنى كيف بكم أيها المداهنون إذا نزلت غمرات الموت بواحد منكم ، وبلغت روحه التراقي ، وأنتم تنظرون الى ما به ، وتتمنون له الحياة والبقاء ، فهل تملكون شيئاً من أمره وتردون عليه حياته وعافيته ؟ . (ونحن أقرب اليه منكم ولكن لا تبصرون) . ضمير اليه يعود الى المختصر ، والمعنى ان الله سبحانه يعلم بما حل بالمختصر ، ويعجزكم عن نجده والمك لفقده ، ولكنكم تجهلون ان الله موجود في كل مكان بعلمه وقدرته (فلولا ان كنتم غير مدينين ترجعونها ان كنتم صادقين) اذا كنتم أحراراً- كما تزعمون - وغير مسؤولين عن شيء ، ولا أحد يستطيع ان يقهركم على شيء ، اذا كان الأمر كذلك فلماذا لا تدفعون الموت عن أنفسكم وتُرجعون أرواحكم الى أجسادكم لأن المفروض في منطلقكم ان الله لا يملك لكم موتاً ولا حياة ولا نبأ ولا حساباً .

(فأما ان كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم) . في أول هذه السورة قسم سبحانه أهل القيامة الى ثلاثة أصناف : السابقين المقربين ، وأصحاب اليمين ، وأصحاب الشمال ، وذكر في هذه الآية ان المختصر إذا كان من السابقين فهو في أمان قائم ونعيم دائم ، وتقدم في الآية ١٢ وما بعدها من هذه السورة - ما أعده الله للسابقين (وأما ان كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين) . واذا كان المختصر من الصنف الثاني وهم أصحاب اليمين فتبشره الملائكة بالسلام والراحة .. ومن هنا بيانية ، وليست للتجسس أي أنت ايها المؤمن الذي هو من أصحاب اليمين لك سلام وأمان . وتقدم في الآية ٢٧ وما بعدها من هذه السورة ما أعده سبحانه لأصحاب اليمين .

(وإيا ان كان من المكذبين الضالين فتزل من حميم وتصلية جحيم) . واذا كان المختصر من الصنف الثالث وهم أصحاب الشمال فأواه جهنم وساءت مصيراً ،

سورة الواقعة

وذكر سبحانه ما أعده لأصحاب الشمال في الآية ٤١ وما بملها من هذه السورة (ان هذا لهو حقّ اليقين) الذي لا شك فيه. وفي بعض كتب الصوفية. ان الشيء المدرك على ثلاثة أقسام : مدرك يعلم اليقين كمن يدرك وجود النار من وجود اللدخان ، ومدرك بعين اليقين كمن يرى النار بالذات ، ومدرك بحق اليقين كمن يكتبي بحرما (فسيح باسم ربك العظيم) . تقدم بالحرف مع التفسير في الآية ٧٥ من هذه السورة .

سورة الحديد

٢٩ آية مدنية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هو الأول والأخر الآية ١ - ٦ :

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * لَهُ مُلْكُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُخْفِي وَيُكْشِفُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * هُوَ الْأَوَّلُ
وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * هُوَ الَّذِي خَلَقَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ
فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ
مَعَكُمْ أَيَّنًا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ * يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ
وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ *

اللغة :

استوى هنا بمعنى استولى ولذا تعدى الفعل بمضى . والعرش كناية عن الملك
والسلطان .

الإعراب :

سَبَّحَ اللهُ اللهُ اللهُ اللام زائدة إعراباً مثل شكرت له ونصحت له أي شكرته ونصحته ويجوز أن تكون اللام أصلاً على معنى سَبَّحَ تسيباً خالصاً لوجه الله. وقد استعملت « ما » هنا في جميع الكائنات العاقلة وغير العاقلة .

المعنى :

(سَبَّحَ اللهُ اللهُ اللهُ ما في السموات والأرض) . وفي الآية ٤٩ من سورة النحل : « والله يسجد ما في السموات وما في الأرض » . وكل من التسيب والسجود لله اعتراف بقدرته تعالى وحكمته ، ولهذا الاعتراف مظهران : أحدهما بلسان المقال ، وثانيها بلسان الحال ، والانساني يسبح الله باللسان معاً ، أما الكائنات التي لا تنطق بلسان المقال فلإنها تسجد وتسبح بلسان الحال لأن ما من كائن إلا وهو يدل على وجود المكون والمصور . أنظر تفسير الآية ٤٤ من سورة الإسراء ج ٥ ص ٤٧ فقرة « كل شيء يسبح بحمده » .

وجاء في كتب السير والحديث والتفاسير : ان فاطمة بنت رسول الله (ص) كانت تقوم بجميع شؤون بيتها وخدمة زوجها وأولادها . وفي ذات يوم شكت الى أبيها ما هي فيه ، ورأى هو (ص) عليها وعلى يديها آثار الجهد ، فطلبت منه أن يمنحها جارية من سبايا الحرب لتساعدوا فيها تقوم به ، فقال : لأعطيك جارية ، وغيرك يطوي بطنه من الجوع ، ثم قال لها : ألا أدلك على خير من الجارية أن تسبحي الله ٣٣ وتحمديه ٣٣ وتكبريه ٣٤ . قالت فاطمة (ع) : رضيت يا رسول الله . وتُعرف هذه التسيبات بتسيب الزهراء .

(وهو العزيز الحكيم له ملك السموات والأرض يحيي ويميت) . كأن سائلاً يسأل : لماذا سَبَّحَ اللهُ اللهُ ما في السموات والأرض؟ فجاء الجواب لأن ما في السموات والأرض ملك لله وحده لا شريك له ، ولأنه العزيز بقدرته ، والحكيم بتدبيره . ولأن الموت والحياة بيده (وهو على كل شيء قدير) ما شاء كان وان لم يشأ لم يكن .

الجزء السابع والعشرون

(هو الأول) بلا ابتداء كان قبله ، ومنه ابتداء كل شيء (والآخر) بلا انتهاء يكون بعده ، واليه ينتهي كل شيء (والظاهر) بالآثار والأفعال لا برؤية الحواس (والباطن) لا تحيط العقول والأوهام بكنهه وحقيقته ، وإنما يتجلى لها بآثاره . وفي نهج البلاغة : الحمد لله الذي أظهر من آثار سلطانه وجلال كبريائه ما حير مقل العيون من عجائب قدرته ، وردع مهام النفوس عن عرفان كُنْه صفته .. قرب فنأى ، وعلا فدنا .. سبق الأوقات كونه ، والعدم وجوده ، والابتداء أزله (وهو بكل شيء عليم) هو عالم بكل شيء لأنه خالق كل شيء .
(هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش) .
المراد بالأيام الدفقات أو الأطوار ، وبالاستواء الاستيلاء ، وبالعرش الملك . وتقدم مثله في الآية ٥٤ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٣٨ والآية ٣ من سورة يونس والآية ٧ من سورة هود والآية ٥٩ من سورة الفرقان والآية ٤ من سورة السجدة .

(يعلم ما يلج في الأرض) من كنوز وبنور ومياه .. حتى التفجيرات الذرية في جوف الأرض التي يقوم بها أعداء الله والانسانية فان الله يعلم حقيقتها وآثارها المهلكة ، ويعلم ان الهدف منها السيطرة على عباد الله وإخضاعهم لسياسة الاستعمار ، ونمو صناعته الحربية .. وأيضاً يعلم الله (ما يخرج منها) من نبات وحشرات ومياه .. حتى البترول فإن الله يعلم الأرض التي ينبع منها ، والأيدي التي تستخرجه وتعمل فيه والشركات التي تسلبه وتنهب والحروب التي تثيرها من أجله (وما ينزل من السماء) من ماء وتلوج وأنوار ، وما الى ذلك من خيرات .. وقد علم بالذنين صعدوا الى القمر لعلهم يبتدون الى وسيلة يحتكرون بها بركات السماء ، ويجبسونها عن عباد الله وعباله تماماً كما فعلوا في الأرض وخيرات الأرض ، ولكن الله ، جلّت حكمته ، ردهم - في المحاولة الثالثة - على أعقابهم خاشئين (وما يعرج فيها) أيضاً يعلم سبحانه كل ما يدور ويجول في الفضاء .. حتى طائرات التجسس وحاملات القنابل الذرية والأقمار الصناعية التي تدور حول الأرض لأغراض شيطانية كالنرجس وارهاب المستضعفين واغتصاب أرزاقهم ومقدراتهم .

(وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير) . هذا تهديد ووعد لكل طاغ وباغ بان أعماله محفوظة عند الله ، وانه مرتين بها ومحاسب عليها حساباً دقيقاً

وعسراً ، ومعاقب بمذاب وبيبل وأليم (يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وهو عليم بذات الصدور) . تتحرك الأفلاك ، وتتعدد الفصول ، ويأخذ الليل من النهار في فصل ، والنهار من الليل في فصل ، ويتساويان في بعض الأيام ، أما ذات الصدور فهي السرائر والضمائر . وتقدم في الآية ٢٧ من سورة آل عمران ج ٢ ص ٣٧ والآية ٦١ من سورة الحج و ٢٩ من سورة لقمان و ١٣ من سورة فاطر .

وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه الآية ٧ - ١١ :

آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ * وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرُّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَارْوُوفٌ رَحِيمٌ * وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكَلَّا * وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ *

اللغة :

مستخلفين خلفاء ووكلاء بالتصرف في الأموال ضمن حدود وقبود . والمراد بالفتح هنا فتح مكة ، وبالقرض الانفاق .

الإعراب :

ما لكم مبتداً وخبر لأن معناه أي شيء حدث لكم؟ والمصدر من أن لا تنفخوا مجرور بحرف جر مقدر أي في عدم الاتفاق ، ويتعلق بما تعلق به لكم . ومن انفق « من » فاعل لا يستوي . وفي الكلام حذف، أي ومن انفق بعد الفتح . وكلاً مفعول أول لوعده ، والحسن مفعول ثان . ومن مبتداً وإذا خبر والذي بدل من ذا . وقرضاً مفعول مطلق ان أريد به الإفراض ، ومفعول به إن أريد به المال .

المعنى :

(آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير) . حث سبحانه على الاتفاق ورغب فيه بشئ الأساليب ، وهدد من بخل وأمسك بأشد العذاب .. ومن أساليب القرآن في الحث على الاتفاق في سبيل الله هذه الآية التي ساوت بين الأمر بالإيمان بالله ورسوله وبين الأمر بالاتفاق ، وتوهم هذه المساواة الى ان من يبخل ويمسك فهو كافر - عملياً - بالله ورسوله وان آمن بهما نظرياً .. وأيضاً تشير الآية الى أن الأغنياء لا ينفقون من ملكهم وأموالهم ، وانما ينفقون مما هم وكلاء فيه .

وروى الصحابي الجليل أبو ذر الغفاري انه خرج مرة مع رسول الله (ص) نحو أحد فقال له الرسول (ص) : يا أبا ذر أتبصر هذا الجبل ؟ . فقال : نعم يا رسول الله . قال : ما أحب أن يكون لي مثله ذهباً أنفقه في سبيل الله ، أموت وأترك منه قيراطين . فقال أبو ذر : أو قنطارين يا رسول الله . قال : بل قيراطين . أنظر تفسير الآية ١٨٠ من سورة آل عمران ج ٢ ص ٢١٧ . فقرة « الغني » وكيل لا أصيل .

(وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم ان كنتم صادقين) . المراد بالميثاق هنا وجوب العمل بما دل عليه الدليل القاطع ، وما أكثر الأدلة على وجوب الإيمان بالله .. وتقدم بيان الكثير منها عند تفسير .

سورة الحديد

الآيات الكونية ، من ذلك ما ذكرناه عند تفسير الآية ٨٣ من سورة الإسراء ج ٥ ص ٧٩ فقرة « علم الخلايا » ، كما تقدم ذكر الأدلة على نبوة محمد (ص) عند تفسير الآيات التي تشير إلى ذلك ، ومنها ما ذكرناه قريباً عند تفسير الآية ٧٧ من سورة الواقعة فقرة « الاسلام وقادة الفكر الأوروبي » .

ومحصل الآية التي نحن بصددنا : كيف تعرضون عن دعوة الرسول الى الإيمان بالله وانى ما يحبيكم ، وقد قامت الأدلة الكافية الوافية على وجود الله ووحدانيته ، وصدق الرسول في نبوته ودعوته ؟ قال الرازي : ان تلك الدلائل لما اقتضت وجوب العمل بها كانت تؤكد من الحلف واليمين ، ولذلك سمّاه سبحانه ميثاقاً .

(هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات الى النور) . أرسل سبحانه محمداً (ص) بالحنة الكافية والموعظة الشافية ليخرج الناس من طاعة الشيطان الى طاعة الرحمن ، من الضلال والفساد الى الهدى والصلاح ، وخوفهم الرسول من سطوة الله وعذابه إذا عرضوا ، ووعدهم بالحسنى وجزيل الثواب إذا استجابوا وأطاعوا وقال لهم : (وان الله بكم لرؤوف رحيم) . ان الله بعباده رؤوف رحيم ، وبرّ كريم ، يلطف بهم من حيث لا يعلمون ، ويمهد لهم سبل الخير من حيث لا يحتسبون ، وينعم عليهم وهم يتمرّدون .

(وما لكم ان لا تفقروا في سبيل الله والله ميراث السموات والأرض) ؟ . كل ما في يد الانسان من مال وحطام فهو عارية يتركه لمن بعده .. وهكذا حتى الانسان الأخير ، فإذا ذهب الى ربه فلا وارث حينئذ إلا الله وحده : « إذا نحن نرتب الأرض ومن عليها والينا يرجعون - ٤٠ مريم » وما دام الأمر كذلك ، فلماذا الشح بالمال والامساك عن البذل في سبيل الله ؟ . وفي نهج البلاغة : عجبت للبخيل يستعجل الفقر الذي منه هرب . ويفوته الغنى الذي اياه طلب ، فيعيش في الدنيا عيش الفقراء ، ويحاسب في الآخرة حساب الأغنياء ! .

(لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل) . المقابل الثاني لقوله : لا يستوي مخنوف أي ومن أنفق وقاتل بعد فتح مكة ، وتوضيح المعنى ان الشيء قد يقاس بالكم والكيف معاً كالأطعمة والأشربة والألبسة والمجوهرات ، فإن ثمن

الجزء السابع والعشرون

هذه وما إليها يُقدر بالحجم والمنفعة معاً ، وقد يقاس بالكم فقط كأصوات الذين يتخيفون المخاطر والنواب ومن اليهم من الرؤساء ، فإن صوت العالم والجاهل والعاقل والفاجر سواء بالنسبة لفوز المرشح أو فشله ، وقد يقاس بالكيف فقط كاللواء حيث يُقدر بأثره شفاء ووقاية .. والبذل من هذا الباب فقد ينفق الانسان على معبد - مثلاً - عشرات الألوف ولا يكون له من الأجر عند الله ما لرغيف ينقذ به جائعاً من الهلاك .. ومن هنا نفى سبحانه المساواة بين من أنفق وقاتل قبل فتح مكة وبين من أنفق وقاتل بعده حيث كان المسلمون قبل الفتح في ضيق وحرَج ، وكان الكافرون في سعة وقوة ، أما بعد الفتح فعلى العكس ، ضعف الكفر ، وقوي الاسلام .

(أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلاً وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير) . أولئك اشارة الى السابقين الأولين ، والمعنى ان لكل من السابق واللاحق في الحيرات أجره وثوابه عند الله ، ولكن مع التفاوت في الدرجات والمراتب : « ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون - ١٩ الأحقاف » . وبكلمة ان السابقين المقربين هم من الصنف الأول الذين ذكروهم سبحانه وما أعد لهم في الآية ١٠ وما بعدها من سورة الواقعة ، وأصحاب اليمين من الصنف الثاني ، وقد ذكر سبحانه ما أعد لهم في الآية ٦٧ وما بعدها من سورة الواقعة أيضاً (من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له وله أجر كريم) . المراد بالإقراض هنا النفقة لأن الله غني عن العالمين . وفي نهج البلاغة : « لم يستنصركم الله من ذل ، ولم يستنصركم من قل ، استنصركم وله جنود السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ، واستنصركم وله خزائن السموات والأرض وهو الغني الحميد . أراد أن يبلوكم ايكم أحسن عملاً » . وتقديم مثله مع التفسير مفصلاً في الآية ٢٤٥ من سورة البقرة ج ١ ص ٣٧٤ .

باطنه الرحمة وظاهره العذاب الآية ١٢ - ١٥ :

يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ

بُشْرَاكُمْ يَوْمَ بِنْتِ الْجَدَّةِ فَتَحْبِرَنَّهُمْ قَوْلُ الْمَلَائِكَةِ وَتَعْلَمُونَ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١٠٠﴾
 الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا
 نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ
 بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٠٢﴾
 يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ
 وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّبْتُمْ الْأَمَانِي حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَظْتُمْ بَإِلَهِ الْغَرُورِ ﴿١٠٣﴾
 قَالِيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ
 هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٠٤﴾

اللغة :

النظر يأتي للرؤية بالبصر ، وللتأمل بالفكر ، ويأتي أيضاً بمعنى الرحمة تقول :
 انظرنني بضم الظاء أي ارحمني ، ومنه قوله تعالى : « ولا يكلمهم الله ولا ينظر
 اليهم يوم القيامة - ٧٧ آل عمران » وغير بعيد أن يكون معنى « انظرونا » في
 الآية من هذا الباب ، واذا قلت : انظرنني بكسر الظاء فالعنى امهلني ومنه :
 « قال انظرنني الى يوم يبعثون - ١٤ الأعراف » . والمراد بنقبتس هنا نستضيء
 وأصله من القبس أي الشعلة من النار . والمراد بالسور الحاجز ، وبالرحمة هنا
 الجنة . ومن قبله من جهته . وفتنتم أنفسكم أهلكنموها . وتربصتم انتظرنم . وارتبتم
 شككنم . والغرور الشيطان . ومولاكم ناصركم .

الإعراب :

يوم ترى متعلق بكريم في آخر الآية السابقة ويجوز أن يتعلق اليوم بفعل مقدر أي اذكر يوم ترى . وبشراكم اليوم جنات مبتدأ وخبر لأنه بمعنى الذي تُبشرون به اليوم جنات مثل طعامك اليوم كذا . ويوم يقول بدل من يوم ترى لأن المراد باليومين واحد وهو يوم القيامة . ونقتبس مجزوم بجواب الأمر وهو انظرونا .

المضى :

في الآية السابقة قال سبحانه : ان من آمن وأنفق في سبيل الله لوجهه تعالى يضاعف له الجزاء ، وله أجر كريم، وهنا بيّن سبحانه هذا الأجر الكريم بقوله : (يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسمى نورهم بين أيديهم وبأيمنهم) . كان المتقون الباذلون يسرون في الدنيا على هدى من ربهم .. وفي يوم الحساب والجزاء شع من هذا الهدى الإلهي نور مادي محسوس كما تومئ كلمة ترى وكلمة بأيمنهم أي ترى نورهم بعينيك تماماً كما ترى نور المصباح المحمول باليد، ويتحكم به حامله كيف يشاء .. وبكلام آخر عملوا في الدنيا لهذا النور بجد واخلاص فوجدوه في الآخرة أمامهم يمتد الى مسافات (بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم) . يخرج المهتلون غداً من قبورهم ، ويسرون على نور يكشف لهم طريق الأمان ، وقبل أن يصلوا الى النهاية يأتيهم النداء : ابشروا بالجنة .. وأية بشرى تعادل البشرية بجنة الخلد ونعيمها ؟ . وأي فوز أعظم من هذا الفوز ؟ .

(يوم يقول المنافقون والمناقسات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم) . كان المهتلون في الدنيا على نور من ربهم فهم في الآخرة كذلك : « والذين اهتموا زادهم هدى وآتاهم تقواهم - ١٧ محمد » . وكان المنافقون في ظلمات الأهواء والشهوات فهم يوم القيامة في ظلمات بعضها فوق بعض : « ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً - ٧٢ الإسراء » .. وشاعت حكمته

تعلى أن يرى المنافقون غداً نور المهتدين وهو يسمى بين أيديهم كي يزدادوا المأ على ألم ، ثم يتضاعف الألم حين يستفيث المنافقون بالمؤمنين: ويسألونهم أن يسروا على نورهم (قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً) . هذا هو جواب استغاثتهم: ارجعوا الى صاحبكم الشيطان ، واقتبسوا منه نوراً ، فهو وراءكم اليوم كما كان وراءكم بالأمس .. ان هذا النور لمن عمل في دينه لآخرته ، أما من اشترى الحياة الدنيا بالآخرة فما هو بخارج من الظلمات إلا ما هو أشد .

(فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب). ضمير بينهم يعود الى المؤمنين والمنافقين ، والمراد بالسور الحاجز ، والمعنى ان الله أنعم على المؤمنين بالجنة ، وانتقم من المنافقين بعذاب النار ، وبين الجنة والنار حاجز ، له جانبان : باطن غير منظور ، وهو يلي المؤمنين ، وظاهر منظور وهو يلي المنافقين وغيرهم من المجرمين ، والأول فيه الجنة ، والثاني من جهته جهنم

(ينادونهم ألم نكن معكم) ؟ يقول المنافقون للمؤمنين بلسان الحال أو لسان المقال ، يقولون لهم : كُنَّا فِي الدُّنْيَا نَصُومُ وَنُصَلِّيُ وَنُفَعَلُ مَا تَفْعَلُونَ فَلِمَ إِذْ دَخَلْنَا الْجَنَّةَ ، ودخلنا النار ؟ (قالوا بلى ولكن فتنم أنفسكم) . أجابهم المؤمنون : أجل ، كنتم معنا وصمتم وصليتم مثاننا ، ولكن أهلكم أنفسكم بالكذب والنفاق (وتربصتم) الدوائر بالمؤمنين (وارتيبتم) برسول الله وأقواله (وغرتمكم الأمانى) حين ظننتم أن خداعكم ونفاقكم يمر بسلام ومن غير حساب وعقاب (حتى جاء أمر الله) وهو لقاؤه تعالى وحسابه وجزاؤه (وغرتمكم بالله الغرور) وصدقتم الشيطان في وعده بسلامتكم من غضب الله وعذابه .

(فاليوم لا يؤخذ منكم فدية) ولا تقبل منكم توبة ولا مهرب لكم من العذاب : فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افترقوا به أولئك لهم عذاب ألم وما لهم من ناصرين - ٩١ آل عمران . (ولا من الذين كفروا) . وأيضاً لا تقبل الفدية والتوبة من الذين أظهروا الكفر وجأهروا به ، ولم يخادعوا وبنافقوا كما خادعتم وناقضتم (ماؤاكم النار هي مولاكم وبئس المصير) . أبداً لا تنم ولا ناصر لكم إلا جهنم (وبئس المصير) مصيركم ومآلكم .

أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ
وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ
فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ * إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ
بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * إِنَّ الْمُصَدِّقِينَ
وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ
كَرِيمٌ * وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ
رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ
أَصْحَابُ الْجَحِيمِ *

الغزة :

ألم يأن أي ألم يحسن، تقول حان حينه أي جاء أو قرب وقته. المصدقين والمصدقات
قريء بتخفيف الصاد على معنى المؤمنين والمؤمنات ، وقريء بتشديدها على معنى
المصدقين والمصدقات بأموالهم . والصادقون جمع صديق ، ويطلق على من دام
على الصديق حتى كأنه سجية له .

الإعراب :

المصدر من أن تخشع فاعل يأن على حذف مضاف أي ألم يأن وقت الخشوع .
وما نزل عطف على ذكر الله . وكالذين الكاف بمعنى مثل خبراً ليكونوا . وجملة

سورة الحديد

يضاعف خبر ان المصدقين . والذين آمنوا مبتدأ وأولئك مبتدأ ثان و «هم» ضمير فصل والصديقون خبر المبتدأ الثاني والجملة خبر الأول . والشهداء مبتدأ وجملة لهم أجرهم خبر .

المعنى :

(ألم بأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق) . عطف ما نزل من الحق على ذكر الله من باب عطف التفسير إذ لا تغاير بين المعطوف والمعطوف عليه إلا باللفظ والعنوان ، والمراد بالذين آمنوا في الآية فئة منهم ، وقيل بيانها تقدم بأن الإيمان يختلف قوة وضعفاً ، فمن إيمان من وجبت له العصمة ولا تجوز عليه المعصية كالأنبياء الى إيمان صفوة الصفوة كبعض الصحابة الى من هو دونهم بدرجة .. الى أدنى درجات الإيمان .

والمراد بالذين آمنوا هنا من اكتمل من الدين والإيمان بالقشور دون اللباب ، وبالظاهر دون الواقع ، ولا يعنيه شيء من أمور الناس والصالح العام . وقد نبه سبحانه هذه الفئة من المؤمنين الى ما أنزله في كتابه من آيات الجهاد ، والحث على إقامة العدل ، ونصرة الحق وأهله ، والاصلاح بين الناس، نهيمهم الى حقيقة الدين والإيمان بهذا الأسلوب الودود الرحيم : « ألم بأن » لعلمهم بسمعون ويعقلون .

(ولا يكونوا كالذين اوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم) . أهل الكتاب هم اليهود والنصارى ، وقست قلوبهم كناية عن إعراضهم عما أنزل الله في التوراة والانجيل ، والمعنى : ان اليهود انقلبوا على أعقابهم بعد موسى ، وكذلك النصارى بعد عيسى فلا تنقلبوا أنتم أيها المسلمون بعد محمد (ص) كما انقلب أهل الكتاب من قبل ، ومثله قوله تعالى : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم - ١٤٤ آل عمران » . (وكثير منهم فاسقون) . المراد بهؤلاء الكثير رؤساء اليهود والنصارى الذين حرفوا التوراة والانجيل حرصاً على مناصبهم ومكاسبهم .

(اعلموا ان الله يحيي الأرض بعد موتها) . قال كثير من المفسرين : ان

الجزء السابع والعشرون

هنا تشبيه للقلوب القاسية بالأرض الميتة ، وانه تعالى كما يحبي هذه بالمطر كذلك يهدي القلوب القاسية بالموعظة .. وفي رأينا انه تهديد للذين ينقلبون على أعقابهم بعد محمد (ص) وانه تعالى سيحييهم تماماً كما يحبي الأرض، ويجزيهم على ارتدادهم بعد نبیهم ، ويؤيد ارادة هذا المعنى قوله تعالى بلا فاصل : (قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون) . انكم مسؤولون يوم القيامة عما أحدثتم بعد رسول الله (ص) .

(ان المصدقين والمصدقات واقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعف لهم ولهم أجر كريم) . المراد بالمصدقين والمصدقات المتصدقون والمتصدقات ، وبالقرض الحسن الصدقة لوجه الله تعالى ، وعليه فلا تكرار ، والمراد بالأجر الكريم أن يسمى نورهم بين أيديهم يوم القيامة بالإضافة الى الحور والقصور وما أشبه . وتقدم مثله في الآية ١١ من هذه السورة و ٢٤٥ من سورة البقرة ج ١ ص ٣٧٤ (والذين آمنوا بالله ورسوله) وعملوا بموجب إيمانهم (اولئك هم الصديقون) أي الذين داوموا على الصدق في إيمانهم قولاً وعملاً ، والصدق سبيل النجاة من كل هلكة .

(والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم) . الشهداء هم الذين يُقتلون في سبيل الله ، أما أجرهم عند ربهم فقد بينه سبحانه بقوله : « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والانجيل والقرآن - ١١١ التوبة » . أما نورهم فقد أشار اليه سبحانه بقوله : « يسمى نورهم بين أيديهم - ١٢ الحديد » . وقال الرسول الأعظم (ص) : « ما من أحد يدخل الجنة ، ثم يجب أن يخرج منها الى الدنيا ولو كانت له الأرض بما فيها إلا الشهيد ، فإنه يتمنى أن يرجع الى الدنيا ، فيقتل عشر مرات لما رآه من الكرامة عند الله » . (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم) . هذا على عادة القرآن الحكيم ، يقابل التنصين بالمجرمين ، وثوابهم بعقابهم بقصد الترغيب والترهيب .

إِعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي
 الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَأُهُ ثُمَّ يَيْسُجُ فَتَرَاهُ
 مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ
 وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ * سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ
 رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ
 وَرَسُولِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ * مَا
 أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ
 أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا
 تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * الَّذِينَ يَبْتَخُلُونَ
 وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ *

اللغة :

الكفار جمع كافر ، ويطلق على من كفر بالله ، وعلى الحارث لأنه يكفر
 الحب بالتراب أي يستره به وينطيه . ويهيج يحف . والحطام المشيم . ولا تأسوا
 لا تحزنوا . ومختال من الخيلاء وهو العجب والتكبر . وفخور أي امتدح نفسه
 بحميد الصفات وباهى بها .

الإعراب :

كمثل الكاف زائدة اعراباً ومثل صفة للدنيا أو خبر بعد خبر . وفي كتاب متعلق بمحنوف خبراً لمبتدأ محنوف أي الا هي كائنة أو مكتوبة في كتاب لكيلا تأسوا كي ناصبة للفعل واللام جارة والمجرور بها متعلق بما تعلق به في كتاب . الذين يبخلون بدل من كل محتال فخور .

المضي :

(اعلموا انما الحياة الدنيا لعب وهو وزينة وتفانحينكم وتكاثر في الأموال والأولاد) . تقدم مثله في العديد من الآيات ، منها الآية ٣٢ من سورة الانعام . والدنيا المنمومة في كتاب الله وعلى لسان أنبيائه هي التي تُطلب للشهوات والملذات ، ولزهو والهوى ، وللكبرياء والحيلاء ، أما الدنيا التي تُقضى بها حوائج المحتاجين ، وتدفع بها ظلامة المظلومين ، وينتفع بها عباد الله وعياله فهي من الآخرة لا من الدنيا المنمومة، ومن تتبع أي الذكر الحكيم يجد أن ثواب الله وقف على من آمن وعمل صالحاً في هذه الحياة ، وأدى الحقوق والواجبات ، وانه لا وسيلة الى السعادة الأخرى إلا العمل النافع في الحياة الدنيا .

(كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً) . هذا الوصف يصلح للدنيا لأنها لا تدوم على حال .. انها تخضر وتصفى ، وتقسو وتلين ، وتعطي وتمنع .. ولو أعطت الانسان كل ما أحب وأراد فلإنها عما قليل تسلبه كل شيء حتى نفسه وأهله .. وأيضاً يصلح هذا الوصف للانسان في الحياة الدنيا .. انه يشب ويقوى عظمه ويشد لحمه ، وينضج لونه .. ثم يدب فيه الوهن فينوب منه اللحم ، ويدق العظم ، ويصفى اللون ، ويتقل في كل يوم من سيء الى أسوأ حتى يتحطم ويضمحل .. وإذا كان هذا شأن الدنيا . وشأن الانسان فيها فأولى له ثم أولى ان يعمل لحياة دائمة لا يفنى نعيمها ولا يهرم مقبها .

(وفي الآخرة حطاب شديد ومغفرة من الله ورضوان) . بعد أن ذكر سبحانه ان الدنيا لا يدوم لها رخاء ولا عناء ذكر ان الآخرة ثابتة على وتيرة واحدة . نعيمها

سورة الحديد

دائم ، وججيمها دائم ، لأن سبب النعم رضوان الله ، وسبب الجحيم غضبه تعالى ، وكن منها قائم بقيام سببه (وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) . نقل الرزقي عن الصحابي الجليل سعيد بن جبير انه قال عند تفسير هذه الآية : . دنيا متاع الغرور إذا أهلكك عن طلب الآخرة ، أما إذا دعيتك الى طلب رضوان الله وطلب الآخرة فتمتع المتاع ونعم الوسيلة . وهذا الصحابي من تلامذة رسول (ص) المقربين .

(سابقوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسوله) . المراد بالمغفرة هنا سببها كالتوبة والعمل الصالح . وقال بعض المفسرين : إذا كان عرضها كذلك فما ظنك بطولها ؟ . وقال آخر : ان المراصد الحديثة كشفت ان أبعاد الكون لا حدود لها ، وعليه فالمراد العرض حقيقة لا مجازاً !.. وبالرغم من هذا الكشف فنحن لا نفهم من العرض هنا إلا التعبير عن عظمة الجنة وسعتها لا تقدير مساحتها حقيقة . وتقدم مثله في الآية ٣٣ من سورة آل عمران ج ٢ ص ١٥٦ (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) على الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون ، وليس من شك ان الطاعة سبب للمزيد من فضله ، بل هي السبب لفضله ورضوانه في يوم الفصل.

(ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها ان ذلك على الله يسير) . ضمير نبرأها يعود إلى أنفسكم ، والمعنى الظاهر من هذه الآية ان المصائب بكاملها هي من الله سواء أكانت من نوع الكوارث الطبيعية كالتزلازل والفيضانات ، أم كانت اجتماعية كالحروب والفقر والعدوان .. وهذا غير مراد قطعاً بحكم الوحي والعقل ، وفيما يلي التوضيح :

المصائب وصاحب الظلال :

قال صاحب الظلال عند تفسير هذه الآية : اللفظ على إطلاقه اللغوي لا يختص بغير أو بشر فكل مصيبة تقع في الأرض كلها وفي النفس البشرية أو المخاطبين هي في ذلك الكتاب الأزلي من قبل ظهور الأرض وظهور الأنفس .

الجزء السابع والعشرون

وتسأل : صاحب الظلال : اذا كنت تعتمد حقاً على ظاهر اللفظ واطلاقه اللغوي فلماذا لم تعتمد على ظاهر اللفظ واطلاقه ، وأنت تفسر هذه الآية : «وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم - ٣٠ الشورى » ؟ وهل نسيت انك قلت في تفسيرها ما نصه بالحرف الواحد : « فكل مصيبة تصيب الانسان لها سبب بما كسبت يدها - المجلد السابع الجزء الخامس والعشرون من القرآن الكريم ص ٣٨ » وهل تعتمد على الظاهر من كل آية واطلاقها اللغوي الحقيقي حتى ولو كان بين الآيتين تناقض بحسب الظاهر والاطلاق اللغوي ؟ وأيضاً هل تعتمد على هذا الظاهر اذا اصطدم مع حكم العقل والواقع ودل على ان الله يبدأ ووجهاً وسمماً وبصراً ؟ . وهل الصهيونية والاستعمار اللذين هما مصدر المصائب والادواء في هذا العصر ، هل هما من الله لا من الصهابة والمستعمرين ؟ .

ان التناقض بين الآيات حقيقة وواقعاً وتصادم احداها مع حكم العقل - مستحيل على القرآن وفي القرآن .. كيف وهو من لدن حكيم عليم ؟ فإذا تصادم ظاهر آية مع آية أخرى أو مع حكم العقل علمنا ان هذا الظاهر على اطلاقه غير مراد لله تعالى ، وانه انما أطلق اللفظ اتكالاً على ما عرّف من عاداته في التعبير كتعبيره عن اليهود والنصارى بأهل الكتاب ، أو على ما هو معروف بحكم العقل كالتعبير عن قدرته تعالى باليد أو على آية أخرى من كلامه كآية الشورى التي تقول : «وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » والآية ١١٧ من سورة آل عمران : « وما ظلمهم الله ولكن انفسهم يظلمون » والآية ٤١ من سورة الروم : « ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس » . فإن هذه الآية وما في معناها قرينة قاطعة على ان الاطلاق اللغوي في آية سورة الحديد غير مراد، وان الله سبحانه قد اطلق في سورة الحديد اتكالاً على ما قاله في سورة الشورى وسورة آل عمران وسورة الروم ، وعليه فالمراد بمصيبة الأرض في سورة الحديد الكوارث الطبيعية كالزلازل وبمصيبة النفس بعض الأمراض التي لا تُجدي معها وقاية ولا حذر ، ونحو ذلك ، أما آيات الشورى وآل عمران والروم فالمراد بها المصائب التي هي من صنع الانسان لا من صنع الرحمن كالظلم والحرب والجوع .

(لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم) . قال الإمام علي (ع) :

الزهد كله بين كلمتين من القرآن ، ثم تلا هذه الآية وقال : « ومن لم بأس على الماضي ولم يفرح بالآتي فقد أخذ الزهد بطرفيه . » وما من أحد إلا يحزن ويفرح حتى الأنبياء ، والقصد من النهي أن لا يدخله الفرح في باطل ولا يخرجه الحزن عن الحق . فقد ثبت عن الرسول الأعظم (ص) انه قال عند موت ولده ابراهيم : « تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضي ربنا . وإنا بك يا ابراهيم لمحزونون . »

(والله لا يحب كل مختال فخور) . ولا شيء أدل على الجهل من الكبرياء والمباهاة . وفي نهج البلاغة : « ما لابن آدم والفخر ؟ أوله نطفة ، وآخره جيفة ، لا يبرزق نفسه . ولا يدفع حثفه ! (الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل) . البخل جبان ولثيم . أما من يغل وأمر الناس بالبخل فهو من المنسيين بقوله تعالى : « مناع للخبر معتدٍ أثيم عتلٍ بعد ذلك زنيم - ١٣ القلم . العتل الجاف والزنيم الدعي . قال الرازي هذه صفة اليهود . (ملاحظة توفي الرازي سنة ٦٠٦ هـ) . وتقدم مثله في الآية ٣٧ (النساء) ج ٢ ص ٣٢٣ (ومن يتولّ فإن الله هو الضيّ الحמיד) . لا يضرب البخل إلا نفسه ، والله سبحانه لا تضربه معصية من عصى ، ولا تنفعه طاعة من أطاع . وتقدم مثله في الآية ٣٨ من سورة محمد .

الحديد فيه بأس شديد الآية ٢٥ - ٢٩ :

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ
النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ
اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرَسُولَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا
نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمُ النَّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُنْتَدٍ وَكَثِيرٌ
مِنْهُمْ فَاسِقُونَ * ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ

وَأَتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابِيَّةً
 ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ
 رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ *
 يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ
 رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ *
 لَيْلًا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ
 الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ *

الذمة :

قينا أي ان الله أرسل الأنبياء الواحد تلو الآخر . الرهبانية من الرهبة ، وهي
 الخوف ، والمراد بها هنا طريقة خاصة بالنصارى . وابتدعوها استحدثوها من
 تلقائهم . والكفل النصيب .

الإعراب :

فيه بأس شديد مبتدأ وخبر ، والجملة حال من الحديد . ورسله مفعول لفضل
 محذوف دل عليه الفعل الموجود أي وينصر رسله ، وقد حذف من الثاني لدلالة
 الأول عليه على حد قول النحاة . ورهبانية مفعول لفضل محذوف أي ابتدعوا
 رهبانية ابتدعوها وهنا حذف الأول لدلالة الثاني عليه . وجملة ما كتبناها صفة
 لرهبانية . وحتى مفعول مطلق لأنه مضاف الى مصدر الفعل . يؤتكم مجزوم بانقواء.

سورة الحديد

لئلا: «لا» زائدة أي ليعلم . ان لا يقدرון « ان » مخففة من الثقيلة واسمها محذوف أي أنهم لا يقدرون . وأن الفضل عطف على ان لا يقدرون .

المعنى :

(لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط). كل ما تُعرف به الحقيقة فهو ميزان سواء أكان وحياً أم عقلاً أم حساً كالتجربة والمشاهدة . وعليه يكون عطف الميزان على الكتاب من باب عطف العام على الخاص مثل قوله تعالى : « وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم - ٨٤ آل عمران » . والمعنى ان الله أرسل الأنبياء بالحجج الدالة على نبوتهم ورسالتهم ، وبما يهدي الناس الى الحق والعدل ليستقيموا على صراطه القويم .

(وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس) . قال المفسرون القدامى عند تفسير هذه الآية : ان الحديد قوة في الحرب يتخذ الناس منه سيفاً للضرب ، ودرعاً للدفاع ، وأيضاً يتخذون منه السكن والنفاس والابرة ، وما هذه الأمثلة إلا انعكاس لعصرهم وحياتهم ، ولو كنا في زمانهم لثنا بأمثلتهم . ولو كانوا في زماننا لقالوا : ان الحديد هو عصب الحياة في شتى النواحي ، فمنه وسائل المواصلات برّاً وبحراً وجواً . والأدوات التي لا غنى عنها لغني أو فقير ، وبه تقوم الجسور والمعابر والسدود والخزانات ، ولولاه لما عرف الناس الكهرباء والبرق . وهو الأساس لكثير من العلوم الحديثة ، بل هو كل شيء في المعامل والمصانع التي تقوم عليها حضارة القرن العشرين .

(وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب) أي وينصر تعاليم رسل الله ، وان لم يشاهدكم بالذات .. وكل شيء في هذه الحياة فيه جهتان : ايجابية وسلبية ، مفعمة ومضرة ، وإذا كان للحديد هذه المنافع في خدمة الانسان فإن فيه أيضاً الاستعداد التام للقضاء على الانسان وملاكه ، فلقد كانت القتل قبل اكتشاف الحديد تُعد بالعشرات في الحروب فأصبحت اليوم تعد بالملايين .. وما القلق والاضطراب والخوف الذي يعيش فيه الشرق والغرب ، ولا الدماء التي تجري أنهرأ في

الجزء السابع والعشرون

كمبوديا ولاوس وفيتنام وغواتيمالا والشرق الأوسط ، ما هذه الولايات وغيرها إلا نتيجة تسلح قوى الشر بالحديد ، واستخدامه ضد الشعوب والحركات التحررية .

وبهذا ندرك السر لقوله تعالى : « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب » . انه سبحانه خلق الحديد ليمحص به عباده ، ويمتحن ما في قلوبهم من خير وشر ، ويظهره علناً إلى عالم الوجود والعيان كي يميز الخبيث الذي يتخذ من القوة أداة لأهوائه وأغراضه ، يميزه من الطيب الذي يرى القوة نعمة من الله فيستغلها لمنفعة الناس شكراً لله على نعمته (ان الله قوي عزيز) ينتمى من الطغاة الظلمة بأيدي المحقين الذين لا يتغنون من هذه الحياة إلا الحرية والعدل والعيش مع الجميع في هدوء وأمان .. ونحمد الله سبحانه على ان الثورة على الظلم تقوم اليوم في كل طرف من أطراف الأرض ، وليس من شك ان هذه الثورات قوة إلهية ، لا مرد لها ما دامت تبتغي الحق والعدل .. أما جزاء الطغاة في الآخرة فجهنم وبئس المصير .

(ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب) . أرسل سبحانه كلاً من نوح وإبراهيم داعياً إلى الحق ، فبلغ رسالات ربه ، وجاهد في الله أعداءه ، وكان من أمر نوح ما تقدم في سورة هود الآية ٢٥ - ٤٩ ومن أمر إبراهيم ما جاء في سورة الأنبياء الآية ٥١ - ٧٤ (فنهم مهتد وكثير منهم فاسقون) . ضمير منهم يعود إلى ذريتهما ، وكان البعض من هذه الذرية من الطيبين ، أما أكثرهم أو الكثير منهم فكان بلا دين ولا ضمير تماماً شأن أبناء علماء الدين (ثم قمينا على آثارهم برسلنا) . أرسل سبحانه بعد نوح وإبراهيم كثيراً من الرسل ، منهم هود وصالح وموسى (وقمينا بعيسى ابن مريم وآتيناها الإنجيل) . توالت الرسل حتى انتهوا إلى عيسى (ع) ، ومعه الإنجيل ، وكان فيه آنذاك الهدى والنور (وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رافة ورحمة) وهم الذين أطاعوا السيد المسيح وعملوا بتعاليمه نصاً وروحاً، وما حرفوها على ما تهوى أنفسهم . وتوهم إلى ذلك كلمة « اتبعوه » . أنظر تفسير الآية ٨٢ من سورة المائدة ج ٣ ص ١١٤ .

سورة الحديد

(ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها) . إلا هنا بمعنى لكن ، وفي الكلام تقديم وتأخير ، ومعناه ان هذه الرهبانية ما أنزل الله بها من سلطان ، ولكن رؤساء النصارى ابتدعوها من عند أنفسهم زاعمين انها تقرّبهم من الله زلفى لأنها عزوف عن الدنيا وملذاتها .. وعلى الرغم انه تعالى ما أمرهم بها ، وانه أحل لهم الزينة والطيبات من الرزق فإنهم لم يلتزموا بما ألزموا به أنفسهم من الزهد ، بل اتخلّوا منها وسيلة للشهرة وتولي المناصب .. وتدل هذه الآية على انه لا رهبانية في الاسلام ، ولا في الديانة التي جاء بها السيد المسيح .

(فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم) وهم العيسويون حقاً وصدقاً الذين يعتقدون قولاً وعملاً ان المسيحية محبة ورحمة ، ونزاهة وانسانية ، لا تعصب وأحقاد ، ولا ظلاماً واستغلالاً ، ولا حروباً وانقلابات ، ولا اثاره الفتن والنمرات ، ولا قتابل ذرية وأسلحة كيمياوية ، ولا شعارات كاذبة للدفاع عن الحرية ، ولا نشر الملح والقلق والخوف في قلوب عباد الله وعياله (وكثير منهم فاسقون) . وفي طليعتهم قادة الاستعمار الجديد وأعداء الانسانية رقم ١٥ الذين تنطبق عليهم جميع الصفات التي سلبناها عن العيسويين حقاً وصدقاً .

(يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله) . أي يا أيها الذين اعترفوا بالله ورسوله عملوا بموجب اعترافكم ، ولا يكن عملكم مكذباً لأقوالكم (وآمنوا برسوله) . أطيعوا محمداً (ص) وسيروا على نهجه وهديه (يؤتكم كفلين من رحمته) . الكفل النصيب ، والمراد بالرحمة هنا الثواب ، والمعنى من آمن بالله ورسوله وعمل بموجب ايمانه فله عند الله ثوابان : ثواب على ايمانه، وثواب على العمل بموجبه . (ويجعل لكم نوراً تمشون به) يوم القيامة، ومن لم يجعل الله له في هذا اليوم نوراً خبط سادراً في ظلمات لا يخرج منها إلا الى ما هو أعظم وآلم .

(ويغفر لكم والله غفور رحيم) يغفر ما أسلفتم من المعاصي لأنه هو الغفور الرحيم . قال ابن عربي في الفتوحات : ه ما قرن سبحانه المفضرة بتوبة ولا بعمل صالح فلا بد من شمول الرحمة والمفضرة لمن أسرف على نفسه ، ولا يكتر شيء على رحمته التي وسعت كل شيء (لتلا يعلم أهل الكتاب أن لا يقدرّون على شيء

الجزء السابع والعشرون

من فضل الله (الله لا ينالون يوم القيامة شيئاً من فضل الله ، ومحصل المعنى ان الله سبحانه يخفر غداً للذين آمنوا بمحمد ، ومن أحسن عملاً يؤتیه أجره مرتين لأنه تعالى جواد كريم، وأيضاً ليعلم اليهود والنصارى الذين رفضوا الإيمان بمحمد(ص) أنه لا نصيب لهم من مغفرة الله ورحمته لأنهم استكفوا عن تصديق نبيه الكريم محمد (ص) (وان الفضل بيد الله يؤتیه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) يتفضل به على الذين آمنوا بمحمد (ص) ولا مرد لما أراد لأن بيده ملكوت كل شيء ، وهو على كل شيء قدير .

الجزء الثامن والعشرون

سورة المجادلة

٢٢ آية مدنية ، وقيل غير ذلك .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الظاهر الآية ١ - ٤ :

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ
يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ
نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ
مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ * وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ
مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَّأْسَا
ذَلِكَ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ
شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَّأْسَا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِإِطْعَامُ سِتِّينَ
مَسْكِينًا ذَلِكَ لِتَوَمَّنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَلِكُ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ
عَذَابٌ أَلِيمٌ *

اللفظ :

المراد بسمع هنا استجاب . وتجادلك تحاورك وتراجعك الكلام . والظاهر أن

سورة المجادلة

يقول للرجل لزوجته : انت عليّ كظهر أمي ، يريد انها حرام عليه كأمه ويأتي التفصيل . ومنكرأ أي ان الدين ينكره وبأباه . وزوراً لأن الزوجة غير الأم . يعودون لما قالوا أي ينقضون ما قالوه ويرجعون . وتحرير رقبة ان تمتع عبداً . وحدود الله شريعته وأحكامه .

الإعراب :

الذين يظاهرون منكم مبتدأ ، و « ما » تعمل عمل ليس وهن اسمها وامهاتهم خبرها ، والجملة خبر الذين . ومنكرأ صفة لمفعول مطلق محذوف أي مولاً منكراً والذين يظاهرون من نسائهم مبتدأ . وتحرير رقبة مبتدأ والخبر محذوف أي فعلهم تحرير رقبة ، والجملة خبر الذين يظاهرون . والمصدر من لتؤمنوا متعلق بمحذوف خبراً لذلك .

ملخص القصة :

اتفق المفسرون على ان هذه الآيات نزلت في حادثة معينة ، وملخصها ان رجلاً من الصحابة غضب على زوجته ، فقال لها : : انت عليّ كظهر أمي ، وكان هذا طلاقاً عند أهل الجاهلية ، فحزنت المرأة وندم الرجل على تسرعه ، فقال لزوجته : اذهبي الى النبي (ص) واخبريه بما حدث فأنا أستحي ان أسأله .

فذهبت وقصت على رسول الله ما حصل ، فقال لها : ما أمرنا الله في شأنك بشيء . ولكنها راجعت الرسول (ص) وألحت ، فإذا دافعها هضت قائلة: اشكو الى الله فاتقي وحاجتي ، فاستجاب دعائها ، وانزل هذه الآيات . وتتفق هذه القصة مع ظاهر الآيات ، ومهما يكن فانها الأصل في جعل الظهار باباً من أبواب الفقه عند المسلمين .

المعنى :

(قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي الى الله والله يسمع تحاوركما ان الله سميع بصير) . يقول سبحانه لنبيه الكريم : قد علم الله حال المرأة وما راجعتك به من الكلام في أمر زوجها ، وأيضاً علم شكواها الى الله واستغاثتها به ، وقد استجاب دعاءها ورحم تضرعها (ان الله سميع بصير) لا تخفى عليه خافية ، ثم بيّن سبحانه حكم هذه الحادثة وأمثالها بقوله :

١ - (الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن امهاتهم ان امهاتهم الا اللاتي ولدنهم وانهم ليقولون منكراً من القول وزوراً) . الظهار محرم في دين الله لأنه كذب مخالف للواقع ، وكيف تكون الزوجة امّاً ؟ ان امهاتهم الا اللاتي ولدنهم . (وان الله لعفو غفور) لمن تاب وأتاب ، وقال بعض الفقهاء : ان الظهار محرم ما في ذلك ريب لأن الله وصفه بالمنكر والزور ، ولكن لا عقاب على فاعله لأنه اقترن بالفضو . وردّ الشهيد الثاني هذا القول بأن العفو في الآية عام ولا يختص بالظهار .

٢ - (والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يأتوا) . يعودون لما قالوا أي يظاهرون ثم يندمون. ويرجعون عن قولهم. قال ابن هشام في المعنى : تأتي اللام بمعنى عن كقوله تعالى : « ولا أقول للذين ترددي أعينكم لن يؤتيتهم الله خيراً - ٣١ هود » أي لا أقول عن الذين الخ . وأيضاً تأتي بمعنى في كقوله تعالى : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة - ٤٧ الانبياء » أي في يوم القيامة ، وعليه يكون المعنى يعودون فيما قالوا أو عما قالوا. واختلف الفقهاء في المراد بالميسر ، فقال جماعة : المراد به كل ميسر أخذاً بالاطلاق اللغوي . وقال آخرون : المراد به خصوص المضاجعة . وليس هذا بعيد عن طريقة القرآن فقد جاء في الآية ٢٣٧ من سورة البقرة : « من قبل أن تمسوهن » أي تضاجعهن باتفاق الفقهاء .

(ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير) . ذلكم اشارة الى وجوب الكفارة على الظهار ، والمراد بالوعظ هنا الزجر ، والمعنى ان الله سبحانه فرض الكفارة

سورة المجادلة

في الظهار لتكون زاجراً ورادعاً عن الإقدام عليه لأنه منكر وزور ، والله يعلم المطيع والمعاصي من عباده ويعامل كلاً بما يستحق .

٣ - (فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتأسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً) . انفقوا على أن من قال لزوجته : أنت علي كظهر أمي فلا يحل له وطؤها حتى يكفر بعنت رقبته ، فإن عجز عن العتق صام شهرين متتابعين ، فإن عجز عن الصيام أطعم ستين مسكيناً ، وأيضاً انفقوا على أنه إذا وطأها قبل أن يكفر يعتبر عاصياً ، ولكن الامامية أوجبوا عليه . والحال هذه ، كفارتين .

واشترط الامامية لصحة الظهار أن يقع بحضور عدلين يسمعان قول الزوج ، وأن تكون الزوجة في طهر لم يواقعها فيه تماماً كما هو الشأن في المطلقة، كما اشترط المحققون منهم ان تكون مدخولاً بها، وإلا فلا ظهار . والتفصيل في كتب الفقه .
(ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله) . سهل سبحانه شريعته على عباده ليؤمنوا بها ، ولتكون حجة بالغة على من خاصمها وأعرض عن أحكامها (وتلك حدود الله) فقفا عندنا ولا تعدوها (وللكافرين عذاب أليم) بتحديثهم شريعة الله وأحكامه ، وفيه إيماء الى ان من خالف الشريعة الإلهية فهو بحكم الكافر .

النجوى الآية ٥ - ١٠ :

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ * يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أُنْحَاصَهُ اللَّهُ وَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ

وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ آيَاتِنَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ
 إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ
 يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِنْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ
 وَإِذَا جَاؤَكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحْيِكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا
 يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا فَيَنْسَ الْمَصِيرُ * يَا أَيُّهَا
 الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَنَاجَوْا بِالْإِنْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ
 الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ *
 إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً
 إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ *

الغزة :

مجادون مخالفون ويعادون . والكبت القهر والذل . والنجوى والمناجاة سرأ بين
 اثنين أو أكثر ، وأيضاً تطلق على المتناجين مثل هم نجوى . وحسبهم كافيههم .

الإعراب :

جميعاً حال من ضمير يبعثهم أي مجتمعين . و « ما » نافية ، ويكون تامة
 و « من » زائدة ونجوى فاعل وثلاثة مجرورة بالاضافة . ولولا بمعنى هلا .
 وجهن مبتدأ مؤخر وحسبهم خبر مقدم . واسم ليس ضمير مستتر يعود الى الشيطان .
 وبضارهم الباء زائدة وضارهم خبر ، وشيئاً مفعول مطلق لضارهم .

المعنى :

(ان الذين يحادون الله ورسوله كتبوا كما كتبت الذين من قبلهم) . بعد ان ذكر سبحانه حدود الله هدد من يتجاوزها، ووصفهم بالمخالفة والعداء لله ورسوله ، وان عقابهم القهر والخزي تماماً كعقاب الذين فعلوا ذلك من الأمم الماضية (وقد أنزلنا آيات بينات للكافرين وللكافرين عذاب مهين) . أقام سبحانه الدلائل الواضحة على وجوده ونبوة رسوله (ص) وبيّن حلاله وحرامه ، وهذه الدلائل هي بالذات تدل أيضاً على ان طاعة الله والرسول فرض ، وان من خالفها يستحق العذاب الذي يهينه ويخزيه على رؤوس الأشهاد (يوم يعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد) . يجمع الله الخلائق غداً للحساب والجزاء على ما كانوا يعملون ، واذا نسي المجرمون ما اقترفوا من الذنوب والسيئات كلها أو بعضها فإن الله قد أحاط بها علماً فيخزيهم بما صنعوا ويذيقهم وبال أمرهم بالحق والعدل ، وهم لا يظلمون .

(ألم تر ان الله يعلم ما في السموات وما في الأرض) . ألم تعلم يا محمد ان الله لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ، وتعلم أيضاً (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعمهم ولا خسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أبنا كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة) . قوله تعالى : « ولا أدنى من ذلك » إشارة الى ما دون الثلاثة ، وقوله : « ولا أكثر » إشارة الى ما فوق الخمسة . وقال جماعة من المفسرين : ان قوماً من اليهود والمنافقين كانوا يجتمعون وينالون في الخفاء من مقام الرسول الأعظم (ص) والصحابة ، فترلت فيهم هذه الآية .. وليس هذا يبعد فان ظاهر الآية يومئذ اليه، والاعتبار يؤيده، فإن الغيبة والنجوى بالاثم دأب المنافقين في كل زمان ومكان ، ومهما يكن فان المعنى هو لا تزعجك يا محمد أقوالهم ومناجاتهم بالنيل منك ومن آمن بك، وكيف تهتم وتكثرث وأنت على علم اليقين بأن الله يعلم السر من ضمائر المضميرين ونجوى المتخافتين قلوا أم كثروا ؟ وأيضاً تعلم ان الله يجمعهم غداً ويأخذهم بما كانوا يقولون ويفعلون .. والقصد من ذكر الثلاثة والخمسة مجرد التمثيل بـ (ان الله بكل شيء عليم) حتى تحريك الشفة ورجع الكلمة .

الجزء الثامن والعشرون

(ألم تر الى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول) . يومئذ هذا الى أن النبي (ص) كان قد نصح للمخافتين بنجوى السوء أن يتنهوا ولا يعودوا فلم يقبلوا منه وعادوا تمرداً وعناداً ، فوبخهم سبحانه على معصية الرسول (ص) بصيغة التعجب التي خاطب بها نبيه الكريم تماماً كما تقول لصاحبك : ألم تر الى هذا اللئيم العاق ؟ (واذا جاؤوك حيوك بما لم يحيك به الله) . روي ه ان ناساً من اليهود دخلوا على رسول الله (ص) وقالوا : السام عليك يا أبا القاسم . والسام هو الموت . فقال الرسول ، وعليكم ، فنزلت الآية ، ونحن لا نشك في صحة هذه الرواية لأنها أصلق تعبير عن لؤم اليهود وحقدهم على الحق وأهله (ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول) فعلوا هذا وقالوا : لو كان محمد نبياً لأنزل الله بنا سوء العذاب لجرأتنا على نبيه (حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير) . لا تستعجلوا ما هو كائن ، فإن الله سبحانه قد أعد لكم جهنم وساءت مصيراً ، وان غداً من اليوم قريب .

(يا أيها الذين آمنوا اذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وتناجوا بالبر والتقوى واتقوا الله الذي اليه تحشرون) . ان كثيراً من الناس يؤمنون بالله ، ويصومون له ويصلون حقاً وصدقاً لا كذباً ورياء ، ولكنهم يذهلون عن هذا الايمان في كثير من الأحيان ، ويتناجون بالإثم تماماً كما يفعل المنافقون والكافرون . والخطاب في قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا اذا تناجيتم ، لهؤلاء الداهلين عن ايمانهم ، وقد أمرهم الله سبحانه ان يتناجوا بالخير ، فإنه أليق بالمؤمنين ، ولا يتناجوا بالشر كما هو شأن المنافقين والكافرين .

وكان هذه الآية قد نزلت الآن في بعض الدول ومن اليها من الذين يتظاهرون بالاسلام ، وهم يناصرون اسرائيل في الخفاء ويوالون من يخفي وراءها ، ويغدق عليها أنواع الأسلحة لتقتل بها النساء والأطفال ، وتدمر بيوت الأمنيين وتشردهم من ديارهم وأوطانهم .. وأي نفاق أعظم من ان يدعي مدع انه مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر ، وهو يوالي أعداء الله والانسانية ، ويبارك الظلم والاستغلال ؟ وقد نهى سبحانه المؤمنين عن مناصرة الطغاة ولو بكلمة فقال بالسر ، وأمر بمجاهدتهم بالقول والتعل سراً وجهراً .

(انما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئاً الا ياذن

سورة المجادلة

الله (. المراد بالنجوى هنا نجوى المجرمين بالشر والإثم ، والمعنى ان الشيطان يغري أتباعه بمناجاة سوء بقصد أن يؤذي المؤمنين ويحزنهم ، ولكن المؤمنين في حصن حصين لا تالهم أية مضرة إلا بإرادة الله ومشيئته (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) في جميع أمورهم ، ولا يخشوا الضرر من أحد ، أو يترقبوا النفع إلا منه تعالى . ومن توكل على الشيطان قاده الى المهالك .

فاسفحوا بضح الله لكم الآية ١١ - ١٣ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا
يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانشُرُوا فَاَنْشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا
مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ
ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * أَشْفَقْتُمْ
أَنْ تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ
فَأَقِمْوَا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا
تَعْمَلُونَ *

اللغة :

تفسحوا توسعوا . انشروا انهضوا لتوسعوا للقادمين . والمراد بناجيتهم الرسول

هنا أردتم الحديث معه . فقدموا بين يدي نجواكم صدقة أي تصلقوا بشيء من أموالكم قبل المناجاة . وأشفقتم ختم .

الإعراب :

يرفع مجزوم لأنه جواب الأمر وهو انشزوا أي إن نشزتم يرفع الخ. ودرجات منصوبة بنزع الخافض أي الى درجات . ومفعول أشفقتم محذوف . والمصدر من ان أشفقتم مجرور بمن مقدره أي أشفقتم الفقر من تقديم الصدقة .

المعنى :

(يا أيها الذين آمنوا اذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم) . كان الصحابة يتسابقون الى مجلس رسول الله (ص) ويحرصون على القرب منه ، وكان المجلس في كثير من الأحيان يزدحم بالناس ، ولا يفسح المجلس للقادم ، فيضطر الى الرجوع أو الوقوف على قدميه ، فأدبهم سبحانه بخلق الاسلام ، وأمر أن يفسح ويوسع بعضهم لبعض ، ووعد الذين يفسحون في مجالسهم ان يفسح لهم في الجنة .

(واذا قيل لكم انشزوا فانشزوا) . أمر سبحانه أولياء المجالس ان يوسعوا للقادم اذا اتسع المجلس له ولهم ، ثم أمرهم بالسمع والطاعة لرسول الله (ص) اذا طلب منهم ان يتركوا مجالسهم للقادمين حيث لا يتسع المكان للجميع حتى مع التضييق والتوسع ، وفي بعض الروايات ان النبي (ص) كان يقيم نقرأ من مقاعدهم ليجلس فيها من هو أفضل وأسبق الى الخيرات ، وكانت تبدو الكراهية في وجوه البعض لذلك ، ولكن بعد ان نزلت هذه الآية تأدبوا بأدائها ، وأفسحوا لآخرانهم عن طيب خاطر وقبل أن يأمرهم النبي (ص) بذلك . وفي بعض التفسير ان المعنى اذا قيل لكم : انهضوا الى الخير فأجيبوا .. وليس هذا بعيد لأن الأمر عام لجميع معاني النهوض الى الخيرات سواء أكانت افساحاً أم جهاداً أم غيرهما . واذا كان من آداب القرآن ان يفسح الانسان لأخيه أو يُعجلي له مكانه فليس

سورة المجادلة

من الآداب والأخلاق في شيء أن يقيم القادم أحداً من مجلسه ، فلقد كان الرسول الأعظم (ص) يجلس حيث ينتهي به المجلس .. أجل ، إذا طلب صاحب المجلس القيام من أحد الجالسين فينبغي ان يجيبه .. ولكن لا ينبغي لصاحب المجلس ان يطلب ذلك إلا لمبرر كما لو خرج المجلس عن الآداب ، أو كان للقادم شأن أجل وأرفع عند الله ، قال تعالى :

(يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير) . ان الله خير بأهل الفضل وغيرهم ، وعليم بمراتب الفضل ودرجاته ، وهو يعطي لكل ذي فضل حقه ، وأفضل الناس عنده أشدهم ورعاً عن محارمه ، وإذا كان مع هذا الورع وعي وعلم فصاحبها في أعلى عليين .. وليس من شك ان تعظيم من عظم الله فرضاً لازم ، فقد جاء في الحديث : ان رسول الله كان يكرم أهل بدر ويقدمهم على غيرهم ، وفي ذات يوم دخل جماعة منهم الى مجلسه ، فوجدوه مزدحماً بالناس ، ولم يفسح أحد لهم ، فقال النبي (ص) لمن حوله من غير أهل بدر : قم يا فلان ، وأنت يا فلان ، وأجلس أهل بدر .. وتفق هذه الرواية مع قوله تعالى : « يرفع الله الذين آمنوا » الخ .

صدر المجلس :

وهذه المناسبة أشير الى اني اذا قرأت في الصحف مقالاً يتصل بموضوع آية من آي الذكر الحكيم احتفظت به في ملف خاص حتى اذا بلغت بالتصريح الى الآية رجعت الى المقال ، واستشهدت بشيء من كلماته ، وأشارت الى اسم الصحيفة وتاريخها لأن بعض الجليل الجديد يقنع بالصحف ولقنها أكثر من أي مصدر .

ويلاحظ القارئ هذا الاستشهاد فيما سبق من المجلدات ، منها - على سبيل المثال - ما جاء في المجلد الرابع ص ٣٧٩ بعنوان « الماديون والحياة بعد الموت » والمجلد الخامس ص ٧٩ بعنوان « الله وعلم الخلايا » والمجلد السادس ص ٤٩ بعنوان « الرحلة الى القمر » و ص ٣٨٨ بعنوان « الاسلام وفتاة انكليزية » . وفي ذات يوم قرأت في احدي الجرائد عن مجادلات السياسيين الكبار حول مائدة

الجزء الثامن والعشرون

المفاوضات: من الذي يتصدر ومن الذي يتأخر ؟ وأي وفد يدخل حجرة المفاوضات قبل الآخر .. ومن الأمثلة التاريخية التي ذكرها الكاتب : انه في سنة ١٩٤٥ عقب الحرب العالمية الثانية اتفق تشرشل وستالين وروزفلت على أن يتفاوضوا في بودابست، ولكنهم اختلفوا أيهم يدخل الحجرة قبل غيره ، وطال هذا الخلاف أمداً غير قصير .. ثم انحلت المشكلة في أن يتفاوضوا في حجرة لها ثلاثة أبواب ، يدخل كل واحد منهم من باب في آن واحد .

وحين بلغت بالتصير الى قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم وإذا قيل انشروا فانشروا فانشروا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » حين بلغت الى هنا تذكرت المقال ، وأشرت - كما ترى - الى بعض ما جاء فيه ليعلم القارئ ان الاسلام لا يقيم وزناً إلا للعلم والاحلاص : « يرفع الله السذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » . هذه هي حضارة الحق والعدل بمعناها الصحيح ، أما تكريم صانعي الموت الذين يملكون صواريخ « مينوتمان » وصواريخ « اس س » وغيرها من اسلحة التخريب والتدمير ، أما هؤلاء فلا وزن لهم إلا في شريعة الشيطان ، وحضارة البغي والعدوان .

(يا أيها الذين آمنوا اذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ذلك خير لكم وأطهر فإن لم تجدوا فان الله غفور رحيم) . لا أجد تفسيراً لهذه الآية أحسن من تفسير مقاتل بن حيان لها ، قال : ان الأغنياء غلبوا الفقراء على مجلس النبي (ص) - وهذا شأنهم في كل زمان - وأكثروا من مناجاته حتى كرهه النبي (ص) طول جلوسهم ، فأمر الله بالصدقة عند المناجاة، فأما الأغنياء فامتنعوا ، وأما الفقراء فلم يجدوا شيئاً ، واشتاقوا الى مجلس الرسول (ص) فتمنوا لو كانوا يملكون شيئاً ينفقونه ويصلون الى مجلس رسول الله (ص) وعند هذا ازدادت درجة الفقراء عند الله ، وانحطت درجة الأغنياء .

وفي العديد من التفسير ، منها تفسير الطبري والرازي : ان هذه الآية ما عمل بها أحد إلا علي بن أبي طالب (ع) . كان معه دينار فصرفه بعشرة دراهم ، فكان كلما أراد مناجاة الرسول تصدق بدرهم ، ثم نسخت الآية قبل أن يعمل بها

سورة المجادلة

أحد غير علي . وقال صاحب تفسير روح البيان : روي عن عبدالله بن عمر انه قال : كان لعمري ثلاث لو كانت لي واحدة منهن كانت أحب إليّ من حر النعم : تزويجه فاطمة ، واعطائه الراية يوم خيبر ، وآية النجوى .

(أشفقتم ان تقدموا بين يدي نجواكم صدقات فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله) . لما شق الأمر بالصدقة على الأغنياء حرصاً على أموالهم ، وعلم الله منهم ذلك ، وعرفوا ان وقت النبي هو لا بلاغ الرسالة وتدبير شؤون المسلمين ، وليس لهم وحدهم ، لما كان الأمر كذلك رخص الله لهم في المناجاة دون أن يقدموا الصدقة ، وعفا عن الذين لم يتصدقوا على أن لا يفرطوا في الصلاة والزكاة وسائر الطاعات (والله خير بما تعملون) لا يخفى عليه إحسان من أحسن ، وإساءة من أساء ، وهو يجازي الأول بالحنى ، والثاني بما هو أهله .

اتخذوا إيمانهم جنة الآيات ١٤ - ١٩ :

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَخْلِفُونَ عَلَى الْكُذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ * لَنْ تَغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ * اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَأَهُمُ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ *

الكمة :

ألم ترَ أي أخبرني ، وفيه معنى التعجب . وتولوا من الموالاة وهي المودة ، المراد بالقوم المفضوب عليهم اليهود . وجئة ستر ووقاية .

الإعراب :

ألم تر الى الذين تعدت « ترَ » هنا يلى لأنها متضمنة معنى تنظر . وشيئاً مفعول مطلق . وألا أداة تنبيه .

المعنى :

(ألم ترَ الى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون) . الخطاب في « ترَ » الى النبي (ص) ، والذين تولوا هم المنافقون ، والقوم المفضوب عليهم هم اليهود ، والخطاب في منكم للمسلمين ، والضمير في منهم لليهود ، والمعنى : أخبرني يا محمد عن المنافقين ، فقد والوا اليهود وتآمروا معهم على الاسلام والمسلمين ، وهم في حقيقتهم وواقعهم ليسوا من المسلمين ولا من اليهود مذنبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء..وقد حلفوا متمدين الكذب انهم مسلمون وانهم ما تكلموا على الرسول (ص) ولا تآمروا عليه مع اليهود ، ومن أجل نفاقهم وأيمانهم الكاذبة (أعد الله لهم عذاباً شديداً إنهم ساء ما كانوا يعملون) . وكل من أظهر خلاف ما أضمر فهو مسيء في أقواله وأفعاله لأنها بمنزل عن ذاته وحقيقته .

(اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله فلهم عذاب مهين) . قال صاحب البحر المحيط : « قرأ الجمهور أيمانهم بفتح الهمزة جمع يمين ، والجئة ما يسترون به ويتقون » . والمعنى ان المنافقين يحاولون الستر على دساتهم ومؤمراتهم بالإيمان الكاذبة ، ويتقون بها من المسلمين ، ويخدعون من يبغى الهداية وقصد السبيل ويصلونه عن غايته وبغيته .. ولكن الله سبحانه لا تحجبه السواتر، ولا تخفى عليه

سورة المجادلة

الضماير ، فهتك في الدنيا سترهم ، ولهم في الآخرة عذاب الحريق (لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) . سُحِت لهم الفرصة في الحياة الدنيا فأضاعوها ، ولا شيء لمن سوف وأهمل إلا العذاب ، أما الأموال والأولاد فلا ترجع ما قد فات. وتقدم مثله بالحرف الواحد في الآية ١١٦ من سورة آل عمران ج ٢ ص ١٤٢ .

(يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون) . ان للعباد في يوم القيامة مواقف لا موقفاً واحداً، يؤذن لهم بالكلام في بعضها دون بعض ، فإذا ما أذن الله للمجرمين بالكلام حلفوا له كذباً وزوراً تماماً كما كانوا يحلفون في الدنيا للنبي والمسلمين ، وهم يعتقدون ان إيمانهم الفاجرة تدفع عنهم العذاب .. كيف والله سبحانه يعلم أنهم لكاذبون في إيمانهم وعقيدتهم ؟. وتقدم مثله في الآية ٢٢ من سورة الأنعام ج ٣ ص ١٧٤ .

(استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله) . دعتهم شياطين الأهواء والأغراض الى الضلال والفساد فاستجابوا لها ، فأعمتهم عن الهدى وقادتهم الى الضلال (اولئك حزب الشيطان ألا ان حزب الشيطان هم الخاسرون) لأن من أسلس زمامه لشيطان الهوى قاده الى كل سوء وألقى به في المهالك لا محالة، إما غداً أو لا فبعد غد .. حتى ولو تسلح بالذرة والصواريخ .

لأغلبن انا ورسلي الآية ٢٠ - ٢٢ :

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ * كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرَسُولِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ * لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ
أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ

الجزء الثامن والعشرون

مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *

اللغة :

يُحَادُونَ اللَّهَ بِخَالْفُونِهِ فِي حُدُودِهِ وَيُعَادُونَهُ فِي أَحْكَامِهِ . وَالْأَذْلِينَ جَمْعُ الْأَذَلِّ .
وَيُؤَادُونَ مَفَاعَلَةٌ وَتَبَادُلُ الْمَوَدَّةِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَعْدَاءِ اللَّهِ .

الإعراب :

لَأَغْلِبَنَّ اللَّهُ فِي جَوَابِ كِتَابٍ لِأَنَّ فِيهِ مَعْنَى الْقِسْمِ . وَجُمْلَةُ يُؤَادُونَ مَفْعُولٌ
ثَانٍ لِتَجْدٍ . وَخَالِدِينَ حَالٌ . وَأَلَا أَدَاةُ تَنْبِيهِ .

المعنى :

(ان الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين) . هذه الآية أشبه بالجواب
عن سؤال مقدر ، ويتلخص السؤال : بأن أعداء الله يعيشون في عز من عندهم
وعندهم ، وينكثون بأهل الله تقبلاً وتشريداً ، فكيف امهلهم سبحانه
وأمد لهم ؟

وتجيب الآية بأن الأشرار هم أذل خلق الله من الأولين والآخرين لأن نهايتهم
الجزئي والخلدان دنيا وآخرة ، أما في الدنيا فلأن الله يعذبهم بأيدي الطيبين الأحرار :
« قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِمُهُمْ وَيَصْرِكُمْ عَلَيْهِمْ وَيُشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ
- ١٤ التوبة ، . وأما عذاب الآخرة فهو أشد وأعظم .

(كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ان الله قوي عزيز) . الغلبة تكون في الآخرة ،

سورة المجادلة

وتكون في الدنيا بالسيف أو بعذاب من السماء أو بالحجة والبرهان أو مخلود الذكر. أنظر تفسير الآية ٢٨ من سورة الحج ج ٥ ص ٣٣١ فقرة ٥ لا يخلو المؤمن من ناصر ، ، وتفسير الآية ٧ من سورة محمد (لا تجحد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم) . مستحيل ان يجتمع الإيمان مع محبة الكافر وموالاته .. كيف وهو سبحانه القائل : « ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه - ٤ الأحزاب » . وقد اشتهر عن الإمام علي (ع) : ان صديق العدو عدو . وقال : « فلقد كنا مع رسول الله (ص) وان القتل ليدور على الآباء والأبناء والإخوان والقرابات ، فا نزداد على كل مصيبة وشدة إلا إيماناً ومضيئاً على الحق وتسليماً للامرء . وتكلمنا عن ذلك مفصلاً عند تفسير الآية ٢٨ من سورة آل عمران ج ٢ ص ٣٨ .

(أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بزوح منه) . أولئك اشارة الى الذين لا يؤثرون شيئاً على إيمانهم حتى الآباء والأبناء ، والمعنى ان الله نبئت الإيمان في قلوب المخلصين ، وأيدهم بالحجج والبراهين : « بئبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة - ٢٧ ابراهيم » . (ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه) . ومعنى رضي الله عن العبد هو أن يعطيه من فضله ، ومعنى رضا العبد عنه تعالى هو ان يرضى بما أعطاه . وقال ابن عربي في الفتوحات : « يرضى الله باليسير من عمل عباده ، وهم أيضاً يرضون باليسير من ثوابه لأن الله مهها أعطى فعطاه أقل القليل بالنسبة الى ما عنده » . ولكن هذا الذي أسماه ابن عربي أقل القليل بالنسبة اليه تعالى هو أكثر الكثير بالنسبة الى العباد . قال عز من قائل :
« فيضاعفه له أضعافاً كثيرة - ٢٤٥ البقرة » .

(أولئك حزب الله ألا ان حزب الله هم المفلحون) . هذه الآية في مقابلة الآية ١٩ من هذه السورة : « أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون » .

والخلاصة ان الانسان بالفاً ما بلغ من المقدرة فإنه أعجز من أن يجمع بين مرضاة الله ومرضاة أعدائه تعالى ، فإن أرضاهم أغضب الله ، وان أرضى الله

الجزء الثامن والعشرون

أغضبهم .. ومستحيل أن يرضوا إلا عن هو على شاكلتهم بشهادة الله عز وجل:
« ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم - ١٢٠ البقرة » . وفي
الحديث الشريف ان رسول الله (ص) قال : « اللهم لا تجعل لفاجر ولا لفاسق
عندي نعمة فإني وجدت فيها أوحيتَ : لا تجسد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر
يوادون من حاد الله ورسوله » .

سورة الحشر

٢٤ آية مدنية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سبح لله الآية ١ - ٥ :

سَبَّحَ اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * هُوَ
الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ
مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ
اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ
بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ * وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ
اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ *
ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ
الْعِقَابِ * مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ
وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ *

اللغة :

الحشر الجمع . والجلاء الخروج عن الوطن . واللينه النخلة . ويشاق يخالف .

الإعراب :

لأول الحشر متعلق بأخرج . والمصدر من أن يخرجوا مفعول ظنتم . ومانعتهم خبر إن . وحصونهم فاعل مانعتهم . ولولا حرف امتناع . والمصدر من ان كتب مبتدأ والخبر محذوف أي لولا كتاب الله واقع . وما قطعتم وما شرطية . وقائمة حال من هاء تركتوها . فيأذن الله متعلق بمحذوف خبراً لمبتدأ محذوف أي فذاك كائن بإذن الله .

ملخص قصة بني النضير :

هذه الآيات خاصة بانتصار النبي (ص) على يهود بني النضير ، وتتلخص قصتهم مع رسول الله (ص) بأنهم كانوا يسكنون في ضواحي المدينة المنورة ، ولما هاجر إليها النبي (ص) عقد معهم صلحاً على أن يكونوا على الحياد ، لا له ولا عليه .. وعندما انتصر المسلمون على قريش يوم بدر فرح بنو النضير فرحاً شديداً ، ولكن لما هُزم المسلمون يوم أحد نقضوا عهد الرسول (ص) ودبروا لاغتياله ، وحالف رئيسهم كعب بن الأشرف أبا سفيان ضد محمد (ص) ، وقيل : ان كعباً هجا النبي (ص) بأبيات ، فأمر النبي أحد أصحابه فقتله ، ثم سار (ص) بجيشه الى بني النضير ، وأمرهم بالجللاء عن المدينة ، فأرسل اليهم المناقون ، وعلى رأسهم عبدالله بن أبيي ، ان اثبتوا ونحن معكم على محمد ، فطمعوا وأصروا على الحرب ، وعندئذ حاصرهم النبي (ص) واستمر الحصار ٢١ ليلة كما في بعض الروايات .

وأمر النبي (ص) أن تقطع بعض نخيلهم، وما حاول أحد من المناقنين وغيرهم أن يقف بجانبهم ، فاضطروا الى الاستسلام ، وصالحهم الرسول على الجللاء عن المدينة، وان يكون لكل ثلاثة منهم بيعر واحد يحملون عليه ما شاموا، فقبلوا ورجلوا عن المدينة الى غير رجعة ، وفيهم نزلت هذه السورة ، وكان ابن عباس يسميها سورة بني النضير .

(سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم) . جميع الكائنات تسبح بقدرته الله وحكمته بلسان المقال أو الحال ، وتقدم مثله بالحرف مع التفسير في أول سورة الحديد (هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر) . المراد بالذين كفروا هنا بنو النضير باتفاق المفسرين ، واختلفوا في معنى أول الحشر قال الرازي : ذهب ابن عباس والاكثرون الى ان معنى أول الحشر ان أهل الكتاب أخرجوا من جزيرة العرب للمرة الأولى ، وكانوا من قبل في عزة ومنعة .. وليس هذا بعيد لأن الحشر الثاني كان على يد الخليفة الثاني : والمعنى ان الله سبحانه أجلى بني النضير من ديارهم بأيدي المسلمين ، وكان هذا أول جلاء لليهود عن الجزيرة العربية ، أما السبب الموجب فهو غدرهم وخيانتهم ونقضهم عهد الأمان الذي قطعوه للرسول (ص) على أنفسهم .

وتسأل : لماذا عاقبهم الرسول (ص) على خيانتهم بالجلاء ومصادرة الأموال المنقولة وغير المنقولة مع ان العقوبة على أنواع ٢ .

الجواب : لقد أحلهم بشريعتهم التي بها يدينون ، فقد نصت توراتهم على « ان المدينة التي تفتح لك فكل الشعب الموجود فيها لك للتسخير ويعبد لك ، فإن لم تسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها ، وإذا دفعها الرب إليك الى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة فهي لك غنيمة تغنمها لنفسك - اصحاح ٢٠ من التثنية » ... وليس من شك ان من دان بسدين من الأديان أو مبدأ من المبادئ فعليه ان يلتزم بجميع أحكامه ، ويجريها على نفسه قبل أن يجريها على غيره ، وعلى هذا فإن النبي(ص) كان رؤوفاً رحيماً ببني النضير لأنه لم يقتل الذكور وسبي النساء والأطفال كما نصت شريعتهم وتوراتهم .. وتكلمنا عن ذلك مفصلاً في ج ٦ ص ٢٠٨ ققرة « هل ظلم محمد (ص) بني قريظة ؟ »

(ما ظنتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله) . الخطاب في ما ظنتم للمسلمين . وظنوا أي بنو النضير ، والمعنى ان المسلمين لم يتوقصوا على

الجزء الثامن والعشرون

الاطلاق أن يخرج بنو النضير من ديارهم ويتركوها لأعدائهم المسلمين لما عرفوا عنهم من العناد وشدة البأس ، وكثرة العدة والعدد ، وأيضاً كان بنو النضير يعتقدون أنهم في قوة ومنعة من حصونهم وعدتهم وعددهم، وان أية يد لا تستطيع أن تمتد إليهم .. ولكن حصن الغدر والحياطة واه لا يمنع أهله ، ولا يُجرز من لجأ إليه .

الدعابات المضللة والوقت المناسب :

(فاتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب) . ظنوا أنهم مانعتهم حصونهم .. ولكن الذي بيده ملكوت كل شيء قد ختم على قلوبهم بعد ان ملأها بغيبة الرسول (ص) وجنّده، فأنهت وانهارت وانهار معها كل شيء لأن القلوب هي الأساس الذي ترتكز عليه جميع القوى .. ومن هنا يحرص سفاحو الشعوب وتجار الحروب على الحرب النفسية ، ويحشدون لها الطاقات والروايات ، ونسوا أو تناسوا انه لا طريق الى القلوب إلا الحق والصدق والخير والاحسان ، وإذا وجدت الدعابات المضللة من يستجيب لها فإلى حين ، ثم تتكشف عن عورات صاحبها وأسواته .

سئل وتنازل ، المثل الخبير بشؤون الحياة : الى ما يحتاج المرء ليشق طريقه في الحياة ؟ العقل أم الطاقة أم العلم ؟ فقال : ثمة شيء أهم ، وهو معرفة الوقت المناسب . وقول لتنازل : أجل ، لا بد من الوقت ولكن على شريطة أن يكون مناسباً لمصلحة الخبير لا للشر ، وللاحق لا للباطل، لأن الشر وأنصاره انى زوال : وإن طال بهم الأمد .

(يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين) . قال بعض المفسرين : المراد بخراب البيوت هنا الجلاء عنها ، وبأيديهم إشارة الى أنهم هم السبب الموجب لهذا الجلاء حيث تقضوا عهد الرسول وميثاقه ، وأيدي المؤمنين تشير الى أن المسلمين هم الذين أجلوا بني النضير عن ديارهم . وقال آخرون : ان بني النضير أفسدوا بيوتهم بأيديهم قبل الجلاء كيلا تقع سليمة في أيدي المسلمين ، وان المسلمين ذكوا بأيديهم. حصون بني النضير لينقلوا اليهم .. وهذا تقرب ، والاعتبار يؤيده، وظاهر

سورة الحشر

الآية يدل عليه ، ولا يتنافى مع المعنى الأول ، بل هو نتيجة للجلاء وأثر من آثاره (فاعتبروا يا أولي الأبصار) . الاعتبار هو رد الشيء الى نظائره ، والحكم عليه بأمثاله ، وقد أجلى الله بني النضير من ديارهم جزاء على خيانتهم ، فعلى العاقل أن يتعظ ويعتبر ويجتنب الغدر والخيانة لئلا يحل به ما حل بهم .

(ولولا ان كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار) . عذبهم الله في الدنيا بالجلاء ولولا ذلك لعذبهم بالقتل والاستتصال كما فعل بيني قريظة .. وفي سائر الأحوال فلا نجاة لهم من عذاب السمير (ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله) . استحقوا عذاب الدنيا والآخرة لأنهم خالفوا الله وتجاوزوا حدوده ، ونصبوا العداة لرسوله (ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب) . هذا هديد ووعيد لكل متكبر جبار .

(ما قطعتم من لينة - أي نخلة - أو تركتموها قائمة على أصولها فيلذن الله وليخزي الفاسقين) . كان النبي (ص) قد أمر أن تُقطع بعض نخيل بني النضير ليغظهم بذلك .. فظن البعض ان هذا نوع من التخريب ، فيبن سبحانه ان كل ما وقع من قطع النخيل ، وما ترك منه بغير قطع فهو بأمر الله ، وليس من عند الرسول (ص) ، والقصد منه غيظ الكفار من أجل ما قطع ، وأيضاً غيظهم من أجل ما بقي قائماً من غير قطع حيث يتضح به أعدائهم .

وتجدر الإشارة الى ان قطع الأشجار وما اليه أيام الحرب لا يجوز الأخذ به كمبدأ عام ، بل قد يجب القطع ، وقد يحرم تماماً لما تستدعيه مصلحة حرب العدو تماماً كهدم الدور وقطع الأشجار أيام السلم يجوز ان لثق الطرق - مثلاً - وعمران من غير مبرر .

كلا يكون دولة بين الأنبياء الآية ٦ - ٨ :

وَمَا آفَاءُ اللَّهِ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ
وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رَسُولَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ*

مَا آفَاهُ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِإِتِّمَائِهِ
 وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَأَنْبِيِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ
 مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا
 اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ * لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ
 دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ
 وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ *

اللغة :

التي هي في اللغة الرجوع قال تعالى : حتى نضيء الى امر الله أي ترجع ، وفي
 الشرع ما أخذ من الكفار بلا قتال ، والإيجاب العمل وقيل : السرعة . وقال
 الرازي : الركاب ما يُركب من الأبل ، والعرب لا يطلقون لفظ الركاب إلا
 على راكب البعير ، أما راكب القميس فيسمونه فارساً . والمراد بأهل القرى هنا
 البلدان التي تُفتح بلا قتال . ودولة بضم الدال أي يتداولونه بينهم فقط دون
 الفقراء .

الإعراب :

وما آفاه الله « ما » اسم موصول مبتدأ . وفا أوجهتم « ما » نافية وجملة
 أوجهتم خبر . ومن خيل « من » زائدة وخيل مفعول أوجهتم . ودولة خبر يكون
 واسمها ضمير مستتر يعود على المال الذي يؤخذ من أهل القرى .

المعنى :

(وما آفاه الله على رسوله منهم فما أوجهتم عليه من خيل ولا ركاب). الفرق بين النعمة

سورة الحشر

والفقيه عند كثير من الفقهاء ان الغنيمة مال كسبه المسلمون من أهل الكفر بإجفاف خيل وركاب أي بحرب وقتال ، أما الفقيه فهو مال حصل بلا قتال وجهاد ، ومها يكن فإن الآية التي نحن بصددنا خاصة بأموال بني النضير لأن الضمير في «منهم» يعود اليهم ، وبناء عليه يكون المعنى ان أموال بني النضير قد جعلها الله فيئاً لرسوله بضمها حيث يشاء ، ولا شيء منها للمسلمين لأنهم ما تحملوا في سييلها أية مشقة (ولكن الله يسلط رسله على من يشاء) . ومن هذا التلخيص انه تعالى ألقى الرعب والخوف من رسول الله (ص) في قلوب بني النضير كي يخضعوا لأمره صاغرين من غير حرب وقتال (واقه على كل شيء قدير) . ومن هذا الشيء ان يُخضع أبواب الحصون والعدة والعدد لعبد من عباده تعالى .

(ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) . المراد بأهل القرى هنا غير بني النضير من الكفرة ، والمعنى ان مال الفقيه - غير مال بني النضير - هو لله وللرسول الخ . وبديهة ان ما كان لله فهو لرسوله ، واتفقوا قولاً واحداً إلا من شذ على ان المراد ببني القربى قريبي رسول الله (ص) من بني هاشم ، أما اليتامى والمساكين وابن السبيل فقال الامامية : المراد بهم أيتام بني هاشم ومساكينهم وابن السبيل منهم خاصة . وقال غيرهم : بل كل يتيم ومساكين وابن السبيل من المسلمين هاشمياً كان أم غير هاشمياً . وتكلمنا عن ذلك مفصلاً عند تفسير قوله تعالى : « واعلموا انما غنمتم من شيء فإن لله حصة وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل - ٤١ الأنفال ، ج ٣ ص ٤٨٢ .

(كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم) . الاسلام نظام إلهي انساني يراعي مصلحة الجميع دون استثناء لفرد أو فئة ، فلا يحل مشكلة انسان على حساب

١ قيل : المراجع بقوله تعالى : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى ، هو عين المراد بقوله : « وما أفاء الله على رسوله منهم » . وقيل : المراد به الجزية والخراج . وقيل : كل غنيمة ايا كان مصدرها . وقيل : انه منسوخ باية ٤١ من الأنفال . وقيل غير ذلك . والذي ذكرناه من تخصيص الآية الاولى بأموال بني النضير ، والآية الثانية بالفقيه غير أموال بني النضير هو ارجح التفسير في رأينا . والله اعلم بما اراد .

الجزء الثامن والعشرون

غيره ، ولا يضيّق على انسان ليوسّع على غيره أياً كان ، فالجميع عنده سواء ، ويتجلى هذا في جميع أحكامه ومبادئه ، ومنها هذا المبدأ ، وهو أن لا يكون المال دولة بسين الأغنياء وحدهم أي يتداولونه فيما بينهم دون الفقراء .. وتجدر الإشارة الى ان هذا وما اليه من تحريم الربا والغش والاستغلال والضرر والضرار لا يدل من قريب أو بعيد على إقرار الاشتراكية أو رفضها بمعناها المعروف ، وكل ما يدل عليه ان الاسلام يبنى في جميع أحكامه فكرة العدالة والمساواة، وانه يقر كل ما فيه خير للناس وصلاح، وهذا شيء وإلغاء الملكية الفردية دون الملكية الجماعية شيء آخر . انظر تفسير الآية ١٨٠ من سورة آل عمران ج ٢ ص ٢١٧ فقرة ١ الغني وكيل لا أصيل .

(وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله ان الله شديد العقاب) . ربطت هذه الآية بين قول الله وقول الرسول ، وأوجبت السمع والطاعة لكل منها . أمراً ونهياً لأن قول الرسول وحي من الله تعالى : « وما ينطق عن الهوى ان هو إلا وحي يوحى - ٤ النجم » . وقال سبحانه في العديد من الآيات : « أطيعوا الله والرسول » وقال : « ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً - ٣٦ الأحزاب » . وتواتر أن النبي (ص) ما رأى رؤياً إلا خرجت مثل فلق الصبح ، واتفق المسلمون قولاً واحداً على أنه لا وحي ولا تشريع ولا اجتهاد بعد رسول الله (ص) إلا إذا كان قول المجتهد من شريعة الله ورسوله . انظر تفسير الآية ٤٠ من سورة الأحزاب ج ٦ ص ٢٢٥ فقرة ١ لماذا ختمت النبوة بمحمد ؟ وتفسير الآية ٧٧ من سورة الواقعة فقرة ١ الاسلام وقادة الفكر الأوروبي .

(للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله) . المراد بالمهاجرين هنا من هاجر مع رسول الله (ص) من مكة الى المدينة رغبة في مرضاة الله وثوابه وفي نصرة الاسلام والجهاد في سبيله ، وهؤلاء هم أولى الناس بالزكاة لسببهم وجهادهم ولفقرتهم وحاجتهم ، قال الطبري قسلاً عن قتادة : « هؤلاء المهاجرون تركوا الديار والأموال والأهلين والعشائر حباً لله ورسوله ، واختاروا الاسلام على ما فيه من

سورة الحشر

الشدّة حتّى لقد كان الواحد منهم يعصب الحجر على بطنه ليقيم به صلبه من الجوع، ويتخذ الحفرة في الشتاء ما له دثار غيرها .. وما رأيت وصفاً للصحابه أبلغ مما قاله الإمام زين العابدين (ع) فيهم، وهو يدعو الله سبحانه أن يشكر لهم صنيعهم، قال :

اللهم وأصحاب محمد خاصة الذين أحسنوا الصحبة وأبلوا البلاء الحسن في نصره وكانفوه وأسرعوا الى وفادته ، وسابقوا الى دعوته واستجابوا له حيث أسمعهم حجة رسالته وفارقوا الأزواج والأولاد في إظهار كلمته ، وقاتلوا الآباء والأبناء في تثبيت نبوته ، وانتصروا به ومن كانوا منطوين على محبته يرجون تجارة لن تبور في مودته، والذين هجرتهم العاثرة اذ تملقوا بعروته وانتفت منهم القربات اذ سكنوا في ظل قرابته ، فلا تنس اللهم لهم ما تركوا لك وفيك ، وأرضهم من رضوانك . (أولئك هم الصادقون) في إيمانهم وجهادهم قولاً وفعلاً .

ويؤثرون على أنفسهم الآية ٩ - ١٥ :

وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَآقَفُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِن أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَئِن أُخْرِجُوا

لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَيْسَ قَوْلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَيْسَ نَصْرُهُمْ لِيَوْلَى
 الْأَذْيَارَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ * لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهَبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنْ اللَّهِ ذَلِكَ
 بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ * لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قَوْمٍ مَحْصَنَةٍ أَوْ
 مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ
 بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ * كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ
 أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ *

اللمعة :

تيموا الدار سكنوها ، والمراد بالدار هنا المدينة المنورة ، وبالجملة هنا الحسد
 والغيظ ، وبالخصاصة الفاقة . ومن يوق أي من يدفع ويمنع . والشح الإفراط في
 الخرص . وقلوبهم شتى أي أهواؤهم مضرقة بالبغضاء والشحناء على بعضهم البعض .

الإعراب :

والذين تباؤوا مبتدأ وجملة يجون خبر . والامان مفعول لفضل مقدر أي وآثروا
 أو أخلصوا الامان ، ومثله علفتها تباؤا وماء بارداً أي وسقيتها ماء بارداً . ومفعول
 يؤثرون محذوف أي يؤثرون غيرهم . أبدأ ظرف زمان لاستفراق المستقبل منصوب
 بنطع . ومن الله أي من رهبتهم من الله . وجميعاً حال أي مجتمعين . وكمثل
 خبر مبتدأ مقدر أي مثلهم كمثل الذين الخ . وقریباً صفة لمصدر أي زمناً قريباً
 ولهم من منصوب بذاقوا أي ذاقوا وبال أمرهم في زمن قريب .

بعد أن بيّن سبحانه منزلة المهاجرين بيّن منزلة الأنصار بقوله :

١ - (والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم). المراد بالدار هنا المدينة المنورة ، وتبأوها أي سكنوها واستوطنوها ، والمعنى ان الأنصار ، وهم أهل المدينة آووا النبي ومن هاجر معه ، وقاموا بواجب الضيافة على أكمل وجه، وأخلصوا للمهاجرين وواسوهم بأنفسهم بل وآثروهم عليها كما تأتي الإشارة، ومن الآيات التي نزلت في فضل الأنصار قوله تعالى : « والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا لهم مغفرة ورزق كريم - ٧٤ الأنفال » .

٢ - (ولا يجدون في صدورهم حاجة مما آوتوا) . كان المهاجرون في بدء الأمر أفقر الناس في المدينة يلاقون فيها المشقة والجهد : ولولا الأنصار لهلكوا جوعاً، وكان النبي (ص) يعطي الصدقات للفقراء ولا يعطي منها الأغنياء والقادرين على الكسب ، ولذا كان يفضل المهاجرين على الأنصار في العطاء ، وربما خصهم بالغنيمة من دونهم ، وكان الأنصار يرضون عن ذلك ويرون انه الحق ، فسجل سبحانه لهم هذه المنفعة في كتابه العزيز .

٣ - (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) . والايثار على النفس مع الحاجة لا يعادله شيء إلا التضحية بالنفس . وفي التفسير وكتب الحديث : ان رسول الله (ص) قال للأنصار عند تقسيم بعض الغنائم : ان شئتم أن تكون هذه الغنيمة بينكم وبين المهاجرين على أن تشاركوهم في أموالكم، وان شئتم كانت لكم أموالكم ، ولهم هذه الغنيمة وحدهم . فقال الأنصار : بل نترك لهم الغنيمة ونقسم لهم من أموالنا يا رسول الله . فدعا النبي (ص) لهم وقال : اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار (ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) . الشح من أمهات الرذائل ، فمن استجاب له عاقه عن كل خير ، ومن تقلب عليه ونزّه نفسه عنه فقد وقاها من الأسواء والمخاطر .

(والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالإيمان) . التفسير في بعدهم يعود الى المهاجرين والأنصار معاً ، والمراد بالذين جاءوا من بعدهم كل من سار بسيرتهم الى يوم القيامة ، ولا وجه للتخصيص

الجزء الثامن والعشرون

بالتابعين لأن العبرة بالأعمال لا بالأمكنة والأزمات ، وما بلغ الصحابة الى منزلة الكرامة عند الله إلا لأنهم استمعوا القول فاتبعوا أحسنه (ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا) . مستحيل أن يجتمع الايمان والقل على المؤمن في قلب واحد . كيف ؟ وهل يفل الانسان ويخمد على نفسه (ربنا انك رؤوف رحيم) بعبادك الذين نزهوا دينهم وقلوبهم عن الغل والنفاق .

(ألم تر الى الذين نافقوا يقولون لآخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وان قوتلتم لننصرنكم) . المراد بأهل الكتاب هنا بنو النضير ، وهم اخوة المنافقين في الكفر وعداوة الرسول ، وتشير الآية الى حادثة معينة ، وهي ان النبي (ص) حين أعلن الحرب على بني النضير قال لهم المنافقون ، وعلى رأسهم عبدالله بن أبيي : قاتلوا محمداً واصمدوا له ونحن عليه معكم ، ان قاتلكم قاتلناه ، وان أجلاكم عن المدينة نرحنا عنها معكم ، ولا نصفي لقول محمد وغيره (والله يشهد انهم لكاذبون) في أقوالهم ومواعيدهم (لئن أخرجوا - أي بنو النضير - لا يخرجون - أي المنافقون - معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصرهم ليولن الأديار) . هذا هو شأن المنافق يخالف لسانه قلبه ، وقلبه فعله ، وعلايته سره (ثم لا ينصرون) ولا يتنصرون بمكر ولا نفاق .

(لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون) . يخاف المنافقون من بأس المؤمنين لأنهم يتوقعون عاجل الشر في الدنيا ، ولا يتوقعون أجل العذاب في الآخرة (لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء جُدُر) . اليهود لا يجاهون المؤمنين وجهاً لوجه في ميدان القتال ، بل يقعون في أحيائهم وقراهم ويتسترون وراء الحصون والجدران ، ويرشقون المؤمنين بالنبال والأحجار ، كما هو شأن الجبان الخائز .

(بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى) . انهم أقوياء في عدتهم وعدادهم ، ولكن المصالح والأهواء فرقت بينهم ، فهم منحلون متخاذلون ، وان تظاهروا بالألفة والمحبة .. ولو أنهم توادوا وتآزروا لبرزوا اليكم وقابلوكم في ميدان القتال أيها المسلمون ، ولم يقاتلوكم في قرى محصنة أو من وراء جدار .

سورة الحشر

وهذا عامّ في اليهود وغيرهم ، فإن الاتفاق قوة وان قلّ العدد وضعت العدة ، والتخاذل ومن وذل لا يجدي معه عدد ولا عدة .. وقد شاهدنا انتصار أهل الباطل وهم أقلّاء على المحقّين وهم كثيرون ، والسر تفرّق هؤلاء عن حقهم ، واجتماع أولئك على باطلهم (ذلك بأنهم قوم لا يعقلون) بأن الوحدة سبب الفوز والنجاح ، والتفرقة سبب الفشل والخذلان (كمثل الذين من قبلهم قريباً ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم) . ان حال اليهود الذين نصبوا العداة لرسول الله (ص) تماماً كحال كفار قريش وغيرهم من الذين حاربوا الرسول حيث انتهوا الى الخزي في الدنيا ، وفي الآخرة الى عذاب المحريق .

فلما كفر قال اني بريء منك الآية ١٦ - ٢٠ :

كَمَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ
 إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ
 فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ
 نَفْسُ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * وَلَا
 تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ *
 لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ *

: الإعراب :

كمثل الشيطان خبر مبتدأ مقدر أي مثلهم كمثل الشيطان . وعاقبتها خبر كان والمصدر من انهما في النار اسمها . وخالدين حال من اسم ان . ولتنظر مجرّم

الجزء الثامن والعشرون

بلام الأمر . وما قدمت ما ، بمعنى أي في محل نصب بقدمت والمعنى أي شيء قلمت .

المعنى :

(كمثل الشيطان اذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال اني بريء منك اني اخاف الله رب العالمين) . قال المنافقون لبني النضير : قاتلوا محمداً ، ونحن معكم في القتال وفي الجلاء ، ولما نزل بهم البلاء اختفى المنافقون في أوكارهم ، وما ظهر لهم عين ولا أثر ، وقد شبه سبحانه حال المنافقين هذه مع بني النضير بحال الشيطان مع الانسان الاثيم ، يفره بالفساد والضلال ، ويمنيه السلام ، فإذا جد الجد تركه للعذاب والهلاك ، وتبرأ منه ومن عمله ، وتظاهر بالخوف من الله . وتقدم مثله في الآية ٤٨ من سورة الأنفال ج ٣ ص ٤٩١ والآية ٢٢ من سورة ابراهيم ج ٤ ص ٤٣٨ (فكان عاقبتها يعود الى الشيطان والانسان الذي وقع في شبابه ، الظالمين) . الضمير في عاقبتها يعود الى الشيطان والانسان الذي وقع في شبابه ، والمعنى واضح ويتلخص بأن كلاً من الخادع والمخدوع في جهنم وساءت مصيراً .

(يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله) الذي أنتم في قبضته ، ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً (ولتنظر نفس ما قدمت لغد) . كل ما يعمله الانسان في هذه الحياة يقدم عليه في اليوم الآخر ، والناقد البصير ينظر الى دنياه نظرة من يترك فيها من الصالحات لا من يأخذ من ملذاتها وكفى (واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون) . انه تعالى يعلم من آمن به قولاً وعملاً ، ومن آمن به كفضرة يذكرها في أقواله ، وينساها في أفعاله ، وكرر سبحانه الأمر بالتقوى مبالغة في الحث والترغيب .

(ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم) . نسوا العمل بأمر الله ، فأنساهم العمل لمصلحة أنفسهم ، وما ينفعها يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ، وأغش الناس من نسي نفسه ولم يجعل لسلامتها من الهلاك (أولئك هم الفاسقون) لأنهم لم ينتفعوا ببيان الله ، ويتعطلوا بمواظبه (لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون) . وكيف يستوي الصالح والطالح ، والشقي

سورة الحشر

والسعيد ؟. وتقدم هذا المعنى في العديد من الآيات ، منها الآية ١٨ من سورة السجدة ج ٦ ص ١٨٣ .

لو انزلنا هذا القرآن على جبل لראيته خاشعاً متصدعاً من خشية

الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون* هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم* هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون* هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم*

المعنى :

(لو انزلنا هذا القرآن على جبل لראيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله) . هذا مجرد فرض دلت عليه كلمة «لوه» والغرض منه بيان عظمة القرآن وان له من قوة التأثير ما لو أنزل على جبل لنحشع ولان على قساوته، وتصدع وتهاوى خوفاً من الله على صلابته - إذن - فما بال الانسان الذي تؤله البقعة، وتقتله الشرقة، وتنتنه العرقة كما قال الإمام علي (ع) ، ما بال هذا الضعيف «يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها» - ٤ الجاثية - . فهل قلبه أقسى من الجبل وأشد تماسكاً،

الجزء الثامن والعشرون

أو هو الجهل والناد والاصرار على الضلال ؟ (تلك الأمثال نضربها للناس لهمم يتفكرون) في حِسْم القرآن وعظاته ودلائله وبياناته ، ويهتدون بنورها الى سواء السبيل ... ولكن ... ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد - ٣٧ ق ٤ .

وبعد ، فإن عظمة القرآن من عظمة الله سبحانه ، وقديماً قيل : الكلام صفة المتكلم بخاصة فيها يعود الى علمه . ولذا وصف عز وجل كتابه بالعديد من صفاته كالعزيز والحكيم ، والمجيد والكريم والعلي والمظيم ، والنور والحق والرحمة والصدق.. فلا بدع - اذن - أن يكون له هذا الأثر والسلطان . ثم وصف سبحانه نفسه بصفات العظمة والجلال :

(هو الله الذي لا إله إلا هو) المعبود الحق الذي يوصف بجميع صفات الجلال والكمال ، منها :

- ١ - (عالم الغيب والشهادة) يعلم ما غاب عن الخلق وما شاهدوه .
- ٢ - (هو الرحمن الرحيم) هذان الوصفان مشتقان من الرحمة بمعنى الاحسان ، وقد يكون الجمع بين الكلمتين للإشارة الى ان رحمته وسعت كل شيء حتى في حال غضبه ، وان القنوط منها كفر وضلال .
- ٣ - (هو الله الذي لا إله إلا هو) هذا توكيد للتوحيد (الملك) له ملك السموات والأرض ، وهو يحيي ويميت ويحيي ولا يجار عليه .
- ٤ - (القدوس) مشتق من التقديس أي التزبه عما لا يليق بعظمته تعالى .
- ٥ - (السلام) لأن منه تعالى الطمأنينة والأمان .
- ٦ - (المؤمن) يُثيب المؤمنين على إيمانهم ويؤمنهم من عذاب النار .
- ٧ - (المهيمن) الرقيب والمحافظ .
- ٨ - (العزيز) القوي الذي لا يُغلب ولا يُقهر .
- ٩ - (الجبار) العالِي الذي لا يُنال .
- ١٠ - (المتكبر) له الكبرياء والعظمة (سبحانه الله عما يشركون) تنزهه عن الشريك والصاحبة والولد .

سورة الحشر

١١ - (هو الله الخالق البارئ) هذان الوصفان مترادفان ، وقيل : البارئ يشمر بالبراءة من النقص (له الأسماء الحسنى) . كل أسماء تعالى حسنى وعظمى .
انظر تفسير الآية ١٨٠ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٤٢٥ فقرة ١ هل أسماء الله توقيفية ؟ . (يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم) . والتسبيح يكون بلسان المقال ولسان الحال . انظر تفسير الآية ٤٤ من سورة الإسراء ج ٥ ص ٤٧ فقرة ١ كل شيء يسبح بحمده .

سورة الممتحنة

١٣ آية مدنية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لا تتخلوا عدوي وعدوكم أولياء الآية ١ - ٣ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ
بِالْمُودَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ
أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي
تُسرُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ
مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ * إِنْ يَشْفِقُواكُمْ يُكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً
وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ * لَنْ
تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ *

الفة :

تلقون اليهم بالمودة أي تودونهم وتخلصون لهم . وسواء السبل الطريق القويم .
وإن يشفقكم أي يظفروا بكم .

الإعراب :

أولياء مفعول ثانٍ لتخلوا . وقال كثير من المفسرين : ان الباء زائدة بالمودة وان المودة مفعول تلقون مثل ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة ، وقال صاحب البحر المحيط : مفعول تلقون مخوف والباء للسبب أي تلقون اليهم أخبار رسول الله بسبب ما بينكم من المودة . وإياكم عطف على الرسول . والمصدر من أن تؤمنوا مفعول من أجله لتخرجون . وجهاداً مفعول من أجله لخرجتم . وابتغاء عطف عليه . ويوم القيامة منصوب بلم تنفكم .

ملخص القصة :

اشتهر في كتب التصير والحديث ان هذه الآيات نزلت في حاطب ابن ابي بلتعة ، وهو صحابي من المهاجرين ، وقد أحسن البلاء يوم بدر ، ويتلخص ما قالوه في سبب النزول ان رسول الله (ص) تجهز لغزو مكة ، ولما علم حاطب بذلك كتب الى قريش يحلهم ، ودفع بكتابه الى امرأة ، فأوحى الله الى رسوله بنجر حاطب ، فبعث في طلب المرأة جماعةً من أصحابه ، منهم الإمام علي (ع) فأدركوها في الطريق ، ولما سألوها عن الكتاب أنكرته ، فصدقها بعضهم ، وكذبها الإمام ، وهدمها بالقتل ، فأخرجت الكتاب من صفاتها ، فجاءوا به الى الرسول (ص) فقال لحاطب : من كتب هذا ؟ قال : أنا يا رسول الله ، فوالله ما كفرت منذ أسلمت ، ولا غششت منذ آمنت ، ولكني صانعت قريشاً حامية لأهل من شرهم ، وقد علمتُ ان الله خاذلهم . فصدقته الرسول (ص) وقبل مطرته .

المعنى :

(يا أيها الذين آمنوا لا تتخلوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة) .. أمر سبحانه المؤمنين ان لا يتواصلوا بالولاية والمحبة مع أعداء الحق وأهله ، ولا

الجزء الثامن والعشرون

يلتقوا معهم بأية صلة مها كانت الدواعي والأسباب، لأنهم أعداء الله وأعداء من آمن به (وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم) . تشير هذه الآية الى السبب الموجب للنهي عن اتخاذ أعداء الحق أولياء وأصدقاء ، وهو أولاً أنهم كفروا بالقرآن ونبوة محمد (ص) تمرداً وعناداً للحق. ثانياً أنهم أخرجوا النبي ومن آمن به من ديارهم لا لشيء إلا لأنهم عبدوا الله وحده ونبؤوا الشرك وعبادة الأصنام (ان كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي) . ما دمتم قد تركتم الأهل والأوطان لإعلاء كلمة الله فكيف توالون أعداء الله ؟ . وهمل مجتمع في قلب واحد مودة الله ومودة أعدائه ؟ . فأنتي تصرفون ؟ .

(تسرون اليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلمتم) . أتوادون سراً أعداء الله، وتحسبون ان الله لا يعلم سريرتكم وأسراركم ؟ . كيف وكل سر عنده علانية، وكل غيب عنده شهادة ؟ (ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل) . هذا تهديد ووعيد لكل من حاد عن طريق الهدى والحق بخاصة الخائنين والمتآمرين (ان يفتقروكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا اليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء) . لو سنحت الفرصة لأعداء الحق وظفروا بالؤمنين لسقوهم باللسنة حداد، وبسطوا اليهم الأيدي بالضرب والقتل (وودوا لو تكفروا) . هذه هي أمنية الشيطان بالذات الذي لا يريد للانسان إلا الضلال والملاك ، وأي عداة اعظم من هذا العداة ؟ (لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير) . لا الأموال والأولاد، ولا العلوم والأنساب تجدي نفعاً يوم الحساب والجزاء إلا العمل الصالح . وتكرر هذا المعنى في العديد من الآيات ، منها الآية ١١٦ من سورة آل عمران .

اسوة حسنة في ابراهيم الآية ٤ - ٧ :

قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ
إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَكُفْرَانَا بِكُمْ وَبَدَا يَفْتِنَنَا

وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ
 إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لِأَسْتَفْغِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا
 عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنبَأْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ * رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ
 كَفَرُوا وَآخِرُ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * لَقَدْ كَانَ لَكُمْ
 فِيهِمْ أَسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ
 فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ * عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ
 عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ *

المعنى :

الاسوة بضم الهزرة وكسرهما القدوة . وبرآء جمع بريء . والمراد بالفتنة هنا
 البلاء أي لا تتزل علينا بلاء بأيدي الكافرين . ويتول يعرض .

الإعراب :

في ابراهيم متعلق بحسنة ، وقيل بمقدر صفة ثانية لأسوة . والذين معه عطف
 على ابراهيم . اذ قالوا « اذ » ظرف والعامل فيه خبر كان المقدر . وبرآء خبر
 ان و « نا » اسمها . وأبدأ ظرف زمان لاستغراق المستقبل . وحده حال من الله .
 وربنا منادى بحذف حرف النداء . ولمن كان يرجو بدل بعض من « لكم » بإعادة
 حرف الجر .

المعنى :

(قد كانت لكم أسوة حسنة في ابراهيم والذين معه) . الخطاب في « لكم »

الجزء الثامن والعشرون

للصحابة خاصة حاطب بن أبي بلتعة الذي ألقى بالمودة للمشركين ، والمراد بالذين مع ابراهيم كل من سار على سيرته وعمل بشريعته، سواء أكان في أبيه أم بعدها، فالمعروف انه ما آمن من قوم ابراهيم إلا لوط ، والمعنى ان خليل الرحمن (ع) ومن آمن به قد لاقوا الكثير من المشركين حتى الهجرة من الأوطان ومفارقة الأهل والأولاد تماماً كما لاقى رسول الله والصحابة ، وقد صبر ابراهيم والذين معه ، ولم يكثرثوا بما خلفوه من الأهل والأموال ، فعليكم أنتم يا أصحاب الرسول أن تقتدوا بالذين آمنوا بابراهيم ، ولا تكثرثوا بالأهل والمال وتصانعوا المشركين لأجل ذلك .

(اذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده) . قال الذين مع ابراهيم للكافرين من قومهم : لا جامع بيننا ولا صلة تربطنا بكم ، أنتم أعداؤنا الى آخر يوم ما دمتم أعداء لله تعبدون من دونه الأصنام والكواكب .

(الا قول ابراهيم لأبيه لأستغفرون لك وما أملك لك من الله من شيء) . كأن سائلاً يسأل : كيف أخبر سبحانه ان ابراهيم والذين معه قد تبرأوا من قومهم المشركين مع ان ابراهيم نفسه ، قال - لأبيه - سلام عليك سأستغفر لك ربى انه كان بى حقيقاً - ٤٦ مريم ، . فأجاب سبحانه بأن ابراهيم انما استغفر لأبيه لأن أباه كان قد وعده بأن يؤمن برسالته ، فلما تبين له أن أباه مصر على الشرك تبرأ منه كما جاء في الآية ١١٤ من سورة التوبة : وما كان استغفار ابراهيم لأبيه إلا عن موعدة - من أبى ابراهيم - وعدها إياه فلما تبين له انه عدو لله تبرأ منه . هذا ، الى ان ابراهيم قال لأبيه : انى لا أملك لك من الله شيئاً ، فإن الأمر كله بيد الله وحده .

ثم بين سبحانه كيف انصرف ابراهيم والذين معه عن قومهم وأوطانهم ، والتجأوا الى الله وقالوا : (ربنا عليك توكلنا) . ومن توكل عليه كضاه (واليك أنبنا) . رجعنا اليك فيما أهمنا من أمر الدنيا (واليك المصير) في الآخرة للحساب والجزاء (ربنا لا تجعلنا فتنه للذين كفروا) . لا تسلط علينا شرار خلقك ، فيتلونا بحسن لا تقوى على حملها (واغفر لنا) ما سلف من ذنوبنا (ربنا انك

سورة المنتحة

أنت العزيز) فلا تُضام ولا يُضام من لجأ اليك (الحكيم) في تصريف الكون وتدييره .

(لقد كان لكم فيهم اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر) . ولزيد من الحث على التأمسي بابراهيم ومن معه عاود سبحانه وكرر التذكير بهذه القدوة الحسنة عسى أن يتذكر أو يخشى من رغب في ثواب الآخرة ، وخاف من عذابها (ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد) . من أعرض عن الاقتداء بالصلحين فإنه تعالى غني عن خلقه ، مستحق للحمد في ذاته وصفاته وجميع أفعاله .. وهكذا سبحانه يأمر الأشرار ان يتعظوا بعاقبة الماضين من أمثالهم ، ويأمر المؤمنين ان يقتدوا بهدي من مضى من الصالحين .

(عسى الله ان يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة) . يشير سبحانه بهذا إلى فتح مكة، وان الكثير من المشركين الذين نهاهم الله عن مودتهم سيدخلون في دين الله أفواجا .. وعندئذ يلتئم الشمل ، ويتبادل الصحابة المودة مع المسلمين الجدد (والله قدير) على ان يذهب بالعداوة وأسبابها ، ويأتي مكانها بالمودة وبواعثها (والله غفور رحيم) يغفر ذنوب عباده التائبين ويشملهم برحمته . وقد أنجز الله وعده ، ونصر عبده محمداً ، فخضعت له الجزيرة العربية واستسلمت مكة ودخل أهلها في دين الاسلام أفواجا ، وحصلت المودة بين من كانوا بالأمس أعداء الداء .

لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوك الآية ٨ - ٩ :

لَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ *

اللغة :

البر كلمة تجمع معاني الخير والاحسان . والقسط العدل ، وقيل : المراد به هنا القصة ، وان معنى أن تقسطوا اليهم أن تعطوهم قسطاً من أموالكم . وظاهروا عاونوا وعاضدوا . وأن تولوهم أن توادوهم وتحببهم .

الإعراب :

المصدر من ان تبروهم بدل اشتمال من الذين لم يقاتلوكم ، ومثله المصدر من ان تولوهم .

الدول الصديقة والمعادية :

دعا القرآن الكريم الى السلم ، ونهى عن القتال إلا للدفاع عن النفس ، أو لنصفه المظلوم من ظالمه ، والى السب الأول تشير الآية ١٩٠ من سورة البقرة : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » . أما السب الثاني فقد أشارت إليه الآية ١٠ من سورة الحجرات : « وان طائفتان من المؤمنين اقتلوا فأصلحوا بينها فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله » . وأنكر القرآن حروب التخريب والاستيلاء على الأقوات ومصادر الثروات : « ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين - ٨٥ هود » . وقال أيضاً : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين - ٨٣ القصص » . وهذه الآية من الآيات التي تربط الآخرة بالدنيا ، والنشأة الثانية بالنشأة الأولى . انظر تفسير الآية ١٤٢ من سورة آل عمران ج ٢ ص ١٦٥ فقرة « ثمن الجنة » .

أما السلم فقد حث عليه القرآن في العديد من الآيات ، منها : « يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة - ٢٠٨ البقرة » . ومنها : « ادعُ الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة - ١٢٥ النحل » . وتقرر هذه الآية مبدأ المفاوضات

سورة المتحنة

لحل المشاكل الدولية وغيرها بالطرق السلمية ، بل دعا القرآن الكريم الى أخوة عالمية تقوم على أساس التعارف والحب والبر والعدل ، قال تعالى : « وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا - ١٣ الحجرات » . فالتعارف والتآلف هو الهدف من تعدد الشعوب والقبائل ، أما البر والعدل فهي موضوع الآيتين اللتين نحن بصددهما ، ونترك الكلام عنها للاستاذ خالد محمد خالد ، قال :

« ان المبدأ الذي يرسم علاقتنا السيدة الرشيدة بمركة اليسوم يتمثل في قول الله تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم . أن تبرههم وتقسطوا اليهم ان الله لا يحب المقتولين ، انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » .

« والآن فلنسال أنفسنا وسكان الأرض جميعاً : من من الدول يقاتلنا في ديتنا ، ويخرجنا من ديارنا ، ويظاهر على إخراجنا ؟.. من الذين شردوا عرب فلسطين ، وانتهبوا منهم أموالهم وأرضهم وعرضهم وديارهم ؟.. من الذين مكثوا اسرائيل وزودوها بالمال والعتاد ، وقالوا لها كوني شوكة الجنب للعرب ؟.. من الذين قتلوا ولا يزالون يقتلون الكهول والولدان والنساء ؟.. من الذين حبسوا عنا السلاح وسرقوا أقاتنا ؟.. من الذين يقفون في المحافل الدولية ضد حقوقنا ، ويناصرون علينا أعداءنا ؟..

« هؤلاء ايها السادة هم الذين ينهانا الله في كتابه ان نبرهم ، ونتخذ منهم اولياء وحلفاء .. وهناك آية أخرى تكشف عن وجه آخر لعلاقتنا مع هؤلاء ، وهي : « قاتلوا الذين يقاتلونكم » . ان الله لا يرضى ان نكون سلبين مع هؤلاء الذين تحالفوا على مصيرنا بل يحرضنا على قتالهم لأنهم البادئون والظالمون .. أي سند من دين ؟. أي سند من خلق يعتمد عليه أولئك المجرمون الذين بدعوتنا لصداقة الغرب والتحالف معه ؟. ولا أعرف صورة من صور الإلحاد في الدين والتكوص عن الشرف والحق والواجب أبشع من هذه الصورة والدعوة التي تحيي قاتلها وتموت في سبيل جلادها .. أقاتل الذين يسلوننا ، ونسلم الذين يقاتلوننا ، ويذبوننا ذبح النعاج ؟.. كيف وقد زفوا اليينا في ليلة سوداء عروس الشرق

الأوسط اسراييل ، وازدادوا بها جثوماً على بلادنا وتقتيلاً لأنفسنا وأحرارنا ،
وتشتيتاً لكياننا ووحدةنا ؟ .. فن كان صاحب وعي فليتنفع بالتجربة ، ومن كان
صاحب دين فليقرأ قول ذي الجلال : « قاتلوا الذين يقاتلونكم » .

وبعد ، فقد اقتطفنا هذه الكلمات من كتاب الدين في خدمة الشعب، المطبوع
سنة ١٩٦٣ ، ولو ان الاستاذ خالداً كتب اليوم في هذا الموضوع لما زاد حرفاً
واحداً عما كتبه منذ سبع سنوات لأنه على علم اليقين من ان ما حدث في حزيران
١٩٦٧ وما يحدث الآن هو جزء من مخطط وضعه سلفاً المستعمرون والصهيانية ،
وأعانهم على تنفيذه الذين يستميون « في سبيل جلاّد أمتهم » . وأيضاً يستميت
هذا الجلاّد في سبيل « حكامه » من العرب والمسلمين حرصاً على مصالحه وأغراضه.

واتفق فقهاء المذاهب على ان الصدقة غير الواجبة تجوز من المسلم على الذمي من
أهل الكتاب ، بل قال أبو حنيفة : تجوز عليه زكاة الفطر والكفارات . وأيضاً
اتفقوا على جواز الوصية له بالمال ، والوقف عليه ، واستدلوا على ذلك بقوله
تعالى : لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين الخ .

إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات الآية ١٠ - ١١ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ
أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ
لَا مِنْ حِلٍّ لهنَّ وَلَا لَهُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَأَتَوْهُنَّ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ
عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ
الْكُوفَرِ وَأَسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَيْسَ أَلْوَا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ
بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ

فَعَاقِبْتُمْ فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي
أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ*

: اللغة :

فامتنحون أي اختبروهن . فإن علمتموهن مؤمنات أي أظهرن الإيمان . لا جناح لا إثم . والعصم ما يعتصم به من عقد الزواج وغيره . والكوافر جمع كافرة . وان فانكم شيء من أزواجكم أي ذهب أحسدى أزواجكم . فعاقبت أي ظفرت بالكفار وكانت لكم العقبى عليهم .

: الإعراب :

مهاجرات حال من المؤمنات . ومؤمنات مفعول ثانٍ لعلمتموهن . وترجموهن هنا بمعنى تردوهن ولذا عُدِّي الفعل إلى المفعول . والمصدر من أن تتكحوهن مجرور بفي مقدرة .

: المعنى :

في سنة ست من الهجرة عقد النبي (ص) صلح الحديبية مع قريش . أنظر تفسير الآية ١٠ من سورة الفتح فقرة ١ خلاصة القصة ، وجاء في عهد الصلح : ان من أتى محمداً (ص) من قريش رده عليهم ، ومن أتى قريشاً من عند محمد (ص) لم يردوه عليه . وقال المفسرون : بعد ان تم الصلح بين الطرفين جاءت امرأة من قريش مهاجرة إلى رسول الله (ص) وجاء زوجها على أثرها ، وكان مشركاً ، فقال : يا محمد ، اردد عليّ امرأتي ، فإنك شرطت لنا ان ترد علينا من أهلك منا .. فترلت هاتان الأيتان لبيان حكم الزوجات اللاتي آمن من دون أزواجهن ، واللاتي ارتددن عن الاسلام . وفيها يلي التفصيل :

١ - (يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن) . يقول سبحانه للمسلمين : إذا جاءتكم امرأة من دار الشرك ، وقالت : أتيت مؤمنة بالله ورسوله فاخبروها . واختلف المفسرون في أي شيء يختبرها المسلمون ؟ . وأرجح الأقوال أن تشهد المرأة ان لا إله إلا الله وان محمداً رسول الله ، لأن الرسول الأعظم (ص) كان يكتفي بذلك لاثبات الاسلام ، وعليه لإجماع المسلمين ، ولقوله تعالى بلا فاصل : (الله أعلم بإيمانهن) أي خلدوا بالظاهر ، أما الباطن فهو لله وحده ، وللآية ٩٤ من سورة النساء : « ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمناً » . فبالأولى ان لا تقول ذلك لمن نطق بالشهادتين .

(فان علمتموهن مؤمنات) أي نطقن بالشهادتين (فلا ترجعوهن الى الكفار لا من حل لهم ولا هم يحلون لمن) . لا تعيدوا الى الزوج المشرك - أيها المسلمون - زوجته التي هاجرت اليكم مؤمنة لأنها لا تحمل له بعد ان انقطعت العصمة بينها . وان سأل سائل : ان قوله تعالى : « لا من حل لهم » يعني عن قوله : « ولا هم يحلون لمن » فما هي فائدة التكرار ؟ قلنا في جوابه : من الجائز أن يكون التكرار للإشارة الى أنه لا أثر لاعتقاد المشرك أنها ما زالت في عصمته وأيضاً يجوز أن يكون لمجرد التأكيد (وآتوهم ما انفقوا) . ولكن ردوا أيها المسلمون الى الأزواج مثل ما أعطوا الزوجات من المهر . ويختص هذا الحكم بحال الهدنة بين الرسول والمشركين ، ولا ينسحب الى ما بعدها ، لأن المهر يستقر على الزوج بمجرد الدخول ، ولا يسقط بانفساخ العقد ، سواء أسلمت هي من دونه أم أسلم هو من دونها .

٢ - (ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتهن أجورهن) . للمسلم أن يتزوج المهاجرة المؤمنة بعد أن حرمت على زوجها ، شريطة أن يفرض لها المهر مهراً ، وأن يتم الزواج بعد انقضاء العدة من المشرك اذا كان قد دخل بها .

٣ - (ولا تمسكوا بهنم الكوافر) . اذا كان الزوجان مشركين ، وأسلم هو من دونها حرمت عليه لانقطاع العصمة بينها تماماً كما لو أسلمت هي من دونه.. وكذلك لو كانا مسلمين ، وارتد أحدهما عن الاسلام (واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا) إذا أسلم هو من دونها يحق له أن يطالب بما أعطاهما من المهر ، تماماً

سورة المنتحة

كما يحق للمشارك أن يطالب بمهر زوجته المؤمنة (ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم) . هذا الحكم فرض لا تجوز معصيته ، فلقد شرعه سبحانه لحكمة هو بها أعلم .

(وان فانكم شيء من أزواجكم الى الكفار فعاقبتم فأتوا الذين ذهبتم أزواجهم منكم - مثل ما انفقوا) . اذا هربت زوجة المسلم الى الكفار مرتدة عن دينها ، ولم يردوا الى زوجها المهر فردوا أنتم اليها المسلمون المهر الى الزوج من الفئام التي تكسبونها من الكفار (واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون) . اتقوا محارم الله ، وامثلوا أحكامه ان كنتم صادقين في ايمانكم .

اذا جاءك المؤمنات يبايعنك الآية ١٢ - ١٣ :

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِيهْتَانٍ يَفْتَرِيْنَهُ بَيْنَ أَيْدِيْنَهُمْ وَأَرْجُلِيْنَهُمْ وَلَا يَعْصِيْنَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْنَهُمْ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ *

اللغة:

يبايعنك أي يلتزم بطاعتك . ومن بين أيديهن وأرجلهن كناية عن بطونهن وبأني البيان .

الإعراب :

فبايعهن جواب اذا جاءك . ومن أصحاب القبور على حذف مضاف أي من
بعث أصحاب القبور والمجرور متعلق ببيش .

المعنى :

(يا أيها النبي اذا جاءك المؤمنات يباعتك) . لما فتح رسول الله (ص) مكة
بايع الرجال على الطاعة والجهاد ، ثم بايع النساء :

١ - (على ان لا يشركن بالله شيئاً) . انظر دليل التوحيد في ج ٢ ص ٣٤٤ .
٢ - (ولا يسرقن) من أزواجهن ولا من غيرهم . وفي كتب التفسير والحديث
ان هند ام معاوية قالت لرسول الله عند هذا الشرط: ان أبا سفيان رجل شحيح ،
وقد أصبت من ماله ، فأقرتها النبي (ص) على ان لا تزيد عن حاجتها وحاجة
أولادها .

٣ - (ولا يزنين) . انظر ج ٥ ص ٤٢ و ٣٩٧ .

٤ - (ولا يقتلن أولادهن) . كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية
الفقر كما أشارت الآية ٣١ من سورة الإسراء : « ولا تقتلوا أولادكم خشية اطلاق
نحن نرزقهم وابائكم » .

٥ - (ولا يأتين ببهتان يفتريه بين أيديهن وأرجلهن) . هذا كناية عن
البطون ، لأن مكان البطن بين اليدين والرجلين ، والمعنى ان لا تكذب المرأة فيما
تخبر به من الحمل والطمهر والحيض ، فلا تقول : انها في طهر وهي حائض أو
العكس ، ولا تدعي الحمل وما هي بحامل .. وبعض النسوة تدلس على الزوج ،
فتورمه انها حامل ثم تدعي انها أسقطت أو تأتت بلقيط تنسبه الى الزوج زوراً وبهتاناً .

٦ - (ولا يعصينك في معروف) ولا يأمر النبي (ص) إلا بمرعوف ، ولا
ينهى إلا عن منكر (فبايعهن) على الوفاء بما ذُكر (واستغفر لمن الله) ما
تقدم من ذنوبهن (ان الله غفور رحيم) يغفر للتائبين والثابتات ، ويشملهم برحمته .
(يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة)

سورة المتحنة

كما يشك الكفار من أصحاب القبور . خاطب سبحانه المؤمنين في أول هذه السورة بقوله : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء . وختمها سبحانه بمثل هذا الخطاب ، والفرض تحذير المؤمنين من أعداء الله والحق ، وان لا يأمنوهم على شيء من أخبار الرسول (ص) والمسلمين ، ولا يركنوا الى أكاذيبهم وديسائسهم ، لأنهم لا يرجون لقاء الله ، والبعث عندهم تماماً كرجوع الموتى الى الحياة الدنيا ، ومن أجل هذا غضب الله عليهم وأعد لهم عذاباً أليماً .

سورة الصف

١٤ آية مدنية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.

كانهم بيان مرصوص الآية ١ - ٦ :

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ
تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ * إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُعَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا
كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُورٌ * وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ
تُؤَدُّونَنِي وَقَدْ تَعَلَّمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ
قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ * وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي
إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا
بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا
سِحْرٌ مُبِينٌ *

اللغة :

المقت أشد البغض . والمرصوص كناية عن البناء المحكم حتى كأنه بُني بالرصص .
والزبيغ الانحراف عن الحق .

الإعراب :

مقتاً تمييز . والمصدر من أن تقولوا فاعل كبر أي كبر هذا القول مقتاً .
وصفياً مصدر في موضع الحال من فاعل يقاتلون أي مصطفين . ومصدقاً حال من
رسول الله . وجملة اسمه أحمد محلها الجر صفة لرسول المجرور بالباء .

المعنى :

(سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم) . شهد كل
كائن بلسان المقال أو الحال لله سبحانه بالقدرة والحكمة . وتقدم بالحرف الواحد
في أول سورة الحديد وأول سورة الحشر ، وتكلمنا مفصلاً عن تسييح الكائنات
عند تفسير الآية ٤٤ من سورة الاسراء .

(يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون) ١١ . كثير من الناس يتعمدون
الكذب والخداع ، فيتصرفون في الخفاء ما لا يبدوه علانية .. وليس من شك
ان هؤلاء منافقون بكسل ما في كلمة النفاق من معنى ، ومن ثم فلا يصح ان
يخاطبوا بيا أيها المؤمنون ، وان تظاهروا بالايمان ، ومن الناس من يقول ويعد
ببنية الصديق والوفاء ، ولكن تعرّضه ظروف لا قبيل له بها ، فيعجز عن الوفاء
على الرغم مما بذله من جهد ، وهذا معذور ، مسا في ذلك ريب ، ومنهم من
يقول ويعد ببنية الوفاء ، ولكن اذا جاء أوان العمل وتبيأت له الأسباب تراجع
والغنى ارادته كسلاً أو جبناً أو بخلاً ، وهذا مؤمن ولكنه مؤمن متهاون ضعيف
في ارادته وأمام نفسه الأمارة بالسوء .

وهذا النوع من الناس هم المخاطبون بقوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لم

الجزء الثامن والعشرون

تقولون ما لا تفعلون كبر مقتاً عند الله ان تقولوا ما لا تفعلون) . ومنن باه بغضب الله فقد هوى الى عذاب السعير . وقال كثير من المفسرين : ان جماعة من الصحابة كانوا قبل ان تنهيا أسباب الأمر بالقتال يتمنون ان يفرض عليهم ، فلما نهيت أسبابه وفرض عليهم ثاقل فريق منهم ، فنزلت فيهم هذه الآية . وليس هذا بعيد لأن السياق يوميء اليه حيث قال سبحانه بلا فاصل : (ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص) أي محكم ثابت كأنه بني بالرصاص ، ونُقل عن علماء الآثار انهم عثروا على أبنية قديمة بنيت بالرصاص ، وقال تعالى حكاية عن ذي القرنين : « آتوني أفرغ عليه قطراً - ٩٦ الكهف » والمقطر الرصاص أو النحاس المذاب .. ومن نافلة القول : ان الله سبحانه يحب تماسك الجماعة وتمازجها في كل ما يعود عليها بالخير والصلاح .

(وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون اني رسول الله اليكم . هذا السؤال يحصل جوابه معه لأن بني اسرائيل هم قتلوا الأنبياء بنص كتابهم المقدس عندهم ، فقد جاء في سفر نحميا اصحاح ٩ آية ٢٦ ما نصه بالحرف : « وعصوا وتمردوا عليك - أي على الله - وطرحوا شريعتك وراء ظهورهم وقتلوا أنبياءك الذين أشهدوا عليهم ليردوهم اليك ، وعملوا اهانة عظيمة » . أما القرآن الكريم فقد سجل عليهم قتل الأنبياء في أكثر من آية . ولو ان قاتلاً يقول : لا شيء أدل على نبوة موسى من إساءة بني اسرائيل اليه ، وهو متقنهم والمحسن اليهم ، وعلى نبوة عيسى من اقلدهم على صلبه ، لو قال هذا قاتل لكان لقوله وجه وجهه .

أما إساءة بني اسرائيل الى موسى فهي على ألوان ، قالوا له : أرنا الله جهرة . وقالوا له : فاذهب أنت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون . وقالوا له : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة . وقالوا له : لن نصبر على طعام واحد .. الى غير ذلك . (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) . وهذه الآية تنص بصراحة على ان الله سبحانه لا يزيغ أحداً إلا اذا زاغ هو بسوء اختياره ، ولا يبين مخلوقاً ويهلكه إلا اذا هو عرض نفسه للهلكة والموان .. فلا فرق أبداً بين معنى هذه الآية ومعنى قول القاتل : من طمع بالحرام أذله الله وأخزاه ، ومن اقتنع بالحلل أعزاه وأغناه .. وبهذه الآية نفسر الآيات التي نسبت بظواهرها الإضلال الى الله مثل « يفسل من

سورة الصف

يشاء ، أي انه تعالى قد شاء وأراد أن يضل من يسلك سبيل الضلال ، ويهلك من أراد الهلاك لنفسه (والله لا يهدي القوم الفاسقين) ما داموا مصرين على الفسق .

(واذا قال عيسى بن مريم يا بني اسرائيل اني رسول الله اليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد) يعني محمداً (ص) وفي آية ثانية : « النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل - ١٥٧ الأعراف » . وفي ثالثة : « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وان فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون - ١٤٦ البقرة » أعلن القرآن وأصر على ان التوراة التي أنزلت على موسى والانجيل الذي أنزل على عيسى قد بشرا بنبوته محمد ، وجابه هذا الحقيقة علماء اليهود والنصارى وتحداهم أن يكذبوا، وما ذكر التاريخ ان أحداً منهم كذب وأنكر ، بل أثبت ان المنصفين منهم اعترفوا وأسلموا كعبداً لله بن سلام وغيره مع العلم انهم كانوا ينصبون العدا لرسول الله ، ويبحثون جاهدين عن زلة يدينونه بها .

تحريف التوراة والانجيل :

وتسأل : بماذا يجيب المسلم اذا قال له يهودي أو نصراني : لقد نص قرآنكم على ان التوراة والانجيل بشرا بنبوته محمد (ص) مع انه لا أثر له البشارة فيما لدينا من نسخ التوراة والانجيل ؟ .

الجواب : إذا سأل هذا السؤال يهودي أو نصراني فللمسلم ان يقول له : لقد أجاب عن سؤالك هذا علماء اليهود والنصارى أنفسهم ، حيث اعترفوا صراحة بأن التوراة الأصلية التي نزلت على موسى قد فقدت ، وبعد سنين طوال ادعى من ادعى بأنه يحفظها عن ظهر قلب ، وكتب دعواه هذه ، ثم قال لها كوني توراة موسى فكانت .. ونفس الشيء حدث للانجيل الاصيل الذي أنزل على عيسى .. ومن الطريف ان انجيل السيد المسيح (ع) قد أولد بعد أن فقد عشرات الأناجيل حتى تجاوز عددها الخمسين .. وفي سنة ٣٢٥ م اجتمع رؤساء النصارى ، وأقرروا ٤ أناجيل مع ان عيسى نزل عليه انجيل واحد فقط لا غير باتفاق النصارى ،

الجزء الثامن والعشرون

فا الذي جعل الواحد أربعة ؟ ولو أقرؤا ثلاثة أناجيل لقلنا : لكل اقنوم انجيل .. ولا شيء أدل على ان هذه الأناجيل من رجال الكنيسة لا من المسيح أنها تحدثت عن صلبه ودفنه وخروجه من القبر وصعوده الى السماء واختتام حياته على الأرض ، فهل نزل عليه الوحي بعد أن صُلب ودُفن ؟ وإذا أمكن ذلك فهل من الممكن في حكم العقل والواقع أن ينزل عليه الوحي الذي دُوّن في الانجيل بعد أن صعد الى السماء واختتم حياته على الأرض ؟ .

سؤال ثانٍ : وأين نجد هذا الاعتراف من علماء اليهود والنصارى ؟ .

الجواب : في العديد من كتبهم العربية والأجنبية ، فن الكتب العربية قاموس الكتاب المقدس الذي اشترك في وضعه ٢٧ عالماً ، فلقد جاء في مادة يوشيا من هذا الكتاب ما نصه بالحرف : « مما لا شك فيه ان معظم الأسفار المقدسة أُنلفت أو فقدت في عصر الارتداد عن الله والاضطهاد » . وفي مادة اسفار : « هناك رأي يقول : ان الذي أضفى صفة القانون على اسفار العهد القديم هم كتاب الأسفار أنفسهم .. ورأي آخر يقول : هم الكتاب المقدودون - أي المؤيدون - بالروح القدس ، ومعهم قادة الدين من اليهود والمسيحيين الذين قبلوا هذه الأسفار بإرشاد الروح القدس أيضاً » . وهذا اعتراف لا يقبل الشك بأن الأسفار الأصلية فقدت ، وان جماعة قد كتبوا ما كتبوا أسفاراً وأضفوا عليها صفة القداسة من عند أنفسهم على قول ، وبتأييد الروح القدس على قول آخر .. وسواء أخذنا بالقول الأول أم الثاني فالنتيجة واحدة ، وهي الاعتراف القاطع بأن الأسفار الموجودة الآن ما هي بأسفار موسى وعيسى الأصلية لأن هذه قد فقدت ، وحل محلها أسفار جديدة كتبها الذين زعموا القداسة لأنفسهم أو زعمها لهم قوم آخرون ، وكلهم مؤيدون بالروح القدس .. والروح القدس عندهم هو روح الله الاقنوم الثالث ، وسمي الله روحاً لأنه مبدع الحياة : وقدساً لأن من عمله تقديس قلب المؤمن على حد تعبيرهم .

وقد وضع علماء الاسلام عشرات الكتب للدلالة على تحريف التوراة والانجيل ، منها كتاب « اظهار الحق » للشيخ رحمة الله الهندي ، وفيه مئة شاهد على تحريف التوراة والانجيل لفظاً ومعنى ، أشار الى هذا الكتاب صاحب تفسير المنار عند

سورة الصف

تفسير الآية ٤٦ من سورة النساء . ومن هذه الكتب الرحلة المدرسية للشيخ جواد البلاغي ، وكتاب محمد رسول الله في بشارات الأنبياء ، لمحمد عبد الغفار ، وكتاب محمد رسول ، هكذا بشرت الأنجيل ، لبشري زخاري ميخائيل ، وآخر كتاب قرأته في هذا الموضوع «البشارات والمقارنات» للشيخ محمد الصادق الطهراني صدر حديثاً ، وهو متخّم بالشواهد القاطعة من كتب اليهود والنصارى على تحريف التوراة والأنجيل المتداولة الآن .

(فلما جاءهم - أي جاء عيسى بنى اسرائيل - بالبينات قالوا هذا سحر مبين) . لم يكتب اليهود بقولهم عن السيد المسيح (ع) : انه ساحر ، حتى قالوا : هو ابن النجار ، كما جاء في انجيل متى اصحاح ١٣ آية ٥٥ وانجيل مرقس اصحاح ٦ آية ٣ .. ينص الانجيل على ان اليهود قذفوا السيدة العذراء بالزنا .. ومع هذا نرى الكثير من النصارى يتحالفون مع الصهيونية عدوة الأديان والانسانية بخاصة المسيحية - يتحالف الكثير منهم مع الصهاينة ضد الاسلام وأهل القرآن الذي يقول : « ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة - ٧٨ المائدة » .. وان دل هذا التحالف على شيء فإنما يدل على ان المسيحية عند انصار اسرائيل هي مجرد شعار لمآرب أخرى ، وان دينهم وضميرهم هو الاستيلاء والاعتداء تماماً كالصهاينة .

والله من نوره الآية ٧ - ١٤ :

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ
وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ
وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ
وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَاهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ * يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَذِلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ * تُوْمِنُونَ

بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ
لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِينَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ *
وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ * يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ
مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَّا تَطَائِفُ
مَنْ بَيْنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ
فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ *

اللغة :

المراد بالاسلام هنا الاستسلام لأمر الله والانقياد لأوامره ونواهيه . والمراد بنور
الله دينه وبراهينه . وأفواههم كناية عن أكاذيبهم وأباطيلهم . ومنم مظهر .
وحواريو الرجل خاصته . وظاهرين غالبين .

الاعراب :

وهو يدعى الى الاسلام الجملة حال . ومفعول يريدون محذوف ، والمصدر
من ليطفئوا مفعول لأجله مع ذكر اللام أي يريدون الافراء لأجل اطفاء
نور الله . والله من نوره الجملة حال . ويغفر بالجزم جواباً لتؤمنون لأنه أمر
بصيغة الخبر أي آمنوا يغفر لكم . ويدخلكم عطف على يغفر . ومسكن عطف

سورة الصف

على جنات . وأخرى مبتدأ والخبر مخلوف أي ولكم أخرى ، وجملة تحبوننا صفة
لأخرى . ونصر بدل من أخرى .

المعنى :

(ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى الى الاسلام) ١ . دعارسول
الله (ص) قومه الى نبذ الشرك والايمان بالله وحده ، فضايقوا به وتألوا عليه ،
وأثاروا حوله الشكوك والافتراءات .. وهكذا يلجأ المبطل المعاند الى اختلاق
الأكاذيب ، وتلفيق الأباطيل كلما دعي الى الحق ، سواء أكان الداعي نبياً أم غير
نبي (والله لا يهائي القوم الظالمين) الذين يفترون على الله الكذب ، ومثله :
« لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى ٦١ طه ،
ج ٥ ص ٢٢٦ . (يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله ممّن نوره ولو كره
الكافرون) . حاولوا القضاء على الاسلام بالدسائس والأكاذيب ، فكان مثلهم في
ذلك تماماً كالذي ينازع الله في سلطانه ، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس
لا يعلمون .

(هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره
المشركون) . المراد بالرسول هنا محمد ، وبالهدى القرآن ، وبدين الحق الاسلام.
وقد وردت هذه الآية والتي قبلها بالحرف الواحد في سورة التوبة الآية ٣٢ و ٣٣
ج ٤ ص ٣٣ وما بعدها (يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من
عذاب أليم) . الدنيا في حقيقتها متجر لكل الناس بلا استثناء .. أبدأ لا أحد في
هذه الحياة إلا وتنطبع أعماله وتصرفاته بقصد المصلحة والربح ، ولكن المصلحة
منها بشعة وقيحة كالذي يعمل لمجرد الشهرة وتكديس الثروة بكل سبيل ، ومنها
مصلحة حسنة وخيرة كالذي يعمل لسد حاجاته وحاجات الآخرين .. ولأن الربح
هو الدافع الأول على العمل فقد عرض سبحانه على عباده تجارة يربحون بها النجاة
من غضبه وعذابه ، والفوز بمرضاته وثوابه ، ولا ربح كالأمان والجنان ، وقد
حدد سبحانه ثمن هذا الربح بقوله :

الجزء الثامن والعشرون

(تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم) . هذا هو الثمن : إيمان لا يشوبه ريب ، وتضحية بالنفس ، وإيثار بالمال ، ومتى تحقق ذلك تم الصفقة مع الله ، ومن أوفى بعهده منه تعالى ؟ . وفي نهج البلاغة : ليس لأنفسكم ثمن إلا الجنة فلا تبيعوها إلا بها (ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون) ان النجاة من عذاب الله والفوز بثوابه خير من الأنفس والأموال والأولاد .

(يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن) . هذا بيان وتفصيل للريح الذي ينالونه من هذه التجارة ، وأول هذا الريح غفران الذنوب ، ولا حر عند الله إلا من تحرر من ذنوبه وآثامه ، والريح الثاني ملك قائم ، ونعيم دائم (ذلك الفوز العظيم) الذي لا فوز أعظم منه (وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين) . المراد بالنصر والفتح القريب فتح مكة كما يتبادر الى الأذهان .. وكان الصحابة يتلهفون على هذا النصر لكثرة ما لاقوه من مشركي أهل مكة . فأمر سبحانه نبيه الكريم ان يشرهم بهذا النصر وقربه بعد البشارة بالغفران والجنان .

(يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى بن مريم للحواريين من أنصاري الى الله قال الحواريون نحن أنصار الله) . الخطاب في يا أيها الذين آمنوا للصحابة بأمرهم الله فيه أن يكونوا مع رسوله العظيم كما كان الحواريون مع عيسى قولاً وفعلاً . وتقدم مثله في الآية ٥٢ من سورة آل عمران ج ٢ ص ٦٧ .

وفي قاموس الكتاب المقدس : « يسمى يسوع الناصري - أي عيسى - .. والنسبة تعود الى مدينة الناصرة .. ومعنى يسوع « يهوه مخلص » وهو اسمه الشخصي ، أما المسيح فهو لقبه .. ويقال المسيح لأنه مكرس للخدمة والفسداء .. ودُعِيَ المؤمنون مسيحيين سنة ٤٢ أو ٤٣ م .. ويرجع ان هذا اللقب كان في أول الأمر شتيمة .. وبين عيسى وموسى أكثر من ١٢٠٠ سنة وأقل من ١٤٩١ لأن المؤرخين على أقوال في ذلك أكثرها ١٤٩٠ وأقلها ١٢١١ .

(قامت طائفة - بعيسى - من بني اسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا حل عدوهم فأصبحوا ظاهرين) . المراد بظاهرين الغالبون بالحجة والبرهان ،

سورة الصف

والمعنى ان بني اسرائيل اختلفوا في عيسى ، وهو منهم ، فنتهم من قال : هو عبد الله ورسوله ، وقال آخرون : هو إله . وقال اليهود : ساحر وابن زنا ، فأيد الله سبحانه بالحجة والبرهان القائلين هو رسول الله على الجاحدين والمؤلفين . وفي رسائل يوحنا ان ضد المسيح هو من أنكر التجسد واتحاد لاهوت المسيح بناسوته . أما القرآن فيقول : ان أعداء المسيح هم الغالون فيه والقائلون له .

سورة الجمعة

١١ آية مدنية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بعث في الأميين رسولا ١ - ٤ :

يُسَبِّحُ اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ
الْحَكِيمِ * هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ
وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ
مُبِينٍ * وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * ذَلِكَ
فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ *

: اللغة

المراد بالأميين هنا للعرب ، لأن الغالبية العظمى منهم كانت لا تقرأ ولا تكتب ،
وقيل المراد بهم أهل مكة نسبة إلى أم القرى . ويزكئهم يطهرهم من أرجاس
الشرك والآثام .

الإعراب :

منهم متعلق بمحذوف صفة للرسول . وجملة يتلو صفة ثانية . وآخرين عطف على الاميين . ولما أي لم .

المعنى :

(يسبح لله ما في السموات وما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم) . كل ما في الكون يدل على وحدانية الله وقدرته ، وهذا تسييح وتمجيد بالطبع ، والملك المسيطر ، والقدوس المتزه عما لا يليق ، والعزيز الذي لا يُقهر ، والحكيم في جميع تصرفاته . وتقدم مثله في أول سورة الحديد والحشر والصف .

(هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم) . المراد بالرسول محمد (ص) وبالاميين العرب ، ووصفهم سبحانه بالاميين لأن أكثرهم آنذاك كانوا لا يقرأون ولا يكتبون . وذهب البعض الى ان المراد بالاميين هنا أهل مكة لأن «ام القرى» من أسمائها ، ويردُّ هذا القول أولاً : ان المتبادر الى الافهام من هذه الكلمة علم القراءة والكتابة . ثانياً : قوله تعالى : « ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب - ٧٨ البقرة » والقرآن يفسر بمضه بعضاً . ثالثاً : قول الرسول الأعظم (ص) : « نحن أمة أمية لا نكتب ولا نحسب » . وقال بعض أهل الكتاب : ان قوله تعالى : « بعث في الاميين رسولا منهم » يدل ان محمداً نبي العرب خاصة . وقد أجبنا عن ذلك مفصلاً عند تفسير الآية ٩٢ من سورة الأنعام ج ٣ ص ٢٢٥ وعند تفسير الآية ٤٠ من سورة الأحزاب ج ٦ ص ٢٢٥ فقرة «لماذا ختمت النبوة بمحمد» . ثم حدد سبحانه مفهوم رسالة نبيه الكريم بما يلي :

١ - (يتلو عليهم آياته) . ييلفهم رسالات ربه التي تسيير بهم على طريق الحياة والنجاة .

٢ - (ويزكهم) يطهر نفوسهم من الشرك ، وعقولهم من الجهل، وأعمالهم من القبائح والآثام .

٣ - (ويعلمهم الكتاب) . ينقلهم من ظلمات العمى والجهل الى نور العلم والهداية بتعاليمه التي تمجد العلم ، وتنبذ الخرافات ، وترتكز على العقل والفطرة البشرية .

٤ - (والحكمة) . وكل ما يهدي الى الخير في العقيدة والسلوك فهو حكمة . قال ابن عربي : « الحكمة صفة يحكم بها ولا يحكم عليها » أي تعلق ولا يُعل عليها .

والخلاصة ان رسالة محمد(ص) رسالة انسانية عامة تخاطب الناس بخطاب العقل ، وتحاسبهم بحسابه ، والصفة الهامة التي امتاز بها الاسلام عن سائر الأديان انه يرحب بكل دراسة موضوعية منصفة عن أي مبدأ من مبادئه وحكم من أحكامه دون استثناء (وان كانوا من قبل لفهم ضلال مبین) من الشرك والجهل والظلم والحقد ، وما الى ذلك من القبائح والردائل .

(وآخرين منهم لما يلحقوا بهم) . المراد بالآخرين كل من دخل في الاسلام بعد محمد (ص) الى يوم القيامة عربياً كان أم غير عربي ، والمعنى ان محمداً هو نبي الرحمة لجميع الأجيال : ودعوته عامة للناس أجمعين ، وقد آمن بها العرب في عهده ، ويؤمن بها الأجيال المتتابعة من سائر الأمم الى يوم يُبعثون (وهو العزيز الحكيم) . وببرزته وقدرته أعز الاسلام ونشره في شرق الأرض وغربها ، وبحكمته تعالى اختار محمداً لرسالته العامة الشاملة (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) . ذلك اشارة الى ان محمداً فضل من الله ورحمة للانسانية جمعاء ، ومثله : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين - ١٠٧ الأنبياء » .

كمثل الحمار يحمل أسفاراً الآية ٥ - ٨ :

مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً
بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ * قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنَّ زَعْمَكُمْ أَنكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ

سورة الجمعة

النَّاسِ فَتَمَنُّوا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلَا يَتَمَنَّوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ
أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * قُلْ إِنْ الْمَوْتَ الَّذِي تَهْرُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ
مَلَائِكَتُكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ *

اللفظ :

حلوا التوراة أمروا أن يعملوا بها . لم يحملوها لم يعملوا بها . والاسفار جمع
سفر وهو الكتاب . والغيب ما غاب علمه عن الخلق ، وعالم الشهادة ما
علموه وشاهدوه .

الإعراب :

مثل فاعل بش . والذين كذبوا صفة للقوم ، والمخصوص بالتم محنوف أي
بش مثل القوم الذين كذبوا مثلهم . وجملة فإنه ملائكتكم خبر ان الموت .

المعنى :

(مثل الذين حلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل اسفارا) . قال
اليهود : نحن أهل التوراة وهي كتابنا المقدس ، ومع هذا ينكرون محمداً الذي
نصت عليه التوراة ، فكان حالهم في ذلك تماماً كحال الحمار يحمل كتب العلم على
ظهره ، ولا يعقل ما فيها ويتنقع بشيء منها !.. لقد حرف اليهود توراة موسى
وغيرها من الأسفار المقدسة عندهم ، ما في ذلك ريب ، انظر تفسير الآية ٦
من سورة الصف فقرة « تحريف التوراة والانجيل ، ثم عملوا بما حرفوا وزيفوا ،
ونذكر من باب المثال لا الحصر السفر الذي نسبوه الى النبي حزقيال ، فقد جاء
في اصحاح ٩ من هذا السفر ما نصه بالحرف الواحد : « لا تشفق أعينكم ولا

الجزء الثامن والعشرون

تغفروا الشيخ والشباب والعنراء والطفل والنساء اقتلوا للهلاك . وهذه هي اسرائيل تطبق - بعد أن سنحت لها الفرصة - هذا المبدأ نصاً وروحاً .. وتقتل الشيخ والشباب والعنراء والطفل والنساء لا لشيء إلا للهلاك والقضاء .

وتسال : ان أكثر المسلمين لا يعملون بالقرآن ، فينبغي ان يكون مثلهم كمثل الحمار يحمل أسفاراً ؟ .

الجواب : ان المسلمين لم يحرفوا القرآن ويحذفوا منه الآيات التي تعرف بموسى وعيسى والتوراة والانجيل والأصليين الصحيحين كما حرف اليهود التوراة والنصارى الانجيل : ه قولوا آمنا بالله وما انزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون - ١٣٦ البقرة ه . اذن، فلا وجه للتقص والقياس . (بشس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله) . كل من كذب بالحق فقد أعطى مثلاً من نفسه على كفرها وفسادها ، وجاز لكل انسان ان يقول له : قبحاً لك وترحاً . (والله لا يهدي القوم الظالمين) وكيف يهتدون وقد ران الضلال على قلوبهم ؟ .

(قل يا أيها الذين هادوا ان زعمتم انكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين) . زعم اليهود أنهم شعب الله الخاص ، وأنهم أولياء الله وأحباؤه ، وان الجنة خالصة لهم وحدهم ، فرد سبحانه عليهم بأنهم كاذبون في هذا الزعم .. ولو صدقوا فيما قالوا لتنوا لقاء الله لأن الذي عنده خير وأبقى مما هم فيه من الخزي والهوان .. كلا ، أنهم يكرهون الموت، ويخافون منه لكثرة ذنوبهم .. والغريب أنهم يداومون ويصرون على هذه الذنوب والآثام التي يكرهون الموت من أجلها . وتقدم مثله في الآية ٩٤ من سورة البقرة ج ١ ص ١٥٤ .

(قل ان الموت الذي تفرون منه فإنه ملائكم ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة) . لا مفر لكم من الموت والبعث والحساب والجزاء لدى عادل عليم بما تسرون وما تعلنون (فينبئكم بما كنتم تعملون) في الدنيا من تحريف الكتاب وغيره من الافساد والجرائم ، ويجازيكم بعداب الجحيم الأليم .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُوا إِلَيْهَا وَتَرَكَوْكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ *

الغفة :

المراد بالنداء للصلاة الاذان . وقُضيت أدبت .

الإعراب :

قال ابن هشام في كتاب المعنى : تأتي من مرادفةً لفي ، واستشهد بقوله تعالى : من يوم الجمعة أي في يوم الجمعة .

المعنى

(يا أيها الذين آمنوا اذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله). صلاة الجمعة فرض كتاباً وسنة واجماعاً ، وهي ركعتان مع خطبتين قبلها، ويكفي بها عن صلاة الظهر ، وتختص بالرجال دون النساء ، ولا خلاف في شيء من ذلك بين المسلمين ، وانما الخلاف بينهم : هل تجب صلاة الجمعة مطلقاً من غير شرط ، أو تجب مع وجود السلطان أو من يستنيبه لها ؟.

الجزء الثامن والعشرون

قال الحنفية والامامية : وجود السلطان أو نائبه شرط ، ولكن اشترط الامامية عدالة السلطان وإلا كان وجوده كعدمه ، واكتفى الحنفية بوجود السلطان وان لم يكن عادلاً .

وقال الشافعية والمالكية والحنابلة : يجب مطلقاً وجد السلطان أم لم يوجد . وقال كثير من فقهاء الامامية : إذا لم يوجد السلطان العادل أو نائبه ووجد فقيه عادل يُخَيَّرُ بينها وبين الظهر . والتفصيل في كتابنا فقه الامام جعفر الصادق ج ١ . (وذروا البيع) . المراد بالبيع كل تصرف يصد عن صلاة الجمعة يبعاً كان أم غيره ، وانما ذكر سبحانه البيع بالخصوص لأنه يفوت - في الغالب - بفوات وقته ، أو لأن النفس تميل اليه أكثر من الصناعة والزراعة ، وما اليها . واختلف الفقهاء في البيع الذي يُعقد وقت النداء لصلاة الجمعة : هل يقع صحيحاً يجب الوفاء به ، أو فاسداً لا أثر ، ولكن يأتي البائث والمشتري ؟ وهذا البيع - عندنا - صحيح يجب الوفاء به لأن النهي عن المعاملة لا يدل على الفساد خلافاً لصاحب مجمع البيان (ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون) مواقع الخير والشر ، وما يضركم وما ينفعكم .

(فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون) . بعد أن أمر سبحانه بالصلاة أمر بالسعي في الأرض طلباً للرزق والعيش بالبيع وغيره مع التوكل على الله في سائر الأحوال ، وبهذا التوازن يتحقق الفلاح دنيا وآخرة . ومثله قوله تعالى : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا - ٧٧ القصص » . وبكلمة لا فرق عند الله بين من ترك العمل لآخرته ، ومن ترك العمل لدنياه .

(وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً) . جاء في كتب التصدير والحديث : ان النبي (ص) كان في ذات يوم من الأيام يخطب قائماً لصلاة الجمعة ، فدخلت عبرة الى المدينة تحمل طعاماً ، فخرج اليها الصحابة ، ولم يسبق حول النبي (ص) غير اثني عشر رجلاً ، فترلت هذه الآية .. وظهرها يتفق تماماً مع هذه الرواية عدا استثناء الاثني عشر رجلاً ، ولكنها قد رويت بطرق متعددة ، ودونت في الكتب الصحاح لأن أحد رواتها عبد الله بن جابر الأنصاري ، وهو من أهل الصدق والعلم ، وعليه تكون الرواية تفسيراً وبياناً للآية .

سورة الجمعة

وهذه المناسبة نشير الى ان للمصلحة المادية أثراً بالغا في حياة الناس لأن الاقتصاد قوام الحياة ، ما في ذلك ريب ، لذا قال سبحانه : « فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله » فليس صحيحاً ان الاقتصاد هو الباعث الوحيد على كل موقف يقفه الانسان، وكل حركة يتحركها .. كلا ، فإن هناك جوانب أخرى تبعث على الحركة والعمل ، وليس بينها وبين الاقتصاد والمصلحة المادية أية صلة ، فقد انقض كثير من حول الرسول الى التجارة وتركه قائماً كما نصت الآية ، ولكن بقي حوله آخرون ولم يتركوه وحيداً كما قالت الرواية .

(قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين) . عند الله سبحانه رزق الدنيا ورزق الآخرة .. وليس بينها مانعة جمع ، فلا العمل للآخرة يُنقص من رزق الدنيا ، ولا العمل للدنيا ينقص من ثواب الآخرة ، بل كل عمل يسد حاجة من حاجات الحياة فهو من عمل الآخرة أيضاً .. ولا أبتعد عن الحقيقة اذا قلت : ان كل عمل أحله الله في هذه الحياة فهو مطية للآخرة ، وما أكثر ما أحل الله لعباده .. قال الإمام علي (ع) : ما أحل لكم الله أكثر مما حرم عليكم ، فذروا ما قل لما كثر ، وما ضاق لما اتسع .

سورة المنافقين

١١ آية مدنية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هم العدو فاحذرهم الآية ١ - ٦ :

إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ * اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ * وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّكُمْ خُشْبُ مُسْنَدَةٍ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ * سِوَاكَ عَلَيْهِمْ اسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ *

سورة المنافقين

اللمة :

الجئة الرقاية . ويؤفكون يصفون . لورا رؤوسهم أمالوها أو حركوها .
يصلون يعرضون .

الإعراب :

كُتبت همزة إن بعد يعلم ويشهد لأن اللام دخلت على خبرها ، ولولاها
لكانت مفتوحة . وما كانوا يعملون « ما » مصدرية والمصدر المنبكي فاعل ساء
أي ساء عملهم . ودخلت اللام على « قولهم » لأن تسمع تتضمن معنى تصني .
وجملة كأنهم مستأنفة أو خبر لمبتدأ محذوف أي هم كأنهم . وعليهم متعلقة بمحذوف
مفعولاً ثانياً ليحسبون . وأنتى موضعها النصب على الحال إذا كانت بمعنى كيف
وعلى المفعول المطلق إذا كانت بمعنى أي وعلى الظرفية إذا كانت بمعنى أين .
وسواء مبتدأ وعليهم متعلق به لأن سواء بمعنى مستو ، واستخفرت أصلها أستخفرت
والهمزة للتسوية لا للاستفهام ولذا صح وقوعها خبراً للمبتدأ . وقيل : سواء خبر
مقدم والفعل مؤول بمصدر مبتدأ مؤخر . ونحن لا نرى وجهاً لهذا التأويل حيث
لا توجد أداة مصدرية ، والمعنى يصح بدون تأويل .

المعنى :

أنتى القرآن على الصحابة وجهادهم في سبيل الاسلام، ونوّه بمنزلهم وأقدارهم ،
وأيضاً تحدث في العديد من سوره عن المنافقين وتلوّتهم واصرارهم على الكيد
للإسلام ونبيه . ولا نهاية للحديث عن المنافقين لأن أكاذيبهم وأساليبهم المتوية لا
حد لها ولا نهاية .. فلا بدع أن يتكرر الحديث عنهم ، وأن يخصهم الله سبحانه
بسورة في كتابه ، وقد وصفهم فيها بأقبح الصفات ، منها :

(اذا جأئك المنافقون قالوا نشهد انك لرسول الله والله يعلم انك لرسوله) .
أضمر الكفر بالله ، والعداء لنبى الكريم ، وأظهروا الحب والإيمان به وبرسالته

الجزء الثامن والعشرون

(والله يشهد ان المنافقين لكاذبون) . المراد بشهادة الله علمه تعالى ، والمعنى ان المنافقين يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ، والله يعلم ما يسرون وما يعلنون ، وهو لهم بالمرصاد ، وأيضاً النبي يعلم حقيقتهم ، ولكنه مأمور أن يعاملهم بالظاهر لا بالواقع ، قال : وأمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله . وأبلغ ما قرأت في الفرق بين المؤمن والمنافق قول الإمام علي (ع) : « لسان المؤمن من وراء قلبه ، وقلب المنافق من وراء لسانه » . أي ان لسان المؤمن تابع لقلبه ، فلا يقول إلا ما يعتقد ، أما المنافق فقلبه تابع للسانه ، ولسانه يدور مع أهوائه وأغراضه .. ونتيجة ذلك ان المنافق لا قلب له إلا الهوى والغرض .

(اتخلفوا إيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله) . كثيراً ما كانت تتكشف نوايا المنافقين ودسائسهم ضد الرسول (ص) والمسلمين ، وكانوا كلما حدث شيء من ذلك اتخلفوا من إيمانهم وقاية يتقون بها غضب النبي (ص) ، ويسترون بها ما يكيدون رسول الله ، وما يصلون عن الإيمان به وبرسالته (انهم ساء ما كانوا يعملون) من التلون والمكر والغدر .

(ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون) . المراد بآمنوا انهم عرفوا بين الناس بالإيمان .. وإلا فإن المنافقين لم يؤمنوا بالله طرفة عين ، وقوله تعالى، ثم كفروا أي ثم عرفهم الناس بأنهم كانوا يظهرهم الإيمان ويضمرون الكفر ، أما قوله : فطبع على قلوبهم فعناه انها لا تهتدي الى الرشد والخير بعد أن أعماها الهوى والضلال . وتقدم مثله في الآية ١٣٧ من سورة النساء ، ج ٢ ص ٤٦٢ .

(وإذا رأيتهم تعجبك أجسادهم) . جمال في المنظر ، وقبح في المخبر ، وتعبير الإمام علي(ع) قلوبهم دويبة - أي مريضة - وصفاحهم نقيه (وإن يقولوا تسمع لقولهم) لأنهم يتحدثون بكلام المخلصين ، ويقولون في الدنيا وأشيائها بقول الزاهدين (كأنهم خشب مسندة) .. تمثال من خشب ، ولكنه يأكل ويشرب ، وكل من عمي عن الهدى فهو ميت الاحياء .

(يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم) . هنا تدب فيهم الروح

سورة المنافقين

ولكن روح الجبن والملح من هتك الأستار وكشف الأسرار ، فلا يسمعون صوتاً إلا ويظنونه صيحة العذاب تأخذهم من حيث لا يشعرون .. وقد زادهم هذا الجبن والملح لؤماً وحضاً عليكم أيها المخلصون فاحلنوا من غيلتهم وغدرهم ، وفوتوا عليهم الفرصة بكل ما تستطيعون (قاتلهم الله انتى يؤفكون) . هذا ذم بصيغة الدعاء والتعجب ، والمعنى هم ملعونون لأنهم انصرفوا عن الحق وأعرضوا عنه تمرداً وعناداً . وكل ما جاء في وصف المنافقين في عهد الرسول (ص) فهو صورة طبق الأصل لعملاء اليوم الذين يتآمرون مع أعداء الله والوطن على الكيد لأمتهم والغدر بها .. ولا جريمة أعظم من خيانة الأمة ، ولا شيء أفظع من غش الانسان لأخيه الانسان . (واذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لوآوا رؤوسهم وأرأيتهم يصدون وهم متكبرون) . اذا نصحهم ناصح وقال لهم : توبوا بما أتم فيه يضر الله لكم ورسوله أصروا على الباطل وأعرضوا عن الحق ، وهزأوا رؤوسهم ساخرين متكبرين ، لأنهم أجلّ وأعظم ممن يحتاج إلى الرسول ورضوانه كما يزعمون (سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يضر الله لهم) . لا جدوى من استصلاحهم - إذن - فلا جدوى من طلب المغفرة لهم .. ان الله غفور رحيم ، ما في ذلك ريب ، ورحمة الله وسعت كل شيء إلا من يأبأها ويتكبر عليها .. وليس من الرحمة في شيء أن ترحم من لا يرى نفسه محتاجاً إلى رحمتك (ان الله لا يهدي القوم الفاسقين) ما داموا مصرين على الفسق . وتقدم مثله في الآية ٨٠ من سورة التوبة ج ٤ ص ٧٥ .

ليُخرجن الأعرض منها الأذى الآية ٧ - ١١ :

هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَيَّ مِنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَيَلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَقْبَهُونَ * يَقُولُونَ لَئِن رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعْرَضُ مِنَّا الْأَذَلَّ وَيَلَّهِ الْعِزَّةُ لِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ

أَمْوَالِكُمْ وَلَا أَوْلَادِكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ
 الْخَاسِرُونَ* وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ
 فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ*
 وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ*

الإعراب :

الأعز فاعل ليُخرجن ، والأذل مفعول ، ونون يُخرجن للتوكيد . ورب أي
 يا ربي . ولولا هلا . وأصل فأصدق فأصدق ومحلها النصب بأن مضمرة بعد
 الفاء في جواب لولا . وأكن أي ان أخرتني أكن .

المعنى :

(هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا) . ضمير
 هم ، يعود الى المنافقين ، و اراد بمن عند رسول الله فقراء المهاجرين ، وكان
 أغنياء الأنصار يعينون هؤلاء الفقراء ، وينفقون عليهم ، حال المنافقون للأغنياء :
 لا تنفقوا أموالكم على أحد من المهاجرين ، لعلهم يستيشون من النبي فيتفرقوا عنه .
 فرد عليهم سبحانه بقوله : (وقد خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا
 يفقهون) . أتأمرون الناس بالبخل وعدم الاتفاق على من آمن بالله وجاهد في
 سبيله ، والله خالق الخلق ومالكة ورازقه ووارثه، وهو القادر على ان يغيي المؤمنين
 من فضله ؟ . ولكنكم لا تعلمون هذه الحقيقة أيها المنافقون .

(يقولون لئن رجعنا الى المدينة ليُخرجن الأعز منها الأذل) . قال المفسرون :
 لهذه الآية قصة تتصل برأس النفاق عبدالله بن أبي ، وبغزوة بني المصطلق ،
 وكانوا فرعاً من خزاعة يسكنون على مقربة من مكة ، وقد عز عليهم أن يكون
 للإسلام شأن في الجزيرة العربية ، فتهياؤوا لحرب النبي (ص) بقيادة زعيمهم الحارث

سورة المنافقين

ابن أبي ضرار ، ولما علم النبي بادر اليهم بجيشه قبل أن يزحفوا الى المدينة ، وخرج ابن أبي مع جيش المسلمين رغبة في الغنيمة ، فنصر الله نبيه على أعدائه ، وغم الكثير من أموالهم ، ورأى أن يُفضل في العطاء الفقراء المهاجرين لينشلهم من الفقر ، ويقرب الفوارق بين الأغنياء والفقراء ، فامتأ عبد الله بن أبي غيظاً ، وأخذ يمرض بعض الأنصار ، وقال فيما قال : « لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعرز منها الأذل » . يريد بالأعرز نفسه ، وبالأذل النبي (ص) فنزلت هذه الآية ، وتخاذل ابن أبي ، ولم يجد ما يتعلل به .. وقال كثير من المفسرين : انه نطق بكلمة الكفر هذه لخلاف وقع بين أحد أتباعه وأجير لعمر بن الخطاب .

وكان لعبد الله بن أبي ولد صالح ، اسمه عبد الله أيضاً ، ولما علم بأمر أبيه ذهب الى رسول الله (ص) وقال له : لقد كان من أمر أبي ما قد علمت ، فإن كنت تريد قتله فرني وأنا أقتله لأنني أخشى أن تأمر غيري بقتله فلا تدعني نفسي أنظر الى قاتل أبي ، فأقتل مؤمناً بكافر وادخل النار ، فأجابه الرسول : بل نرفق بأبيك ونحسن صحبته ما بقي معنا .

(ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) . هذا رد على ابن أبي الذي وصف نفسه بالأعرز .. وعزة الله سبحانه بأنه القاهر فوق عباده ، وعزة الرسول بإظهار دينه على جميع الأديان وخذلان أعدائه ومحاديثه ، أما عزة المؤمنين فبنصرة الحق وأهله (ولكن المنافقين لا يعلمون) ان العز بالإيمان والتقوى .

(يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون) . من تدبر هذه الآية والتي قبلها يرى أن المراد بذكر الله هنا الجهاد ، لأن الله سبحانه ذكر أولاً أن العزة له ولرسوله وللمؤمنين ، ثم نهي المؤمنين وحذرهم من الغفلة والتشاغل عن ذكر الله بالدنيا وحطامها، وجعل نتيجة هذا التشاغل الحصران أي الخزي والمذلة دنياً وآخرة ، وليس من شك ان الخزي والمذلة نتيجة حتمية لحب الحياة والخوف من الجهاد والاستشهاد .. ولا شيء أصدق وأدل على هذه الحقيقة من حياة المسلمين والعرب في هذا العصر .

(وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني الى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين) . المراد بإتيان الموت ظهور اماراته

الجزء الثامن والعشرون

ومقدماته ، والمعنى بادروا الفرصة بالاتفاق مما أعطاكم الله من فضله ، ومن أهمل حتى يأتي يومه الأخير فإنه بعض يد الندامة ، ويتضرع لله أن يمهل بعض الوقت.. ولكن هيهات أن يرجع ما فات . وتقدم مثله في الآية ٤٤ من سورة ابراهيم ج ٤ ص ٤٥٦ (ولن يؤخر الله نفساً اذا جاء أجلها والله خير بما تعملون) . الأجل محتوم لا تقديم له ولا تأخير، ومن أضاع الفرصة فلا شيء له إلا الحسرة والكآبة . وتقدم مثله في الآية ١٤٥ من سورة آل عمران ج ٢ ص ١٧١ فقرة ١ الأجل محتوم ، والآية ٣٤ من سورة الأعراف .

سورة التغابن

١٨ آية مدنية . وقيل مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فمنكم كافر ومنكم مؤمن الآية ١ - ٦ :

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ
بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ
صُورَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ * يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا
تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِدَاتِ الصُّدُورِ * أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ
كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * ذَلِكَ بِأَنَّهُ
كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَعَالُوا أ_Bَشْرُ يَهُدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا
وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ *

اللمة :

ذات الصدور السرائر والضمائر . وبال أمرهم عاقبة أمرهم، وأصل الوبال الضلل .

الإهراب :

الضمير في «بأنه» للشأن . وجملة تأتيهم خبر مقدم وكانت ورسلم اسمها .
وأبشر مبتدأ وجملة يهتونا خبر ، وجاز الابتداء بالنكرة لمكان الاستفهام .

المضى :

(يبتح لله ما في السموات وما في الأرض) . بعض الكائنات تسبح بلسان المقال ، وبعضها بلسان الحال والدلالة . وتقدم مثله في أول سورة الجمعة (له الملك) يؤتبه من يشاء وينرعه ممن يشاء (وله الحمد) على عظيم احسانه ونير برهانه (وهو على كل شيء قدير) من غير آلة وروية بل بكلمة « كن » . (هو الذي خلقكم فنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير) . الانسان - في نظر الاسلام - بحريته وارادته ، ولا انسانية بلا حرية .. فله أن يختار الايمان حتى ولو كان أبواه كافرين ، وان يختار الكفر حتى ولو كان أبواه مؤمنين ، ولا يجبر على أحدهما دون الآخر .. أبداً لا إكراه في الدين وإلا بطل التكليف والحساب والثواب ، وبعد ان أعطى سبحانه لعبده الحرية التي يكون بها انساناً أمره بالايمان وفعل الخير ، ونهاه عن الكفر وفعل الشر ، وأقام له الأدلة على حسن ما أمر به وقيح ما نهى عنه - من عقله وفطرته ، فأمن بعض الناس وكفر آخرون ، والله عليم بإيمان من آمن وكفر من كفر ، ولكل حسب ايمانه وعمله من الثواب والعقاب .

(خلق السموات والأرض بالحق) أي لحكمة بالغة ، ولا شيء وُجد في هذا الكون عبثاً .. ولا فرق بين القول بالصدقة والقول بأن الشيء، حتى النظام ، يوجد نفسه بنفسه . وتقدم مثله في الآية ٤ من سورة النحل ج ٤ ص ٤٩٦ (وصوركم فأحسن صوركم) . قد يصور الفنان كائناً من الكائنات فيحسن ويتقن الصورة على أكمل وجه ، ولكن لا شيء له إلا الترتيب والتشكيل تماماً كالإباني يضع حجراً فوق حجر ، أما مادة البناء والتصوير فهي من الذي يقول للشيء : كن فيكون .. والله سبحانه خلق مادة الانسان بكلمة « كن » وصوره في أحسن

سورة التباين

تقويم يميزه عن سائر المخلوقات . وتقدم مثله في الآية ١٤ من سورة المؤمنون ج ٥ ص ٣٦١ (وإليه المصير) فينبئكم بما كنتم تعملون ، ومن زحزح عن النار.. فقد فاز (يعلم ما في السموات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور) . المعنى واضح، وتقدم مرات، ويتلخص بأن الله بكل شيء عليم. (ألم يأتكم نبي الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم) . الاستفهام للتوبيخ ، والخطاب لمن كفر بمحمد (ص) من المشركين ، وأعلن الحرب عليه وعلى دعوته ، وقد ذكّرهم سبحانه بالألم التي خلت من قبلهم كقوم نوح وعاد وثمود .. كذبوا الرسل فأصابهم في الدنيا الهلاك والدمار ، ولعذاب الآخرة أشد وأخزى .

(ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدوننا فكفروا وتولوا) . ذلك إشارة الى ما حل بالأمم الماضية من العذاب لأنهم كذبوا الرسل، وقد جاؤوهم بالدلائل القاطعة على نبوتهم، ومع ذلك أصروا على الكفر لا شيء إلا لأن الرسل بشر من جنسهم ، فكيف يهتدون بهم !.. وجهلوا ان الهداية تكون بالعلم أياً كان مصدره .. والغريب من أمرهم أنهم قالوا لمن دعاهم الى التوحيد : أبشر يهدوننا ؟ . وما قالوا هذا لمن دعاهم الى عبادة الأحجار ، بل سمعوا له وأطاعوا دون نقاش وجدال .. ولا غرابة فهذه هي طبيعة الجهل .. ومها شككت فإني لا أشك ان أهل البصائر لو خيبروا بين العمى مع العلم ، وبين الجهل مع البصر لاختراروا العمى لأنه لا يقرب بعيداً ، ولا يبعد قريباً ، ولا يصور السواد بياضاً والبياض سواداً ، أما الجهل فيصور الهداية ضلالاً ، والضلال هداية، والحق باطلاً والباطل حقاً .

(واستغنى الله والله غني حميد) . وكل كائن يشهد بلسان المقال أو الحال ان الله غني عن الخلق وطاعتهم ، حميد في جميع صفاته وأفعاله .

ذلك يوم التباين الآية ٧ - ١٣ :

زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ

بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي
 أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * يَوْمَ يُجْمَعُ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ
 التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكْفَرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ
 جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ الْقَوْمُ الْعَظِيمُ *
 وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا
 وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ
 يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ
 تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ
 فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ *

اللفظة :

أكثر ما يُستعمل الزعم في الادعاء الباطل . والمراد بالنور هنا القرآن . ويوم
 الجمع هو يوم القيامة حيث يجمع الله فيه الأولين والآخرين . وقال كثير من المفسرين :
 ان التغابن هنا من الغبن حيث يغبن يوم القيامة أهل الحق أهل الباطل ، والذي
 نفهمه نحن ان المراد به الربح والخسران حيث يربح المحقون ، ويخسر فيه المبطلون
 ومهما يكن فالنتيجة واحدة ، ويكفر بغفر .

الإعراب :

ان مخففة من الثقيلة واسمها محذوف أي أنهم لن يبعثوا ، والمصدر سادّ مسدّ
 مفعولي زعم . واذا وقعت « بلى » بعد النفي تبطله ، ويكون ما بعدها مثبتاً .

سورة التّٰين

يوم يجمعكم يوم ، ظرف متعلق بينثون ، ويجوز أن يكون مفعولاً لفعل مقدر أي اذكروا يوم يجمعكم . وصالحاً صفة لمقدر أي عملاً صالحاً . وخالدين حال . وأبداً ظرف مؤكد لخالدين ومتعلق به . وبئس المصير المخصوص بالذم عنوف أي مصيرهم . ما أصاب من مصيبة ما ، نافية و ، من ، زائدة .

المعنى :

(زعم الذين كفروا ان لن يبعثوا قل بل يربني لتبعن ثم لتنبؤن بما علمت وذلك على الله يسر) . بيّنا طريقة القرآن في امكان البعث، ورد شبهات المنكرين وان من أبدع الخلق من لا شيء يهون عليه أن يجمع أجزاءه بعد تفرقتها، وبسطنا الكلام في أساليب شتى عند تفسير آيات البعث ، منها الآية ٤ من سورة يونس ج ٤ ص ١٣٢ فقرة الحساب والجزاء حتم .

وتسأل : لقد دعا رسول الله (ص) إلى الإيمان بالبعث ، وخاصمه فيه عبدة الأوثان .. وبدية ان البيّنة على من ادعى ، واليمين على من أنكر ، وهذا المبدأ إلهي انساني حيث أقرته جميع الشرائع ، وعليه تكون البيّنة على الرسول (ص) ، فما هو الوجه ليمين الرسول مع ان المفروض ان يجابه المنكرين بالحجة الدامغة لا باليمين ؟. ثم هل يثبت البعث بمجرد اليمين ؟.

الجواب : أولاً ان الله سبحانه حكى عن المنكرين انهم سألوا النبي عن البعث كمتخبرين لا كمجادلين في هذا الموقف ، ولم يقولوا : من يحيي العظام وهي رميم، كما جاء في سورة يس، أو يقولوا : إذا متنا وكنا تراباً وعظاماً انا لمبعوثون كما في سورة الصافات ، وحيث اكتفى المنكرون بمجرد السؤال اكتفى الله ورسوله بمجرد الجواب مع التأكيد باليمين .. ولما قالوا في موقف آخر : من يحيي العظام وهي رميم، قال لهم : يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق علم يأتي الجواب على وفق السؤال في كل من الموقفين .

ثانياً : ان الذين كفروا ومعهم المنافقون كانوا يعتقدون ان النبي (ص) لا يريد لهم الخير والاصلاح ، وانما يريد من دعوته الاستعلاء والتفضل عليهم تماماً كما

الجزء الثامن والعشرون

اعتقد الكافرون من قبل بنبي الله نوح : « فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم - ٢٤ المؤمنون . فأقسم النبي ان دعوته دعوة الحق ، ومعنى هذا انه لا يريد إلا الحق . ومثله قول شعيب لقومه حين ظنوا به ظن السوء : « إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله - ٨٨ هود . »

(فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا) . ما دام البعث حقاً ، والحساب والجزاء حقاً فعلى كل انسان أن يؤمن بالله ورسوله والنور أي القرآن ، وانما وصفه سبحانه بالنور لأنه يخرج الناس من ظلمات الجهل والكفر الى نور العلم والايمان ، ويهديهم الى سبيل السلام : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور بإذنه ويهديهم الى صراط مستقيم - ١٦ المائدة . » (والله بما تعملون خبير يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن) . يحصي الله سبحانه على عباده أفعالهم وأفعالهم وأهدافهم ومقاصدهم في الحياة الدنيا ، ويعاملهم يوم القيامة بحسبها ، ان خيراً فخير ، وان شراً فشر . وسمي اليوم الآخر بيوم الجمع حيث يجمع الله فيه الخلائق للحساب والجزاء ، ويوم التغابن أيضاً حيث يربح المحق نفسه ، ويخسر المبطل .

(ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير) . بعد أن ذكر سبحانه أنه جامع الناس ليوم لا ريب فيه - قال : ان الناس في هذا اليوم نوعان : الأول آمن بالله ورسوله وكتبه ، وتزود الأعمال الصالحة من دنياه لآخرته ، وهذا النوع من الناس يفوز غداً بمغفرة الله ورضوانه ، وبنيهم لا ينتهي أمده . ولا ينقص مدده . والنوع الثاني ضالته الدنيا يطلبها انى كانت وتكون غير مكترث بدين أو ضمير ، ولا بحلال أو حرام ، وهذا النوع في الآخرة من الخاسرين ، ماواه جهنم وساءت مصيراً .

(ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله) . يدل ظاهر الآية ان كل شر في الدنيا هو بقضاء الله وقدره .. وهذا يتنافى مع قوله تعالى : « وما أصابكم من مصيبة فبا كسب أيديكم - ٣٠ الشورى . » وأجبتنا عن هذا مفصلاً عند تفسير

سورة التغابن

الآية ٧٨ من سورة النساء ، ويتلخص الجواب بأن أية كارثة يكون مصدرها الطبيعة كالزلازل والقصط فإنها تنسب الى الطبيعة مباشرة ، واليه تعالى بواسطة اجتهاده للطبيعة ، وهذه هي المعنى بقوله تعالى : « ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله » وأية مصيبة يكون مصدرها الاممال وفساد الأوضاع فإنها تنسب الى سوء اختيار المهمل والمفسد ، وهي التي عناها سبحانه بقوله : « وما أصابكم من مصيبة فبا كسبت أيديكم » .

(ومن يؤمن بالله يهد قلبه) . ان الله سبحانه يعامل الانسان بما يختاره لنفسه ، فإن اختار لها الهدى والخير ، وسلك صراطه القويم - أخذ الله بيده وشمله بعنايته ، وله عنده ثواب المهتدين ، وان اختار الضلال ، وسلك اليه سبيله خذله الله وأركله الى نفسه ، ثم يرده الى عذاب السعير (والله بكل شيء عليم) . يعلم من يرحم نفسه فيرحمه ، ومن يعرضها للهلاك عامداً فيهلكه (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فان توليتم فإنا على رسولنا البلاغ المبين) . على الرسول البلاغ ، وعلينا السمع والطاعة . وتقدم مثله في العديد من الآيات ، منها الآية ٩٢ من سورة المائدة ج ٣ ص ١٢٣ (الله لا إله إلا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون) . وهو كافي التوكلين عليه ، وولي المخلصين له .

عداوة الأزواج والأولاد الآية ١٤ - ١٨ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُواهُمْ
وَإِنْ تَغْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَتَغَيَّرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ
وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا
وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ
الْمُفْلِحُونَ * إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يضاعفه لكم ويغفر لكم
وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ * عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *

اللفظة :

فتنة محنة تُوقع في المهالك . ما استطعتم غاية جهدكم . ومن يوق من يحفظ ويمحترز .
وان تفرضوا أي وإن تفتقوا . وشكور أي يثيب الطائعين والشاكرين .

الإعراب :

من أزواجكم وأولادكم « من » للتبويض . ما استطعتم « ما » مصدرية ظرفية
أي مدة استطاعتكم . وخيراً خبر يكن مقدره أي انفقوا يكن الانفاق خيراً ، أو
نعت لمصدر محذوف أي انفاقاً خيراً .

المعنى :

(يا أيها الذين آمنوا ان من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم) . جاء
في كتب التفسير والحديث ان قوماً من مكة أسلموا ، وأرادوا الهجرة الى رسول
الله (ص) فنههم أزواجهم وأولادهم ، فترلت هذه الآية تحذر المؤمنين من طاعة
بعض الأزواج والأولاد . وقلنا أكثر من مرة : ان سبب التزول لا ينحصر دلالة
العام ، وانما هو فرد من أفراده ، وعليه فكل زوجة لا تتعاون مع زوجها على
ما فيه صلاح الطرفين ديناً ودنياً فهي عدوة له ، وأيضاً هو عدوها إذا استتكت
عن هذا التعاون معها، ونفس الشيء يقال في حق الوالد والولد، بل والأم والأخ ،
وكل من يفعل ما يفعله العدو فهو عدو كائناً من كان .

وبهذه المناسبة نسجل ان انتقال الانسان من العزوبة إلى الحياة الزوجية أشبه
بانقاله من الدنيا إلى الآخرة ، إما إلى جنة وإما إلى نار ، وفي الأغلب إلى
الجحيم لا إلى النعيم .. فإن الحياة في العصر الحاضر مع كثير من الزوجات والأولاد
عذاب وجحيم .. فلا الولد يرضى من والده إلا بالخضوع والطاعة ، ولا الزوجة
ترضى من زوجها إلا أن تكون هي الرجل ، وهو المرأة .

(وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم) . لا فرق بين العفو
والصفح والمغفرة إلا باللفظ ، والقصد من الجمع بينها مجرد التأكيد والترغيب ..

سورة التباين

بعد أن حنر سبحانه من بعض الأزواج والأولاد لأنهم يفعلون ما يفعله العدو - قال : ان تغفوا عنهم رحمة بهم وطمئناً في اصلاحهم فإن الله تعالى يعاملكم بالمثل لأنه يرحم من يرحم ، ويفزر للذين يظفرون حيث تحسن الرحمة والمفزة بلاربيب ، وإلا فان بعض الذنوب لا يجوز تجاهلها بحال . وتومئ الآبة الى ان حياة الأسرة لا تستقيم إلا بالصبر والعفو عن كثير ، وانه لو حاسب كل واحد من أبنائها الآخر على كلمة يقولها أو حركة تبدر منه لساد بينهم التنازع والتخاصم وعاشوا في جحيم .

(انما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم) . كل ما شغفت به وصدك عما انت مسؤول عنه دنيا وآخرة فهو فتنة ، مالاً كان أو ولداً أو روجة أو جاهاً أو فناً وما اليه ، وانما خص سبحانه بالذكر الأموال والأولاد لأنها أعظم فتنة من غيرها ، ومهما عظمت ملذات الدنيا فإن الذي عند الله خير وأبقى . وتقدم مثله بالحرف في الآية ٢٨ من سورة الأنفال ج ٣ ص ٤٦٩ .

وفي تفسير الطبري وغيره : ان رسول الله (ص) كان يخطب فجاء الحسن والحسين . وعليها قيصان أحمران يعثران ويقومان ، فنزل الرسول وأخذهما ورفعهما في حجره ، ثم قال : صدق الله العظيم : انما أموالكم وأولادكم فتنة ، رأيت هذين فلم أصبر حتى قطعتم حديثي ورفعتهما . ثم أخذ يخطب .

(فاتقوا الله ما استطعتم) . ابدلوا جهد المستطاع في صيانة أنفسكم عن الفتنة والابتعاد عن محارم الله ، ولا ترتكبوا شيئاً منها حرصاً على الأموال أو ايشاراً للأولاد .. وذهب البعض إلى ان قوله تعالى : « فاتقوا الله حق تقاته - ١٠٢ آل عمران » فيه تشديد ، وان قوله : « فاتقوا الله ما استطعتم » فيه تخفيف ، ثم رتب على ذلك ان قوله : « ما استطعتم » ناسخ لقوله : « حق تقاته » أما نحن فلا نرى أي فرق بين الآيتين لأن على الانسان أن يتقي غضب الله ما استطاع ، ولا شيء عليه فيما لا يستطيع . أنظر ج ٢ ص ١٢٢ .

(واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا) . اسمعوا دعوة الله ورسوله ، وراعوها بالطاعة والتقوى ، وأنفقوا الفضل من أموالكم في سبيل الله يكن ذلك (خيراً لأنفسكم) أي « إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وان أسأتم فلها - ٧ الإساءة » . (ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) . إن بذل المال والنفس طريقاً الى الفلاح والنجاح ،

الجزء الثامن والعشرون

والشح بها سبيل الخذلان والخسران، لأن الشح والحرص من أقوى البواعث على التصحح في القبائح والجرائم . وتقدم مثله بالحرف في الآية ٩ من سورة الحشر .
(إن ترضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حلیم) .
يستقرض سبحانه عباده وعنده خزائن السموات والأرض، ويضاعف الأجر للمطيعين ،
تفضلاً منه، ويغفر للتائبين رحمة بهم، ويشكر للمحسنين بإعطاء الكثير على القليل ،
ويعمل العاصين حتى كأنه قد غفر عنهم . وتقدم مثله في الآية ٢٤٥ من سورة
البقرة و ١٢ من سورة المائدة و ١١ من سورة الحديد (عالم الغيب والشهادة)
لا يخفى عليه شيء (العزيز) الذي لا يُقهر (الحكيم) فيما خلق ودبر .

سورة الطلاق

١٢ آية مدنية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فطلقوهن لعلن الآية ١ - ٥ :

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يُخْرِجَنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أُمُورًا * فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا * وَاللَّائِي يَتَسَنَّ مِنْ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ * وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا * ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا *

اللغة :

إذا طلقتم أي إذا أردتم الطلاق . والعدة بكسر العين ، والمراد بها هنا الزمان الذي تَرَبَّص فيه المرأة عقب الطلاق . وفاحشة مبيئة معصية ظاهرة كالزنا الثابت بأربعة شهود . وبلغن أجلهن أشرفن على اتمام العدة . فهو حسيه كافيه . وبالغ أمره لا يفوته ما أراد . وقدراً أي تقديراً . وأولات الاحمال الحليلات . وأجلهن انقضاء عدتهن .

الإعراب :

لعدتهن على حذف مضاف أي لزمان عدتهن ، ومعناه ان الطلاق مقيد بزمان معين ويأتي التفصيل ، وعليه تكون اللام للتوقيت مثل كتبه لخمس لیسال بقيت من شهر كذا والمجرور متعلق بطلقوهن . والمصدر من أن يأتين متعلق بباب السببية المقدره أي بسبب اتيان الفاحشة . واللائي يشن مبتدأ أول ، فعدتهن مبتدأ ثانٍ وثلاثة أشهر خبره ، والجملة خبر الأول . وان ارتيم اعتراض . واللائي لم يحضن مبتدأ والخبر محذوف أي فعدتهن كذلك . واولات الاحمال مثل واللائي يشن . وأجرأ مفعول يعظم على معنى يعطيه أجرأ عظيماً .

المعنى :

ذكر سبحانه في هذه الآيات جملة من أحكام الطلاق ، وهي :

١ - (يا أيها النبي اذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن) . الخطاب للنبي (ص) والمراد به جميع المكلفين لأن التشريع يشمل الجميع ، والمعنى اذا أراد المسلم أن يطلق زوجته فعليه أن ينتظر الوقت المناسب للدخول في العدة ، بحيث يكون الوقت الذي تُطلق فيه جزءاً من العدة ، وقد أجمعت المذاهب الاسلامية على ذلك ، ولكن قال السنة : ان هذا التحريم لا يفسد الطلاق الفاقده لهذه الشروط ، بل يقع صحيحاً ولكن يأم المطلق . وقال الشيعة الإمامية : بل يقع لغواً من الأساس ،

سورة الطلاق

لأن النهي عنه هو نهي عن ترتيب الآثار عليه تماماً كالنهي عن بيع الخمر فإن القصد منه عدم الأثر لهذا البيع لا تحريم التلفظ بصيغته .

واستدل الإمامية على ذلك بما جاء في صحيح البخاري ومسلم : ان ابن عمر طلق امرأته وهي حائض ، فسأل عمر الرسول (ص) عن ذلك ؟ . فقال له : مُرّه فليراجعها ، ثم يتركها حتى تطهر ، ثم تحيض ، ثم تطهر ، ثم ان شاء أمسك بعد ، وان شاء طلق قبل أن يمس ، فتلك العدة التي أمر الله عز وجل ان يطلق لها .

فقوله (ص) : ان شاء أمسك وان شاء طلق قبل أن يمس هو تفسير وبيان لقوله : « فليراجعها » وان المراد به ان المرأة ما زالت في عصمته ، وعليه أن يمسكها على كل حال ، ولا خيار له بين الامساك والطلاق إلا إذا طلق مسح الشرط .. هذا هو معنى فليراجعها ، وليس صحيحاً انه أمر بالرجوع عن الطلاق كما قال فقهاء المذاهب الأخرى ، لأن الرجوع عن الطلاق امساك للزوجة الذي جملة الرسول نتيجة لقوله : « فليراجعها » وبديهة ان الشيء لا يكون نتيجة لنفسه .. هذا ، الى ان الرجوع عن الطلاق لا يرفع الإنم السابق كمي يأمر به النبي (ص) . وانفقت المذاهب قولاً واحداً على ان الزوجة غير المدخول بها تُطلق على كل حال حتى ولو كانت في الحيض لأنه جل وعز قال : ولعدتهن وغير المدخول بها لا عدة لها لقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها - ٤٩ الأحزاب » ج ٦ ص ٢٢٩ .

٢ - (وأحصوا العدة) . اعرفوا ابتداء العدة وانتهائها لأن لها أحكاماً تخصها كالنفقة للمعتدة ، وحق الرجوع عن الطلاق للمطلق إذا كان رجعياً ، وحقها بالرجوع عن البذل إذا كان خلعياً ، وتحريمها على الأزواج حتى تخرج من العدة ، وما إلى ذلك مما ذكره الفقهاء في كتبهم (واتقوا الله ربكم) فيما فرضه عليكم من أحكام العدة .

٣ - (لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن) . المراد ببيوتهن بيوت السكن لا بيوت الملك تماماً مثل قوله تعالى : وقرن في بيوتكن وقوله : واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله - ٣٤ الأحزاب ... واتفق الفقهاء على ان المطلقة

الجزء الثامن والعشرون

الرجعية تستحق النفقة بما فيها السكنى ما دامت في العدة ، واختلفوا في نفقة المعتدة من الطلاق البائن . فقال الحنفية : لها النفقة حائلاً كانت أم حاملاً . وقال المالكية : ان كانت حائلاً فلا شيء لها من النفقة إلا السكنى ، وان تكن حاملاً فلها كل النفقة . وقال الشافعية والامامية والحنابلة : لا نفقة لها ان كانت حائلاً ، ولها النفقة ان كانت حاملاً .

ومن أوجب النفقة للمعتدة بشئ أنواعها أوجب بقاءها في بيت الزوج الذي طُلقت فيه الى أن تنتهي عدتها، ويحرم عليها أن تخرج منه كما يحرم عليه اخراجها لقوله تعالى : لا تخرجوهن .. ولا يخرجن (الا أن يأتين بفاحشة مبينة) أي ثبتت الفاحشة عليها شرعاً ، واتفقوا على ان الزنا فاحشة تستدعي اخراجها من البيت ، واختلفوا في غيره . والذي نراه ان المراد بالفاحشة هنا الزنا فقط لأنه هو وحده المتبادر الى الأفهام من كلمة الفاحشة حين تنسب الى النساء (وتلك حدود الله) . تلك إشارة الى شروط الطلاق وأحكام العدة ، وهي أحكام الله وحدوده التي بينها في كتابه وعلى لسان نبيه (ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه) لأنه عرضها لغضب الله وعذابه ، وفي آية ثانية : « ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين - ١٤ النساء » .

(لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً) . ما يدريك أيها المطلق ان يؤلف الله بين القلوب بعد تنافرها ، وترجع المياه الى مجاريها ؟ . وفيه إيماء الى ان للقلوب تارات وساعات ، وان على الانسان أن لا يقول لشيء : اني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله . ومن هنا قال الإمام علي (ع) : « عرفت الله بفسخ العزائم ، أي ان هذا الفسخ دليل ظاهر على ان فوق تدبير الانسان تدبيراً أقوى وأعظم .

٤ - (فإذا بلغن أجلهن فامكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف) . اذا أوشكت العدة على الانتهاء فالمطلقة بالخيار ان شاء عدل عن عزمه وأرجع المطلقة الى عصمته ، وان شاء بقي على حكم الفراق ، فتقطع العصمة بينه وبينها ، وفي الحالين عليه أن لا يضارها في شيء ويؤدي حقها كاملاً ، وهذا هو المراد من الامساك بمعروف والفراق بمعروف . وتقدم مثله في الآية ٢٣١ من سورة البقرة ج ١ ص ٣٥١ .. ثم ان المطلقة لا تخلو من أن تكون آيسة أو حاملاً أو

سورة الطلاق

حائلاً ، ويأتي الكلام عن الأولين، أما عدة الحائث فثلاثة اطهار بما فيها الطهر الذي طُلت فيه ، هذا عند الإمامية والمالكية والشافعية ، أما عند الحنفية والحنابلة فعدتها ثلاث حيضات . أنظر تفسير الآية ٢٢٨ من سورة البقرة ج ١ ص ٣٤١ .

٥ - (وأشهدوا ذوي عدل منكم) . اتفق فقهاء المذاهب على اعتبار شهادة العدلين بموجب هذه الآية ، واختلفوا في أي شيء تعتبر هذه الشهادة ، هل تعتبر في الرجوع عن الطلاق ، أو في ايقاع الطلاق ؟ قال فقهاء السنة : تعتبر في الرجوع عن الطلاق ، ولكن بعضهم أوجب هذا الاشهاد على الرجعة كالشافعية ، وبعضهم قال : انه مندوب كالحنفية .

وقال الشيعة الإمامية : لا يجب الاشهاد على الرجعة ، ويجب على الطلاق . وقال الدكتور محمد يوسف موسى استاذ ورئيس قسم الشريعة الاسلامية بكلية الحقوق بجامعة عين شمس بالقاهرة في كتابه « الأحوال الشخصية » ص ٢٧١ طبعة ١٩٥٨ ، قال :

« يرى الشيعة الامامية ان من أهم شروط الطلاق حضور شاهدين عدلين لقوله تعالى : « وأشهدوا ذوي عدل منكم » .. وفي ذلك يقول أحد علمائهم : وهذا أنفع وسيلة الى الوثام بين الزوجين لأن لأهل الصلاح تأثيراً في النفوس وإعادة مياه الصفاء الى مجاريها، وإذا لم تنتج نصائحهم فلا أقل من تخفيف الطلاق وتقليله بسبب اشتراط العدلين » .

وقال الدكتور محمد يوسف موسى معلقاً على ذلك : « وهذه وجهة نظر يجب عدم التضاضي عنها ، فلإن الأخذ بهذا الرأي يمهّد السبيل للصلح في كثير من الحالات حقاً » .

(وأقيموا الشهادة لله) . الخطاب للشهود ، ومعناه لا تغيروا شيئاً من الشهادة وأدوها على وجهها بقصد إحقاق الحق ، لا طلباً لمرضاة المشهود له ، ولا نكابة للمشهود عليه . وتقدم مثله في الآية ٢٨٣ من سورة البقرة ج ١ ص ٤٥١ .

(ذلكم بوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر) . انما يتضح ببيان الله ويعمل بأحكامه المتقون حقاً ، أما الذين لا يؤمنون إلا بأنفسهم ومصالحهم فأولئك كالانعام مهمهم بطونهم ، والنار مثوى لهم (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً) من

الجزء الثامن والعشرون

حرام الله الى حلاله ، ومن معصيته الى طاعته ، وبغيبه بفضله عن سواه (ويرزقه من حيث لا يحتسب) . والذي فهمه من هذه الآية ان الرزق لا ضابط دقيق له ولا قياس محكم ، فقد يأتي من غير احتساب ، وقد يذهب أيضاً من غير احتساب .. وكَم من حادث سعيد يفاجأ به الانسان دون أن يتربسه .. وكَم من حوادث سيئة ومؤلمة يصاب بها لم تكن لتخطر له على بال .. وما من شك ان بعضها من اماله وتهاونه ، وبعضها من تدبير مدبر الكائنات .

(ومن يتوكل على الله فهو حسبه) أي كافيه ، والتوكل على الله هو الأخذ بستته في العمل والسعي وراء الأسباب : « فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه - ١٥ الملك » . وفي الحديث : « اعقلها وتوكل » . (ان الله بالغ أمره) فإشياء كان وما لم يشأ لم يكن (قد جعل لكل شيء قدراً) فلا عبث ولا فوضى ولا صدفة . وفي آية ثانية : « وخلق كل شيء فقدره تقديراً - ٢ الفرقان » . وفي ثالثة : « وكل شيء عنده بمقدار - ٨ الرعد » ج ٤ ص ٣٨٤ .

٦ - (واللاتي يشنن من المحيض من نساكن ان ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللاتي لم يحضن) . اختلف فقهاء السنة في سن الآية اختلافاً بلغ حد التشویش والاضطراب ، فن قائل : هي خسون . وقائل خمس وخسون . وقال ثالث : ستون . ورابع اثنتان وستون . وفرق خامس بين نساء العرب والعجم ، وقال : ان نساء العرب أقوى طبيعة . وقال سادس : تأخذ كل امرأة بعبادة عشيرتها . وكثير منهم سكتوا ولم يحددوا سن الآية بشيء .. وأيضاً اختلفوا في معنى قوله تعالى : « ان ارتبتم » فمنهم من قال : ان المراد به ان شككتم في حكم العلة لا في حال المرأة وبلوغها سن اليأس . وقال آخرون : بل المراد الشك في حال المرأة ويأسها .

أما الشيعة الإمامية فقالوا : سن القرشية ستون ، وغيرها خسون مستندين في ذلك الى روايات عن أهل البيت . وأيضاً قال الشيعة : أقل سن تحيض معها الأنثى تسع سنين . ويتفق هنا مع ما جاء في كتاب المغني لابن قدامة - من السنة - : « ان أقل سن تحيض معها المرأة تسع سنين لأن المرجح في ذلك الى الوجود ، وقد وجد من تحيض لتسع ، وروي عن الشافعي انه رأى امرأة لها أولاد أولاد ، وعمرها احدى وعشرون سنة » .

سورة الطلاق

وقرأت في بعض الصحف ان بتأ في هذا المصر حملت قبل أن تبلغ التاسعة من عمرها . وبعد ، فقد اختلف السنة والشيعة في تفسير هذه الآية ، قال فقهاء السنة : المراد باللاتي يشن من الحيض من انقطع حيضها تكبر سنها ، والمراد باللاتي لم يحضن من لم تر دم الحيض بعد لصغر سنها ، وكل من هاتين عدتها ثلاثة أشهر إذا طلقت بعد الدخول .

ويتفق هذا مع قول بعض الكبار من فقهاء الإمامية كالسيد المرتضى وابن زهرة وابن سماعة وابن شهر آشوب . وذهب أكثر الإمامية الى ان المراد باللاتي يشن من الحيض المرأة التي يشك في بأسها بعد أن انقطع عنها الدم ، ولا يعلم هل انقطع بلوغها سن اليأس أو لعارض آخر ؟ . وفسروا قوله تعالى : « ان ارتبم ، بالشك في حالها ، وانها هل بلغت سن اليأس ؟ أما المراد باللاتي لم يحضن عندهم فالشابات اللاتي علمن انهن تجاوزن سن الصغر ولم يبلغن سن اليأس ، ولكن انقطع عنهن الحيض لسبب آخر غير اليأس والصغر ، وكل من هاتين عدتها ثلاثة أشهر ، وقد استدلوا في ذلك الى روايات عن أهل البيت ، وعلى هذا فالآية لم تتعرض لعدة الآية ايجاباً ولا سلباً .

٧ - (وأولات الأحمال أجلهن أن يضمن حملهن) . اتفق فقهاء السنة والشيعة على ان عدة المطلقة الحامل هي وضع الحمل ، واختلفوا في عدة الحامل المتوفى عنها زوجها . قال السنة : هي تماماً كالمطلقة كل منها تعتد بوضع الحمل . وقال الشيعة : بل الحامل المتوفى عنها زوجها تعتد بأبعد الأجلين من وضع الحمل والأربعة أشهر وعشرة أيام جمعاً بين هذه الآية وبين قوله تعالى : « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً - ٢٣٤ البقرة » . وبسطنا الكلام عن هاتين الآيتين وجمعنا بينهما في ج ١ ص ٣٦٢ .

(ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً) . هذا مثل قوله تعالى في الآية ٢ والآية ٣ من هذه السورة : « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً » . ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، ولا نعرف غرضاً لهذا التكرار إلا المزيد من الحث على التقوى والترغيب فيها .. على ان الترغيب هناك جاء بعد الأمر بإقامة الشهادة على وجهها ، وجاء هنا بعد بيان عدة الآية وأولات الأحمال (ذلك أمر الله أنزله ليحكم

لتعملوا به مخلصين، ونفوزوا بسعادة الدنيا والآخرة .. ومرة أخرى يواصل سبحانه الحث على التقوى ويقول عز من قائل : (ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً) . لا حصر لمنافع التقوى وفوائدها ، ومنها ، على سبيل المثال ، ما ذكره سبحانه في هذه الآيات : المخرج من الضيق دنيأً وآخرة ، والرزق بلا احتساب ، والنصرة والكفائة من الله ، وتيسير الأمور ، وتكفير السيئات ، وفوق ذلك كله زيادة الأجر ومضاعفته ، ولكن : « أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي ومن كان في ضلال مبين - ٤٠ الزخرف » .

ليتفق ذو سعة الآية ٦ - ٧ :

أَسْكِنُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِّنْ وَّجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُمْ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِمْ وَإِنْ كُنْ أُولَاتٍ حَمْلٌ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأَنْتُمْ يُرَىٰ بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُم فَاسْتَرْضِعْ لَهُ أَخْرَىٰ * لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ بِمَا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا *

الغفة :

الوجد بضم الواو وسكون الجيم القدرة في المال .. ولا تضاروهن لا تعملوا على الإضرار بهن . وأتمروا تشاوروا . تعاسرتم اختلفتم ، يقال : تعاسر البيعان اذا لم يتفقا . ومن قدر بضم القاف وكسر الدال من ضيق عليه في الرزق .

سورة الطلاق

الإعراب :

من وجدكم بدل من حيث . ولتضيفوا منصوب بأن مضمرة بعد اللام . ولينفق اللام للأمر .

المعنى :

(اسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم) . قال تعالى في أول هذه السورة : « لا تخرجوهن من بيوتهن » . وقلنا في تفسير ذلك : ان الله سبحانه أوجب على المطلق سكنى المعتدة ، وأشرنا الى أقوال المذاهب التي فرقت بين المعتدة الرجعية والبائنة .. والآية التي نحن بصددنا تتصل بقوله تعالى : « ولا تخرجوهن من بيوتهن » لأنها تحدد البيت الذي يجب أن تسكنه المطلقة ما دامت في العدة ، تحدهه بقدره الزوج وطاقته ، فيسكنها مثل ما يسكن ، فإن كان موسعاً واسع ، وان كان مضيقاً ضيق (ولا تضاروهن لتضييقوا عليهن) . لا تتعمدوا اضرارهن بالتضييق عليهن في النفقة والمسكن لتلججنوهن الى تركه والخروج منه .. والإضرار بالآخرين من أكبر الكبائر بخاصة الإضرار بالزوجة والجار .

(وان كن اولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن) . اذا طلقها وهي حامل وجبت لها النفقة بما فيها السكنى حتى تنتهي العدة بوضع الحمل، سواء أكان الطلاق رجعياً أم بائناً ، والفرق في وجوب نفقة العدة وعدمها انما هو بين الرجعية والبائنة غير الحامل حيث يجب للأولى دون الثانية .

وقال جماعة من الفقهاء : حين قال سبحانه : « اسكنوهن » أطلق ولم يقيد بالحمل ، وحين قال : « فأنفقوا عليهن » قيد بالحمل ، واستنتجوا من ذلك ان السكنى يجب لكل مطلقة حاملاً كانت أم حائلاً ، رجعية كانت أم بائنة ، أما النفقة فزنها يجب للحامل حتى ولو كانت بائناً .

ونقول في الجواب : لو أخذنا بهذا الاستنتاج لوجب أن تخصص نفقة العدة بالحامل فقط التي هي محل الاجماع ، أما غير الحامل فلا نفقة لها حتى ولو كانت رجعية .. ولا قائل بذلك على الاطلاق ، حيث انمقد اجماع المذاهب على وجوب

الجزء الثامن والعشرون

النفقة للمعتدة الرجعية ، والمصدر السنة النبوية التي هي بيان وتفسير لكتاب الله خاصة فيما يعود الى حلال الله وحرامه ، ولا شيء في السنة يدل على ان الباتنة تجب لها السكنى وان كانت حائلاً .

(فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن) . قال الامامية : ان الأم لا تجبر على إرضاع وليدها إلا إذا انحصر الإرضاع بها ، وان أرضعته في هذه الحال أو في غيرها فلها أن تطالب بأجرة الرضاع ، سواء أكانت في عصمة الزوج أم لم تكن ، فإن كان للطفل مال فأجرتها من ماله وإلا فن مال الأب الموسر وان علا ، وان كان معسراً وجب عليها أن ترضعه مجاناً .. وهذا قريب جداً مما نقله ابن قدامة في كتاب المغني عن المذاهب الأربعة سوى ان مالكاً قال : تجبر الزوجة على الإرضاع ان كان أمثالها يرضعن أولادهن عادة ، وان كان مقامها أرفع من ذلك فلا تجبر .

(واثمروا بينكم بمعروف) . الخطاب للآباء والأمهات ، والمعنى تشاوروا فيما بينكم وتدارسوا بإخلاص وروية فيما تستدعيه مصلحة الولد وفي أجرة الرضاع ، وتساهلوا وتسامحوا إذا كان في نفس أحدكم شيء على الآخر رحمة بالطفل ورغبة في مصلحته فإنه أمانة الله عندكم (وان تعاسرتم فسترع له أخرى) . ان اختلف الأب والأم في اجرة الرضاع وطلبت الأم أكثر من غيرها فللأب أن ينتزع الطفل منها ، ويعطيه الى أجنبية ترضعه ، وكذا إذا وُجدت من ترضعه مجاناً ، وأبت الأم إلا الأجرة ، أما إذا رضيت الأم بما ترضى به غيرها فهي به أولى لأنها أبرّ وأرحم .

(لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله) . هذه الآية صريحة الدلالة في أن الوضع المادي للزوج شرط أساسي في تقدير نفقة الزوجة ، فالموسر يُفرض عليه نفقة الموسر ، والمعسر يفرض عليه نفقة المعسر ، من كل حسب طاقته ، وهذا الحكم لا يقبل التعديل لأن الله سبحانه علاه بيديه العقل والفترة ، وهو قوله تعالى : (لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها) وتعليل الحكم الشرعي بالعقل القطري يجعله مبرماً وقطعياً لا يقبل التأويل ولا التخصيص ولا النسخ . وتقدم الكلام عن إرضاع الزوجة لولدها وعن تقدير نفقتها ، تقدم ذلك

سورة الطلاق

عند تفسير الآية ٢٣٣ من سورة البقرة ج ١ ص ٣٥٦ (سيجمل الله بعد عسر يسراً) . لا شيء يلدوم على حال واحدة إلا وجهه الكريم ، فكم من ضيق أعقبته فسحة ، وعند تنامي الشدة يكون الرخاء ، وصدق الله العظيم ، فان مع العسر يسراً ان مع العسر يسراً ، حتى ولو أخذ العسر بالخناق .

وكاين من قرية الآية ٨ - ١٢ :

وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا
وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا * فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا
خُسْرًا * أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ
آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ
لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ
يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا * اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ
سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا *

الفة :

عتت أعرضت استكباراً . ونكراً منكراً شديداً . وبال أمرها عاقبة أمرها
والمراد بالذكر القرآن وبالرسول محمد (ص) .

الإعراب :

كأين بمعنى كم الخبرية وتفيد الكثرة. والذين آمنوا صفة لأولي الألباب. ورسولاً مفعول لفعل مقدر أي وأرسل رسولاً . خالد بن حال من هاء يدخله لأنها تعود الى من التي هي بمعنى الجماعة . وأحسن هنا تتضمن معنى أعطى . رزقاً مفعول لأحسن أي أعطاه رزقاً حسناً . ومثلهن مفعول لفعل محذوف أي وخلق من الأرض مثلهن . وعلماً تمييز .

المعنى :

تقدم مضمون هذه الآيات مرات ومرات ، لذا نفسرها بإيجاز (وكأين من قرية عنت عن أمر ربها ورسله) . أرسل سبحانه رسله الى كثير من الأمم الماضية يأمرهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر ، فأعرضوا عناداً واستكباراً (فحاسبناها حساباً شديداً وعذبناها عذاباً نكراً) . أخذهم الله بسوء العذاب بعد أن أعلن اليهم بحجج ظاهرة وبيانات واضحة (فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسراً) . الوبال والعاقبة بمعنى واحد ، ومن أجل هذا قد يتوهم بأن الجملة الثانية بمعنى الأولى . ولدى التأمل يتبين ان هذا مثل قول القائل لمن لاقى جزاء الشر .. جوزيت بالشر لأن فاعل الشر لا يجزى إلا به (أعد لهم عذاباً شديداً) . يكون هذا العذاب في الآخرة ، ودلت عليه كلمة (أعد). وذلك الحساب والعذاب كان في الدنيا ، ودلت عليه كلمة «عذبناها» ويتلخص معنى الآيتين بقوله عز من قائل: « لهم في الدنيا خزى وهم في الآخرة عذاب عظيم - ١١٤ البقرة » .

(فاتقوا الله يا اولي الألباب الذين آمنوا) . ان كنتم تعقلون معنى الايمان حقاً وتزعمون انكم من أهله فاقنونا القول بالفعل والعلم بالعمل ، وإلا فما أنتم بمؤمنين (قد أنزل الله اليكم ذكراً رسولاً يتلو عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات الى النور) . أرسل رسوله همداً بالقرآن ليتلوه على الناس ويهتدي به أهل العقول ويخرجوا من ظلمات الكفر والآثام الى نور الحق والايمان (ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار

سورة الطلاق

خالدين فيها أبداً قد أحسن الله له رزقاً) . للمؤمنين الصالحين عند ربهم أجر عظيم ، ورزق كريم . وتكرر هذا المعنى مجملاً ومفصلاً في العديد من الآيات ، والقصد هو الرغبة في الصالحات وعمل الخيرات .

سبع سموات ومن الأرض مثلهن :

(الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن) . تعددت الأقوال حول السموات السبع والأرضين السبع ، والمعقول منها ما يلي :

القول الأول : يجب أن تؤمن - على سبيل الاجمال - بوجود سبع سموات وسبع أرضين ، وندع التفصيل لعلم الله .

القول الثاني : ان الكون الأكبر يضم سبعة أكران ، ولكل كون منها كواكب لا يحصى عددها ، ومن جملتها كوكب أرضي ، وبين كل كون وآخر ملايين الملايين من السنين الضوئية .. وقد عبّر سبحانه عن هذه الأكران السبعة بالسموات السبع ، أما قوله تعالى : « ومن الأرض مثلهن » فهو يشير الى ان في كل كون من السبعة كوكباً أرضياً .. وقد أشرنا الى هذا القول عند تفسير الآية ١٧ من سورة المؤمنون ج ٥ ص ٣٦٢ .

القول الثالث : ان ذكر السبع لا يفيد الحصر بها ، وانما خصها الوحي بالذكر لأن الذين خوطبوا بالقرآن آنذاك كانوا يسمعون عن الأفلاك السبعة وكواكبها دون غيرها . قال المؤرخون : ان الكلدانيين اشتهروا بعلم الهيئة ، وتوصلوا الى معرفة الكواكب السبعة السيارة ، وتوارثت الأمم هذه المعرفة عن الكلدانيين جيلاً بعد جيل حتى زمن العرب الذين نزل القرآن بلسانهم ، فخاطبهم عن السماء بما اعتادوا أن يتخاطبوا به فيما بينهم .. وقد أشرنا الى هذا القول عند تفسير الآية ٢٩ من سورة البقرة ج ١ ص ٧٨ . ويظهر لنا الآن ان هذا أرجح الأقوال ، فقد أطلعنا - ونحن نقب في المصادر لتفسير الآية التي نحن بصدها - على حديث نبوي وقول لابن عباس يرجحان ان ذكر السبع لا يراد به الحصر ، أما الحديث فقد نقله الشيخ المراغي عن الصحابي ابن مسعود ، وهو « ما السموات السبع وما فيهن وما بينهن ، والأرضون السبع وما فيهن وما بينهن إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة .

الجزء الثامن والعشرون

وقد أثبت العلم الحديث هذه الحقيقة، انظر تفسير الآية ٤٧ من سورة الذاريات..
فن ابن أخذ هذا العلم محمد الذي نشأ في أمة أمية لا تكتب ولا تحسب ؟ كما
قال : هل أخذه من بحيرة الراهب أم من رهبان الأديرة الآخرين ؟ وهل يفترى
محمد على الله ، وهو يدعو الى كتاب يقول بلسان صريح فصيح : « ومن أظلم
من افترى على الله كذباً أو قال أوحى إليّ ولم يوح اليه شيء - ٩٣ الأنعام »
ويقول : « وقد خاب من افترى - ٦١ طه » ؟ .

وفي تفسير الطبري ان ابن عباس تلميذ الإمام علي سئل عن قوله تعالى :
« سيج سموات ومن الأرض مثلهن » ؟ . فقال : « لو حدثتكم عن تفسيرها
لكفرتن بتكذيبكم بها ، لأن عقولهم لا تحتمل ، فيشكّون في صدق القرآن
(ينزل الأمر بينهن) يدبر السموات والأرضين وما فيهن وبينهن بحكمته ،
ويمسكهن بقدرته ، ويتقنهن بعنا (لتعلموا ان الله على كل شيء قدير وان الله
قد أحاط بكل شيء علماً) . من الحكيم البالغة في خلق السموات والأرض أن
تعلوا ان الله قادر على كل شيء حتى البعث بعد الموت ، وانه عالم بكل شيء
حتى مقاصدكم وأفعالكم ، فتطيعوه وتخافوا من غضبه وعذابه .

سورة التحريم

١٢ آية مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لم تحرم ما أحل الله لك الآية ١ - ٥ :

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ
غَفُورٌ رَحِيمٌ * قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ
الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * وَإِذْ أَسْرَأَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ
بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ
قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ تَبَانِي الْعَلِيمُ الْحَبِيرُ * إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ
صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ
الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ * عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ
يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ
سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا *

اللفظ :

تحريم تمتنع عن . فرض شرع . أظهره الله عليه أطلمه عليه . عرف بفضه أخبر

الجزء الثامن والعشرون

بعضه . وأعرض عن بعض لم يخبر بالبعث الآخر . وصفت مالت . والتظاهر التعاون ، والظهير المعين . وسائحات صائحات أو المتأملات اللاتسي يتعظن بمواعظ الله سبحانه وهي مأخوذة من السياحة بالعقل والقلب .

الإعراب :

تحلة مصدر مثل تكرمه . وقال صاحب البحر المحيط : انما جمع في قوله : «قلوبكما» مع انها قلبان فراراً من الجمع بين ضميري التثنية في كلمة واحدة ، ويصح أن يقال : قلباكما . هو مولاة مبتدأ وخبر والجملة خبر ان . وجبريل مبتدأ وما بعده عطف عليه ، وظهير خبر عن الكل ، ولفظ فمیل يقع على الواحد والجمع ، وبعد ذلك منصوب بظهير . وخيراً صفة لأزواج وكذا ما بعده .

ملخص القصة :

اختلف المفسرون والرواة في سبب نزول هذه الآيات ، ونبت هنا ما جاء في صحيح البخاري ومسلم عن عائشة ، قالت : كان رسول الله (ص) يحب الحلواء والعسل ، وفي ذات يوم شرب عسلاً عند زوجته زينب بنت جحش ، فتواطأت أنا وحفصة على ان الرسول إذا دخل على احدانا أن تقول له : اني أجد منك ريح مغافير^١ . وهكذا كان . فقال الرسول : لا بل شربت عسلاً عند زينب ولن أعود ، وقد حلفت^٢ ، ولا تخبري بذلك أحداً .

وفي تفسير الشيخ المراغي ان التي دخل عليها النبي (ص) وحرّم على نفسه العسل أمامها هي حفصة ، فأخبرت عائشة بذلك مع ان النبي (ص) استكنمها الخبر . وقال الشيخ المراغي : وقد كانت عائشة وحفصة متصافيتين متظاهرتين على سائر أزواج النبي (ص) .

ومها قيل عن سبب النزول فإن ظاهر الآيات يدل بوضوح ان النبي (ص) كان

(١) صمغ حلو له رائحة كريهة ، وكان الرسول يكره ان تكون له ريح غير طيبة .

سورة التحريم

قد امتنع عن شيء أحله الله له لسبب من الأسباب ، وانه قد أمر بذلك الى بعض أزواجه ، وأمرها بالكتمان ، ولكنها خالفت وأفشت، فعاتب الله سبحانه نبيه الكريم على امتناعه عما أحل الله له ، وهدد أزواجه اللاتي لا يستمعن الى أمره .

المعنى :

(يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك) . الخطاب لرسول الله ، والمراد بالتحريم هنا مجرد الامتناع والالتزام بالترك لتطبيب خاطر من تحسن العشرة معه ، تماماً كما لو أُلزمت نفسك بترك الدخان ارضاء لزوجتك التي يؤذيها ذلك .. فليس المراد بالتحريم هنا التحريم الشرعي .. مستحيل .. كيف وكتاب الله الذي نزل على قلب محمد (ص) يقول : « يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم - ٩٠ المائدة » . ويقول أيضاً : « قل رأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حلالاً وحراماً قل الله أذن لكم أم على الله تفترون - ٥٨ يونس » .

وقيل : ان الشيء الذي حرمه النبي (ص) على نفسه هو العسل وانه قصد بذلك مرضاة زوجته حفصة حيث ساءها أن يشرب النبي (ص) العسل عند زوجته زينب بنت جحش ، فطيب قلب حفصة بالامتناع عن شرب العسل . (والله غفور رحيم) . العفو والغفران من الله سبحانه لا يستدعي وجود الذنب ، فكثيراً ما يكون تعبيراً عن ثوابه ورحمته، وقد كان الانبياء يطلبون من الله الصفح والمخفرة، ومثله : « عفا الله عنك لم أذنت لهم - ٤٣ التوبة » .

(قد فرض الله لكم تحلة إيمانكم) . قيل : ان النبي (ص) كان قد حلف على ترك شيء أحله الله له ، فأمره سبحانه أن يدع يمينه ويكفر .. وفي رأينا - والله أعلم - ان النبي (ص) لم يحلف ، ولكنه وعد بالترك ، ووعد المصوم يجب الوفاء به على كل حال ، سواء أكان الموعود به مندوباً أم مباحاً ، لأن وعده أقوى وأعظم من يمين غيره ومن ثم يصح ان يطلق اليمين على وعده . (والله مولاكم وهو العليم الحكيم) . الله يتولى امور النبي والمؤمنين ، وينصرهم على المتأمرين، وهو اعلم بالحكمة والمصلحة التي على اساسها بشرع احكام اليمين وغيرها.

الجزء الثامن والعشرون

(وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً) . يدل هذا على ان النبي (ص) بشرٌ يسرّ إلى أزواجه كما يسرّ الناس إلى أزواجهم، وانه لا يمتاز عنهم إلا بتزول الوحي عليه ، والعصمة عن محارم الله وكسل ما يشين . أنظر ج ٥ ص ٢١٣ فقرة « حقيقة النبوة » (فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض) . ضمير « به » وأظهره وبعضه يعود إلى الحديث الذي أسره النبي (ص) إلى بعض أزواجه ، والضمير المستتر في نبأت يعود إلى حفصة ، والضمير في عرف يعود إلى النبي (ص) ، والمعنى ان حفصة أفشت سر النبي على الرغم من وصيته لها بالكتمان ، ولما أذاعت وأفشت أخبر الله نبيه الكريم بغيرها ، فأطلعها النبي (ص) على بعض ما أفشت ، وأعرض عن بعضه رفقاً بها .. وفيه إيماء الى انها تجاوزت الحد في الافشاء (فلما نبأها به قالت من أنباك هذا) . سألته من الذي أخبره بغيرها (قال نبأني العليم الخبير) الذي يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور .

(ان تتوبا إلى الله فقد صفت قلوبكما - أي مالت إلى الحق - وان تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهروا) . ضمير عليه يعود إلى رسول الله ، وضمير تتوبا وتظاهرا وقلوبكما إلى عائشة وحفصة ، كما في كتب التفسير والحديث ، وتختار منها أربعة : اثنين من التفسير واثنين من الحديث، فقد جاء في تفسير الطبري ما نصه : « قوله تعالى : « وان تظاهرا عليه » يقول تعالى ذكره لتي أسر اليها النبي (ص) حديثه ، والتي أفشت اليها حديثه ، وهما حفصة وعائشة ، وبنحو ما قلنا قال أهل التأويل . وقال الرازي ما نصه أيضاً : « ان تتوبا الى الله خطاب لعائشة وحفصة » . وقال البخاري في الجزء السادس من صحيحه بعنوان « سورة التحريم » : « سأل ابن عباس عمر بن الخطاب : من اللتان تظاهرتا على النبي (ص) من أزواجه ؟ فقال : تلك حفصة وعائشة ، ومثله في القسم الثاني من الجزء الأول من صحيح مسلم بعنوان . « باب في الإيلاء واعتزال النساء » . وفيه أيضاً سؤال آخر حول تتوبا ، قال مسلم في الباب المذكور : « سأل ابن عباس عمر : من المرأتان من أزواج النبي (ص) اللتان قال لهما ان تتوبا فقد صفت قلوبكما ؟ قال عمر : هي حفصة وعائشة » .

وعلى هذا يكون معنى الآية ان عائشة وحفصة قد تعاونتا على النبي (ص) ، وأسأنا اليه بإفشاء سره على الرغم من وصيته بالكتمان ، وان الله سبحانه قد أمرهما

سورة التحريم

بالتوبة والانابة عن هذه الخطيئة ، فإن تابنا وأصلحنا فقد مال قلبنا الى أمر الله والاخلاص لرسوله ، وان أصرنا على التماون ضد الرسول فإن الله وبيه وناصره ، وأيضاً بعينه ويؤازره جبريل وجميع الملائكة والمؤمنين الصالحين .

وتسأل : لماذا كل هذا التهديد والوعيد ؟ وما هو شأن عائشة وحفصة حتى يُحشد عليهما قوة الله وقوة جبريل ومعه جميع الملائكة وصالح المؤمنين ؟ .

الجواب : ان عائشة وحفصة غير مقصودتين بالخصوص من هذا التهديد، وإنما المقصود أولاً التنويه بعظمة الرسول ومكانته ، ثم افهام الجميع بما فيهم حفصة وعائشة والمنافقين والكافرين وكل من أضمر أو يضر السوء للرسول الأعظم (ص) افهام الجميع بأن النبي (ص) في حصن حصين من قوة الله وملائكته وأوليائه .

(عسى ربه ان يطلعكن ان يبده أزواجاً خيراً منكن مسلمات مؤمنات قانتات ثابتات عابدات سائحات نيبات وأبكاراً) . ما الذي أغراكن يا نساء النبي بالظاهر عليه وعلى مصعبته ؟ هل اغررتن بمجالكن أم بدينكن وطاعتكن لله ورسوله ، أم بماذا ؟ . وتعلم كل واحدة منكن ان الرسول الأعظم (ص) لو طلقكن بكاملكن لأبدله الله خيراً منكن جلالاً وكبراً وديناً واخلاصاً نيبات إن شاء ، وإن شاء أبكاراً أو هما معاً .

وقودها الناس والحجارة الآية ٦ - ٩ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ *
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ *
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا

يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ
يَقُولُونَ رَبَّنَا أَنْتُمْ لَنَا نُورٌ وَآخِرُ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *
يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفْرَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَا أُوهُمْ جَهَنَّمُ
وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ *

اللقنة :

قوا أنفسكم احفظوها وصونوها . والوقود بفتح الواو حطب النار ، والتوبة
النصوح الخالصة .

الإعراب :

وأهليكم عطف على أنفسكم . وتُصِبت ناراً بنزع الخافض أي احفظوا أنفسكم
وأهليكم من النار . ما أمرهم ، ما مصدرية والمصدر المنسبك منصوب بنزع
الخافض أي لا يمضون الله في أمره . ونصوح مصدر وصف به التوبة على المبالغة .
ويوم لا يخزي ، يوم ، منصوب بيدخلكم .

المعنى :

(يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة) . المراد
بالحجارة هنا الأستنام لقوله تعالى : « انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم
أنتم لها واردون - ٩٨ الأتبياء » . والمعنى إذا كان المؤمن يشعر بالمسؤولية أمام الله
عما يقول ويفعل ، ويخاف من غضبه وعذابه - فإن عليه أن يعلم انه مسؤول أيضاً
أمام الله عن أهله وأولاده ، وان من واجبه أن يمد يده الى العمل على صلاحهم
وتقويمهم ، وإذا كان الأب يفعل الكثير من أجل ولده حرصاً عليه وعلى مستقبله

سورة التحريم

في هذه الحياة الفانية فأولى له أن يعمل لسعادته في الحياة الباقية ، وأن يقيه ما هو أشد وأعظم من غدرات الزمان وضربات .. ولكن .. ما يصنع الأب المؤمن مع هذا الجيل الجديد الذي يريد من الآباء أن يخضعوا لأمره ، ويتزلوا على رأيه ؟ (عليها ملائكة غلاظ شداد) على الجفافة الطغام الذين طغوا وبغوا في الحياة الدنيا على عباد الله وعياله (لا يعصون - أي الملائكة الغلاظ - الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) . يسرعون الى طاعة الله من غير توان ، وهو يقول لهم مشيراً الى كل سفاح اثم : « خذوه فقلوه ثم الجحيم صلوه - ٣١ الخاقية » . (يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون) . ان هذا اليوم يوم حساب وجزاء على الأعمال ، لا يوم توبة ومعذرة ، وبأي شيء يعتذر الذين تدور مصانئهم ليل نهار لانتاج الموت والدمار ؟

(يا أيها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحاً عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار) . عسى من الله معناها الوجوب والتوبة النصوح هي الصادقة في الاقلاع الخالصة لوجه الله وحده ، وهي مبسوطة لكل من أذنب وأساء ، وأيضاً هي حسنة عظيمة تجب ما قبلها من السيئات ، وتستوجب ثواب الله وجنانه (يوم لا يخزي الله النبي) . هذا تعريض بأعداء النبي . وانه مخزيون دنياً وآخرة ، والا فمن الذي يتصور ان الله يخزي محمداً يوم القيامة ، وقد كانت حياته في الدنيا رحمة للناس أجمعين .

(والذين آمنوا معه نورهم يسمى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم علينا نورنا واطفر لنا انك على كل شيء قدير) . تقدم مثله في الآية ١٢ من سورة الحديد (يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير) . أبداً .. لا رأفة ولا هوادة مع الطغاة اللثام .. ولا شيء لهم عند الحق والعدل إلا السيف ، وأي شرع وقانون يرحم ويتساهل مع الذين يستهينون بحياة الناس ، وينشرون الرعب والذعر في القلوب ، ويقولون : من لم يكن معنا زعبداً لنا فهو علينا وعدو لنا .. وما له عندنا إلا السلاح الجهنمي ؟ . وبالتالي ، فإن الرحمة والرأفة هي القضاء على العدوان وأهله .. والله سبحانه رحيم في ناره تماماً كما هو رحيم في جنته .

امراة نوح وامراة لوط الآبة ١٠ - ١٢ :

صَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأةَ نُوحٍ وَامْرَأةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ
عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئًا
وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ * وَصَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأةَ
فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ
وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا
فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الْقَاتِلِينَ *

: اللغة :

تحت عبدين أي زوجتين لنبين عظيمين . فخانتهما أي بالكفر والنفاق لا بالزنا
والفجور . والإحصان العفاف . والفرج شق جيب القميص ، وكل شق هو
فرج . والمراد بالنفخ الخلق . بالروح الحياة ، وأضافها اليه سبحانه لأنه مصدرها
وموجدتها .

: الإعراب :

ضرب بمعنى جعل ، وامراة نوح مفعول أول مؤخر ، ومثلاً مفعول ثانٍ مقدم .
وصالحين صفة لعبدين . وشيئاً مفعول مطلق ليغنيا . ومريم عطف على امراة فرعون .
والقاتلين جمع للذكور والاناث تظلياً للذكورية على التأنيث .

: المعنى :

(ضرب الله مثلاً للذين كفروا امراة نوح وامراة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا

سورة التحريم

صالحين فخانتهما فلم يغنيا عنها من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين) .
لا فرق بين الرجل والمرأة أصلاً وطبيعة ومسؤولية ، وكل منهما جزء منم
للآخر ولا غنى لأحدهما عن صاحبه ، وفي الرجال الصالح والطالح ، وفي النساء
الصالحة وغير الصالحة .. والآية بعيدة عن المقارنة بين الرجل والمرأة ، وإنما ضرب
الله مثلاً بها من دون الرجل تعريضاً ببعض أمهات المؤمنين اللاتي تظاهرن على
الرسول الأعظم (ص) كما جاء في الآية ٤ من هذه السورة ، فإنه سبحانه بعد
أن ذكر ان بعض نساء النبي قد تظاهرن عليه ، وهددهن - ذكر هنا ان القريب
من الله تعالى من قربته الأخلاق والأعمال حتى ولو كان أقرب الناس لأشقى
الأشقياء ، وان البعيد عنه تعالى من أبعده السيئات والآثام حتى ولو كان أقرب
الناس لأتقى الأتقياء .. أبداً لا محابة ولا قرابات .. لا شيء على الاطلاق يجدي
في يوم القيامة إلا التقى والاخلاص .

وقد ضرب سبحانه مثلاً لذلك بامرأة نوح وامرأة لوط ، فقد كانت الأولى
تؤذي زوجها وتقول : انه مجنون ، وتفشي أسراره بين المشركين ، وكانت الثانية
تعين الطغاة على زوجها وتدلهم على أضيافه..ومن أجل هذا وصفها سبحانه بالخيانة
التي هي ضد الأمانة لا بمعنى الزنا، فإن المسلمين يعتقدون انه ما زنت امرأة نبي قط .
والخلاصة ان الله سبحانه أدخل النار امرأة نوح وامرأة لوط لكفرهما ونفاقهما
مع انهما كانتا زوجتي نبيين عظيمين ، فكذلك سبحانه يدخل النار أزواج الرسول
الأعظم (ص) اللاتي تظاهرن عليه ان لم يتوبا الى الله وإليه .

(وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً
في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين) . بعد أن ضرب سبحانه
مثلاً بامرأة نوح وامرأة لوط على ان قرابة الخبيث من الطيب لا تنفعه شيئاً - ضرب
مثلاً بامرأة فرعون على ان صلة الطيب بالخبيث لا تضره شيئاً ، فقد آمنت آسية
بنت مزاحم بالله وكتبه ورسله وكفرت بزوجها فرعون ، فهدها بالقتل فأثرت
مرضاة الله ونعيمه على ملك فرعون وسلطانه ، وتبرأت منه ومن عمله ، وسألت
الله سبحانه أن يشملها برحمته ، وينعم عليها من فضله . وفي تفسير الطبري : ان
فرعون أرسل رجاله اليها ، وقال لهم : أنظروا أعظم صخرة تجدونها، فإن بقيت

الجزء الثامن والعشرون

على الإيمان بالله فالتقوا الصخرة عليها ، وان رجعت فهي امرأتي ، فلما أتوها رفعت بصرها إلى السماء ، فأبصرت بيتها في الجنة ، فضت على قولها ، فانتزع الله روحها ، وألقيت الصخرة على جسد ليس فيه روح . وفي بعض التفسير ان طلبها من الله أن يبني لها عنده بيتاً هو من باب الجار قبل الدار .

(ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين) . أحصنت فرجها كناية عن طهارتها مما رماها به اليهود من البغاء والفجور ، والمراد بالنفخ من روحه تعالى انه منح الحياة لوليدها السيد المسيح تماماً كما منح الحياة لأدم : « فإذا سويته ونفخت فيه من روحي - ٢٩ الحجر » . والمعنى ان الله سبحانه ضرب مثلاً للمؤمنات بالسيدة الطيبة مريم التي آمنت بالله ورسله وكتبه ، فاصطفاها على نساء عصرها ، وصانها من الدنس بفضله ؛ وحملت وليدها بكلمته . وتقدم مثله في أكثر من آية . أنظر تفسير الآية ١٧١ من سورة النساء ج ٢ ص ٥٠٠ .

الجزء التاسع والعشرون

سورة الملك

٣٠ آية مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تبارك الذي بيده الملك الآية ١ - ١١ :

تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمَلِكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ
وَالْحَيَاةَ لِيُبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا * وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ * الَّذِي خَلَقَ
سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ
هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ
خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ * وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا
رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ * وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ
عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ
تَفُورُ * تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا
أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ
مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ * وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ
مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ * فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ *

سورة الملك

اللغة :

تبارك تعالی عما لا یلیق. بیده الملك له التصرف المطلق. لیلوکم : لیظهر أعمالکم بالامتحان . وطباقاً أي يشبه بعضها بعضاً في الاتقان كما تقول : هذا مطابق لذاك. والتفاوت الاختلاف أي لا ترى اختلافاً في اتقان الصنع. والمراد بالفطور هنا الخلل والنقص . وكرتین مرتین والمراد بهما هنا أكثر من مرة ومرة بعد مرة. وينقلب يرجع . وخاسئاً ذليلاً . وحسیر كليل . والرجم الرمي . وتمیز تفرق وتقطع من حقها . وسحقاً . بعداً وهلاكاً .

الإعراب :

تبارك فعل ماضٍ ، وقالوا لم یُنطق له بمضارع . والمصدر من لیلوکم متعلق بخلق . وأیکم مبتدأ وأحسن خبر وعملاً تمييز . وطباقاً صفة لسמות وهي مصدر بمعنى اسم الفاعل أي مطابقة . وكرتین قائم مقام المفعول المطلق أي رجعتین مثل ضربته مرتین . وخاسئاً حال من البصر . والذین كفروا خبر مقدم وعذاب جهنم مبتدأ مؤخر . وسحقاً مصدر مؤكد أي سحقهم الله سحقاً .

المعنى :

(تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير) . علا سبحانه بحوله على كل شيء وهيمن على كل شيء ، ولا يعجزه شيء .. ومن آثار هذه العظمة انه (الذي خلق الموت والحياة لیلوکم أیکم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور) . من اين جاءت الحياة ؟ وكيف ذهبت ؟ لا تفسير لذلك إلا بوجود الحسي الذي لا يموت . أنظر ج ٣ ص ٢٣١ فقرة ٥ من اين جاءت الحياة ؟ . أما الحكمة من الحياة في الدنيا ثم الموت ثم البعث فهي ان تظهر افعال الانسان في دنياه ، ويثاب عليها أو يعاقب في آخرته . وفي الحديث ان رسول الله(ص) حين تلا هذه الآية فسرها بقوله : « أیکم أحسن عملاً ، وأورع عن محارم الله ، وأسرع الى طاعته » .

الجزء التاسع والعشرون

وأيضاً من آثار عظمته تعالى انه (الذي خلق سبع سموات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حير) وذكر السموات السبع لا يفيد المحصر . انظر آخر سورة الطلاق فقرة « سبع سموات ومن الأرض مثلهن » . وطباقاً أي يطابق بعضها بعضاً في دقة الصنع ، والمسنى حَقَّقْ وتفحص وتأمل جيداً ، وعاود النظر مرات ومرات في خلق الكائنات فإنك لا ترى ولن ترى إلا الحكمة والدقة والإ النظام والانسجام والتناسب والتناسق في كل شيء .. أبداً لا تفاوت في اتقان الصنع ، ولا خلل ولا نقص في شيء من أصغر صغير الى أكبر كبير.. سل العقول مجتمعة : من الذي أعطى كل شيء خلقه فقدرة تقديراً؟ هل الصدفة أتت بكل هذه الأسرار والمعجائب ؟ وهل هي قاعدة تطرد في كل شيء ومبدأ لا يتقضه شيء ؟ ومتى بهرت الصدفة الألباب وحيرت ؟ ولا جواب عند العقول العليمة السليمة إلا بالرجوع الى قوة تكمن وراء الطبيعة والاعتراف بالمعجز عن ادراك حقيقتها وكنه عظمتها .

وهنا يكمن السر لتاريخ الإيمان بالله الذي وجد بوجود الانسان بل بوجود كل كائن يحس ويشعر، ونحن على علم اليقين بأن الجاحد لو فكر وتدبر خلق السموات والأرض لآمن بالله من حيث يريد أو لا يريد . قال « لورد كيلفن » أحد علماء الطبيعة البارزين : « إذا فكرت تفكيراً عميقاً فإن العلوم سوف تضطرك الى الاعتقاد بوجود الله . وهذا ما أعلنه القرآن بقوله : « انما نخشى الله من عباده العلماء – ٢٨ فاطر » .

(ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين واعتدنا لهم عذاب السعير) . الدنيا هنا تأنيث الأدنى ، وهي صفة للسماء أي انه تعالى زينَ بالمصابيح السماء التي هي أقرب اينا من سائر السموات ، والمراد بالمصابيح النجوم ، أما الرجم فقد يكون بالشهب التي تحترق - غالباً - في الفضاء قبل أن تصل الى الأرض ، وقد يكون بالحجارة المتساقطة من النجوم - النيازك - وكسل عاتٍ متردد فهو شيطان قال تعالى : « واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم - ١٤ البقرة » واعتدنا أي أعدنا . وتقدم مثله مع التفسير في الآية ٦ من سورة الصافات ج ٦ ص ٣٣٠ والآية ١٢ من سورة فصلت ص ٤٨٠ من المجلد المذكور .

سورة الملك

وقال البعض في تفسير هذه الآية : ان الدجالين يوهون انهم يعلمون الغيب من النظر الى النجوم ، وان الله سبحانه سوف يرحمهم يوم القيامة بشر من نار جهنم لأنهم كانوا يقولون رجماً بالغيب .. وهذا التفسير أيضاً رجم بالغيب .

(وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير اذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور تكاد تميز من الغيظ) . قال صاحب الظلال : قد يظن ان هذا تعبير مجازي .. ولكن جهنم مخلوقة حية تكظم غيظها ، وتنطوي على بغض وكره !.. وأكثر المفسرين على ان المراد ان لجهنم لجباً وكتباً عظيمين ، يكاد من يراها يحسبها غضبي على الكافرين بحيث توشك أن تنقطع أوصالها من الحق عليهم . وهذا التفسير أقرب الى الافهام والتصديق من تفسير صاحب الظلال الذي يشبه تفسير أهل الظاهر .

(كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير) . المراد بخزنة جهنم الموكلون بها ، والقصد من سؤال الخزنة هو توبيخ المجرمين وابلامهم تماماً كقولك لمن أخذ بجريمته : هذا ما جنته يدك .

(قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء ان أنتم الا في ضلال كبير) . الأنبياء في ضلال كبير !.. ولماذا لأنهم يدعون الى التوحيد والعدل .. أما العناية الطغاة الذين يعبدون الحطام والأصنام فهم على بصيرة من أمرهم .. هذا هو منطلق أهل الضلال والفساد في كل زمان ومكان (وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير) . جاءهم الرسل بالبينات من عند الله ، فكذبوا علواً واستكباراً ، وقالوا لهم : أنتم ضالون مضلون تفترون على الله الكذب .. ولما أحاط بهم العذاب ذلوا وندموا واعترفوا بأنهم هم الضالون عن الهدى المكذبون بالحق .. ولكن جاء هذا بعد فوات الأوان ، فكان جزاؤهم الشيق والحريق . وتقدم مثله في الآية ١٣٠ من سورة الأنعام ج ٣ ص ٢٦٥ والآية ٧١ من سورة الزمر ج ٦ ص ٤٣٣ .

إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ * وَأَسْرُوا
 قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ
 وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ * هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي
 مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ السَّمَاءَ أَن يَخْفِ
 بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمْ أَمِنْتُمْ مَنِ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ
 حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ * وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ
 كَانَ نَكِيرِ * أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا
 يُسْكِنُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ *

الآية :

ذات الصدور الضائت . واللطيف هنا من اللطف بمعنى الرفق . وذلول من
 الذل بكسر الذال وهو اللين ضد الصعوبة ، والذل بضم الذال الصغار والموان .
 ومناكب الأرض طرقها ونواحيها . والنشور البعث . وتمور تهتر وتضطرب .
 وحاصباً من حصبت الرجل إذا رميته بالحصاء أي الحصى . ونكير الله عذابه .
 صافات باسطات اجنحتهن . ويقبضن يضممنها .

الإعراب :

بالغيب متعلق بمحذوف حال من فاعل يخشون ، والتصدير كائين بالغيب على

سورة الملك

معنى غائبين عن أعين الناس . الا يعلم من خلق الهمة للاستفهام ، ولا للنفي ، وفي يعلم ضمير مستتر يعود الى ربهم ، ومن مفعول ، والمعنى الله يعلم مخلوقاته . والمصدر من أن يخفض بدل اشتغال من « من في السماء » ومثله أن يرسل ، واذا للمفاجأة ، وجملة هي تمور حال من الأرض . ونذير مبتدأ مؤخر وكيف خبر مقدم . ونكير اسم كان وكيف خبرها . وأصلُ نكير نكيري .

المعنى :

(ان الذين يخشون ربهم لهم مغفرة وأجر كبير) . بعد أن ذكر سبحانه ما أعد للمجرمين من العذاب ذكر ما أعد للمتقين من الثواب على مبدأ الجمع بين الترغيب والترهيب، والمتقون هم الذين يتورعون عن محارم الله في جميع الحالات ، لا فرق عندهم علم الناس بحالهم أم لم يعلموا لأنهم لا يفعلون إلا لوجهه الكريم ، وهو يعلم السر وأخفى (وأسروا القول أو اجهروا به انه عليم بذات الصدور) . ومن علم الضمائر فبالأولى أن يعلم السر من القول . وتقدمت هذه الآية في سورة هود ج ٤ ص ٢٠٥ ، أما التي قبلها فتقدمت في سورة الأنبياء ج ٥ ص ٢٨٢ .

(الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) . الله عالم بكل شيء لأنه خالق كل شيء ، وصفة اللطف تشير الى انه تعالى لا يعاجل المسيء بالعقوبة وفقاً به ورحمة له ، عسى أن يؤوب الى رشده ويقطع عن ذنبه .

(هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه) . الله سبحانه رحيم بعباده ، عليم بما يحتاجون اليه في هذه الحياة ، ولذا خلق لهم الأرض، وقدر فيها الأقوات والأرزاق، وجعلها طوع ارادتهم تستجيب لحوائجهم ومصالحهم ، وبتعبير الشيخ عبد القادر المغربي : « الأرض لنا نعمت المطية المبردة والذلول المجربة » .- ولكنه تعالى أناط ذلك بالسعي والعمل ، فقد شاعت حكمته أن يربط المسيات بأسبابها ، والنتائج بمقدماتها ، ومن خرج على هذه السنة فقد تمرد على سنة الله وارادته (واليه النشور) . هذا تهديد ووعد لمن يطلب الرزق بغير الكد والسعي المشروع ، فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه ، . وقال عن

الجزء التاسع والعشرون

من قائل : « لقد خلقنا الانسان في كبد - ٤ البلد ، أي كادحاً يجاهد ويكابد كما قال كثير من المفسرين .

(أنتم من في السماء ان يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً) . المراد بمن في السماء خالق السماء ، وانما خصها سبحانه بالذكر مع انه خالق كل شيء - لأن الناس يعبرون عن تدبيره تعالى بتدبير السماء .. بعد أن ذكر سبحانه بنعمة الأرض وخيراتها حذر من عاقبة البغي والفساد فيها ، فإن هذه النعمة تتحول الى شر ووبال على المجرمين والمفسدين لأن الذي جعلها « ذلولاً » للعباد قادر على ان يخسفها بهم بالزلازل والاهتزاز فتبتلعهم وما يملكون ، أو يرسل عليهم ريحاً عاتية ترميهم بالحصباء فتضيقهم عن آخرهم . وتقدم مثله في الآية ٦٨ من سورة الاسراء ج ٥ ص ٦٥ .

(فستعلمون كيف نذير) . لقد أنذركم الله وحذركم سوء العاقبة ، فكذبتم بالانذار وسخرتم من التحذير ، وعما قريب يحل بكم العذاب الذي كنتم به تكذبون ومنه تسخرون (ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير) أي نكيري ، ونكيره تعالى عذابه ، والمعنى لقد سمعتم أخبار الذين أخذهم الله بذنوبهم ، وعلمتم كيف نزل بهم العذاب .. ألا تخشون ان يصيبكم ما أصابهم ؟ . وتقدم مثله في العديد من الآيات ، منها الآية ٦٩ من سورة التوبة والآية ٤٥ من سورة سبأ

(أولم يروا الى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يسكنهن إلا الرحمن انه بكل شيء بصير) . هذه الآية تدعو الجاحدين الى التفكير في خلق الله وقدرته تعالى ، ومن آثار هذه القدرة خلق الطير وتحليقه في السماء .. فن الذي خلقه على هيئة أهله للطيران ، وهدته الى أن يسط جناحيه في أكثر الأحيان ، ويضمها حيناً بعد حين تماماً كما يفعل السابح ؟ هل هي الصدفة والطبيعة العمياء أو قانون بقاء الأصلح : « وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أم أمثالكم - ٣٨ الأنعام » تشعر كما تشعرون ، وتسير على نواويس طبيعية كما تسيرون ، فالطائر يطير بجناحيه والانسان يمشي على رجليه ، ويسافر في السيارة أو الطائرة أو في سفينة ماء أو فضاء ، وكل هذه الأسباب وما إليها هي من صنع الله تعالى أوجدتها كوسيلة الى المقاصد والغايات . وتقدم مثله في الآية ٧٩ من سورة النحل ج ٤ ص ٥٣٦ .

أَمْ مَنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ * أَمْ مَنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ * أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمْ مَنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ * قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ إِنَّمَا أَعْلِمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ * فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ * قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّنٌ بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ *

الغفة :

المراد بالجند هنا المعين . ولجوا تبادوا وتجاوزوا الحد . والعتو التمرد . ومكباً على وجهه أي يسير ووجهه الى الأرض . وسوياً معتدلاً ومستقيماً . وأنشأكم خلقكم ومثله ذرأكم . والمراد بالأفئدة هنا المدارك والعقول . والزلفة والزلفى الاقتراب ،

الجزء التاسع والعشرون

يقال : تزلف فلان أي تقرب . وسيئت قبحت حين انعكس عليها أثر الحزن . وتدعون بتشديد الدال من الدعاء والطلب لا من الدعوى والزعم . وغوراً مصدر بمعنى اسم الفاعل أي غائراً في الأرض . والمعين الماء الغزير أو الجاري على وجه الأرض المنظور بالعين .

الإعراب :

أم بمعنى بل . ومن هذا مبتدأ وخبر، وتشعر هذه الجملة بالتحقير والاستخفاف . والذي عطف بيان . ومكباً حال من فاعل يمشي ومثله سوياً . وقليلاً صفة لمصدر و « ما » زائدة أي تشكرون شكراً قليلاً . وضمير رأوه يعود الى يوم القيامة . وزلفة حال أي قريباً لأن الرؤية هنا بصرية . أو رحمتنا « أو » للإيهام .

المعنى :

(أم من هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن) . يتصل هذا بقوله تعالى في الآية السابقة : أم أمنتم من السماء الخ .. بعد أن خوفهم سبحانه من خسف الأرض بهم ، وارسال الحاصب عليهم - سألهم ، جلت حكمته ، بقصد التوبيخ والتفريع : ماذا تصنعون اذا نزل بكم العذاب ؟ هل تهربون منه ، ولا ينجو من الله هارب ، أو تلجأون الى أصنامكم ، وهي لا تملك لنفسها شيئاً؟ والجواب قوله تعالى : (إن الكافرون الا في غرور) وظن كاذب أنهم في سلام وأمان من غضب الله وعذابه .

(أم من هذا الذي يرزقكم ان أمسك رزقه) . هذا سؤال ثان منه تعالى ، ومعناه إذا منع الله عنكم أسباب الرزق كالمنطق الذي يرسل السماء عليكم مدراراً، أو ثنائكم التي تعبدون أو جهلكم وغروركم ! والجواب : (بل لجسوا في عتو ونفور) . كلا ، أنهم يعلمون ان الله هو الرازق ، ومع هذا يعاندون الحق ، ويصرون على الباطل لأن حياتهم تقوم عليه وعلى محاربة الحق وأهله .
(أفن يمشي مكباً على وجهه أهدى أم من يمشي سوياً على صراط مستقيم) .

سورة الملك

هذا تمثيل في صيغة السؤال ، تمثيل للفرق بين الضالين الذين لجوا في عتو ونفور وبين المهتدين الذين يسمعون القول فيتبعون أحسنه ، فالضالون مثلهم كمثل الذي يمشي ووجهه الى الأرض يُكثّر العثار فيها لا يعثر فيه بصير ؛ أما المهتدون فمثلهم مثل الذي يسير على الطريق الواضح بحسب معتدل ، ونظر سليم . وتكرر هذا المعنى في العديد من الآيات ، منها قوله تعالى : « مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلاً » أفلا تذكرون - ٢٤ هود ج ٤ ص ٢٢٢ .

(قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة) . لقد خلق الله لكم أسماعاً فانتظوا بما تسمعون ، وجعل لكم أبصاراً فاعتبروا بما ترون من آيات ومعجزات ، ومنحك عقولاً فلماذا لا تفقهون ؟ وقال مفسر من القدامى : « ان الله سبحانه قدم السمع لأن فوائده أقوى من فوائد البصر ، فان السمع للخطاب ، والبصر للرؤية ، ومرتبة الخطاب أقدم » . وقال اديب معاصر : « لا تتقدم كلمة على كلمة في القرآن الالسبب، ولا تتأخر كلمة عن كلمة إلا لسبب. وكمثل بسيط نجد ان القرآن يقدم السمع على البصر في الذكر في عديد من الآيات، وهي مسألة يعرف سرها علماء التشريح ، فهم يدركون ان جهاز السمع أرقى وأعقد وأدق وأرهِف من جهاز الأبصار .. والأم لا يتوه سمعها عن صوت بكاء ابنها وتميزه من بين آلاف الأصوات ، وتوه عين أمه عنه في الزحام » .

(قليلاً ما تشكرون) لأن الله خلق الاسماع والأبصار والأفئدة للخير والصلاح ، وأنتم تستعملونها للشر والفساد (قل هو الذي ذرأكم في الأرض) . ليس معنى ذرأكم خلقكم فقط ، بل فيه أيضاً معنى التكاثر بالنسل ليتسابقوا في مضمار الحياة وعمارتها واستدراار خيراتها هذا ما قاله المفسرون ، ولو كانوا في هذا العصر لعقبوا على هذا التفسير بقولهم : ولكن السدول الكبرى تتسابق اليوم في مضمار التسليح ، وحرمان الجنائين من خيرات الأرض وبركاتها لتكون وفقاً على مصانع الموت التي يملكها الطفافة المحتكرون . وتقول الاحصاءات : ان ما تنفقه دول العالم مجتمعة على السلاح أكثر مما تنفقه على التعليم والصحة معاً . (واليه تحشرون)

فياخذ المفسدين في الأرض بجرمهم وجريرتهم .

(ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين) . تكرر هذا السؤال من الجاحدين في العديد من الآيات ، وهو عجيب وغريب ، لأنه ما من عاقل إلا ويستدل بما

الجزء التاسع والعشرون

وُجد على امكان ما يوجد من أشباهه ونظائره (قل انما العلم عند الله وانما أنا نذير مبين) . هذا مثل قوله تعالى : « يسألونك عن الساعة ايان مرساها قل علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو - ١٨٧ الأعراف ، ج ٣ ص ٤٣١ (فلما رأوه زلقة سيئت وجوه الذين كفروا وقيل هذا الذي كنتم به تدعون) . خوْفهم النبي من يوم القيامة ، فقالوا له ساحرين : فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين .. ولما بُعثوا يوم القيامة وقيل لهم : هذا ما كنتم به تستعجلون- قالوا: يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين.. هذا هو شأن كل جاهل أرعن يركب رأسه ، ولا يبالي ما يصنع وما يقال له .

(قل أرأيتم ان أهلكني الله ومن معي أو رحمتنا فنم بغير الكافرين من عذاب ألم). من تتبع آي الذكر الحكيم يران الخلاف بين الأنبياء والمشركون كان - في الأغلب - يدور حول الشرك والبعث، وان أكثر الآيات أو الكثير منها يتصل بهذين المبدأين بأسلوب مباشر أو غير مباشر ، وكان المشركون يحتجون للشرك وعبادة الأصنام بعادة الآباء والأجداد ، ولإنكار البعث بأن الذي يصبر تراباً لن يعود الى الحياة مرة ثانية ، وقد لقن سبحانه نبيه الكريم حجة الرد عليهم ، وأنفهم بالعذاب العاجل والآجل ، وسبق ذلك في عشرات الآيات ، فيعجز المشركون عن الجواب ويلجأون الى العناد والاستهزاء والشغب، وأحياناً يدعون على الرسول الأعظم (ص) بالهلاك كما أشارت الآية ٣٠ من سورة الطور : « أم يقولون شاعر نربص به ريب المنون » .

وقد تضمنت الآيات السابقة الخطاب مع المشركين حول البعث والتهديد بعذاب الحسف والحاصب في الدنيا ، وعذاب جهنم وبئس المصير في الآخرة ، ثم انتقل الخطاب الى دعائهم على الرسول والجواب عنه حيث أمر سبحانه النبي (ص) ان يقول لهم : أتربصون بي وبمن معي ريب المنون ، وتتمنون لي ولهم الهلاك ؟ أخبروني ما الذي تستفيدون إذا تحققت أمنيتم هذه ؟ هل ينجيكم هلاككم وهلاك من معي من العذاب ، وأنتم سادرون في الفبي والضلال ؟ كلا ، لا ينفعكم شيء إلا التوبة والانابة سواء أمتم قبلي أم مت قبلكم .

(قل هو الرحمن آمنأ به وعليه توكلنا) . هذا هو طريق الخلاص : الإيمان بالله وبأنه يرحم ويفخر لمن تاب من ذنوبه ، وتوكل عليه في جميع أموره

سورة الملك

(فتعلمون من هو في ضلال مبين) . بمسد أن قال الرسول الأعظم (ص) للمشركين : أهلكنا الله أو رحمنا - قال لهم : كلا انتم المالكون لأنكم الضالون المضلون ، أما نحن ففي رحمة الله وعنايته ، ولنا النصر عليكم دنيا وآخرة، وستعلمون ذلك علم اليقين (قل أرايتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين) . الأولى بكم أيها المشركون أن تتوبوا الى الله ، وتشكروه على آلائه التي لا تعد ولا تحصى ، ومنها ماؤكم هذا الذي هو مصدر حياتكم ، ولو شاء سبحانه لغار في جوف الأرض ، ولا راداً لمشيئته، فتموتون جوعاً وعطشاً .. وقال بعض المفسرين ان الله أراد بهذا أن يستميل قلوبهم ويستلين عرائكهم عسى أن يرجعوا الى الرشده.. وليس هذا ببعيد ، فإن أساليب الدعوة في القرآن أنواع وألوان .

سورة القلم

٥٢ آية مكية ، وقيل : بعضها مدني .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ما أت بمجنون الآية ١ - ١٦ :

ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ
لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ * فَصَبِّرْ وَيُصِرُونَ *
بِأَيْكُمُ الْمُفْتُونَ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ
بِالْمُهْتَدِينَ * فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ * دَوُّوا لَوْ تَدْرَهُنَّ فَيُدْهِنُونَ * وَلَا
تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مَّشَاوٍ بِنَمِيمٍ * مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ *
عُلٌّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ * أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ * إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ
آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * سَنَسِفُهُ عَلَى الْحُرثُومِ *

اللفظة :

وما يسطرون وما يكتبون. غير ممنون أي لا يُمن بالأجر عليك أو غير مقطوع
أو هما معاً . فتصبر أي ستطم . والمفتون هو الذي ابتلي بأراء فاسدة كالمجنون .
والمداهنة المداراة فيما لا ينبغي . والحلاف كثير الحلف بالحق وبالباطل . ومهين

سورة القلم

حقير . والمهتاز الطعان في أعراض الناس . مشاء بنميم كثير الوشاية والسعاية بالنسيمة والافساد بين الناس . ومناخ للخير لا يفعل الخير ويمنع الناس من فعله . ومعتد ظالم . وأثيم كثير الذنوب والآثام . وعتل فظ غليظ القلب والفهم . وزنيم دعي . وسنسمه نجعل له علامة تدل عليه . والخراطوم الأنف .

الإعراب :

« ن » على حذف مضاف أي هذه سورة « ن » . والقلم الواو للقسم وجوابه جملة ما أنت بنعمة ربك بمجنون، و « ما » نافية وأنت مبتدأ وخبره مجنون والباء فيه زائدة إعراباً ، وبنعمة زائدة والمتعلق بمجنون مثل أنت بفضل الله حسن السيرة . وبأيكم مبتدأ والباء زائدة والمتنون خبر . ولو تدهن « لو » للتمني . وجملة فتدهنون خبر لمبتدأ محذوف أي هم يدهنون . وان كان « ان » مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن محذوف أي لأنه كان الخ والمصدر المنسبك متعلق بلا تطع .

المعنى :

(ن) هذه مثل غيرها من الحروف التي افتتح بها السور، وتكلمنا عنها في أول سورة البقرة . وقال قائل : هي الحوت . وثان : الدواة . وثالث : المداد . وقال رابع : هي نون الرحمن . وذبح جماعة من الصوفية الى أنها النفس . وكل هذه الأقوال تفقر الى دليل .. واختلفوا في القلم ما هو المراد منه ؟ . قال البعض : هو القلم الذي كُتِبَ به على اللوح المحفوظ . وقال آخرون : المراد به كل قلم دون استثناء لأن الألف واللام فيه للجنس ، وهي تفيد الشمول والعموم . وهذا هو الظاهر على أن لا يكون القلم مراداً لذاته ، بل وسيلة للكتابة كما يومئ قوله تعالى : (وما يسطرون) أي يكتبون، وعليه يكون القلم كناية عن أدوات الكتابة أبأ كان نوعها مما وجد بالفعل ، أو سيوجد في المستقبل القريب أو البعيد وأشرنا الى طرف من فوائد البيان عند تفسير « علمه البيان » في أول سورة الرحمن .. على ان الحديث عن منافع البيان تماماً كالحديث عن منافع الماء والضيء .

الجزء التاسع والعشرون

(ما أنت بنعمة ربك بمجنون) . الخطاب لمحمد (ص) .. ولا أحد يظن الجنون بمحمد إلا مجنون .. والذين وصفوه بذلك أرادوا أن له جنياً يوحى إليه ، كما كانوا يزعمون بأن لكل شاعر جنياً يعلمه الشعر ، ويومئذ الى هذا قوله تعالى حكاية عنهم : « ويقولون أننا لتاركوا آهتنا لشاعر مجنون - ٣٦ الصفات » . (وان لك لأجرأ غير ممنون) أي دائم غير مقطوع .. وبدية ان الأجر يقاس بنتائج الأعمال وآثارها ، ولا تزال آثار محمد ودعوته وعظمته قائمة الى اليوم في شرق الأرض وغربها ، وستبقى الى آخر يوم ، فلا بدع اذا ظفر من ربه بالعقبى الدائمة ، والكرامة الخالدة .

(وانك لعلى خلق عظيم) . ما وصف سبحانه أحداً من رسله بهذا الوصف إلا محمداً ، ويتلخص معناه بقول الرسول الأعظم (ص) : « أدبني ربي فأحسن تأديبي » أي ان الله قد اتجه بأخلاق محمد (ص) الى نفس الهدف الذي خلقها الله من أجله . وأيضاً ما أقسم الله بحياة انسان إلا بحياة محمد (ص) ، وذلك حيث يقول عز من قائل : « لعمرك انهم لفي سكرتهم يعمهون - ٧٢ الحجر » . أما وصف محمد (ص) بخاتم النبيين فعنه ان محمداً بلغ من صفات الكمال أقصى ما يصل اليه انسان .. ومستحيل أن يأتي من بعده من هو أفضل منه ، أو يأتي بشريعة أفضل من شريعته ، بل لا يضارعه مخلوق من الأولين والآخرين ، والى ذلك يومئذ قوله (ص) : « أنا سيد الناس ولا فخر » ومن أجل هذا ختمت به النبوات وبشريعته الشرائع ، قال ابن عربي في الفتوحات ما معناه : ان الله خلق الخلق أصنافاً ، وجعل من كل صنف أخباراً ، ومن الأخيار الصفوة ، وهم الأنبياء ، ومن الأنبياء الخلاصة ، وهم أولو العزم ، ومن الخلاصة خلاصتها وهو محمد الذي لا يكاثر ولا يقاوم .

(فستبصر ويبصرون بأيكم الفتون) . هذا تهديد ووعيد ، ومعناه عما قريب يتبين لك ولأعدائك يا محمد أنهم أولى الناس بوصف الجهل والضلال والجنون ، وانك أعلى الناس عقلاً وأعظمهم خلقاً ، واکرمهم عند الله (ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) . الله يعلم يا محمد مكانك من العظمة والهداية ، ومكان خصومك من الضلالة والغواية ، وأمامهم الحساب والجزاء . وتقدم مثله بالحرف الواحد في الآية ١٧ من سورة الأنعام ج ٣ ص ٢٥٣ ز فلا

سورة القلم

تطع المكذبين) . حاول المشركون بكل سبيل أن يشنوا الرسول الأعظم (ص) عن دعوته ، وأغروه بالجاه والمال فأبى ، وتمنوا لو صانعهم في شيء مما يريدون ، فنهاه الله عن ذلك ، والقصد من النهي أن ييأسوا ويعلموا انه لا هودة ولا مساومة على طاعة الله وأمره .. ويشبه هذا النهي قولك لمن يساومك على دينك : لقد نهاني الله عن ذلك ، وأنت تريد ان ييأس منك .

(ودوا لو تدهن فيدهنون) . تخنى المشركون ان يتنازل الرسول (ص) عن بعض ما يدعوهم اليه ، ويستجيبوا بدورهم لبعض ما نهاهم عنه ولو من باب المداهنة والمداراة كي تنتهي المعركة بين الطرفين ، ويتم الصلح على انصاف الحلول ، ويدل السياق على ان الذي اقترح المداهنة يتصف بالأوصاف التي أشار اليها سبحانه بقوله : (ولا تطع كل حلاف) يكثر من الأيمان بلا سبب موجب (مهيئ) حنير (هماز) يكثر الطعن في اعراض الناس (مشاء بنميم) يمشي بالنميمة والوشاية ، والهام هو الذي يضرب الناس بعضهم ببعض بنقل الأحاديث (مناع للخير) لا يفعله ويمنع الناس من فعله (معتد) على حقوق الآخرين (أنيم) كثير الذنوب والآثام (عتل) فظ غليظ (بعد ذلك) وفوق هذه الأوصاف هو (زئيم) دعي لا يعرف له نسب . وهذه الرذائل هي أقصى ما يتصوره العقل .

وذكر كثير من المفسرين ان المقصود بهذه الخصال الملعونة هو الوليد بن المغيرة ، وكان من عتاة قريش ، وفي سعة من المال ، وكثرة من الأولاد ، كما قال تعالى : (أن كان ذا مال وبنين اذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين) . وقال المفسرون : ان هذه الآية تعليل للنهي عن طاعة هذا اللعين .. والأقرب الى الصواب والسياق أن تكون تعليلاً لانصاف المكذب بتلك الصفات الملعونة ، وان الذي جرأ عليها وعلى القول بأن القرآن أساطير وأباطيل هو اعتزازه بأمواله وأولاده كما قال تعالى : و كلا ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى - ٦ العلق ، فكيف اذا كان مع الفنى قوة في المال والأهل .

(سنسمه على الخرطوم) السمة العلامة ، والخرطوم الأنف ، وتكفي به العرب عن العزة والمثلة أيضاً ، فيقولون عن العزيز : له أنف أشم ، وعن الذليل : أنفه في التراب ، المعنى ان الله سبحانه سيغزي هذا الطاغية الذي أخذته العزة

بأمواله وأولاده ، وبذله مدى الدهر ، وبلغته على كل لسان بما سجله عليه في كتابه ، ويفضحه في الآخرة أمام الأشهاد بسواد الوجه وغيره من العلامات التي تمكس آثامه ومخازبه .

فأصبحت كالصريم الآية ١٧ - ٣٣ :

إِنَّا بَلَوْنَاكُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ *
وَلَا يَسْتَنْتُونَ * فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ
كَالصَّرِيمِ * فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ * أَنْ ائِدُوا عَلَي حَرِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
صَارِمِينَ * فَأَنظَلُّوْا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ * أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ
مَسْكِينٌ * وَاعْدُوا عَلَى حَرٍِّ قَادِرِينَ * فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَصَّالُونَ *
بَلْ نَحْنُ غَرُومُونَ * قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْ لَا تُسَبِّحُونَ * قَالُوا
سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ *
قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * عَسَى رَبَّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا
إِلَى رَبَّنَا رَاغِبُونَ * كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا
يَعْلَمُونَ *

الله :

بلوناهم اختبرناهم . والجنة البستان . ليصرمنها ليقطفن ثمارها . ومصبحين دخلوا
في الصباح . ولا يستنون لا يقولون : ان شاء الله . طائف من ربك أي عذاب

سورة القلم

من ربك . كالصريم أي كالبلستان الذي قطعت أشجاره أو ثماره ، وقيل : كالذي احترقت أشجاره وصارت سواداً كالليل المظلم، ويسمى الليل صريماً وكذلك النهار . فتنادوا أي نادى بعضهم بعضاً . وأعدوا اخرجوا مبكرين . والحرث الزرع . وصارمين قاطعين الثمار . ويتخافتون يتسارون . والمراد بالحدرد هنا المنع والحرمان . وأوسطهم أفضلهم رأياً . وبتلاومون يلوم بعضهم بعضاً . يا ويلنا دعاء على أنفسهم بالهلاك .

الإعراب :

كما بلونا الكاف بمعنى مثل صفة لمفعول مطلق محذوف و « ما » مصدرية أي بلاء مثل بلاء أصحاب الجنة . وإذ ظرف بمعنى حين والعامل فيها بلونا . وليصرمتها جواب القسم ، والأصل ليصرمون وحذفت الواو لمكان نون التوكيد . ومصبحين حال من فاعل ليصرمتها ، وهو واو الجماعة المحذوفة . وان اغدوا «ان» مفسرة بمعنى أي ، واغدوا تتضمن معنى أقبلوا ولذا تعدت بعلی . وان لا يدخلها «ان» مفسرة بمعنى أي ولا نافية والماء تعود الى الجنة . وغدوا على حرد «غدوا» هنا فعل تام بمعنى ذهبوا وقت الغداة ، وعلى حرد متعلق بقادرين ، وقادرين حال . لولا هلا . يا ويلنا أي احضر يا ويل . وكذلك خبر مقدم والعذاب مبتدأ مؤخر .

المعنى :

(إنا بلوناكم كما بلونا أصحاب الجنة) . ضمير بلوناهم يعود الى مشركي قريش الذين كذبوا رسول الله (ص) .. وقد أشار سبحانه إليهم في الآية ٨ من هذه السورة بقوله : « فلا تطع المكذبين » . ومنهم المعتدي الأثيم السذي طغى وبغى اعتداداً بكثرة الأموال ، ونقلنا عن المفسرين في المقطع السابق انه الوليد بن المغيرة ، وهو من عتاة قريش وينطق بلسان المكذبين منهم ، ويعبر عن عتوهم وتمردهم على الحق .. والآيات التي نحن بصددتها تضرب مثلاً له ولهم يقوم كانوا يملكون بستاناً يدر الثمرات والخيرات، ولكنهم كانوا أشح على الفقراء والمساكين ..

الجزء التاسع والعشرون

فإذا أينعت الثمار وحن وقت قطافها تواطأوا فيما بينهم ، وأقسموا أن يجنوا ثمار البستان في الصباح الباكر على غفلة من الفقراء ، ودون ان يعلقوا جني الثمار على مشيئة الله وارادته .. وقد تواصلوا بالشح وحرمان المحتاجين مما آتاهم الله ومن به عليهم ذاهلين عن تدبير الله وتقديره .. وفي نفس الليلة التي أرادوا قطف الثمار في صباحها سلط الله على البستان آفة سماوية أفسدت الثمار عن آخرها ، أو استأصلت البستان من جذوره .

ولما استيقظوا من نومهم وذهبوا الى البستان للقطاف في الوقت الموعود هالمهم ما حاق به من الهلاك ، وأخذ يلوم بعضهم بعضاً ، ويقول كل لصاحبه : أنت السبب .. وكان منهم رجل رشيد قد حذرهم سوء العاقبة من قبل ، فلم يستمعوا له ، وبعد ان وقع المحذور قال لهم : نصحت لكم، ولكن لا تجتنبون النصحين ، فتوبوا الآن الى ربكم لعلكم تفتحون ، فتابوا اليه : ، وسألوه العفو عما سلف ودعوه مخلصين أن يرحمهم ويمنّ عليهم بخير من بستانهم .

والقصد من هذا المثل ان يتعظ به كل من أنعم الله عليه بشيء من فضله وبخاصة أهل مكة ، ومنهم الأنيم الزنيم وإلا دارت عليهم دائرة السوء تماماً كما حدث لأصحاب البستان .. ويقول الرواة : ان الله سبحانه ابتلى أهل مكة بالجوع والقحط لأنهم كذبوا محمداً (ص) فدعا عليهم واستجاب الله لدعائه ، ودام فيهم القحط سبع سنين حتى أكلوا العظام والجيف ، وقال الرواة أيضاً انه تعالى أهلك أموال الزنيم الوليد بن المغيرة الذي كان ذا مال وبنين .

هذا هو المعنى المراد من مجموع الآيات وما تهدف اليه ، وفيما يلي الشرح والكشف عن المعنى المتبادر من كل آية :

(اذ أقسموا ليصرمئها مصبحين) . الهاء تعود الى الجنة ، وهي في اللغة البستان ، ثم كثر استعمالها في جنة الخلد حتى أصبحت علماً عليها بكثرة الاستعمال ، والمراد منها هنا البستان ، والمعنى ان أصحاب البستان حلفوا على أن يجنوا ثماره في الصباح الباكر على غفلة من الفقراء (ولا يستنون) أي لم يقولوا : نجني الثمار صباحاً إن شاء الله ، وقال البعض : المعنى دون أن يستنوا من ثمر البستان شيئاً للمساكين .. وكل من المعنين يجوز ، وأيضاً يصح ارادتها مآ .

سورة القلم

(فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون . فأصبحت كالصريم) . نام أصحاب البستان آمنين مطمئنين على أن يجنوا ثماره في الصباح ، وفي تلك الليلة بالذات سلط الله آفة على البستان أو على ثماره فأصبح كالصريم ، وللصريم معانٍ ، منها المصروم أي المقطوع ثماره ، وعليه يكون المعنى ان البستان أصبح كالذي قطعت ثماره ولم يبق منها شيء ، ومن معاني الصريم أيضاً السواد ، وعليه يكون المعنى ان البستان احترق وأصبح في سواده كالليل المظلم (فتنادوا مصبحين ان اغسوا على حرثكم ان كنتم صامرين) . حين دخل وقت الصباح نادى بعضهم بعضاً : هلموا نقطف الثمار على غفلة من الفقراء ما دتم على عزمكم .

(فانطلقوا وهم يتخافتون أن لا يدخلتها اليوم عليكم مسكين) . أسرعوا وهم يتسارون مغتربين : لن يذوق اليوم من ثمار بستاننا محروم .. وليس من شك ان هذا جفاء وقسوة ، ولكنه في حدود الشح والحرص ، فالبستان بستانهم ، والثمار ثمارهم لم يسرقوا ولم ينهبوا .. ومع هذا غضب الله عليهم وأعد لهم العزى والعذاب فكيف إذا تجاوزوا الى الاعتداء على حياة الناس وأقواتهم بالقتل والتشريد والسلب والنهب كما يفعل الآن قادة الاستثمار الجديد في شرق الأرض وغربها !! (وغدوا على حرد قادرين) . مضوا الى بستانهم ، وهم مصممون على حرمان الفقراء من ثمره : وتخيّلوا ان البستان وثمره بأيديهم ، وما دروا ان يد الله فوق أيديهم .

(فلما رأوها قالوا انا لصالون بل نحسن محرومون) . لما وصلوا الى البستان هالم ما رأوا واعترفوا بظلالهم ، وقالوا : نحن المحرومون من فضل الله وثوابه ، والمستحقون لغضبه وعذابه ، وليس الفقراء والمساكين .. وكان منهم رجل رشيد يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ولكنهم لم يسمعوا لنصحه ، وحين رأى ما حل بهم (قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون) ؟ أي تشكرون الله قولاً وفعلاً بالبذل والعطاء .. قال لهم هذا بخان وإشفاق عليهم ، ثم أمرهم بالتوبة والانابة (قالوا سبحان ربنا انا كنا ظالمين) أنقشنا بمصيبة الله (فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون) يتصل كل من التبعة ويلقي بها على صاحبه كما هو شأن الشركاء في الجريمة حين يؤخذون بما كسبت أيديهم .

(قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين) . ثم رجعوا الى عقولهم وتركوا التلاوم ،

الجزء التاسع والعشرون

واعترفوا بأنهم في التبعة والظلمين سواء ، ودعوا على أنفسهم بالموت والهلاك ،
 وسألوا الله العفو والمغفرة وقالوا : (عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها انا الى ربنا
 راغبون) . هذا دعاء ورجاء منهم الى الله سبحانه أن يصفح عما سلف ، ويعرضهم
 خيراً مما فات .. والله يقبل التوبة من عباده ويعفو عن كثير ، ويجب دعوة
 الداعي إذا دعاه بصدق وإخلاص (كذلك العذاب) . هكذا يفعل الله في الدنيا
 بالمعصاة والظلمين ، فيسلط عليهم وعلى أموالهم الآفات والنكبات متى شاء ، فليحذر
 الذين يعرضون عن أمر الله ان يعصيهما ما أصاب أصحاب البستان ، وهم ناثمون
 (وللعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون) . قال الرازي : هذا واضح لا
 يحتاج الى تفسير ، وأبى الشيخ المراغي إلا أن يفسره بقوله : « أي ان عذاب
 الآخرة أشد وأنكى من عذاب الدنيا » .

افجعل المسلمين كالمجرمين الآية ٣٤ - ٤٣ :

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ * أَفَجَعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ *
 مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ * إِنَّ لَكُمْ فِيهِ
 لَمَّا تَخْيِرُونَ * أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَّا
 تَحْكُمُونَ * سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ * أَمْ لَمْ شُرْكَاءُ فُلْيَأتُوا بِشُرْكَائِهِمْ
 إِنَّ كَانُوا صَادِقِينَ * يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ
 فَلَا يَسْتَطِيعُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهُقُهُمْ ذُلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى
 السُّجُودِ وَهُمْ سَآلُونَ *

سورة القلم

اللغة :

بالغة مغلظة ومؤكدة . وزعيم كفيل . والعرب يكونون بكشف الساق عن المول الشديد . وترهقهم تلحقهم .

الاعراب :

المتقين متعلق بمقدر خبراً لأن ، وعند ربهم متعلق بما تعلق به للمتقين . ما لكم مبتدأ وخبر . ومعناه أي شيء جرى لكم . وكيف في محل المفعول المطلق على معنى أي حكم تحكمون . وان لكم بكسر همزة ان لدخول اللام في خبرها ولولاها لكات مفتوحة لأنها واقعة في مفعول تدرسون . وتخبرون أي تتخبرون . وكسرت همزة ان لكم لما تحكمون لأن الجملة في جواب القسم وهو أم لكم إيمان علينا . ويوم منصوب بدولياًتوا . وخاشعة حال من فاعل بدعون، وأبصارهم فاعل خاشعة.

المعنى :

(ان للمتقين عند ربهم جنات النعيم) . في الآية السابقة توعد سبحانه المجرمين بالعذاب الأكبر ، وفي هذه الآية وعد المتقين بملك دائم ونعيم قائم .. وهكذا يقرن سبحانه عاقبة المجرم بعاقبة من اتقى ترغيباً وترهيباً (أفجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون) . ليس المراد بالمسلمين هنا كل من قال : لا إله إلا الله محمد رسول الله .. بل المراد بهم المتقون لأن الحديث عنهم وعمامهم عند ربهم من جنات النعيم .

وتسأل : لا نظن ان أحداً يحكم بالمساواة بين المتقين والمجرمين حتى من لا يؤمن بالله واليوم الآخر - إذن - ما هو المرر لقوله تعالى : ما لكم كيف تحكمون؟.

الجواب : أجل ، لا أحد يساوي المتقي بالمجرم في الحكم والمكافاة ، ولكن كثيراً من المجرمين يرون أنفسهم من الأتقياء ، وان لهم ما للمتقين من الأجسر

الجزء التاسع العشرون

والتواب ، فأنكر سبحانه عليهم هذا وقال لهم : كيف تجعلون أنفسكم في عداد المتقين وبينكم وبينهم بُعد المشرقين ٩. والذي يدل على ان هذا المعنى هو المراد بالخطابات التالية :

(أم لكم كتاب فيه تدرسون ان لكم فيه ما تخبرون) . هل عندكم كتاب من السماء أو من الأرض تقرأون فيه ان لكم في الدنيا ما تحبّون ، وفي الآخرة عند الله ما تشتهون ٩. ويصدق هذا الوصف على اليهود والنصارى : « وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه - ١٩ المائدة ، إلا ان المقصود بالآية التي نفسرها عتاة قريش مع العلم أنهم لم يدعوا وجود هذا الكتاب ، ولكن القصد من الخطاب اضمحهم وانه لا دليل وما يشبه الدليل على أنهم مع المتقين وان لهم ما يتخبرون . وتقدم مثله في الآية ٤٠ من سورة فاطر والآية ٢١ من سورة الزخرف .

(أم لكم أيمان علينا بالغة الى يوم القيامة إن لكم ما تحكمون) . هل حاف الله لكم الأيمان المخلطة ، وأعطاكم العهد المؤكدة ان يدخلكم الجنة مع المتقين على ان لا تبدل ولا تعدل هذه الأيمان والعهد الى يوم القيامة ٢. (سلهم أيهم بذلك زعيم) ؟. الخطاب للرسول (ص) والزعيم الكفيل ، والمعنى سل يا محمد المشركين : من الذي تعهد لهم بتنفيذ ذلك على فرض ادعائهم له (أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم ان كانوا صادقين) . المراد بالشركاء هنا الأصنام كما في الآية ٢٧ من سورة سبأ : « قل أرؤني الذين أحقتم به شركاء » والمعنى فليأت الشركون بأنفسهم التي يعبدون لتشهد لهم أنهم في الجنة مع المتقين ..

والتقص من هذه الخطابات التي وجهها سبحانه الى المشركين هو انه لا شيء يدل أو يوهم من قريب أو بعيد ان المشركين على شيء : وهذا النوع من الحجاج من أجدى الوسائل لافحام الخصم ، وفي الوقت نفسه يفيد العلم والجزم .

(يوم يكشف عن ساق ويدعون الى السجود فلا يستطيعون) . يكني العرب عن الشدة والهمول بالكشف عن الساق ، ومن هنا يسمى يوم القيامة بيوم الكشف عن الساق ، ولا أحد يُدعى في هذا اليوم الى السجود ولا الى غيره من العبادات

سورة القلم

لأنه يوم حساب وجزاء لا يوم تكليف وعمل ، وعليه يكون طلب السجود من المجرمين يوم القيامة هو طلب توبيخ وتقريع لا طلب تشريع وتكليف ، والمراد بلا يستطيعون ان السجود في ذلك اليوم لا يجديهم فعملاً لأنه يوم جزاء لا يوم عمل كما قلنا . والمعنى ان الذين فرطوا أو قصروا في الدنيا حيث يستطيعون العمل ، اذ هؤلاء سيوتخون ويعذبون يوم القيامة الذي لا يملكون فيه حيلة ولا وسيلة تقربهم الى الله .

(خاشعة أبصارهم) . الخشوع صفة للقلب لا للأبصار ، ولكنه تعالى كنى به عن ذلتهم وهوانهم الذي ظهر في أبصارهم ، وقوله تعالى : (ترهقهم ذلة) تفسير وبيان لقوله : « خاشعة أبصارهم » . (وقد كانوا) في الدنيا (يدعون الى السجود) فيعرضون علواً واستكباراً (وهم سالمون) لا مانع عنهم عنه . وبعد أن رأوا العذاب أرادوا السجود ، ولكن بعد فوات الأوان .

فلدوني ومن يكذب الآية ٤٤ - ٥٢ :

فَدَرَنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ*
وَأَمَلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ* أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ*
أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ* فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ
الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ* لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ
لَنُبَذَ بِالرِّعَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ* فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ* وَإِنْ
يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ
إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ* وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ*

اللفظة :

بهذا الحديث أي بهذا القرآن . سنستلزمهم سنتقل بهم تدريجاً من حال الى حال . وأملئ أمهل . والمغرم الملتزم بما يكره . ومثقلون مُحمّلوا ثِقلاً . والمراد بصاحب الحوت النبي يونس . ومكظوم أي مملوء غيضاً ، وقيل : محبوس . والعراء الفضاء . والمراد بمذموم ملوم . ويستعمل الزلق لزلة الرجل ، والمراد به هنا النظر بغيظ وحقق حتى تكاد قدم المنظور تزل وتزلق . لما سمعوا الذكر أي القرآن . والا ذكر أي تذكير .

الإعراب :

ومن يكذب عطف على الياء في ذرني أو مفعول معه . والمصدر من ان تداركه مبتدأ والخبر محذوف أي لولا مداركة النعمة حاصله . ومن ربه متعلق بنعمة أو محذوف صفة لنعمة وقال سبحانه : تداركه نعمة ولم يقل : تداركه لأن التانيث هنا غير حقيقي ، وقد فصل بين الفعل والفاعل ضميراً لمفعول وهو الهاء في تداركه . وان يكاده ان مخففة ، وهي مهمله غير عامة ، وجاءت اللام بعدها للفرق بينها وبين ان النافية .

المعنى :

(فنرني ومن يكذب بهذا الحديث) . « من » هنا اسم موصول للجماعة ، وهم مشركو العرب الذين كذبوا بالرسول وبالقرآن ، وكلمة « ذرني » تؤذن بإعلان الحرب عليهم من الله ، وانه تعالى سيتولى بنفسه الانتقام منهم ، ويربح النبي والذين آمنوا معه - منهم ومن شرهم .. ثم بين سبحانه : كيف وبأي طريق ينتقم منهم حيث قال عز من قائل (سنستلزمهم من حيث لا يلمون وأملئ لهم ان كيدي متين) . انه تعالى يمهلهم ولا يعالجهم بالعقوبة ، وأيضاً عد لهم من الأموال والبنين ، وينقلهم من حسن إلى أحسن في ظاهر الحياة الدنيا ، ولكنهم في واقع الأمر يُثقلون من سيء الى أسوأ .. حتى إذا ركنوا الى الدنيا

سورة القلم

وظنوا انهم في حصن حصين من ضربات الدهر ودوراته أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ليكون ذلك أنكى وأوجع لقلوبهم .. وسمى سبحانه هذا الامهال والاستدراج كيداً لأنه يشبه الكيد في ظاهره .. وإلا فإن الله منزّه عن الكيد والمكر .. كيف ولا يلجأ اليه إلا عاجز ، والله يقول للشيء : كن فيكون .. هذا ، الى ان الغرض من ذكر الكيد أن لا يُخدع الانسان بالدنيا إذا أقبلت عليه وابتسمت له ، وان يكون على حذر من المخبات والمفاجآت . وتقدم مثله في الآية ١٨٠ من سورة الأعراف .

(أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون أم عندهم علم الغيب فهم يكتبون) . ما الذي جعلهم يكذبون برسالتك يا محمد؟ هل تقاضيتهم على الهداية مالا يصعب عليهم تحمله وادائه، أم اطلعوا على علم الغيب، ونسخوا عنه ما يدل على مزاعمهم وادعاءاتهم . وتقدم مثله بالحرف في الآية ٤٠ من سورة الطور (فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت اذ نادى وهو مكظوم) . صاحب الحوت هو النبي يونس الذي ضاق صدره من قومه فركبهم مغاضباً، وتقدمت الاشارة اليه والى قصته مع قومه في الآية ٩٨ من سورة يونس والآية ٨٧ من سورة الأنبياء والآية ١٤٠ وما بعدها من سورة الصافات .. وقد أوصى سبحانه نبيه الكريم محمداً (ص) بالصبر على أذى قومه ، وان لا يعجل عليهم كما فعل يونس الذي التقمه الحوت، فنادى وهو في بطنه : « لا إله إلا أنت سبحانك اني كنت من الظالمين ٨٧ الأنبياء » . (لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم) . دعا يونس ربه ، وهو في بطن الحوت ، فاستجاب دعاءه رحمة به ، ونبذ الحوت من بطنه في الفضاء ، وهو غير مذموم ولا ملوم عند الله ، ولولا دعاؤه ورحمة الله لكان مذموماً وملوماً ، بل ولبقي في بطن الحوت الى يوم يبعثون . وتجدر الاشارة الى ان الدم هنا على ترك الأفضل لا على الذنب لمكان العصمة (فاجتبه ربه فجعله من الصالحين) . من نعم الله على يونس انه تعالى أخرجهم من بطن الحوت، وهو راض عنه ، ورده الى قومه نبياً كما كان من قبل ، فانتمضوا به وبمواظبه ، ولو بقي في بطن الحوت الى يوم يبعثون لم يكن لقبوته أي أثر، وقوله تعالى : فجعله من الصالحين معناه ان الله سبحانه يحشره غداً مع النبيين وفي زمرةهم . (وان يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر) . الخطاب

الجزء التاسع والعشرون

لرسول الله (ص) والمعنى ان المشركين حين يسمعون القرآن من محمد(ص) ينظرون اليه شزراً بعيون العداء والبغضاء ، وتكاد قدم الرسول الأعظم (ص) تزل وتزلق من نظراتهم لأنها حادة كالسهام .. قال الرازي : يقول العرب : نظر إلى نظراً يكاد يصرعني ، ويكاد يأكلني ، قال الشاعر :

يتقارضون اذا التقوا في موطن نظراً يُزِلُّ مواطء الأقدام

(ويقولون انه لمجنون) . نظروا الى الرسول (ص) بنظرات كالسهام، وأيضاً سلقوه باللسنة حداد كقولهم : هو مجنون .. وقد رد عليهم سبحانه في أول هذه السورة بقوله : « وما أنت بنعمة ربك بمجنون » (وما هو إلا ذكر للعالمين) . ضمير هو للقرآن : والمراد بالذكر التذكير بالخير، والارشاد الى طريقه، والمعنى ان القرآن وحي من الله أنزله على قلب محمد (ص) ليهدي به جميع الناس في كل زمان ومكان .

سورة الحاقة

٥٢ آية مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحاقة ما الحاقة الآية ١ - ١٨ :

الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ * وَمَا أُنذِرَكَ مَا الْحَاقَّةُ * كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادُ
 بِالْقَارِعَةِ * فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ * وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوا بِرِيحِ
 صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى
 الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَبَلَّ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ *
 وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ * فَعَصَوْا رَسُولَ
 رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً * إِنَّا لَمَّا طَغَا آلِهَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ *
 لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيبًا أَدْنَى * وَأَعْيَتُهُ * فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ
 نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ * وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً *
 فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ * وَالْمَلَكُ
 عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ * يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ
 لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ *

الجزء التاسع والعشرون

اللغة :

الحاقة مؤنث الحاق من حق يحق بكسر الحاء اذا وجب وثبت ، والحاقة بالأصل صفة لكل حادثة ثابتة ، ثم خرجت عن الوصف وصارت علماً على يوم القيامة ، ومثلها الواقعة والقارعة أي تفرع القلوب بالأهوال . وما أدراك أي شيء أعلمك . والمراد بالطاغية هنا صيحة العذاب لقوله تعالى : « وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين - ٦٧ هود » . فلإن المراد بهم ثمود قوم صالح . يربح صرصر أي باردة مهلكة . وعانية باللغة العنف . حسوماً أي تتابعت الأيام الثمانية بلا فاصل واستمرت حتى استأصلتهم . وأعجاز النخل أصولها . وخاوية فارغة . من باقية من بقية . والمؤتفكات المتقلبات وهي قرى قوم لوط . بالخطاطة أي بالأعمال الخطاطة . وراية زائدة . والمراد بالجارية هنا السفينة . وتذكرة موعظة . وتعيها تفهمها وتحفظها . وواعية فاعمة حافظة . حملت الأرض والجبال زاحت عن أماكنها . والدك الدق والمدم . واهية متداعية . والأرجاء النواحي .

الإعراب :

الحاقة مبتدأ أول و « ما » استفهام مبتدأ ثان ، الحاقة خبر المبتدأ الثاني والجملة خبر الأول والرباط إعادة المبتدأ بلفظه . وما أدراك « ما » مبتدأ وأدراك فعل ماضٍ وفاعله مستتر يعود الى « ما » والجملة من الفعل والفاعل خبر . ما الحاقة أيضاً مبتدأ وخبر . وحسوماً صفة لأيام لأن المعنى حاسمات أي متتابعات . وصرعى حال من القسوم لأن الرؤية هنا بصرية . ومن باقية « من » زائدة وباقية مفعول ترى . فيومئذ وقعت الواقعة جواب فإذا نفخ و « يوم » متعلق بوقعت . يومئذ واهية « يوم » متعلق بواهية . يومئذ ثمانية « يوم » متعلق بيحمل . يومئذ تعرضون « يوم » متعلق بتعرضون ، وقيل بدل من فيومئذ وقعت .

المعنى :

(الحاقة ما الحاقة) . المراد بالحاقة القيامة، وسميت بذلك لأنها وانجية الوقوع،

سورة الحاقة

أما الاستفهام عنها مع تكرار اللفظ فالقصد منه التخويف من شدائدها وأهوالها ،
 وأنها فوق ما تسمعه الآذان ، وتراه العيون ، وتنصوره العقول .. ومن أجل هذا
 أعاد سبحانه الاستفهام فقال : (وما أدراك ما الحاقة) . أي شيء أعلمك بها
 أيها الانسان ؟! وهل من أحد يحيط علماً بكنهها حتى يخبرك عنه ؟! وكسل ما
 نعرفه من أحوال القيامة ان للمتقين جنة فيها مسا تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ،
 وللمجرمين نار جهنم لا يفضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها -
 ٣٦ فاطر .

(كذبت ثمود وعاد بالقارعة) . ثمود قوم صالح وعاد قوم هود ، والقارعة
 من أسماء القيامة مثل الحاقة (فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية) وهي صيحة العذاب ،
 وطغيانها كناية عن شدتها مثل طغى الماء وهاج البحر (وأما عاد فأهلكوا بريح
 صرصر عاتية) . باردة مهلكة بالغة العنف (سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام
 حسوماً) . دامت هذه المدة دون انقطاع ولا فتور (فترى القوم فيها صرعى)
 مطروحين على الأرض (كأنهم أعجاز نخل خاوية) . وكل ميت هو جراد خاوٍ
 مفزع ولو كان على ورد وحرير (فهل ترى لهم من باقية) كلا ، ولا ناعية .
 وتقدم الكلام عن عاد وثمود مفصلاً انظر تفسير الآية ٦٥ - ٧٩ من سورة
 الأعراف ج ٣ ص ٣٤٦ وما بعدها والآية ٥٠ - ٦٨ من سورة هود ج ٤
 ص ٢٣٧ والآية ١٢٣ - ١٥٩ ج ٥ ص ٥٠٧ .

(وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة فعصوا رسول ربهم فأخذهم
 أخذة رابية) . المراد بالمؤتفكات المقلبات ، وهي قرى قوم لوط ، ويتلخص
 المعنى بأن فرعون وقومه وأمثالهم من الأولين ، ومنهم قوم لوط - كذبوا أنبياء
 الله ورسله ، وفعلوا أفعالاً خاطئة ، فأخذهم الله لذنوبهم بعقوبة تجاوزت في
 هولها وشدتها حسد التصور . وما أكثر السور والآيات التي تحدثت عن فرعون
 وقومه ، منها الآية ١٠٣ - ١٣٧ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٧٠ . وأيضاً
 سبق الكلام عن لوط وقومه أكثر من مرة ، من ذلك الآية ٨٠ - ٨٤ من سورة
 الأعراف ج ٣ ص ٣٥٢ .

(إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية) . حملناكم على حذف مضاف أي حملنا

الجزء التاسع والعشرون

آباءكم المؤمنين في سفينة نوح . وأيضاً تقدم الكلام عن نوح وسفينته مرات ، منها في الآية ٥٩ - ٦٤ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٤٤ (لنجعلها لكم تذكرة) . الماء تعود الى قصة نوح وسفينته ، وكررها سبحانه في كتابه لتكون عظة وعبرة . وأيضاً ليُعرف كل انسان انه لولا سفينة نوح لما كان لأبناء آدم وحواء بعد الطوفان عين ولا أثر .. وقد أبعد أبو العلاء حين دعا على أمنا حواء بالعقم لأن الوجود من حيث هو نعمة كما قال ارسطو وتلاميذه .

(وتعيها أذن واعية) . جاء في أكثر التفسيرات القديمة والحديثة ، ومنها تفسير الرازي والشيخ المراغي : ان رسول الله (ص) قال لعلي بن أبي طالب : « اني دعوت الله أن يجعلها اذنك يا علي » . قال الامام : فما سمعت شيئاً فنسيته ، وما كان لي أن انسى .

(فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة) . النفخ في الصور كناية عن الصيحة للخروج من القبور . قال تعالى : « يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج - ٤٢ ق » . وعند تفسير الآية ٦٨ من سورة الزمر ج ٦ ص ٤٣٢ ذكرنا آراء المفسرين في الصور وان النفخات ثلاث : نفخة الفزع ونفخة الموت ونفخة البعث والخروج (وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة) . هذا كناية عن خراب الأرض وما عليها يوم القيامة ، قال تعالى : « يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيباً مهيلاً » - ١٤ المزمل ، أي تلاً من الرمل يسذهب مع الرياح (فيؤمذ وقعت الواقعة) . حين ينفخ في الصور وتُدك الأرض والجبال تقوم القيامة ، ويعلم المكذبون انها حق لا ريب فيه (وانشقت السماء فهي يومئذ واهية) . يصيب كواكب السماء من الخراب ما يصيب الأرض : « يوم تُبدل الأرض غير الأرض والسموات - ٤٨ ابراهيم » أي وتبدل أيضاً السموات غير السموات (والملك على أرجائها) . المراد بالملك الملائكة لأن الألف واللام للجنس ، والماء تعود الى السماء ، والمعنى ان الملائكة بعد خراب الأرض والسماء يتتشرن هنا وهناك في أنحاء الفضاء .

حملة العرش :

(ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) . هل لله عرش يجلس عليه كالسلطين والأمراء ؟ قال أهل الظاهر الحرفيون : نعم ؛ له سمع وبصر ويد ورجل وغير ذلك من الأعضاء .. ونُسب الى أبي عامر القرشي القول بأن الله مثلي. ومثلك في هيته وصورته !.. وهذا مستحيل لأنه لو كان جسماً لافتقر الى مكان ، والمخلوق لا يفتقر الى شيء ، واليه يفتقر كل شيء ، وأيضاً يلزم على هذا أن يكون المكان قديماً، ولا قديم إلا الله .. الى آخر ما ذكره الفلاسفة وعلماء الكلام .

وقال آخرون : نحن لا نعلم العرش ، ولا كيف يُحمل ، وما كلفنا الله بمعرفة ذلك .. وهذا القول هو الأحوط على حد تعبير الفقهاء الأتقياء .

وعندما تأملنا في معنى هذه الآية أوحى لنا السياق بأن المراد من العرش الملك والاستيلاء ، كما سبقت الإشارة الى ذلك عند تفسير الآية ٥٤ من سورة الأعراف . وان المراد بحملة العرش الكائنات المخلوقة والمملوكة لله ، ويُشعر بذلك ما جاء في إحدى خطب نهج البلاغة : « ولولا إقرار السموات لله بالربوبية واذاعتهن بالطواعية لما جعلهن موضعاً لعرشه ، أي لولا تصرفه تعالى بالسموات كيف يشاء لما كانت ملكاً له ، فالتصرف المطلق دليل الملك ، كما ان الملك يستدعي هذا التصرف .. وعليه يكون قوله تعالى : « ويحمل عرش ربك » الخ أشبه بالجواب عن سؤال من يسأل : اذا زالت السموات والأرض فإن معنى هذا ان ملك الله قد زال ، ولم يبق من شيء يسيطر عليه ؟ .

فأجاب سبحانه : كلا .. ان هناك مخلوقاً آخر غير السموات والأرض ، وهو عبارة عن ثمانية أكوان ، وهي في أمان وسلام من أي محلل ، يتصرف بها سبحانه كيف يشاء بعد تدمير الأرض والسماء .. نقول هذا كفكرة استوحيناها من كلمة « يحمل » ، وهذه الفكرة - كما ترى - ممكنة في ذاتها ، ولكن مثلها لا يثبت إلا بالنص الصريح الذي يفيد القطع والجزم ، ولو كانت من باب الحلال والحرام لكان لظن الفقيه وجه وجهه إذا استند الى ظاهر الكتاب أو السنة .

الجزء التاسع والعشرون

(يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية) تعرض الحلاق على الله يوم القيامة للحساب وتوفية كل عامل جزاء عمله ، وهو سبحانه أعلم بمن اهتدى ومن ضل عن سبيله .

يا ليتها كانت القاضية الآية ١٩ - ٣٧ :

فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كِتَابِيَةَ * إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَةَ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ * وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَةَ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَةَ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهٗ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَتُهُ * خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ * وَلَا يَحْضُرُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ * فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ * وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينِ * لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ *

اللقية :

هازم خلفوا أو تعالوا . راضية أي يرضاها صاحبها . وعالية أي قدرأ . وطاقية قريبة سهلة التناول . الأيام الخالية الأيام الماضية في الدنيا . و القاضية على حياته فيرتاح . هلك عنى سلطانبه ذهب عنى كل ما أملك . صلوه ألقوه في

سورة الحاقة

النار يصلها . ذرعها طولها . لا يحض لا يحث . وحيم قريب أو صديق . وغسلين صنيذ يسيل من أجسام أهل النار .

الإعراب :

فأما من «أما» حرف تفصيل . وهاؤم اسم فعل أمر بمعنى خنوا ، وقال صاحب البحر المحيط : تقول : هاؤم للرجال ، وهاؤن للنساء ، وهاء للرجل ، وهاء للمرأة ، وهاؤما للرجلين أو المرأتين . وكتابه الأصل كتابي والماء للسكت ، وهو مفعول أقرأوا ومفعول هاؤم محذوف أي هاؤم كتابيه ، وهو من باب حذف من الأول لدلالة الثاني عليه . وحساويه الأصل حسابي مثل كتابيه ، وهو مفعول ملاق . وفي عيشة متعلق بمحذوف خبراً لهو . وقطوفها دانية مبتدأ وخبر والجملة في محل جر صفة لجنه . وهنيتاً صفة لمفعول مطلق محذوف أي شراباً وأكللاً هنيتاً . ويا ليتني «يا» لمجرد التنبيه ، ومثلها يا ليتها ، وهاء ليتها تعود الى الموءة الأولى أو الى الحال التي هو فيها . والجحيم منصوب بصلوه أي أوردوه النار . وذرعها مبتدأ وسبعون صفة وذراعاً تمييز وجملة فاسلكوه خبر وفي سلسلة متعلق باسلكوه .

المعنى :

(فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم أقرأوا كتابيه إني ظننت أنني ملاق حسايه) . قال سبحانه في الآية السابقة : « يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية » . وبين سبحانه هنا الفرق في يوم العرض بين أصحاب اليمين وأصحاب الشمال ، وليس المراد باليمين هنا الجمود و « الرجعية » ولا بالشمال « اليسار والتقدمية » وإنما المراد باليمين اليمن والخير ، وبالشمال الشؤم والشر جرياً على عادة العرب واصطلاحاتهم ، فانهم يعبرون باليمين عن الخير ، وبالشمال عن الشر ، وقد كانوا يستخبرون بزجر الطير ، فإن طار عن اليمين نغاءلوا ، وان طار عن الشمال تشاءموا . وعليه يكون المعنى ان السعداء في يوم القيامة يعلنون على رؤوس الأشهاد عن أنفسهم وأعمالهم بفخر واعتزاز ، ويقولون لمن يرون أو لمن يسأل عن حالهم :

الجزء التاسع والعشرون

خذ ، واقرأ صحيفة أعمالنا ، فقد كنا نؤمن بالله واليوم الآخر ، ونسخر له
النفائس .

(فهو في عيشة راضية) أي مرضية ، وهي التي لا ينقصها شيء (في جنة
عالية قطوفها دانية كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية) . هذا تفصيل
بعد اجمال ، فكأن سائلاً يسأل : ما هي هذه العيشة المرضية ؟ فأجاب سبحانه
بأنها جنة عالية الشأن والقدر ، ثمارها قريبة وسهلة التناول ، وتقول الملائكة لأهل
الجنة : كلوا من ثمار جنة الخلد هنيئاً واشربوا من شرابها مريئاً جزاء ما عملتم
من الخيرات والمبرات . وأفرد سبحانه ضمير هو في عيشة بالنظر الى لفظ «من»
وجمع في كلوا واشربوا بالنظر الى معناها ، وهو الجمع .

(وأما من أوتي كتابه بشماله) وهو الذي كذب بالحساب والجزاء وطغى
وبنى على العباد ، وعبر سبحانه عنه بمن أخذ كتابه بالشمال للإشارة الى ان أعماله
عادت عليه بالثوم والوبال كما أسلفنا (فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه ولم أدر
ما حساييه يا ليتها كانت القاضية ما أغنى عني ماليه ملك عني سلطانيه) . تمنى
لو انه لم يخلق أو لم يبعث من قبره ، تمنى ذلك بعد أن أيقن بعذاب لا دافع له
من مال ولا جاه ولا حجة لو كان يملك شيئاً من ذلك .. وأنها امنية الخاسر
البائس ، ولا شيء وراءها إلا قوله تعالى للملائكة العذاب : (خذوه فقلوه) .
اجمعوا يديه الى عنقه بالقيد (ثم الجحيم صلوه) . ألقوا به في نار جهنم (ثم
في سلسلة ذرعتها سبعون ذراعاً فاسلكوه) . والسبعون ذراعاً كناية عن هول
السلسلة وعذابها الأليم ، وان وقعها على المجرم يقاس بأعماله وما ترك من سوء
الأثار في المجتمع . ومن الطريف قول بعض المفسرين : « اختلفوا في هذا الذراع .
فقيل : انه الذراع المعروف . وقيل : هو ذراع الملك - أي ملك العذاب -
وقيل : كل ذراع سبعون باعاً ، وكل باع ما بين مكة والكوفة » . ولا أدري :
هل كان هذا القاتل من مكة أم من الكوفة ؟ .

(انه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين) . هذا بيان
للسبب الموجب لعذابه الأليم ، وانه الكفر والطغيان وعدم الحث على البذل ، وفيه
إيماء الى ان على الأغنياء أن يبذلوا ويحثوا على البذل (فليس له اليوم هاهنا حميم)

سورة الحاقة

لا قريب ينفع ولا أحد يشفع (ولا طعام إلا من غلبن) . صديد يسيل من
أجسام أهل النار (لا يأكله إلا الخاطئون) الذين كانوا في الدنيا يأكلون أقرات
المستضعفين وأعمال الكادحين .

ما بصرون وما لا بصرون الآية ٣٨ - ٥٢ :

فَلَا أُقِيمُ بِمَا تُبْصِرُونَ* وَمَا لَا تُبْصِرُونَ* إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ*
وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ* وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا
تَذَكَّرُونَ* تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ* وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ
الْأَقَاوِيلِ* لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ* ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ* فَمَا مِنْكُمْ
مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ* وَإِنَّهُ لَتَذَكَّرٌ لِلْمُتَّقِينَ* وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ
مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ* وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ* وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ*
فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ*

اللفظة :

كاهن أي يتكهن ويتنبأ بالغيب كذباً وزوراً . والتقوّل الاقراء . والأقاويل
الأكاذيب . والوتين نياط القلب إذا قُطع مات صاحبه . وحاجزين مانعين .

الإعراب :

فلا أقسم قال أكثر المفسرين ان ولاء زائلة . وضمير انه يعود الى القرآن

الجزء التاسع والعشرون

المفهوم من سياق الكلام . وقليلًا ما تؤمنون قليلًا صفة لمفعول مطلق مخلوف و « ما » زائدة أي تؤمنون إيمانًا قليلًا ، ومثله قليلًا ما تذكرون . وتتريل خبر مبتدأ مخلوف أي هو تتريل . فا منكم « ما » نافية تعمل عمل ليس ، وأحد اسمها و « من » زائدة اعراباً ، وحاجزين خبرها على معنى أحد لأنه في معنى الجماعة ، ومنكم متعلق بمخلوف حالاً من حاجزين ، ولو تأخر « منكم » لتعلق بصفة لحاجزين .

المضى :

(فلا اقم) . اللام زائدة عند أكثر المفسرين ، وقيل : بل هي نافية للقسم لأن الامر أوضح من ان يحتاج الى إيمان ، وتقدم الكلام عن مثله عند تفسير الآية ٧٦ من سورة الواقعة (بما تبصرون وما لا تبصرون) . هنا عام لعالم الغيب والشهادة مما كان ويكون في الدنيا والآخرة ، وهو في واقعه قسم يعلم الله سبحانه الذي أحاط بكل شيء ، ومن ذلك (انه - أي القرآن - لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلًا ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلًا ما تذكرون تتريل من رب العالمين) . لقد نطق محمد (ص) بالقرآن ما في ذلك ريب ، ولكن لم ينطق به لأنه شاعر أو كاهن ، ولا بصفة من صفاته الشخصية ، وإنما جاء به من حيث انه مبلغ عن الله ولسانه وبيانه . وتكلمنا مفصلاً عن الشعر والرسول عند تفسير الآية ٢٢٤ من سورة الشعراء ج ٥ ص ٢٤٤ .

وقوله تعالى : « قليلًا ما يؤمنون ، قليلًا ما يتذكرون » معناه لا يؤمن ولا يتذكر أحد منهم إلا القليل ، وقيل : بل المراد ما آمن ولا تذكر منهم قليل ولا كثير جرياً على عادة العرب ، فإنهم يقولون : قلماً يفعل ، بمعنى لا يفعل البتة ، والتفسير الأول أقرب الى الواقع لأن المفروض ان بعض المشركين قد آمنوا بالرسول (ص) قبل أن يهاجر من مكة الى المدينة . وتقدم مثله في الآية ٨٨ من سورة البقرة ج ١ ص ١٤٨ .

سورة الحاقة

وتسأل : هل مجرد القسم يثبت الرسالة من الله لمحمد ، وينفي عنه الشمر والكهانة ؟

الجواب : لقد جاء هذا القسم بعد أن تحدى سبحانه المكذبين في العديد من الآيات بأن يأتيوا بمثل القرآن ، وبعد ان عجزوا ولزمتهم الحجة ، فالمراد بالقسم هو تأكيد الحق الثابت بالدليل ، لا اثبات الحق بالقسم .. هذا ، الى ان للجدل مع الخصم أساليب شتى تتمدد وتختلف بحسب أفكاره وأوضاعه ، ومن تلك الأساليب الإدلاء بالحجة ، والقاء الأسئلة عليه بما يتناسب مع عقيدته ، وفصاحة الأسلوب وبلاغته ، ومنها أيضاً القسم فإنه يبعث في بعض القلوب احساساً غامضاً ومثيراً .

(ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين) . تقول أي افترى وفيه ضمير مستتر يعود الى محمد (ص) ، والأقواويل جمع أقوال ، وغلب على الأقوال الكاذبة ، والمراد بالأخذ باليمين هنا التمكن والقدرة ، والوتين نياط القلب وحبل الوريد اذا قطع مات صاحبه ، وحاجزين أي مانعين وحائلين ، والمعنى ان محمداً متره عما ينسب اليه المشركون من الافتراء على الله ، ولو تعدد ذلك لانتقم الله منه ، ونكل به أظفح تنكيل ، ولا أحد من المشركين ولا غيرهم ينجيه من هذا العذاب والتنكيل ، وبما ان الله لم يفعل ذلك بمحمد فهو - اذن - الصادق الأمين ، والمفترون هم الذين نسبوا محمداً الى الافتراء .

وتسأل : لماذا لم يعجل سبحانه العقوبة لمن كذب محمداً كما يعجلها لمحمد لو كان كاذباً ؟

الجواب : ان هذا التهديد منه تعالى انما هو لمن يدعي النبوة كذباً وزوراً ، لا لمن كذب بنبوة الأنبياء ، والفرق بعيد وظاهر بين الاثنين .. هذا ، الى ان الغرض من تهديده سبحانه هو تنزيه الرسول الأعظم عما نُسب اليه من الافتراء على الله كما أشرنا .

(وانه لتذكرة للمتقين) . ضمير انه يعود الى القرآن ، وهو هدى لمن طلب الهداية ، وأراد بصدق واخلاص ان يتقي غضب الله وعذابه (وانا لتعلم ان منكم

الجزء التاسع والعشرون

مكذبين) . هذا تهديد ووعيد لمن كذّب بالرسول والقرآن (وانه - أي القرآن -
لحسرة على الكافرين) . لأنه يلعنهم ويفضحهم ، ولأن كلمته هي العليا ، وكلمة
الكافرين به هي السفلى ، ولأنه حجة الله عليهم في يوم الحساب والجزاء (وانه
لحق اليقين) الذي لا ريب فيه ، وتقدم مثله في الآية ٩٥ من سورة الواقعة
(فسيح باسم ربك العظيم) . الخطاب لرسول الله (ص) والمقصود العموم ،
والمعنى نزّها الله عما لا يليق به . وتقدم في الآية ٧٥ من سورة الواقعة .

سورة المعارج

٤٤ آية مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقارنه ٥٠ الف سنة الآية ١ - ١٨ :

سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ * مِنْ اللَّهِ
ذِي الْمَعَارِجِ * تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ
خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ * فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا * إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَرَأَاهُ
قَرِيبًا * يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالذَّلْهِلِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ * وَلَا
يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا * يُبْصِرُونَهُمْ يَوْمَ الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ
يَوْمَئِذٍ بِبَنِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ * وَمَنْ فِي الْأَرْضِ
جَمِيعًا * ثُمَّ يُنْجِيهِ * كَلَّا إِنَّهَا لَلظَى * زَآعَةٌ لِّلشَّوْى * تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ
وَتَوَلَّى * وَجَمَعَ فَأَوْعَى *

اللفظ :

باتي فعل «سأل» بمعنى طلب واستدعى ، ويتعدى الى مفعولين نحو سألت

الجزء التاسع والعشرون

فلاًماً درهماً ، واذا دخلت الباء على المفعول الثاني فهي زائدة مثلها في «مزّي اليك بجذع النخلة» ، ويأتي فعل سأل أيضاً بمعنى استخبر ، ويتعدى الى مفعول أول بنفسه والى الثاني بمن نحو سأله عن كذا أو بالباء متضمنة معنى عن مثل «سل به خبيراً» أي عنه . ومعارج جمع معرج وهو الدرج ، وقيل : السموات . والمُهَل خُشارة الزيت . والمهين الصوف المنفوش أو المصبوغ . وحميم قريب . والفصيلة العشيّة . ولظي من أسماء جهنم . ونزاعة من نزع الشيء اذا اقتلعه من مكانه . وقال صاحب مجمع البيان : الشوى جمع شِوَاة وهي جلدة الرأس . وجمع فأوعى أي جمع المال وأمسكه في وعاء .

الإعراب :

للكافرين متعلق بمحذوف خبراً مبتدأ محذوف أي هو مهيباً للكافرين ، وجملة ليس له دافع خبر بعد خبر . وفي المعارج صفة لله . ويوم تكون السماء «يوم» منصوب بيصرونهم عند صاحب مجمع البيان . لو يفتدى «لو» لتخني . وجميعاً حال . وكلا حرف ردع وزجر .

المعنى

(سأل سائل بطاب واقع للكافرين ليس له دافع) . قلنا فيما سبق : ان المشركين أهرضوا عن دعوة الرسول (ص) لأسباب أولاً: انها حرب على مكاسبهم وأرباحهم . ثانياً : ان الله لا يبعث بزعمهم بشراً رسولاً ، وان كان ولا بد فيخاره من الاغنياء لا من الفقراء أمثال محمد بن عبدالله . ثالثاً : ان محمداً (ص) يدعو الى التوحيد ، وهم يؤمنون بتعدد الآلهة . رابعاً : انه يخوفهم من البعث والطلب بعد الموت ، وهذا ما ينكرونه أشد الانكار : « أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون » . واذا أكد النبي (ص) ذلك وأصر عليه قالوا : متى هذا الوعد ؟ وفي بعض الأحيان يستعملون الطلب ساخرين « واذا قالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بطاب أليم - ٣٢ الأفعال . »

سورة المعارج

ومن أجل هذا قال كثير من المفسرين : ان قوله تعالى : « سأل سائل بعذاب واقع » . هو اشارة الى ما طلبوا من تعجيل العذاب ، وان الله سبحانه قد أجابهم عن هذا الطلب بقوله : « للكافرين ليس له دافع » أي ان العذاب نازل بالجاهدين لا محالة سواء أطلبوا التعجيل أم التأجيل .

الشیطان والبحث عن الغیب :

(من الله ذي المعارج) صفة لله تعالى ، والمراد به الرفعة والعلو ، ومثله الآية ١٥ من سورة غافر : « رفیع الدرجات ذو العرش » . (تعرج الملائكة والروح اليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) . المراد بالروح جبريل ، وخصه سبحانه بالذكر مع انه من جملة الملائكة لعلو شأنه ، وضمير اليه يعود الى ما هو معلوم عند الله والملائكة ، والخمسون ألف سنة كناية عن طول المدة . وذكر الاستاذ أحمد أمين العراقي هذه الآية في كتابه « التكامل في الاسلام » واستخرج منها ان الملائكة يسرون بسرعة تفوق سرعة الصوت ، ذلك بأن سعة الكون لا حد لها ولا نهاية ، ويكفي دليلاً على هذه الحقيقة ان بعض النجوم قد أرسلت ضوءها الى الأرض منذ ملايين السنين ، ولم يصل بعد اليها مع العلم بأن الضوء يقطع ٣٠٠٠٠٠ كم في الثانية . وعليه يستحيل ان يقطع الملائكة المسافات الشاسعة الواسعة إلا إذا كان سيرهم أسرع من سير الضوء أضعافاً مضاعفة .

وقلنا عند تفسير قوله تعالى : « ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية - ١٧ الحاقة » : ان هذا الموضوع وما اليه لا يثبت إلا بالنص الصريح الذي يفيد القطع والجزم ، ولا يقبل التأويل بحال ، وانه لو كان من باب الحلال والحرام لكان لظن الفقيه وجه إذا استند الى ظاهر الكتاب أو السنة . وقال بعض الصوفية : ليس المراد خمسين ألف سنة السنوات التي نعرفها، بل المراد الأطوار والأدوار . وقال صوفي آخر : ان ايام الله هي كما يشاء ، فإن شاء جعلها ألفاً ، وان شاء جعلها آلافاً وملايين .

وهذا غيب في غيب ، ونحن غير مسؤولين عن علمه أمام الله ، وما كلفنا بالبحث عن كنهه إلا الشيطان .. قال الإمام علي (ع) : « وما كلفك الشيطان

الجزء التاسع والعشرون

علمه مما ليس في الكتاب عليك فرضه ولا في سنة النبي (ص) والأئمة أثره فكيل علمه الى الله سبحانه ، فإن ذلك منتهى حق الله عليك ، واعلم ان الراسخين في العلم هم الذين أغناهم عن اقتحام السُّدِّ المضروبة دون الغيوب - الاقرارُ بجملته ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب ، فدح الله اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علماً ، وسمى تركهم التعمق فيها لم يكلفوا البحث عن كنهه رسوخاً ، فاقصر على ذلك ، ولا تقدّر عظمة الله سبحانه على قدر عقلك فتكون من الهالكين .

(فاصبر صبراً جميلاً " انهم يرونه بعيداً ونراه قريباً) . حذر النبي (ص) المشركين من يوم العذاب ، فنعجلوه ساخرين .. فقال سبحانه لبيه الكريم : اذا استخفوا بيوم العذاب وسخروا منه فاصبر أنت يا محمد على هزتهم واستخفافهم صبراً لا جزع فيه ولا شكوى ، ولا تستبطئ النصر عليهم ، واذا تخيلوا يوم العذاب اباطيل واساطير فهو عند الله آت لا ريب فيه ، وكل آت قريب .. ثم وصف سبحانه اليوم الذي به يوعدون ومنه يسخرون ، وصفه بقوله : (يوم تكون السماء كالمهل) . تنوب الأجرام السماوية ، وتصبح تماماً كالزيت العكر ، ومثله قوله تعالى : « واذا النجوم انكدرت - ٢ التكوير » . (وتكون الجبال كالعهن) يحالها الرائي صوفاً قد فرّق ونُفّس ، ومثله : « وبست الجبال بساً - الواقعة » أي فُتّت .

(ولا يسأل حميم حميماً) لأن كل انسان في شغل شاغل بنفسه عن غيره ، والسعيد في ذلك اليوم من ادّخر له الصالحات (يبيصرونهم) بتشديد الصاد وفتحها من بصيرته الشيء اذا أوضحت له ، ووار الجماعة تعود الى «حميم» المرفوع بالنظر الى معناه وان كان اللفظ مفرداً ، و «هم» تعود الى «حميماً» المنسوب باعتبار ارادة الجمع منه أيضاً ، والمعنى لا أحد يسأل أحداً يوم القيامة حتى ولو كان من الأصدقاء والأقارب مع ان بعضهم يعرف بعضاً في ذلك ، ولكنه يفر منه لما به من الكرب والبلاء .

(يومئذ المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبه وأخيه وفصيلته التي تؤويه ومن في الأرض جميعاً ثم ينجيه) . وتومئ «ثم» الى البعد أي هيهات

سورة المارج

هيئات أن ينجيه ذلك ، والمراد بالصاحبة الزوجة ، وبالفصيصة العشيبة ، والمعنى واضح ويتلخص بأن أسير جهنم يود لو يُفادى من الهول بجميع أهل الأرض حتى الزوجة والأبناء الذين كان بالأمس يفتديهم بنفسه ، ويرتكب من أجلهم المخاطر والأهوال .. وهذا أبلغ تصوير لأسف المجرم على ما فات ، ولفته على الخلاص والنجاة .

(كلا) أيها المجرمون .. لا تمنيات في هذا اليوم ، ولا شيء لكم فيه إلا جهنم أنتم لها واردون (أنها لظي) وما أدراك ما لظي ؟ (نزاعة للشوى) . تنتزع الأعضاء من أماكنها وتشوبها ، ثم تُعاد كما كانت ، وتنتزع مرة أخرى وتعاد . وهكذا الى ما لا نهاية : لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور - ٣٦ فاطر ، (تدعو من أدبر وتولى) في الدنيا عن دعوة الهدى والحق ، والمراد بدعوة النار له ان هاربها لا مفر له منها ولا ملجأ (وجمع فأوعى) من الوعاء لا من الوعاء أي كثر المال في وعاء ونحوه ، والآية تهديد ووعد لمن جمع المال وحرص عليه ، ولم ينفقه في طاعة الله ، والجمع بين كانز المال ومن كذب دعوة الحق يُشمر بأنها سواء عند الله في يوم الحساب والجزاء .

من هم المصلون الآية ١٩ - ٣٥ :

إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ
مَنُوعًا * إِلَّا الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ * وَالَّذِينَ فِي
أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ * وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ
الدِّينِ * وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ خَيْرٌ
مِّمَّاؤُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا

مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنْ ابْتغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ
 هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ
 قَائِمُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ
 مُّكْرَمُونَ *

اللفظة :

هلوعاً في اللفظة الضجور الذي لا صبر له ، والمراد به هنا من فسره سبحانه
 بقوله : « إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً » . والمراد بالشر كل مكروه
 وبالخير كل محبوب . والسائل من يسأل الناس ، والمحروم من يستكف عن السؤال
 على حاجته وحرمانه . ومشفقون خائفون .

الإعراب :

هلوعاً حال من الانسان . وجزوعاً خبر كان المحذوفة هي واسمها المستر أي
 كان جزوعاً ، ومثله « منوعاً » ، وإذا الأولى متعلقة بجزوع والثانية بمنوع ، ويجوز
 أن يكون كل من جزوع ومنوع حالاً ، وعليه يكون في الكلام تقديم وتأخير
 أي : خلق الانسان هلوعاً جزوعاً حين يمسه الشر منوعاً حين يمسه الخير . الا المصلين
 استثناء من الانسان باعتباره اسم جنس . والذين هم على صلواتهم صفة للمصلين .

المعنى :

(ان الانسان خلق هلوعاً إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً) .
 يشير سبحانه بهذا الى ان الانسان ضعيف بطبعه كما قال في الآية ٢٨ من سورة
 النساء : « وخلقنا الانسان ضعيفاً » والآية ٥٤ من سورة الروم : « الله الذي

سورة المعارج

خلقكم من ضعف . و يظهر هذا الضعف عند وجود أسبابه كالغنى والفقير ، فان استغنى صنمًا بماله خوفاً من الفقر ، وان افتقر استولى عليه اليأس والقنوط .. ولكن من آمن بالله حقاً ، ووثق به وبرحمته يتغلب على هذا الضعف ، ويصبر عند الشدائد صبر الأحرار متطوعاً الى اليسر والفرج ، ويجود بالعطية مؤمناً بأن ما عند الله خير وأبقى . وفيما يلي ذكر سبحانه طرفاً من أوصاف المؤمنين .

١ - (الا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون) . ويدل هذا الاستثناء من الانسان الجزوع الطلوع ، يدل دلالة واضحة وقاطعة على ان المصلين لله حقاً هم الذين يثقون به وحده ، ولا يخضعون لأحد سواه « إياك نعبد وإياك نستعين » أما الذين يكبرون ويهللون ثم يركعون ويسجدون لأهل الجاه والمال طمعاً بما في أيديهم ، أما هؤلاء فليسوا من المصلين في شيء حتى ولو داوموا على انقراض والنوافل ، ولم يشغلهم عنها أي شاغل .

٢ - (والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) . يبذلون في سبيل الطاعات والخيرات لوجه الله تعالى لا يبتغون جزاء ولا شكوراً . وتقدم مثله في الآية ١٩ من سورة الذاريات .

٣ - (والذين يصدقون بيوم الدين) . يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ويعملون بموجب هذا الإيمان ، وإلا فإن الإيمان النظري لا يجدي شيئاً .

٤ - (والذين هم من عذاب ربهم مشفقون ان عذاب ربهم غير مأمون) . المؤمن يرجو ويخاف . ينظر الى الجنة بعين ، والى النار بعين ، يخاف من هذه ، ولا ييأس من تلك . قال سبحانه : « فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون - ٩٩ الأعراف » . وقال : « انه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون - ٨٧ يوسف » . وأحسن الناس ظناً بالله أشدهم خوفاً منه كما قال الإمام علي(ع) أي ان الخوف منه تعالى يأتي على قدر العلم بعظمته .

٥ - (والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون) . على المؤمن ان يصبر ويرضى بما قسم الله له من بنات حواء ، وعلى المؤمنة أن ترضى وتصبر على ما آتاه الله من أبناء آدم ، ومن صبر وشكر فأجره على الله ، وإلا فعقابه

الجزء التاسع والعشرون

الحرمان من الحور والجنان . وتقدم بالحرف الواحد في الآية ٨ من سورة المؤمنون ج ٥ ص ٣٥٨ .

٦ - (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون) . المؤمن إذا عاهد وفي ، وإذا أؤتمن لم يخن ، ومن لا وفاء له لا دين له ولا ضمير . وأيضاً تقدم بالحرف في الآية ٨ من سورة المؤمنون ج ٥ ص ٣٥٩ .

٧ - (والذين هم بشهادتهم قائمون) . الشهادة أمانة الله عند الشاهد ، فن كتبها أو حرفها فقد خان الله : « ومن اظلم ممن كتب شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون - ١٤٠ البقرة » .

٨ - (والذين هم على صلاتهم يحافظون) . وتساءل : أليست هذه الآية تكراراً للآية السابقة ، وهي قوله تعالى : « الذين هم على صلاتهم دائمون » ؟ وأجاب بعض المفسرين بأن الدوام غير المحافظة ، فعنى دوام الصلاة تكرارها في أوقاتها ومعنى المحافظة عليها الاتيان بها بشرطها وشروطها ! اما نحن فلا نرى أي فرق بين الدوام والمحافظة لأن الصلاة لا تكون صلاة إلا مع المحافظة على جميع الأجزاء والشرائط ، فإذا فقدت واحداً منها بطلت ، ولا يكون تكرارها تكراراً للصلاة .. والأقرب الى الصواب ان الله سبحانه أعاد الآية لمجرد الاهتمام بالصلاة والتنبيه الى أنها عمود الاسلام .

(أولئك في جنات مكرمون) . أولئك اشارة الى من اجتمعت فيهم الصفات المذكورة ، وانهم عند الله سبحانه في منازل العز والكرامة .

فذرهم يخوضوا ويلعبوا الآية ٣٦ - ٤٤ :

قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلِكَ مُنْطَهَيْنَ * عَنِ الَّتِيْمِيْنَ وَعَنِ الشَّمَالِ عِزِيْنَ *
أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةً نَعِيْمًا * كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا
يَعْلَمُونَ * فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ * عَلَى أَنْ
نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * فَذَرْنُهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى

سورة المعارج

يَلْقَآؤَ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ * يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعاً
كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرَاهُمْ ذَلَّةً ذَلِكَ الْيَوْمِ
الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ *

اللغة :

قَبْلِكَ بكسر القاف جهتك ونحوك وعندك وحولك . ومهطمين مسرعين . وعزيرين
جمع عزة بكسر العين كعدة ، وهي العصبة والجماعة ، وأعربت بالياء والنون
إلحاقاً بجمع السلامة مثل سنين . والنُصْبُ كل ما نصب للعبادة من دون الله .
ويوفضون يسرعون ويستبقون . والخشوع في البصر الغض ويكفي به عن الذل
والهوان ، وفي الصوت الإخضات ، وفي القلب الخشية والتواضع . وترهقهم تلحقهم
وتستولي عليهم .

الإعراب :

فما للاستفهام الإنكاري مبتدأ ، وللذين كففروا خبر . وقَبْلِكَ ظرف متعلق
بمحلوف حال من الذين كففروا أي ثابتين حولك . ومهطمين حال . وعن اليمين
وعن الشمال متعلق بعزيرين لأنه بمعنى متفرقين . وعزيرين حال أيضاً . ان يدخل جنة
أي في أن يدخل . وكلاً حرف ردع وزجر . فلا اقسام مثل فلا اقسام ٧٥ الواقعة
و ٣٨ الحاقة . وبمبوقين الباء زائدة لإعراباً ومبوقون خبر نحن . ويخوضوا مجزوم
بجواب الأمر . ويوم يخرجون بدل من يومهم . وسراعاً حال . وخاشعة أيضاً حال .

المعنى :

(فما للذين كففروا قبلك مهطمين عن اليمين وعن الشمال عزيرين) ؟ ما شأن
هؤلاء الذين كذبوا برسالتك يا محمد ، وكففروا بالبعث ، ما شأنهم ؟ يسرعون

الجزء التاسع والعشرون

الى مجلسك جماعات جماعات ، ويأخذون عندك أماكنهم يميناً وشمالاً ، يسمعون ما تلووه من آيات الله ، ثم يرددونه فيما بينهم ساخرين من البعث والحساب ، ويقول بعضهم لبعض : ان صح هذا فنحن أولى الناس بالله وبعته ، لأننا أكثر أموالاً وأحرز نفراً من محمد وصحابته .. فأجابهم سبحانه بقوله عز من قائل : (أيطمع كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم) ؟ . لا نصيب لكم ايها المكذبون من جنة الله وثوابه ، ولا شيء لكم عنده إلا سوء المصير .. وكيف تطعمون في الجنة وأنتم تكفرون بها ، وتسخرون من الرسول الذي دعاكم الى العمل لما ؟ . أنعبون ان الأموال والأوثان تقربكم من الله زلفى ؟ .

(كلا إنا خلقناهم مما يعلمون) . وهم يعلمون علم اليقين ان الله خلقهم من ماء مهين : « فلينظر الانسان مما خلق ، خلق من ماء دافق - ٦ الطارق » وإذا كان أصل الانسان ، كل انسان ، واحداً فكيف يكون بعضهم أعظم من بعض عند الله ، وأولى به من غيره ؟ . كلا ، لا فضل لأبيض على اسود ، ولا لغني على فقير إلا بالتقوى والعمل الصالح .. وقوله تعالى : « مما تعلمون » يتضمن التعريض بالمكذبين بالبعث والرد على قولهم بأن من يصير عظاماً وتراباً لا تعيده أية قوة الى الحياة ، ووجه الرد ان الذي خلق الانسان من ماء مهين قادر على ان يحيي العظام وهي رميم .

(فلا أقسم برب المشارق والمغارب انا لقادرون على ان نبدل خيراً منهم وما نحن بمسبوقين) . المراد بالمشارق والمغارب مشارق الكواكب ومغاربها ، أو مشارق الشمس ومغاربها ، وهي تظهر للأعين وتختفي عنها بسبب دوران الأرض أمامها ، وضمير منهم يعود الى الذين كفروا ، والمعنى ان الله سبحانه يقسم - على القول ان « لا » زائدة - يقسم ، جلت عظمته ، انه قادر على ان يهلك المكذبين ، ويستخلف مكانهم قوماً آخرين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، واذا أراد ذلك فلا راد لمشيئته . وتقدم مثله في الآية ٣٨ من سورة محمد .

(فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون) . هذا تهديد ووعيد ، ومعناه دعهم يا محمد وشأنهم .. فليسخرُوا ويهزأوا ما شاء لهم البعث والباطل فإن نهايتهم الى النار وبئس القرار . وتقدم مثله بالحرف في الآية ٨٣

سورة المعارج

من سورة الزخرف ج ٥ ص ٥٦٢ (يوم يخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم
الى نصب يوفضون) . يسرعون من قبورهم الى نقاش الحساب كما كانوا يسرعون
بالأمس من بيوتهم الى الأصنام والأوثان ، ولكن شتان ما بين اليومين ، فقد
كانوا في يوم الدنيا يسرعون الى آلتهم آمنين مطمئنين، أما في يوم القيامة فيسرعون
الى الله ، والأرض تهتز تحت أقدامهم من هول المطلق (خاشعة أبصارهم ترهقهم
ذلة) قد استولى عليهم الذل والهوان: وكأنما اغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً -
٢٧ يونس ، ج ٤ ص ١٥٢ (ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون) ومنه يسخرون وبه
يستعجلون .

سورة نوح

٢٨ آية مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

دعوت قومي ليلاً ونهاراً الآية ١ - ١٢ :

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا * يَغْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَانْتَكَبُوا * سَتَكْبَارًا * ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا * فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا *

سورة نوح

اللغة :

استغشوا ثيابهم يقال : استغشى الثوب اذا تغطى به ، ويجعل كناية عن أخفى الحالات . والمراد بالسما هنا المطر . والمدرار الغزير .

الإعراب :

ان انذر ، وان اعبدوا يجوز أن تكون « ان » مفسرة بمعنى أي ويجوز ان تكون مصدرية على تقدير الباء أي بأن انذر وبأن اعبدوا . ليلاً ونهاراً ظرفان لدعوت . وفراراً تمييز محول عن فاعل لأن معناه زاد نفورهم مثل طاب محمد نفساً أي طابت نفس محمد ، وقيل : مفعول ثانٍ ليزدهم . وجهاراً مفعول مطلق لدعوتهم لأن الدعوة كانت بالقول ، والجهر من صفاته ، فيكون مثل قدمت القرفصاء ، وقيل : هو مصدر في موضع الحال أي مجاهراً . ومدراراً حال وصاحبه السماء .

المعنى :

(إنا أرسلنا نوحاً الى قومه أن انذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم) . فسر الشيخ عبد القادر المغربي جزء تبارك ، ونقل فيه عن كتب الأوائل ، وهو يفسر هذه الآيات : ان تاريخ عبادة الأوثان يتبدى بزمان « انوش بن شيث بن آدم ، وان الشرك في زمن نوح قد بلغ الغاية ، فاختره الله سبحانه لتضال هذا الشرك ، وانذار المشركين بالهلاك إن أصروا على الضلال .. واسم نوح الراحة ، وبينه وبين آدم جده الأكبر ١٠٥٦ سنة، ولما حدث الطوفان كان عمره ٦٠٠ سنة ، وعاش بعده ٣٥٠ عاماً، وأدركه حفيده ابراهيم الخليل، وعاش معه أكثر من نصف قرن ، وبعد أن نجا نوح من الطوفان انصرف الى الأرض يجرئها ويفرسها . هذا ملخص ما نقله المغربي عن كتب الأوائل ، والله أعلم بخلقهم من أنفسهم .

(قال يا قوم اني لكم نذير مبين ان اعبدوا الله واتقوه وأطيعون) . أرسل

الجزء التاسع والعشرون

سبحانه نوحاً الى قومه بأمور ثلاثة : الأول أن يتركوا عبادة الأصنام ويعبدوا إلهاً واحداً . الثاني أن يفلتوا الخير ويتقوا الشر . الثالث أن يطيعوه فيما يأمر وينهى ، وضمن لهم - إن استجابوا - أمرين : الأول (يفر لكم من ذنوبكم) التي اقترفتموها قبل الإيمان لأن الإيمان "يحب" ما قبله . أما الذنوب التي ارتكبوها بعد الإيمان فإنهم مسؤولون عنها ، وهذا ما تسمى اليه كلمة " من ذنوبكم " .

الأمر الثاني (ويؤخركم الى أجل مسمى ان أجل الله اذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون) . اذا آمنتم بالله وحده بدلاً عنكم عذاب الاستئصال بالطوفان ونحوه ، ومهلككم حتى تستوفوا العمر الطبيعي ، ويؤجل حساب من يذنب منكم الى يوم القيامة ، وإلا عجلت لكم عذاب الاستئصال في الدنيا (لو كنتم تعلمون) ان الله ليس بغافل عما يعمل الظالمون .

(قال رب اني دعوت قومي ليلاً ونهاراً فلم يزدتهم دعائي إلا فراراً) . ليلاً ونهاراً أي دائماً : دعاهم نوح دعوة الحق ، وألح عليهم حتى (قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا - ٣٢ هود) ولكنه مضى في دعوته، ومضوا بدورهم في العناد والتفور (واني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً) جعلوا أصابعهم في آذانهم أي سدوا مسامعهم عن دعوة الحق ، واستغشوا ثيابهم تغطوا بها كيلا يروا وجه الداعي ، وقد يكون هذا حقيقة ، ويجوز أن يكون تعبيراً مجازياً عن عنادهم وإصرارهم على الضلال ، وأياً كان المعنى واحد ، وهو التفور من دعوة الحق تعاضماً على نوح النبي يروونه دونهم منزلة ومقاماً فكيف يكونون في عداد أتباعه ، كما جاء في الآية ٢٧ من سورة هود : " وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل " .

(ثم اني دعوتهم جهاراً ثم اني أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً) . قال جماعة من المفسرين : ان قول نوح أولاً : دعوت قومي ليلاً ونهاراً ، وقوله ثانياً : دعوتهم جهاراً ، وقوله ثالثاً : أعلنت وأسررت - يدل على ان دعوته كانت على ثلاث مراتب : ابتدأها في السر ، ثم نفي بالجهر ، ثم ثلث بالاعلان والسر معاً . وليس هذا بعيداً عن ظاهر الآيات ، ولكن يجوز أن يكون مراد

سورة نوح

نوح من هذا العطف والتكرار انه دعاهم بكل اسلوب واستمر على ذلك بلا ملل
وفتور ، ولكن على غير جلوى .

(فقلت استغفروا ربكم انه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم
بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً) . اذا آمنوا بالله وحده
وأخلصوا له بالقول والفعل فإن نوحاً يضمن لهم على الله سبحانه ان يكفر عنهم
ما سلف من سيئاتهم ، وان يفيهم من فضله بالأموال والأولاد ، فتفيض السماء
عليهم بخيراتهما ، والأرض بشمراهما ، ويجمع لهم بين الصحة والأمان والرخاء والهناه
مع تكثير النسل .

الإيمان والرخاء :

وتسأل : ان هذه الآيات ربطت بين الإيمان والتقوى من جهة ، وبين الرخاء
والهناه من جهة مع ان العيان يثبت العكس .. وأوضح مثال على ذلك الولايات
المتحدة الأمريكية، فإنها أطنى دولة في الكرة الأرضية، وأكثرها فساداً واعتداءً حتى
اتخذت لنفسها مبدأ لا تحيد عنه ، وهو من لم يكن معها - أي عبداً لها - فهو
عدوها اللدود .. وكلنا يعلم ما كان لهذه السياسة من ويلات ، فما من دم يسفك
أو فساد يظهر في شرق الأرض وغربها إلا وللولايات المتحدة يسد فيه بشكل أو
بآخر .. وما من خائن لأمنه ووطنه إلا ويجد في أحضانها مقاماً كريماً ، وعربناً
أميناً .. ومع هذا فهي أقوى وأعنى دول العالم على الاطلاق ، وكفى شاهداً على
ذلك ان دخلها يبلغ ٤٣٪ من مجموع الانتاج العالمي مع العلم بأن نسبة سكانها عدداً
الى نسبة سكان العالم هي ٦٪ فا هو وجه الجمع بين هذا وبين ظاهر الآيات التي
ربطت الرخاء بالإيمان ؟

الجواب أولاً : ان هذه الآيات نزلت في قوم نوح خاصة ، ولا دلالة لها
على العموم والشمول كي يتعدى بها الى غيرهم .. هذا ، الى ان لله شأناً خاصاً
في معاملة الأمم التي ينذرها بلسان أنبيائه مباشرة .
ثانياً : ان ثراء الولايات المتحدة من الشيطان لا من الرحمن لأن معظمه من
السلب والنهب .

الجزء التاسع والعشرون

ثالثاً : ان هذه الآيات ربطت بين سعادة الدنيا والآخرة معاً وبين الإيمان لا بينه وبين سعادة الدنيا وحدها : « ولا يحسبن الذين كفروا اننا نملي لهم خيراً لأنفسهم انما نملي لهم ليزدادوا أثماً ولهم عذاب مهين - ١٧٨ آل عمران » .

رابعاً : وما يدريك ان الولايات المتحدة وغيرها من الدول الباغية هي في أمن وأمان ؟ وأي عاقل يأمن الغوائل ؟. وهل دامت الامبراطورية الرومانية بل والبريطانية وغيرها وغيرها حتى تدوم غطرسة الولايات المتحدة ومفاسدها ؟ وهذه بشائر الانهيار يتبع بعضها بعضاً ، فن موجات التحرر في العالم كله الى ثورة الثلاثين مليون زنجي في قلب الولايات المتحدة ، الى التضخم المسالي الذي تتداويه بالحروب المحدودة ، ومن سيطرة الصناعة العسكرية الى تلاعب الصهاينة بالحكام والشيوخ والنواب ، ومن امبراطورية المخابرات الى القتل والخطف واشعال الحريق الى الخيش والمواد المخدرات ، ومن الصراع والعداء مع أكثر أهل القارات الخمس الى رئيس يحمي ويحامي عن اللصوص وسفاكي الدماء .. الى ما لا نهاية .. ومستحيل أن يدوم أمنٌ ورخاء لهذا النسيج الغريب العجيب سواء أكان من صنع الولايات المتحدة أم صنع غيرها .

ومن غريب الصدف اني في اليوم الذي كنت أكتب فيه هذه الكلمات قرأت في جريدة الجمهورية المصرية تاريخ ١٠ - ٧ - ١٩٧٠ نقلاً عن صحف نيويورك: ان خمسة آلاف من الرجال والشبان المصابين بداء الأبتنة قد تظاهروا عبر شوارع نيويورك يحملون اللافتات مطالبين الحكومة بإصدار قانون يبيح لهم ممارسة الشذوذ الجنسي اسوة بما يباح للنساء من الزواج وبيع أجسامهن بالسوق العمومية .. وفي مجلة النيوزويك تاريخ ١٢ - ١٠ - ١٩٧٠ ان القس «توري باري» الشهير بالواط يدعو الى انتشار اللواط والسحاق لأنها لون من الحب الإلهي ، وقد انتشرت دعوته هذه ، وأصبح لها اتباع كثيرون في أنحاء الولايات المتحدة . وليس من شك ان هؤلاء المأبوتين سيخرج منهم شواذ يتولون القيادة وسياسة السلم والحرب ، وأمور العلم والعمل في المجتمع الامريكى .. وعندئذ يصبح كيان الولايات المتحدة أوهى من بيت العنكبوت .

سورة نوح

خلقكم أطواراً الآية ١٣ - ٢٠:

مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً * أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ
خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ
سِرَاجًا * وَاللَّهُ أَنْبَتُكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ
إِحْرَاجًا * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ بِسَاطًا * لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا
فِجَاجًا *

اللمة :

يستعمل الرجاء في الأمل وفي الخوف، وهذا المعنى هو المراد من «لا ترجون». والوقار في الانسان الرزاة، وفي جانب الله العظمة. وأطوار جمع طور، ومن معانيه الحال والصنف . وطباقاً أي يشبه بعضها بعضاً في الالتقان . وفجاج جمع فح وهو الانفراج والسعة .

الإعراب :

ما لكم مبتدأ وخبر . ووقاراً مفعول لا ترجون أي لا تحافون عظمة الله . وأطواراً مفعول خلقكم . وطباقاً صفة لسماوات أي مطابقة . ونباتاً مفعول مطلق بمعنى إنباتاً . وسبلاً مفعول تسلكوا ، وفجاجاً صفة .

المعنى :

(ما لكم لا ترجون لله وقاراً وقد خلقكم أطواراً) . يستنكر نوح على قومه ويعجب كيف لا يهابون الله وعظمته ، وهم يعلمون انه خلقهم من تراب ثم من

الجزء التاسع والعشرون

نظفة ثم من علفة .. وهكذا ينتقل بهم من حال الى حال حتى الهرم والشيخوخة، وأيضاً وجه أنظارهم الى قدرة الله في خلق السموات والكواكب السيارة ، وقال لهم : (ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً) ؟ . تأملوا وتدبروا خلق السموات وانقائها ونظامها الذي يدل على وجود الصانع الحكيم . وتقدم مثله في الآية ٣ من سورة الملك ، أما السموات السبع فقد تكلمنا عنها بضرب من التوسع عند تفسير الآية ١٢ من سورة الطلاق ، فقرة « سبع سموات ومن الأرض مثلهن » . وتجدر الإشارة الى ان قول نوح لقومه : « سبع سموات » يدل على ان قومه كانوا يؤمنون بذلك ، وان الاعتقاد بالسموات السبع كان في الزمن القديم .

(وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً) . فيهن أي في مجموعهن .. وصف سبحانه الشمس بالسراج والقمر بالنور لأن السراج مصدر النور، والشمس أيضاً مصدر لنور القمر ، وأيضاً نورها أعم وأنفع من نوره . وتقدم مثله في الآية ٥ من سورة يونس ج ٤ ص ١٣٥ (والله أنبتكم من الأرض نباتاً ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً) . هذا هو ابن آدم من الأرض خلق ، وعليها يحيا واليها يعود . وتقدم مثله في الآية ٥٥ من سورة طه ج ٥ ص ٢٢٣ (والله جعل لكم الأرض بساطاً لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً) . جعل سبحانه في الأرض طرقاً واسعة ليسلكها الناس الى مقاصدهم . وتقدم مثله في الآية ٣٢ من سورة الأنبياء ج ٥ ص ٢٧٤ .

ولا تذرنا وداً ولا سواعاً الآية ٢١ - ٢٨ :

قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَاراً * وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا * وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا * وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا * مِمَّا خَطَبْتَهُمْ أُخْرِقُوا فَأَدْخَلُوا قَارًا فَلَمْ

سورة نوح

يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا * وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ
مِنَ الْكَافِرِينَ دَبَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْنَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا
فَاجِرًا كَفَّارًا * رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا
وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا *

اللفظة :

الكبار بضم الكاف وتشديد الباء أي الكبير جداً . وود وسواع ويغوث ويعوق
ونسر أسماء أصنام . والديار نازل الدار ، والمراد به هنا أحد أي لا تبقي أحداً
منهم . وتباراً هلاكاً .

الإعراب :

كثيراً أي خلقاً كثيراً . وما خطيئاتهم «ما» زائدة أي من خطيئاتهم . ومؤمناً
حال من فاعل دخل .

المعنى :

(قال نوح رب انهم عصوني واتبعوا من لم يزد ماله وولده إلا خساراً) .
هذا تقرير من نوح أو شكوى يرفعهها الى سيده ، ويقول فيها : إلهي وسيدي
أرسلتني لهداية عبادك المشركين ، وقد أدت الرسالة على وجهها ، ولكنهم أعرضوا
عني وعنهما ، وامتجابوا للرؤساء الذين أطفاهم ما هم فيه من الأموال والأولاد ،
وكلموا ازدادوا مالا* وأولاداً ازدادوا كفراً وعناداً ونشطوا في محاربة الحق وأهله
حرصاً على جاههم ومكاسبهم (ومكروا مكراً كُباراً) . واو الجماعة في مكروا
يعود الى « من لم يزد ماله وولده إلا خساراً » لأن معنى « من » الجماعة وهم

الجزء التاسع والعشرون

الرؤساء الطغاة ، والمراد بمكرهم الأساليب التي كانوا يتبعونها لصعد المستضعفين عن الإيمان ، ومنها قول أولئك الطغاة للناس : (لا تدرن ألتكم) لا تركوا عبادة الأوثان الى عبادة إله واحد ، وكان لهم أصنام كثيرة ، وأهمها مكانة وشأناً خمسة ، ولذا خصوها بالذكر ، وقالوا : (ولا تدرن ودأ ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً) . وكان نوح يشدد النكير على عبادة هذه الخمسة لأنها أكبر الآلهة .

وقال جماعة من المفسرين : ان هذه الخمسة ظلت تُعبد في الجاهلية الى عهد الرسول الأعظم (ص) ، وان ودأ كان لقبيلة كلب ، وسواعاً لهذيل ، ويغوث لغطفيل ، ويعوق لهمدان ، ونسراً لحمير .. وهناك أصنام أخر لأقسام آخرين كالللات والغزى وهبل ومناة (وقد أضلوا كثيراً ولا ترد الظالمين إلا ضلالاً) . واو الجماعة في ضلوا يعود الى القادة الطغاة ، والمراد بـ « ضلالاً » الهلاك مثل قوله تعالى : « ان المجرمين في ضلال وسعر - ٤٧ القمر » . أما زيادة الهلاك فالمراد به القسوة والشدة ، والمعنى أنزل اللهم عذابك الأليم الشديد بقيادة الفساد لأنهم ضلوا وأضلوا الكثير من عبادك .

(مما خطيئاتهم أغرقوا فادخلوا ناراً فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً) . هذه الآية معترضة في كلام نوح ودعائه ، ولكنها تمت اليه بسبب ، ومعناها ان قوم نوح أصروا على الكفر والضللال فأخذهم سبحانه بالطوفان ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ، ولا ينجيهم منه أحد (وقال نوح رب لا تنر على الأرض من الكافرين دياراً) أي لا تبق منهم أحداً ، وما دعا نوح عليهم بالاستئصال إلا بعد ان نزلت عليه هذه الآية : « وأوحى الى نوح انه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون - ٣٦ هود » . ونقل الرازي عن المبرد : ان دياراً لا تستعمل إلا في النفي ، يقال : ما في الدار ديار ، ولا يقال: فيها ديار .

(انك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً) . يدل هذا على ان الكفر والفجور قد طغى على مجتمع قوم نوح بحيث لا ينشأ فيه إلا الكافر الفاجر .. ومعلوم ان نفس الطفل كالمرأة ينعكس عليها كل ما يحيط بها .. حتى الكبير يختلف سلوكه بين مجتمع وبين آخر فكيف الصغار ! ورؤي ان الرجل من قوم نوح كان ينطلق بابنه اليه ، ويقول له : احذر هذا - مشيراً الى نوح -

سورة نوح

فإنه كذاب ، وان أبي أوصاني بمثل هذه الرصبة ، فيموت الكبير ، وينشأ على ذلك الصغير .

(رب اغفر لي ولوالديّ ولمن دخل بيتي مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات) . بعد ان دعا على الكافرين سأل الله المغفرة له ولوالديه ، ولمن آمن أهله وأولاده، وهم الذين عناهم بقوله : « من دخل بيتي مؤمناً » . وأيضاً دعا لكل مؤمن ومؤمنة من لدن آدم الى يوم يبعثون (ولا تزد الظالمين إلا تباراً) . لمن آمن الرحمة والغفران ، ولمن كفر الهلاك والتيران .

وجاء في قاموس الكتاب المقدس : « أظهرت الحفريات الأثرية ان الفيضانات واقع ملموس .. وان أقدم قصة للطوفان كتبت غالباً فيما بين ١٨٩٤ و ١٥٩٥ قبل الميلاد » . أنظر ج ٤ من «التفسير الكاشف» ص ٢٣٧ فقرة «الطوفان ثابت عند الأمم» . وهنا سؤال يفرض نفسه : هل الطوفان الذي دلت عليه الحفريات وجاء في الأسفار القديمة هو طوفان نوح أو غيره ؟.

الجواب: أياً كان فليكن، فإن غير طوفان نوح لا يمنع من وجوده كما ان طوفان نوح لا يستدعي ان لا يوجد سواه ، وفي كل عصر يحدث طوفان أو أكثر في طرف من أطراف الأرض .. وطوفان نوح قد يكون عاماً ، وقد يكون خاصاً بجزء من أجزاء الأرض ، ولا نص صريح في كتاب الله على أحدهما .

سورة الجن

٢٨ آية مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

استمع نفر من الجن الآية ١ - ٧ :

قُلْ أُرْحِي إِلَىٰ آلِهِ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا
عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا * وَأَنَّهُ
تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا * وَأَنَّهُ كَانَ يَفُولُ سَفِيهُنَا
عَلَى اللَّهِ شَطَطًا * وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا *
وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ
رَهَقًا * وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا *

الله :

جد الله سبحانه علوه وعظمته . والشطط الافراط وتجاوز الحد . ويعوذون
يستجبرون . ورهقاً من أرهقه اذا كلفه ما لا يطيق .

الإعراب :

المصدر من انه استمع نائب فاعل لأوحي ؛ وضمير انه للشأن . وعجباً صفة للقرآن بمعنى عجب . وشططاً صفة لمفعول مطلق مقدر أي قولاً شططاً ، ومثله كذباً . وان لن « ان » مخففة ، واسمها ضمير الشأن مخنوف ، والمصدر المنسبك ساداً مسدداً مفعولين . ورهقاً مفعول ثانٍ لزيدوهم .

المعنى :

(قل أوحي إلي انه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجياً) . الجن حقيقة واقعة ، لا يشك فيها مؤمن لأن آي الذكر الحكيم أثبتت ذلك بما لا يقبل الشك والتأويل ، وبماذا نؤول قوله تعالى في الآية ١٣ من سورة سبأ : « يعملون له ما يشاء من محارِبٍ وتماثيل وجفان كالجواب » والآية ٣٩ من سورة النمل : « قال عفريت من الجن أنا آتيتك به » والآية ٣٠ من سورة الأحقاف : « إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى » . وقوله تعالى في سورتنا هذه : « سمعنا قرآناً عجياً .. لمسنا السماء .. منا الصالحون ومنا دون ذلك » ، بماذا نؤول هذه الآيات ؟ ومثلها كثير ، أنؤولها بالمكروبات أو بالراديوم أو بالألكترونات وما إليها من المصطلحات ؟ .

وتقول : العلم الحديث لم يثبت الجن . ونقول : وهل في العلم الحديث ما يفي به ؟ وهل أحصى العلم الحديث عدد الكائنات ما ظهر منها وما بطن ؟ وأي عالم قديم أو جديد يعرف حقيقة نفسه وعقله ، بل وجسمه المحسوس الملموس ، يعرفه بما فيه من عروق وخطوط وشعر ؟ ومن جهل نفسه فهو بغيره أجهل بخاصة عالم الغيب . لقد اثبت الوحي الجن والملائكة فوجب التصديق ، ومن نفى بلسان القطع والجزم فعليه الاثبات من العقل أو الوحي تماماً كما لو أثبت .

وبعد ، فقد أوحي سبحانه الى نبيه الكريم ان جماعة من الجن استمعوا اليه ، وهو يتلو كتاب الله فهموه وتدبروا معانيه ، فدهشوا من عظمته مبني ومعنى ، وقال بعضهم لبعض : ألا تعجبون لهذا القرآن ؟ وهل سمعتم بمثل له من قبل ؟

الجزء التاسع والعشرون

حقاً انه لمعجز وانه (يهدي الى الرشد) فما من خير إلا ويرشد اليه ويأمر به رغباً ومبشراً ، وما من شر إلا وبدل عليه وينهى عنه منقراً ومخذراً .

١ - (فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً) لأنه قادر على كل شيء ، ومن قدر على كل شيء فهو في غنى عن الشركاء ، ولو استعان بغيره لكان عاجزاً ، والعاجز لا يكون إلهاً .

٢ - (وانه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولداً) . جل سبحانه عن اتخاذ الأبناء ، وطهر عن ملامسة النساء ، كيف وهو الغني الحميد ؟ .

٣ - (وانه كان يقول سفيهاً على الله شططاً) المراد بالسفيه هنا الجاهل ، والشطط تجاوز الحد ، وفيه إيماء الى انه كان في الجن طائفة تدين بالثلاث : الرب وابنه وزوجته ، وما من شك ان هذا سفه وسرف .

٤ - (وانا ظننا ان لن نقول الانس والجن على الله كذباً) . كان قسادة الدين من الجن يلقنون أتباعهم الأضاليل والأباطيل ، من ذلك ان الله صاحبة وولداً فيصدق الأتباع السذج ثقة بالكبار ، وإيماناً بأن ما من أحد يجترىء على الله ويصفه بغير صفاته ، ولما سمعوا القرآن أيقنوا ان رؤساءهم يفترون على الله للكذب ويصفونه بما لا يليق بجلاله وعظمته .

ومكان العظمة في هذه الآيات ان الجن سمعوا حكمة القرآن للمرة الأولى فوعوها واتعظوا بها .. ونحن نسمع القرآن ونقرأه مرات ومرات ، ولا نخلو منه بيت من بيوت المسلمين ، ثم لا تنتفع بمواعظه ، ولا نهتدي برشده .. فهل الجن - يا ترى - اصفى نفساً ، أو أتم عقلاً ، أو لا شيء في حياتهم من المغريات والشهوات ؟ .

٥ - (وانه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادهم رهقاً) . اختلفوا في تفسير هذه الآية ، والأقرب الى الافهام - خلافاً لجمهور المفسرين - ان المراد برجال من الانس البسطاء السذج ، والمراد برجال من الجن المشعوذين الذين يموهون على البسطاء بأن لهم صلات بالجن يستحضرونهم متى شاءوا ، ويسخرونهم فيها أرادوا ، وعليه يكون المعنى ان السذج كانوا يستجيبون بالمشعوذين ليدفعوا عنهم غائلة الجن ، أو يتنبؤوا بما يحدث لهم ، أو يقرؤوا بعيداً ، أو يبعثوا قريباً . أما قوله : « فزادهم رهقاً » فعناه ان المشعوذين كانوا يطلبون من البسطاء من الأجر ما يرهقونهم به .

سورة الجن

٦ - (وانهم ظنوا كما ظنتم ان لن يبعث الله أحداً) . الضمير في ظنوا للكفرة من الانس ، والحطاب في ظنتم من مؤمني الجن للكفرة من قومهم ، والمعنى ان مؤمني الجن قالوا للكفار من قومهم : لكم في الانس أمثال لا يؤمنون بالبعث والحساب .

وانا لسنا السماء الآية ٨ - ١٧ :

وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتًا حَرَسًا شَدِيدًا وَشِبَابًا * وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَحِذْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا * وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشْرٌ أُرِيدَ بَيْنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا * وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَادًا * وَأَنَا ظَنْنَا أَنْ لَنْ نُنْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا * وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا * وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا * وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا * وَأَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا * لِنُقْنِتَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا *

: الآية

الأصل في اللبس أن يكون باليد، ويستعمل كثيراً في الطلب، تقول: اللبس لنا كلنا أي اطلبه . والحرس لجماعة الحراس ، ويوصف بالفردي كما في الآية باعتبار

الجزء التاسع والعشرون

لفظه ، وبالجمع باعتبار معناه . والشهب جمع شهاب ، وهو الشعلة من النار ، ويطلق أيضاً على النور المتد في السماء كشعلة من نار . ورصد أي راصداً ورتقياً . ورشداً هداية وصلاًحاً . وطرائق جمع طريقة مؤنث طريق ، والمراد بالطريقة هنا شريعة الحق والعدل . وقد جمع قِيدة، وهي القطعة من الشيء، والمراد بطرائق قدداً هنا مذاهب شتى . والبخس النقص . والرهق الظلم . والمراد بالقاسطين هنا العادلون من سبيل الحق . ونحروا قصدوا والتمسوا . وغدقاً أي كثيراً . وصعداً شاقاً وشديداً .

الإعراب :

حرساً تمييز . ومقاعد اسم مكان مفعول فيه . أشرّ مبتدأ وجملة أريد خبر . ومنا متعلق بمحذوف خبراً لمبتدأ محذوف، ودون ذلك صفة للمبتدأ أي ومنا قوم كائون دون ذلك . وان لن نعجز أي انه لن نعجز ومثله ان لو استقاموا . وهرباً مصدر في موضع الحال أي هاربين . ويسلكه عذاباً منصوب بتزج الخافض أي في عذاب مثل « ماسلككم في سقر - ٤٢ المدثر » .

المعنى :

١ - (وإنا لمنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً) . عند تفسير الآية السابقة ، وهي « وانه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن » عند تفسير هذه الآية قلنا : ان الكهان والمشعوذين كانوا يزعمون ان الجن يقولون اليهم أخبار السماء .. والآية التي نفسرها ترد على هذا الزعم وتبطله بلسان الجن أنفسهم واعترافهم صراحة بأنهم لا يعلمون الغيب ، وانهم لا يستطيعون الوصول الى السماء لاستراق السمع لأنها محصنة بالحفظه والشهب المحرقة .. وشواء أكان هذا حقيقة أم كناية عن جهل الجن بالغيب فإن الغرض الأول من ذلك هو التنبيه الى ان الكهان والمشعوذين يفترون الكذب على الله وعلى الجن لأن علم الغيب لله وحده : « وما كان الله ليطلمكم على الغيب - ١٧٩ آل عمران » : « وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو - ٥٩ الأنعام » . وتقدم مثله في الآية ١٨ من سورة

سورة الجن

الحجر ج ٤ ص ٤٧٠ والآية ٧ من سورة الصافات ج ٦ ص ٣٣٠ والآية ٥ من سورة الملك .

٢ - (وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً).
تدل هذه الآية بظاهاها ان الجن صعّدوا الى مكان ما في السماء قبل الرسول الأعظم (ص) وانهم كانوا يسمعون صوتاً أو كلاماً ، ثم مُنعوا من ذلك في عهد محمد (ص) . وليس معنى هذا ان الجن كانوا قبل محمد (ص) يطلعون على أخبار الغيب من السماء .. كلا ، وانما المراد انهم سمعوا شيئاً في السماء ، وليس من الضروري أن يكون هذا الشيء غيباً ، بل من المستحيل أن يكون من نوع الغيب لأن الغيب لله وحده بنص القرآن الذي لا يقبل التأويل .. وبكلام آخر: ان صعود الجن أو غيرهم الى السماء لا يستدعي علمهم بالغيب ، فالسما هي موطن الملائكة المقربين ، ومع هذا « قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا - ٣٢ القسرة » وهل في الأرض والسماء أعظم وأكرم على الله من محمد ، ومع هذا أعلن على الأجيال : « ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء - ١٨٨ الأعراف » . واذا كان أشرف خلق الله لا يعلم الغيب حتى فيما يعود الى نفسه فكيف يعرف الجن ما يحدث في مستقبل الناس من خير أو شر ؟ .

٣ - (وأنا لا ندرى أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً) .
هذا من قول الجن ، ومعناه كيف يظن الحمقى ان عندنا علم الغيب وما نخدث لهم في المستقبل من خير أو شر ، واننا نوحى بذلك الى الكهان ، كيف يظن بنا هذا الظن ، ونحن لا نعلم ماذا قدر الله لأحد من أهل الأرض ولا لأنفسنا أيضاً.
٤ - (وانا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قدداً) . يحكي الجن عن أنفسهم ان منهم الصالح والطالح ، وانهم متفرقون الى طوائف ومذاهب تماماً كالإنس .

٥ - (وانّا ظننا ان لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هرباً) . بعد ان سمع الجن القرآن آمنوا بالله وأيقنوا بأنه ، جلت عظمته، لا يعجزه من طلب ، ولا يفوته من هرب .

٦ - (وانا لما سمعنا الهدى آمنا به فنؤمن بربه فلا يخاف نجساً ولا رهقاً).
المراد بالهدى القرآن ، وبالنجس النقص ، وبالرهق الظلم ، والمعنى ان الجن سمعوا

الجزء التاسع والعشرون

القرآن فآمنوا به جملة وتفصيلاً ، وهم على يقين من عدل الله ، وان من يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً .

٧ - (وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون) . هذا تقسيم ثانٍ للجن بعد الاسلام ، أما التقسيم الأول في الآية ١١ الى صالحين ودون ذلك فهو بالنظر الى ما قبل الاسلام ، ولا فرق إلا في التسمية ، فقد أسماوا الطيبين قبل الاسلام بال صالحين ، وأسومهم بعد الاسلام بالمسلمين (فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً) . طلب الذين أسلموا الرشد فأصابوه ، واختاروا لأنفسهم الخير فعدوا به .

(وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً) . قال الشيخ اسماعيل حقي في تفسيره روج البيان : « القاسط هو الجائر العادل عن الحق ، والمقسط هو العادل الى الحق ، يقال : قسط اذا جار ، وأقسط اذا عدل ، وقد غلب اسم القاسط على فرقة معاوية ، ومنه الحديث خطاباً لعلي بن أبي طالب : « تقائل الناكثين والقاسطين والمارقين » فالناكثون أصحاب عائشة الذين نكثوا البيعة ، والقاسطون أصحاب معاوية لأنهم جاروا حين حاربوا الإمام الحق ، والمارقون الخوارج لأنهم خرجوا من دين الله ، واستحلوا قتال خليفة رسول الله (ص) » .

(وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً) . هذا كلام مستأنف منه تعالى ، والضمير في استقاموا يعود الى الخلائق من الجن والسن ، والمراد بالطريقة شريعة الحق والعدل ، وماء غدقاً كناية عن الرخاء والسعة في الرزق لأن الماء أصل الحياة ، والفتنة الاختبار ، والمعنى ان الناس لو آمنوا بالله حقاً ، وعملوا بشريعة العدل ، وابتعدوا عن الجور والعدوان - لعاشوا في سعة ورخاء وأمن وأمان (لفتنتهم فيه) أي في الرخاء ، واللام في لفتنتهم للعاقبة مثل ليدوا للموت ، والمعنى ان الله سبحانه يصدق النعم عليهم ، ثم ينظر : فإن ازدادوا إيماناً به واخلاقاً له كانوا من السعداء دنياً وآخرة ، وان غيروا وبدلوا فهو لهم بالمرصاد (ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذاباً صعداً) أي شديداً ، وكل من ذكّر بالحق فأعرض عنه عذبه الله عذاباً أليماً .

سورة الجن

ان المساجد لله الآية ١٨ - ٢٨ :

وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا * وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا * قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا * قُلْ لِي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا * قُلْ لِي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا * إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا * حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَيَسْئَلُونَ مَنْ أَضَعُ نَاصِرًا وَقَلَّ عِدَدًا * قُلْ إِن أَدْرِي أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا * عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا * لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا *

اللفظ :

المراد بالمساجد جميع المعابد ، وبعبد الله محمد (ص) . ولبد جمع لبد ب كسر اللام ، وهي اسم لكل شعر أو صوف متلبد . وملتحدأ ملاذأ وملجأ .

الإعراب :

قال صاحب البحر المحيط : بلاغاً مستثنى منقطع لأن المعنى لكسن ان بلغت رحمي ربي ، وقال أيضاً : ورسالاته عطف على الله . ومن مبتدأ وأضعف

الجزء التاسع والعشرون

خبر ، وناصرأ تمييز ومثله عدداً . أقرب ما توعدون مبتدأ وخبر . ومن ارتضى مشتق منقطع لأن المعنى لكن يظهر على الغيب من ارتضى . والمصدر من يعلم متعلق بيسلك . وعدداً تمييز ويجوز أن يكون في موضع المفعول المطلق لأن أحصى بمعنى عد .

المعنى :

(وان المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً) . اختلفوا : هل هذا من قول الله أم من قول الجزن ؟ وأياً كان القائل فان المعنى واحد ، وهو ان جميع المعابد هي لمباداة الله وطاعته فقط ، سواء أشادها وأقامها المسلمون أم غيرهم (وانه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً) . المراد بعبد الله هنا محمد (ص) ، والهاء في يدعوه لله سبحانه ، وواو الجماعة في كادوا لأعداء الله ورسوله ، والمعنى ان رسول الله (ص) حين دعا دعوة الحق تظاهرت عليه أحزاب الضلال ، وكادوا من كثرتهم يكونون كالشعر أو الصوف الذي تلبد بعضه فوق بعض . وفي ذلك يقول الإمام علي (ع) :

« خاض رسول الله الى رضوان الله كل غمرة ، وتجرع فيه كل غصة ، وقد تلون له الأدنون ، وتألّب عليه الأقصون ، وخلعت اليه العرب أعتتها ، وضربت لمحاربه بطون وواحلها ، حتى أنزلت بساحته عداوتها من أبعد الدار واسحق المزاره أي أقصاه .

والذي يدل على ان هذا المعنى هو المراد قوله تعالى بلا فاصل : (قل انما ادعو ربي ولا أشرك به أحداً) قل يا محمد للذين تحالفوا على حربك : ماذا جنيت ؟ هل طلبت منكم أجراً ، أو ابتغيت جاهاً ؟ .. كلا ، وانما أعبد الله وأخلص له ، وهو الذي خلق الكون بأرضه وسماه ، فهل هذا ذنب لا يغتفر ؟ (قل اني لا أملك لكم ضرراً ولا رشداً) . أي نفعاً . وأيضاً قل يا محمد للمشركين : أنا بشر مثلكم لا أدعي القدرة على التحكم في مصيركم وضرركم أو نفعكم ، فالأمر كله لله وحده .

(قل اني لن يعبّرني من الله أحد ولا أجد من حونه ملتحداً إلا بلاغاً من

سورة الجن

الله ورسالاته) لا مفر ولا ملجأ لرسول الله من الله اذا قصر في تأدية الرسالة التي ائتمنه عليها .. وهذه آية من عشرات الآيات التي تدل بصراحة ووضوح على ان الاسلام يرفض فكرة الوساطة بين الله وعباده ، ويضع الانسان امام خالقه مباشرة يخاطبه ويتقرب اليه بفعل الخيرات من غير شفيع ووسيط . (ومن يعص الله ورسوله فان له نار جهنم خالدين فيها أبداً) . هذا تهديد ووعيد للمصاة الطفساء .. على ان الله سبحانه يجب أن يطاع حتى ولو لم يهدد ويتوعد ، فكيف اذا هدد وتوعد (حتى اذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصراً وأقل عدداً) . كان المشركون يستضعفون أنصار رسول الله (ص) ويستقلون عددهم ، ويقولون له : نحن أكثر منك مالاً وأعز نفراً .. فأجابهم سبحانه : في غد تعلمون من هو الأعز ومن هو الأذل ؟ وصدق الله العظيم ، فما مضت الأيام حتى أذهم الاسلام بغزته ، ورفع المسلمين بقدرته ، وللكاافرين في الآخرة عذاب الحريق .

(قل ان أدري أقرب ما توعدون أم يجعل له ربي أمداً) . حين سمع المشركون قوله تعالى : « فسيعلمون من هو أضعف ناصراً وأقل عدداً » سألوا النبي (ص) : متى يكون هذا ؟ فأمر الله نبيه الكريم أن يقول لهم : علمه عند ربي ، ولا أدري أقرب هو أم بعيد ، فقوله تعالى : « أم يجعل له ربي أمداً » يتلخص بكلمة « بعيد » كما في الآية ١٠٩ من سورة الأنبياء : « وان أدري أقرب أم بعيد ما توعدون » .

(عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول) . الغيب لله ولمن ائتمنه سبحانه على وحيه ، واصطفاه من عباده لرسالته ، فإنه يعلم من الغيب ما علمه الله « سبحانه لا علم لنا إلا ما علمتنا » . وقال جماعة من المفسرين ، منهم الرازي والمراغي : ان غير الرسول قد يعلم الغيب ويخبر به !.. ولا يتفق هذا مع ظاهر قوله : « فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول » . أجل ، ان ذوي الافهام يتنبئون بالمستقبل ، ويصدقون في الكثير من ظنونهم وفراساتهم ، ولكنهم يستخرجونها من قرائن وامارات تظهر لهم وتخفى على من دونهم فهماً وعلماً ، وأين هذا من علم الغيب الذي لا يظهره الله إلا على الرسل والأنبياء ؟ . (فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً) . السذي تبادر الى فهمنا من

الجزء التاسع والعشرون

هذه الآية هو ان الله سبحانه يصون الأنبياء ، وهم يبلغون عنه ويؤدون رسالته، يصونهم ويحفظهم من كل شيء يمنهم عن تأدية الرسالة على وجهها، سواء أكان هذا الشيء من الداخل كالذهول والنسيان أم من الخارج كتشويش الأعداء ، وما ان ذلك من محاولاتهم . وبكلمة ان هذه الآية تثبت العصمة للأنبياء في تأدية الوحي (ليعلم) أي لينكشف علم الله ويظهر على حقيقته (ان قد بلغوا) لينكشف علم الله لجميع الناس ان الأنبياء قد بلغوا (رسالات ربهم) على حقيقتها (وأحاط) الله علماً (بما لديهم) أي بكل ما قاله الأنبياء لا يفوته من أقوالهم حرف واحد، وفوق ذلك فإن الله تعالى قد أحاط علماً بجميع الكائنات كبيرها وصغيرها (وأحصى كل شيء عدداً) فكيف لا يحصي على رسله أقوالهم وأنفاسهم ، وهم يبلغون رسالته الى عباده...؟ والغرض من هذا التأكيد هو التنبيه الى ان الأنبياء معصومون عن الخطأ في تبليغ الوحي ، فلا يزيدون فيه ، ولا ينقصون منه حرفاً. ولا يبدلون حرفاً بحرف ، وما ينطق عن الهوى ان هو إلا وحي يوحى .

سورة المزمل

٢٠ آية مكة ، وقيل بعضها مدني .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يا أيها المزمل الآية ١ - ٩ :

يَا أَيُّهَا الْمَزْمُولُ * فَمِ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا * نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا *
أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا * إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا تَقِيلًا *
إِنْ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأًا وَأَقْوَمُ قِيلًا * إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا
طَوِيلًا * وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا * رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا *

اللغة :

المزمل اسم فاعل وأصله المترمل من تزمّل إذا اشتغل بشيأه . والترتيل التمهّل في التلاوة وضده الإسراع . وفي البحر المحيط ان ناشئة الليل هي ساعاته ، وأشد وطأ أكثر مشقة . وأقوم قِيلًا أصوب وأثبت قراءة ، وسبحاً أي تصرفاً وتقبلاً في الأعمال كما يتقلب السابح في الماء . وتبتل إليه انقطع وأخلص إليه .

الإعراب :

الليل منصوب على الظرفية . إلا قليلاً استثناء متصل من الليل . نصفه عطف بيان أو بدل كل من الليل لأنه جاء بعد الاستثناء ومعناه قم نصف الليل . وضير منه وعليه يعودان الى النصف . وأو هنا للتخيير . وطأً وقيلاً تمييزان . ورب بالرفع خبر مبتدأ مقدر أي هو رب ، وبالجر بدل من ربك .

المعنى :

(يا أيها المزمل) . هذه الآية وما بعدها من أوائل الآيات التي نزلت على الرسول الأعظم (ص) أما أول آية أو أول سورة نزلت عليه فيسأتي الحديث عنها عند تفسيره . اقرأ باسم ربك الذي خلق ، .. وخاطب سبحانه هنا نبيه الكريم بالمزمل لأنه كان آنذاك مشتتلاً بكسائه لسبب من الأسباب ، فخاطبه العلي الأعلى بالصفة التي كان عليها ملاطفة له ، ومن هذا الباب قوله النبي (ص) لعلي : قم يا أبا تراب ، وكان نائماً على التراب ، وقوله لحذيفة اليائي : قم يا نومان وكان نائماً .

(قم الليل الا قليلاً) . دع التلفف يا محمد ، وأحيي الليل في الصلاة والعبادة ما عدا جزءاً قليلاً منه تأوي فيه الى فراشك للنوم والراحة . وبكلام آخر اجمل الليل شطرين : شطراً لربك وآخر لنفسك .. وقال قائل : أراد الله بهذا ان يهيء نبيه الكريم للجهاد الطويل ، والصبر على متاعب الدعوة ، وما يلاقيه من أذى المشركين بسببها ... وهذا مجرد خيال لأن الله سبحانه قد هيا محمداً لأمانته الكبرى بفطرته ومنذ اليوم الأول لولادته .

(نصفه أو انقص منه قليلاً أو زد عليه) قليلاً أيضاً . هذا بيان وتفسير لقوله تعالى : و قم الليل إلا قليلاً ، لأن معناه لك يا محمد أن تقوم لله تمام النصف من الليل ، أو أقل من النصف بقليل أو أكثر منه أيضاً بقليل ، ويتني هذا التفسير على ان «نصفه» بدل من الليل لا من قليل ، ويجوز أن يكون بدلاً من قليل لا من الليل ، وعليه يكون المعنى لك أن تأوي الى فراشك وتستریح تمام

سورة المزمل

النصف من الليل أو أقل منه أو أكثر بقليل .. ولا فرق من حيث المعنى بين الإعرابين لأن البدل هو بدل كل من كل سواء أكان من المستثنى أم من المستثنى منه . واستنتج كثير من المفسرين من كلمة « قليل » في الآية ، استنتجوا ان لا يتجاوز النقص حد الثلث ، والزيادة حد الثلثين ، وعليه يكون التخيير بين النصف والثلث والثلثين ، والآية ٢٠ من هذه السورة نصت على هذه الأوقات الثلاثة .

(ورتل القرآن ترتيلاً) . الخطاب للرسول (ص) والمقصود العموم ، والمعنى تمهل ولا تسرع في التلاوة ، فإن الغرض من قراءة القرآن ان يتدبر القارئ معانيه ومراميه ، وينتفع بأحكامه وعظائمه وبوعده ووعيده ، فيشعر بالخوف من العذاب الأليم على المعصية ، وبالأمل في الثواب الجزيل على الطاعة ، وإلا فإن مجرد حركة اللسان وإخراج الحروف مخارجها - غير مقصود بالذات .

شخصية الرسول الأعظم :

(إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً) . القرآن ثقیل بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، هو ثقیل في إعجازه وخلوده ، وفي عقيدته وشرعيته ، وفي حربه وفضاله ضد الأتقياء المفسدين والظغاة المترفين ، وقال كثير من المفسرين : « القرآن ثقیل لأن تكاليفه شاقة مثل المحافظة على الصلوات الخمس ، والقيام آخر الليل لصلاة الفجر ، والوضوء بالماء البارد مراراً ، والاعتسال به أحياناً ، وكالصوم في أيام الحر ، والقيام للسحور من آخر الليل ، وكالحج ومشتقاته من الاحرام والسعي والطواف » .

وليس من شك ان هذه كبيرة إلا على الخاشعين ، ولكن أكبر منها وأثقل التكليف بالجهاد ، وهو على أنواع ، وأثقل أنواعه الجهاد لتغيير القلوب والمشاعر ، والقضاء على العقائد الفاسدة والتقاليد الموروثية ، واستئصال الفساد من جذوره ، وهذا ما كُلف به أبو القاسم محمد بن عبد الله : فلقد بعث الله سبحانه ليتم مكارم الأخلاق للبشرية كلها ، ويخرج الناس من الظلمات الى النور ، وأي تكليف أثقل وأشق من هذا التكليف ؟ ومن الذي يستطيع أن يغير من أخلاق زوجته وولده بخاصة في عصر الجاهلية أفسد المصور وأكثرها فساداً وطغياناً ؟ ولكن

الجزء التاسع والعشرون

محمدًا تغلب على جميع الصعاب ، وقام بالأمر على أكمل وجه ، أما السر في ذلك فيمكن في شخصية محمد وقوتها وعظمتها ، وفي صبره العجيب على تحمل الأذى في سبيل دعوته ، فكان يزداد صبراً وحلماً كلما ازداد الطغاة في أذاه ، ولا يزيد على قوله : « اللهم اغفر لقومي أنهم لا يعلمون .. ان لم يكن بك غضب علي فلا أبالي » .

وهذا نجد التفسير الصحيح لقوله تعالى : « الله أعلم حيث يجعل رسالته ١٢٤ الانعام » . أجل ، الله يعلم ان شخصية محمد أقوى من العقائد والتقاليد ومن الناس مجتبعين ، ولولا علمه بذلك لما بعث محمدًا ليتمم للبشرية مكارم الأخلاق : « لا يكلف الله نفساً الا ما آتاها - ٧ الطلاق » . وقد أدرك الأديب العالمي الشهير « برنارد شو » هذه الحقيقة حيث قال : لو كان محمد بن عبدالله في القرن العشرين لفضى على ما فيه من فساد وضلال .

(ان ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قبلاً) كأن سائلاً يسأل : لماذا أمر الله نبيه الكريم أن يتعب في شطر من الليل ؟ فأجاب سبحانه : لأن قيام الانسان من مضجعه بعد هدأة من الليل يشق كشيء على النفس ، وأفضل الأعمال أشقها ، ولأن قلب الانسان في الليل أصفى وأهدأ ، فتكون تلاوته للقرآن أصوب وأثبت ، وأيضاً يكون أكثر تجاوباً مع ما يتلوه من الآيات . وقيل : المراد بالوطأ هنا المواطأة والموافقة بين القلب واللسان (ان لك في النهار سبجاً طويلاً) . الليل للعبادة والتهجد ، والنهار للعمل والسعي في طلب العيش ، وهو طويل يتسع لكل ما يحتاجه الانسان من أعمال .

وقال الشيخ عبد القادر المغربي عند تفسير هذه الآية : « قد يعترض معترض بأن قيام الليل يضعف الجسم عن المقاومة والمكافحة . وقد أجاب سيدنا علي (رض) عن ذلك بقوله : « وكأني بقائلكم يقول : اذا كان هذا حال علي بن أبي طالب - أي التخشن والتهجد - فقد قعد به الضعف عن قتال الأقران ومنازلة الشجعان ألا وان الشجرة البرية أصلب عوداً والروائح الخضرة أرق جلوداً ، والنباتات البدوية أقوى وقوداً وأبطأ خوداً ، وأنا ورسول الله كالصنو من الصنو ، والنراع من العصد . أي انه هو وسيدنا رسول الله (ص) من أصل واحد في العمل والطريقة

سورة الزمل

وأسلوب المعيشة ، فيكون في حالته كما كان سيدنا الرسول شديد البأس قوي
الفرجة ، وان كان خشن المعيشة .

(واذكر اسم ربك وتبتل ايه تبتلاً) . المراد بذكر الله هنا الدعوة اليه
تعالى ، والتبتل مأخوذ من التبتل ، وهو القطع مثل التبتل ، ويستعمل التبتل في
الانصراف عن الدنيا ، ومنه التبتل لقب السيدة مريم ، والمعنى بعد أن نجي
يا محمد شطراً من الليل في العبادة ، وتسترخ في شطر منه - ادعُ دعوة الحق
وجاهد في سبيلها لوجه الله وحده .. وكأن الله سبحانه يُعلم نبيّه الكريم ان يجعل
وقته ثلاثة أقسام : الأول للعبادة ، والثاني للجهاد ، والثالث للراحة كي يستمر
في عبادته وجهاده (رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً) . الملك
في المشارق والمغرب وفي السموات والأرض لله وحده لا شريك له ، واذا كان
الخلق كله لله وجب على العبد أن يعتمد على الله ، ولا يلجأ الى أحد سواه ،
وفيه إيماء الى ان الخلق يدل على وجود الخالق ، وان خضوع المخلوقات بكاملها
لنواميس طبيعية ثابتة يدل دلالة واضحة على ان الخالق واحد في ذاته وصفاته .

واهجرهم هجرأ جميلاً الآية ١٠ - ١٩ :

وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا * وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ
أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهْلُومٍ قَلِيلًا * إِنَّا لَدَيْنَا أَنْكَالٌ وَجَجِيَاءُ * وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ
وَعَذَابًا أَلِيمًا * يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا
مَّيِيلًا * إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ
رَسُولًا * فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيَلًا * فَكَيْفَ
تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا * السَّمَاءُ مُنْفِطِرَةٌ بِهِ كَانَتْ
وَعْدُهُ مَفْعُولًا * إِن هَذِهِ تَذْكَرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا *

اللغة :

المجر الجميل ان لا تتعرض لحصك بشيء ، وان تعرض لك تجاهلت .
وأنكالا جمع نكل وهو القيد الثقيل . ذا غصة يأخذ بالحلقوم فلا يدخل ولا
يخرج . والكثيب الرمل المتجمع ، والمهيل هو الذي لا ثبات له فإذا تحرك أسفه
سال أعلاه . والوبيل الثقيل . ومنفطر منصدع، وفي كتب اللغة ان العرب يذكرون
السماء في بعض أقوالهم لأنها في معنى السقف .

الإعراب :

والمكذبين عطف على الباء في ذرني أو مفعول معه . وأولي النعمة صفة
للمكذبين . وقليلاً أي زماناً قليلاً . ويوماً مفعول به لتتقون على حذف مضاف أي
عذاب يوم . والسماء مبتدأ ومنفطر خبر على ان يراد من السماء السقف ، وضمير
به يعود الى يوم ، والباء هنا بمعنى في .

المعنى :

(واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً) . تقول أعداء الله على
رسوله محمد (ص) الأقاويل ، فأمره الله بالصبر وعدم التعرض لهم بشيء .. وكان
ذلك في أول البعثة حيث كان المسلمون قلة ، والكفار كثرة ، حتى اذا كانت
الهجرة ، وأصبح للمسلمين قوة رادعة - أذن الله لهم بالقتال لحماية المظلومين من
الظالمين . وتقدم مثله في العديد من الآيات ، منها الآية ١٩٩ من سورة الأعراف
(وذرني والمكذبين اولي النعمة ومهلهم قليلاً) . بعد أن قال سبحانه لنيه
الكريم : دع الذين كذبوك ووصفوك بالساحر والمجنون والشاعر ، بعد هذا قال
له : دعني وهؤلاء الذين أطغاهم المال وأعماهم عن كل شيء إلا عن ترفهم
وملذاتهم ، دعني وإياهم ، ولا تهتم بهم فيما قريب بحيث بهم العذاب والملاك .
(ان لدينا أنكالاً وجحياً وطعاماً ذا غصة وعذاباً ألياً) . هذا ما أعصده
الله لهم : قيود وأغلال ، ونار وقودها الناس والحجارة ، وطعام كالشوك لا يخرج

سورة المزل

من الحلق ولا يتزل الى الجوف ، وألوان أخرى من العذاب كسراييل من قطران ومقامع من حديد (يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيباً مهيلاً) . هذا وصف ليوم القيامة وأهواله ، منها اهتزاز الأرض بأهلها ، وتحويل الجبال الى تلال من رمل تنهار وتزول لأضعف الأسباب .

(انا أرسلنا اليكم رسولا شاهداً عليكم) . الخطاب في اليك للمكذبين أولي النعمة ، والمراد بالرسول والشاهد محمد (ص) كما في الآية ٤١ من سورة النساء : « وجئنا بك على هؤلاء شهيداً » أي ان محمداً (ص) يشهد عليهم انه قد أبلغهم رسالات ربهم فكذبوا وأعرضوا (كما أرسلنا الى فرعون رسولا فحصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً ويلاً) . ضرب سبحانه فرعون مثلاً لأولي النعمة الذين كذبوا محمداً (ص) وبيّن لهم ان حالهم مع رسول الله تماماً كحال قوم فرعون مع موسى ، وحذرهم ، جلت عظمتهم ، اذا هم أصروا على الضلال أن يصيبهم ما أصاب فرعون وقومه من الهلاك والعذاب الأليم دنياً وآخرة .

(فكيف تتقون ان كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً السماء منفطر به كان وعده مفعولاً) . ان كفرتم أي ان بقيتم على الكفر ، وضمير به يعود الى اليوم ، وضمير وعده الى الله تعالى المفهوم من سياق الكلام ، والمعنى بأية وسيلة أيها الطغاة تنجون من العذاب الأكبر في يوم تنفطر فيه السماء ، وتشيب الأطفال من أهواله ، وهذا اليوم آت لا ريب فيه لأن الله لا يخلف الميعاد . وتجدر الاشارة الى ان شيب الأطفال كناية عما يصيب المجرمين من الذعر والرعب لأن الأطفال لا يحاسبون ولا يؤاخذون .

(ان هذه تذكرة فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلاً) . « هذه » اشارة الى ما سبق من آيات الانذار والوعيد ، والتذكرة العبرة والعظة ، والمعنى ان الله سبحانه يبين طريقي الشر والخير ، وأمر بهذا ووعد عليه بالثواب ، ونهى عن ذلك وتوعد عليه بالعقاب ، وكل امرئ وما اختار لنفسه من النعم والجحيم .

فاقرأوا ما نيسر من القرآن الآية ٢٠ :

إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَافِقَةً

مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُعَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَقَارِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تَقَدَّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ *

اللفظة :

الأدنى معناه الأقرب والمراد به هنا الأقل لأن الأقرب أقل مسافة من الأبعد. ويقدر الليل والنهار أي يجعل لكل منها قدراً معيناً وحداً محدوداً . والمراد بالتوبة هنا الترخيص وعدم الأثم .

الإعراب :

أدنى صفة لموصوف مقدر أي زماناً أدنى . ونصفه وثله بالنصب عطفاً على أدنى . وطائفة بالرفع عطفاً على ضمير تقوم . والليل مفعول به . وان لن وان، مخففة واسمها ضمير الشأن محذوف ، ومثلها ان سيكون . وآخرون عطف على مريض . وخيراً مفعول ثانٍ لتجدوه . و «هو» فصل . وأجراً تمييز .

المعنى :

(ان ربك يعلم انك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثله وطائفة من الذين معك) . في أول هذه السورة أمر سبحانه نبيه الكريم ومن معه أن يتبعوا ثلثي

سورة المزمل

الليل أو نصفه أو ثلثه على سبيل التخيير ، فسمعوا وأطاعوا، وكان بعض الصحابة يتعذر أو يتصر عليهم تحديد هذه الأوقات وضبطها ، فيقومون الليل كله أو جله حتى نُقل ان بعضهم تورمت أقدامهم من القيام الطويل احتياطاً لدينهم وحرصاً على مرضاة ربهم .. وفي الآية التي نحن بصدها أخبر سبحانه النبي بأنه ومن معه من المؤمنين قد أطاعوا الله وبلغوا الغاية من عبادته ، وانه تعالى مجازيهم أفضل الجزاء وأكمله .

(والله يقدر الليل والنهار علم ان لن تحصوه فتاب عليكم فاقرأوا ما تيسر من القرآن) . لن تحصوه أي تعجزون عن ضبط الوقت ، وهو ثلثا الليل ونصفه وثلثه ، والمراد بتاب عليكم رفع التكليف عنكم ، والمعنى ان الله سبحانه جعل لكل من الليل والنهار قدراً معيناً وحداً معلوماً ، ولكن الصحابة لا يعرفون الأوقات محدودةا وإنما يعتمدون على الظن والاجتهاد حيث لا ساعات آنذاك تشير عقاربها الى الدقائق والثواني ، لذلك ودفعا للحرج والمشقة أغفاهم سبحانه من القيام ثلثي الليل أو نصفه أو ثلثه ، على ان يقرأوا ما تيسر وأمكن من القرآن الكريم . ونقل صاحب مجمع البيان عن أكثر المفسرين : ان المراد بما تيسر من القرآن هنا صلاة الليل ، وسواء أكان المراد التلاوة أم صلاة الليل فإن الأمر هنا للندب لا للوجوب ، وتجدر الاشارة الى ان صلاة الليل إحدى عشرة ركعة ، ووقتها بعد نصف الليل . (علم ان سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله) . هذه حكمة ثانية للتخفيف ورفع التكليف بالقيام ثلثي الليل أو نصفه أو ثلثه ، وهي ان من العباد مرضى يتعذر عليهم ان يقضوا ساعات من الليل في الصلاة والتهجد ، ومنهم أيضاً المسافرون لطلب العيش وغيره من الأمور الضرورية ، والسفر يستدعي النوم والراحة في الليل وإلا تعذر العمل في النهار على المسافر ، ومنهم أيضاً الغازون في سبيل الله، فإذا أحيوا الليل أو شطراً منه في العبادة ضعفوا عن القتال في النهار ، فحفف سبحانه عن الكل لأجل هؤلاء الأصناف الثلاثة . وتومىء الآية الى أمرين هامين : الأول ان الحكمة من نفي التكليف عن العموم لا يفترض فيها عجز جميع الأفراد عن الطاعة والامتثال ، بل يكفي عجز البعض، وان قدر البعض الآخر . الأمر الثاني ان العمل من أجل الرزق الحلال جهاد في سبيل الله تماماً كالجهد في قتال أعدائه وأعداء الانسانية .

الجزء التاسع والعشرون

(فافقرأوا ما تيسر منه) . ككرر سبحانه ههنا الأمر لتكرار سببه فقد كان السبب الأول علم ضبط الوقت وإحصائه ، أما السبب الثاني فهو المرض والسفر والغزو (وأقيموا الصلاة) أي الصلوات الخمس ، وهي لا تسقط بمحال ، لا في سفر ولا حضر ، ولا في جهاد أو مرض، ويؤديها كل حسب طاقته (وآتوا الزكاة) المفروضة في أموالكم (وأقرضوا الله قرضاً حسناً) . وأيضاً أنفقوا تطوعاً في وجوه البر والاحسان ، فإن هذا الانفاق يعود عليكم أضعافاً مضاعفة. وقد تكرر هذا الأمر للمرة السابعة حتى الآن ، وجاءت المرة الأولى في الآية ٢٤٥ من سورة البقرة (وما تقدموا لأنفسكم من خير تجلوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً) . ان الخير لا يختص ببذل المال ، فكل ما فيه صلاح للناس ولعامل الخير فهو خير سواء أكان قولاً أم فعلاً .. ومن عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها (واستغفروا الله ان الله غفور رحيم) . من قصر وفرط في جنب الله فقد فتح له باب التوبة، ومستحيل ان يُخلق دونه باب المخفرة .

سورة المدثر

٥٦ آية مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يا ايها المدثر الآية ١ - ١٠ :

يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ *
وَيَا بَابِكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ
فَاهْجُرْ * وَلَا تَمَنَّ أَنْ تَنْتَكِرْ *
وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ * فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ *
فَذَلِكِ يَوْمِئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ *
عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ *

الغنة :

المدثر مثل المزمّل وهو الذي اشتمل بشيابه . وكل محرّم فهو رجز وقيل :
المراد به هنا الأصنام . والمن ذكر النعمة بما يكدرها . ومعنى تستكّر تطلب الكثير
والمراد هنا لا تستكّر ما أعطيت وبذلت . والناقور اسم الآلة التي ينقر بها أو عليها .

الإعراب :

ربك مفعول مقدم لكبّر ، ومثله ثيابك والرجز ، ودخلت الفاء على الفعل
لأن الكلام يتضمن معنى الشرط فكأنه قال : مها يكن فكبّر الخ . وجملة تستكّر

الجزء التاسع والعشرون

حال أي لا تمنن مستكراً . فلنك مبتدأ، ويومئذ بدل منه ، ويوم غير خبر، وعلى الكافرين متعلق بعير ، وغير يسير خبر ثانٍ مؤكّد للخبر الأول .

المعنى :

في هذه الآيات إشارة الى وظيفة محمد (ص) كرَسُول من الحق الى الخلق ، وفيها أيضاً إشارة الى ان جميع الناس سواء أمام الله تعالى ، وإليك التوضيح :

(يا أيها المدثر) هو الرسول الأعظم (ص) وقد خاطبه الجليل بهذا الوصف لأنه كان آنذاك مشتملاً بشيابه لسبب من الأسباب كما قلنا عند قوله تعالى : « يا أيها المزمل » . (قم فأنذر) . قد يكون للكلمة الواحدة معنى لغوي واحد ، ولكن هذا المعنى الواحد كثيراً ما يختلف باختلاف كالم والمخاطب - مثلاً - كلمة « انذر » معناها في قواميس اللغة حذّر وخوف ، فإذا قال قائل : رأيت شخصاً يضع لغماً في الطريق ، وقلت له : « انذر » فان معنى قولك هذا: أعلن وخوف المارة من اللغم ، وإذا قلت : أنذر لفتية في قرية فالعنى علم أهلها أحكام الدين وخوفهم من مخالفتها ، أما قول العلي الأعلى لنيبه الكريم : « قم فأنذر » فان معناه : تحذّر الطغاة وتلقّ منهم الضربات .. معناه جابه بكلمة الحق الأقوياء وأهل الكبر والخيلاء ، وقل لهم : أنتم الضالون المفسدون ، وستعلمون ما يحلّ بكم من العزّي والهوان إذا لم تؤوبوا الى رشدكم ، وترجعوا عن غيركم ، قل لهم هذا وأكثر، واصبر على ما يصيبك منهم وسبح بحمد ربك واشكره أيضاً .

وإذا علمنا ان محمداً (ص) تحدى قريشاً ، وهم في أعلى ذروة من القوة ونفوذ الكلمة ، وهو أعزل من كل شيء إلا من الإيمان والاخلاص ، إذا علمنا ذلك تبين لنا ما أصابه منهم .. لقد وصفوه بالساحر والكاذب والشاعر بسل والمجنون أيضاً .. وأغروا به الأطفال يسخرون منه ويرشقونه بالحجارة ، وأغروا به النساء يضمن الشوك في طريقه، والسفهاء يلقون عليه القذارات والنجاسات حتى ان أحدهم نزع عمامة الرسول عن رأسه ، وشدها في عنقه . وفوق ذلك كله قررت قريش نبذ محمد وذويه وسجنهم في الشعب وحرمانهم من كل علاقة مع المجتمع ، ولما

سورة المدثر

أصر النبي (ص) على دعوته بالرغم مما لاقاه وقاساه حزبت قريش ضده الأجزاب ، وجيشت الجيوش لحربه .. فتحمل وثبت وصبر واحتسب تلبية لقوله تعالى :
« يا أيها المدثر قم فانذر » .

وبهذا يتضح ان وظيفة الرسول هي الانذار مع الصبر على متاعبه وأهواله ، هذا هو الأمر الأول ، أما الثاني أعني المساواة بين الناس أجمعين فيدل عليها قوله تعالى : (وربك فكبر) . اذا قلت لانسان عادي : كبر الله ، فهمنا من قولك هذا انك ترغب اليه أن يقول : «الله أكبر» تماماً كما لو قلت له : صل على محمد ، أما قوله تعالى لنبيه الكريم : « وربك فكبر » بعد قوله : «قم فانذره» فإن له معنى آخر أكبر وأصخم، وهو اصرخ يا محمد في وجوه الجبابرة المتكبرين المتعاليين ، اصرخ بهم : ان العزة لله جميعاً ، وانه وحده الكبير المتعالي ، وان القوة والعظمة والسلطان للواحد الأحد لا شريك له من آفتكم ولا منكم ولا من غيركم ، وان الناس كلهم متساوون في العبودية لله ، لا فرق بين اسود وابيض ، ولا بين غني وفقير .. واستجاب محمد لدعوة ربه ، وقال للطفة فيما قال : «انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون - ٩٨ الأنبياء » .

(وثيابك فطهر) . وهذا أيضاً من متعلقات الدعوة والانذار .. وليس من شك ان نظافة البدن والثياب من الايمان ، ولكن المعنى المراد هنا أعم وأشمل ، وهو ان يدعو الرسول الأعظم (ص) الى طهارة الظاهر من الأقدار ، والباطن من القبايح والردائل كالغدر والخيانة ، والرياء والفتاق ، والجهل والغرور ، وما الى ذلك من الذنوب والآثام .. وانما عبر سبحانه عن ذلك بتطهير الثياب جرياً على عادة العرب ، فيقولون : فلان طاهر الذيل والاردان ، وهم يريدون طهارة القلب والذات .

(والرجز فاهجر) . قيل : المراد بالرجز كل قبيح ، وعليه يكون تفسيراً وتوضيحاً لقوله : « وثيابك فطهر » على ما ذكرناه من التفسير . وقيل : المراد به الشرك وعبادة الأوثان (ولا تمنن تستكثر) . لك يا محمد حسنات كثيرة ، وفضل كبير على الناس ، ولكن لا تمنن بملكك على أحد ، فقدر في نفسك انك أعطيت كثيراً ، وتقول : أنا فعلت وفضلت ، فإن كل ما تبدله وتضحى به

الجزء التاسع والعشرون

هو فضل عليك من الله ، وكرامة خصك بها ، وأي فضل وكرامة أعظم من التوفيق الى عمل الخير ؟ . وسبق أكثر من مرة ان انتهى بصرح حتى ولو لم يكن المخاطب به عازماً على فعل المنهي عنه ، بالاضافة الى ان أوامر الله ونواهيه نعم جميع عباده حتى المتقين .. وفي نهج البلاغة : لا يستقيم قضاء الحوائج إلا بثلاث : باستصغارها لتعظم ، وباستكثامها لتظهر ، وبتمجيلها لتتهنؤ .

(ولربك فاصبر) . وما أمر الله نبيه الكسريم بشيء من تكاليف الدعوة والنبوة إلا وقرن ذلك بالأمر بالصبر - على ما قيل - لعلمه تعالى بأنه سيلاني الأذى المرير من التمردين والمعاندين (فإذا نقر في الناقور فلنك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير) فإذا نقر في الناقور مثل : « فإذا نفخ في الصور - ١٠١ المؤمنون ، ج ٥ ص ٣٩٠ ، وذلك اشارة الى يوم القيامة المفهوم من سياق الكلام .. بعد أن أمر سبحانه نبيه الكسريم بالصبر على أذى المكذبين هددهم بيوم القيامة ، وهو عليهم شديد وعسير لا يسر معه ولا بعده . وسبق الكلام في عشرات الآيات عما أهد الله في هلا اليوم للمجرمين من طعام وشراب ، وأليم العذاب

ذري ومن خلقت وحيداً الآية ١١ - ٣١ :

ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا * وَبَيْنَ شُهُودًا *
وَمَهْنَتٌ لَهُ تَمْسِيدًا * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا *
سَأَرَّهُنَّ صَعُودًا * إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قَبَلَ كَيْفَ
قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقالَ إِنَّ
هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ * إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ * سَأَصْلِيهِ سَقَرًا * وَمَا
أَذْرَاكَ مَا سَقَرُهُ * لَا يُبْقِي وَلَا تَذَرُهُ * لَوَاحٍ لِلْبَشَرِ * عَلَيَّهَا نَسْفَةٌ

سورة المدثر

عَشْرَ * وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا
فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزِدَّادَ الَّذِينَ آمَنُوا
إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَيَقُولَ الَّذِينَ فِي
قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ
مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا
ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ *

اللغة:

ملاّ ممدوداً أي كثيراً . وبين شهوداً حضوراً معه غير غائبين عنه . ومهدت له بسطت له في الجاه والمال . وسأرهقه صموداً كناية عن شدة العذاب . وقدر هياً ما يريد . وقتل لعن . وبسر ظهرت الكراهية على وجهه . ويؤثر بـروي ويُنقل . سأصليه سقر أدخله في جهنم . وعدتهم عددهم . والفتنة الاختبار والامتحان . والذين في قلوبهم مرض المنافقون .

الإعراب :

وحيداً حال من مفعول ذرني . والمصدر من ان أزيد مجرور بفي مقدرة أي يطمع في الزيادة . وصموداً مفعول ثانٍ لأسرهقه . وكيف في موضع المفعول المطلق لأن المعنى أي تقدير قدر . وإن هنا « ان » نافية . وما أدراك مبتدأ وخبر . ومثله ما سقر . وعليها خبر مقدم وتسعة عشر مبتدأ مؤخر وبُني على الفتح لمكان التركيب ، والتمييز محذوف أي تسعة عشر ملكاً أو صنفاً من الملائكة .

ملخص القصة :

كان الوليد بن المغيرة المخزومي من عتاة قريش وصناديدهم، وأكثرهم أموالاً وأولاداً ، وفي ذات يوم سمع رسول الله يقرأ آياً من القرآن الكريم ، فقال : ما هذا من كلام الانس ولا من كلام الجن ، والله ان له حلاوة ، وان عليه لطاوة ، وان أعلاه لمشر ، وان أسفله لمغلق ، وانه يعلم ولا يعلم عليه، فخافت قريش ان ينتشر قول الوليد فيؤمن الناس بمحمد (ص) فألحوا على الوليد ان ينال من مقام الرسول ، فأجابهم : وماذا أقول عنه ؟ هل أقول : مجنون ؟ ومن يصدق ؟ أم أقول : كاهن وما تكهن قط ، أم أقول : شاعر ، وما نطق بالشعر ، أم كاذب وما جرب عليه أحد شيئاً من الكذب .. ثم فكّر ملياً فلاح له أن يصف الرسول بالساحر ، وانه أخذ القرآن عن الكهنة والسحرة .

المعنى :

(ذرني ومن خلقت وحيداً) الخطاب لرسول الله (ص) والمراد به تهديد الوليد بن المغيرة بإجماع المفسرين ، والمعنى دعني واياہ يا محمد ولا تهتم بشأنه ، ولا بما يفترني به عليك فأنا وحسدي أتولى حربه والانتقام منه بأنواع العذاب والتنكيل .. لقد غضب سبحانه على الوليد ، وبلغ هذا الغضب أشده لأنه طغى وبغى ، وكفر بنعمة الله ، وأعرض عن الحق واستعلى عليه وعلى أهله .. وكل من عاند الحق فهو مقصود بهذا الغضب والتهديد تماماً كالوليد بن المغيرة لأن الوصف يُشعر بالعلية كما يقول أهل الأصول ، ولأن سبب النزول لا يخص عموم الآية ولا يتصرف في دلالتها كما أشرنا أكثر من مرة .

ويومئذ قوله تعالى : (وجعلت له مالاّ ممدوداً) الى ان السبب الموجب والدافع على البغي والعدوان هو الثراء وكثرة المال ، والى هذه الحقيقة يشير العديد من الآيات ، منها قوله تعالى : « وذرني والمكذبين اولي النعمة - ١١ المزمل » وقوله حكاية عن طاغ يفخر على أحد الصالحين : « أنا أكثر منك مالاّ - ٣٤ الكهف » وكفى شاهداً على ذلك قوله ، عز من قائل : « ان الانسان ليطغى

سورة المدثر

ان رآه استغنى - ٦ العلق ، .. واستناداً الى هذه الآيات وما اليها يمكن أن يقال - ولو من وجهة صناعية - : ان الأصل في كل غني أن يكون طاعياً حتى يثبت العكس ، وفي نهج البلاغة : ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء طلباً لما عند الله ، وأحسن منه تبه الفقراء على الأغنياء انكالاً على الله . وفي الحديث : طوبى لمن أسلم وكان عيشه كفافاً.. اللهم ارزق محمداً وآل محمد ومن أحب محمداً وآل محمد العفاف والكفاف .

(وبين شهوداً) حاضرين معه يتسابقون الى خدمته (ومهدت له تمهيداً) . سرت له سبيل الجاه والمال ، يتقلب في النعم كيف يشاء . وهذه المناسبة تشير الى ان نعم الدنيا لا تدل على مرضاة الله ، قال سبحانه : « إنما الحياة الدنيا لهُو ولعب » . والى ما جاء في الحديث « لو كانت الدنيا تعدل عند الله من الخير جناح بعوضة ما سقى فيها الكافر شربة ماء » . وقد عرضت على رسول الله خير خلق الله فابى أن يقبلها . أما الوليد بن المغيرة شر خلق الله فقد كثر ماله وامتد (ثم بطمح أن أزيد) أي الله في ماله ليزداد بغياً وعدواناً .. ومستحيل أن يجتمع الصلاح والطمع في قلب واحد، قال رسول الله (ص) : الطمع مفتاح كل معصية، ورأس كل خطيئة ، وسبب لاجباط كل حسنة .

(كلا انه كان لآياتنا عنيداً) . إخصاً أي المحمود الخؤون .. أنتطمح في الله وأنت تعاند الحق ، وتصد عنه ، وتعلن الحرب على أهله !.. قال الرواة : ما نزلت هذه الآية حتى تبدل عز الوليد الى ذل ، وغناه الى فقر ، ومات على أسوأ حال .. وصدق من قال : ما قال الناس لشيء طوبى له إلا وقد خبا له الدهر يوم سوء .. هذا في الدنيا ، أما جزاؤه في الآخرة فترسمه هذه الآية (سأرقمه صعوداً) . ويأتي الصعود بمعنى الشدة والمشقة ، وأيضاً يأتي بمعنى الارتقاء والزيادة ، وسياق الكلام يدل على المعنيين معاً ، وان العذاب يزداد كما وكيفاً أنا بعد أن .

(انه فكر وقدر) . فكر في أمر القرآن ، وأجال فيه رأيه ، وهما له قول الزور والافتراء ، وهو ان القرآن سحر يؤثر كما يأتي (فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر) . لئن ثم لئن في تفكيره وتقديره وأقواله وأفعاله وجميع مقاصده..

الجزء التاسع العشرون

ولا شيء أبلغ من تكرار اللعن على أهل البني والعدوان (ثم نظر) بعد ان فكر وقدر رفع بصره الى عتاة قريش (ثم عيس) قطب حاجبيه (وبسر) كلسح وجهه وتغير لونه (ثم أدبر واستكبر) . أيقن وهو يفكر أن القرآن حق لا ريب فيه ، ومع هذا أعرض عن الحق واستمل عليه (فقال إن هذا الا سحر يؤثر ان هذا إلا قول البشر) أخذه محمد عن السحرة والكهنة .. وتدلنا هذه الصورة التي رسمها القرآن للوليد ، وهي تفكيره وتقديره وعبوسه وبسوره ، تدلنا انه كان تائهاً حائراً فيما يدبر من الكذب والباطل لما يعتقده حقاً وصدقاً .

(سأصليه سقر) ضمير أصليه يعود الى الوليد ، وسقر من أسماء جهنم (وما أدراك ما سقر) . فانها بلغت من الهول حداً يفوق التصور ، من ذلك انها (لا تُبقي) على أحد من المجرمين (ولا تذر) لونهاً من ألوان العذاب إلا أنزلته بهم (لوأحة للبشر) . البشر هنا جمع بشرة ، وهي ظاهر جلد الانسان، ومعنى لوأحة في الأصل مفيرة ، والمراد بها هنا النضوج لقوله تعالى : « كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها - ٥٦ النساء » .

(عليها تسعة عشر) . ضمير عليها يعود الى سقر ، والتسعة عشر خزنة جهنم ، وهل المراد تسعة عشر فرداً أو نوعاً أو قائداً ؟ . الله أعلم . ويروي ان أبا جهل قال لقريش : ثكلتكم امهاتكم ، أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا بواحد من هؤلاء التسعة عشر ؟ فقال رجل يدعى أبو المشد : أنا أكفيكم سبعة عشر ، فاكفوني اثنين فقط . قال هذا ساخرأ كما سخر أبو جهل .

(وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة) . ليس الخزنة من نوع البشر .. انهم ملائكة شداد غلاظ ، لا يقوى عليهم إلا الواحد القهار الذي خلق كل شيء . وكان سائلاً يسأل : ما هو القصد من ذكر العدد مع انه يفتح باب التضميل والسخرية للمجاهدين ؟ فأجاب سبحانه بأن لذكره فوائد ثلاثاً :

١ - (وما جعلنا عدنهم إلا فتنة للذين كفروا) . أجل ، ان الله يعلم ان المشركين متى سمعوا العدد ضحكوا واستهزأوا ومع هذا ذكره إظهاراً للحق لأن الحق يجب أن يملن ويقال حتى ولو كان من نتائجه سخرية الساعرين .. وبكلام آخر ان الله سبحانه يختبر عباده ، وهو أعلم بهم من أنفسهم ، يختبرهم بالسراء

سورة المدثر

والضراء ، وأيضاً بقول الحق لتظهر أفعالهم التي يستحقون بها الثواب والعقاب ، وقد أظهر ذكرُ العددِ المشركين على حقيقتهم من الاستخفاف بالغيب فاستحقوا غضب الله وعذابه كما أظهر المؤمنون حقيقتهم كذلك فاستحقوا مرضاة الله وثوابه، وتأتي الإشارة إليهم .. هذا ، الى ان اعلان الرسول لكلمة الحق غير مكترث بما يلاقه ويقاسيه من أجلها - دليل قاطع على انه لا ينتهي من ورائها إلا لإحقاق الحق وإبطال الباطل .

٢ - (ليستيقن الذين أوتوا الكتاب) . لقد شهد علماء اليهود والنصارى آنذاك شهادة ايمان وايقان ان عدة الخزنة تسعة عشر لأنه موافق لما قرأوه في التوراة والانجيل .

٣ - (ويزداد الذين آمنوا ايماناً) . الوحي بالغيب يزيد الكافر جحوداً وتمرداً ، والمؤمنين ايماناً وتسليماً . وقيل : ان المؤمنين يزدادون يقيناً اذا أنحبرهم أهل الكتاب بأن العدد موجود في كتبهم .. والصواب ان كل آية من آياته تعالى تزيد المؤمنين يقيناً بالله ورسوله سواء اعترف أهل الكتاب أم جحدوا .. أجل ، ان اعترفهم حجة على الجاحدين .

(ولا يرتاب الذين اوتوا الكتاب والمؤمنون) . هذا توضيح وتأکید لما قبله لأن عدم الارتياب هو الاستيقان وزيادة الايمان (ويقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً) . وأيضاً هذا توضيح وتأکید لقوله تعالى : « وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا » مع التصريح بذكر صنف من الكافرين وهم المنافقون الذين في قلوبهم مرض . وتقدم مثله في الآية ٢٦ من سورة البقرة . (كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء) . من سلك طريق الضلال أضله الله : « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم - ٥ الصف » . « في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً - ١٠ البقرة » ومن سلك طريق الهدى هداه الله : « والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم - ١٧ محمد » . وتقدم مثله في العديد من الآيات منها الآية ٨ من سورة فاطر (وما يعلم جنود ربك الا هو) جنود الله لا تنحصر بالتسعة عشر من الخزنة ولا بغيرهم ، فجميع الخلائق طوع ارادته حتى الوحوش والحشرات والطيور والرياح والزلازل والظوفان وما الى ذلك مما

لا يحيط به علماً إلا مبدئ الخلق ومعيله (وما هي إلا ذكرى للبشر) . ضمير هي يعود إلى سفر، وقد خلقها سبحانه وخوف منها لتقي معاصي الله في السر والعلانية .

وكنا نخوض مع الخالضين الآية ٣٢ - ٥٦ :

كَلَّا وَالْقَمَرَ * وَاللَّيْلَ إِذْ أَدْبَرَ * وَالصُّبْحَ إِذَا أَسْفَرَ * إِنَّهَا لِإِحْدَى
الْكُبْرَى * نَذِيرًا لِلْبَشَرِ * لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ * كُلُّ
نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ * فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ *
عَنِ الْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ *
وَلَمْ نَكُ نَطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ
بِیَوْمِ الدِّينِ * حَتَّى آتَانَا الْيَقِينَ * فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ * فَمَا لَهُمْ
عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ * كَانَتْهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ * فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ *
بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنشَرَةً * كَلَّا بَلْ لَا
يَخَافُونَ الْآخِرَةَ * كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ * وَمَا يَذْكُرُونَ
إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ *

اللفظ :

أسفر أضاء وأشرق . والكبر بضم الكاف جمع الكبرى والمراد بها هنا الضوية العظمى . والنخوض في الشيء اللخول فيه ، والمراد هنا الاكثار من كلام لاخير فيه . والمراد باليقين هنا الموت . وحرر بضمين جمع حمار والمراد به هنا حمار

سورة المدثر

الوحش . ومستفزة نافرة . والقسورة الأمد ، وقيل : المراد هنا الصيادون .
وأهل التقوى أي أهل لأن نتقيته ونخافه .

الإعراب :

كلا حرف ردع . والقمر الواو للقسم . والليل والصبح عطف على القمر
وجملة أنها لاحدى الكبر جواب القسم . ونذيراً قال البيضاوي : هو تمييز أي
لاحدى الكبر اندازاً ، أو حال مما دلت عليه الجملة أي كبرت منكرة . ولن
شاء بدل من لبشر بإعادة حرف الجر . والمصدر من ان يتقدم مفعول شاء أي
شاء التقدم أو التأخر . الا أصحاب اليمين استثناء منقطع . ومعرضين حال من
الضمير في لهم . والمصدر من أن يؤتى مفعول يريد ، وصحفاً مفعول ثانٍ ليؤتى .
والضمير في أنه للقرآن المفهوم من سياق الكلام .

المعنى :

(كلا) . كفوا أي المشركون عن اللعب بالنار والاستهزاء بها وبمخزنتها (والقمر
والليل إذ أدبر والصبح إذا اسفر - أي أضواء - أنها لاحدى الكبر) . بعد ان
زجر سبحانه الجاحدين أقسم بالقمر والليل والنهار ان النار حق لا ريب فيه ،
وأنها العذاب الذي لا عذاب فوقه ولا مثله .. وفي القسم بهذه الكائنات إيماء الى
ان ذوي البصائر يستدلون بما فيها من بديع الصنع على وجود الصانع ، وان من
أوجدها من لا شيء قادر على ان يحجب العظام وهي رميم (نذيراً للبشر لمن شاء
منكم أن يتقدم أو يتأخر) . حذر سبحانه العباد من النار ودلتهم على طريقها ،
وقال لهم : اختاروا لأنفسكم الإقدام عليها أو البعد عنها ، وقد أعذر من أنذر .
(كل نفس بما كسبت رهينة) . هذا تعليل لقوله تعالى : « لمن شاء منكم
أن يتقدم أو يتأخر » والمعنى اختاروا لأنفسكم ، فأنتم مرتبون بما أسلفتم ، ومدينون
بما قلتم ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، وتقدم مثله في الآية ٤٤ من سورة
الروم (إلا أصحاب اليمين) . يعبر القرآن عن المتقين بأصحاب اليمين والممننة ،

الجزء التاسع والعشرون

وعن المجرمين بأصحاب الشمال والمثامة . أنظر الآية ٩ و ٣٨ و ٤١ من سورة الواقعة . والمعنى ما من انسان إلا ونفسه أسيرة عمله إلا أهل التقوى والصلاح ، فلهم قد وفوا ديونهم وفكروا نفوسهم من الأسر بصالح الأعمال ، فجزاهم ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار .

(في جنات يتساءلون عن المجرمين ما سلككم في سقر) . بعد أن تطمئن الدار بأهل الجنة يسأل بعضهم بعضاً : أين المجرمون الذين كنا نلاقى منهم الأمرين ؟ . فيطلعهم سبحانه على مكانهم في جهنم ليزدادوا سروراً كما في بعض الروايات ، فيسألونهم توبيخاً وتقريباً : ما الذي أدى بكم الى هذا المشوى (قالوا) بلسان المقال أو الحال : (لم نك من المصلين) أي لم ننته في الدنيا عن الفحشاء والمنكر ، وقد أخذنا هذا التفسير من الآية ٤٥ من سورة العنكبوت : ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر (ولم نك نطعم المسكين) . كانوا يكتزون المال ولا ينفقونه في سبيل الله (وكنا نخوض مع الخائضين) . نستعين بكل شيء إلا باللهو واللعب ، وندخل كل مدخل إلا مداخل الحق والخير (وكنا نكذب بيوم الدين حتى اتانا اليقين) أي الموت .

قال الشيخ عبد القادر المغربي : « سمي يوم القيامة يوم الدين لأن فيه يقع الجزاء والحساب والقضاء والقهر ، كل هذا من معاني كلمة الدين ، ويسمى أيضاً يوم الدينونة أي الحشر والقضاء بين الناس ، والديان القهّار والمجازي والقاضي ، قالوا : « كان على بن أبي طالب ديان هذه الأمة بعد نبينا أي تفرد بمزية القضاء والحقق في فصل الخصومات بعد النبي (ص) » .

(فما تنفعهم شفاعة الشافعين) . لا شفيع يشفع ، ولا معذرة تنفع ، لا شيء إلا التوبة وصالح الأعمال (فالهم عن التذكرة معرضين كأنهم حمر مستفزة فرت من قسورة) . ضمير لهم يعود الى المشركين ، والتذكرة القرآن ، والحمر هنا الحمر الوحشية ، والقسورة الأسد أو الرماة ، والمعنى ما شأن هؤلاء العتاة يفرون من الهدى والحق فرارهم من الموت ؟ .

(بل يريد كل امرئ منهم ان يؤتى صحفاً منشرة . أي منشورة غير مطوية ، وجاء في بعض الروايات ان المشركين قالوا لرسول الله : « لن نؤمن لك حتى

سورة المدثر

ينزل على كل واحد منا كتاب يقول : الى فلان بن فلان: اتبع محمداً . وسواء أصحت هذه الرواية أم لم تصح فلإنها تفسر الآية بما دل عليه ظاهرها ، ويؤيد ذلك الآية ٩٣ من سورة الإسراء : « ولن نؤمن لرقبك حتى تنزل علينا كتاباً نقرأه » مع العلم بأنهم لا يؤمنون ولو استجاب الله الى طلبهم كما صرحت الآية ٧ من سورة الانعام : « ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين » . والسر هو حرصهم على مصالحهم وامتيازاتهم ، وليس الحسد كما قال بعض المفسرين ، والدليل على ما قلناه قوله تعالى بلا فاصل : (كلا بل لا يخافون الآخرة) . لأنهم لا يعملون إلا للحياة الدنيا ، ولا يركنون إلا لترفها ولذاتها ، اما الانسانية ، اما الحق والخير فكلام فارغ .

(كلا انه تذكرة) مرة ثانية يزجر سبحانه المكذبين . ثم بين لهم ولنغيرهم ان هذا القرآن هو موعظة من الله لعباده ، وما هو بقول ساحر ولا شاعر (فن شاء ذكره) ، أي انتفع بأحكامه ومواعظه (وما يذكرون إلا ان يشاء الله) . وتساءل : ان قوله تعالى أولاً : « فمن شاء ذكره » معناه ان الانسان مخير له حريته و ارادته ، وقوله ثانياً : « وما يذكرون الا ان يشاء الله » معناه ان الانسان مسير لا حرية له ولا إرادة .. وهذا تناقض بحسب الظاهر، فبأي شيء تدفعه ؟.

الجواب : المراد بالمشيئة الأولى ان الله سبحانه يترك الانسان وما يختار لنفسه من الايمان والكفر ، والمراد بالمشيئة الثانية ارادة الله تعالى ارغام الانسان على الايمان وإلجأؤه اليه قهراً عنه ، وعليه يكون معنى الآيتين مجموعهما ان الله قد ترك الخيار للانسان في ان يؤمن أو يكفر ، كما في الآية ٢٩ من سورة الكهف : « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » ولكن الجحود العنود لا يؤمن محال إلا اذا أجبره الله على الايمان ، وألجأه اليه رغماً عنه ، ولا يكون هذا أبداً لأنه مخالف لعادل الله وحكمته ، فإن عدله تعالى وسنته في خلقه أن يبين لهم طريق الخير ويرغبهم فيه ، وطريق الشر ويحذرهم منه ، ولكسل أن يختار مصيره بنفسه وإلا بطل الثواب والعقاب ، ويؤيد هذا قوله تعالى بلا فاصل : (هو أهل التقوى وأهل المغفرة) أي ان الله ، جلت عظمته، هو أهل لأن يطاع في أوامره

الجزء التاسع والعشرون

ونواهيه ، وان يُخشى من غضبه وعذابه، وأيضاً هو أهل لأن يرحم العباد ويغفر لمن تاب وأتاب .

وبلفظ أقل وأوضح ان الله سبحانه خلق الانسان مختاراً ذاعقل وارادة، وميَّزه بذلك عن الحيوان ، ولذا كلفه بالطاعة والاستقامة من دونه ، ولو شاء سبحانه لسلب الانسان ارادة العاقل ، وجعله كالحيوان أو أحمط منه .

سورة القيامة

٤٠ آية مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.

نسوي بنانه الآية ١ - ١٩ :

لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ * وَلَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ * أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ
أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ * بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ * بَلْ يُرِيدُ
الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ * يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ * فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ *
وَحَسَفَ الْقَمَرُ * وَجَمَعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ * يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ
الْمَفْرُ * كَلَّا لَا وَزَرَ * إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ * بُنَا الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ
بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ * بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ *
لَا تُحْرَكُ بِهِ لِسَانُكَ لِيَتَعَجَّلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْتَهُ
فَأَتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ *

اللمة :

المراد بالنفس اللوامة وخز الضمير والوجدان ، ويأتي البيان . والبنان الأصابع

الجزء التاسع والعشرون

أو أطرافها . يفجر أمامه أي يمضي قدماً في الفجور والمعاصي ولا يتوب الى الله .
والمراد ببرق البصر ما يصيبه من الزئبق والكلال عند رؤية البرق اللامع . وخسف
القمر ذهب نوره . لا وزر لا ملجأ . وبصيرة أي بصير والهاء للمبالغة . ومعاذير
اسم جمع معذرة وأعداء جمع عدو .

الإعراب :

لا أقسم ولا ، زائدة أو نافية للقسم حيث لا داعي له . انظر تفسير الآية
٧٥ من سورة الواقعة والآية ٣٨ من سورة الحاقة والآية ٤٠ من سورة المارج .
أحسب الهزلة للانكار . وأن أي انه والمصدر المنسبك ساد مسد المفعولين ليحسب .
وبلى إيجاب بعد النفي . وقادرين حال من فاعل نجمع أي نجمعها قادرين . وليفجر
منصوب بأن مضرة والمصدر مفعول من أجله ليريد ، والمفعول به محذوف أي
يريد الانسان الحياة من أجل الفجور . وأمامه نصب على الظرفية ييفجر . وأبان
ظرف زمان بمعنى متى ، وهي خبر مقدم ويوم مبتدأ مؤخر . وأين ظرف
مكان خبراً للمضمر . وكلا حرف ردع . ووزر اسم لا والخبر محذوف أي لا وزر
في الوجود . والانسان مبتدأ وبصيرة خبر وعلى نفسه متعلق ببصيرة .

المعنى :

(لا أقسم بيوم القيامة) أي أقسم به.. هذا اذا كانت اللام زائدة كما يرى أكثر
المفسرين ، أو ان الأمر لا يحتاج الى قسم لأنه في غاية الوضوح .. اذا كانت
اللام نافية لا زائدة كما يرى البعض . وفي الكلام حذف - على التقديرين - أي
إنكم لمبعوثون خلقاً جديداً (ولا أقسم بالنفس اللوامة) . للمفسرين أقوال في
معنى النفس اللوامة ، والذي نراه ان الانسان كثيراً ما يلوم ويؤنب نفسه بنفسه
على ما فعل أو ترك بعد ان يتبين له ان الفعل أو الترك يضر به صحيحاً كأكله
منته من أكلات ، أو صفقة بيع أو شراء جرت عليه خسارة لا يطبقها أو لا
يريدها ، وما الى ذلك من الأصرار التي لا تمت الى دينه وخلقه بسبب ، وهذا

سورة القيامة

المعنى غير مراد هنا من النفس اللوامة .. وقد يشعر الانسان بالندم والحسرة على ما فرط في جنب الحق ، وتهاون في عمل الخير ، سواء أفرط وتهاون عن عمد وعلم بأنه آثر العاجلة على الآجلة ، أم كان ذلك عن جهل وغير قصد ، ثم تبين له الحقائق كما هي حال الكافر في يوم القيامة ، وهذا المعنى بالذات هو المراد هنا من النفس اللوامة .

(أحسب الانسان ان لن نجوع عظامه بل قادرين على ان نسوي بنانه) . قال منكرو البعث : مستحيل ان نحيا العظام وهي رميم .. قالوها بأساليب شتى ، وأجابهم سبحانه بشتى الأساليب ، من ذلك الآية التي فسرناها ، ومعناها ان الله هو الذي يجمعها ويحييها ، ولا غرابة فإن قدرته تعالى لا يعجزها شيء ، وفوق ذلك هو يعيد العظام تماماً كما كانت حتى أدقها وأصغرها حجماً كعظام أصابع اليد ، فإنها ترجع لسابق عهدا يبشرتها ولونها وما عليها من شعرات ، بل وما فيها من خطوط وبصمات .. وذلك على الله سهل يسر لأن الذي أنقنها أول مرة ، وجعل بصماتها تختلف في كل فرد عن الآخر منذ أول انسان الى الانسان الأخير - يهون عليه أن يعيد الانسان الى سيرته الأولى بجميع صفاته وخصائصه ، لأن اختلاف خطوط الأصابع وبصماتها على هذا النحو أكثر وأقوى دلالة على قدرته تعالى من اعادة العظام والأموات .

(بل يريد الانسان ليفجر أمامه) . الفجور الذنوب والآثام ، وفي أمامه معنى المضى والاستمرار ، وعليه يكون المراد بالانسان هنا المجرم الآثم ، ومجمل المعنى ان هذا الآثم يريد التهادي والمضي في فجوره وآثامه الى يومه الأخير ، ومن أجل هذا (يسأل) ساخراً في عتو وعناد : (ايان يوم القيامة) ؟ متى اوانه ؟ أقرب أم بعيد ؟

(فإذا برق البصر وخسف القمر وجمُع الشمس والقمر) . سأل المعاند : متى يوم القيامة ؟ فذكره سبحانه بأوصافه ، وهي أن يزيغ البصر ، وينهب نور القمر ، ويصطدم بالشمس لخراب الكون وانقطاع نظامه (يقول الانسان يومئذ أين المفر) من هذه الكارثة ؟ هل من مغيث ؟ (كلا لا وزر) لا ملجأ ولا منفر (الى ربك يومئذ المستقر) فهو وحده مرجع العباد في ذاك اليوم ، والى

الجزء التاسع والعشرون

حكمه وأمره تخضع الخلاق (ينبأ الانسان يومئذ بما قدم وأخر) . المراد بما قدم ما فعل من خير وشر ، وبما أخر ما ترك من الواجبات المفروضة عليه ، والمعنى اذا وقف الانسان بين يدي خالقه لنقاش الحساب تكشف له جميع أعماله خيرا وشرها أولا وآخرها ، وأيضا يتكشف له ما ترك من الواجبات المسؤول عنها (بل الانسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره) على ان الانسان يعلم ما فعل وما ترك ، ولا يحتاج الى من يخبره بذلك ، يعلم حتى لو حاول أن يتصل ويعتذر .

(لا تحرك به لسانك لتعجل به ان علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم ان علينا بيانه) الكلام مستأنف، على طريقة القرآن الكريم ينتقل من موضوع الى موضوع ، سواء أوجدت المناسبة أم لم توجد ، قال الامام الصادق (ع) : ان الآية الواحدة يكون اولها في شيء ، وآخرها في شيء آخر .. والخطاب في لا تحرك للرسول الأعظم (ص) . وضمير به وما بعده للقرآن ، وعلينا جمعه أي نجتمع القرآن في قلبك ، وقرآنه أي قراءته ، فإذا قرأناه أي فإذا انتهينا من قراءة القرآن فاشرع أنت بالتلاوة ، ومجمل المعنى اذا تلا عليك جبريل القرآن فلا تتابعه أنت في القراءة يا محمد مخافة أن يفوتك شيء منه ، فنحن نجعله بكامله في قلبك ، فإذا انتهى جبريل من القراءة باشر أنت بالتلاوة ، وعلينا ان نعصمك من النسيان والخطأ في تلاوته وبيان أحكامه والعمل به أيضا . وتقدم مثله في الآية ١١٤ من سورة طه ج ٥ ص ٢٤٦ .

بل نحبون العاجلة الآية ٢٠ - ٤٠ :

كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ * وَجُوهُ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ *
إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ * وَوَجُوهُ يَوْمَئِذٍ بِآسِرَةٍ * تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ *
كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ * وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ * وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ * وَالْتَفَتِ
السَّاقِ بِالسَّاقِ * إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ * فَلَا صَدْقَ وَلَا صَلٰى * وَلٰكِن

سورة القيامة

كذَّبَ وَتَوَلَّى * ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَمْتَطِي * أُولَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ * ثُمَّ أُولَىٰ
لَكَ فَأُولَىٰ * أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدَىٰ * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ
مَنْيٍّ يُمْنَىٰ * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَىٰ * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ
وَالْأُنثَىٰ * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ *

اللفظ :

ناضرة بالضاد من النضرة وهي الحسن والجمال . وناظرة بالطاء من النظر وهو
الرؤية بالبصر أو البصيرة . وباسرة عابسة كالحمة . وفاقرة داهية تكسر عظام
الظهر . والتراق جمع ترقوة وهي عظم في أعلى الصدر . والراقي من يصنع الرقية .
التفت الساق بالساق كناية عن اشتداد الأمر ، ومنه قامت الحرب على ساق .
والمساق من يسوق أي حث يحث على السير . يتمطى يتبختر في مشيته تكبراً
وخيلة . أولى أحق وأجدر . وسدى مهملأ . ويحيى يراق .

الإعراب :

وجوه مبتداً وناضرة خبر أول وناظرة خبر ثانٍ والى ربيها متعلق به ، وجاز
الابتداء هنا بالنكرة لوجود الفائدة . ومن راق مبتدأ وخبر . وأولى مبتدأ ولك
خبر . وسدى حال من الضمير في يُترك . والذكر والأنثى بدل مفصل من مجمل ،
والمبدل منه الزوجان .

المعنى :

(كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة) . الخطاب في تحبون لمن باع دينه
بدينيه، وآثر الفانية على الباقية مسلماً كان أم غير مسلم، والآية صريحة بذلك ولا تقبل التأويل .

الجزء التاسع والعشرون

(وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة) . قال الإمامية والمعتزلة : ان الله سبحانه لا تجوز عليه الرؤية البصرية في الدنيا ولا في الآخرة ، وقالوا أيضاً : ان ناظرة هنا من رؤية البصيرة لا البصر ، أو من الانتظار بمعنى ان النفس تنتظر وترقب نعمة الله وكرامته ، وأجاز الأشاعرة الرؤية البصرية عليه تعالى ، وسبق لنا الكلام عن ذلك مفصلاً في ج ١ ص ١٠٧ بعنوان « رؤية الله » .. على ان البحث في هذا الموضوع وما اليه لا جدوى منه عامة ولا خاصة ، وربما أدى الى توسيع الشقة بين المسلمين ، والله سبحانه لم يكلف به أحداً ، ومهما يكن فإن المتقين يحشرون غداً في طلعة بهية مشرقة مستبشرين بما آتاهم الله من فضله (وجوه يومئذ باسرة تظن ان يفعل بها فاقرة) . أما المجرمون فعلى العكس تماماً من المتقين ، يحشرون في وجوه غابسة كالحقة ، وقلوب تهتز رعباً وهلعاً من غضب الله وعذابه . وتقدم مثله في الآية ١٠٦ من سورة آل عمران ج ٢ ص ١٢٨ . (كلا اذا بلغت التراقي وقيل من راق وظن انه الفراق) . هذه الآيات تصف حال المحتضر ، ونزول الموت به الذي لا ينجو منه نبي ولا شقي ولا صغير أو كبير . وابتداء سبحانه بكلمة « كلا » حيث تقدم قوله : « بل تحبون العاجلة وتندرون الآخرة » فناسب الردع والزجر عن ذلك ، وفي بلغت ضمير يعود الى الروح التي دل عليها سياق الكلام ، والمعنى كُفَّ أيها المجرم عن الجرائم والآثام وابتار الغانية على الباقية ، واذكر الموت هادم اللذات وقاطع الأمنيات ، اذكر نفسك الأخير حين تبلغ الروح الحلقوم ، وتشرف على الخروج من جسدك ، ويقول أهلك بعد العجز عن علاجك : هل من راقٍ يرقيه ، أو طيب يداويه ؟ وأنت على يقين من أمرك وانه الموت الذي لا يبغي منه علاج ولا دواء . (والتفت الساق بالساق) . تلتوي إحدى ساقى المحتضر على الأخرى من شدة الهول . وقيل : هذا كناية عن الأمر الشديد جرياً على طريقة العرب ، فإنهم يقولون عن دهنه شدة : شمّر لها عن ساق (الى ربك يومئذ المساق) . من مات فلى الله منقلبه ، ولا طريق له إلا اليه .

ومن كلام الإمام علي (ع) يصف حال المحتضر : « فينا هو يضحك الى الدنيا ، وتضحك اليه في ظل عيش غفول إذ وطئ به الدهر به حنكه ، ونقضت الأيام قواه ، ونظرت اليه الحتوف عن كتب .. وفتر مقله ، وذهل بمرضه ،

سورة القيامة

وتعابا أهله بصفة دائمة ، وخرسوا عن جواب السائلين عنه .. وان للموت لغمرات هي أظلم من ان تُستغرق بصفة أو تعتدل على قلوب أهل الدنيا . معنى تعتدل تستقيم بالادراك .

(فلا صدق ولا صلي ولكن كذب وتولى ثم ذهب الى أهله يتمطى) . قال كثير من المفسرين : هذه الآية نزلت في أبي جهل ، وهي صورة طبق الأصل لصفاته ، لأنه ما صدق الرسول الكريم (ص) ولا صلي لله ولو بطرفة عين ، بل كذب الحق وشاغب عليه ، وأعرض عنه واستهزا به ، وكان يذهب الى مجلس النبي (ص) ويستمع الى القرآن ، ثم يعود الى أهله متكبراً متبخراً في مشيته .. وأباً كان سبب النزول فإن ظاهراً الآيات على عمومها يشمل كل من عاند الحق وتعالى عليه لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

(أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى) . الغرض من هذا التكرار الزيادة في التهديد والوعيد ، والمعنى الويل والعذاب أحق بك وأجدر أهما الأثيم .. وفي كثير من التفسيرات : ان رسول الله (ص) أخذ بيد أبي جهل وقال له : « أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى » . فقال اللعين : أتهددني يا محمد ؟ والله ما تستطيع أنت ولا ربك شيئاً ، والله لأننا أعز أهل هذا الوادي .. وكان النبي (ص) يقول: لكل أمة فرعون ، وفرعون هذه الأمة أبو جهل .. وقد قتل يوم بدر شر قتلة .

(أحسب الانسان أن يترك سدى) . لا نعرف أحداً يحب ويظن انه غير مسؤول عن شيء بالغاً ما بلغ من الجهل والضلال .. ومن ظن هذا فقد ازرى بنفسه ، وأنزله منزلة الحشرات والحيوانات .. ولو ترك سبحانه الانسان سدى لكان عابثاً في خلقه لاعباً في أفعاله .. تعالى علواً كبيراً : « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين - ١٦ الأنبياء » .

(ألم يك نطفة من مني يمى) ألم يكن منكر البعث ماء يصب في الرحم (ثم كان علقة فخلق فسوى) . تطورت النطفة خلقاً بعد خلق داخل ظلمات ثلاث ، ثم خرج منها إنساناً في أحسن تقويم بعد أن كان في أسفل سافلين (فجعل منه الزوجين الذكر والانثى) . ضمير منه يعود الى الانسان ، والمعنى ان الله سبحانه بعد ان جعل النطفة انساناً كاملاً أخرج منه أولاداً ذكوراً واناثاً (أليس

الجزء التاسع والعشرون

ذلك) الإله الذي جعل من الماء المهين انساناً عجبياً في صورته وعقله ومواهبه ، وأخرج منه الذكور والاناث (بقادر على ان يحيي الموتى) بل انه على كل شيء قدير .. وما من شيء في الوجود إلا وهو ينطق بقدرته ويسبح بحمده ، وليس خلق الانسان بشيء اذا قيس بخلق الكون : « لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون - ٥٧ غافر » . تقدم مثله في العديد من الآيات ، منها الآية ٥ من سورة الحج ج ٥ ص ٣١٠ .

سورة الانسان

٣١ آية مكية ، وقيل غير ذلك .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هل اى على الانسان الآية ١ - ٦ :

هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا * إِنَّا
خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا * إِنَّا
هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا * إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ
وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا * إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا *
عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا *

: اللغة :

أَمْشَاجٍ جمع مشيج وهو الخليط . نبتليه نختبره . هديناه السبيل بينا له طريق
الخير والشر . واعتدنا أعددنا .

: الإعراب :

هل هنا بمعنى قد عند المفسرين . والسبيل مفعول ثانٍ لهديناه لأن المعنى عرفناه .

الجزء التاسع والعشرون

أو أريانه . إما أداة تفصيل . وشاكراً وكفوراً حالان من هاء هديناه . وعيناً مفعول لفعل محنوف أي اعني عيناً . وقال صاحب مجمع البيان : الباء في « بها » زائدة . وقال صاحب مغني اللبيب : الظاهر انها للالصاق . ومعنى هذا ان شرب تتعدى بنفسها تارة مثل شربت الماء ، وبالباء أخرى مثل شربت بالماء .

المضى :

(هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً) . هذه الآية في صورة الاستفهام ومعناها التأكيد والتحقيق ، والغرض منها أن يفكر الانسان ويرجع الى عقله ويسأله عن القدرة التي أتت به من العدم، ومن أي شيء أوجدته؟ وكيف انتقلت به من طور الى طور ؟ والى أين المصير ؟ وفي هذا يقول الإمام علي (ع) : رحم الله امرأ عرف من أين ، وفي أين ، والى أين ، هذا هو الغرض الذي تهدف اليه الآية ، وفيها يلي نعرض بإيجاز الى ما أشارت اليه هذه الآية وما بعدها من مراحل التطور لوجود الانسان ، أما في أين والى أين فقد سبق الكلام عنها عند تفسير آيات الدنيا والآخرة :

١ - (هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً) . مضى دهر طويل لم يكن للانسان فيه عين ولا أثر ، ومثله : « أولاً يذكر الانسان انا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً - ٦٧ مريم ، ج ٥ ص ١٩٢ . وقال اهل الاختصاص : ان الانسان وجد على هذه الكرة الأرضية منذ ٥ آلاف مليون سنة.. » وربك اعلم بمن في السموات والأرض - ٥٥ الاسراء .

٢ - ثم خلق سبحانه آدم أباً البشر من تراب « ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب - ٥٩ آل عمران » . وبهذا انتقل الانسان من مرحلة باللة الى وجود ترابي جامد لا حياة فيه ولا نمو .

٣ - (انا خلقنا الانسان من نطفة امشاج نبتليه) . هذه اشارة الى انتقال الانسان من الوجود الترابي الى الوجود المسائي ، وهو نطفة تتكون من عناصر شتى أشار اليها الإمام (ع) بقوله : « معجوناً - أي الانسان - بطينة الألوان

سورة الانسان

المختلفة ، والأشياء المؤتلفة ، والأضداد المتعادية ، والاخلط المتباينة . ومن آثار طينة الألوان المختلفة ما نراه في الانسان من سواد العينين وبياض الوجه، ومن آثار الأشياء المؤتلفة عظام الساعدين والساقين ، ومن آثار الأضداد المتعادية الحب والبغض ، والطمع والقناعة ، والتواضع والتكبر ، وصراع العقل والشهوة ، وما الى ذلك ، وبهذا نجد تفسير قوله تعالى : « نبتله » حيث يلاقي الانسان العناء المرير من الصراع بين ضميره ونزواته .

٤ - (فجعلناه سميعاً بصيراً) . هذه اشارة الى انتقال الانسان من النطفة التي دبت فيها الحياة بمرور الأيام وهو في بطن أمه ، انتقاله من ظلمة البطن حيث لا سمع ولا بصر الى الفضاء مع السمع والبصر ، ولكن بلا عقل وإدراك تماماً كالحیوان .

٥ - (انا هديناه السبيل اما شاكراً واما كفوراً) . يشير سبحانه الى انتقال الانسان من الحياة الحيوانية الى الحياة الانسانية أي بعد أن تم تكوينه الجسدي وحواسه الظاهرة منحه الله سبحانه العقل والادراك ليميز بين الحق والباطل، والهدى والضلال ، وأيضاً منحه الحرية ليكون بقله وحرية أهلاً لتحمل المسؤولية ، واستحقاق الثواب والعقاب - طبعاً - بعد البيان وإلقاء الحجة، وعبر سبحانه عن الهدى بالشكر لأنه طاعة لله ، وعن الضلال بالكفر لأنه معصية له .

ورغبة في زيادة التوضيح نشير الى المقارنة بين الانسان وغيره من الكائنات الأرضية بوجه عام .. تنقسم هذه الكائنات الى جامدة لا حياة فيها ولا نمو كالتراب والصخور والمعادن ، والى كائنات حية ، والحياة فيها على ثلاثة أقسام : حياة نباتية ، ومن خصائصها الحركة والنمو بلا احساس وإدراك ، فالنبات يتحرك وينمو ، ولكنه لا يحس ويشعر ، ولا يسمع ويبصر . القسم الثاني الحياة الحيوانية، ومن صفات الحيوان الحركة والنمو والاحساس والشعور والسمع والبصر من غير تعقل وإدراك - في الغالب - أو ادراك الجزئيات دون الكليات . القسم الثالث: الحياة الانسانية ، ومن صفات الانسان أن يتحرك وينمو ويسمع ويبصر وفوق ذلك يدرك الجزئيات والكليات ، ويعرف الكثير عما كان ويتنبأ بالكثير عما يكون ، وبهذا الادراك ، وهذه المعرفة امتاز عن سائر الكائنات الأرضية .

الجزء التاسع والعشرون

- اذن - يلتقي الانسان مع الجماد لأنه كان تراباً ، واليه يؤول ، وأيضاً كل منها جسم يُحس ويُلمس ، وأيضاً يلتقي مع النبات لأنه كان في بطن أمه كالبات ينمو ويتحرك ، ولكنه لا يسمع ولا يبصر ، ويلتقي الانسان مع الحيوان لأنه كان في طفولته يحس ويشعر ويسمع ويبصر ولكنه لا يعقل تماماً كالحيوان ، ثم اُفترق عنه بالعقل والادراك ، ومن هنا كان أهلاً لتحمل المسؤولية ، واستحقاق الثواب والعقاب من دون الحيوان .

وهنا يأتي التساؤل : من الذي نقل الانسان من المرحلة البائدة الى الوجود الترابي الجماد ، ومنه الى النباتي النامي المتحرك ، ثم الى الحيواني السميع البصير ، ثم جعله انساناً سوياً بحسبه وعقله يخبر عن الماضي ويتنبأ بالمستقبل ، ويخلق الحضارات ، ويتحكم بكثير من الكائنات ، حتى بالحيوان السميع البصير ، ويسأل عما يفعل ، ولا يسأل غيره عن شيء ؟ وهل من تفسير لهذا وغيره مما لا يبلغه الاحصاء إلا التصير بوجود خالق قادر أعجز الأوهام أن تدركه ، والألسنة أن تصفه ؟.

وبعد أن أشار سبحانه الى مسؤولية الانسان بقوله : « إنا هديناه السبيل اما شاكراً واما كفوراً » بعد هذا ذكر ما أعد للكافرين : (انا اعتدنا للكافرين سلاسل واغلالاً وسعيراً) . السلاسل للأرجل ، والأغلال للأيدي ، والحريق للأجسام (ان الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً) . تطلق الكأس على زجاجة الشراب ، وعلى الشراب نفسه ، وهذا المعنى هو المراد هنا . وقال كثير من المفسرين : ان لشراب أهل الجنة رائحة طيبة كرائحة الكافور ، ونقول نحن : ان المزج بالكافور حقيقة كما دل ظاهر الآية ، واذا كان طعم الكافور في الدنيا كريحاً فليس من الضروري أن يكون في الجنة كذلك ، فخمرة الدنيا توجب الصداع والأوجاع ، وخمرة الجنة لا فيها غول ولا هم عنها يتزفون - ٤٧ الصافات . قال ابن عباس : كل ما ذكره الله في القرآن مما في الجنة فليس منه في الدنيا إلا الاسم .

(عيناً يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً) أي تجري حيث يشامون بدون آلة ؛ بل بمجرد المشيئة .. وتقدم العديد من الآيات التي وصفت ما أعد الله

لعباده المتقين ، وانهم يتمتعون فيما لم تره عين ، ولم تسمعه اذن ، ولم يحظر على قلب بشر ، وان المجرمين يتعذبون فيما يفوق الوصف والتصور .

ويطعمون الطعام على حبه الآية ٧ - ٢٢ :

يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا * وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ
عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ
جَزَاءً وَلَا شُكُورًا * إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا *
فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا * وَجَزَّاهُمْ بِمَا
صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا * مُتَكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا
شَمْسًا وَلَا زَمَهْرِيرًا * وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ أَقْطُوفُهَا تَذِيلًا *
وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا * قَوَارِيرَ
مِنْ فِضَّةٍ قَدَرُوهَا تَقْدِيرًا * وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا *
عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسِيلًا * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ
حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنثورًا * وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمَلَكًا كَبِيرًا *
عَالِيَهُمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَخُلُوعًا أُسُورًا * مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَامُ
رَبِّهِمْ شَرَابًا طَهُورًا * إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيَكُمْ
مَشْكُورًا *

اللغة :

مستطيراً فاشياً منتشرأ . عبوساً أي تعبس فيه الوجوه . قطريراً شديداً مظلمأ .
نضرة حسنة . وأرائك جمع أريكة وهي السرير . وزمهيرأ بردأ شديداً . ودانية
ناعمة . وأكواب جمع كوب وهو قدح لا عروة له ولا خرطوم . وقوارير جمع
قارورة وعاء من الزجاج . وقال الشيخ المغربي في تفسير جزء تبارك : الزنجبيل
عروق نبات يشبه القصب . والسلسيل سهل المساغ والانهدار في الحلق . والسندس
ضرب من الحرير الرقيق . والاستبرق الغليظ منه .

الإعراب :

يوماً مفعول به على حذف مضاف أي عذاب يوم . وعلى جبه متعلق بمحذوف حالأ
من فاعل يطعمون أي كائنين على جبه . ونضرة مفعول ثانٍ للقائم لأن المعنى
أعطاهم . ومتكئين حال من مفعول جزاهم . ودانية عطف على متكئين . وظلالها
فاعل دانية . قواريرأ الأولى بالتنوين مع أنها لا تنصرف لأنها رأس آية لتتناسب
مع «تذليلأ» و «تقسديراً» . وقوارير الثانية بدل من الأولى . وعينأ بدل من
زنجبيل . ثم ظرف بمعنى هناك . وفي تفسير البيضاوي وغيره ان عليهم حال
من الضمير في « عليهم » وثياب فاعل عليهم لأن المعنى تعلقهم ثياب
سندس .

المعنى :

بعد ان أشار سبحانه الى بعض ما أعدّه غداً للأبرار - قال : استحقوا ذلك
لصفات ثلاث :

١ - (يوفون بالنسر) . والنسر في اللغة الوعد ، وفي الشرع ان يلزم
البالغ العاقل نفسه بفعل شيء أو تركه لوجه الله ، على أن يكون الفعل أو الترك
له فيه رضی .. والا يكون الكلام حسناً لا نذراً عند أهل النظر والتحقيق ،

سورة الانسان

وصيغة النذر أن يقول الناذر : علي الله ، أو نذرت لله كذا . ولا يقع النذر مجرداً عن ذكر الله أو أحد أسمائه الحسنی كالرحمن والخالق والمحيي والمميت، فلو قال : نذرت لأفضلن كذا كان لغواً ، والعهد في اصطلاح كثير من الفقهاء أن يقول المعاهد : أعاهد الله أو علي عهد الله كذا ، واليمين هو الحلف بالله . وتقدم الكلام عن اليمين عند تفسير الآية ٨٩ من سورة المائدة ج ٣ ص ١٢٠ والله سبحانه محب ويثيب كل من صدق وأحسن في فعل أو قول سواء أكان القول وعداً أم عهداً أم نذراً أم يميناً أم شهادة أم خبراً من الأخبار .

٢ - (ويخافون يوماً كان شره مستطيراً) . يطعمون الله في كل شيء خوفاً من يوم يعم شره العظيم كل من عصى الله وخالفه في حكم من أحكامه .

٣ - (ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتياً وأسيراً) . يبذلون كل عزيز وهم في أشد الحاجة إليه ، ومثله : • ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة - ٩ المحشر • . والمسكين البائس العاجز ، واليتيم من لا كفيل له ، أما الأسير فقيل : ان المراد به هنا من أسره المسلمون بالحرب مع أعداء الله والاسلام ، وروي ان الصحابة كانوا اذا أتوا رسول الله (ص) بأسير من أعداء الله وأعدائه دفعه الى بعض المسلمين وقال له : أحسن اليه ، فيأخذه الى بيته ، ويؤثره على نفسه وأهله .

(انما نطمعكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قظرياً) . لا نريد مكافأة منكم ولا من غيركم ، وانما نطمع ونبلل بدافع التقرب الى الله ، والخوف من يوم تفحص فيه الأعمال ، وتكثر فيه الأهوال .. قالوها بلسان الحال لا بلسان المقال أو قالها الله عنهم علماً منه تعالى بما في قلوبهم من الايمان والاخلاص (فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً) . خافوا يوم المحشر ، فاتفقوا شره بطاعة الله والاخلاص له، فبلطم من بعد خوفهم أمناً ، فأشرقت وجوههم بنور البشر والفرحة (وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً) . صبروا على الجوع وجهده ليشيع غيرهم فكان ثوابهم عند الله جنة فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين .

الجزء التاسع والعشرون

وفي كثير من التفسير ان هذه الآيات نزلت في حق الإمام علي بن أبي طالب ، وثبت منها عبارة الرازي بنصها :

« ذكر الواحدي من أصحابنا - أي السنة - وصاحب الكشاف من المعتزلة : ان الحسن والحسين (ع) مرضا فعادهما الرسول (ص) في أناس معه ، فقالوا : يا أبا الحسن لو نذرت على ولدك ، فنذر علي وفاطمة وفضة جارية لهما ان شفاهما الله تعالى أن يصوموا ثلاثة أيام فشفا ، فاستقرض علي ثلاثة اصوع من شعير ، فطحنت فاطمة صاعاً ، واختيرت خمسة أقراص على عددهم ، ووضعوا بين أيديهم ليفطروا فوقف عليهم سائل فقال : السلام عليكم يا أهل بيت محمد ، مسكين أطعموني ، أطعمكم الله من الجنة ، فآثروه ولم يذوقوا إلا الماء ، وأصبحوا صائمين ، فلما أمسوا ووضعوا الطعام بين أيديهم وقف يتيم فآثروه ، وجاءهم أسير في الليلة الثالثة ، ففعلوا مثل ذلك ، فلما أصبحوا أبصرهم رسول الله يرتعشون كالفرسخ فقال : ما أشد ما يسوءني ما أرى بكم ، فنزل جبريل وقال : خذها يا محمد هنأك الله في أهل بيتك ، فاقرأ هذه السورة . »

(متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً) . ضمير «فيها» للجنة ، والأرائك السرر ، والشمس كناية عن الحر ، والزمهرير البرد ، والمعنى واضح . وتقدم مثله في الآية ٣١ من سورة الكهف (ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً) . جاء في كتب اللغة ان دانية تكون بمعنى قريبة ، وبمعنى ناعمة ، وهذا المعنى يناسب الظل وهو الفيء ، وأيضاً يناسب كلمة « عليهم » ولو كان المعنى قريبة لقال تعالى « اليهم » . وتذليل العناقيد معناه أنها في متناول الأيدي لا يحول دونها حائل . وتقدم مثله في الآية ٢٣ من سورة الحاقة .

(ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريراً قوارير من فضة قدروها تقديراً) . واو الجماعة في قدروها تعود الى متكئين ، وهم أهل الجنة تماماً مثل واو « لا يرون فيها » وعليه يكون المعنى ان صفة الأكواب لونها وحجماً هي كما يشاء أهل الجنة ، وكما قدروها في نفوسهم وتصوروها في أذهانهم .

وذكر المفسرون سؤالاً حول هذه الآية ، وهو ان قوارير جمع قارورة ، وهي وعاء الزجاج فكيف يتفق هذا مع قوله : « من فضة » ؟ وهل يستقيم قول

سورة الانسان

القاتل : الزجاج من فضة والماء من التراب ؟.

وأجابوا بأن معدن الأكواب من فضة ، ولكنها رقيقة شفافة كالزجاج ينفذ فيها البصر كما ينفذ فيه .

(ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً) . وهو عرق لبعض النباتات ، قال المفسرون : كان العرب يحبون جصل الزنجبيل في المشروب ، ولذا وصف سبحانه به شراب أهل الجنة (عيناً فيها تسمى سليلاً) ماؤها عذب فرات سائغ للشاربين (ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً) . هم في جالهم ونضارتهم كاللؤلؤ المنثور ، وفيه إيماء الى كثرة الخدم ووجودهم هنا وهناك (وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً) . اذا دخلت الجنة رأيت مالا اذن سمعت ولا عين رأت ولا خطر على قلب بشر (عاليهم ثياب سندس خضر واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شراباً طهوراً) يلبسون الحرير الرقيق والغليظ ، وأيضاً يضعون في أيديهم أساور فضة ، ويشربون طيباً طاهراً . وتقدم مثله في الآية ٣١ من سورة الكهف (ان هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً) . بعد تلك الكرامة يقال لهم : هذه مكافأة على أعمالكم التي شكرها الله لكم بالثواب وحسن المسأب . وتقدم مثله في الآية ١٩ من سورة الاسراء .

ان هؤلاء يحبون العاجلة الآية ٢٣ - ٣١ :

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا * فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا يُطِعْ
مِنْهُمْ آيْمًا أَوْ كَفُورًا * وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * وَمِنَ اللَّيْلِ
فَأَسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا * إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ
وَرَاءَهُمْ يَوْمًا قَبِيلًا * نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا

أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا * إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا *
وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * يُدْخِلُ مَنْ
يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا *

الغنة :

بكرة وأصيلًا صباحاً ومساءً . فاسجد له صلِّ له . وسبِّحه نهجد لله .
ينرون وراهم أي يطرحونه خلف أظهرهم ولا يكثرثون به . والمراد بأسر ، هنا
الخلق .

الإعراب :

آثماً أو كفوراً وأوه للتسوية أي لا تطع أحدهما . ويوماً مفعول به لينرون ،
والظالمين مفعول لفعل محذوف أي ويعذب الظالمين .

المعنى :

(إنا نحن نزلنا عليك - يا محمد - القرآن تنزيلًا) . وهو حق لا ريب
فيه ، وقد وعدناك بالنصر ، شريطة ان تصبر على أذى المعاندين وصددهم عن
سبيل الله (فاصبر لحكم ربك) . وحكمه تعالى أن تجري الأمور على سنتها
الطبيعية ، وان توجد في أوقاتها المعينة ، فالطريق الى الهدى لمن رغب فيه هو
النصح والارشاد ، وطريق النصر الصبر في الكفاح والجهاد (ولا تطع منهم آثماً
أو كفوراً) فيها محاولونه منك ، ويساومونك عليه ، وقد كان المشركون يعرضون
على الرسول الأعظم (ص) المال والنساء والرياسة على ان يترك الدعوة الى الله ،
فيرفض ويأبى ، وفي النهي عن طاعة الآثم والكفور إجماع الى ذلك ، والمراد

سورة الانسان

بالآثم كل من اكتسب إثمًا ، وبالكفور كل جاحد ، وقال جماعة من أهل التفسير : ان المراد بالآثم هنا عتبة بن ربيعة لأنه كان منغمساً في الشهوات ، وبالكفور أبو جهل أو الوليد بن المغيرة .. وأياً كان سبب النزول فإنه لا يخص عموم اللفظ .

(واذكر اسم ربك بكرة وأصيلاً) . كن مع الله في جميع أمورك وأوقانك ، ولا تأخذك فيه لومة لائم . وتقدم مثله في الآية ٤٢ من سورة الأحزاب (ومن الليل فاسجد له) . صل لله في جزء من الليل (وسبحه ليلاً طويلاً) . تهجد لله في الليل أمدأ غير قصير ، والأمر هنا للاستحباب لقوله تعالى : « ومن الليل فتهجد به نافلة لك - ٧٩ الإسراء » (ان هؤلاء يحثون العاجلة ويندرون وراءهم يوماً ثقيلاً) . هؤلاء إشارة الى المشركين والى كل من أحب الدنيا وتولاها ، وأبغض الآخرة وعادها ، ووصف سبحانه يوم القيامة بالثقل لأنه يوم عسير على الكافرين غير يسير .

(نحن خلقناهم وشددنا أسرهم) . الله سبحانه هو الذي أوجدهم من العلم ، وصورهم فأحسن صورهم ، فكيف أنكروه وعصوا أمره ونهيه ؟ (وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلاً) . هذا تهديد ووعد للمكذبين بأن الله قادر على أن يهلكهم ويستخلف مكانهم قوماً آخرين أفضل وأكمل . وتقدم مثله في الآية ٣٨ من سورة محمد (ان هذه تذكرة) . هذه إشارة الى السورة التي نحن بصددنا ، وهي بما فيها من ترغيب وترهيب عظة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد (فن شاء اتخذ الى ربه سبيلاً) وما نشاءون إلا أن يشاء الله) . يبين سبحانه للانسان طريق الخير والشر ونهاه عن هذا وأمره بذلك وتركه وما يختار لنفسه .. ولكن المعاند لا يفعل الخير إلا إذا أجبره الله عليه ، وألجأه اليه ، وهذا لن يكون لأنه مخالف لعدله تعالى وحكمته وستته في خلقه . انظر تفسير الآية ٥٦ من سورة المدثر فإنه أوسع وأوضح .

(ان الله كان عليماً حكيماً) . عليم بأحوال عباده ، حكيم لأنه لا يأمرهم إلا بما فيه الخير والصلاح ، ولا ينهاهم إلا عما فيه الشر والفساد (يدخل من يشاء في رحمته) . المراد بالرحمة هنا الجنة ، وقد اقتضت حكمته تعالى ومشيئته

الجزء التاسع والعشرون

أن لا يدخل الجنة أحداً إلا بالجد والعمل ، والآيات كثيرة وواضحة الدلالة على ذلك ، منها قوله تعالى : « أم حسبم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين - ١٤٢ آل عمران » .. وكيف يشاء سبحانه أن يدخل الجنة من ليس لها بأهل ، وقد أخرج منها آدم لما عصى ربه فوى ؟ (والظالمين أعد لهم عذاباً أليماً) . للمتقين رحمة الله وجزته ، وللمجرمين غضبه وعذابه .

سورة المرسلات

٥٠ آية مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والمرسلات عرفاً الآية ١ - ٢٨ :

وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفَهُ * فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفَهُ * وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرَهُ * فَالْفَارِقَاتِ
فَرَقَهُ * فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرَهُ * عُذْرًا أَوْ نَذْرًا * إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعُ *
فَإِذَا النُّجُومُ طُمِئَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ * وَإِذَا
الرُّسُلُ أُنقِذَتْ * أَيُّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ * لِيَوْمِ الْفَصْلِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ
الْفَصْلِ * وَيَلُوكُ يَوْمَئِذٍ لِلْكَذِبِينَ * أَلَمْ تُنْهَكِ الْوَالِدِينَ * ثُمَّ نُنْفِخُهُمْ
الْآخِرِينَ * كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ * وَيَلُوكُ يَوْمَئِذٍ لِلْكَذِبِينَ * أَلَمْ
نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ * فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ *
فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ * وَيَلُوكُ يَوْمَئِذٍ لِلْكَذِبِينَ * أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ
كِفَاتًا * أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا * وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَاخِجَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ
مَاءً فُرَاتًا * وَيَلُوكُ يَوْمَئِذٍ لِلْكَذِبِينَ *

المعنى :

تعرض هذه السورة جانباً من مشاهد اليوم الآخر ، وتحمل المجرمين والمكذبين من عذابه وأهواله ... وتقدم ذلك في عشرات الآيات ، ومن أجل هذا تقتصر على التخصيص اللغوي ، ونعرب بعض ما يحتاج الى الإعراب من الكلمات جامعين بين اللغة والإعراب في فقرة واحدة على خلاف عادتنا في سائر السور .

(والمرسلات غرقاً) . قيل ، هي الملائكة . ون المراد بالعرف المعروف وانه مفعول من أجله للمرسلات ، والمعنى ان الله يرسل ملائكته من أجل تبليغ الوحي للأنبياء وغير ذلك من الخيرات . وقيل المراد بالمرسلات الرياح ، وبالعرف التابع ، وقد نصب على الحال ، والمعنى يرسل الله الرياح متتابعة (فالعاصفات عصفاً) . السرعات في السير ، يقال : عصفت الناقة براكبتها اذا أسرعته ، وعصفاً مفعول مطلق للعاصفات (والناشرات نشرأ) . تنشر الرياح السحب في الفضاء ، أو تنشر الملائكة رحمة الله في خلقه (فالفارقات فرقاً) . تنزل الملائكة بآيات الله التي تفرق بين الحق والباطل ، أو ان الرياح تفرق الأمطار في أنحاء الأرض (فالملقيات ذكراً عنراً أو نلراً) . ذكراً مفعول به للمقيات ، وعنراً أو نلراً مفعول من أجله ، وقيل : بدل من الذكر، والأول أقرب الى الصواب ، لأن المعنى ان الله سبحانه يرسل ملائكته بالوحي لينزل به العباد ، ولا يكون لهم عليه الحجة . وقيل : ان المراد بالملقيات الرياح ، وبالذكر المطر لأنه يذكر بأفه ورحمته ، فالؤمن يشكر الله حين يتزل المطر ويعتذر عما سبق منه من التخصير ، والكافر يزداد طغياناً لأن المطر يزيد من ثرائه ، وبالتالي يكون المطر أو الرياح نذيراً له بعذاب ألم .

هذا ملخص ما قاله المفسرون حول هذه الكلمات أو الآيات الخمس ، ولكل وجه ، لأن الله يرسل الرياح كما جاء في الآية ٥٧ من سورة الأعراف : وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته ، وأيضاً يرسل الملائكة كما جاء في الآية ٧٥ من سورة الحج : « الله يصطفي من الملائكة رسلاً » . ومهما يكن فانا نحن مسؤولين عن هذا البحث امام الله ، ولا تمت معرفة الى حياتنا بسبب ، فالأولى ان نترك ذلك لعله تعالى مؤمنين بأنه هو وحده مسبب الأسباب .

سورة المرسلات

(انما توعدون لواقع) . الموعود به هو يوم القيامة ، و « انما » كلمتان « ان » و « ما » الموصولة وبى اسم ان وتوعدون صلة وواقع خبر « ان » والجملة جواب القسم ، والمعنى ان الساعة آتية لا ريب فيها (فإذا النجوم طمست) . ذهب ضوءها (واذا السماء فرجت) انفطرت كواكبها (واذا الجبال نسفت) . صارت هباء وذهبت مع الريح (واذا الرسل أقتت) من التوقيت، والرسل الملائكة، وقد جعل الله لها وقتاً معلوماً تخضر فيه لشهد على العباد ، ثم تسوق المتقين زمراً الى الجنة ، والمجرمين زمراً الى جهنم (لأي يوم أجلت) تلك الرسل ؟ (ليوم الفصل) بدل من لأي يوم بإعادة حرف الجر ، والاستفهام لتضخيم اليوم وشدة أهواله ، وسمي بيوم الفصل حيث يفصل فيه بين الناس بالحق بلا إجحاف ومحاباة (وما أدراك ما يوم الفصل) . ما الذي تعرفه عن هذا اليوم الذي لا يقاس بهوله هول ؟ (ويل يومئذ للمكذبين) . هذا تهديد ووعيد لمن كذب بيوم الدين، وأيضاً لمن آمن به ولم يعمل له .

(ألم نهلك الأولين) كفوم نوح لأهم كذبوا رسولهم (ثم نبههم الآخرين) كفوم لوط (كذلك فعل بالمجرمين) الذين كذبوا محمداً (ص) لأن السبب واحد، وهو الإعراض عن الحق (ويل يومئذ للمكذبين) تكررت هذه الآية عشر مرات تبعاً لاختلاف معنى الآية التي قبلها (ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه في قرار مكين الى قدر معلوم فقدرناه فنعم القادرون) . أنتكرون البعث وتقولون : من يحيي العظام وهي رميم ؟ وأنتم تعلمون ان الله أنشأكم من ماء حثير ، وأودعكم في ظلمات ثلاث أمداً معيناً ينقلكم فيه من خلق الى خلق ، وحدد هذا الأمد في منتهى الدقة والحكمة .. أبعد هذا كله تكفرون بأنعم الله ، وتكذبون بقدرته على البعث والحساب والجزاء ؟.

(ألم نجعل الأرض كفافاً أحياء وأمواتاً) ؟ . كفات جمع كفت، وهو الوعاء، وقد شبه سبحانه الأرض بالأوعية ، والخلق بما تضمنه الأوعية وتجمعه ، والمعنى ان الأرض تضم الخلائق أحياء على ظهرها ، وأمواتاً في بطنها .. والأرض مفعول أول لنجعل ، وكفافاً مفعول ثانٍ ، وأحياء وأمواتاً حال من مفعول فعل مقدر أي تكنتهم الأرض أحياء وأمواتاً، وقيل : مفعول (وجعلنا فيها رواسي شامخات)

جبالاً ثابتات عاليات كيلا تميد بكم (وأسقيناكم ماء فراتاً) عذباً ، وهو حياة لكم ، للأرض ، فضيض عليكم بالخيرات والبركات .

الى ظل ذي ثلاث شعب الآية ٢٩ - ٥٠ :

انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون* انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب*
 لا ظليل ولا يغني من اللهب* إنها ترمي بشرير كالفصر* كأنه
 جمالة صفر* ويل يومئذ للمكذبين* هذا يوم لا ينطقون* ولا
 يؤذن لهم فيعتذرون* ويل يومئذ للمكذبين* هذا يوم الفصل
 جمعناكم والأولين* فإن كان لكم كيد فكيدون* ويل يومئذ
 للمكذبين* إن المتقين في ظلال وعيون* وفواكه مما يشتهون*
 كلوا وأشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون* إنا كذلك نجزي المحسنين*
 ويل يومئذ للمكذبين* كلوا وتمتعوا قليلاً إنكم مجرمون* ويل
 يومئذ للمكذبين* وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون* ويل يومئذ
 للمكذبين* فبأي حديث بعده يؤمنون*

المعنى :

(انطلقوا الى ما كنتم به تكذبون) . كذبوا بعذاب الله ، بل سخروا منه
 ومن توعدهم به .. وغداً تقول لهم زبانية جهنم في سخرية وتهكم تماماً كما تكلموا
 من قبل برسولهم ، تقول لهم : اذهبوا الآن الى ما كنتم تهزؤون (انطلقوا الى

سورة المرسلات

ظل في ثلاث شُعب (من دخان جهنم : شعبة تظلمهم من فوق رؤوسهم، وثانية عن يمينهم ، وثالثة عن شمالهم (لا ظليل ولا يغني من اللهب) . هو ظل ، ولكنه لا يقي المستظليين به من عذاب الحريق ، بل يزيدهم عذاباً على عذاب ، ومثله وظل من محموم لا بارد ولا كريم - ٤٤ الواقعة . (أنها ترمي بشرر كالقصر كأنه جمالة صفر) . ضمير أنها يعود الى جهنم ، وجمالة جمع جمل ، والمعنى ان شرر جهنم يتطاير ويملاً الفضاء ، وكل شرارة كالقصر حجياً، والجمل الأصفر لوناً .

(هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتلون) . الضمير للمجرمين.. وللعباد يوم القيامة مواقف يؤذن لهم بالكلام في بعضها دون بعض . انظر تفسير الآيسة ٦٥ من سورة يس ج ٦ ص ٤٢١ . وقيل في معنى الآية : ان المجرمين لا ينطقون بما ينفعهم ، ولا عندهم عند الله (هذا يوم الفصل) يفصل فيه بالحق بين الخلائق (جمعناكم والأولين) من المجرمين أمثالكم وحشرناكم جميعاً في موقف واحد لتفأش يوم الحساب. ثم تساقون الى مقر واحد هو جهنم وبئس القرار (فان كان لكم كيد فكيدون) . هذه هي نهايتكم ، فان كان لديكم حيلة أو وسيلة تمتنعون بها من العذاب فأتوا بها ... وفيه تقريع وتوبيخ على مكرهم وخداعهم في الحياة الدنيا .

(ان المتقين في ظلال وعيون وفواكه مما يشتهون) . هذا على عادة القرآن الكريم ، يقرن عذاب المجرمين بثواب المتقين لغرض الترغيب والترهيب .. فللمجرمين ظلال من دخان جهنم ، وللمتقين ظلال من نعيم الجنة ، وعيون جارية وفواكه متنوعة مع الكرامة والمهابة من العلي الأعلى ، من ذلك قول الملائكة لهم : (كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون) . تقدم مثله بالحرف الواحد في الآية ١٩ من سورة الطور (كذلك نجزي المحسنين) . هذه هي سنتنا في الخلق « انا لا نضيع أجر من أحسن عملاً » - ٣٠ الكهف .

(كلوا وتمتعوا قليلاً) . الخطاب للمجرمين ، والمراد به التهديد والوعيد، ومعناه تمتعوا في حطام الدنيا كما تشاءون ، فإما هي إلا أيام فلتان ، ثم تزول المتعة كما يزول السراب (انكم مجرمون) وسنة الله في المجرمين ان يمهلهم قليلاً ثم يبدقهم

الجزء التاسع والعشرون

عذاب السعير (واذا قيل لهم اركعوا لا يركعون) . اذا أمرهم الرسول بالخشوع والتواضع لله أصروا على الزهو والكبرياء . قال الشيخ عبد القادر المغربي عند تفسير هذه الآية : « روي ان النبي (ص) سأل هند زوجة أبي سفيان بعد أن أسلمت يوم الفتح : كيف رأيت الاسلام ؟ قالت : حسن لولا ثلاث . قال : وما هن ؟ قالت : التجبیه - أي الركوع والسجود في الصلاة - والخمار ، ورقى هنا المهدي الأسود على الكعبة - تريد بلالاً وأذانه من على الكعبة - فأجابها الرسول (ص) بقوله : أما التجبیه فلا صلاة من دونه ، وأما الخمار فهو أحسن ستر ، وأما الأسود فنعيم العبد هو . »

(فبأي حديث بعده يؤمنون) . ان عظمة الله سبحانه تتجلى في القرآن تماماً كما تتجلى في الكون ، فمن لم يفتنح ويتفتح بالقرآن فلا يقنعه شيء . وتقدم بالحرف الواحد في الآية ١٨٥ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٤٢٩ .

الجزء الثالثون

سورة النبأ

٤٠ آية مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عم يساءلون الآية ١ - ١٦ :

عَمَّ بَسَأَ لُؤُنٌ * عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ * الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ * كَلَّا سَيَعْلَمُونَ *
ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ * أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مَبَادِئَ * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا * وَخَلَقْنَاكُمْ
أَزْوَاجًا * وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا * وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ
مَعَاشًا * وَبَفَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا * وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا * وَأَنْزَلْنَا
مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَبَجًا * لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا * وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا *

الطبعة :

النبأ هو الخبر الذي يهتم له . والمهاد الفراش . وأزواجاً ذكراً وأنثى . والنبات
بضم السين الموت ، والنوم إحدى المبتدئين . والمراد بالمعاش وقت طلب العيش .
والمعصرات السحاب . والشجاج المنصب بكثرة . وألفافاً ملتصقة الشجر لتقارب
الأغصان .

سورة النبا

الإعراب :

عمّ كلمتان : عن وما ، وادغمت الميم بالنون ، وحذفت الألف للفرق بين الاستفهام والخبر، ومثلها مم وبم ولمّ والى م وعلى م وحتى م ، وعم متعلق بيتساءلون. وعن النبا متعلق بمقدر كأن سائلاً يسأل: عن أي شيء يتساءلون فأجابه سبحانه وعن النبا العظيم ، أي يتساءلون عن النبا العظيم . الذي صفة للنبا . وكلا حرف ردع وزجر . وأزواجاً حال .

المعنى :

(عم يتساءلون عن النبا العظيم الذي هم فيه مختلفون) . أصول الاسلام ثلاثة : الإيمان بوحداية الله ، ونبوة محمد ، وباليوم الآخر ، وقوم رسول الله (ص) كانوا أبعد الناس عن هذه المبادئ ، ولذا تساءلوا وقالوا مستغربين : « أجعل الآلهة إلهاً واحداً ان هذا لشيء عجاب - ٥ ص » وأيضاً استكثروا على محمد (ص) ان يكون نبياً لا لشيء إلا لأنه فقير من المال، وقالوا فيما قالوا : « لولا انزل عليه كثر - ١٢ هود » .. وقالوا عن البعث : « إذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمدينون - ٥٣ الصافات » .. هذه المبادئ أو الأصول الثلاثة هي النبا العظيم الذي كان المشركون يسأل بعضهم بعضاً عنه .. وقوله سبحانه : « هم فيه مختلفون » يشير الى أنهم كانوا بين مصدق في الباطن دون الظاهر وبين مكذب ظاهراً وباطناً أو متردد .

(كلا سيعلمون ثم كلا سيعلمون) . هذا رد لانكارهم، وتهديد على عنادهم، وأكد سبحانه التهديد بالتكرار ، ثم بيّن الدلائل على قدرته ، وآيات حكمته ، عسى أن يؤوب الجاحدون الى رشدهم، ويخافوا يوم الحساب والجزاء الذي أنزلهم به الرسول ، فقال عز من قائل : (ألم نجعل الأرض مهاداً) ؟ ألا ترون كيف ذلل الله الأرض تنتفعون بها ، وتفترشونها تماماً كالمهد للصبي ؟ (والجبال أوتاداً) الجبال بالنسبة الى الأرض كالأوتاد بالنسبة الى الخيمة ، ولولا الجبال لاضطربت الأرض ومادت بسكانها .

الجزء الثلاثون

(وخلقناكم أزواجاً) أصنافاً ذكوراً واناثاً لحفظ النسل وبناء المجتمع (وجعلنا نومكم سباتاً) أي موتاً لأن النوم ضرب من الموت ، قال تعالى : « هو الذي يتوفاكم بالليل - ٦٠ الانعام » .. والنوم ضرورة للروح والجسم ، ولا تستقيم الحياة بدونه ، ولكن الاكثار منه مدموم ، قال الرسول الأعظم : « اياكم وكثرة النوم فان صاحبه فقير يوم القيامة » لأنه كان في الدنيا من البطالين . قال الإمام الصادق (ع) : ان كثرة النوم مذهبة للدين والدنيا (وجعلنا الليل لباساً) شبه سبحانه الليل باللباس لأنه يستر من الانسان ما لا يجب أن يطلع عليه غريب .

(وجعلنا النهار معاشاً) وقتاً للحركة والعمل من أجل الحياة ، وفي آية ثانية « وجعل النهار نشوراً » فالنوم كالموت ، والعمل في النهار كالبعث (وبنينا فوقكم سبغاً شداداً) . المراد بالسبع هنا الكواكب السيارة المعروفة عند الناس ، وإلا فإن وراها من الكواكب ما لا يبلغه الاحصاء ، ووصفها سبحانه بالشداد لأنها محكمة الصنع . وتكلمنا مفصلاً عن هذا الموضوع عند تفسير الآية ١٢ من سورة الطلاق بعنوان « سبع سموات ومن الأرض مثلهن » . (وجعلنا سراجاً وهاجاً) . المراد بالسراج هنا الشمس ، وفي ضوئها تعمل الخلائق من أجل الحياة (وأنزلنا من المصبرات ماء ثجاجاً) وهي السحاب تمصرها الرياح ، فتتهطل بالماء الغزير . (لنخرج به حباً ونباتاً) بالماء تحيا الأرض بعد موتها، وتخرج أقوات الانسان والحيوان وغيرهما ، ومثله : « وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النهي - ٥٤ طه » ج ٥ ص ٢٢٣ (وجنات ألفافاً) . أشجار ملتفة الأغصان يدخل بعضها في بعض .. وليس من شك ان من قدر على هذه العجائب فهو على إحياء الموتى أقوى وأقدر .. وتكرر هذا المعنى في عشرات الآيات ، منها : « حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقاه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون - ٥٧ الأعراف » .

يوم الفصل الآية ١٧ - ٣٠ :

إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا * يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا *

سورة النبا

وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا * وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا * إِنَّ
جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِلطَّاغِينَ مآبًا * لَا يَبِينُ فِيهَا أَهْقَابًا * لَا يَذُوقُونَ
فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا * إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا * جَزَاءً وَفَاقًا * إِنَّهُمْ كَانُوا
لَا يَرْجُونَ حِسَابًا * وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا * وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ
كِتَابًا * فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا *

اللفظ :

يوم الفصل هو يوم القيامة . وميقاناً وقتاً للحساب والجزاء . والمرصاد مكان
الارتقاب والانتظار . والمآب المرجع . وأحقاب جمع حقب وهو أمد غير معلوم ،
وقيل : انه ثمانون سنة . والحميم الماء الحار . والغساق الصبح والصديد . وفاقاً
من وافق .

الإعراب :

أفواجاً حال من فاعل تأتون . للطاغين متعلق بمِرصاد . وقيل : مآباً بدل من
مِرصاد ، والظاهر انه خبر ثان لكانت . ولابئين حال من الطاغين . وأحقاباً
ظرف والعامل فيه «لابئين» . وجزاء نصب على المصدرية أي جزيناهم جزاء .
ووفقاً صفة لجزاء . وكتاباً مفعول مطلق لأحصيناه لأن الكتاب بمعنى الكتابة ،
وأحصينا يتضمن معنى كتبنا .

المضى :

(إن يوم الفصل كان ميقاناً) . يوم الفصل هو يوم القيامة ، وفيه يفصل بين

الجزء الثلاثون

الحق والباطل، وله وقت معين ولكن لا يعلمه إلا الله، وفي هذا الوقت يفنى العالم ، وتنقل الخلائق الأحياء منهم والأموات الى عالم آخر لا يشبه دنيانا في شيء ، عالم لا باطل فيه ولا فناء ، ولا عمل وادعاء .. لا شيء إلا النعيم لمن أحسن ، والجحيم لمن أساء ، ومن دلائله ما أشار اليه سبحانه بقوله : (يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً) . والصور بوق يكبر الصوت ، ولا ندري : هل أراد سبحانه هذا المعنى أو هو كتابة عن بعث ما في القبور ؟ ومها يكن فإن الله سبحانه لم يكلفنا طلب هذا العلم ، ولا يتصل بحياتنا من قريب أو بعيد (وفتحت السماء فكانت أبواباً) . هذا كتابة عن خراب العالم العلوي بما فيه حيث يضطرب نظام الكواكب ، وينهب ما بينها من تماسك ، وقال الشيخ محمد عبده : « قد تكون السماء بالنسبة إلنا أبواباً في ذلك اليوم ندخل من أيها شئنا بإذن الله » . (وسيرت الجبال فكانت سراباً) أي شيئاً كلاً شيء كما قال سبحانه : « وبست الجبال بساً فكانت هباءً منثباً » - ٦ الواقعة ، أي فُتت حتى صارت كالسويق الملتوت أو الغبار المنتشر .

(ان جهنم كانت مرصداً للطاغين مآباً) . بعد ان ذكر سبحانه الدلائل على قدرته - هدد المكذبين بنوة محمد (ص) وبالبعث ، هددهم بأن جهنم لهم في الانتظار ، وهي مرجهم الوحيد ومقرهم الأخير (لابين فيها أحساباً) مقيمين في جهنم مدداً طوالاً لا حد لها ولا نهاية إلا ان يشاء الله (لا يفوقون فيها برداً ولا شراباً) . وهل يجتمع البرد والماء مع النار ؟ (الا حميماً وغساقاً) . هذا استثناء متصل لأن الحميم هو الماء المغلي على النار ، والغساق القيح والصدب اللذان يسيلان من الجسم المحروق بالنار (جزاءً وفاقاً) عذاباً يوافق أعمالهم وسيئاتهم في الحياة الدنيا « وجزاء سيئة سيئة مثلها » .

(انهم كانوا لا يرجون حساباً وكذبوا بآياتنا كذاباً) . لقد أعمت الدنيا وترفها قلوبهم وعقولهم فكيف يرجون لقاء الله، ويرون آياته وبيناته (وكل شيء أحصيناه كتاباً) . لا يخفى على الله من عباده ما اقترفوه في ليل أو نهار حتى ما يخرج في نفوسهم ، ويمر بضايرهم (فذوقوا ظنن يزيدكم الا عذاباً) . ليس لكم عند الله إلا العذاب ، ولا تأملوا الا بمضاعفته وشدته .

سورة النبا

ان للمتقين مفازاً الآية ٣١ - ٤٠ :

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَاذًا * حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا * وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا * وَكَأَسَاءَ
دِهَاقًا * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدَابًا * جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً
حِسَابًا * رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ
خِطَابًا * يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ
الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا * ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَا بَاءً *
إِنَّا أَنْزَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا * يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ
الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا *

اللغة :

مفازاً أي موضع الفوز وهو الجنة . وكواعب جمع كاعب وهي الجارية التي
استدار ثديها وبرز . وأتراباً على سن واحدة . ودهاقاً مترعة طافحة . واللغو ما
لا فائدة فيه ولا يعتد به . وحساباً أي كافياً وافياً .

الإعراب :

حدائق وأعناناً بدل بعض من مفاز . وجزاء نصب على المصدرية أي نجازهم
جزاء ، ومثله عطاء ، وحساباً صفة لعطاء لأنه بمعنى كاف . ورب السموات
بدل من ربك . والرحمن صفة للرب . ويوم يقوم .. نصب بلا مملكون . وصفاً في
مقام الحال أي مصطفين . وذلك مبتدأ واليوم خبر والحق صفة له . ويوم ينظر
متعلق بمحذوف صفة لعذاب . ويا ليتني يا ليتني .

المعنى :

(إن للمتقين مفازاً) بثواب الله ومرضاته، ومنجاة من عذابه وغضبه (حدائق وأعناباً) . خص سبحانه الأعتاب بالذكر لأهميتها عند المخاطبين (وكواعب أتراباً) حوراً في سن واحدة ولم تتدل أنداؤهن (وكأساً دهاقاً) طافحة بما لذ وطاب (لا يسمعون فيها لغواً ولا كذاباً) . لا يقولون ولا يسمعون كلاماً لا يعتد به ولا أساس له من الحق والواقع ، وفيه إيماء الى ان أهل الجنة وإن كانوا بلا عمل فإنهم لا يخوضون بما يخوض فيه أهل البطالة في الحياة الدنيا (جزءاً من ربك عطاء حساباً) . كلمة جزاء تشير الى ان الثواب على العمل الصالح حق لا بد منه ، وكلمة عطاء تسمى الى ان الله يزيدهم من فضله زيادة كافية وافية بما يجيئون ويشتهون . وتقدم مثله في عشرات الآيات، منها الآية ٦ وما بعدها من سورة مريم.

(رب السموات والأرض وما بينها الرحمن لا يملكون منه خطاباً) . ضمير لا يملكون يعود الى الخلائق الذين يوسى اليهم ذكر السموات والأرض لأن الله ربها ورب من فيها، والمعنى ان تلك الحدائق وغيرها مما أنعم الله بها على المتقين، هي من الرحمن الرحيم ومالك الملك الذي لا أحد يملك ان يخاطبه يوم القيامة في شأن الثواب والعقاب ، فهو وحده يتصرف (يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً) . قيل : المراد بالروح هنا جبريل لأن الله سبحانه أسماه بالروح الأمين في الآية ١٩٣ من سورة الشعراء : « نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين » . وقال الشيخ عبده : « الروح من مخلوقات الله الغيبية عسا التي لم نكلف بالبحث عن حقائقها » . والمعنى ان الملائكة يصطفون في يوم القيامة ، ويملاؤون الجو هيبه ورهبة ، وهم على طاعتهم وقربهم من الله لا يتحركون بأية حركة ، ولا ينطقون بأية كلمة إلا بإذن منه تعالى، وهو لا يأذن بالكلام لهم ولغيرهم إلا من كانت حياته كلها صواباً وصدقاً. وعدلاً وحقاً ، وأيضاً لا يقول المأذون له إلا ما شاء الله وأراد .

(ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ الى ربه مآباً) . يوم القيامة حتى لا ريب فيه ، والناس يوبذاك فريقان : فريق الى النار والبعد عن الله ورحمته ، وفريق الى القرب من الله وجمته ، والطريق اليها واضح وممهّد . وهو العمل الصالح مع

سورة النبأ

صدق السريرة ، وما على الانسان إلا أن يشاء ، ويعمل مخلصاً بموجب مشيئته وورغبته في دخول الجنة (إنا أنلرناكم عذاباً قريباً) وهو عذاب القيامة لأن كل آت قريب ، ولأن من مات فقد قامت قيامته ، وهل من شيء أقرب الى الانسان من الموت ؟ (يوم ينظر المرء ما قدمت يداه) في الحياة الدنيا خيراً كان أو شراً ، ومثله : « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء - ٣٠ آل عمران ، ج ٢ ص ٤٤ (ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً) . في يوم الحق يتمنى المجرم أن يكون تراباً تدوسه الأقدام لشدة ما هو فيه ويأسه من الخلاص .. وهكذا كل مضيق تذهب نفسه مع الحسرات والعبوات .

سورة النازعات

٤٦ آية مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والنازعات غرقاً الآية ١ - ١٤ :

وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا * وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا * فَالسَّابِقَاتِ
سَبْقًا * فَالْمُدْبِرَاتِ أَمْرًا * يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتَّبِعُنَا الرَّادِفَةُ *
قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ * أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ * يَقُولُونَ أَنَا لَمْرَدُونَ * فِي
الْحَافِرَةِ * إِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً * قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ * فَإِنَّمَا
هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ *

اللغة :

النازعات قيل : هي الكواكب . والناشطات تنقلب من برج إلى برج .
والسابحات تتحرك في الهواء . والسابقات تتم دورتها . والمدبرات كناية عن آثارها
كالضياء وما إليه . والراجلة الأرض . والرادقة السماء . واجفة خافقة . خاشعة
ذليلة . والحافرة الحالة الأولى . والساهرة وجه الأرض أو الأرض البيضاء .

سورة النازعات

الإعراب :

غرفاً مفعول مطلق للنازعات لأن الفرق هنا نوع من الترفع . وأمرأ مفعول به للمديرات . ويوم متعلق بجواب القسم المقدر وهو لتبعثن .

المعنى :

(والنازعات غرفاً) . لقد تعددت أقوال المفسرين في النازعات وما بعدها ، ولنلخص منها قول الشيخ محمد عبده بشيء من التصرف الذي يتفق مع غرضه .. من تتبع آي الذكر الحكيم يجد ان الله تعالى أقسم بالأزمته والأمكنة وأشياء أخر .. ومن تأمل في جميع ما أقسم به وجده شيئاً قد أنكر الناس وجوده، أو احتقروه، أو لم ينتبهوا الى ما فيه من الدلائل على قدرة الله وعظمته، فيقسم تعالى بما أنكروا لتقرير وجوده ، أو بما احتقروا لتعظيم شأنه ، أو تنبيهاً إلى ما فيه من الدلائل على قدرته ، جلت عظمته ، وأقسم هنا ببعض مخلوقاته إظهاراً لاتقسان صنعها وغزارة فوائدها ليعلم المكذبون بالبعث ان من قدر على ذلك فهو على إحياء الموتى أقوى وأقدر .

والمراد بالنازعات الكواكب لأنها ترمي بالسهب ، يقال : نزع عن القوس أي رمى عنها ، وأيضاً يقال : اغرق في الرمي إذا بالغ فيه (والناشاطات نشطاً) . تقول العرب : نشط فلان نشطاً من المكان اذا خرج من بلد الى بلد ، وعليه يكون المعنى ان الكواكب تتقلب من برج الى برج (والسباحات سبحاً) أي ان الكواكب تتحرك في الفضاء (فالسابقات سبقاً) . تتم دورتها بسرعة حول ما تدور عليه، ومعلوم ان سرعة كل شيء بحسبه من حيث الضخامة وعدمها (فالمديرات أمرأ) أي ان الكواكب يظهر أثرها الى الخارج بما ينفع الناس كمعرفة الأوقات والأقطار ، واختلاف الفصول ، وما الى ذلك من أسباب الحياة .

هذا تلخيص لحوالى ثلاث صفحات من جزء عمّ للشيخ محمد عبده ، سطرها في معنى هذه الكلمات ، ونحن لا نجزم بقوله ولا بقول من قال : ان النازعات هي الملائكة أو غيرها وغير الكواكب ، لا نجزم بشيء من هذه الأقوال لأنها لا

الجزء الثلاثون

تستند الى دليل ، والراسخون في العلم يعرفون بالجهل والعجز عن معرفة الغيب ، ولا يقولون ما لا يعلمون .

(يوم ترجف الراجفة) أي الأرض لقوله تعالى : « يسوم ترجف الأرض والجبال - ١٤ المزل » والمعنى ان الأرض تضطرب يوم القيامة بمن فيها ، ويعترها الخراب والدمار (تتبعها الرادفة) وهي السماء وما فيها تردف الأرض أي تتبعها خراباً ودماراً ، قال تعالى: « اذا السماء انفطرت واذا الكواكب انتثرت - ٢ الانفطار » . (قلوب يومئذ واجفة أبصارها خاشعة) . المراد بالقلوب هنا قلوب المجرمين حيث تدرك يوم القيامة ما يحل بها وبأصحابها من ألم العذاب، فتنتزع خوفاً ورعباً ، ويظهر أثر ذلك واضحاً في عيون المجرمين أرباب القلوب الخائفة في ذلك اليوم وقد كانت من قبل كقلوب الانعام السائمة في غباوتها والصخور في قساوتها .

(يقولون أننا لمردودون في الحافرة) . الحافره في اللغة الرجوع الى الحالة الأولى بعد الخروج منها ، والمعنى كيف نعود الى الحياة بعد أن نتقل منها الى الموت ؟ عجباً (أننا كنا عظاماً نخرة) بالية لمبعوثون خلقاً جديداً ! (قالوا تلك اذا كرة خاسرة) أنكروا البعث، فهددهم سبحانه بعذاب الجحيم ، فقالوا ساخرين: اذن ، نحن أخسر الناس صفقة في يوم القيامة !. ثم ماذا ؟ وأية غرابة في ذلك؟ ألسم أنصار الباطل والضلال ؟ « ويوم تقوم الساعة يومئذ ينحصر المبطلون - ٢٧ الجاثية » . (فلأنما هي زجرة واحدة) . هذا من كلامه سبحانه يرد به على المكذبين الساخرين ، ومعناه ان إحياء الموتى على الله سهل يسير « إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون - ٥٣ يس » . (فإذا هم بالساهرة) فما ان تنطلق الصيحة حتى يحشر الله الخلق على أرض بيضاء . قال الشيخ محمد عبده : سميت بذلك لأن السراب يجري فيها ، من قولهم : عين ساهرة أي جارية الماء لا ينقطع جريانه منها .

سورة التازعات

هل اتاك حديث موسى الآية ١٥ - ٣٣ :

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى *
إِذْ هَبَّ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى * وَأَهْدِيكَ
إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشى * فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى * فَكَذَّبَ وَعَصَى * ثُمَّ أَدْبَرَ
يَسْعَى * فَحَشَرَ فَنَادَى * قَالَ أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى * فَأَخَذَهُ اللهُ نَكَالَ
الْآخِرَةِ وَالْأُولَى * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشى * أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا
أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ
ضِحَاهَا * وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا *
وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا * مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ *

اللغة :

الوادي سفح الجبل ويجري الماء . وطوى اسم للنك الوادي . تزكى تطهر
من الشرك . فحشر فجمع . والنكال العذاب . والمراد بسمكها هنا كواكبها .
فسواها وضع كل كوكب في مكانه الطبيعي . وأغطش أظلم . ودحاها مهدها .
وأرساها أثبتها .

الإعراب :

طوى بدل من الوادي على القول : انه اسم له . ولك متعلق بمحذوف خبراً
لمبتدأ محذوف ، والمصدر من أن تزكى متعلق بالمبتدأ المحذوف أي هل لك حاجة

الجزء الثلاثون

إلى التزكية ، وأصل تركى تركى . ونكال مفعول مطلق لأخذه لأن الأخذ هنا يتضمن معنى العذاب فكانه قال : عذبه الله عذاب الآخرة والأولى . وخلقاً تمييز . والأرض مفعول لفعل محذوف يفسره دحاها وكذلك الجبال أرساها . وثناء مفعول من أجله لأخرج .

المعنى :

(هل أتاك حديث موسى) . هذه تسلية من الله سبحانه لئيبه الكريم محمداً (ص) وان الله سينصره على أعدائه كما نصر موسى الكليم . وتقدم بالحرف في الآية ٩ من سورة طه (إذ ناداه ربه بالوادي المقدس طوى) هو وادي في أسفل جبل طور سيناء ، وطوى اسم للوادي . وتقدم مثله في الآية ١٢ من سورة طه (اذهب إلى فرعون انه طغى) وتمادى في طغيانه حتى ادعى الربوبية . وأيضاً تقدم بالحرف في الآية ٢٥ من سورة طه (قل هل لك الى ان تركى) هل ترغب في التطهير من الشرك والردائل ؟ (واهدبك إلى ربك فتخشى) ومن خشى الله لا يطفى ويعثر في الأرض فساداً .

سخر فرعون من موسى وقال : « أهذا المهين » بهدي « رب العالمين » ! (فأراه - موسى - الآية الكبرى) وهي انقلاب المعصية (فكذب وعصى) أنكر المعجزة وقال : هي سحر (ثم ادبر يسرى) في تدبير الكيد لموسى (فحشر فنادى) جمع السحرة وأعوانه (فقال أنا ربكم الأعلى) ما علمت لكم من إله غيري .. هذا بيان وتفسير لندائه في سحرته وأعوانه ، وأكثر الناس اليوم وقلبه وبعده يدعون الربوبية لو وجدوا من يصدقهم (فأخذه الله نكال الآخرة والأولى) . عذبه بالفرق في الدنيا ، وبالحرير في الآخرة (ان في ذلك لعبرة لمن يخشى) العواقب ، فيحاط لها ، وينجو منها ، أما من يذهل عنها فتأخذه من مأمته .

(أنتم أشد خلقاً أم السماء بناها رفع سمكها فسواها) . الخطاب في « انتم » للذين كذبوا بالبعث ، والمعنى ايها اعظم : إعادة الانسان كما بدأه اول مرة ام انشاء هذه السماء واتقانها ونظامها ؟ ومثله : « فاستنهم أهم اشد خلقاً ام من

سورة النازعات

خلقنا - ١١ الصافات ، ج ٦ ص ٣٣٢ قال الشيخ محمد عبده : البناء ضم الأجزاء المتفرقة بعضها إلى بعض حتى يتكون بناء واحد ، وهكذا صنع الله الكواكب ، وضع كل كوكب في مكان على نسبة من الكوكب الآخر يتجاذبان ويتناسكان فكان المجموع بناء واحداً يسمى سماء ، وهذا هو معنى قوله تعالى : « رفع سمكها فسواها » أي رفع أجرامها فوق رؤوسنا فعدلها بوضع كل جرم في موضعه .

(واغطش ليلها واخرج ضحاها) . أغطش أظلم ، وأخرج أضاء ، والضمير في ليلها وضحاها يعودان إلى السماء لأن منها الظلام بغروب الشمس ، ومنها الضياء بشروق الشمس . (والأرض بعد ذلك دحاها) أي بسطها ومهدها بحيث تصبح صالحة للسكن والسير ، وفي كتاب محاولة لفهم عصري للقرآن ما نصه: « دحاها أي جعلها كاللدحية « البيضاء » وهو ما يوافق أحدث الآراء الفلكية عن شكل الأرض .. ولفظه دحا تعني أيضاً البسط ، وهي اللفظة العربية الوحيدة التي تشتمل على البسط والتكوير في ذات الوقت ، فتكون أولى الألفاظ على الأرض المبسوطة في الظاهر المكورة. في الحقيقة .. وهذا منتهى الإحكام والحفاء في اختيار اللفظ الدقيق المبين .

(اخرج منها ماءها ومرعاها) . كل ما في الأرض من الماء هو من السماء ، قال تعالى : « وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض - ١٨ المؤمنون » . ثم يفجر سبحانه هذا الماء ينابيع وعيوناً وأنهاراً ، فيخرج النبات يأكله الناس والدواب (والجبال أرساها) . أثبتها كيلا تميد وتضطرب بمن فيها : « وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم - ١٥ النحل » (متاعاً لكم ولأنعامكم) . خلق سبحانه الأرض ومهدها وثبتها وفجر فيها المياه وأخرج النبات ، كل ذلك وغير ذلك لحبر الانسان والانعام التي ينتفع بها الانسان ، فهل جاء هذا كله صدفة وجزافاً ، أم ان الذي أوجده وأنشأه أول مرة يعجز عن اعادته وانشائه ثانية ؟ : « وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه - ٢٧ الروم » .

فَإِذَا جَاءَتْ الطَّامَةُ الْكُبْرَىٰ * يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَىٰ * وَبُرَزَتْ
الْجَحِيمُ لِمَن بَرَىٰ * فَأَمَّا مَن طَغَىٰ * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ
هِيَ الْمَأْوَىٰ * وَأَمَّا مَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ *
فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ * يُسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ
أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا * إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا * إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَّن يَخْشَاهَا *
كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا *

اللفظ :

الطامة الكبرى القيامة لأنها تطم على كل داهية . والمأوى المستقر . ومقام الله
الجلال والمظلة . والعشية آخر النهار ، والضحى أوله .

الإعراب :

يوم يتذكر «يوم» مفعول لفعل محذوف أي اعني يوم يتذكر . فأما من طغى
جواب إذا جاءت . وإبان خبر مقدم ومعناها متى ، ومرساها مبتدأ مؤخر . فيم
خبر وأنت مبتدأ ومن ذكرها متعلق بما تعلق به الخبر . وإلى ربك منتهاها مبتدأ
وخبر على حذف مضاف أي منتهى علمها . وعشية على حذف مضاف أيضاً أي
عشية يوم ، وضمير ضحاهها يعود إلى عشية لأن كلاً من العشية والضحى جزء
من يوم واحد .

المعنى :

(فإذا جاءت الطامة الكبرى) . إذا قامت القيامة دمرت للكون بأرضه وسمائه ، ولم يبق من شيء إلا خالق كل شيء .. وهذه هي الطامة الكبرى ، وأي شيء أكبر منها وأعظم ، ومن هنا قيل : ما من طامة إلا وفوقها طامة ، والقيامة فوق كل طامة (يوم يتذكر الانسان ما سعى) . إذا انتقل من الفانية إلى الباقية يرى صحيفة أعماله مع الجزاء ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، وعندئذ يتذكر سعيه في الحياة الدنيا وما كسبت يده (وبرزت الجحيم لمن يرى) لا يحجبه عن رؤيتها حاجب ، ولا يحرسها منه حارس ، وفوق ذلك : « وان منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً - ٧١ مريم » .

(فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى) . من انتقاد إلى أهوائه وأوردته المهالك ، ومن تغلب عليها أبصر الطريق ، وبلغ من الخير غايته .. والهوى علة اللعل ، وصدق من قال : من أطاع هواه أعطى عدوه منه . وقال آخر : إن حقيقة الانسان هي نفسه ، فإذا تغلب عليها الهوى اصبح مخلوقاً آخر لا يشبه الانسان في قلبه ولا عقله . وما قاله الإمام علي (ع) في وصف من قاس الحق بأهوائه : « لا يعرف باب الهدى فيتبعه ، ولا باب العمى فيجتنبه ، فذلك ميت الأحياء » . وتجدر الإشارة إلى ان المراد بالهوى ما خالف الحق والعدل، وإلا فإن النفس تشتهي الحلال كما تشتهي الحرام .

(يسألونك عمن الساعة إيان مرساها) متى تقوم القيامة ؟ (فيم أنت من ذكراها الى ربك منتهاها انما أنت منذر من يحشاها) . يطلبون منك يا محمد أن تحدد لهم اليوم الذي تقوم فيه القيامة ، ولا يدخل هذا في اختصاصك ، ولا في شيء من وظيفتك ، والمطلوب منك ان تخوف الناس من القيامة وأهوالها ، أما متى تكون فعلم ذلك عند الله ، وقد شامت حكمته أن يخفيها عن عباده حتى الأنبياء والمقربين . وأن لا تأتيهم إلا بغتة . وتقدم مثله في الآية ١٨٧ من سورة الأعراف : « يسألونك عن الساعة إيان مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يجليها

الجزء الثلاثون

لوقتها الا هو نقلت في السموات والارض لا تأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك خفيّ عنها قل إنما علمها عند الله ، ج ٣ ص ٤٣١ .

(كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها) . أنكروا القيامة حتى اذا رأوها أيقنوا انها الحق الذي لا ريب فيه ، وانها دار القرار ، وان الدنيا طريق اليها و عمر ، فإذا طوت أهلها بالموت أدركوا ان أعمارهم فيها كانت أشبه بطيف او بساعة من نهار .. ومثله الآية ٤٥ من سورة يونس : « ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار » ج ٤ ص ١٦٤ .

سورة عبس

٤٢ آية مكة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عبس ونولى الآية ١ - ١٦ :

عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى * أَوْ
يَذْكُرُ فَتَنَفَعَهُ الذِّكْرَى * أَمَا مِنْ اسْتَغْنَى * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى * وَمَا
عَلَيْكَ إِلَّا يَزْكَى * وَأَمَا مِنْ جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنْتَ عَنْهُ
تَلْهَى * كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ * فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ *
مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ *

اللغة :

صحف كتب . ومكرمة من التكرم والتعظيم . ومرفوعة من رفعة القدر وعلو
الشأن . ومطهرة منزهة عن العبث والضلال . وسفرة وسفراء جمع سفير وسافر
والمراد بهم هنا الملائكة والأنبياء . والبررة جمع بار .

الإعراب :

المصدر من ان جاءه مفعول من أجله لعبس . وما يدريك مبتدأ وخبر . ومن

الجزء الثلاثون

استغنى مبتدأ وأنت مبتدأ ثان وجملة تصدى خبر الثاني والجملة منه ومن خبره خبر الأول وأصل تصدى تصدى . وما عليك «ما» نافية تعمل عمل ليس واسمها محذوف . وعليك متعلق بمحذوف خبراً لما النافية، والمصدر من ان لا تزكى مجرور بفي المقدرة والمجرور متعلق باسم «ما» أي ما بأس كائن عليك في عدم تزكيتك . وضمير أنها آيات القرآن . وضمير ذكره لله أو للقرآن . وفي صحف صفة لتذكرة أي مثبتة في صحف مكرمة ، ويجوز ان تكون في صحف خبراً لمبتدأ محذوف أي هي في صحف .

من هو العابس ؟

اتفق المفسرون على ان الأعمى هو ابن ام مكتوم صاحب رسول الله (ص) وابن خال خديجة زوجة الرسول ، واختلفوا في العابس . فقيل : انه مجهول ، ولهذا القول وجه ، لأن الله سبحانه ذكره بضمير الغائب، ولم يبين لنا من هو ؟ . ومثله كثير في القرآن، ومنه : « ثم ذهب الى أهله يتمطى القيامة - ٣٣ . وقيل : هو رجل من بني أمية كان عند رسول الله (ص) فلما رأى الأعمى تقدر منه ، وأعرض عنه . والمشهور بين المفسرين وغيرهم ان الذي عبس وتولى هو رسول الله (ص) ، وان السبب لذلك ان ابن مكتوم اتاه وهو في مكة ، وكان عنده عتاة الشرك من ذوي الجاه والمال : عتبة وشيبة ابنا ربيعة وابو جهل والوليد بن المغيرة وغيرهم ، وكان مقبلاً عليهم ، ومشغولاً بهم دون الجالسين ، يذكّرهم بالله ، ويحذرهم عاقبة الشرك والبغي ، ويعددهم خير الدنيا والآخرة ان أسلموا ، وهو يرجو بذلك هدايتهم ، وان يكونوا قوة للاسلام ، وان يكفوا شرهم - على الأقل - وكان الاسلام ضعيفاً آنذاك وفي محنة وشدة من كيدهم وعدائهم .

فقطع الفقير الأعمى كلام الرسول مع القوم ، وقال : علمني يا رسول الله شيئاً أنتضع به مما علمك الله .. فضى الرسول في كلامه مع القوم ، ولما أعاد الأعمى وكرر كره الرسول منه ذلك ، وظهرت كراهيته في وجهه ، فعاتب سبحانه نبيه الكريم بضمير الغائب « عبس وتولى » ثم بضمير المخاطب « واما من استغنى فأنت له تصدى » .

سورة عبس

هذا ما ذهب اليه أكثر المفسرين ، وله وجه أرجح وأقوى من الوجه الأول
لمكان ضمير المخاطب « أنت » فان المراد به الرسول - بحسب الظاهر - وعليه
يكون بياناً وتفسيراً للضمير الغائب في عبس والتفاتاً من الغائب الى الحاضر.. ولكن
قول المفسرين : ان الله عاتب النبي على ذلك لا وجه له على الاطلاق حيث لا
موجب للعتاب في فعل الرسول (ص) لأنه أراد أن يقتنم الفرصة قبل فواتها مع
أولئك العتاة ، أن يقتنمها ويستغلها لمصلحة الاسلام والمسلمين لا لمصلحته ومصلحة
أهله وذويه ، أما تعليم المسلم الأحكام والفروع فليس له وقت محدود بل هو
ممکن في كل وقت ، وبتعبير الفقهاء ان اسلام الكافر مضيق يفوت بفوات وقته ،
أما تعليم المسلم أحكام الدين فوسع يمكن القيام به في أي حين ، والمضيق أهم ،
والموسع مهم والأهم مقدم بحكم العقل .. اذن ، عمل الرسول آنذاك كان خيراً
وحكمة .

وتسأل : على هذا ينبغي أن يوجه اللوم والعتاب على الأعمى دون غيره مع
ان الله سبحانه قد أنى عليه ، ودافع عنه ؟

الجواب : لا لوم ولا عتاب على النبي ولا على الأعمى في هذه الآيات، وانما
هي في واقعها تحقير وتوبيخ للمشركين الذين أقبل عليهم النبي بقصد أن يستميلهم
ويرغبهم في الاسلام لأن الله يقول لنبيه في هذه الآيات : لماذا تتعجل النصر لدين
الله ، وتسلك اليه كل سبيل حتى تبلغ الأمر ان ترجو الخير وتأمل هداية أشقى
الخلق وأكثرهم فساداً وضللاً .. دعهم في طغيانهم ، وأغظ لهم ، فانهم أحقر
من أن ينتصر الله بهم لدينه ، وأضعف من أن يقفوا في طريق الاسلام وتقدمه ،
فإن الله سيذل أعداءه مها بلغوا من الجاه والمال ، ويظهر دينه على الدين كله
ولو كره المشركون .. فهذه الآيات قريبة في معناها من قوله تعالى : « فلا تذهب
نفسك عليهم حسرات - ٨ فاطر . ثم انتقل سبحانه الى تقرير الحقيقة المطلقة ،
وهي « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » قررهما بأسلوب آخر ، وهو ان الذي يخشى
ويزكى وتنفعه الذكري هو الذي يستحق التكريم والتعظيم ، أما من يعرض عن
الحق ولا ينتفع بمواعظ الله فيجب نبذه واحتقاره ، وان كان أغنى الأغنياء وسيد
الوجهاء .

(عيسى وتولى ان جاءه الأعمى) وهو ابن ام مكتوم، قصد الرسول الأعظم (ص) يسأله عن أحكام دينه ، فأعرض عنه لاشتغاله بما هو أهم كما ذكرنا .. وكان هذا الأعمى من المهاجرين الأولين ، والمؤذن الثاني لرسول الله (ص) واستخلفه على المدينة يصلي في الناس أكثر من مرة . وقيل: انه ولد أعمى وان اسمه عبدالله، ووصفه سبحانه بالأعمى للإشارة الى عذره في الالحاق بالمسألة (وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى) . أي شيء جعلك دارياً وعارفاً بحقيقة هذا الأعمى؟. ولو استجبت لرغبته وألقيت بعض أحكام الدين لانفع وعمل بما تلقى عليه.

(أما من استغنى فأنت له تصدى) .أعرضت عن يشعر بالحاجة الى ما عندك من علم الله ، وأقبلت على من يرى نفسه في غنى عن الله وعندك بما يملك من جاه ومال ، ترجو هدايته ورجوعه عن الضلال . وهل ترجى الهداية ممن أعماه الهوى والجهل : « فأنت تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون - ٤٣ يونس » . (وما عليك أن لا يزكى) لا شيء عليك ولا على الاسلام من كفر الكافر وضلاله ، ومثله : « وان تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً - ٤٢ المائدة » . (واما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى) . تشاغلت بالمشركين طمعاً بإسلامهم وهدايتهم ، وتعاقلت عن المؤمن الذي قصدك للاستفادة من علمك اتكالاً على ايمانه ، وان في وقت التعليم سعة وفسحة .. فدع الطغاة لله وحده فهو لهم بالمرصاد ، وأقبل على من تفتح قلبه للهدى والخير .

(كلا) ان الله لا ينصر دينه بمن يرى نفسه في غنى عن الله وعندك بما عنده من جاه ومال ، وانما ينصر الحق بالطيبين أمثال هذا الأعمى ، وان كانوا من الفقراء والمساكين (انها تذكرة فمن شاء ذكره) . صمير انها يعود الى آيات القرآن أو الى الهداية التي فيه ، وضمير ذكره يعود الى الله او الى القرآن، والمعنى ان هذا القرآن كاف واف في الهداية لمن طلبها ، وما عليك يا محمد إلا البلاغ والتذكير ، ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، ثم وصف سبحانه هداية القرآن وتعاليمه وأحكامه بقوله : (في صحف مكرمة) لها شأنها وكرامتها عند الله

(مرفوعة) عالية بتعاليمها النافعة ، وحكمتها البالغة (مطهرة) من العبث والضلال (بأيدي سفرة كرام برة) . ان تلك الصحف الإلهية في حصن حصين ينقلها الملائكة المقربون عن العلي الأعلى الى أنبيائه المعصومين ، وهم يبلغونها بدورهم الى الناس بدقة وأمانة .

قتل الانسان ما اكفره الآية ١٧ - ٤٢ :

قَتَلَ الْإِنْسَانَ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ
فَقَدَرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ * ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ *
كَلَّا لَمَّا يُفْضِ مَا أَمَرَهُ * فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ
صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعَيْنًا وَقَضْبًا *
وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَائِقَ غُلْبًا * وَفَاكِهَةً وَأَبًّا * مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ *
فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاعَةُ * يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ *
وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ * وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ
مُسْفِرَةٌ * صَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْنَا عَابِرَةٌ * تَرَاهُهَا
قَتَرَةٌ * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ *

اللة :

المراد بقتل هنا الدعاء بالعذاب والمهلك . والمراد بالانسان المجرم . فقدره اي
أنشأه خلقاً بعد خلق وطوراً بعد طور . وأنشره أحياء بعد الموت . والقضب ما

الجزء الثلاثون

يؤكل رطباً طرياً من الخضار والبقول ويقطع مرة بعد مرة . وغلباً ضخمة وعظيمة . والأبُّ مرعى الدواب . والمراد بالصاخة القيامة مثل القارعة ، وفي تفسير الرازي : معنى الصاخة الصاكة للأذان بشدة صوتها . وترهقها نغشاها . وقرة سواد .

الإعراب :

ما أكفّره « ما » نكرة بمعنى شيء عظيم وعملها الرفع بالابتداء . وأكفّره فعل ماضٍ لا يتصرف ، وفيه ضمير مستتر يعود على « ما » والهاء مفعول به لأن المعنى شيء عظيم جعله كافراً . السبيل مفعول لفعل مقدر أي يسر السبيل يسره للانسان . ولما يقض أي لم يقض . وما ا- موصول مفعولاً ليقض والعائد محذوف أي ما أمره به . والمصدر من أنا بدل اشتمال من طعامه . غلباً صفة لحدائق وهي جمع غلباء . ومتاعاً مفعول من أجله لأنبتنا . وجواب إذا جاءت محذوف أي فما أعظم ندم المجرمين .

المعنى :

(قُتِلَ الانسان ما أكفّره) . جاء في تفسير الرازي نقلاً عن جماعة من المفسرين : « ان المراد بالانسان هنا كل غني ترفع على فقير بسبب الغنى وال فقر » . ونحن مع هذا القول أولاً ، لأن الواقع يؤيده ويشهد به ، فلولا الطمع والتكالب على الحطام وكثر المال لعاش الناس في رفاة وأمان . قال الشيخ محمد عبده : « ان هذا الدعاء على الانسان بأبشع الدعوات هو كناية عن انه قد بلغ من الفجح مبلغاً لا يستحق معه الحياة ، ومنشأ الشناعة نسيانه لما يتقلب فيه من النعم ، وذهوله عن مسدبها حتى اذا ذُكّر بالحق أعرض عن الذكرى » .. ولا شك في نممة الوجود والادراك والسمع والبصر ، بل هي من أعظم النعم ، ولكن نممة الوجود وما اليه لا تبث على التعالي والطغيان ما دامت عامة شاملة ، وإنما السنن يخرج الانسان المجرم عن حده ويبعثه على البغي والعدوان هو احساسه بثروته وامتيازه عن غيره .

سورة عبس

(من أي شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره) . من أنت أيها الانسان الضعيف حتى تستنكف عن طاعة الله ، وتتطاول على عباده ؟ فكّر في أصلك ، وفي انتقالك من خلق الى خلق ، وفي مصيرك ومآلك .. فسن الذي أوجدك ولم تك شيئاً ، وأنشأك في بطن أمك حالاً بعد حال ، ثم أخرجك في أحسن تقويم .. هل الصدقة فعلت هذا كله ؟ (ثم السبيل يستره) . مهد للانسان الطريق الى الخير بشيئين : الأول الارشاد اليه والترغيب فيه . الثاني العقل والقدرة على العمل . وأيضاً مهد له الطريق الى الحياة بشيئين : الأول ما أودعه تعالى في الطبيعة من الخيرات الكافية بحاجاته . الثاني ما أودعه في الانسان من الطاقة والاستعداد لاستغلال الطبيعة وتكييفها كما يشاء . وتقدم مثله في العديد من الآيات . انظر تفسير الآية الأولى وما بعدها من سورة الانسان .

(ثم أماته) بعد انقضاء أجله (فأقره) أمر سبحانه بدفن الانسان بعد موته ، ونهى عن تركه مطروحاً للوحوش والطيور اشارة الى كرامته عند الله حتى بعد خروج الروح منه فكيف اذا كان حياً ؟ (ثم اذا شاء نشره) . خلقه ثم أماته فأقره ، ثم يبعثه كما كان للحساب والجزاء .. ولولا هذا البعث لكان وجود الانسان عبثاً في عبث . انظر تفسير الآية ٤ من سورة يونس فقرة « الحساب والجزاء حتم » . أما قوله تعالى : « اذا شاء » فيشير الى انه هو وحده يعلم متى يكون الحشر والنشر (كلا لما يقض ما أمره) . الضمير في يقضي يعود الى الانسان المجرم المهمل ، والمعنى لقد زدنا الانسان بجميع الطاقات والمعدات لفعل الحشر وصالح الأعمال ، وما تركنا له من عنبر يتطل به ، ومع ذلك أهمل وقصر أكثر الناس ، بل ان الكثير منهم طغوا وبغوا واتخذوا من نعم الله عليهم وسيلة للفساد والاعتداء على العباد .

(فليظنر الانسان الى طعامه) وهو بين يديه ، وفيه قوام حياته ووجوده ، فليظنر اليه ، ويسأل عقله : من الذي يسر له هذا الطعام ؟ الطبيعة ؟ ومن الذي أوجد الطبيعة ؟ الصدقة ؟ وهل للصدقة عقل يقدر ويدبر ؟ فأوجدت الطبيعة بما فيها من أسباب الطعام والشراب وما الى ذلك من الدقة واحكام الصنع (انّا صبينا الماء صباً) . كلا .. الله وحده هو الذي أوجد الماء وأنزله من السماء ، وصبق أكثر من مرة ان الظواهر الكونية تسند اليه تعالى لأنه مصدر الوجود وسبب الأسباب

الجزء الثلاثون

(ثم شققنا الأرض شقاً فأبتنا فيها حباً وعباً وقصباً) أي ان النبات يشق تربة الأرض ليخرج منها تماماً كما يشق الفرخ قشرة البيضة التي هو فيها (وزيتونا ونخلًا وحدائق عُلباً) جمع غلباء وهي الضخمة العظيمة من الشجر وغيرها : والمعنى ان تلك الحدائق عظيمة بأشجارها وثمارها ، وظلالها وجبالها .

(وفاكهة وأبا متاعاً لكم ولأنعامكم) . والابُ المرعى ، والمتاع ما يتمتع به الانسان والحيوان . قال الشيخ محمد عبده : « روي ان أبا بكر الصديق سئل عن الأب فقال : أي سماء تظلني وأي أرض تقطنني اذا قلت في كتاب الله ما لا علم لي به ؟ وعن عمر بن الخطاب انه قرأ هذه الآية فقال : كل هذا عرفناه فسا الأب ؟ . ثم رفض عصاً كانت بيده أي كسرهما وقال : هذا لعمر الله التكلف ، وما عليك يا ابن أم عمر أن لا تدري ما الاب ؟ .. ولا تظن ان سيدنا عمر ينهى عن تتبع معاني القرآن ، وانما يريد أن يعلمك ان الذي عليك من حيث انت مؤمن ان تفهم جملة المعنى . »

(فإذا جاءت الصاخة) القيامة ، وهي تصك الآذان بصوتها حتى تكاد تصمها (يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه) . لا أحباب ولا أنساب يوم القيامة لأن كل انسان مشغول بنفسه منصرف لما هو فيه عن غيره .. هذا ، إلى انه أعزل من كل شيء . وفيه إيماء الى ان الذين يحرص الانسان عليهم في الحياة الدنيا ، وبعضهم الله من أجلهم - لا يفنون عنه شيئاً في الآخرة ، ولا هو عنهم بمن شيئاً . وفي بعض التفاسير : ان ذكر الأرحام في الآية جاء على الترتيب الطبيعي حيث قدمت الأخ ثم الأبوين ثم الزوجة والولد لأن عاطفة الانسان نحو أبويه أقوى منها نحو أخيه ، وعاطفته نحو زوجته وولده أقوى منها نحو أبويه . فكأنه قال تعالى : يفر المرء من أخيه بل من امه وأبيه بل من صاحبته وبنيه .

(وجوه يومئذ مسفرة) اي مضيئة ، من أسفر الصبح (ضاحكة مستبشرة) فرحاً وسروراً بما أعد الله لها من المقام الكريم والأجر العظيم (ووجوه يومئذ عليها غبرة) الذل والهوان (ترهقها قفرة) يطوها سواد الحزن والكآبة (اولئك هم الكفرة الفجرة) . ووصف الكفرة بالفجور يرمي الى ان الفاجر المتهتك هو والكافر بمنزلة سواء عند الله حتى ولو حافظ على الصلوات الخمس في أوقاتها .

سورة عبس

والشيخ محمد عبده كلام طويل حول هذه الآية نلخصه بالآتي : « من طلب الحق لوجه الحق وعمل به ، او ادركه الموت وهو لا يزال في طلبه - من كان هذا شأنه في الحياة الدنيا فهو الذي يضحك ويستبشر يوم القيامة بفضل الله ، ومن احتقر عقله وشغل نفسه بتبرير الأهواء والتهامس الحيل لتقرير الباطل كما كان يفعل أعداء الأنبياء فهو الذي يعلو وجهه سواد الحزن ، وغبرة الذل يوم القيامة لأنه من الكفرة الفجرة ، ذلك ان الدين ينهى عن الفواحش ، وهو يقترفها ، الدين يأمر بصيانة المصالح العامة ، وهو يفتك بها ، الدين يطالب أهله ببذل المال في سبيل الخير ، وهو يسلب المال ليتفقه في سبيل الشر ، الدين يأمر بالعدل ، وهو أظلم الظالمين ، الدين يأمر بالصدق ، وهو يكذب ويحب الكاذبين .. ومن كان هذا شأنه فإذا يكون حاله يوم يتجلى الجبار ، ويرتفع الستار ؟ » .

سورة التکویر

٢٩ آية مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إذا الشمس كورت الآية ١ - ١٤ :

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ* وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ* وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ*
وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ* وَإِذَا الْوُحُوشُ حُيِّرَتْ* وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ*
وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ* وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ* بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ* وَإِذَا
الصُّحُفُ نُشِرَتْ* وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ* وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ* وَإِذَا
الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ* عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أُحْضِرَتْ*

الإعراب :

إذا ظرف زمان بمعنى وقت ، وتتضمن معنى الشرط ، ومحلها نصب بجوابها وهو « علمت نفس ما أحضرت » . وارتفعت الشمس بفعل محذوف يفسره الموجود أي إذا كُوِّرَتْ الشمس كورت . ومثلها إذا النجوم انكدرت وما بعدها .

المعنى :

أشار سبحانه في هذه الآيات الى بعض ما يحدث يوم القيامة الى ساعة الحساب ، وتلك الحوادث هي :

سورة التكوير

١ - (اذا الشمس كوّرت) . معنى التكوير الف ، ومنه تكوير العمامة ، والمراد من تكوير الشمس طيها وخفاؤها بعد ان كانت ظاهرة للعيان، بل ومضرب المثل في الوضوح والظهور ، وسبب طيها ما يعترها من الخراب .

٢ - (واذا النجوم انكدرت) . وانكدار الشيء انقلابه حتى يصير أسفله أعلاه ؛ والمراد من انكدار النجوم تساقطها وانتثارها . وفي الآية ٢ من سورة الانفطار : « واذا الكواكب انتثرت » .

٣ - (واذا الجبال سيرت) . اقتلعت من أماكنها ، وسارت في الهواء .

٤ - (واذا العشار عطلت) . العشار النوق الحوامل ، وهي أنفوس وأئمن مال عند العرب ، وعطلت تركت وامهلت . وهذا كناية عن شدة الهول وذهول الانسان عن كل شيء في ذلك اليوم .

٥ - (واذا الوحوش حشرت) . تنفر مذعورة عند خراب الكون ، وتموت خوفاً . وقال الرازي وصاحب مجمع البيان : « ان الله يجمع الوحوش حتى يقتص لبعضها من بعض » . ويلاحظ بأن الله لا يحاسب حتى يكلف ، ولا يكلف حتى يهب العقل .. به يثيب ، وبه يعاقب ولو كان للوحوش عقل لامتنت عن الانسان ، وكانت معه بمنزلة سواء .

٦ - (واذا البحار سجرت) . في كتب اللغة سجّر البحر فاض ماؤه ، وعليه يكون المعنى ان مياه البحار تنطلق هنا وهناك، لا بمسكها شيء نتيجة لخراب الكون ، ومثله « واذا البحار فجرت - الانفطار » . وقال الشيخ محمد عبده : قد يكون تسجيرها ضرامها ناراً ، فإن ما في بطن الأرض من النار يظهر إذ ذاك بتشققها ، وعندئذ ينهب الماء بخاراً ، ولا يبقى في البحار إلا النار ، وقد ورد في بعض الأخبار ان البحر غطاء جهنم ، والبحث العلمي أثبت ذلك، ويشهد عليه غليان البراكين والبراكين .

٧ - (واذا النفوس زوجت) . أي عادت كل نفس آدمية الى الجسم الأول الذي فارقت عند الموت .

٨ - (واذا المومودة سئلت بأي ذنب قتلت) . وهي البنت الصغيرة تُدْفَن

الجزء الثلاثون

- حية ، فإنها تبعث وتسال على مسمع من وائدها : لماذا وأدك الوائدون ؟ ليكون أشد وقعاً على الوائد . أنظر تفسير الآية ٥٨ من سورة النحل ج ٤ ص ٥٢٣ .
- ٩ - (واذا الصحف نشرت) . يعطى لكل انسان غداً كتاب اعماله خبرها وشرها . وقد يكون هذا كتابة عن ان أعمال العباد يوم القيامة تظهر لهم بكاملها كما هي ، ومنها يكن فاعلنا ان نبعث عن حقيقة تلك الصحف والكتب .
- ١٠ - (واذا السماء كَشِطَّتْ) . اي كشفت وأزيل منها الكواكب التي كانت تحجب ما وراءها كما يزال الجلد عن الذبيحة ، ويظهر ما تحته من اللحم .
- ١١ - (واذا الجحيم سعرت) . أوقدت واضمرت .
- ١٢ - (واذا الجنة ازلقت) . قُربت من أهلها، وقرَّبوا منها لأنها أعدت لهم ، وأعدوا لها . ومثله « وأزلقت الجنة للمتقين غير بعيد - ٣١ ق » .
- (علمت نفس ما أحضرت) . هذا جواب الشروط الاثني عشر المتقدمة ، والمعنى اذا حدث ما سبق ذكره أقدم كل انسان على ربه ، وهو يعلم ماذا يحمل معه من الأعمال ، وما تزود به من خير أو شر . وفي نهج البلاغة : « وان قادماً يقدم - على ربه - بالفوز أو الشقوة لمستحق لأفضل العدة ، فتزودوا في الدنيا من الدنيا ما تجزون به أنفسكم » .

الخنس والكنس الآية ١٥ - ٢٩ :

فَلَا أَقِيمُ بِالْخُنُسِ * الْجَوَارِ الْكُنُسِ * وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ * وَالصُّبْحِ
 إِذَا تَنَفَّسَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ
 مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ * وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ * وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ
 الْمُبِينِ * وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ *
 فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ * إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ *
 وَمَا تَشَاوُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ *

الخنس جمع. خانس وخناسة من خنس الشيء اذا رجع والجواري جمع جارية من الجري . والكنس جمع كانس وكناسة من كنس الظبي اذا استتر في المكان الذي يأوي اليه، والمراد بالخنس والكنس هنا النجوم . وعمس الليل من الاضداد يستعمل بمعنى أقبل وأدبر ، والمراد هنا الإدبار لقوله تعالى : « والليل اذا أدبر والصبح اذا أسفر - ٣٣ المدثر » . وتنفس الصبح أسفر وامتد نوره . والمراد بالرسول هنا جبريل . وذو العرش الله . ومكين صاحب مكانة . والأفق المبين هو الأفق الأعلى الذي ذكره سبحانه في الآية ٧ من سورة النجم ، وضنين بنحيل .

: الاعراب :

الجواري صفة للخنس . وضميم انه يعود الى القرآن الذي دل عليه السياق ، والجملة جواب القسم . وكريم وما بعده صفة لرسول. وما صاحبكم عطف على انه لقول الخ وكذلك وما هو . أين تذهبون « أين » ظرف مكان منصوب محلاً بترع الخافض أي الى أين، وفي مجمع البيان : تقول العرب : ذهبت الشام وخرجت الشام أي منها وإليها . ولئن شاء بدل بعض من العالمين بإعادة حرف الجر .

المعنى

(فلا أقسم) . أسلفنا ان « لا » هذه عند أكثر المفسرين زائدة ، وعند البعض منهم نافية على أساس ان الأمر واضح لا يحتاج الى قسم .. ونتيجة القولين واحدة ، قال الشيخ محمد عبده : يؤتى بهذه العبارة اذا أريد تعظيم المقسم به ، وانه لا يعظم بالمقسم لأنه عظيم بنفسه (بالخنس الجواري الكنس) المراد بالخنس الكنس جميع النجوم ، وقيل : بل النجوم الخمس فقط: عطارد والزهرة والمريخ والمشتري وزحل ، وهي جوارٍ لأنها تدور في أفلاكها ، واختلفوا لماذا وصفت بالخنس الكنس ؟ قال الشيخ محمد عبده ما معناه: ان الله سبحانه وصفها بالكنس

الجزء الثلاثون

لأنها تخفي عن الرائي في ضوء الشمس كما تخفي الظبية في كناسها ، ووصفها سبحانه بالخس لأنها ترجع الى الظهور للعيان بعد غياب الشمس ، ويتفق هذا في نتيجته مع تفسير الطبرسي في مجمع البيان حيث قال ما نصه بالحرف : « هي النجوم تخس بالنهار ، وتبدو بالليل » . والفرق بين التفسيرين ان الخس هنا عند صاحب المجمع هو الاختفاء ، والكنس الظهور ، والعكس عند الشيخ محمد عبده .. وعلى أية حال فإن الله سبحانه أقسم بالنجوم للتنبه الى ما في صنعها من الدلائل على قدرة المبدع وحكمته .

(والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس) . هذا قسم ثان منه تعالى بإدبار الليل وإقبال النهار لأنه عطف على القسم . وفي كتاب محاولة لفهم عصري للقرآن : « تقرأ في القرآن ألفاظاً فترك في السمع ريناً وأصداءً وصوراً حينما يقسم الله بالليل والنهار فيقول : « والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس » .. «عسعس» .. هذه الحروف الأربعة هي الليل مصوراً بكل ما فيه .. « والصبح إذا تنفس » ان ضوء الفجر هنا مرئي ومسموع .. انك تكاد تسمع سقسقة المصفور وصيحة الديك » .

(انه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين) . هذا جواب القسم ، وضمير انه للقرآن المفهوم من السياق ، والمراد بالرسول جبريل، وأصاف سبحانه القرآن الى جبريل لأنه حامله وناقله عن الله الى رسول الله (ص)، ولجبريل كرامة ومكانة عند الله ، وهو امين على التنزيل ، وقوي على أدائه وعلى غيره من الأعمال الموكلة اليه . وتقدم مثله في الآية ٦ من سورة النجم (مطاع ثم أمين) ثم بمعنى هناك ، وهي اشارة الى المكان الذي يطاع فيه جبريل ، وهو من عالم الغيب الذي لا يعرف حقيقته إلا الله .

(وما صاحبكم بمجنون) . الخطاب لعنة قريش ، وصاحبهم محمد (ص) ، وقد رماه بعضهم بالمجنون كما جاء في الآية ٦ من سورة الحجر « وقالوا يا ايها الذي نزل عليه الذكر انك لمجنون » ج ٤ ص ٤٦٨ . فبرأه الله مما يفترون . وتقدم مثله في الآية ٢ من سورة القلم (ولقد رآه بالأفق المبين) . أنقولون : محمد مجنون حين يخبركم عن الجنة والنار ؟ . كلا ، ان القرآن وحي من الله، وأوحاه

سورة التكوير

الى رسوله بلسان جبريل الذي رآه محمد في الأفق الواضح على صورته وحقيقته
رؤية صادقة لا شك فيها . وتقدم مثله في الآية ١٢ من سورة النجم .

(وما هو على الغيب بضنين) . ضمير هو لرسول الله(ص) والغيب القرآن،
والعنى ما كان محمد ليكنم القرآن ، ويسكت عن إعلان الحق مخافة ان تقولوا
ايها المشركون : هو مجنون ، بل يعلنه على الاشهاد ولا تأخذه في الحق لومة لائم
(وما هو بقول شيطان رجيم) . هذا رد لزعهم بأن ما يتكلم به الرسول قد
نفثه الشيطان على لسانه .. وهل توحي الشياطين بالهدى والخير ، والحق والعدل ؟
(فأين تذهبون) في أحكامكم وضلالكم ؟ (إن هو إلا ذكر للعالمين) . ان القرآن
أمر بالخير ، زاجر عن الشر ، وفوق هذا كله فيه تبيان كل شيء فكيف يكون
قول شيطان رجيم ؟ .

(لمن شاء منكم أن يستقيم) . القرآن هدى وصلاح لمن يرغب في الهداية
والاستقامة ، أما من يصر على الضلال فلا ينتفع بذكر ، ولا تؤثر فيه عظة(ولا
تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين) . قال الرازي : هذه الآية تدل على ان
الانسان مسير غير محير .. ويرده أن معنى الآية هو ان الله سبحانه طلب من العبد
أن يستقيم على جادة الحق والعدل ، ولكن المعاند يأبى إلا الانحراف، ولا يستقيم
إلا إذا أجبره الله على ذلك .. وهذا يتنافى مع عدل الله وحكمته ، وبتعبير ثانٍ
ان الله سبحانه خلق الانسان مختاراً ذا عقل و ارادة ، وميژه بذلك عن الحيوان ،
ومن ثم كلفه بالطاعة من دونه ، ولو شاء سبحانه لسلب الانسان ارادة العقل ،
وجعله كالحيوان أو أحمط منه .

سورة الانفطار

١٩ آية مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ *
وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ * عَلِمْتَ نَفْسُ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ * يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ
مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ
صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ * كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالذِّينِ * وَإِنَّ عَلَيْكُمْ
لِحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ * إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ *
وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ * يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الذِّينِ * وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ *
وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الذِّينِ * نُمْ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الذِّينِ * يَوْمَ لَا
تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ *

الإعراب :

السماء فاعل لفعل مقدر يفسره الفعل الموجود ، وكذلك الكواكب والبحار
والقبور . علمت نفس جواب اذا . وما غرك « ما » استفهام مبتدأ وجملة غرك

سورة الانفطار

خبر . والذي خلقك صفة ثانية لربك . وفي أي صورة متعلق بربك وما زائدة إعراباً وجملة شاء صفة لصورة، ولم يقرن ركبك بالفاء لأنها بيان لذلك . وكراماً صفة لحافظين وكذلك كاتبين . وما أدراك « ما » مبتدأ وجملة أدراك خبر . وما يوم الدين « ما » خبر مقدم ويوم مبتدأ مؤخر . ويوم لا تملك « يوم » مفعول لفعل مقدر أي اذكر يوم لا تملك .

المعنى :

هذه السورة تماماً كالسورة السابقة ، تعرض صوراً لبعض ما يحدث عند قيام الساعة ، وما بعدها من الحساب والجزاء .

(اذا السماء انفطرت) انشقت وتساقتت كواكبها ، ومثله « فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان - ٣٧ الرحمن » . (واذا الكواكب انثرت) هوت وبادت (واذا البحار فجرت) ارتفعت أمواجها وانطلقت مشرقة ومغربة ... أو تبخر ماؤها ، واندمجت النيران من باطنها . انظر تفسير « واذا البحار سجرت » في السورة السابقة. (واذا القبور بعثرت) البعثة والبعثرة في اللغة اثاره الشيء بقلب باطنه الى ظاهره ، وبالعكس ، والمراد هنا من البعثرة ان الساعة آتية لا ريب فيها « وان الله يبعث من في القبور - ٧ الحج » . (علمت نفس ما قدمت وأخرت) . بعد البعث يعلم كل انسان ما قدمت يدها من خير أو شر ، وما ترك منها .

(يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك) . فسواك أي أودع فيك من القوى الظاهرة والباطنة ما جعلك انساناً كاملاً ، وعدلك أي جعل أعضائك متوازية ، فلم يجعل احدى يديك أطول من الأخرى ، ولا احدى العينين أصغر ، ولا بعض الأعضاء اسود والبعض الآخر ابيض الخ .

واختلفوا : ما هو المراد من الكريم في قوله تعالى : « ما غرك بربك الكريم » ؟ فقال البعض : وصف سبحانه نفسه هنا بالكريم ليلهم عبده المذنب الجواب ، ويعلمه ان يقول غداً اذا سئل عن ذنبه : غرني عفوكم وكرمكم .. وقال الشيخ

الجزء الثلاثون

محمد عبده : هذا تلاعب بالتأويل ، وتضليل للناظر في كتاب الله .. واللاتق ان يفسر الكريم هنا بالعظيم في جميع صفاته تعالى ، وان من كان كذلك فلا يترك عيبه سدى بلا سؤال ولا جزاء ، بل يحاسبهم ويثيب الأخيار منهم ، ويعاقب الأشرار ، وعليه فلا ينبغي للانسان أن يفتّر بالدنيا وزخرفها .

وللإمام علي (ع) كلام طويل حول هذه الآية، أدرج مع خطب نهج البلاغة ، ويتلخص في مجمله بالآتي : ما الذي جرأك أيها الانسان على معصية ربك ، وأنت تقيم في كنفه ، وتنقلب في نعمه ؟ هل غرك منه إقباله عليك بالنعم، وأنت متولٍ عنه الى غيره ؟. أما تعلم ان هذا الإقبال تفضل منه عليك ، وإمهال لك كسي تؤوب الى رشدك وترجع عن غيك ؟.

وعلى هذا يكون المراد بكرمه تعالى في الآية هو إمهاله لعبده المذنب وعدم أخذه بالعقوبة العاجلة ، وان عليه أن يبادر الى التوبة والإنابة ، ولا يقتر بالإمهال والإمداد .

(في أي صورة ما شاء ركبت) قال بعض المفسرين : أي لم يجعلك خنزيراً أو حماراً . وقال آخر : صورتك كما أراد طولاً أو قصراً ، سواداً أو بياضاً .. والذي نفهمه من هذه الآية هو فكّر أيها الانسان في إحكام خلقك، واتقان تركيبك لتدرك عظمة الله في خلقه ، وان الذي أنشأك في أحسن تقويم قادر على ان يعيدك الى الحياة ثانية (كلا بل تكذبون بالدين) . ارتدعوا عن ضلالكم الذي لا مصدر له إلا التكذيب بالبعث .. فإنكم محاسبون ومسؤولون لا محالة عما كنتم تعملون (وان عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون) من خير أو شر ، ولا يسترکم منهم شيء ، ومعنى كرام انهم أقوياء أمناء يؤدون مهتهم على أتم الوجوه وأكملها . وتقدم مثله في الآية ٨٠ من سورة الزخرف . وتجدد الإشارة الى ان الذي يجب علينا اعتقاده ان أعمال العباد تُحفظ وتُحصى ، أما كيف ؟ وبأي شيء ؟ فنحن غير مسؤولين عن ذلك .

(ان الأبرار لفي نعيم وان الفجار لفي جحيم يصلونها يوم الدين) . الأبرار هم أهل الصلوة وصالح الأعمال ، وجزاؤهم عند ربهم مغفرة وأجر كريم ، والفجار هم الذين يعيشون في الأرض فساداً ، وجزاؤهم نزل من حيم وتصلية جحيم (وما هم عنها بغائبين) مطرف عين .. أبداً شقاء لازم ، وعذاب دائم (وما أدراك

سورة الانفطار

ما يوم الدين) . انك تجهل حقيقة اليوم الآخر .. انه فوق التصور بشدائده وأهواله
(ثم ما أدراك ما يوم الدين) . هذا تأكيد وتضخيم لنكاله وأثقاله (يوم لا تملك
نفس لنفس شيئاً) . لا أحد يملك نفعاً ولا ضرراً في ذلك اليوم لنفسه ولا لغيره
(والأمر يومئذ لله) فهو المتفرد بالأمر والنهي ، فلا مشير ولا نصير ، بل ولا
شفيح إلا لمن اذن له الرحمن وقال صواباً .

سورة المطففين

٣٦ آية مكية ، وقيل مدنية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ويل للمطففين الآية ١ - ١٧ :

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سِجِّينٍ * وَمَا أَذْرَاكَ مَا سِجِّينُ * كِتَابٌ مَّرْقُومٌ * وَيَلُوكُ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * الَّذِينَ يُكْذِبُونَ يَوْمَ الدِّينِ * وَمَا يُكْذَبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ * ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ *

الإعراب :

ويل مبتدأ، وللمطففين خبر . الذين صفة للمطففين . والمصدر من أنهم مبعوثون

سورة المطففين

ساد مسد المفعولين ليظن . ويوم يقوم يوم ، منصوب بمبعوثين . وما أدراك مبتدأ وخبر ، ومثله ما سجين . وكتاب خبر مبتدأ مقدر أي هو كتاب مرقوم . والذين يكذبون صفة للمكذبين . وأثيم صفة لمتدي . وأساطير خبر مبتدأ مقدر أي هي أساطير .

المعنى :

(ويل للمطففين) . الويل الهلاك والعذاب ، والمطففون فئة من الأقوياء يتاجرون بقوتهم ونفوذهم .. أنهم يبيعون ويشتررون ، ولكنهم يشتررون بأخس الأثمان ، ويبيعون بأغلاها ، وفي الحالين يحققون أقصى حد من الأرباح ، ويرغمون الناس بطريق الاحتكار أو بغيره على الاستسلام لجورهم ، ويبررونه باسم العمل الحر والتجارة الحرة .. وتطورت أساليب الاستغلال مع الزمن وتقدم العلم واكتشاف الأسواق ، وظهور البترول وغيره من المعادن .. وأخيراً وجد مطففو هذا العصر في صناعة الحرب وسياسة الركض وراء التسلح - أفضل الوسائل لترسيم الثروات ، وحفظ الأرباح في أعلى المستويات .

ويبتدىء تاريخ التطفيف بما أشار اليه سبحانه بقوله : (الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون) . أي كالوا لهم أو وزنوا لهم .. أنهم يستعملون الكيل والميزان ، ولكن عندهم مكيالان وميزانان ، فيأخفون بالأعلى ويعطون بالأدنى .. وبدل هذا على ان المطففين كان لهم من القوة ما يكرهون به الناس على ما يريدون ، وقد تكون هذه القوة مالاً أو جاهاً أو احتكاراً أو غير ذلك فالهم عندهم هو الربح أي كان سببه !.. ومهما كان معنى التطفيف والمطففين فإن المراد هنا كل من أخذ من الناس بالباطل أو منهم الحق ظلماً وعدواناً .

(ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين) . لنفترض ان الذين يأكلون أموال الناس بالباطل لا يعتقدون بلقاء الله وناره وجنته .. ولكن ألا يظنون ذلك أو يهتمونه - على الأقل - وبمجرد الاحتمال بأن الانسان سيقوم بين يدي رب العالمين لتقاس الحساب كافٍ في الردع والإحجام .. وكيف

الجزء الثلاثون

يحجم الانسان عما يظن بل يتوهم انه يعود عليه بالضرر اليسير في الحياة الدنيا ، ولا يحجم اذا ظن انه ملاق ربه الذي لا يفاضر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وعاقب عليها ؟ .. اللهم إلا اذا جحد من غير شك وتردد .

(كلا) لا يظن الذين يأكلون أموال الناس بالباطل انهم غير مبعوثين ليوم عظيم يقف فيه الناس بين يدي الله للحساب والجزاء . قال الشيخ محمد عبده : لا فرق بين من أنكر اليوم الآخر وبين من تأول فيما يدفع عنه العقاب وينجيه من الحساب ، فإن التأويل لا يعتمد به عن منزلة المنكر ، بل هو معه في النار ويشس القرار (ان كتاب الفجار لفي سجين) . كتاب هنا مصدر بمعنى الكتابة . واختلفوا في معنى سجين ، وأقرب الأقوال الى الافهام انه اسم للسجل الذي أثبت فيه أسماء الفجار وأعمالهم ، والى هذا ذهب صاحب مجمع البيان لأنه قال : « هو ظاهر التلاوة » ووافقته الشيخ محمد عبده وقيل : هو من السجن بمعنى الحبس (وما أدراك ما سجين) . من الذي جعلك به دارياً ؟ فان علمه عند الله وحده (كتاب مرقوم) فيه علامات تدل على أعمال المسئين .

(ويل يومئذ للمكذبين الذين يكذبون بيوم الدين) . هذا تهديد ووعيد لمن يكذب باليوم الآخر . وتقدم في العديد من الآيات . انظر سورة المرسلات (وما يكذب به إلا كل معتد أثم اذا تلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين) . ضمير به يعود الى يوم الدين ، والمراد بآياتنا القرآن .. واليوم الآخر عذاب وجحيم على الطغاة المعتدين فكيف يؤمنون به ؟ قال الشيخ محمد عبده : من كان ميالاً الى العدل في أخلاقه وأفعاله فأيسر شيء عليه التصديق باليوم الآخر ، ومن اعتدى على حقوق الناس يكاد يمتنع عليه الاذعان بأخبار الآخرة لأن في ذلك قضاء على نفسه بالسفه ، وحكماً عليها بالظلم (كلا) ليس القرآن واليوم الآخر بأساطير وخرافات كما يزعم الجاحدون (بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) . تراكت الذنوب على قلوب المجرمين حتى أعمتها عن رؤية الحق .

(كلا) . ارتدعوا عن الذنوب التي تعميكم عن الحق (انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) . لقد حجبتهم المعاصي عن الله ، وحالت بينهم وبين رحمته (ثم انهم لصالو الجحيم) . بعد أن يطردهوا من رحمة الله يُقذف بهم في سواء الجحيم

سورة المطففين

(ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون) . يقول لهم ملائكة العذاب هذا القول زيادة في الابلام والتكليل . وتقدم مثله مراراً ، من ذلك الآية ٢٠ من سورة السجدة .

خاتمه مسك الآية ١٨ - ٣٦ :

كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلَيِّنَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلَيُونَ * كِتَابٌ
مَرْفُومٌ * يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ * إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى الْأَرَائِكِ
يَنْظُرُونَ * تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ * يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ *
خِتَامُهُ مِسْكٌ * وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ * وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ *
عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ * إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا
يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا
فَكَهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ * وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ
حَافِظِينَ * فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ * عَلَى الْأَرَائِكِ
يَنْظُرُونَ * هَلْ نُؤِيبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ *

الإعراب :

ما أدراك وما مبتدأ وأدراك فعل ماضٍ والجملة خبر . ما عليون مبتدأ
وخبر . كتاب خبر لمبتدأ محذوف أي هو كتاب . عيناً مفعول لفعل مقدر أي
أعني عيناً . فكهين حال ، ومثله حافظين .

المعنى :

(كلا) . ارتدعوا عن التكذيب باليوم الآخر (ان كتاب الأبرار لفي عليين) هو سجل أثبت فيه أسماء الأبرار وأعمالهم ، وقد أودع في مكان عال يتفق مع مقام الأبرار وعليه يكون معنى كتاب الكتابة (وما أدراك ما عليون) لا يُدرك بوجه ، ولا يقدر بفهم (كتاب مرقوم) . فيه علامات تدل على كريم الأفعال ، وجليل الصفات (يشهده المقربون) . هذا الكتاب لا ريب فيه ، وهو محسوس يراه كل من يقرب منه . وقيل: المراد بالمقربين الملائكة (ان الأبرار لفي نعم) . هذا بيان لثواب أهل البر والاحسان (على الأرائك ينظرون) . الأرائك الأسيرة وينظرون أي تمتع أبصارهم بأهسى المناظر وأجملها (تعرف في وجوههم نفرة النعيم) . تدل ملاحظتهم انهم من أهل الجنة . وتقدم مثله في الآية ٣٨ من سورة عبس . (يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك) . الرحيق الخمر الصافية . وقد ختمت أوانيتها بالمسك بدل الطين (وفي ذلك فليتنافس المتنافسون) . نعيم الجنة هو الذي يستحق السباق والتنافس لأنه باقٍ بقاء الله ، أما حطام الدنيا فإلى زوال ، وكل حي فيها الى فناء (ومزاجه من تسنيم عينا يشرب بها المقربون) . ضمير مزاجه يعود الى الرحيق ، وهذا الرحيق ممزوج بماء من عين اسمها تسنيم ، وانما سميت بذلك لأن ماءها يأتي من العلو ، فطابق الاسم المسمى كما قال الشيخ محمد عبده . والمقربون هم الأبرار الذين أعد الله لهم ما ذكره من النعيم ، والغرض من هذه الآيات الحث والترغيب في الإيمان وصالح الأعمال .

(ان الذين أجزموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون) . بعد أن ذكر سبحانه المتقين ذكر المجرمين ، وانهم كانوا في الدنيا يمتثلون ويتعالون على المؤمنين ، ويتخفون منهم مادة للضحك والسخرية .. لا لشيء إلا لعجزهم عن رد الأذى (واذا مروا بهم يتغامزون) عليهم ساخرين بهم كما هو دأب الأراذل والاندال (واذا انقلبوا الى أهلهم انقلبوا فكهين) . متلذذين بالغبية وذكر السوء (واذا رؤهم قالوا ان هؤلاء لضالون) . وهكذا الخونة يزرون بالمخلصين ، والفجرة بالمتقين .. وفي تفسير الرازي : مرَّ الإمام علي (ع) وقرر من المسلمين بجامعة من المنافقين ، فضحكوا وتغامزوا ، ثم رجعوا الى أصحابهم وقالوا رأينا اليوم الأصلع ، فضحكوا

سورة المطففين

منه . فزلت هذه الآية قبل ان يصل علي الى رسول الله (ص) .
(وما أرسلوا عليهم حافظين) . ضمير أرسلوا للكفار، وضمير عليهم للمؤمنين، والمعنى ان الله سبحانه ما أرسل الكفار رقباء على المؤمنين حتى يحفظوا أعمالهم ، ويحصوا حركاتهم . وقال الشيخ محمد عبده : ضمير أرسلوا للمؤمنين ، وضمير عليهم للكافرين، والمعنى قال الكافرون : ما أرسل الله المؤمنين ليرشدونا ويعظونا . وهذا القول خلاف الظاهر وبعد عن الافهام .

(فالיום الذين آمنوا من الكفار يضحكون) . وضحك المؤمنين من المجرمين في اليوم الآخر - خير وفضيلة لأنه استخفاف بأعداء الله ، أما ضحك المجرمين من المؤمنين في الدنيا فهو جريمة كبرى لأنه استخفاف بأولياء الله (على الأرائك ينظرون) الى صنع الله بأعدائه وأعدائهم ، وتكيله بمن كان يهزأ بهم ويضحك منهم (هل تُوب الكفار ما كانوا يفعلون) . تُوب أي جوزي . ضحك الكفار من المؤمنين في الدنيا ، فأضحك الله المؤمنين من الكفار في الآخرة، واحدة بواحدة، ولكن شتان ما بين الاثنتين .

سورة الانشقاق

٢٥ آية مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إذا السماء انشقت الآية ١ - ١٥ :

إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وُحِّتْ * وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ *
وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وُحِّتْ * يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ
كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ * فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ
يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا * وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ
كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُو نُبُورًا * وَيَصَلِّي سَعِيرًا * إِنَّهُ كَانَ
فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا * إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ * بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا *

الإعراب :

العامل إذا محذوف أي أذكر إذا السماء الخ وأيضاً جواب إذا محذوف أي لقي
الإنسان خالقه . فلاقه خبر مبتدأ محذوف أي أنت ملاقيه . ومسوراً حال .
وان لن « ان » مخففة من الثقيلة أي انه . بلى إيجاب بعد النفي .

سورة الانشقاق

المعنى :

هذه السورة كسورتى التكوير والانفطار ، تبين أهوال القيامة ، وانقسام الناس في يوم الدين الى فريقين : فريق في الجنة ، وفريق في السعير (اذا السماء انشقت). تنشق وتنفطر حين يريد الله خراب العالم الذي نحن فيه (وأذنت لربها) . ومعنى أذن في اللغة استمع ، يقال : حدثته فأذن لي أي استمع لي ، وعليه يكون المعنى ان السماء استجابت وأذعت لأمر الله ، وبكلمة ان الله على كل شيء قدير (وحتت) أي وحتى لها ان تمتثل وتنقاد لأمره تعالى لأنها مخلوقة له وفي قبضته (واذا الأرض مدت) . اذا قامت القيامة فقدت الأرض تماسكها وزال ما فيها من جبال وغيرها ، وعندئذ تصبح الأرض ملساء (وألقت ما فيها) أي ما في جوفها من الأموات وغيرهم (وتخلت) . أصبح باطنها خالياً مما كان فيه (وأذنت لربها وحتت) تماماً كالسواء .. انه تعالى يتصرف في الكون بأرضه وسماؤه خلقاً وبقاء وفناء .

(يا أيها الانسان انك كادح الى ربك كدحاً فلاقه) . المراد بالكدح هنا عمل الانسان لنفسه من خير وشر ، والمعنى ان الانسان غير مخلد في الحياة الدنيا، وهو مجدّ في السير الى ربه ، وملاقه بأعماله لا محالة ، وليس بينه وبين لقاء الله إلا الموت ، وما دام العمر في إدبار ، والموت في إقبال فما أسرع الملتقى .. فلينظر ناظر ماذا أعد للقاء الله وحسابه ؟ (فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً وينقلب الى أهله مسروراً) . كل من آمن وعمل صالحاً يؤتى غداً كتابه بيمينه ، والمراد بأهله هنا المؤمنون الصالحون من أمثاله حيث يجتمعون في الجنة على سرر متقابلين ، أما الحساب اليسير فهو الخفيف الهين الذي لا حرج فيه ولا مشقة ، وفي الحديث : من حاسب نفسه في الدنيا هان الحساب عليه في الآخرة .

(واما من أوتي كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثوراً ويصلى سعيراً) . المراد بمن أوتي كتابه وراء ظهره المجرم الآثم، والثبور الهلاك ، والسعير النار . وتقدم مثله في الآية ١٤ من سورة الفرقان .

الجزء الثلاثون

وتسأل : قال تعالى هنا : ان المجرم يُعطي كتابه من وراء ظهره ، وقال في الآية ٢٥ من سورة الحاقة : « واما من أوتي كتابه بشواه فيقول يا ليتني لم أوت كتابي ، فما هو وجه الجمع بين الآيتين ؟ »

وأجاب كثير من المفسرين بأن يمين المجرم تُغل الى عنقه يوم القيامة ، أما شماله فتُجمل وراء ظهره ، فيأخذ بها كتابه . وقال الشيخ محمد عبده : إتيان الكتاب باليمين أو اليسار أو وراء الظهر هو تمثيل وتصوير لحال المطلع على أعماله في ذلك اليوم .. فمن الناس من اذا كُشف له عمله ابتهج واستبشر ، وهو التناول باليمين ، ومنهم من اذا تكشفت له سوابق أعماله عبس وبسر ، وتمنى لو لم تكشف له ، وهذا هو التناول باليسار ، أو وراء الظهر ، اذن لا داعي الى الجمع بين الآيتين باختراع معنى لا يليق بكتاب الله كما جرى عليه كثير من المفسرين .

(انه كان في أهله مسروراً) . كان في الدنيا ، وهو بين أهله ، يلهو ويلعب ، ولا يفكر في حساب وجزاء (انه ظن ان لن يحسور) أي لن يرجع بعد الموت الى ربه ، ولا أحد يسأله عن ذنبه (بلى) . هو راجع ومسؤول ما في ذلك ريب (ان ربه كان به بصيراً) لا يخفى عليه شيء من أقواله وأفعاله ، فيحاسبه عليها ان خيراً فخير ، وان شراً فشر .

فلا أقسم بالشفق الآية ١٦ - ٢٥ :

فَلَا أَقْسِمُ بِالشَّفَقِ * وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ * وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ * لَتَرْكَبُنَّ
طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ * فَأَلْهَمَ لَآيُؤْمِنُونَ * وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا
يَسْجُدُونَ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ * وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ *
فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ
غَيْرُ مَمْنُونٍ *

سورة الانشقاق

المعنى :

(فلا أقسم بالشفق) . سبق الكلام عن « لا أقسم » أكثر من مرة . انظر تفسير الآية ٧٥ من سورة الواقعة والآية ١٥ من سورة التكويد .. والشفق الحمراء الباقية في الأفق من آثار غروب الشمس ، وقد يكون الغرض من القسم هو التنبيه الى هذا الوقت لأنه مرحلة الانتقال من النهار وأتعبه الى الليل وراحته .

(والليل اذا وسق) أي ضم وجمع ما تفرق وانتشر في النهار ، فأفراد الاسرة يجمعهم الليل بعد ان فرقه عمل النهار ، وكذا الجيران والأصحاب يجتمعون في الليل للسمر ، قال الشيخ محمد عبده : لا يخفى عليك ان ما انتشر بالنهار يجتمع بالليل حتى ان جناحيك اللذين تمدهما الى العمل في النهار تضمها الى جنبيك في الليل .. والليل يضم الامهات الى أفرأخها ، ويرد السائحات الى مناخها (والقمر اذا اتسق) . تم وتكامل نوره ليلة ١٣ و ١٤ و ١٥ ، وتسمى هذه الليالي بالليالي البيض .

(لتركبن طبقاً عن طبق) . هذا جواب القسم ، وقرئ بفتح الباء خطاباً للانسان ، وبضمها خطابياً للناس ، والمعنى لا بد أن يمر الانسان بالعديد من الأطوار ، فمن النطفة الى الجنين ، ومنه الى الطفولة ، الى الشباب ، ثم الكهولة ، الى الهرم وارذل العمر .. وأيضاً يلاقي في حياته ألواناً من الصحة والمرض ، والغنى والفقر ، والحزن والفرح .. وكذلك الجماعات تتقدم وتتأخر .. وهكذا تتصرف الدنيا بأهلها حالاً بعد حال حتى يقفوا جميعاً بين يدي الله للحساب والجزاء .

(فإلهم لا يؤمنون) مع ان الأسباب الموجبة للإيمان لا يبلغها الاحصاء في الآفاق وفي أنفسهم (واذا قرئ القرآن لا يسجدون) لا يعترفون به ولا يسلمون ، وقال الشيخ محمد عبده : لا تظن ان قرع القرآن لم يكسر أخلاق قلوبهم ، ولم يبلغ صوته أعماق ضمائرهم .. بلى قد بلغ واقع فيما بلغ ، ولكن العناد هو الذي يمنهم عن الإيمان ، فليس منشأ التكذيب قصور الدليل ، وانما هو- تقصير المستدل وإعراضه عن الهدى (بل الذين كفسروا يكذبون) بالحق

الجزء الثلاثون

مكابرة منهم وعناداً (والله أعلم بما يوعون) أي بما يضمرون في صدورهم من الأهداف والأغراض ، وما هي إلا الحرص على مناصبهم ومكاسبهم (فبشرهم بعذاب أليم) جزاء بما كانوا يعملون (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون) . الاستثناء هنا منقطع أي ولكن الذين آمنوا الخ ، وغير ممنون أي غير مقطوع ولا منقوص ولا يمن به عليهم . وتقدم بالحرف في الآية ٨ من سورة فصلت ج ٦ ص ٤٧٦ .

سورة البروج

٢٢ آية مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ * وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ * وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودِ * قِيلَ
 أَصْحَابُ الْأَخْذُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ
 عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ * وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا
 بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ * وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ
 شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ * ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا
 فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ * وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ * لَهُمْ جَنَّاتُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ * ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ *
 إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ * إِنَّهُ هُوَ يُبْدِيهِ وَيُعِيدُهُ * وَهُوَ الْغَفُورُ
 الْوَدُودُ * ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ * فَعَالٌ * لِمَا يُرِيدُ * هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ
 الْجُنُودِ * فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ * وَاللَّهُ مِنْ
 وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ * بَلِ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ *

الإعراب :

والسماء الواو للقسم . وذات البروج صفة للسماء . واليوم وما بعده عطف على السماء . وقُتِلَ جواب القسم ، وقيل الجواب محذوف . دل عليه قوله تعالى : « قتل أصحاب الاخدود » والتقدير : لقد ابتلي المؤمنون من قبلكم بأكثر مما ابتليتم . والنار بدل اشتمال من الاخدود . وذات الوقود صفة للنار . اذ هم واؤه في محل نصب بقتل . والمصدر من أن يؤمنوا مفعول لقموا .. وفرعون وثمود بدل من الجنود على حذف مضاف أي جنود فرعون وثمود .

المعنى :

(والسماء ذات البروج) . كل ما علاك فهو سماء ، أما البروج فقيل : هي الكواكب العظيمة ، لأن كل كوكب منها يبدو للعيان كالبرج العظيم ، وقيل : هي المنازل الاثنا عشر التي تعرفها العرب ، وتقطعها الشمس في سنة بظاهر الرؤية وهي برج الحمل والثور والجوزاء ، والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدى والسدلو والحوت .. وسواء أريد المعنى الأول أم الثاني أم هما معاً فإن الغرض هو التنبيه الى ما في الكواكب من دقة الصنع وبالغ الحكمة نستدل بذلك على وجود الخالق وعظمته (واليوم الموعود) هو يوم القيامة .

(وشاهد ومشهود) . تعددت الأقوال وتضاربت في معنى الشاهد والمشهود هنا ، وقد أنهى بعض المفسرين الأقوال الى ٤٨ قولاً ، منها ١٦ في معنى الشاهد ، و ٣٢ في معنى المشهود !.. وقال الشيخ محمد عبده : المراد بالشاهد هنا كل ما له حس يشاهد به ، والمراد بالمشهود الشيء المحسوس الذي وقعت عليه المشاهدة ، واستدل على صحة هذا التفسير بأمرين : الأول انه الحقيقة الظاهرة من دلالة اللفظ . الثاني ان الله سبحانه أقسم أول ما أقسم بكواكب السماء ، وفي هذه الكواكب غيب وشهادة ، أما الشهادة فلأن نورها وحركاتها وطلوعها ومغيبها كل ذلك يُرى بالحس والمشاهدة ، وأما الغيب فلأن حقيقتها وما فيها من قوى لا يدرك بالمشاهدة والحواس .. ثم أقسم سبحانه باليوم الآخر ، وهو غيب صرف

سورة البروج

لا يتصل بالمشاهدة من قريب أو بعيد ، ثم أقسم بالشاهد والشهود أي بما هو شهادة صرف ، وعلى هذا يكون سبحانه قد أقسم بجميع العوالم ، سواء منها ما كان من عالم الغيب فقط ، أم من عالم الشهادة فقط ، أم منها معاً ، والغرض من ذلك هو ان يلفت الناظرين الى الكائنات بشتى أنواعها ، ويعتبروا بما ظهر منها من الإحكام والنظام ، ويبدلوا الجهد لمعرفة ما غاب واستتر .

(قُتِلَ أصحاب الأخدود النار ذات الوقود إذ هم عليها قعود وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود) . الأخدود شق في الأرض يخفر مستطيلاً ، وأصحابه قوم كافرون لهم بأس وسلطان ، وقيل : المراد بهم ذو نواس وقومه، وهو أحد ملوك اليمن . وأياً كان اصحاب الأخدود فإن هذه الآيات تشير الى أناس طغاة قد حفرُوا خندقاً وأضرموه بنار تسطع باللهب ، ثم جاءوا بالمؤمنين المخلصين وعرضوهم على النار ، فن رجع عن دينه وواقفهم على الكفر والبيغي تركوه، ومن أصر على الإيمان والاخلاص أحرقوه ، وهم قاعدون على جوانب الخندق حول النار يتلذفون ويتمتعون بمشاهدة الأجسام تحترق حية طرية (وما تقموا منهم إلا ان يؤمنوا بالله العزيز الحميد الذي له ملك السموات والأرض والله على كل شيء شهيد) . هذا هو ذنبهم الأول والأخير هو الإيمان بالله مالك الملك القادر القاهر العالم بكل شيء والمستحق وحده للحمد. ووصف سبحانه نفسه بهذه الصفات للإشارة الى انه لا مفر للطغاة من سلطان الله وعذابه . ومثله « أنقتلون رجلاً ان يقول ربي الله - ٢٨ غافر » .

(ان الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولم عذاب الحريق) . بعد أن أشار سبحانه الى أهل الأخدود الجبابرة عرض بعثة قريش الذين آذوا المؤمنين ليفتنوهم عن دينهم ، ويردوهم كفاراً بعد إيمانهم ، وقد هددهم سبحانه إذا لم يرتدعوا ، هددهم وتوعدهم بألم العذاب .. وعطف عذاب الحريق على عذاب جهنم من باب عطف التضمير والتوضيح ، والغرض منه تأكيد الوعيد والتهديد، وزيادة التخويف والتحويل (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير) . تقدم مثله في العديد من الآيات ، وجاء ذكره هنا على طريقة القرآن الكريم حيث يقرن هلاك المجرمين بفوز المتقين ، ونعيم هؤلاء بمحيم أولئك (ان بطش ربك لشديد) . البطش

الجزء الثلاثون

الأخذ بصنف ، فكيف إذا كان شديداً، ومن جبار السموات والأرض ؟. والخطاب هنا لرسول الله (ص) والغرض منه تهديد الذين يؤذون الرسول ومن آمن معه (انه هو يبدىء ويعيد) . ومن كان قادراً على بدء الخلق واعادته فهو عسى البطش بالطفأة أقدر (وهو الغفور الودود). لما ذكر سبحانه شدة العذاب قرنها بمحضته ولطفه ليرجع اليه العاصون بالتوبة ولا يأسوا من رحمته ، فإن غضبه تعالى على المذنبين لا يمنعه من الرحمة بهم (ذو العرش المجيد) صاحب الملك والسيطرة .

(فعال لما يريد) . ومراده تعالى يتحقق بمجرد ارادته من غير حاجة لشيء آخر ، قال الإمام علي (ع) : « فاعل لا باضطراب آلة مقدر لا بجولة فكر .. يريد ولا يضرر .. يقول لمن أراد كونه : كُن فيكون لا بصوت بقرع ، ولا ينداء يسمع ، وانما كلامه سبحانه فعل منه » . وقد أراد ، جلت حكمته، هلاك الأمم السابقة الذين كذبوا رسلهم فكان ما اراد (هل أتاك حديث الجنود فرعون وثمود) . وهم من الذين اهلكهم الله بتكذيب رسلهم ، وهل هنا بمعنى قد مثل « هل اتى على الانسان » . والمعنى قد سمعت يا محمد وسمع قولك ما حل بشمود قوم صالح وبفرعون وملكه ، وكيف انتقم الله منهم لما كذبوا الرسل ، فكذلك ينتقم سبحانه من الذين كذبوك متى أراد .

(بل الذين كفروا في تكذيب) . ان فئة من الذين كفروا ، ومنهم عتاة قريش يجحدون الحق لالشيء إلا لأنهم مولعون بتكذيبه ومعاندته ابناً كان ويكون، وإلا فأبي عنر لهم في انكاره وقد قامت عليه الدلائل والبيئات، وظهرت كوضوح النهار ؟. (والله من ورائهم محيط) . انهم في قبضة الله يقلبهم كيف يشاء ، ويهلكهم متى أراد .. وفيه ايماء الى انهم لا يرتدعون عن التكذيب بالحق حتى يروا العذاب (بل هو قرآن مجيد) عظيم الشأن ، لأن كل ما فيه حق وعدل مع قيام الحججة ووضوح البرهان ، وما كذّب به إلا المجرمون (في لوح محفوظ) من التحريف مصون من التغيير والتبديل .. وللمفسرين كلام طويل وعريض حول اللوح المحفوظ ، ونحن غير مسؤولين عن تحديده ومعرفة حقيقته .. والراسخون في العلم يؤمنون بالغيب المحجوب ، ويجمعون عن الشروح والتفاصيل .

سورة الطارق

١٧ آية مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ * إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ * فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ * إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ * يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ * فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ * وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ * وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ * إِنَّهُ لَقَوْلُ فَضْلٍ * وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ * إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا * فَهَلْ الْكَافِرِينَ آمِهَلُمْ رُؤْيَدًا *

الإعراب :

والسمااء الواو للقسم . والطارق عطف على السماء . وما أدراك ما ، اللفظ استفهام والمعنى التعجب ، ومحلها الرفع بالابتداء ، وأدراك فعل ماضٍ ، والكاف مفعول ، والفاعل مستتر ، والجملة خبر . وما الطارق مبتدأ وخبر . والنجم بدل من الطارق . والثاقب صفة النجم . وان نافية ، وكل نفس مبتدأ : ولما بمعنى الا ، وحافظ خبر ، والجملة جواب القسم . فلينظر مجزوم بلام الأمر . ودافق صفة ماء ، وهو اسم مفعول بصيغة اسم الفاعل أي مدفوق مثل عيشة راضية أي مرضية . ويوم تبلى يوم متعلق برجعه . وذات الرجع صفة للسماء . وذات

الجزء الثلاثون

الصدع صفة للأرض . انه لقول فصل جواب القسم . ورويداً صفة لمفعول مطلق محذوف أي امهالاً رويداً والمعنى امهالاً قليلاً .

المعنى :

(والسما والطارق وما أدراك ما الطارق النجم الثاقب) . كل ما علاك فهو سما ، وكل ما أتاك ليلاً فهو طارق ، ولا يكون الطروق إلا في الليل ، والمراد بالطارق هنا النجم الثاقب لأن النجم لا يظهر إلا ليلاً ، والثاقب هو المضيء ، تقول العرب : أفتب نارك أي أضتها ، وقد وُصف به النجم لأن ضوؤه يثقب الظلام ، كأن الظلام جلد أسود ، والنجم يثقبه بضوئه ، وصيقة وما أدراك تشعر بتفخيم الشيء وتمظيم شأنه .. أقسم سبحانه بالنجم المضيء لينبه الى ما فيه من عظيم النفع ، وعجيب الصنع ، اما المقسم عليه فقد أشار اليه سبحانه بقوله (ان كل نفس لما عليها حافظ) يحفظ أقرانها وأعمالها ، ويحصي حركاتها وأسرارها حتى ينتهي اجلها ، وتلقى ربها ، فتجد عنده ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء ، وبتعبير ثانٍ « وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً - ١٧ الإسراء ج ٥ ص ٣٢ .

(فلينظر الانسان مم خلق ، خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب) . الماء الدافق هو النطفة ، والصلب كل عظم من يظهر فيه فقار ، والترائب موضع القلادة من الصدر ، والمراد بالصلب صلب الرجل ، وبالترائب ترائب المرأة ، وهما مصدر النطفة التي يتولد منها الانسان ، ومنذ أمد غير بعيد اهتدى العلم الحديث الى هذه الحقيقة التي جاءت على لسان الأُمِّي العربي ، ومعنى الآية اذا عرفت أنها الانسان ان الله سبحانه يعلم شرك وجهرك فليك أن تنظر الى نفسك ، وتفكر في وجودك ، فلقد بُدئت من نطفة خرجت من ظهر أهلك وترائب أمك ، ثم وضعت في قرار مكين الى أجل معلوم .. الى ان صرت في أحسن تقويم مملوءاً بالحياة والعاطفة والادراك ، ففكر وتدبر ذلك لتعلم ان الذي أنشأك وهداك قادر على ان يعيدك ثانية الى الحياة ، وهذا معنى قوله تعالى : (انه على رجعه لقادر) . فالنشأة الأولى تشهد بالنشأة الثانية (يوم تبلى السرائر فإله من قوة ولا ناصر) .

سورة الطارق

السرائر جمع سريرة، وتُبلى أي تُتخبر بكشفها واطهارها ، والمعنى ان الله سبحانه يبعث الانسان في يوم لا ستر فيه ولا خفاء ، ولا جدال ولا حجاج ، ولا حول ولا قوة لأحدٍ من نفسه أو من غيره إلا قوة الإيمان وصالح الأعمال .

(والسما ذات الرجع والأرض ذات الصدع) . الرجع الماء ، والصدع النبات .
اقسم سبحانه بالسما التي تفيض بماء الحياة، وبالأرض التي تجود بالخيرات والأقوات (انه لقول فصلٌ وما هو بالهزل) . ضمير انه للقرآن ، وهو جسد لا عبث فيه ، وحق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.. وهذا رد على من قال: انه سحر وأساطير (انهم يكيّدون كيداً وأكيد كيداً فهل الكافرين امهلهم رويداً) . ضمير انهم يعود الى الذين كذبوا الرسول الأعظم (ص) ، ويكيّدون أي يدبرون الدسائس والمؤامرات ضد الرسول والمؤمنين ، وأكيد أبطل كيدهم ، وانقض مؤامراتهم ، ورويداً قليلاً ، والمعنى اني بالمرصاد - يا محمد - لمن يحاول ابطال أمرك بالدسائس والمكايد .: انتظر قليلاً ، وترى ما يجلبهم من الخزي والنكال .
وتقدم مثله مع التفسير في الآية ٥٤ من سورة آل عمران ج ٢ ص ٦٨ فقرة ١١١١ وخير الماكرين .

سورة الاعلى

١٩ آية مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى *
وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى * جَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى * سَنَقِرُنْكَ فَلَآ تَنْسَى *
إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى * وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى * فَذَكَرْ *
إِن نَفَعَتِ الذُّكْرَى * سَيَذَكُرْ مَنْ يَخْشَى * وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى * الَّذِي
يَصِلِي النَّارَ الْكُبْرَى * ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى *
وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى * بَلْ نُؤْتُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ
وَأَبْقَى * إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى *

الإعراب :

اسم ربك مفعول به لسبح ، وهذا الفعل يتعدى بنفسه كهذه الآية وبالباء
كقوله تعالى : فسبح بحمد ربك - ٣ النصر ، . والأعلى صفة لربك ، ومثله
الذي خلق . فلا تنسى ولا نافية أي فا تنسى . وما شاء وما بمعنى الذي
ومحلها النصب على الاستثناء أي لا تنسى شيئاً من القرآن إلا الذي أراد الله ان
تنساه منه . والذي يصل النار نعت للأشقي .

المعنى :

(سبح اسم ربك الأعلى) . الخطاب خاص بالرسول (ص) والتكليف بعم الجميع ، والمعنى نزه الله عن الشريك والصاحبة والولد، وكل ما لا يليق بعظمته وجلاله ، ولا شيء أدل على تنزيه الخالق من كلمة « لا إله إلا الله » وإنما أمر سبحانه بتسبيح الاسم دون الذات لأن مبلغ جهسد الانسان ان يعرف الله بأسمائه الحسنى وصفاته العظمى ، أما الذات فلا تقع عليها العقول والافهام (الذي خلق فسوّى) . خلق ما خلق فأقام حده ، وصوّر ما صوّر فأحسن صورته (والذي قدرَ فهدى) . جعل لكل شيء غاية ويسره اليها ، وخبر تفسير لهذه الآية قول الإمام علي (ع) : قدر ما خلق فأحكم تقديره ، ودبره فألطف تدبيره ، ووجهه لوجهته فلم يتعد حدود منزلته ، ويقصر دون الانتهاء لغايته (والذي أخرج المرعى متاعاً للأنام، ورزقاً للأنعام (فجعله غناء أحوى) . الغناء الجفاف اليابس، والأحوى يميل لونه الى السواد، وبدية ان النبات يُستفَع به غصّاً طرياً، وأيضاً يستفَع به هشياً بالياً حيث يكون علفاً للحيوانات .. وفيه إيماء الى ان كل حي الى زوال .

(سنقرئك فلا تنسى) . هذه بشرى من الله لنبية الكرم بأن القرآن سينزل على قلبه ويرسخ فيه ، ولا يفوته منه حرف واحد . وتقدم مثله في الآية ١٧ من سورة القيامة (الا ما شاء الله) . قال بعض المفسرين : معناه ان الله لا يُنسي نبيه شيئاً من القرآن إلا الآية التي ينسخها . ونحن مع الذين قالوا : ان الغرض من الاستثناء هو التنبية على ان الحفظ وعدم النسيان هو تفضل وتكرم من الله على نبيه ، وليس بالأمر الحتم والواجب ، ولو أراد سبحانه أن يُنسي النبي لفعل ، ولم يعجزه شيء ، ومثله « خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك ان ربك فعال لما يريد - ١٠٧ هود » أي إن الخلود هو بمشيئة الله واراادته ولو أراد اخراجهم من جهنم لا يمنعه من ذلك مانع .

(انه يعلم الجهر وما يخفى) . ليس من شك ان الله بكل شيء عليم، وأشار سبحانه هنا الى ذلك بعد ذكر النسيان ليقول لنبية الكرم : نحن نعلم ما في نفسك وانك كنت تخاف أن يفوتك شيء من القرآن .. كلا ، لن يفوتك شيء : كن في أمان واطمئنان (ونيسرك لليسرى) . المراد باليسرى الشريعة السهلة السمحة،

الجزء الثلاثون

والمعنى ان الله سبحانه يسهل لك يا محمد سبيل الوحي بآياته واحكامه حتى تحفظها وتبلغها وتعمل بها كما أراد الله .

(فذكر ان نعت الذكرى) . ليس من شك ان التذكير واجب حتى مع العلم بأنه لا يجدي نفعاً لاقاء الحجمة وقطع المعذرة والا امتنع الحساب والعقاب ، قال تعالى : « رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ١٦٥ النساء » . وعليه تكون «ان» هنا بعيدة كل البعد عن معنى الشرط والقييد ، وان المراد بها بيان الواقع أي ان الذكرى ينتفع بها من بيتي الهداية ، أما من يصر على الضلال فلا ينتفع بشيء ، وبدل على ارادة هذا المعنى قوله تعالى بلا فاصل : (سيذكر من بحشى ويتجنبها الأشقى) . فالذكرى تنفع لا محالة من يوقظه الخوف من الله ، ولا يعرض عنها إلا شقي أعمت الشهوات بصيرته ، وغلبت عليه شقوته (الذي يصلي النار الكبرى) بشدائدها وأهوالها (ثم لا يموت فيها ولا يحيا) . ونفسره بقوله تعالى : « والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها - ٣٦ فاطر » ج ٦ ص ٢٩٣ .

وقال الشيخ محمد عبده وهو يفسر « فذكر ان نعت الذكرى » : اياك ان تتخذع بما يقوله اولئك الذين يلبسون لباس العلماء ، ويزعمون مزاعم السفهاء من انه لا يجب عليهم التذكير لأنه لا ينفع ، ويحتجون بقوله تعالى : « فذكر ان نعت الذكرى » فإن ذلك منهم ضلال وتضليل ، ولو صدق قولهم لما وجب التذكير في وقت من الأوقات لأنه لا يخلو زمان من معاندين، ولا يسلم قائل من جاحدين ، وقد يعرف بعضهم انه ينطق عن الهوى ولكنه يدافع عن جنبه ، ويحتج لكسله ، ويجب ان يزين نفسه في عين الناس ، وان أوقفها في سخط الله .

(قد أفلح من تزكى) . المراد بالفلاح هنا النجاة من غضب الله وعذابه ، وبالتزكية التطهير من الذنوب والآثام (وذكر اسم ربه فصلى) . المراد بالذكر هنا ما يقرب من الخير ، ويبعد عن الشر، أما حركة اللسان من حيث هي فليست غاية في نفسها .. ولا شيء من أمر الله ونهيه إلا وهو وسيلة لفعل الخير والبعد عن الشر ، وكفى دليلاً على هذه الحقيقة قول الرسول الأعظم (ص) : انما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق ، وقوله تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين - ١٠٧ الأنبياء » أما الصلاة فالمراد بها الصلوات الخمس لأنها عمود الدين .

سورة الأهل

(بل تؤثرون الحياة الدنيا) . هنا يكمن السر الأول والأخير لإعراض من أعرض عن الحق عامداً متعمداً .. ملكته الدنيا ملك السيد لعبه ، وأقبل عليها إقبال الطفل على ثدي أمه ، فذهبت به عن الله والحق والانسانية (والآخرة خير وأبقى) بل لا خير في الدنيا إطلاقاً إلا ما كان وسيلة لخير الآخرة ، لأن عمار الدنيا الى خراب ، وسلطانها الى زوال ، ومالها الى نفاذ . وفي نهج البلاغة : كل شيء من الدنيا سماعه أعظم من عيانه، وكل شيء في الآخرة عيانه أعظم من سماعه. واعلموا ان ما نقص من الدنيا وزاد في الآخرة خير مما نقص من الآخرة وزاد في الدنيا .

(ان هذا لفي الصحف الأولى صحف ابراهيم وموسى) . هذا اشارة الي قوله تعالى : « قد أفلح من تزكى » والمعنى ان دعوة الرسل من ناحية العقيدة واحدة لأن الذي أرسلهم واحد ، وقوله واحد لا تهافت فيه ولا تناقض ، واذا كان هناك اختلاف فهو في بعض الفروع التي يستدعيها تطور الزمن وتغير المجتمع، وما دام الأمر كذلك فعلى من يؤمن بابراهيم كالعرب وبموسى كاليهود أن يؤمنوا أيضاً بمحمد (ص) وإلا كانوا من الذين يؤمنون بالمبدأ الواحد ويكفرون به في آن واحد .

سورة الفاتحة

٢٦ آية مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْعَاصِيَةِ * وَجْهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ *
تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً * تُسْقَى مِنْ عَيْنِ آيَةٍ * لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ
ضَرِيحٍ * لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ * وَجْهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ *
لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاجِيَةً * فِيهَا عَيْنٌ
جَارِيَةٌ * فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ * وَنَمَارِقُ مَصْفُوعَةٌ *
وَزَرَّابِيُّ مَبْثُوثَةٌ * أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ
كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ *
فَذَكِّرْ * إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ * إِلَّا مَنْ قَوَّلَى وَكَفَرَا *
فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ * إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابُهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا
حِسَابَهُمْ *

سورة الغاشية

الإعراب :

قال ابن خالويه في كتاب إعراب ثلاثين سورة : هل لفظه استفهام ، ومعناه « قد » وكل ما في القرآن من « هل أتاك » فهو بمعنى قد أتاك . وجوه مبتدأ وخاشعة خبر ويومئذ متعلق به ، وعاملة خبر ثانٍ وناصبه خبر ثالث . وراضية بدل من ناعمة ولسعيها متعلق براضية . وفيها خبر مقدم ، وسرر مبتدأ مؤخر ، ومرفوعة نعت لسرر . كيف مفعول مطلق بمعنى أي خلق خلقت أو حال أي على أي حال خلقت . الا من تولى استثناء منقطع أي لكن من تولى .

المعنى :

(هل أتاك حديث الغاشية) . الخطاب للرسول (ص) ولكن السبب الموجب بعم الجميع ، والغاشية القيامة ، سميت بذلك لأنها تعشى الناس بشدائدها وأهوالها ، والمعنى هل تعرف شيئاً عن يوم القيامة ؟ .. ان الناس فيه فريقان : الفريق الأول (وجوه يومئذ خاشعة) يظهر عليها أثر الذل والخزي والهوان (عاملة ناصبة) من النصب وهو التعب ، والمعنى ان أصحاب هذه الوجوه عملوا في الدنيا كثيراً ، وتعبوا كثيراً ، ولكن لغير الله .. فا أصابوا من عملهم إلا التعب والكد في الدنيا ، والحسرة والعذاب في الآخرة ، فكان المهناً لغيرهم ، والعبء على ظهرهم . وفي نهج البلاغة : ان أخسر الناس صفقة ، وأخيبهم سعياً رجل أخلق بدنه في طلب ماله ولم تساعده المقادير على ارادته ، فخرج من الدنيا بحسرتة ، وقدم على الآخرة بتبعته (تصلى ناراً حامية) تُكوى بنار مستمرة (تُسقى من عين آية) وهي الشديدة الحرارة ، من أنى الماء يأتي اذا سخن ، وبلغ من الحرارة غايتها ، ومثله « يطوفون بينها وبين حميم آن - ٤٤ الرحمن » (ليس لهم طعام إلا من ضريع) قال صاحب القاموس المحيط : الضريع نبت لا تقربه دابة لحبته . ومها يكن فإنه رديء وبيل ، ويكفي أن يكون طعام أهل النار (لا يسمن ولا يغني من جوع) لا يدفع ضرراً ، ولا يجلب نفعاً .

الجزء الثلاثون

وهذا هو الفريق الثاني : (وجوه يومئذ ناعمة) ذات بهجة وحسن (لسيها راضية) رضية أجرها في الآخرة على عملها في الدنيا (في جنة عالية) ريفية وعظيمة في جميع صفاتها ومزاياها ، ومثله « فهو في عيشة راضية في جنة عالية - ٢١ الحاقة » . (لا تسمع فيها لاغية) كلاماً لا جدوى منه ، ومثله « لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً - ٢٥ الواقعة » . (فيها عين جارية) جنات تجري من تحتها الأنهار. (فيها سرر مرفوعة) عن الأرض (وأكواب موضوعة) على جانب العين ، فاذا أرادوا الشراب تناولوا بها الماء (ونمارق مصفوفة) البارق جمع نمرقة ، وهي الوسادة - المسند أو المخدة - (وزرابي مبثوثة) الزرابي البسط ، ومبثوثة مفرقة هنا وهناك ، وكل ما جاء هنا في وصف الجنة هو بعض ما تقدم في عشرات الآيات ، وكل ما قيل أو يقال في وصفها فهو تفسير وبيان لقوله تعالى : « وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين - ٧١ الزخرف » .

(أفلا ينظرون الى الإبل كيف خلقت) . وتساءل : لماذا خص سبحانه الإبل بالذكر دون الحيوانات ؟ .

وأجاب الشيخ محمد عبده بأنها أفضل دواب العرب وأعمها نفعاً ، ولأنها خلق عجيب ، فإنها على شدتها تقاد للضعيف ، ثم في تركيبها ما أعد لحمل الأثقال ، وهي تبرك لتحمل ، ثم تنهض بما تحمل مع الصبر على السير والعطش والجوع ، وفيها غير ذلك ما لا يماثلها حيوان آخر .

(والى السماء كيف رفعت) فوق الأرض بكواكبها اللامعة النافعة (والى الجبال كيف نصبت) أوتاداً للأرض : فسكنت على حركتها ، ولولا الجبال لمادت بأهلها ، وزالت عن مواضعها (والى الأرض كيف سطحت) فجعلها الله لخلقها مهاداً يقيمون عليها ويمشون في مناكبها. وتجدر الإشارة الى ان المراد بالتسطيح هنا تسطيح الأرض في رؤية العين لا في الواقع ، وقد أشار سبحانه الى كروية الأرض في الآية ٥ من سورة الزمر . أنظر ج ٦ ص ٣٩٥ . وقال الشيخ محمد عبده : انما حسن ذكر الجبال مع السماء والجبال والأرض لأن هذه المخلوقات هي ما تقع تحت نظر العرب في أوديتهم وبيوتهم .

(فذكر انما أنت مذكر) . هذا أبلغ وأوضح تحديد لمهمة الرسول : التذكير ،

سورة العاشية

ومثله « وما على الرسول إلا البلاغ المبين - ٥٤ النور » . (لست عليهم بمسيطر إلا من تولى وكفر فيعذبه الله العذاب الأكبر ان الينا اياهم ثم إن علينا حسابهم).
لست - يا محمد - مسلطاً عليهم حتى تُكرههم على الإيمان ، ولكن ليس معنى هذا ان الذين كذبوك يتركون سدى .. كلا ، انهم الينا راجعون ، وبأعمالهم ومقاصدهم مرتنون ، ولا جزاء لهم إلا عذاب الخزي والهون .

سورة الفجر

٣٠ آية مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والفجر وليال عشر الآية ١ - ١٦ :

وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشُّعْرِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ * هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حَبْرِ * أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ * وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ * فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ *

: الإعراب

والفجر الواو للقسم . وليال عطف . وعشر صفة لليال . والأصل يسري بالياء ، وحذفت لتوافق رؤوس الآيات والكسرة دليل عليها . وإرَم لا تنصرف

سورة الفجر

التعريف والتأنيث وهي اسم قبيلة ، وإعرابها بدل أو عطف يسان لعاد . وذات العباد صفة لإرم . والتي لم يخلق صفة ثانية . وتمود عطف على عاد ، وهو اسم لا ينصرف للتعريف والتأنيث لأنه اسم قبيلة والذين جاوبوا نعمت له . الانسان مبتدأ . واذا ما ، ما ، زائدة . وجملة يقول خبر لمبتدأ محذوف أي هو يقول والجملة منه ومن خبره خبر الانسان . والأصل أكرمني وأهانني وحذفت الياء للوقف وتدل عليها الكسرة على نون الوقاية .

المعنى :

(والفجر وليال عشر والشفع والوتر والليل اذا يسر) . المراد بالفجر كل فجر أخذاً بظاهر اللفظ ، أما ليال عشر فلا ظهور لها في عشر معينة ، ولا قرينة تعينها ، ولا هي معهودة لنا ، ومن أجل هذا نسكت عما سكت الله عنه ، أما القول بأنها أوائل ذي الحجة أو المحرم أو الأواخر من رمضان - فيحتاج الى دليل .. وحاول الشيخ محمد عبده ان يعينها بالأوائل من كل شهر، وانفذ وسعه ، ولكنه لم يأت بحجة مقنعة .. والغريب ان تلميذه المراغي قلده في كل ما قال ، ونقل بجمارته - على طولها - دون أن يشير الى مصدرها كما هي عادته .. وفي تفسير الشفع والوتر أقوال ، أقربها الى ظاهر اللفظ انها اشارة الى الحساب وضبط المقادير ، وأقسم سبحانه بالحساب للتنبيه الى فوائده . والمراد بسير الليل مضيه وذهابه ، وبهذا جمع سبحانه في قسمه بين اقبال النهار وادبار الليل، كما في الآية ٣٣ من سورة المدثر : « والليل اذا أدير والصبح اذا أفسر » .

(هل في ذلك قسم لذي حجر) . هذا الاستفهام لتقرير السواقع ، والمراد بالقسم هنا الحجة والدليل لأن فيه تأكيداً لثبوت الحق ، والحجج - بكسر الحاء وسكون الجيم - له معانٍ منها ديار تمود ، وحجر الكعبة : والمراد هنا العقل لأنه يحجر صاحبه ويمنعه عن كثير من التصرفات ، والمعنى ان في الأشياء التي أقسم بها سبحانه حجة كافية على وجود الله وقدرته وحكمته لأن ما فيها من التدبير والحكمة يدل على ذلك بوضوح تماماً كما يدل الزرع على وجود الزارع .

(ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد) .
 عاد قوم هود ، وارم اسم قبيلة عاد نسبة الى أحد أجدادها المسمى بإرم . وقال
 الشيخ محمد عبده : المراد بالعماد هنا أعمدة خيامهم ، أو هو كناية عما كان لهم
 من القوة والمنعة .. والأقرب الى الصواب ان المراد بالعماد هنا المباني والمصانع لأن
 نبههم قال لهم مفرعاً : « أتبنون بكل ريع آية نعوث وتنفخون مصانع لعلكم
 تخلدون - ١٢٨ الشعراء » . أجل ، نحن مع الشيخ محمد عبده في قوله : « روى
 المفسرون هنا حكايات في تصوير إرم ذات العماد ، كان يجب أن يتزه عنها
 كتاب الله ، فإذا وقع اليك شيء من كتبهم ، فتخط ببصرك ما تجده في وصف
 إرم وإياك ان تنظر فيه » . وتقدم الكلام عن عاد ونبههم هود في ج ٣ ص ٣٤٧
 وج ٤ ص ٢٣٩ وج ٥ ص ٥٠٨ وغير ذلك .

(وثمود الذين جابوا الصخر بالواد) . ثمود قوم صالح ، وجابوا الصخر
 إشارة الى ما جاء في الآية ١٤٩ من سورة الشعراء : « وتحتون من الجبال بيوتاً
 فارهين » . وتقدم الكلام عن ثمود ونبههم صالح في ج ٣ ص ٣٥٠ وج ٤ ص ٢٤٤
 وج ٥ ص ٥١١ وج ٦ ص ٢٦ وغير ذلك (وفرعون ذي الأوتاد) أي المباني
 العظيمة الثابتة كالأهرام (الذين طغوا في البلاد فأكفروا فيها الفساد فصب عليهم
 ربك سوط عذاب) . الذين وما بعده صفة لعاد وثمود وفرعون ، وخص سبحانه
 السوط لأنه يوميء الى تكرار العذاب ، وقد أخذ سبحانه عاداً بالريح ، وثمود
 بالصيحة ، وفرعون وقومه بالفرق (ان ربك لبالمرصاد) . هذا جواب القسم
 في أول السورة ، وقيل الجواب محذوف والتقدير يعذب المجرمين ، والنتيجة واحد
 حل التقديرين ، والمعنى واضح ، وهو انه تعالى يعلم مقاصد العباد وأفعالهم ،
 ويجازيهم بحسبها .

(فأما الانسان اذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي اكرمن وأما إذا
 ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن) . الانسان هنا اسم جنس ، وأكرمه
 ونعمه وسع عليه في الرزق ، وقدر عليه ضيق عليه ، والابتلاء الاختبار ، ومعنى
 اختباره سبحانه لعبده ان يوجد له سبباً يُظهره على حقيقته كالغنى والفقر ، فان
 شكر مع الغنى وصبر مع الفقر استحق الثواب ، وان كفر مع الفقر وطغى مع

سورة الفجر

الغنى استحق العذاب ، وبكلام آخر ان الاختبار منه تعالى هو ان يُوجد المحك الذي يُظهر أفعال الطيب والخبيث تمهيداً لجزاء من أحسن بالحسنى ، ومن أساء بما كسبت يده مع قيام الحججة عليه بما ظهر من اساءته .. هذا شأن الله مع عبده الانسان ، أما شأن الانسان الضال فهو ان يقيس كرامته عند الله بما يمن عليه من نعمه ، فان وسع الرزق عليه ظن انه أقرب المقربين الى الله ، وانه لا يسأله عن شيء ولا يعاقبه على شيء مها قال وفعل ، وينطبق هذا تماماً على عتاة المشركين ، فقد كانوا يستدلون على اكرام الله لهم بكثرة الأموال ، وعلى اهائه تعالى للمؤمنين بالفقر والعوز .. واذا ضيق تعالى على الضال في الرزق عسى أن يتوب ويرتدع ظن ان الله قد أذله وأهانه ، وكفى بالعبد لؤماً وعمرداً على خالقه ان يظن به ظن السوء . وعن الإمام علي (ع) : اذا ضاق المسلم فلا يشكون من ربه ، وليشك الى ربه الذي بيده مقاليد الأمور . وتقدم مثله في الآية ٣٥ من سورة الأنبياء ج ٥ ص ٢٧٥ .

وتحبون المال حبا جما الآية ١٧ - ٣٠ :

كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ * وَلَا تَحَاضُونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ *
وَتَأْكُلُونَ التَّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا * وَتُحِبُّونَ اللَّهَالَ حُبًّا جَمًّا * كَلَّا إِذَا دُكَّتِ
الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا * وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا * وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ
بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذُّكْرَى * يَقُولُ يَا لَئِنِّي
قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي * فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلَا يُوثِقُ وِثْقَهُ
أَحَدٌ * يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً *
فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَاذْخُلِي جَنَّتِي *

الإعراب :

كلا حرف ردع وزجر . ونحاضون الأصل تحاضون لأن المعنى لا يحض بعضهم بعضاً . ولما صفة لأكل . وجماعاً صفة لحب . ودكاً حال أي مكرراً . وصفاً مصدر في موضع الحال أي مصطفين . والذكرى مبتدأ مؤخر وانى خبر مقدم . وراضية حال وكذلك مرضية .

المعنى :

(كلا) . ليست الكرامة عند الله بالمال ، بل بالتقوى، ولا الاهانة بالفقر ، بل بسوء المقاصد والأعمال (بل) أنتم أشر خلق الله للأسباب التالية :

١ - (لا تكرمون اليتيم) . لا تحسنون الى المشردين الذين لا حامي لهم ولا كفيل من الدولة ولا من ذوبهم ، ولا تهتمون بشأنهم ورعايتهم .

٢ - (ولا تحاضون على طعام المسكين) . لا يبحث بعضهم بعضاً على البذل والانتفاق من أجل البائسين وإصلاح شأنهم .

٣ - (وتأكلون التراث أكلاً لما) . التراث هو المال الذي ينتقل من الميت الى ورثته، والمم الشديد، وأكثر الثروات الموروثة فيها حق معلوم للسائل والمحروم ، ولكن الورثة يجرمون صاحب الحق من حقه .

٤ - (وتحبون المال حباً جماً) ميراثاً كان أم غير ميراث ، حلالاً كان أم حراماً ، والجم معناه الكثير .

(كلا) . لا ينبغي للانسان أن يشح بالمال في سبيل الخير فانه مسؤول عن ذلك (اذا دُكَّت الأرض دكاً دكاً) . اللك الدق والضرب ، وتكرار كلمة اللك تشير الى التتابع أي دكاً بعد دك ، والمعنى تزول الجاذبية والتماسك بين أجزاء الأرض يوم القيامة ، ويلك بعضها بعضاً ، ويتوالى السلك والضرب حتى ينهار كل ما على وجه الأرض من جبال وعمار.وتقدم مثله في الآية ١٤ من سورة الحاقة (وجاء ربك والملك صفاً صفاً) . جاء ربك أي أمره وقضاؤه وهيته وجلاله وحكمه وسلطانه ، وصفاً صفاً أي صفوفاً متعددة (وجيء يومئذ بجهنم) .

سورة الفجر

يكشف عنها يوم القيامة لكل ناظر ، وتصبح في عالم الشهادة بعد ان كانت في عالم الغيب .

(يومئذ يتذكر الانسان و انى له الذكرى يقول يا ليتني قدمت لحياتي) . قال الناصحون والمنذرون للمجرم المتمرد : اعمل لحياتك في الدنيا والآخرة . فقال : وأية آخرة ؟ .. انها وهم وخيال .. ولما جاء يوم الفصل ، ورأى مكانه في جهنم قال : هنا حياتي الباقية ومقرى الدائم ، أما الحياة الدنيا فقد كانت ممراً ومجازاً .. يا ليتني أخذت من الفائتة الى الباقية .. نسي الآخرة وهو في الدنيا حيث تنفسه التوبة والذكرى ، وتذكر وهو في الآخرة .. و انى له الذكرى ؟ (فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد) . قرىء لا يعذب ولا يوثق بالبناء للفاعل ، وأيضاً قرىء بالبناء للمفعول لم يسم فاعله ، والمعنى على القراءتين ان أسوأ عذاب من عذاب الدنيا هو عافية اذا قيس بأدنى عذاب من عذاب الآخرة .

(يا أيها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي) . بعد ان ذكر سبحانه النفس الامارة التي لا تطمئن إلا لمصالحها وأهوائها - ذكر النفس المطمئنة ، وهي التي آمنت بالله وصفت الى ذكره ، وعملت بأمره ونهيه ، وقد بين سبحانه أصحاب هذه النفس بقوله : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب - ٢٩ الرعد » . ومعنى راضية مرضية انها تحمد أجرها ومقامها عند الله لأن الله حمد سعيها وأعمالها . وقال الشيخ محمد عبده في معنى الرجوع اليه تعالى والدخول في عباده : « الرجوع الى الله تمثيل للكرامة عنده وإلا فإن الله معنا حيث كنا ، والدخول في عباده ان تكون منهم ، والعباد الذين يستحقون نسبة الاختصاص به هم العباد المتقون المكرمون ، والجنة معروفة » .

سورة البلد

٢٠ آية مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَالْوَالِدِ وَمَا وُلِدَ * لَقَدْ
خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ * أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ * يَقُولُ
أُهْلِكْتُ مَالًا لُبَدًا * أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ * أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ *
وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ * فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ
مَا الْعَقَبَةُ * فَكُ رَقَبَةٍ * أَوْ إِنْطَعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ *
أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ * ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ
وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ * أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْإِيمَانَةِ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا
بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَصَّدَةٌ

الإعراب :

لا أقسم ولا زائدة ، وقيل : نافية ، وتقدم الكلام عنها عند تفسير الآية ٧٥ من سورة الواقعة و ١٥ من سورة التكويد . والبلد عطف بيان من هذا . لقد خلقنا جواب القسم . وفي كبد متعلق بمحذوف حالاً من الانسان أي مكابداً .

سورة البلد

أن لن يقدر أي انه لن . والنجدين مفعول ثانٍ لهديناه لأن المعنى عرفناه النجدين .
وما أدراك وماه مبتدأ وجملة أدراك خبر . وما العقبه مبتدأ وخبر . وفك خبر
لمبتدأ محذوف أي هي فك . ويتيماً مفعول إطمعنا . وأصل تواموا تواموا ،
وحذفت الياء لالتقاء الساكنين .

المعنى :

(لا أقسم بهذا البلد) . المراد بالبلد مكة المكرمة بأشرف بيت وضع للناس
مباركاً ، وبأعظم نبي وُلد فيها ، وأرسل رحمة للعالمين (وأنت حل بهذا البلد) .
الخطاب لمحمد (ص) وحل أي حال ومقيم ، والواو للحال ، وعليه يكون القسم
بمكة مقيداً بإقامة الرسول فيها إشعاراً بأن مكة زادت رفعة بمولده وإقامته. واختار
الشيخ محمد عبده قول من قال : ان حلاً هنا بمعنى الحلال لا بمعنى الحلول أي
ان أهل مكة استحلوا ايداء الرسول في البلد الأمين حتى اضطروه الى الهجرة منه .
وهذا المعنى صحيح في نفسه ، ولكنه بعيد عن مدلول اللفظ ، فإن المتبادر الى
الافهام من « أنت حل بهذا البلد » هو أنت مقيم فيه ، لا أنت حلال فيه .
(ووالد ما ولد) . هذا داخل في المقسم به ، وقال جماعة من المفسرين :
المراد بالوالد هنا آدم ، وبالولد ذريته ، وانما قال تعالى : وما ولد ولم يقل :
ومن ولد - ما زال الكلام للجماعة - ليشير سبحانه الى ان المولود عظيم الشأن
كما في قوله : « والله أعلم بما وضعت - ٣٦ آل عمران » . وقال آخرون :
منهم ابن عباس والطبري والشيخ محمد عبده : ان المراد كل والد ومولود انساناً
كان أم حيواناً أم نباتاً .. وهذا القول أقرب الى ظاهر اللفظ من غيره ، أما
الفرض من القسم بالوالد والمولود فهو التنبية الى انشاء الكائنات الحية وتطورها
من خلق الى خلق ، من النطفة الى الانسان أو الحيوان ، ومن الحبة الى الشجرة
وغيرها من النبات .

(لقد خلقنا الانسان في كبد) . هذا جواب القسم . وكبد التعب والمشقة ،
والمعنى ان الله سبحانه خلق الانسان مجداً كادحاً يتصارع مع ميوله ورغباته ، ومع
أتعاب الحياة وشدائدها ، ثم بعد هذا يقاسي سكرات الموت ، وظلمة القبر ووحشته ،

الجزء الثلاثون

ثم أهوال القيامة والبرص على الله لنقاش الحساب عما قال وفعل (أحسب ان لن يقدر عليه أحد) . في يحسب ضمير يعود الى الانسان باعتبار بعض أفراده ، والمعنى ان بعض الناس يظن انه قد بلغ من القوة والمنعة الى حيث لا يقدر عليه أحد كائناً من كان ، وينسى انه خلق ضعيفاً ، يقاسي الأهوال والشدائد ، وانه مكتوم الأجل ، مكتون العلل ، محفوظ العمل ، تؤله البقعة ، وتقتله الشرقة ، وتنته العرقة كما قال الإمام على (ع) .

(يقول أهلكت مالاَ لبدأ) أي كثيراً ، وبدل السياق ان في يقول ضميراً يعود الى الغني الذي يتفق أمواله للشهرة وحسن الاحدوثة ، ويمسك عن الانفاق في سبيل الله والخير ، والمعنى اذا قيل لهذا المبلر : لماذا لا تنفق في سبيل الله ؟ قال : انا انفق الكثير حتى أوشك مالي على النفاذ والملاك ، ولكني لا انفقه في السبيل التي تدعوني اليها (أحسب ان لم يره أحد) . أيقن هذا المفتون بالشهرة والظهور ان الله غافل عنه وعن أعماله وأهدافه . وفي الحديث : يسأل المرء غداً عن جسمه فيم أبلاه ؟ وعن عمره فيم أفناه ؟ وعن ماله مم اكسبه ؟ وفيه أنفقه ؟

(ألم نجعل له عينين ولساناً وشفقتن وهديناه النجدين) . جاء في تفسير الرازي : ان الذي قال : « أهلكت مالاَ لبدأ » قال أيضاً بلسان المقال أو الحال : من الذي يحاسبني على مالي أمسكته أو أنفقته ؟ . فأجابه سبحانه : يحاسبك الذي جعل لك هذه الأعضاء .. وهذا قريب جداً الى واقع الحال ، ومهما يكن فإن العينين اشارة الى نعمة الرؤية والبصر ، واللسان الى نعمة الكلام والبيان، والهداية الى نعمة العقل والادراك ، والمراد بالنجدين طريقا الخير والشر ، وبالعقل يحذر الانسان من هذا ، ويسلك ذلك ، وفي نهج البلاغة : « كفناك من عقلك انه أوضح لك سبيل غيك من رشلك » . ويتضرع على هذا الايضاح ان الانسان مسؤول عمن أقواله وأفعاله ، وان لله الحجة عليه اذا أساء حيث وهبه القدرة والادراك وأمره ونهاه . ومثله « إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً - ٣ الانسان » .

(فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة) . صبغة ما أدراك تستعمل للتضخيم والتعظيم ، واقتحم الشيء دخل فيه بشدة ، والعقبة في اللغة الطريق الصعب في الجبل ، والمراد بها هنا الأعمال الصالحة لأنها تحتاج الى جهد وجهاد ، وصبر على

سورة البلد

المشاق ، والى كبح الميول والرغبات بخاصة بذل المال في سبيل الخير، ومن الأعمال الصالحة أو من أهمها ما أشار اليه سبحانه بقوله : (فك رقبة أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيماً ذا مقربة أو مسكيناً ذا متربة ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالرحمة) . فك الرقبة عتقها حيث كان في المجتمع آنذاك عبيد واماء ، والمسغبة المجاعة ، والمقربة القرابة في النسب ، والمترية الفقر الشديد بحيث بلغ بصاحبه ان يفرش التراب ، والتواصي بالصبر ان يوصي المؤمنون بعضهم بعضاً بالصبر على الجهاد لإحقاق الحق، ورفض الاستسلام للباطل، وأيضاً ان يتواصوا بالرحمة ، وهي المواساة وحب الانسان لأخيه ما يحبه لنفسه ، ومجمل المعنى ان الذي اتفق أمواله جيداً بالشهرة والظهور لم يتجاوز العقبة التي بينه وبين النجاة من العذاب والملاك ، بل هو أخسر الناس صفقة ومن أكثرهم عذاباً ، ولو انه اتفق في سبيل الله وكان من الذين تواصوا بالصبر والرحمة - لتجاوز تلك العقبة، وكان في أمن وأمان من غضب الله وعذابه .

(اولئك اصحاب الميمنة) . اولئك اشارة الى الذين آمنوا وأنفقوا وتواصوا بالصبر والرحمة ، وأصحاب الميمنة هم الميامين الأختيار الذين يُعطون غداً كتب الأمان والسعادة بإيمانهم (والذين كفروا بآياتنا هم اصحاب المشأمة عليهم نار موصدة) . أصحاب المشأمة هم المشؤومون الأشرار الذين يُعطون كتب الخزي والشقاء بشأمتهم ومن وراء ظهورهم ، ويساقون الى جهنم زمراً حتى اذا حاووا فتحت لهم ابوابها ، فإذا دخلوها أطبقت عليهم الى ما لا نهاية .

سورة الشمس

مكة وآياتها ١٥ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّاهَا * وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا * وَاللَّيْلِ
إِذَا يَفْتَأَهَا * وَالسَّيِّءَاتِ وَمَا بَنَاهَا * وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا * وَنَفْسٍ وَمَا
سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ
مَنْ دَسَّاهَا * كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا * إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا * فَقَالَ لَهُمْ
رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا * فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدمدمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ
بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا * وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا *

الإعراب :

والشمس الواو للقسمة وما بعدها عطف . وما في وما بناها وما طحاها وما
سواها مصدرية ، والمصدر المنسبك معطوف على ما قبله أي وبنائها وطحها وتسويتها .
قد أفلح جواب القسم مع حذف اللام الواقعة في الجواب أي لقد أفلح . ناقة
الله مفعول لفعل محذوف أي احذروا ناقة الله .

المعنى :

أقسم سبحانه في هذه السورة بالضياء وبالظلمة ، وبكواكب السماء وإحكامها ،

سورة الشمس

والأرض وتمهيدها ، والنفس واستعدادها ، أقسم بذلك كله ان التقى هو الراجح الناجح ، والمجرم هو الخائب الخاسر ، والتفصيل فيما يلي :

(والشمس وضحاها) أقسم سبحانه بالشمس من حيث هي ظهرت أم احتجبت لأنها خلق عظيم ، وأيضاً أقسم بضيائها لأن المراد بالضحو هنا الظهور والوضوح، فإذا أضيف الى الشمس كان معنى ضحاها ضياءها (والقمر اذا تلاها). ضمير تلاها يعود الى الشمس ، والمعنى ان الله سبحانه أقسم بالقمر حين يتصل ضوءه بضوء الشمس بحيث لا تفصل الظلمة بينهما ، وذلك في الليالي البيض : الثالثة عشرة والرابعة عشرة والخامسة عشرة (والنهار اذا جلاها) . أيضاً الهاء في جلاها تعود الى الشمس ، والمعنى انه تعالى أقسم بالنهار الذي أظهر الشمس وأبرزها للعيان جلية واضحة، والغرض من القسم بالضياء التنبيه الى فوائده العظمى لشكر الله ونحمده .

(والليل اذا يشاها) . أيضاً الهاء تعود الى الشمس ، واقسم، جلت حكمته، بالليل حين يغطي ضوء الشمس ، ولا يبقى لها من أثر، لا مباشرة كما هي الحال في النهار ، ولا بواسطة ضوء القمر المستفاد من الشمس ، وذلك في الليلة الأولى والأخيرة من الشهر الهلالي حيث لا يظهر الهلال للعيان أو يظهر ضعيفاً .. ولليل منافع كما للنهار ، ومن منافع الليل السكينة والراحة .

(والساء وما بناها) اي وبنائها لأن « ما » هنا مصدرية ، والمراد بناء ما فيها من الكواكب السابحة في أفلاكها ، وشد بعضها بعضاً برباط الجاذبية . وتقدم مثله في الآية ٤٧ من سورة الذاريات و ٦ من سورة ق و ١٢ من سورة النبأ (والأرض وما طحاها) أي وطحوها ، وفي الآية ٣١ من سورة النازعات : « والأرض بعد ذلك دحاجها » والدحو والطحو بمعنى واحد، وهو البسط والتمهيد . وتقدم مثله في العديد من الآيات منها الآية ٢٢ من سورة البقرة .

النفس وتسويتها :

(ونفس وما سواها) أي وتسويتها ، والنفس شيء يكون به الانسان انساناً، والحيوان حيواناً ، ولا نعرف هذا الشيء بحقيقته بل بآثاره كالنمو والحركة والسبع

الجزء الثلاثون

والبصر والشعور بالألم في الانسان والحيوان ، وكلم الانسان بالكليات . والمراد بالنفس هنا نفس الانسان فقط لقوله تعالى : (فألمهمها فجورها وتقواها) فإن التجور والتقوى من صفات الانسان لا الحيوان، وعليه يكون معنى تسوية نفس الانسان ان الله سبحانه خلق فيها الاستعداد التام لعمل الخير والشر معاً بحيث تكون قدرته على أحدهما مساوية لقدرته على الآخر ، ثم نهاه عن الشر ، وأمره بالخير، والذي يدلنا على ارادة هذا المعنى قوله تعالى : « إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً - ٣ الانسان » . وانما خلق سبحانه في نفس الانسان الاستعداد للفجور والتقوى معاً لأن الانسان انما يكون انساناً بحريته و ارادته ، وبقدرته على الحسن والقيح ، ولو قدر على أحدهما دون الآخر لكان كريشة في مهب الريح لا يستحق مدحاً ولا ذماً ، ولا ثواباً ولا عقاباً على ما يفعل ويترك .

(قد أطلع من زكاهما وقد خاب من دسها) . هذا جواب القسم ، والفلاح الفوز ، والزكاة الطهارة ، والخيبة الخسران ، والتدسية التقص .. بعد أن أقسم سبحانه بالضيء والظلمة والكواكب وبنائها، والأرض وتمهيدها ، والنفس واستعدادها بعد هذا قال : من اختار الخير على الشر وطهر نفسه من دنس الآثام فهو الفائز الرابع ، ومن اختار الشر على الخير ولوث نفسه بالذنوب والقبايح فهو الخائب الخامس .

(كذبت ثمود بطغواها) . مفعول كذبت محذوف أي كذبت ثمود نبيها صالحاً ، وثمود اسم قبيلة ، ولا ينصرف للتأنيث والتعريف ، وطفوى مصدر بمعنى الطغيان (اذ انبعث أشقاها) . انبعث أي أسرع الى عقر الناقة ، وهذا الأشقى يضرب المثل بشقائه منذ آلاف السنين (فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها) . رسول الله هو صالح ، وناقة الله ناقته التي جعلت معجزة له ، وسقياها إشارة الى ما جاء في الآية ١٥٥ وما بعدها من سورة الشعراء : « قال - صالح لقومه- هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم ففقروها فأصبحوا ناديين فأخذهم العذاب » ج ٥ ص ٥١١ .

(فكذبوه ففقروها فقدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها) . قال سبحانه عقروها مع ان العاقر واحد لأنهم رضوا عن فعله ، بل حرضوه عليه كما في الآية ٢٩ من سورة القمر « فتنادوا صباحهم فتعاطى فقر » . ودملم عليهم أي أطبق عليهم

سورة الشمس

الغلاب . فسواها أي دمر مساكنها على أهلها أجمعين ولم يفلت منهم كبير ولا صغير ، واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة - ٢٥ الأنفال ، وتقدم الكلام عن نمود ونيهم صالح مرات ، آخرها في الآية ٩ من سورة الصجر . (ولا يخاف عقباها) . قال أكثر المفسرين : الضمير المستتر في يخاف يعود إليه تعالى أي ان الله سبحانه أهلك نمود ولا يخاف عاقبة أهلاكهم ، وقال البعض : يعود الضمير الى أشقاها ، وفي الكلام تقديم وتأخير ، والتقدير ، اذ انبعث أشقاها ولا يخاف عقباها فقال لهم رسول الله الخ . ويجوز أن يعود الضمير اليه تعالى على معنى ان الله سبحانه لا معارض له ولا منازع في أمره ، قل ان الأمر كله لله - ١٥٤ آل عمران ، .

سورة الليل

٢١ آية مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى * فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنِيَرَهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ يَبْغِلْ وَاسْتَفْتَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنِيَرَهُ لِلْعُسْرَى * وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى * إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى * وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى * فَأَنْذَرْتُمْ تَارًا نَلْطَى * لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى *

الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى * وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى *
وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى *
وَلَسَوْفَ يَرْضَى *

الإعراب :

والليل الواو للقسم . وما خلق الذكر « ما » مصدرية أي وخلقت الذكر . ان
سبحك جواب القسم . فأما للتفصيل . وبالحنى صفة لمحذوف أي بالخصلة الحسنى ،
ومثله ليسرى . تلظى الأصل تلظى . الذي كذب صفة للأشقى . والذي يؤتي صفة
للأشقى . ومن زائلة إعراباً ونعمة مبتدأ وجملة تجزى صفة لنعمة . وابتغاء مفعول
من أجله لتجزى .

المعنى :

(والليل اذا يفضى والنهار اذا تجلى) . يفضى يغطي الأشياء ، وتجلى ظهر ،
وهذا القسم منه تعالى مثله في السورة السابقة « والنهار اذا جلاها ، والليل اذا
يفشاها » . وبيننا هناك ان الغرض من القسم بالضياء والظلام هو التنبيه الى ما لها
من منافع (وما خلق الذكر والانى) . « ما » هنا مصدرية أي وخلقت الذكر
والانى ، ويطرد هذا الخلق في كل حي انساناً كان أم حيواناً أم نباتاً ، وبه
يتم التناسل وتمتد الحياة ، وهنا أسئلة تطرح نفسها ، وهي : من الذي أوجد
الحياة في هذا الكائن دون ذاك ؟ ومن الذي أعد الحي وأهله لوظيفة التناسل ؟
ولماذا يأتي المولود تارة ذكراً وأنى أخرى مع ان مصدرهما واحد ، فهل فعلت
المادة العمياء كل هذا الفعل الدقيق المحكم، أو هو من باب الصدقة ؟ وهل اكتشف
العلم ان المادة الواحدة تكون علة لأحوال شتى دون أن يتدخل عنصر آخر في
شأنها ؟ . أما الصدقة فهي جهد العاجز . فلم يبق من الفروض والتفاسير إلا المدير
العليم الذي يرسم ويخطط وفقاً للحكمة البالغة ، والنظام الكامل الشامل .

سورة الليل

(ان سعيكم لشيئ) . هذا جواب القسم ، والمعنى ان أعمال الانسان منها الخيرات ومنها المفوات ..

وتسأل : ان هذه قضية بدئية لا تحتاج الى يمين، فلماذا أكدها سبحانه بالقسم ؟
الجواب : أجل ، « ان سعيكم لشيئ » قضية بدئية من حيث هي وبصرف النظر عن عواقبها ونتائجها، أما مع النظر الى ما يترتب عليها كتيسير المحسن اليسرى والمسيء للعسرى وما الى ذلك - فإنها تحتاج الى التأكيد أو لا مانع من تأكيدها - على الأقل - والمقسم عليه هنا هو مجموع قوله تعالى : « ان سعيكم لشيئ » وما بعده ، وهو :

(فأما من أعطى) بذل في سبيل الخير لوجه الخير (واتقى) ابتعد عن الحرام والآثام (وصدق بالحسنى) . آمن بالجنة والنار والحلال والحرام ، وعمل بموجب إيمانه وإلا فلإيمانه سراب لأن الإيمان وسيلة الى العمل وليس غاية في نفسه (فسنيسره لليسرى) اختلف المفسرون في معنى اليسرى ، فمن قائل : انها الجنة، وقائل : هي الخير ، وقال الشيخ محمد عبده : « هي خطة تكميل النفس وأتمائها بالكمال . أما نحن فنفسر اليسرى هنا بقوله تعالى : « ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً - ٤ الطلاق ، أي يشمل الله بعنايته ، ويوفقه الى ما فيه خيره وصلاحه .

(وأما من بخل) بالبدل في سبيل الله (واستغنى) بما له عن الاعانة بالله ، وعن آخرته بدينه (وكذب بالحسنى) فقال : لا جنة ولا نار ولا حلال ولا حرام (فسنيسره للعسرى) . المراد بالعسرى هنا السقوط في هوة السيئات والانحرافات، والدليل على ارادة هذا المعنى قوله تعالى : « اذا تردى » والمراد بتيسره ندعه وأهواه ، ولا نردعه بالقوة عما يختاره لنفسه من الردى والملاك (وما يفني عنه ماله إذا تردى) . « ما » استفهام بمعنى الانكار ، ويجوز أن تكون نقياً محضاً ، والمراد بالتردى السقوط في حضيض الرذائل والقبايح .

ويتلخص معنى هذه الآيات من قوله تعالى : فأما من أعطى الى قوله تردى، يتلخص بأن سنة الله في خلقه أن يبين لهم طريقتي الصلاح والفساد ، ويمنحهم القدرة على فعلها وتركها، ثم يعامل كلاً بما يختاره لنفسه، فان آثر الخير والصلاح شمله بتوفيقه وعنايته، وان اختار الشر والفساد تحل عنه ، وأوكله الى نفسه وأهوائه تقوده الى الشدائد والمهلك .

الجزء الثلاثون

(ان علينا للهدى) . هذا جواب عن سؤال مقدر ، وهو : كيف تخسلي سبحانه عن المنيء ووكله الى نفسه وأهوائه ؟ ألا يتنافى هذا مع لطفه ورحمته ؟ . فأجاب سبحانه بأن عليه أن يزود العبد بالقدرة على العمل، وبالعقل الذي يميز بين الخير والشر ، ثم يبين له ويرشده ويبشره وينذره ، وقد تحقق ذلك كله على أكمل وجه ، وهو منتهى اللطف والرحمة ، أما العمل والاهتداء فعلى العبد وحده ، ولا يلجئه الله اليه لأن الإلجاء يسلب الانسان حريته و ارادته ، بل وانسانيته لأن الانسان بحريته و ارادته . وتجملر الاشارة الى ان كلمة «على» هنا تدل على الوجوب خلافاً للشيخ محمد عبده وغيره من الأشاعرة لأن الوجوب اذا نسب الى العبد فعتاه ان الفتر أوجب عليه ، ولو ترك لكان مسؤولاً ، واذا نسب اليه تعالى فعتاه هو الذي أوجب على نفسه ما أوجب أي انه وعد وليس لوعده مترك . قال تعالى :

« كتب ربكم على نفسه الرحمة - ٥٤ الانعام » .

(وان لنا للآخرة والاولى) . الله وحده مالك الملك في الدنيا والآخرة ، ولا تنفعه طاعة من أطاع ، ولا معصية من عصى ، ولا يجحد العاصون مفرأ من حكمه وسلطانه (فأندرتكم ناراً تظلي) . أمر سبحانه ونهى وحذر من عصي ناراً تلهب وتتسر لعله يتوب من ذنبه ويرجع الى ربه (لا يصلها إلا الأشقى الذي كذب وتولى) . يصلها أي يدخل النار ويعذب فيها ، وقيل : المراد بالأشقى هنا الكافر وقال الشيخ محمد عبده : « الأشقى من هو أشد شقاء من غيره » . والصحيح ان التفضيل هنا غير مقصود من جهة دخول النار ، لأنه ما من شقي إلا هو ذاتها : « فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق. - ١٠٦ هود » . والتفاوت بين الشقي والأشقى انما هو في ألم العذاب وشدته لا في أصل العذاب ، وعليه يكون المراد بالأشقى هنا من عصى الله وأعرض عن أمره سواء أعرض عنه لأنه لا يؤمن بالله وشريعته ، أم آمن به وبشريته ولكنه قصر وتهاون ، لا فرق بين الاثنيين لأن الايمان وسيلة للعمسل ، وليس غاية في نفسه ، فقد ثبت بنص القرآن ان من آمن ولم يعمل فهو والكافر بمتزلة سواء ، قال تعالى : « لا ينفع نفساً ايمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في ايمانها خيراً - ١٥٩ الانعام » أي لم تؤمن اطلاقاً أو آمنت ولم تعمل .

(وسيجنبها الأنقى) . الهاء في سيجنبها تعود الى النار ، ومعنى ينجبها يتعمد

سورة الليل

عن الأسباب المؤدية اليها ، وهي محارم الله ، وعليه يكون المراد بالأتقى التقى (الذي يؤتى ماله يتزكى) . يؤتى من الأيتام ، وهو الاعطاء ، والمعنى يُحطى ماله وينفقه في سبيل الخير ليظهر نفسه من الذنوب ، ويتقرب الى الله ، ولا ينفقه للشهرة والاستعلاء ، ولا للتجارة والرباه .

(وما لأحد عنده من نعمة تجزى) . قد يكون الاتفاق بدافع الشهرة والظهور ، أو من باب هل جزاء الاحسان إلا الاحسان ، كما لو اهديت من أسدى اليك بدأ لترد اليه احسانه ، وقد يكون الاتفاق بقصد الربح والتجارة ، فتتفق ييد لتأخذ باليد الأخرى كما يتفق رجال السياسة على المشاريع الخيرية وغيرها أيام الانتخابات لاكتساب الأصوات .. والمؤمن لا يقصد شيئاً من ذلك أو غيره (الا ابتغاء وجه ربه الأعلى) طالباً ثوابه خائفاً من عذابه ، انما نطمحكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً انا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قظريراً - ٩ الانسان . (ولسوف يرضى) . يعطي الله من أنفق لوجهه كل ما يرضيه ، وفوق ما كان يرجو ويأمل . وقيل : الضمير في يرضى يعود الى الله لا الى الأتقى ، والمعنى واحد على التقديرين لأن الله اذا رضي على عبده لإرضاه لا محالة .

وقال الشيخ محمد عبده : روى المفسرون هنا أسباباً للترول ، وان الآيات نزلت في أبي بكر ، ومضى وجد شيء من ذلك في الصحيح لم يمنعنا من التصديق به مانع ، ولكن معنى الآيات لا يزال عاماً .

سورة الضحى

١١ آية مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحَىٰ * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ * وَاللَّآخِرَةُ
خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ * وَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ * أَلَمْ يَجِدَكَ
يَتِيمًا فَآوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ * فَأَمَّا
الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ *

الإعراب :

والضحى الواو للقسم ، والليل عطف على الضحى ، و «ما» نافية ، والجملة
جواب القسم . وما قلى المفعول محذوف أي وما قلاك . وللآخرة اللام للتأكيد
ومثلها لسوف وجملة سوف يعطيك ربك خبر لمبتدأ محذوف أي ولأنت سوف
يعطيك ربك لأن لام الابتداء المؤكدة لا تدخل إلا على الأسماء . ويتيماً مفعول
ثان لجيدك . ومفعول آوى محذوف أي فأواك ، فهدى فهداك ، فأغنى فأغناك .
فأما اليتيم وأما هنا تتضمن معنى الشرط أي مها يكن من شيء فلا تقهر اليتيم ،
فاليتم مفعول مقدم لتقهر ولا ناهية ، ومثله وأما السائل فلا تنهر .

المعنى :

(والضحى والليل إذا سجد) . المراد بالضحى هنا النهار كله بدليل مقابته

سورة الضحى

بالليل ، وانما عبّر سبحانه عن النهار بالضحى لأن الضحى صدر النهار على حد تعبير الرازي ، أو شباب النهار على تعبير الشيخ محمد عبده، ومعنى السجوا السكون، يقال : ليل ساج إذا سكنت ريحه واشتدت ظلمته ، وبجر ساج إذا سكن ، والمراد بسجوا الليل سكون أهله وانقطاعهم عن الحركة ، مثل ليل نائم ونهار صائم أي فيه ، وأقسم سبحانه بهاتين الآيتين لانهما من آياته الكبرى .. وتجدر الإشارة الى ان كثيراً من الفقهاء قالوا : ان النبي (ص) صلى صلاة الضحى يوم فتح مكة ، وهي ركعتان عند البعض ، وأكثر عند آخرين، وندب عند الجميع . وقال الشيعة الإمامية : لا حصر للصلاة المندوبة ، فهي قربان كل نقي فمن شاء استقل ومن شاء استكثر، ولكل انسان أن يصلي ركعتين ابتداء في كل زمان ومكان بنية القربة المطلقة اليه تعالى .

(ما ودّعك ربك وما قلى) . هذا جواب القسم ، ومعناه ما تركك وما ابغضك ، واتفق الرواة والمفسرون على ان الوحي قد احتبس عن رسول الله(ص) اياماً ، فقال المشركون : ان إله محمد قد قلاه ، وان التاموس قد أبغضه، فأنزل الله تعالى : « ما ودّعك ربك وما قلى » . وقال الشيخ محمد عبده ، ونعم ما قال : ليس في نسق السورة ما يشير الى ذلك ، ومن أين للمشركين أن يعلموا فترة الوحي ؟ . ولكن النبي كان قد اشتاق الى الوحي بعد ان ذاق حلاوته، وكل ذوق يصحبه قلق ، وكل قلق يشوبه خوف وقد جاء في الصحيح ان النبي (ص) حزن لفترة الوحي حزناً كبيراً .

وبهذه المناسبة أشير الى اني قرأت كل ما نشر للشيخ محمد عبده ، فاكتشفت ان عظمة هذا الرجل وشهرته لا تكمن في علمه فقط ، ولا في سعة اطلاعه ، فان بعض تلاميذه - على ما رأيت - أوسع منه اطلاعاً على الحواشي والشروح ، ومعرفةً بأقوال السلف والخلف ، وانما السر الوحيد لعظمة هذا الشيخ يكمن في ثقته بالحق و إخلاصه له وجراته على اعلانه ولو خالف الأولين والآخرين .. ومن أجل هذا كفرته عمائم سوء .. ولكن التاريخ قد أنصفه منها ، فوضعه في مكان الصدارة ، وألقى بها في سلة المهملات .

(وللآخرة خير لك من الأولى وسوف يعطيك ربك فترضى) . الخطاب للرسول الأعظم (ص) والمراد بالآخرة هنا الحياة الآخرة ، والحياة الدنيا ابتداء من

الجزء الثلاثون

نزول الوحي عليه الى يوم القيامة لأنه ما من يوم يمر إلا ويولد فيه المئات من المسلمين ، بالإضافة الى من يدخل في دين الله من الأمم والطوائف ، وكل ذلك كسب لمحمد (ص) ورسالة محمد ، ومعنى الآية ان الله سبحانه سيزيدك يا محمد من فضله يوماً بعد يوم حتى قيام الساعة ، وفوق ذلك أنت في الآخرة أجل وأعظم ، فهل يرضيك هذا ؟ وهل لك وراه من مطلب ؟ ثم ذكر سبحانه نبيه الكريم بجانب من نعمه عليه قبل البعثة ، وكأنه يقول له : لقد أنعمت عليك منذ يومك الأول الى ما لا نهاية . وهذه بعض النعم السابقة على البعثة :

١ - (ألم يجدك يتيماً فآوى) . هذا الاستفهام لتقرير الواقع أي لقد كنت كذلك . قال الشيخ محمد عبده : « كان النبي (ص) يتيماً لأن والده توفي بالمدينة ، وهو في بطن أمه ، فكفله جده عبد المطلب خير كفالة ، ثم مات جده وهو في الثامنة من عمره ، فكفله عمه أبو طالب بوصية من أبيه عبد المطلب ، وكان شديد العناية به في صغره ، عظيم المحبة له في كبره ، وما زال يحميه وينصره بعد ان أكرمه الله بالنبوة حتى قبض ، فتجرات عليه قريش بعد موت عمه حتى اضطرتة الى الهجرة ، فذاك ابواء الله لنبيه وهو يتيماً » .

٢ - (ووجدك ضالاً فهدى) . اختلف المفسرون ما هو المراد بالضلال هنا ؟ وقد أنهى الرازي أقوالهم الى عشرين قولاً !.. أقربها الى الصواب والواقع ان النبي (ص) كان حائراً في أمر قومه ، وضلالهم في عقائدهم وتقاليدهم ، وفساد أعمالهم وجهلهم وتفرق كلمتهم .. ولا يدري ما هو السبيل الى هدايتهم حتى نزل عليه الوحي فيه تبيان كل شيء ، وهدى ورحمة للعالمين ، فضلال النبي (ص) : حيرته كيف يهدي الكافرين ، وهداه نزول القرآن عليه .

٣ - (ووجدك عائلاً فأغنى) . العائل هو الفقير سواء أكان عنده عيال أم لم يكن ، وقال الرواة : ان الرسول (ص) لم يرث من أبيه إلا ناقة وجارية ، ولكن الله قد أغناه برعاية عمه أبي طالب ، ومال خديجة بنت خويلد، وبالغنائم . (فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر) . ومن كان يتيماً وفقيراً فما أجدره برعاية الفقراء والأيتام والاهتمام بشأهم .. وليس من شك ان هذا تعرض وتأديب لكل من حاول أو يحاول أن يقهر يتيماً أو ينهر فقيراً والا فلين رسول

سورة الضحى

الرحمة على خلق عظيم وبالضعفاء رؤوف رحيم (واما بنعمة ربك فحدث) شكراً لله وحيداً . وفي الحديث الشريف ان التحدث بنعم الله شكر له . وقال الإمام الصادق (ع) في معنى هذه الآية : فحدث بما أعطاك الله وفضلك ورزقك وأحسن اليك وهداك . وقال الشيخ محمد عبده: « فحدث أي أوسع في البذل على الفقراء . وتبعه في هذا التفسير تلميذه المراغي ، وهو بعيد عن ظاهر اللفظ ومدلوله ، فان المتبادر الى الافهام من كلمة « فحدث » هو التحدث بنعم الله شكراً له وحيداً . وما أكثر ما يستدل الشيخ محمد عبده بالتبادر .

سورة الانشراح

٨ آيات مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ *
الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ *
وَوَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ * فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا *
إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا *
فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ * وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ *

الإعراب :

الذي أنقض نعت لوزرك . ويسراً اسم ان ومع العسر خبرها .

المعنى :

قال الرازي : « يُروى عن طاووس وعمر بن عبد العزيز ان هله السورة وسورة الضحى واحدة ، وكانا يقرأنها في ركعة واحدة ولا يفصلان بينها بيسم الله الرحمن الرحيم ، والذي دعاهما الى ذلك هو ان قوله تعالى : « ألم نشرح لك »

الجزء الثلاثون

كالعطف على قوله : « ألم يجعلك يتيماً » . وقال صاحب مجمع البيان : روى أصحابنا - أي الشيعة الإمامية - أنها سورة واحدة لتعلق إحداها بالأخرى ، وجمعوا بينها في الركعة الواحدة في الفريضة ، وكذلك في سورة ألم تر كيف .. ولإيلاف قريش . وقال الشيخ المراغي : « نزلت هذه السورة بعد سورة الفصحى ، وهي شديدة الاتصال بما قبلها » . وقال صاحب الظلال : « نزلت هذه السورة بعد سورة الفصحى ، وكأنها تكلمة لما » .

(ألم نشرح لك صدرك) . ضاق النبي (ص) ذرعاً بفساد المجتمع الذي كان يعيش فيه ، وحار في أمره وهو يلتمس الطريق لإصلاح قومه وهدايتهم حتى نزل عليه القرآن ، وأنار له السبيل الى ما يتغيه من صلاح وإصلاح ، فاطمأن قلبه وانشرح صدره (ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك) . الوزر الحمل الثقيل ، والمراد به هنا همّ النبي وغمه لما كان عليه قومه من الشرك والضلال ، فأراح الله نبيّه بالقرآن الكريم من الهمّ والغمّ ، وعليه يكون المراد من وضعنا عنك الخ هو عين المراد من ألم نشرح لك صدرك . ولا فرق إلا في الأسلوب والتعبير ، والغرض زيادة الايضاح والتأكيد (ورضنا لك ذكرك) . وأي شيء أعلى وأرفع من اقتران اسم محمد باسم الله ، وطاعته بطاعته « من يطع الرسول فقد أطاع الله - ٨٠ النساء » . « ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً - ٣٦ الأحزاب » . ومعنى هذا ان قول محمد (ص) هو قول الله بالذات .

(فإن مع العسر يسراً ان مع العسر يسراً) . المعنى واضح ، وهو ان الشدة يعقبها الفرج عاجلاً أو آجلاً لأن المراد بمع هنا تأكيد الأمل في وقوع اليسر وان طال الزمن ، وليس المراد بها المصاحبة والمقارنة .
وتسأل : ما هو القصد من هذا التكرار : فإن مع العسر يسراً ان مع العسر يسراً ؟

الجواب : لا نرى له وجهاً إلا تأكيد هذه القضية في النفوس وتمكينها من القلوب لأنها موضع الشك والريب عند أكثر الناس أو الكثير منهم ، أما الرواية الفاتلة : « لن يغلب عسر يسرين » فقد تأملناها ملياً ، وفهمنا اليسر الأول وانه كشف العسر ، ولكن لم نفهم اليسر الثاني . وقيل : هو ثواب الآخرة . وهذا أبعد من بعيد عن ظاهر اللفظ وسباق الآية لأنها تتكلم عن عسر الدنيا ويسرها ،

سورة الانشراح

وليس عن الآخرة وثوابها .. وأيضاً قيل : ان العسر الثاني هو عين العسر الأول لأن كلاً منها مقرون بالألف واللام للجنس ، أما اليسر فقد أعيد على التنكير ، وإذا أعيدت النكرة كان المراد من الثاني غير المراد من الأول .. ولا يستند هذا القول الى حجة ، وما هو إلا لعب بالألفاظ ، لأنك اذا قلت لخصمك : لي عليك درهمان . فقال : ان لك درهماً ان لك درهماً لا يكون هذا اقراراً منه بالدرهمين .

وحاول الشيخ محمد عبده ان يخالف بين العسرين ، لا بين اليسرين ، فقال : المراد بالعسر الأول العسر المعهود عند المخاطبين ، أما العسر الثاني فأعم ، وقد أطال الشرح والبيان لتأييد رأيه ، ولكنه لم يأت بشيء تركن اليه النفس ، فإن المتبادر من العسر الأول هو عين المتبادر من الثاني ، ولا فرق بينها في المبنى ولا في المعنى .

سؤال ثان : لفسه رأينا كثيراً من الناس يلزمهم العسر حتى المات ، ولا يتفق هذا مع ظاهر الآية ، فما هو الجواب ؟ .

الجواب : ان الحكم في الآية مبني على الأعم الأغلب ، لا على العموم والشمول .. هذا ، الى أنها تبث الأمل في النفوس ، وتدفعها على العمل للخلاص مما تعانيه مع الاعتصام بالله والتوكل عليه .

(فإذا فرغت فانصب) المراد بالنصب هنا التعب، والمعنى اذا فرغت يا عمداً من العمل لأجل الحياة فاتعب واجتهد للحياة من أجل الآخرة . وتجدر الاشارة الى ان بعض المأجورين للفتنة وبث النعرات بين أهل المذاهب الاسلامية قد نسب الى الشيعة الإمامية أنهم يفسرون كلمة فانصب في الآية الكريمة بأنصب علياً للخلافة .. ويكفي في الرد على هذا الافراء ما قاله صاحب مجمع البيان ، وهو من شيوخ المفسرين عند الشيعة الإمامية : قال عند تفسير هذه الآية ما نصه بالحرف : ومعنى انصب من النصب ، وهو التعب أي لا تشتغل بالراحة . (ولى ربك فارغب) . لا تتجه بقلبك لغير الله ، ولا تستعن بأحد سواه . قال الرسول الأعظم (ص) : اذا سألت فاسأل الله ، واذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم انه لو اجتمعت الانس والجن على ان ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعت على ان يضروك لم يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك .

سورة التين

٨ آيات مكة ..

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ * وَطُورِ سَيْنِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ * لَقَدْ خَلَقْنَا
الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلَّا الَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ * فَمَا يُكذِّبُكَ بَعْدُ
بِالَّذِينَ * أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ *

الإعراب :

والتين الواو للقسام. وأسفل صفة لموصوف محذوف أي الى مكان أسفل السافلين .
وبعد ظرف مبني على الضم . وبأحكم الحاكمين خبر ليس والباء زائدة .

المعنى :

(والتين والزيتون) . اختلفوا ما هو المراد بالتين والزيتون ، على أقوال ،
أبعدها عن ظاهر اللفظ ومدلوله ما ذهب اليه الشيخ محمد عبده حيث قال : التين
إشارة الى آدم وسحواء ، وهما في الجنة ، وعندما بدت لها سواتها طفقا بخصفان
عليها من ورق التين والزيتون إشارة الى عهد نوح وذريته . ولا نرى مبرراً
لهذا التأويل لأن المتبادر الى الافهام من كلمة التين هذا التين الذي يؤكل ، ومن
كلمة الزيتون هذا الزيتون الذي يُعصر ، ولا مانع في حكم العسل أن يقسم الله
سبحانه بما شاء من خلقه باعتراف الشيخ محمد عبده ، وما أكثر ما يستند الشيخ

سورة التين

محمد عبده الى التبادر في تفسيره لأي الذكر الحكيم .. أما الحكمة من القسم فقد تكون للتنبيه الى ما لها من فوائد ، وقد تكون غير ذلك ، وما أكثر ما نجهد . (وطور سينين) الطور الجبل الذي كلم الله عليه موسى . وسينين سيناء .

(وهذا البلد الأمين) . وهو مكة التي شرفها الله بميلاد محمد (ص) وكرمها ببيته الحرام ، ومثله « لا أقسم بهذا البلد » . (لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم) . هذا جواب القسم ، وهو القصد من السورة كلها ، والتقويم التعديل والتنظيم .. أقسم سبحانه انه شمل الانسان بلطفه وعنايته حين أوجده وأنشأه ، فخلق جسمه في أبدع الصور والأشكال ، وأودع في روحه من القوى والفرائز ما تسمو به على جميع المخلوقات ان شاء وأراد ، أو تهوي به الى الحضيض ان انحرف مع أهوائه ونزواته ، واذا كان الله سبحانه قد اعتنى بالانسان هذه العناية وأهله الى الرفعة والكمال فجدير بالانسان أن يعتني بنفسه ، ولا ينحرف بها عما خلقت له وعليه من الجمال والكمال . ومثله « وصوركم فأحسن صوركم - ٦٤ غافر » .

(ثم رددناه أسفل سافلين) . الهاء في رددناه تعود الى الانسان باعتبار بعض أفرادها ، والمراد بأسفل سافلين هنا جهنم ، ولولا السياق لقلنا : المراد به أرذل العمر من الهرم والكبر ، ولكن قوله تعالى : « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » قرينة واضحة على ارادة جهنم من أسفل سافلين .. والمعنى لقد خلقنا الانسان في أحسن خلقه جسماً وروحاً ، ولكن بعض أفراده أو أكثرهم عصوا الله وكفروا بأنعمه ، فردهم الى الدرك الأسفل من النار (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون) . لكن الذين آمنوا وعملوا مخلصين بموجب ايمانهم يتنعمون في الجنان خالدين فيها أبداً .. إن الله عنده أجر عظيم . وتقدم بالحرف في الآية ٨ من سورة فصلت .

(فما يكذبك بعد بالدين) . « ما » لفظها استفهام ومعناها إنكار ، ويكذبك أي ما يحملك على التكذيب بدين الله بعد ان قامت عليه الأدلة والبراهين ، ومنها خلق الانسان في أحسن تقويم (أليس الله بأحكم الحاكمين) ؟ بلى انه أحكمهم صنماً وتدبيراً ، وأعدلهم قولاً وفعلاً ، وهو يقضي بالحق على من كذب به استكباراً وعناداً .

سورة العلق

١٩ آية مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * إِقْرَأْ وَرَبُّكَ
الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ * كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ
لَيَطْفَى * أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى * إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرَّجْعَى * أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى
عَبْدًا إِذَا صَلَّى * أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ * أَوْ أَمَرَ بِالْتَّقْوَىٰ *
أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى * أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى * كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَه
لِنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ * فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ * سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ
كَلَّا لَا تَطِعُهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ *

الإعراب :

الذي خلق نعت لربك . وخلق الانسان بدل بعض من خلق الاولى لانه تخصيص
بعد تعميم . وربك مبتدأ والاكرم نعت والذي علم بالقلم خبر . وعلم الانسان بدل
اشتمال من علم بالقلم . كلا ردع . والمصدر من ان رآه مفعول من أجله ليطفى .
ولنسفعاً الاصل لنسفن بنون التوكيد الخفيفة وكتبت ألفاً لانها كالتنوين . وناصية
كاذبة بدل من الناصية . وناديه على حذف مضاف أي أهل ناديه .

المعنى :

قيل : أول ما نزل على رسول الله (ص) فاتحة الكتاب ، وهذا القول يتناسب
مع الاسم ، ولكنه قول نادر . وقيل : أول ما نزل يا أيها المدثر ، والقائلون

سورة العلق

بهذا قليل . وذهب أكثر المفسرين والرواة والعلماء الى ان أول ما نزل سورتنا هذه او أوائلها . قال الشيخ محمد عبده : « صح في الاخبار ان النبي (ص) أول ما تمثل له الملك الذي تلقى عنه الوحي قال له : اقرأ باسم ربك الذي خلق حتى بلغ ما لم يعلم ، ومهما يكن فان على المسلم أن يؤمن إيماناً لا ريب فيه ان كل ما في القرآن هو من عند الله ، ولا يُطلب منه البحث عن زمن الآيات وتاريخ نزولها .

والذي لا شك فيه ان الوحي نزل على الرسول الاعظم (ص) وهو في الاربعين من عمره الشريف ، وانه كان من قبل يؤمن بإله واحد ولا يشرك به شيئاً ، وكانت ثقته به لا تتزعزع أبداً ، أما مصدر هذا الإيمان فأمران : الأول ذاتي وهو عقله وفطرته . والثاني موروث عن جده ابراهيم الخليل (ع) .. ومن تتبع حياة النبي (ص) وسيرته يجد الكثير من الشواهد على إيمانه بإله واحد ، من ذلك انه ما سجد لصنم قط في صغره وكبره . ونقل الرواة ان أحد المشركين قال له قبل أن يبلغ سن الرجال : يا غلام أسألك بحق اللات والعزى ألا أخبرتني عن كذا . فقال له محمد (ص) : لا تسألني باللات والعزى فوالله ما بغضت شيئاً بغضها . وكان بينه وبين مشرك خلاف في شيء قبل البعثة ، فقال له المشرك : احلف باللات والعزى . فقال : ما حلفت بهما قط ، وإني أعرض عنها .

وأيضاً من ذلك قول زوجته السيدة خديجة حين شكها اليها ما أصابه عند نزول الوحي : « والله ما يخزيك الله أبداً ، انك تصل الرحم ، وتحمل الكتل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق » . وفي هذه العبارة التاريخية - أي والله ما يخزيك الله - تظهر لنا بطريقة لا تحتل الجدول فكرة الإله الواحد تشيع في الوسط العائلي المحمدي حتى قبيل دعوته - كتاب الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي » .

وفي كل عصر من العصور حتى في عصر الجاهلية الجهلاء وُجد أفراد آمنوا بالإله الواحد بدافع من عقولهم وصفاء فطرتهم ، ومنهم ورقة بن نوفل ، وزيد ابن عمرو ، وعثمان بن الحويرث وغيرهم . أنظر ج ٥ من هذا التفسير ص ٩٦ فقرة «الحفاه» ، فهل يكثر على سيد الكونين وأشرف الخلق من الأولين والآخرين أن يهتدي بمقله الى الله الواحد القهار ؟ .

(اقرأ باسم ربك الذي خلق) . هذا أول ما نزل من القرآن كما أشرنا ،
ويؤيده الأمر بالابتداء باسمه تعالى . وقال سبحانه : الذي خلق مع حذف المفعول
تعميماً له وانه خالق لجميع الكائنات ، قال علماء العربية : ان حذف المتعلق يدل
على العموم . .

وتسأل : كان النبي (ص) أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، والله سبحانه يعلم ذلك
من نبوته ، فكيف يوجه له الأمر بالقراءة ؟ أليس هذا تكليفاً بما لا يطاق ؟ .

وأجاب الشيخ محمد عبده بأن الأمر في قوله تعالى : اقرأ باسم ربك هو أمر
تكويني بقول للشيء : كن فيكون ، وليس أسراً تكليفاً مثل أقيموا الصلاة
وآتوا الزكاة . أنظر ج ١- ص ٧٢ فقرة « التكوين والتشريع » . وعليه يكون
المعنى كن الآن قارئاً ، وإن لم تكن كذلك من قبل ، فإن الرب الذي خلق
السموات والأرض قادر على أن يجعلك يا محمد قارئاً من غير أن تتعلم القراءة .

(خلق الانسان من علق) . بعد أن ذكر سبحانه انه خالق كل شيء خص
الانسان تكريمياً له « ولقد كرّمنا بني آدم - ٧٠ الإسراء » وتنبهنا على عظيم
قدرته تعالى التي جعلت من العلقه - وهي دم جامد - هذا الانسان العظيم العجيب
بتركيبه وغرائزه كي يستدل بذلك على وجود الخالق القادر « أولاً يذكر الانسان
أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً - ٦٧ مريم » .

(اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم) . اقرأ هذا الأمر تأكيد للأمر الأول
بالقراءة . وربك الأكرم الذي علم بالقلم جملة مستأنفة ، ومعناها ان الله كريم
ولا حد لكرمه تماماً كقدرته وعلمه ، ولا شيء أدل على جوده وفضله من انه،
جلت عظمته، ارتقى بالانسان من أدنى المراتب وهي العلقه الى أعلاها وهي الكتابة
بالقلم، وبها من الفوائد ما لا يبلغه الاحصاء ، من ذلك انها تربط الماضي بالمستقبل ،
وشرق الأرض بغربها ، بخاصة بعد اكتشاف الطباعة التي جعلت العلم مشاعاً للجميع
حتى العميان يقرأون الكتابة بالحروف البارزة ، واذا كان اللسان يفصح عما في
الجنان فإن كلامه يذهب مع الريح ، ومن هنا قيل : القلم ينوب عن اللسان ،
واللسان لا ينوب عن القلم .

(علم الانسان ما لم يعلم) . الله سبحانه لا يقذف العلم بقلب الانسان ، وانما

سورة الملق

يمنحه العقل الذي هو مصدر العلوم ، وليس للعقل حد ينتهي اليه لا الصعود إلى القمر ولا إلى المريخ ، وكذلك علوم الانسان ، فإنها تزداد يوماً بعد يوم إلى ما لا نهاية .. واتفق أكثر المفسرين على ان هذه الآيات من أول السورة إلى هنا نزلت دفعة واحدة ، أما بقية السورة فتأخرة زماناً .

المال والطفانيان :

(كلا ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى) . كلا للردع، والطفانيان تجاوز الحد، والحكم على الانسان باعتبار الأغلب من أفرادهِ .. وأكثر الناس - وكنت منهم - يستشهدون بهذه الآية على ان الانسان يستعلي ويظلم حين يملك من المال والثروة أكثر من غيره .. وعلى هذا جمهور المفسرين . قال الرازي : « أول السورة يدل على مدح العلم ، وآخرها على مذمة المال » . وقال صاحب مجمع البيان : « أي إن رأى نفسه مستغنياً عن ربه بعشيرته وأمواله وقوته » . وقال الشيخ محمد عبده : « أي متى أحس من نفسه وبقطع النظر عما قبلها ، وهو قوله تعالى : « علم الانسان ما لم يعلم » . أما إذا نظرنا إلى مجموع الآيتين ، وانها وردتا في كلام واحد بلا فاصل بينهما ، ولا بد من هذا النظر ، اذا فعلنا ذلك كان المعنى ان الانسان يتجاوز الحدود المشروعة حين يرى نفسه غنياً بالعلم وأدواته كالمخترات والمصانع ، ويظلم من هو دونه بقسوة وضراوة ، ويؤيد هذا التفسير بالاضافة إلى ظاهر السياق - انه الواقع الذي تعيش فيه الانسانية الآن ، فإن الذين يملكون العلم يحاولون أن يُخضعوا العالم كله لسيطرتهم واستغلالهم ، بعد أن اتجهوا بالعلم إلى الانتاج الحربي والصناعة العسكرية ، وأصبح لديهم من الأسلحة ما يقضون به على الكرة الأرضية بما فيها في بضع ساعات .. هذا هو التفسير الصحيح لقوله تعالى : « ان رآه استغنى » نقول هذا ، ونحن من المؤمنين بالحقيقة الشائعة « الانسان ان استغنى بطر وقتن ، وان افتقر قنط ووهن » ولكن الحقيقة في ذاتها شيء ، ودلالة اللفظ والسياق شيء آخر .

(إن إلى ربك الرجعى) لا تغتر بالدنيا وزينتها أيها الطاغية، ولا بالعلم وقنابله والمال وخداعه فإن قوة الحق أمضى من القنابل النووية .. فهله ثورة الانسان ضد

الجزء الثلاثون

الاستغلال والاستعباد في الهند الصينية وغيرها قد لقت أبواب المعامل والصناعة العسكرية في امريكا أبلغ الدروس، ثم يردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئهم بما كانوا يعملون .

(رأيت الذي ينهى عبداً اذا صلى) . هذا انكار على كل من ينهى عمن المعروف بطريق أو بآخر (رأيت ان كان على الهدى أو أمر بالتقوى) . أخبرني عن هذا الضال الذي ينهى عن المعروف ويأمر بالمنكر - هل هو على حق في نبيه وأمره (رأيت ان كذب وتولى ألم يعلم بأن الله يرى) . لقد كذب هذا الضال بالحق وأعرض عنه ، أفلا يخشى عذاب الله الذي يعلم سره وعلايته ؟ . (كلا لمن لم ينهه عن نفسه بالناسية ناصية كاذبة خاطئة) . الناصية شعر الجبهة ، والشفع الجذب بشدة ، وكانت العرب تأنف من الجبر بالناصية ، وتعدده غاية الاذلال والتحقير ، لانه للحيوان لا للانسان ، وكاذبة خاطئة أي صاحبها كاذب خاطيء ، والمعنى ليرتدع هذا الضال عن ضلاله وإلا قدمناه بناصيته الى عذاب الحريق (فليدع ناديه) النادي المجلس ، وفي الكلام حذف مضاف أي ليدع هذا الضال أهل مجلسه بمنعوا عنه العذاب ، والمراد بأهل مجلسه أعوانه وعشيرته ، ومثله « قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً » - الإسراء ٥٦ .

(سندع الزبانية) . وهم ملائكة العذاب ، والزبانية من الزين بفتح الزاي ، وهو الدفع أي ان الملائكة يدفعون بالطاغية الى نار جهنم ، وأصل « سندع » بالواو في آخر الكلمة ولكنها حذفت في كتابة المصاحف (كلا) زجر عن متابعة الطاغية والاصغاء لدعاياته المضللة (لا تطعه واسجد) لله وحده ، ولا تخش من مخلوق كائناً من كان (واقرب) أي وتقرب إلى الله بأعمال الخير ، وأفضلها جهاد الطغاة .

وقسم الفقهاء السجود إلى سجدة الصلاة الموهودة ، وسجدة السهو ومكانها بعد الصلاة بلا فاصل وموجبها الخلل في الصلاة زيادة أو نقصاناً ، والتحصيل في كتب الفقه ، وسجدة الشكر عند تجدد نعمة أو دفع نقمة ، وسجدة التلاوة ، وقد أوجبها الإمامية عند تلاوة آية السجدة من سورة ألم تنزيل ، وسورة حم فصلت ، وسورة النجم ، وسورة العلق ، وما عدا ذلك فهو نذب لا فرض .

سورة القدر

• آيات مكة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ
خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ * تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ
كُلِّ أَمْرٍ * سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ *

الإعراب :

ما أدراك « ما » مبتدأ وجملة أدراك خبر . ما ليلة القدر مبتدأ وخبر . وليلة
القدر مبتدأ وخبر خبر . تنزل أي تنزل . وسلام خبر مقدم وهو مصدر بمعنى
اسم الفاعل أي سلامة ، وهي مبتدأ مؤخر . وحتى حرف جر بمعنى إلى ومطلع
مجرور بها متعلقاً بسلام وقبل تنزل .

المعنى :

(إنا أنزلناه في ليلة القدر) . الضمير في أنزلناه للقرآن لحضوره في الأذهان ،
وليلة القدر هي إحدى ليالي شهر رمضان المبارك للأحداث المتضافرة ، ولقوله
تعالى : « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن - ١٨٥ البقرة » فإذا عطفنا هذه
الآية على قوله تعالى : « إنا أنزلناه في ليلة القدر » كانت النتيجة ان ليلة القدر

الجزء الثلاثون

هي احدى ليالي شهر رمضان . وتعددت الأقوال في تعيين هذه الليلة من الشهر المذكور تبعاً لتعدد الأحاديث ، وسكت كتاب الله عن ذلك للحث على إحياء جميع ليالي شهر رمضان بالعبادة كما قبل .

وفي رواية عن الإمام جعفر الصادق (ع) : ان سائلاً سأله عنها فقال له : اطلبها في تسع عشرة واحدى وعشرين وثلاث وعشرين ، وجرت العادة عند أهل السنة أن يقيموا شعائرها في ليلة ٢٧ .

وأطرف ما قرأته حول تعيين هذه الليلة ما جاء في كتاب أحكام القرآن لأبي بكر المعروف بابن العربي المعافري الأندلسي المالكي ، قال صاحب الكتاب ما نصه بالحرف : « أنها في ليلة ٢٧ لأن العلماء عدوا حروف السورة فلما بلغوا الى كلمة « هي » وجدوها سبعة وعشرين حرفاً ، فحكموا عليها بها - أي حكموا على ليلة القدر بالحروف الممدودة - وهو أمرٌ بينٌ وعلى النظر بعد التفتن له هين ، ولا يهتدي له إلا من كان صادق الفكر شديد الغيرة » . وليست هذه « العبقرية » في الاستنتاج ، وهذا « الورع » في تفسير كلام الله - بالشيء الغريب عن الذي قال معلقاً على فتوى للإمام الشافعي : « هذا كلام من لم يذق طعم الفقه » . وأيضاً قال تعليقاً على فتوى للإمام أبي حنيفة : « هذا فقه ضعيف » . أنظر كتاب « أحكام القرآن » ج ٢ ص ٢٣٩ طبعة ١٣٣١ هـ .

وقال الشيخ محمد عبده : ليلة القدر هي ليلة عبادة وخشوع وتذكر لنعمة الحق والدين .. ولكن المسلمين في هذه الايام يتحدثون فيها بما لا ينظر الله اليهم ، ويسمعون شيئاً من كتاب الله لا ينظرون فيه ولا يعتبرون بمعانيه ، بل إن أصغوا فإنما يصغون لنعمة تالي القرآن .. ولهم خيالات في ليلة القدر لا تليق بمقول الأطفال فضلاً عن الراشدين من الرجال .

واختلفوا : هل نزل القرآن جملة واحدة أو نجوماً ؟ والحق انه نزل نجوماً ، وان معنى أنزلناه في ليلة القدر ان ابتداء النزول كان في هذه الليلة . وتكلمنا عن ذلك مفصلاً عند تفسير الآية ١٠٦ من سورة الإسراء ج ٥ ص ٩٥ فقرة « هل نزل القرآن نجوماً » ؟ . وأيضاً اختلفوا : لماذا سميت هذه الليلة بليلة القدر ؟ فن قائل : لأن الله سبحانه بقدرٍ ويقسم الأرزاق والأجال في هذه الليلة بن عباده ،

سورة القدر

وقائل : . ان المراد بالقدر هنا الشرف والعظمة . وهذا القول أقرب الى كلمة القدر لأنه يقال : فلان له قدر أي شرف وعظمة ، ويؤيده ان الله سبحانه وصف هذه الليلة بالمباركة في الآية ٣ من سورة الدخان « انا أنزلناه في ليلة مباركة » والبركة السعادة والنمو ، وليس من شك ان الانسانية تنمو وتسد لو سارت على نهج القرآن الذي نزل في ليلة القدر .

(وما أدراك ما ليلة القدر) . هذا تعظيم لشأنها وعلو قدرها وانه فوق التصور (ليلة القدر خير من ألف شهر) لا قدر فيه وإلا لزم تفضيل الشيء على نفسه ، والمعنى ان من أحيا ليلة القدر بالعبادة وعمل الخير فكأنما عبد الله ألف شهر . قال الرازي : « هذه الآية فيها بشارة عظيمة وفيها تهديد عظيم ، أما البشارة فهي انه تعالى ذكر ان هذه الليلة خير ولم يبين قدر الخيرية ، وهذا كقول النبي (ص) لعلي (ع) كإبارة علي مع عمر بن ود أفضل من عمل امي الى يوم القيامة ، فلم يقل مثل عمله بل قال أفضل ، كأنه يقول : حسبك هذا من الوزن والباقي جزاف .

(تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر) . كثرت في هذه الآية التفسير والأقوال ، ونذكر أولاً معاني مفرداتها ثم مجمل المعنى . وتنزل لا يحتاج الى تفسير ، ولكن الله سبحانه لم يذكر الى أين تنزل ملائكته ليلة القدر ؟ هل تنزل الى أرضنا أو الى غيرها من الأفلاك أو الى كل مكان كما يقتضيه حذف المتعلق ؟ . والروح هو جبريل ، وضمير فيها يعود الى ليلة القدر ، وإذن ربهم أي بأمره ، ومن كل أمر « من » سببية أي لأجل ، وكل أمر يعم كل شيء في السموات والأرض ، ومجمل المعنى ان الله سبحانه يأمر في ليلة القدر الملائكة بالتزول الى كل مكان من أجل كل شيء .. واذا سئلنا : ما هو المراد من أجل كل شيء ؟ هل هو تدبير الأشياء وتقرير مصيرها أو معاينتها واحصاؤها أو غير ذلك ، اذا سئلنا عن ذلك قلنا : الله أعلم . وقال الشيخ محمد عبده : المراد ان أول عهد النبي (ص) بشهود الملائكة كان في ليلة القدر .. وهذا بعيد عن ظاهر اللفظ .

(سلام هي حتى مطلع الفجر) . ضمير هي يعود الى ليلة القدر ، ولكن

هل المراد ان السلام الى مطلع الفجر يكون في جميع ليالي القدر وانه لا يقع شيء من الشرور والآفات في أية ليلة من ليالي القدر ، أو ان السلام الى مطلع الفجر كان في خصوص الليلة التي نزل فيها القرآن على قلب رسول الله ؟. الظاهر من عبارة المفسرين العموم ، ومن عبارة الشيخ محمد عبده الخصوص ، قال : وانها كانت ليلة سالمة من كل شر وأذى .. فرج الله فيها عن نبيه وفتح له فيها سبيل الهداية ، فأناله بذلك ما كان يتطلع اليه .

سورة البينة

٨ آيات . قيل مدنية وقيل مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ * رَسُولٌ مِنْ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً * فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ * وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ * وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ * جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ

جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ
وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ *

الإعراب :

منفكيين خبر لم يكن . ورسول بدل من البينة . ومن الله متعلق بمحذوف صفة
لرسول . وفيها خبر مقدم وكتب مبتدأ مؤخر والجملة صفة لصحف . ومخلصين
حال من فاعل ليعبدوا . والذين مفعول مخلصين . وحنفاء حال ثانية . في نار
جهنم خبر ان الذين كفروا . وأولئك مبتدأ أول وهم مبتدأ ثانٍ وشر خبر الثاني
والجملة خبر الأول . وأبدأ ظرف زمان متعلق بالخلود ومؤكد له .

المعنى :

(لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة).
المراد بأهل الكتاب اليهود والنصارى ، وبالمشركين عبدة الأوثان من العرب ،
ومنفكين أي مفارقين .. وكان أهل الكتاب قد قرأوا في كتبهم ان الله سيبعث
نبياً يهدي الى الحق ، وأيضاً سمع المشركون بهذا النبي ، فكان بين الفريقين شبه
اجماع على بعثة النبي الموعود، وكثيراً ما كان يقع الخصام والعداوة بين أهل الكتاب
والمشركين ، ويدعي كل فريق انه الحق والآخر هو المبطل ، ثم يتفقون على
ان يرجئوا حكم الفصل بينهم الى مجيء النبي الموعود ، وانهم متى جاء آمنوا به
وأذعنوا لحكمه ، وهو المقصود بالبينة التي بينها سبحانه بقوله : (رسول من الله
يتلو صحفاً مطهرة فيها كتب قيمة) . المراد برسول الله هنا محمد (ص) وبالصحف
القرآن ، والجمع باعتبار تعدد سوره أو أوراقه لأن كل ورقة مكتوبة يقال لها
صحيفة ، ومطهرة أي منزهة عن الباطل والتحريف ، وضمير فيها يعود الى
الصحف، والمراد بالكتب ان القرآن فيه تبيان الكثير مما أنزله الله في الكتب السماوية
السابقة كصحف ابراهيم والتوراة والانجيل والزبور بل فيه تبيان ما نزل على جميع

الجزء الثلاثون

الأنبياء من الهدى وأصول الدين ، والمراد بالقيمة المستقيمة على نهج الحق، والمعنى ان محمداً (ص) لما جاء بالقرآن الذي فيه تبيان كل شيء أعرض عنه المشركون وأهل الكتاب ، ونكثوا العهد الذي كانوا قد أبرموه على أن يتحاكموا لدى النبي الموعود .

(وما تفرق الذين أتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة) . هذه البينة جاءت أهل الكتاب على ألسنة أنبيائهم ، فالمراد بها غير المراد بالبينة في الآية السابقة ، والمعنى ان أهل الكتاب تبادوا في النفي والضلال بإعراضهم عن دعوة محمد (ص) الذي جاءهم بالبينات تماماً كما تبادوا في السفاهة والضلالة بعد أنبيائهم الذين جاءوهم بالأدلة والحجج ، وذلك ان اليهود انقسموا الى فرق بعد موسى ، وكذلك النصارى تفرقوا شيعاً بعد عيسى ، وما كان هذا الاختلاف والانقسام عن جهل بالدين ، وإنما فرقتهم الأهواء والمنافع . وتقدم مثله في الآية ١٠٥ من سورة آل عمران ج ٢ ص ١٢٧ والآية ١٧ من سورة الجاثية .

(وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة) . حنفاء جمع حنيف ، وهو من استقام على الحق مائلاً عن كل باطل ، والمعنى ان أهل الكتاب تفرقوا في دينهم مع ان دين الله واحد وواضح ، وهو الاخلاص لله وحده ، والاستقامة على الحق والهدى، واقامة الصلاة ، وابتاء الزكاة ، وهذا دين الكتب السماوية المستقيمة على الصراط القويم، فمن أين جاء تعدد الأديان والطوائف والمذاهب ؟. قال الشيخ محمد عبده : « هذا ما نعاه الله من حال أهل الكتاب، فما نقول نحن في حالنا ؟ ألا ينمى كتابنا الشاهد علينا بسوء أعمالنا في افتراقنا في الدين بعد أن صرنا فيه شيعاً ، وملأناه بدعاً ومحدثات » . أنظر ج ١ ص ١٨٠ فقرة « أيضاً المسلمون يكفر بعضهم بعضاً » .

(إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية) . المراد بالكافرين هنا كل من جحد الحق الذي قام عليه الدليل ، سواء أجمده عناداً وبعد ان علم به ، أم لأنه يأبى البحث عن الحق والنظر اليه والى دليله ، وقد اتفق علماء المسلمين على ان حكم الجاهل المقصر في البحث عن الحق تماماً كحكم العالم به التارك له عن قصد وعمد، وليس من شك ان من أعرض

سورة البيّنة

عن الحق بلا مبرر هو شر أهل الأرض تماماً كمن جعل لله شريكاً ، ولا جزاء لهذا وذاك إلا الخزي والعذاب .

(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات) . آمنوا بالحق وعملوا بموجب إيمانهم (اوذلك هم خير البرية) . كل من بحث عن الحق وعمل به لوجه الحق ولا تأخذه فيه لومة لائم - فلا أحد أفضل منه إلا من اختاره الله لرسالته ، واصطفاه أميناً على وحيه (جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه) . رضي عنهم لأنهم عملوا بمرضاته فأناهم بملك دائم ، ونعيم قائم ، ورضوا عنه بما أفاضه عليهم من فضله ونعمه . وتقدم مثله في الآية ١١٩ من سورة المائدة ج ٣ ص ١٥٣ والآية ١٠٠ من سورة التوبة ج ٤ ص ٩٥ والآية ٢٢ من سورة المجادلة .

(ذلك لمن خشي ربه) . لقد أعد سبحانه الجزاء الحسن لمن خشي الرحمن بالغيب وقال صواباً . قال الشيخ محمد عبده : « أراد سبحانه بهذه الكلمة الرفيعة ان يدفع سوء الفهم الذي وقع فيه العامة والخاصة وهو ان مجرد الاعتقاد الموروث من الأبوين ومعرفة ظواهر بعض الأحكام وأداء بعض العبادات ، مجرد هذا يكفي في نيل ما أعد الله للمؤمنين، وان امتلأت قلوبهم بالحق والحسد والكبرياء والرياء ، وأفواهم بالكذب والنميمة والافتراء ، وسرائرهم بالرق والعبودية للأمرء بل لمن دون الأمرء .. كلا ، لا يتألون حسن الجزاء لأن خشية الله لم تحل قلوبهم ، ولم تهب شيئاً من نفوسهم ، ولا يكون ذلك إلا لمن خشي ربه ، وأشعر خوفه قلبه . »

سورة الزلزلة

٨ آيات مكة وقيل مدنية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ
الْإِنْسَانُ مَا لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا * يَوْمَئِذٍ
يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ *
وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ *

الإعراب :

زلزالها مفعول مطلق . وما لها ؟ مبتدأ وخبر . ويومئذٍ تحداث : « يومئذٍ بدل
من « إذا » لأنها بمعنى حين . والمصدر من ان ربك أوحى متعلق بتحدث .
ويومئذٍ منصوب بيصدر . وأشأتاناً حال . والمصدر من ليروا متعلق بيصدر . وخبراً
تمييز مبنٍ للمثال ذرة لأن المعنى ذرة من خير ، ومثله شرأ .

المعنى :

(إذا زلزلت الأرض زلزالها) . هذا تحويف من أهوال يوم القيامة الذي
تضطرب فيه الأرض وتهتز اهتزازاً شديداً ، ومثله « يا أيها الناس اتقوا ربكم ان

سورة الزلزلة

زلزلة الساعة شيء عظيم - ١ الحج ، ج ٥ ص ٣٠٨ (وأخرجت الأرض أنقالها).
أخرجت كل ما طوته في جوفها من أموات وكنوز ومدن وحضارات (وقال
الانسان ما لها) ؟ ما لهذه الأرض تموج على غير عاداتها ؟ ما الذي جرى لها ؟
(يومئذ تحدث أخبارها) . حديث الانسان أن يظهر ما يكنه في نفسه ، وحديث
الأرض يوم القيامة أن تبرز للعيان ما ابتلته من عجائب وغرائب مدى الدهور
والمصور .. ولست أدري : هل يشاهد يومئذ علماء الآثار هذا المعرض المذهل
المدهش ؟.

(بأن ربك أوحى لها) . كل ما يحدث للأرض يوم القيامة هو بأمر الله
تعالى . وقال الشيخ محمد عبده : « ولا مانع من أن يكون خراب الأرض في
آخر عمرها بسبب من الأسباب التي تهدم بناءها وتجعلها هباءً منثوراً » . وكأنه
يشير بقوله هذا الى التفجيرات النووية على سطح الأرض وجوفها مع العلم بأنها لم
تكن في أيامه .. وقوله قريب جداً لأن عمر الأرض لا ينتهي بمرور الزمن كما
هو شأن الكائنات الحية ، بل يخلل بعرض لها أو لجزء من أجزائها الرئيسية .
(يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروأ أعمالهم) . يوم القيامة يُبدل الله الكون
غير الكون ، ويلحق آخر الخلق بأوله ، ويذهبون بقصصهم وقصصهم الى حيث
يرى كل واحد منهم جزاء عمله (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل
مثقال ذرة شراً يره) . في تفسير الرازي وغيره : ان الذرة أصغر النمل . وفي
كتاب « القرآن والعلم الحديث » لنوفل « الذرة هي أقل جزء يمكن أن يصل
اليه تقسيم المادة ، ولا يزيد حجمها على جزء من عشرة بلايين من المليمتر » .
ويقال أيضاً : ان الذرة لا تُرى أبداً حتى بأعظم المجاهر ، وانما تُعرف بآثارها ،
والمعنى واضح ، وهو ان الانسان يجد غداً عند الله جزاء عمله إن خيراً فخير ،
وإن شراً فشرراً بالغة ما يبلغ العمل من الصغر .. وبديهة ان جزاء كل شيء بحسبه
كما وكيفاً .

وتسأل : هل المؤمن والكافر في ذلك سواء ، أم ان من كفر بالله لا يقبل
منه عمل الخير ولا يثاب عليه حتى ولو أتى به لوجه الخير والانسانية ؟
الجواب : كل شيء بحسابه ، فإذا فعل الكافر خيراً يُعذب عذاب الكفر ،
وَيُجزى على عمل الخير بما تستدعيه الحكمة الإلهية من ثواب الدنيا أو التخفيف من

عذاب الآخرة . وتكلمنا عن هذا الموضوع مفصلاً في ج ٢ ص ٢١١ بعنوان :
الكافر وعمل الخير .
سؤال ثانٍ : لقد دل كثير من الآيات ان الكفر يحبط الأعمال ، وإن كانت
كلها حسنات ؟ .

وقد أجاب عن هذا بعض العلماء بأن معنى الاحباط ان حسنات الكافر لا تنجيه
من عذاب الكفر ، وليس معناه ان الله سبحانه لا يشبه عليها إطلاقاً حتى في الدنيا .

سورة العاديات

١١ آية مكية وقيل مدنية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا * فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا * فَأَثَرُنَّ بِهِ
نَقْعًا * فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا * إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ
لَشَهِيدٌ * وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ * أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ رَاسُهُ فِي الْأُبُورِ *
وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ * إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ *

الإعراب :

ضبحاً مصدر في موضع الحال أي ضاححة . وقدحاً مفعول مطلق للموريات لأن
الوري فيه معنى القدح ، فهو مثل قت وقرفاً . وصبحاً منصوب على الظرفية .
فأثرنّ النون علامة التانيث . ونقعا مفعول به ، ومثله جمعاً ، وقال أبو البقاء :
جمعاً حال . إن الانسان الخ جواب القسم . لربه متعلق بكنود . على ذلك متعلق
بشهاد . لحب الخير متعلق بشديد . يومئذ متعلق بخبير .

المعنى :

جاء في مجمع البيان وغيره ان رسول الله (ص) أرسل سربة الى حمي من بني كنانة ، فأبطأت عليه ، فقال المنافقون : ان رجالها قتلوا ، فترلت هذه السورة تخبر النبي (ص) بسلامتهم وتكذب المرجفين .

(والعاديات ضبْحاً) . العاديات جمع العادية من العدو، وهو الجري بسرعة ، والمراد بالعاديات هنا الخيل ، وقيل الإبل ، والضحج صوت أنفاسها عند العدو (فالموريات قدحاً) . الموريات من قولهم : أوردى النار اذا أوقدها ، والقدح الضرب لاجراج النار ، والمعنى ان الخيل عند عدوها تضرب الحجارة بحوافرها فيتطاير منها الشرر ، (فالغيرات صباحاً) أغارت الخيل على العدو وقت الصباح لتأخذها على غفلة منه (فأثرن به نقعاً) . أثرن حركن ، والضمير في به يعود الى وقت الصباح ، والباء ظرفية أي فيه ، والنقع الغبار (فوسطن به جمعاً) . وسطن توسطن ، وأيضاً ضمير به يعود الى وقت الصباح، والمراد بالجمع هنا جمع العدو ، والمعنى هاجمت الخيل العدو وقت الصباح .

أقسم سبحانه بخيل المعركة، وبالأحرى أقسم بالقوة وإعداد العدة ليحث المؤمنين على الجهاد في سبيل الله ، والتسلح بالقوة لردع أعداء الله والأتانسة .. ومن تبع آي الذكر الحكيم يجد ان الله سبحانه قد حث المؤمنين في العديد من آياته وبشئ الأساليب أن يكون لديهم أمضى سلاح يرهبون به الطغاة المعتدين الذين لا يفهمون إلا بلغة القوة .. من ذلك قوله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم - ٦٠ الأنفال » . وقوله : « ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم - ١٠٢ النساء » وقوله « ولا تكونوا كآتي نقضت غزلها من بعد قوة - ٩٢ النحل » . الى غير ذلك من الآيات التي تأمر بكل ما من شأنه أن يجعل كلمة الحق هي العليا ، وكلمة الباطل هي السفلى . وبهذا يتبين معنا ان ذكر الخيل وضحجها ، وقدها ونقعها انما هو كناية عن إعداد العدة لصيانة الحق والدفاع عن أهله ، وكفى سبحانه بالخيل عن القوة لأنها كانت آنذاك من أبرز مظاهرها .

وقال الشيخ محمد عبده ، وهو يفسر هذه الآيات : أليس غريباً ان اناساً

الجزء الثلاثون

يزعمون ان القرآن كتابهم ، وهم أبعد الناس عن الرجولة وصفاتها ، لقد كلمت أستاذاً منهم يشار اليه بالبنان في منافع بعض العلوم كمي تُدرس في الأزهر فقال :
« اذن يجب أن نعلم الطلبة ركوب الخيل أيضاً » . قال هذا ليفحمي ، فهل يتفق قوله مع الايمان بكتاب الله ؟ أنصف ثم احكم .

(ان الانسان لربه لكتود) . هذا جواب القسم ، والكتود جاحد النعمة ، والحكم في الآية على الانسان باعتبار الأغلب من أفرادها ، والمعنى ان أكثر الناس ينسون الله عند النعم ، ويشكرونه عليها بالبدل منها في سبيله ، قال الرسول الأعظم (ص) : الكتود هو الذي يأكل وحده ، ويضرب عبده ، ويمنع رفته (وانه على ذلك لشهيد) أي ان أعمال الكتود تشهد عليه بلسان الحال انه كافر بأنعم الله .. وأشد أنواع الكفر بالله ونعمه ان يستظهر بها الانسان على عباد الله وعياله .

(وانه لحب الخير لشديد) . قال المفسرون : المراد بالخير هنا المال .. وليس من شك ان من اشد حبه للمال فقد تجرد عن انسانيته وكفر بكل القيم إلا اذا كانت وسيلة لجمع المال .. ولو بحثنا عن الأسباب الموجبة لمآسي الانسانية وويلاتها لوجدناها تكمن في التنافس على الثروات وجمع المال . قال هربرت ماركيز الذي عمل استاذاً للفلسفة في جامعات كولومبيا، وهارفارد ، وبرانديز في الولايات المتحدة قال في كتابه الانسان ذو البعد الواحد : « من أين يأتي الخير في عصر لا يخلق إلا الشر حيث سيطرت المادة بشكل جعل الانسان هو العبد ، وهي السيد القوي المتحكم » .

(أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور وحُصِّل ما في الصدور ان ربهم بهم يومئذ لخبير) . الضمير المستتر في يعلم يعود الى الانسان أو الى الكتود، ومفعول يعلم مخوف أي أفلا يعلم الانسان مآله ومصيره ؟ وبعثر ما في القبور خرج منها الموتى للحساب والجزاء ، وحُصِّل ما في الصدور ظهر ما فيها من النيات والمخبات ، وضمير بهم يعود الى المبعوثين من القبور ، وخبير اشارة الى انه تعالى محيط بمقاصدهم وأعمالهم ومجازيهم عليها بما يستحقون . والآية تهديد ووعيد لكل من كفر بأنعم الله وتناول بها على عباده . وتقدم مثله في العديد من الآيات ، منها الآية ٢٣٥ من سورة البقرة .

سورة القارعة

١١ آية مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ * يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ
كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ * فَأَمَّا مَنْ
نَقَلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ *
فَأُمُّهُ هَارِيَةٌ * وَمَا أَذْرَاكَ مَا هِيَةٌ * نَارُ حَامِيَةٍ *

الإعراب :

القارعة مبتدأ ، ما القارعة « ما » مبتدأ ثان والقارعة خبر والجملة خبر المبتدأ
الأول . وما أدراك « ما » مبتدأ وجملة أدراك خبر . ما القارعة مبتدأ وخبر .
يوم منصوب بفعل محذوف أي تحدث القارعة يوم يكون الخ . ماهيه « ما » خبر
مقدم وهي مبتدأ مؤخر والماء للسكت . نار خبر لمبتدأ محذوف أي هي نارحامية .

المعنى :

(القارعة) من أسماء القيامة لأنها تفرع القلوب بأهوالها ، ومثلها الحاقة والصاخة
والطامة وما إليها (ما القارعة) استفهام أريد به تعظيم شأنها (وما أدراك ما
القارعة) ما الذي جعلك بها دارياً ؟ . أنها فوق النصور (يوم يكون الناس كالفرش
المبثوث) . هذا بيان لبعض ما يحدث فيها لا لبيان حقيقتها ، والفرش معلوم
وهو الطير الصغير الذي يرمى ليلاً على السراج ، والمبثوث المنفرد المنتشر ..

الجزء الثلاثون

شبه سبحانه حال الخلق يوم القيامة بحال الفراش في الجهل والحيرة وتساقط أكرها في النار (وتكون الجبال كالمهن المنفوش) . العهن الصوف ، ونفسه ان تفرق شعراته بعضها عن بعض .

(فأما من ثقلت موازينه) . والمراد به من طابت سريرته وصلح عمله (فهو في عيشة راضية) أي يرضاها ويهاها (وأما من خفت موازينه) . والمراد به من خبث سريرته وساء عمله . وتكلمنا مفصلاً عن حقيقة الميزان يوم القيامة في ج ٥ ص ٢٨٠ فقرة ١ الميزان يوم القيامة وصاحب الأسفار (فأمه هاوية) المراد بأمه هنا ما بأويه وبمحضه، وبالهاوية جهنم لأن المجرم يهوي بها ، وقد بينها سبحانه بقوله : (وما أدراك ما هي نار حامية) هذا كل ما يمكن أن تعرفه عن جهنم، أما إدراك حقيقتها فتعجز عنه الافهام لأن قمرها بعيد ، وعذابها جديد .

سورة التكاثر

٨ آيات مكية وقيل مدنية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ * كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا
سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ
لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ * ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ *

الإعراب :

كلا حرف ردع وزجر والثانية والثالثة تأكيد . لو تعلمون الجواب محذوف أي لما ألهاكم التكاثر . أو لارتدعتم عما أنتم فيه . وعلم اليقين مفعول مطلق وهو

سورة التكاثر

من باب إضافة الشيء الى نفسه مثل مسجد الجامع. لترون اللام في جواب القسم :
لترونها تأكيد لترون . لتسألن اللام في جواب القسم . ويومئذ منصوب بتسألن .

المعنى :

(الهالك التكاثر) . الهالك شغلكم وصرفكم عن الحق وصالح الأعمال، والتكاثر
التفاخر بكثرة الأموال وما إليها من قول المباهي : أنا أكثر منك مالاً أو جاهاً
(حتى زرتم المقابر) . مضيم في النقلة والضلال حتى أدرككم الموت . وللإمام
علي (ع) كلام طويل قاله بعد تلاوة هذه الآية الكريمة ، وقد أدرج في تهج
البلاغة ، ومنه « اعصارع آبائهم يفخرون ؟ أم بعديد الهلكى يتكاثرون ؟ ولأن
يكونوا عبراً أحق من أن يكونوا مفتخراً » .

(كلا) ارتدعوا عن التكاثر والتفاخر فإنه لا يجديكم ففعماً (سوف تعلمون)
ما يجعل بكم من العذاب (ثم كلا سوف تعلمون) . هذا تأكيد للتهديد (كلا
لو تعلمون علم اليقين) أي لو كنتم تعلمون علماً قاطعاً مآل المتكاثرين لارتدعتم
عن التكاثر والتفاخر ، وفيه إيماء الى ان العلم بلا عمل هو والجھل سواء ، وفي
ذلك يقول الإمام (ع) : « العلم يهتف بالعمل ، فان أجابه وإلا ارتحل عنه » .
(لترون الجحيم) . هذا تهديد لمن كذب بها أو آمن ولم يعمل بموجب إيمانه ،
وقد كتى سبحانه برؤية الجحيم عن الدخول فيها (ثم لترونها عين اليقين) :
هنا تأكيد للعلم بها ، وانه علم العيان والمشاهدة ، وتجدر الاشارة الى ان أية نظرية
لا تستند الى العيان والمشاهدة مباشرة أو بالواسطة فما هي من العلم في شيء ، فالعلم
الحق هو ان ترى الشيء نفسه ، أو ترى آثاره التي تدل عليه ، ويسمى الأول
علم العيان ، والثاني علم البرهان .

(ثم لتسألن يومئذ عن النعم) . المراد بالنعم هنا الأموال التي يتكاثر ويتفاخر
بها أربابها بلسان المقال أو الحال، وهم مسؤولون عنها أمام الله : من أين اكتسبوها؟
وفي أي شيء انفقوها ؟ هل اكتسبوها من كد اليمين وعرق الجبين ، أو من
السلب والنهب ؟ . وهل أففقوها في حلال أو حرام ؟ أما ما تدعو اليه الحاجة من
الأكل والملبس والمسكن فليس من النعم المقصود في هذه الآية .

سورة العصر

٣ آيات مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ *
إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
وَتَوَّصَّوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَّوْا بِالصَّبْرِ *

المعنى :

(والعصر) . اختلفوا : ما هو المراد بالعصر ، وفي ذلك أقوال : الأول ان الله سبحانه أقسم بصلاة العصر لا بالعصر نفسه ، فهو من باب حذف المضاف وإقامة المضاف اليه مقامه ، أما الغرض من القسم بصلاة العصر فهو التنبيه على فضلها كما في الآية ٢٣٨ من سورة البقرة «حافظوا على الصلاة والصلاة الوسطى» . وهذا بعيد عن الفهم العام .. القول الثاني ان المراد بالعصر عهد الرسول (ص) .. وهذا أبعد من الأول .. القول الثالث ان المراد به الطرف الأخير من النهار، وأنه تعالى أقسم بآخر النهار في هذه الآية كما أقسم بأوله في الآية ١ من سورة الشمس « والشمس وضحاها » . وهذا القول غير بعيد عن دلالة اللفظ ، وأقرب منه القول الرابع وهو ان المراد بالعصر الدهر أي الزمن الذي تقع فيه الحوادث والأفعال ، والسياق يومیء الى ذلك فإن قوله تعالى بلا فصل : « ان الانسان لفي خسر » يشعر بأن الخاسر هو الانسان وليس الزمان لأنه لا يعد شيئاً في نفسه يخسر أو يربح، وينم أو يمدح ! قال الشيخ محمد عبده : كان من عادة العرب ان يجتمعوا وقت العصر ويتذاكروا في شؤونهم ، وقد يؤدي حديثهم الى ما يكرهون، فيتوهم

سورة العصر

الناس ان هذا الوقت مذموم ، فأقسم الله به لئنه على ان الزمان لا يلم ، وانما هو ظرف للحسنات والسيئات ولشؤون الله الجليلة من خلق ورزق وإعزاز وإذلال ، وانما يذم ما فيه من الأفعال المقفوتة .

(ان الانسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) . هذا جواب القسم ، والمراد بالانسان من كان موضوعاً للتكليف ومسؤولاً عن أقواله وأفعاله ، وهذا الانسان خائب خاسر بحكم القرآن وإن كان ثرياً يملك الملايين ، وعالمًا يكشف أسرار الطبيعة ويسخرها لمصلحته ، وقويًا يُخضع الناس لسيطرته ، وبليغاً يحسن صناعة الكلام والوعظ .. انه خائب خاسر إلا اذا آمن بالله وحلله وحرماه وناره وجته ، وانعكس هذا الايمان على أقواله وأفعاله ، وإلا فإن الايمان بلا عمل مجرد فكرة ونظرية .. ولقد قرأت فيما قرأت ان الطيارين الأمريكيين الثلاثة الذين ألقوا القنبلة الذرية على هيروشيما في اليابان ، ومات وتشوه بسببها مئات الألوف ، كان كل واحد منهم يحمل معه نسخة من «الكتاب المقدس» الى جانب قنبلة الفناء والدمار !! وتساءل : أليس قوله تعالى : « ان الانسان لفي خسر » يسدل بظاهره ان الانسان خاسر بطبعه ، وان جميع أفراده في الخسر سواء ، واذا كان الأمر كذلك فلا يصح تقسيم الانسان الى صالح وطالح وخاسر ورابح لأن ما بالذات لا يتغير؟ وبالتالي فما هو المبرر لقوله تعالى : « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » ؟

الجواب ان الله سبحانه لم يحكم على طبيعة الانسان بالخسر من حيث هو وباعتبار جميع أفراده .. كلا ، وانما حكم عليه باعتبار الأعم الأغلب من أفراده ، ومثله كثير في القرآن كقوله تعالى : « ان الانسان لظلوم كفار » وقوله : « وكان الانسان قتوراً » . فالانسان بطبعه لا يعد خاسراً ولا رابحاً لأنه من هذه الحيثية يملك الأهلية والاستعداد لها معاً ، فالحكم عليه بأحدهما ترجيح بلا مرجح ، وانما يحكم عليه بأحد الوصفين بالنظر الى عقيدته وأعماله ، لا بالنظر الى ذاته وطبعه ، فقد أشرنا فيما سبق أكثر من مرة ان الله سبحانه وهب الانسان العقل والقدرة على الشر والخير وأمره بهذا ونهاه عن ذلك، وخلق بينه وبين ما يختار ولم يفرض الدين والعمل عليه فرضاً ويخلقها فيه كما يخلق الكائنات ، ولو فعل لسلخ الانسانية عن الانسان اذ لا انسانية بلا حرية وإرادة ، وعليه فلا يكون الانسان خاسراً ولا رابحاً إلا باعتبار عقيدته وأعماله ، فقوله تعالى : « ان الانسان لفي خسر الا الذين

الجزء الثلاثون

آمنوا وعملوا الصالحات ، معناه ان الذين لم يؤمنوا أو آمنوا ولم يعملوا هم الخائبون الخاسرون ، أما الذين آمنوا وعملوا فهم الفائزون الراجحون .
(وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) . هذا عطف على آمنوا وعملوا ، والمعنى ان الفائزين غداً هم الذين آمنوا بالله وشريعته ، وعملوا بما يملكه هذا الايمان ، وأوصى بعضهم بعضاً بالحق والصبر ، وعرف الشيخ محمد عبده الحق بقوله :
« ما ارشد اليه دليل قاطع أو عيان ومشاهدة » . وهذا تعريف للحقيقة لا للحق ، والفرق بينها ان الحقيقة بنت البرهان ، أما الحق فهو قائم بنفسه سواء أدلت عليه البيئات أم لم تدل ، فإن كثيراً من الناس يعجزون عن اثبات حقهم بالدليل القاطع والعيان .. وعلى أية حال فإن كل عمل فيه رضى وللناس صلاح فهو حق وخير وعدل ، أما الصبر فالمراد به ان نثبت على الحق ، ونقول للمبطل : لا ، مهما كانت النتائج .
والخلاصة ان أعظم ما في الانسان ، وأهم ما أنعم الله به على الانسان هو انه تعالى أعطاه القدرة الكافية الوافية على أن يكون ملاكاً أو شيطاناً ، راحياً أو خاسراً ، وانه ، جلّت حكمته ، جعل الحرية له وحده في أن يختار لنفسه ما يشاء من الشقاء والخسران ، والريح والسعادة ، وان الله يعامله بما يختاره لنفسه ربحاً أو خسراناً بعد أن هداه التجدين .. وأي فضل أعظم من هذا الفضل ، وعدل أعظم من هذا العدل ؟ .

سورة الرهمة

٩ آيات مكة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ * الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ * يُخَسِّبُ أَنْ مَالَهُ
أُخْلِدَهُ * كَلَّا لَيَنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ * نَارُ اللَّهِ
الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْنِدَةِ * إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَسَّدَةٌ * فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ *

الإعراب :

ويل مبتدأ ، وصح الابتداء بالنكرة لأنها مفيدة ومعناها الدعاء ، ولكل همزة

سورة الهزرة

خبر ، ولمزة بدل من هزرة ، والثاء المضمومة فيها للمبالغة . والذي جمع مالا^١ بدل من هزرة لمزة . وعدده فعل ماضٍ من العدد . كلا حرف ردع وزجر . ولينبذن اللام في جواب القسم والنون للتوكيد ، والضمير المستتر في الفعل يعود الى كل هزرة لمزة جمع مالا^٢ وعدده . وما أدراك ما مبتدأ وجملة أدراك خبر . ما الحطمة مبتدأ وخبر . ونار خبر لمبتدأ محذوف أي هي نار . والتي صفة - لنار . وموصدة خبر أنها . وعليهم متعلق به . وفي عمد متعلق بمحذوف صفة لموصدة . ومعددة صفة لعمد .

المعنى :

(ويل لكل هزرة لمزة) . الويل الخزي والهوان . ويقال : رجل هزرة لمزة أي عيآب ممتاب ، وقيل : الهمز يكون بالعين والشدق واليد ، واللز باللسان . وسواء أكان الوصفان بمعنى أم بمعنىين فإن القاسم المشترك بينهما إيذاء الناس والظعن في أعراضهم بالقول أو بالفعل .. وهذا دأب الوضع اللئيم الذي يحقد على كل نبيل لا لشي إلا لشعوره النقص من نفسه ، فيحاول تغطيته بالنيل من كرامة الآخرين . قال الإمام علي : أسوأ الناس من لم يثق بأحد لسوء ظنه ، ولا يثق به أحد لسوء فعله . (الذي جمع مالا^٣ وعدده) . يجمع المال من حل وحرام ، ومحسبه ويعدده أنا بعد أن شغفاً به ، وهو الذي حله ودفعه الى غز الناس ولمزهم ذاهلاً انه عما قليل يفارقه وتبقى عليه تبعته وحسابه .

(أحسب ان ماله أخلده) . أيظن ان هذا المال الذي جمعه وعدده يدفع عنه الموت اذا نزل بساحته ، أو ينجيه من حساب الله وعذابه (كلا) ان المال لا يدفع حظه ، ولا يشفع به عند الله (لينبذن في الحطمة) . وهي جهنم تحطم وتدمر الطغاة المتفطرسين ، والنبد يشمر بالازدراء والاحتقار (وما أدراك ما الحطمة) أنها فوق التصور (نار الله الموقدة) هي نار الله لا نار الناس ، ونار غضب لا نار الحطب (التي تطلع على الأفتدة) . المراد بتطلع هنا العلو والطلوع ، يقال : طلع الجبل وأطلع عليه إذا علاه . وقيل : المراد العلم والمرقة .. وهذا بعيد عن الفهم العام ، والأفتدة كناية عن ان النار تعلو وتحرق كل عضو من أعضاء المجرمين ، وخص سبحانه الأفتدة بالذكر لأنها موطن الكفر والظؤم (أنها عليهم موصدة) مطبقة لا مفر لهم منها إلا إليها (في عمد ممددة) هذا كناية عن شدة الاطباق والأحكام . وتقدم مثله في الآية ٢٠ من سورة البلد .

سورة الفيل

• آيات مكة •

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ *
وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ
كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ *

الإعراب :

كيف مفعول مطلق لفعل لأن المعنى أي فعل فعل ربك . وتر هنا معلقة
عن العمل لوجود كيف التي لا يعمل ما قبلها فيها بعدها . وأبابيل صفة للطير
ومعناه جماعات . وكعصف الكاف بمعنى مثل وهي مفعول ثانٍ لجعل .

ملخص القصة :

هذه القصة حدثت في عام مولد الرسول الأعظم (ص) واختصارها ان الأحباش
بعد أن تغلبوا على اليمن فصلوا مكة مزعمين أن يهدموا الكعبة ، فساروا يتقدمهم
فيل أو أكثر حتى وصلوا الى مكان بالقرب من مكة يقال له «المغسس» فنزلوا
فيه ، وأرسل رئيسهم أبرهة - كما تسميه الرواة - الى قريش من يخبرهم بأنه
لم يأت لحربهم ، وانما أتى لهم البيت ، فإن لم يمرضوا له بحرب فلا حاجة له

سورة الفيل

بدمائهم .. وما ان هم ابرهة بهدم البيت حتى أرسل الله عليه وعلى جيشه أسراباً من الطير ترميهم بحصى صغيرة لا تصيب أحداً منهم إلا أصيب بمرض الجدري يتناثر منه اللحم ويتساقط ، فذعر الجيش وصاحبه ، ورحلوا هاربين، وقد أصيب ابرهة بهذا الداء ، ومات في صنعاء .

وقال الدكتور طه حسين في كتاب « مرآة الاسلام » : « وفي هذه الموقعة أظهر عبد المطلب من الصبر والجلد ، ومن الشجاعة والثقة ما لم يظهره غيره من أشراف قريش ، ذلك انه قد أشار على قريش ان تخلي مكة ، فسمع له قومه ، وأقام هو بمكة لم يعترضها ، وانما أقام عند الكعبة يدعو الله ويستنصره . ويقول الرواة : ان الجيش أغار على لابل قريش فاحتازها ، وجاء عبد المطلب الى ابرهة ، ولما دخل عليه لم يكلمه إلا في إبل له ، فصفر في نفس ابرهة ، وقال له : كنت أظن انك تكلمني في شأن مكة وشأن هذا البيت الذي تعظمونه . قال عبد المطلب : إني اكلمك في مالي الذي أملكه، أما البيت فإن له رباً يحميه إن شاء . فأرسل الله على ابرهة وجيشه من تلك الطير التي رمتهم بحجارة من سجيل فجعلتهم كعصف مأكول ، وعادت قريش الى مكة، فازداد إكبارهم لعبد المطلب وشجاعته وثقته وثباته . »

المعنى :

(ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل) ؟. الخطاب لرسول الله (ص) والاستفهام لتقرير الواقع أي انك تعلم يا محمد ما صنع الله بأصحاب الفيل ، وهم الأحباش الذين أشرنا الى قصتهم، والقصد من هذا الخطاب هو تسلية الرسول بأن الذي أهلك أصحاب الفيل قادر على اهلاك المكذبين برسالة محمد (ص) . (ألم يجعل كيدهم في تضليل) . الكيد والمكر بمعنى واحد ، وهو تدبير السوء في الخفاء ، والمراد بالتضليل هنا التضيق ، يقال : ضلل كيده اذا جمعه ضائماً ، والمعنى ان الأحباش دبروا السوء لبيت الله الحرام ، ولكن الله سبحانه ضيق كيدهم وخيب سعيهم (وأرسل عليهم طيراً أبابيل) أي جماعات ، فسال المنصرون والرواة : جاءت طيور صغيرة من جهة البحر فوجاً بعد فوج (ترميهم بحجارة من سجيل)

الجزء الثلاثون

وهو الطين المتحجر (فجعلهم كعصف مأكول) . العصف ورق الشجر سمي بذلك لأن الريح تمصف به اذا قطع ، ومأكول أي كالذي تأكله الدواب .

وقال الشيخ محمد عبده : « فيجوز لك أن تعتقد ان هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذي يحمل جراثيم بعض الأمراض ، وان تكون هذه الحجارة من الطين المسموم الذي تحمله الرياح فيعلق بأرجل هذه الحيوانات ، فإذا اتصل بجسده دخل في مسامه ، فأثار تلك القروح التي تنتهي بإفساد الجسم ونساقط لحمه . »

ويلاحظ بأن قوله : « يجوز لك أن تعتقد ان هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب .. » وان هذه الحجارة من الطين المسموم ، ان هذا القول يفتقر الى الحجة لأن القطع لا يكون علماً وحقاً إلا اذا استند الى دليل قاطع أو عيان ومشاهدة على حد تعبير الشيخ محمد عبده ، ولو قال : يجوز لك أن تتحمل لكان أقرب الى الصواب .. أما نحن فنأخذ بظاهر النص كما فعل المسلمون الأولون ما دام العقل لا يباه .

سورة قريش

٤ آيات مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصِّيفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا
الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ *

الإعراب :

من جعل هذه السورة وسورة الفيل واحدة قال : لإيلاف قريش يتعلق بقوله تعالى : « فجعلهم ، في آخر السورة السابقة اي ان الله أهلك اصحاب الفيل لتطمئن قريش في بلدها ، ومن جعلها سورة مستقلة قال : لا إيلاف قريش يتعلق بفليعبدوا ، او بمحنوف اي اعجبوا لا إيلاف قريش . وايلافهم بدل من ايلاف قريش . ورحلة مفعول ايلافهم . فليعبدوا مجزوم بلام الأمر . والذي أطعمهم صفة لرب هذا البيت .

المعنى :

اختلفوا : هل هذه السورة مستقلة عن سورة الفيل ، او هما سورة واحدة ؟ قال الحافظ محمد بن احمد الكلبي في تفسير التسهيل : « ويؤيد القول بأنها سورة واحدة انها في مصحف أبي بن كعب كذلك لا فصل بينها ، وقد قرأها عمر في ركة واحدة من المغرب » . ويتفق هذا مع قول الشيعة الإمامية ، وقال صاحب الظلال : « هذه السورة تبدو امتداداً لسورة الفيل قبلها من ناحية موضوعها وجوهرها » .

(لا إيلاف قريش) . الإيلاف هو الأيناس ضد الإيحاء ، وقريش اسم لقبائل عربية من ولد النضر بن كنانة ، وفي بعض التفسير : إن قريشاً تصغير قرش ، وهي التجارة ، سموا بذلك لأنهم كانوا يتجرون ، ويومئ إلى ذلك قوله تعالى : (ايلافهم رحلة الشتاء والصيف) . كان سكان مكة في القرن السادس للمسيح ثلاث فئات : الأولى قريش ، ولها كل الحقوق . الثانية حلفاء قريش وهم أناس من العرب . الثالثة العبيد الذين لا يملكون شيئاً حتى أنفسهم ، وكان لقريش رحلتان للتجارة : لإحدهما الى اليمن في الشتاء ، والثانية إلى الشام في الصيف ، وكانوا يذهبون في تجارتهم آمنين ، ويعودون سالمين لا يمسهم أحد بأذى لأنهم سكان مكة وجيران بيت الله الحرام كما قال المقسرون ، أو كما نظن نحن من أن

الجزء الثلاثون

العرب لا غنى لهم عن الحج إلى مكة ، فإذا تعرضوا لقوافل قريش اقتصوا منهم حين يحجون إلى بلدهم .

ويقول الرواة : ان محمداً (ص) ذهب ذات عام مع عمه ابي طالب في تجارة إلى الشام ، وكان في الثانية عشرة من عمره الشريف ، وان عمه لم يكذب يبلغ مشارف الشام حتى عاد به مسرعاً الى مكة ، لأن راهباً من رهبان النصارى أوصاه بأن يحمره في مكة من مكر اليهود والنصارى .. وأيضاً قال الرواة: ان محمداً (ص) خرج مع عمه الزبير الى اليمن في رحلة الشتاء ، وكان قد جاوز العشرين بقليل .. كان هذا قبل أن يخرج الى الشام بمال خديجة .

(فليعبدوا رب هذا البيت) الضمير يعود الى قريش ، يأمرهم الله سبحانه بترك الأصنام وعبادة الواحد الأحد (الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) . يذكر سبحانه بهذه الآية طغاة قريش الذين عبدوا الأصنام من دون الله، وكذبوا نبيه الكريم محمداً ، يذكرهم بمحدث الفيل كيف أنجاهم من ابرهة وجيشه ولولا فضله تعالى لكانوا هم المصنف المأكول دون أصحاب الفيل . وأيضاً يذكرهم تعالى بما أنعم عليهم من الرزق بسبب الرحلتين ولولاهما لهلكوا جوعاً لأنهم بوادٍ غير ذي زرع ، وفوق ذلك كله جعلهم آمنين مطمئنين على أموالهم وأرواحهم في حلهم وترحالهم ، ولولا فضله عز وجل لتخطت بهم الناس من كل مكان .. أبعد هذا كله يعبدون الأصنام ويكفرون بأنعم الله ويتوسلون بسواه ، ويكذبون رسوله العظيم ؟ حقاً ان الانسان لظلوم كفار .

سورة الماعون

٧ آيات مكية . وقيل غير ذلك .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ * وَلَا يُحِضُّ
عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ *
الَّذِينَ هُمْ يُرَاوُونَ * وَيَسْتَعُونَ الْآعُونَ *

الإعراب :

فذلك مبتدأ ، والذي يدع خبر . فويل مبتدأ والمصلين خبر . الذين هم عن
صلاتهم صفة للمصلين . والذين هم يراون بدل من الذين الأولى .

المعنى :

(أ رأيت الذي يكذب بالدين) . أ رأيت أي هل علمت؟ والصيغة للاستفهام،
ومعناها استنكار ما حدث والخطاب عام للجميع، لأن هذه السورة بمجموعها تدل
بوضوح على التآخي بين الدين والعمل وتعتبره جزءاً منه أو لازماً لا ينفك عنه ،
ومن ثم نفت الدين عن الذي يتصف بالردائل التالية :
(فذلك الذي يدع اليتيم) . والمراد يبدعه يدفعه عن حقه بعنف أو غير
عنف ، أو يهينه ويؤذيه ، أو يتسلط عليه بنحو من الأنحاء ظلماً وعدواناً، والمراد
باليتيم كل ضعيف لا يستطيع الذب عن نفسه، صغيراً كان أم كبيراً . وخص سبحانه
اليتيم بالذكر لأنه أضعف من كل ضعيف. والمعنى كل ظالم هو كافر مكذب بدين

الجزء الثلاثون

الله ، وإن صلّى وصام لأن دين الله لا تغني فيه المظاهر والشعائر إلا مع التقوى والكف عن المحارم .. أجل ، من قال : لا إله إلا الله محمد رسول الله يعامل في الدنيا معاملة المسلم ، ولكن حكمه في الآخرة حكم الكافر . أنظر تفسير الآية ٥٥ من سورة الفرقان ج ٥ ص ٤٧٨ .

(ولا يحض على طعام المسكين) . المراد بالحض هنا التعاون مع الآخرين على الاهتمام بشأن المعوزين والعاطلين عن العمل، والمراد بالمسكين من لا يملك سبباً للرزق وسد الحاجة . وتقدم مثله مع التفسير في الآية ٣٤ من سورة الحاقة والآية ١٨ من سورة الفجر .

(فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون) . السهو هنا النسيان ، وهذا غير مراد هنا لأن الناسي غير مدّ ل عقلًا وشرعاً ، قال الرسول الأعظم (ص): « رفع عن أمي الخطأ والنسيان » . اذن ، لا بد من حمل السهو هنا على معنى آخر غير النسيان ، وقد بيّن سبحانه هذا المعنى الآخر بقوله : (الذين هم براءون ويمنعون الماعون) أي لا يعبرون الماعون تقريباً الى الله بل يعبرونه رثاء الناس ، ويجعل المعنى ان الساهين عن صلاتهم يصلّون ، ولكن تفافاً وخوفاً من الناس لا من الله .. انهم يريدون حسن الظاهر ، ويخفون القبائح والردائل .. هذا هو شأنهم في جميع أعمالهم ، يتقربون بها الى عباد الله ، ويتباعدون عنه تعالى وعن مرضاته حتى الماعون لا يعبرونه إلا رياءً وتفافاً .. وبهذا يتضح ان الله سبحانه ذكر الماعون للتشيل على رباّتهم في كل شيء لا في الصلاة فقط بل بأتفه الأشياء أيضاً كإعارة الماعون .

سورة الكوثر

٣ آيات مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنْعَمْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ *

الإعراب :

الكوثر مفعول ثانٍ لأعطيناك . ومفعول انحر محذوف أي انحر أضحيتك .
و هو ضمير فصل .

المعنى :

(إنا أعطيناك الكوثر) . الكوثر مبالغة في الكثرة ، واختلفوا : ما هو المراد بهذه الكثرة البالغة ، وأقرب الأقوال الى الافهام ما نقله المفسرون عن ابن عباس وسعيد بن جبیر من ان المراد بالكوثر هنا جميع نعم الله على رسوله الأعظم لأن لفظ الكوثر يتناول الكثرة الكثيرة التي لا حد ولا حصر لها ، وقيل لسعيد : ان أناساً يقولون : ان الكوثر نهر في الجنة . فقال : هـ إن هذا النهر من الخير الكثير الذي أعطاه الله لمحمد (ص) هـ .. ولكن الطغاة المترفين يستخفون بهذا الكوثر ولا يرونه شيئاً ، ويقولون عن الرسول الأعظم : هـ لولا أنزل عليه كثر - ١٢ هـ .
(فصل لربك وانحر) . بعد أن ذكر سبحانه نبيه الكريم بما أعطاه من النعم أمره بالشكر ، وأن تكون صلواته ونسكته لله وحده . وفي رواية ان المراد بالانحر هنا رفع اليدين حذاء الوجه عند استقبال القبلة للصلاة (ان شانئك هو الأبر) .

الجزء الثلاثون

هذه جملة مستأنفة ، والثانية البض من الشان بمعنى العداوة، واختلفوا في المراد من الأبر ، وأقرب الأقوال ان عدو محمد (ص) هبأه لا أثر له ولا ذكر ، أما ذكره (ص) وأثره فباق ببقاء الله، وأكثر المفسرين على ان أحد المشركين قال : محمد أبر لا ولد له ، فأخبر سبحانه ان هذا القائل هو الأبر ، وان كان له أولاد .. ولا مانع من الجمع بين المعنيين .

قال الشيخ محمد عبده : « ان شأنيء الرسول (ص) لم يكن يشنؤه لشخصه لأن شخصه كان حبيبا إلى النفوس ، وانما كان الشانون يشنون ويمقتون ما جاء به من الهدى .. ومن يشأ ما جاء به الرسول ، ويدخل فيما يضمه معنى الأبر اولئك الذين يتركون كتاب الله ، ويتمسكون بالظنون وأقوال غير المعصومين .. ويلصقون البدع بالدين ، فإذا ذكروا بالقرآن لووا رؤوسهم .. فلا عجب ان ترى الغضب الإلهي يتبعهم في كل مكان ، ويقذف بهم من ذلة الى ذلة وهم لا يشعرون بل ويضحكون » .

سورة الكافرون

٦ آيات مكة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا
أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ
دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ *

المعنى :

قيل ان قوماً من كفار قريش ذهبوا الى النبي (ص) وقالوا له : أنت سيد بني هاشم وابن ساداتهم ، ولا ينبغي أن تسفه أحلام قومك ، ولكن نعبد نحن إلهك سنة ، وتعبد أنت آلهتنا سنة ، فترلت هذه السورة .

وتسأل : ما هو القصد من هذا التكرار ؟ فإن قوله « لا أعبد ما تعبدون » هو عين قوله : « ولا أنا عابد ما عبدتم » ولا فرق إلا ان هذه جملة اسمية ، وتلك جملة فعلية ، أما قوله : « ولا أنتم عابدون ما أعبد » فقد أعاده بالحرف الواحد ٤ .

وأجابوا عن ذلك بأجوبة ، منها ما ذهب اليه صاحب مجمع البيان ، وهو أن المراد بقوله أولاً : « لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد » أي الآن وفي هذه الحال ، وقوله ثانياً : « ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد » أي في المستقبل ، فالفرق انما هو في الزمان حالاً واستقبالاً ! ويلاحظ بأن كلاً منها يصلح للحال والاستقبال ، والتعليل يحتاج الى دليل .

ومن الأجوبة ما قاله أبو مسلم واختاره الشيخ محمد عبده ، وهو ان « ما » الأولى اسم موصول بمعنى الذي والمراد به نفس المعبود، و « ما » الثانية مصدرية، والمراد بها نفس العبادة ، وعليه يكون المعنى معبودي غير معبودكم ، وعبادتي غير عبادتكم ، وأنا لا أعبد معبودكم ولا عبادتكم ، وأنتم كذلك . ويلاحظ بأنه لا عبادة من غير معبود ، وان ذكر أحدهما يفني عن ذكر الآخر .

ومنها ان هذا تكرر يفيد التأكيد ، وكلما كانت الحاجة الى التأكيد أشد كان التكرار أحسن ، ولا شيء أحوج الى التأكيد من نفي الشرك بالله ، ومن ثم حسن التأكيد . ونحن على هذا الرأي .

(لكم دينكم ولي دين) على حذف ياء المتكلم أي ديني ، والمعنى لكم الكفر والشرك ، ولي الاخلاص والتوحيد ، ولا علاقة لي بكم ولا بما تعبدون ، وأنتم كذلك .. وهذا تهديد ووعيد . ومثله « أنتم بريثون مما عمل وأنا برىء مما تعملون » ٤١ يونس ، ج ٢ ص ١٦٢ .

سورة النصر

٣ آيات مدنية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ *
وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ
أُفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا *

الإعراب :

جملة يدخلون حال من الناس أي داخلين ورأيت بصرية تعمل في مفعول واحد ، وهو هنا الناس ، وأفواجاً حال ثانية .

المعنى :

(إذا جاء نصر الله والفتح) . قال جمهور المفسرين : ان هذه بشارة من الله سبحانه لنبيه الكرم بفتح مكة والنصر على أعداء الله وأعدائه (ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً) . المراد بدين الله الاسلام ، وأفواجاً أي جماعة بعد جماعة ، وزمرة بعد زمرة ، وكان الكثير من أحياء العرب ينتظرون بإسلامهم فتح مكة ، فلما فتحها الله على نبيه عظم أمر الاسلام وانتشر في الجزيرة العربية كلها في أمد قصير ، وخلق الاسلام العرب خلقاً جديداً ، فوحدهم بعد تفرقهم وأعزهم بعد مذلتهم ، وجعلهم في طليعة الأمم وقادتها الى الخير والصلاح .
(فسبح بحمد ربك واستغفره) . أمر سبحانه نبيه الأكرم بالحمد والتسبيح

سورة النصر

بعد رؤية الفتح والنصر شكراً على أنعمه تعالى ، وتزيتهاً للنفس عن الزهو بالنصر ، والفرحة بالظفر ، وليس من شك ان الغرض من ذلك أن نتخلق بأخلاق القرآن ، ونتعظ بأدابه . قال الإمام علي (ع) : اذا قدرت على عدوك فاجمل الغفوة عنه شكراً للقدرة عليه (إنه كان تواباً) . توبة الله على المعصوم معناها الرحمة له والرضوان عنه ، وتوبته على غيره قبولها منه . وسبق الكلام عن ذلك عند تفسير الآية ١١٧ من سورة التوبة ج ٤ ص ١١٣ .

وروي ان النبي قال عند نزول هذه السورة : نعتت إلي نفسي ، وان ابنته فاطمة عندما سمعت ذلك منه بكت . فقال لها : لا تبكي ، فإنك أول أهلي لحوقاً بي فضحكت . وكان الرسول (ص) قد أدرك من هذه السورة دنو أجله ، وانتهاء مهمته بعد حصول النصر والفتح ودخول الناس في دين الله أفواجاً .

سورة تبت

ه آيات مكة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا
ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ *

الإعراب :

تبت فعل ماضٍ ، ويذا فاعل ، وتب أيضاً فعل ماضٍ . وما أغنى وماه نافية

الجزء الثلاثون

ومثلها ما كسب . وذات لب صفة نار . وامراته مبتدأ وحالة خبر . وفي جيدها خبر مقدم ، وحبل مبتدأ مؤخر ، ومن مسد متعلق بمحذوف صفة لحبل .

المعنى :

(تبت يدا أبي لب و تب) . التبتُّ الملاك، وتبتُّ الأولى دعاء عليه بالهلاك والخسران ، وتبُّ الثانية إخبار بأنه هالك خاسر لا محالة ، وبدا أبي لب كناية عن شخصه ، مثل « على اليد ما أخذت حتى تؤدي » ، لأن اليد مظهر القوة وأداة العمل ، وأبو لب هو عبد العزى بن عبد المطلب بن هشام، فهو عم النبي (ص) ولكنه من أشد الناس عداوة له .. قال المفسرون والرواة : ان النبي (ص) صعد في ذات يوم على الصفا ، ونادى بطون قريش فاجتمعوا ومن جملتهم أبو لب . فقال : رأيتم لو أخبرتكم ان خيلاً بالوادي تريد الغارة عليكم أكنتم تصدقوني ؟ قالوا : نعم ، ما جربنا عليك إلا صدقاً . فقال : انا نذير لكم بين يدي عذاب شديد . فقال أبو لب : ألهذا جمعتنا ، تياً لك . فترلت هذه السورة .

(ما أغنى عنه ماله وما كسب) . لا يفني عنه مال ولا جاه ولا أولاد غداة الحساب والجزاء ، فكل ذلك حجة عليه ، و-مسرة له (سيصلى قاراً ذات لب). هذا هو جزاؤه ، ومآله جهنم وساءت مصيراً .

(وامراته حمالة الحطب) . امرأة أبي لب هي أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان وعمة معاوية ، والحطب كناية عن الشر والإثم الذي يقودها الى النار، فلقد كانت في غاية العداوة لرسول الله (ص) تمشي بالتميمة عليه بين الناس لاطفاء دعوته ، والمناسبة بين النار والحطب واضحة .. هذا، الى ان العرب يلقبون المفسد الزاهم بحامل الحطب لأنه يوقد نار الفتنة . وقيل : انها كانت تجمع الشوك وتثره في طريق الرسول الأعظم (ص) (في جيدها حبل من مسد) . الجيد المتق ، والمسد الليف .. بعد أن وصفها سبحانه بحمالة الحطب أخطاها هذه الصورة العجيبة: تشد الحطب على رأسها بطرف من الحبل ، وطرفه الآخر في عنقها، فكأن الحطب تاج ، والحبل قلادة .

سورة تبت

• ونسأل : لقد حارب دعوة الرسول وآذاه كثير من طغاة الشرك كعقبة بن أبي معيط وأبي جهل والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل وغيرهم، ومع ذلك لم يصرح القرآن بأسمائهم، فلماذا خص أبا لهب بالذكر وأنزل الله فيه هذه السورة دون غيره؟ .
وأجاب الشيخ محمد عبده : بأن أبا لهب كان أشهر المعاندين لدعوة الرسول (ص) والممثل الأكبر لهم، وقد تأثر النبي من حركاته، ومن ثم خصه الله بالذكر من دونهم.
وختم الشيخ محمد عبده تفسير هذه السورة بقوله : من قال لك : لا يجوز ان تستند في حكم من الأحكام الى كتاب الله وسنة نبيه بالغاً ما بلغت من العلم ، بل يجب عليك ان ترجع الى قول فلان ورأي فلان ، من قال لك هذا فهو أبو لهب ، وكل امرأة تمشي بالنميمة والفساد بين الناس فهي حمالة الحطب في جدها جبل من مسد .

سورة الاحزاب

٤ آيات مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ *

الاعراب :

ضمير هو يعود الى خالق الكون ، كان سائلاً يسأل : من هو الخالق ؟
فاجيب هو الله أحد ، فهو مبتدأ أول ، والله مبتدأ ثانٍ وأحد خبره والجملة خبر الأول . الله الصمد مبتدأ وخبر . وهنا سؤال يطلب الجواب ، وهو لماذا

الجزء الثلاثون

قال : يلد بلا واو ، ويولد بالواو مع ان كلاً منها مضارع مجزوم ؟ وأجاب ابن خالويه - ت ٣٧٠ هـ في كتاب إعراب ثلاثين سورة بأن لم يلد الأصل فيه يولد بكسر اللام، فلما حلت الواو بين ياء وكسرة حذفت لأن الياء تشبه الكسرة ، فإن حلت الواو بين ياء وفتحة أو ياء وضمه لم تحذف مثل يوطئ ويوجل . والواو في يولد حالة بين ياء وفتحة لا بين ياء وكسرة ، ولذا لم تحذف . وأحد اسم يكن ، وكفوأ خبرها ، وله متعلق بكفو .

المعنى

أصول الاسلام ثلاثة : التوحيد ، والنبوة ، والبعث ، ويتفرع عن الأول صفاته تعالى ، وعن الثاني القرآن والشريعة ، وعن الثالث الحساب والجزاء . وهذه السورة الشريفة تقرر الأصل الأول .

(قل هو الله أحد) في ذاته وصفاته وأفعاله ، لا شريك له في شيء ، ولا فعل شيئاً لجلب منفعة له أو دفع مضرة عنه . وتكلمنا مفصلاً عن التوحيد ونفي الشريك عند تفسير الآية ٤٨ من سورة النساء ج ٢ ص ٣٤٤ بعنوان « دليل التوحيد والأقانيم الثلاثة » .

(الله الصمد) . ومعناه في اللغة السيد الذي يُلجأ اليه في الحاجات والمهمات ، والمراد به هنا الغني عن كل شيء ، ويفتقر اليه كل شيء لأنه خالق الأشياء ومصدرها .

(لم يلد) . هذا رد على من زعم ان لله ابناً أو بنات . قال علماء الكلام : لو كان لله ولد لكان مركباً ، ولكل مركب نهاية بانحلال أجزائه ، وأصح من هذا وأوضح أن يقال : لو كان لله ولد لكان له شبيه ووارث لأن الولد يشبه والده ويرثه ، ولا شبيه لله ولا وارث . قال الإمام علي (ع) « لم يولد سبحانه فيكون في العز مشاركاً ، ولم يلد فيكون موروثاً وهالكاً » .

(ولم يولد) . هذا رد على من زعم ان في الوجود آلهة مولودين . ولو كان الإله مولوداً لكان حادثاً يتبدى وجوده بتاريخ ولادته . قال الإمام أسير المؤمنين (ع) : « لم يلد فيكون مولوداً ، ولم يولد فيصير محدوداً ، أي تكون بداية وجوده من يوم ولادته .

سورة الاخلاص

(ولم يكن له كفواً أحد) لا في وجوده وذاته ، ولا في صفاته وأفعاله..
وقد راجعت عشرات المصادر ، وأنا أفسر هذه السورة ، من كتاب الأسفار
للملا صدرا والمواقف للابيجي الى أبسط التفسير كالبيضاوي ، ودققت فيها طويلاً
لاختار أفضلها ، فما وجدت أخصر وأصدق وأوضح من قول الإمام الحسين (ع)
فقد سأله أهل البصرة عن معنى الصمد ؟ فقال : ان الله سبحانه قد فسر الصمد
بقوله : « لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » . وعلى هذا التفسير المختصر
المفيد يسوغ لنا أن نقول : معنى الله أحد : انه الصمد ، ومعنى الصمد انه لم
يلد ولم يولد ، ومعنى لم يلد ولم يولد : انه لم يكن له كفواً أحد .

سورة الفلق

• آيات مكة وقيل غير ذلك .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ *
وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ *

المعنى :

(قل أعوذ برب الفلق) . فلق الشيء أي شقّه ، ويطلق الفلق على الخلق
كله ، لأن الله سبحانه نقله من العلم الى الوجود ، فكأنه كان مستوراً فكشف
عنه ، وأيضاً يطلق الفلق على الصبح لأنه يزيل الظلام ويحل مكانه ، وهو المراد

هنا عند أكثر المفسرين ، ويؤيده ما جاء في الآية ٩٦ من سورة الأنعام ، فالتق الأصباح وجعل الليل سكناً ، ومهما يكن فإن الله سبحانه هو رب الصبح والخلق كله .. وقد أمر نبيه الكريم ان يعتصم به (من شر ما خلق) أي من شر كل ذي شر انساناً كان أم غير انسان .. وما من مخلوق إلا وفيه الأهلية التامة للخير والشر ، قوة موجبة وأخرى سالبة ، ولا شيء في الوجود خير محض بذاته إلا خالق الوجود . أنظر ج ٢ ص ٣٨٤ فقرة ١ ليس بالامكان أبدع مما كان .. وبعد أن أمر سبحانه نبيه الأكرم أن يتموذ من شر كل ذي شر خصص بالذكر ما أشار اليه فيما يلي :

(ومن شر غاسق اذا وقب) . الغاسق هو الليل المظلم، والوقب هنا الدخول، والمراد بشرّ الليل ما يحدث فيه من مكروه كتنفيذ الدسائس والمؤامرات ، والسرقة والاعتقالات ، والفسق والفجور ، وما الى ذلك من شرر يُدبر بليل .

(ومن شر النفاثات في العقد) . ليس المراد بالنفاثات هنا الساحرات أو جماعات السحرة ذكوراً واناثاً كما قال كثير من المفسرين .. كلا، وانما المراد كل مشعوذ محتال يتاجر بالشعارات والمبادئ سواء أنقث في العقد مدعياً تسخير الجن كذباً ونفاقاً ، أم لم ينفث .. وخص سبحانه النفاثات بالذكر لأنها مظهر المشعوذة وعنوان النفاق .

وروى الرواة عن عائشة ان يهودياً اسمه ليبيد بن الأعصم سحّر النبي (ص) وأثر فيه سحره حتى كان يخيل له ان يفعل الشيء وهو لا يفعله ، وان هذه السورة والتي بعدها نزلت في ذلك . وهذه الرواية يجب طرحها شرعاً وعقلاً ، أما عقلاً فلأن النبي معصوم لا ينطق إلا بالوحي ، فيستحيل ان يخيل له انه يوحى اليه ولا يوحى اليه ، وأما شرعاً فلأن الله سبحانه قد كذب السحر وأهله حيث قال عز من قائل ، « يخيل اليه من سحرهم انها تسمى - الى قوله - ولا يفلح الساحر حيث أتى - ٦٦ طه . » وأيضاً كذب المشركين الذين وصفوا النبي بالمسحور: « إذ يقول الظالمون ان تبعون إلا رجلاً مسحوراً - ٤٧ الإسراء . » أنظر ما كتبه عن السحر وحكمه في ج ١ ص ١٦٤ وفي ج ٣ ص ٣٧٩ بعنوان « حول السحر » . ومن الطريف ما نقله الشيخ محمد عبده عن كثير من المقلدين على حد تعبيره ، حيث قالوا : لقد صح الخبر بتأثير السحر في نفس رسول الله (ص) ومن أنكروا

سورة الفلق

ذلك فقد أبدع في الدين لأن القرآن قد جاء بصحة السحر ، وعلق الشيخ محمد عبده على ذلك بقوله : فانظر كيف ينقلب الدين الصحيح الى بدعة عند المقلدين ، ويحتجون بالقرآن الذي نفى السحر على ثبوت السحر وتأثيره في رسول الله تماماً كما قال المشركون عنه : انه رجل مسحور .

(ومن شر حاسد إذا حسد) . الحاسد هو الذي يتمنى زوال النعمة عن أهلها ، وان تكون له من دونهم . وفي الحديث المنافق يحسد ، والمؤمن يغبط . أي يتمنى أن يكون له من النعمة مثل ما لأخيه ، ولا يتمنى زوالها عنه .. والحسد من أهيات الكثير من الرذائل كالحقد واللؤم والكذب والغيبة والنميمة والمكر والخداع والسعي بكل سبيل لازالة النعمة عن المحسود ، ومن هنا أمر الله سبحانه نبيه الكريم ان يتعوذ من شر الحاسد ، وهذا يتضح ان المراد من شره سوء مقاصده وأفعاله ، لا نظرات عينيه وإضرارها بالمحسود كما قال أكثر المفسرين .. ومن الطريف ما ذكره بعضهم في تفسيره ان رجلاً كان مشهوراً بإصابة العين ، حتى كان الناس يستأجرونه لهذه الغاية ، وفي ذات يوم استأجرته امرأة ليحسد عدواً لها ويقتله بعينه ، وصحبتة الى الرجل ، وقالت له : هذا هو فاحسده . فقال لها الحاسد : ما أجمل عينيك ! فما أم كلامه حتى عميت .

سورة الناس

٦ آيات مدنية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ
الْمُخْتَسِ * الَّذِي يُوسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْغِيَةِ وَالنَّاسِ *

الجزء الثلاثون

الإعراب :

ملك الناس عطف بيان لرب الناس، ومثله إله الناس . والخناس صفة للوسواس،
ومثله النبي يوسوس .

المعنى :

(قل أعوذ برب الناس ملك الناس إله الناس) . الخطاب للنبي (ص) ،
والمراد به الناس لأن النبي لا يلجأ ولن يلجأ إلا إلى الله وحده . وكلمة الرب
تطلق على المالك والسيد والنعيم ، وكلمة الملك على المهيمن والمتصرف والقادر
ويطلق الإله على الخالق والمبدع والمصور والقابض والباسط . والله سبحانه خالق
الناس والمنعم عليهم والمتصرف بهم والمدير لشؤونهم : فجدير بهم أن يعبدوه
ويتصموا به وحده .

وتسأل : أليس الله خالق كل شيء ، ومالك كل شيء ، فلماذا خص الناس
بالذكر ؟

الجواب : لأن الناس هم الذين ارتابوا بخالقهم ، وكفروا بأنعمه واستعانوا
بغيره ، أو كانوا أكثر طغياناً من سائر المخلوقات على وجه العموم ، فخصهم
سبحانه بالذكر لعلهم يهتدون .

(من شر الوسواس) . الوسواس بفتح الواو اسم مصدر بمعنى الوسوسة ،
وهو الصوت الخفي الذي لا يحس ، وبكسر الواو مصدر ، والفرق بين المصدر
واسم المصدر أن الأول يُنظر إليه نسبة الفعل إلى فاعل ، واسم المصدر لا ينظر
إلى الفاعل بل إلى الفعل فقط وبصرف النظر عن الفاعل ، وعلى أية حال فإن
المراد بالوسوسة هنا ما يُحك في النفس من الأفكار السوداء التي تصد عن الحق
وسيله . وما من أحد ينجو من حديث النفس ووسوستها إلا من عصم الله ،
وهو سبحانه لا يؤاخذ العباد على الوسوسة إلا إذا انعكست على قول أو فعل ،
قال الرسول الأعظم (ص) : « لكل قلب وسواس ، فإذا فتق الوسواس حجاب
القلب ، ونطق به اللسان أخذ به العبد ، وإذا لم يفتق الحجاب ولم ينطق به

سورة الناس

اللسان فلا حرج . (الخناس) من خنس اذا تأخر وتحنى ، والمراد بهذا الوصف هنا ان الانسان اذا تنبه للوسوسة الشيطانية ، وتعوذ بالله منها مخلصاً ذهب عنه واخضت .

(الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس) . ظاهر الآية يدل بوضوح ان الموسوس اليه نوع واحد ، وهم الناس فقط ، أما الذي يوحى بالوسوسة فتوعان : أحدهما من الجن والآخر من الانس ، ووسوسة انسي "إنسي" مثله أن يزين له الجريمة ويغريه بها ، وهذا واضح وكثير ، أما كيف يوسوس جني "إنسي" فالله أعلم .. وقد يكون المراد بوسوسة الجن للانس حديث النفس الذي ينبع من داخلها لا من أقوال الآخرين .. وأياً كان مصدر الوسوسة فلان على العبد أن يلجأ الى ربه ويعتم به وحده من كل شر سواء أكان من نفسه أم من غيره .

وكان الفراغ من هذا التفسير مساء ١٥ جمادى الآخرة من سنة ١٣٩٠ هـ الموافق ١٨ آب سنة ١٩٧٠ م ، وقد استغرق حوالي أربع سنوات من العمل المتواصل ليل نهار .

والحمد لله الذي أعانني على تفسير قرآنه ، وسهّل عليّ توضيح بيانه ، وهو سبحانه وحده المسؤول أن يجعلني من المتصممين بحبه ، ويجعله لي ذخيرة ليوم تلخر له الذخائر ، وتبلى فيه السرائر ، وان يزيدني من فضله وإحسانه .. انه منان كريم . والصلاة على محمد وآله الطيبين .

الفهرست

سورة الدخان

- ٥ إنا أنزلناه في ليلة مباركة الآية ١ - ٩
٧ يوم تأتي السماء بدخان مبين الآية ١٠ - ٢١
٩ هؤلاء قوم مجرمون الآية ٢٢ - ٣٣
١٢ أهم خسر أم قوم تبع الآية ٣٤ - ٤٢
١٤ طعام الأنيم وطعام المتقين الآية ٤٣ - ٥٩

سورة الجاثية

- ١٧ إن في السموات والأرض لآيات للمؤمنين الآية ١ - ٦
١٩ ويل لكل أفاك أثيم الآية ٧ - ١٥
٢٢ أيضاً بنو اسرائيل الآية ١٦ - ٢٠
٢٤ ضُربت الذلة على اسرائيل بحكم التوراة
٢٦ اتخذ إلهه هواه الآية ٢١ - ٢٦
٣٠ كل أمة تدعى الى كتابها الآية ٢٧ - ٣١
٣٢ اليوم نساكم الآية ٣٢ - ٣٧

سورة الأحقاف

- ٣٧ أين الدليل إن كنتم صادقين الآية ١ - ٦
٣٩ الوثنية في عصر القضاء

٤٠	أم يقولون أفترأه الآية ٧ - ١٢
٤٣	وحمله وفصاله ثلاثون شهراً الآية ١٣ - ١٦
٤٧	قال لوالديه أف لكما الآية ١٧ - ٢٠
٥٠	هود الآية ٢١ - ٢٨
٥٣	الجن يستمعون القرآن الآية ٢٩ - ٣٢
٥٦	أليس هذا بالحق الآية ٣٣ - ٣٥

سورة محمد .

٥٩	وآمنا بما نزل على محمد الآية ١ - ٦
٦٢	ان تنصروا الله ينصركم الآية ٧ - ١٤
٦٤	الدولة الاسلامية
٦٧	صفة الجنة الآية ١٥ - ١٩
٧١	طاعة وقول معروف الآية ٢٠ - ٢٣
٧٣	أفلا يتدبرون القرآن الآية ٢٤ - ٣١
٧٦	ولا تبطلوا أعمالكم الآية ٣٢ - ٣٨
٧٨	القرآن وسياسة الحرب

سورة النح

٨٢	إنا فتحنا لك الآية ١ - ٥
٨٥	ويعذب المنافقين الآية ٦ - ٩
٨٦	بيعة الرضوان تحت الشجرة الآية ١٠ - ١٤
٨٧	خلاصة القصة
٨٩	المخلفون من الاعراب
٩١	ذرونا نتبعكم الآية ١٥ - ١٧
٩٣	اذ يبايعونك تحت الشجرة الآية ١٨ - ٢٤
٩٧	وصلوكم عن المسجد الحرام الآية ٢٥ - ٢٦
٩٩	رؤيا الرسول الآية ٢٧ - ٢٩
١٠٢	الصحابة والقرآن
١٠٤	هل الاثنا عشرية باطنيون ؟

سورة الحجرات

١٠٦	لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي الآية ١ - ٥
١٠٨	ان جاءكم فاستقنوا فبينوا الآية ٦
١١٠	الله حيب اليكم الايمان الآية ٧ - ٨
١١٢	وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا الآية ٩ - ١٠
١١٤	الاحوة الدينية والاحوة الانسانية
١١٥	لا يسخر قوم من قوم الآية ١١
١١٦	كيف تكسب الأصدقاء ؟
١١٨	الظن والتجسس والغيبة الآية ١٢
١١٨	الظن
١٢٠	التجسس
١٢١	الغيبة
١٢٢	أكرمكم عند الله أتقاكم الآية ١٣ - ١٨

سورة ق

١٢٧	والقرآن المجيد الآية ١ - ١١
١٢٩	شبهة الآكل والمأكول
١٣١	أفعمينا بالخلق الأول الآية ١٢ - ٢٢
١٣٣	مناع للخبر الآية ٢٣ - ٣٥
١٣٧	يوم ينادي المنادي الآية ٣٦ - ٤٥

سورة الذاريات

١٤١	والذاريات ذروا الآية ١ - ١٤
١٤٣	حق السائل والمحروم الآية ١٥ - ٣٠
١٤٦	الله والمعرفة الحسية
١٥٣	فاخطبكم أيها المرسلون الآية ٣١ - ٤٦
١٥٥	ومن كل شيء خلقنا زوجين الآية ٤٧ - ٦٠

سورة الطور

١٦٠	والطور الآية ١ - ١٦
١٦٢	أهل الجنة الآية ١٧ - ٢٨
١٦٥	لا عنر لمن أنكر نبوة محمد الآية ٢٩ - ٤٤
١٦٩	فدرهم حتى بلاتوا يومهم الآية ٤٥ - ٤٩
	سورة النجم
١٧٢	رآه .. عند سدرة المنتهى الآية ١ - ١٨
١٧٣	فكان قاب قوسين
١٧٦	اللات والعزى ومناة الآية ١٩ - ٢٦
١٧٨	الظن لا يبغي عن الحق الآية ٢٧ - ٣٢
١٨١	ليس للإنسان إلا ما سعى الآية ٣٣ - ٤١
١٨٣	إلى ربك المنتهى الآية ٤٢ - ٦٢
١٨٥	المادة والحياة

سورة القمر

١٨٨	وانشق القمر الآية ١ - ٨
١٩١	نوح الآية ٩ - ١٧
١٩٣	هود وصالح الآية ١٨ - ٣٢
١٩٦	لوط الآية ٣٣ - ٤٤
١٩٩	كل شيء خلقناه بقدر الآية ٤٥ - ٥٥
٢٠١	كل شيء بمقدار

سورة الرحمن

٢٠٣	خلق الانسان علمه البيان الآية ١ - ١٣
٢٠٦	كل يوم هو في شأن الآية ١٤ - ٣٠
٢٠٩	الله والايانسان وابن عربي
٢١٠	لا تنفنون إلا بسلطان الآية ٣١ - ٤٥
٢١٣	هل جزاء الاحسان إلا الاحسان الآية ٤٦ - ٧٨
٢١٥	الأجر حق والزيادة تفضل

سورة الواقعة

٢١٨	إذا وقعت الواقعة الآية ١ - ٢٧
٢٢١	أصحاب اليمين الآية ٢٨ - ٤١
٢٢٣	أصحاب الشمال الآية ٤٢ - ٥٧
٢٢٥	أفرأيت ما تمخرون الآية ٥٨ - ٧٥
٢٢٩	لا يمسه إلا المطهرون الآية ٧٦ - ٩٦
٢٣٢	الاسلام وقادة الفكر الأوروبي

سورة الحديد

٢٣٧	هو الأول والآخر الآية ١ - ٦
٢٤٠	وانفقوا مما جعلكم خلفاء فيه الآية ٧ - ١١
٢٤٣	باطنه الرحمة وظاهره العذاب الآية ١٢ - ١٥
٢٤٧	ألم بأن للذين آمنوا الآية ١٦ - ١٩
٢٥٠	الحياة الدنيا لعب وهو الآية ٢٠ - ٢٤
٢٥٢	المصاب وصاحب الظلال
٢٥٤	الحديد فيه بأس شديد الآية ٢٥ - ٢٩

سورة المجادلة

٢٦٣	الظهار الآية ١ - ٤
٢٦٤	ماخص القصة
٢٦٦	النجوى الآية ٥ - ١٠
٢٧٠	فافسحوا بفسح الله لكم الآية ١١ - ١٣
٢٧٢	صدر المجلس
٢٧٤	اتخذوا إيمانهم جنة الآية ١٤ - ١٩
٢٧٦	لاغلبن أنا ورسلي الآية ٢٠ - ٢٢

سورة الحشر

٢٨٠	سبح لله الآية ١ - ٥
٢٨١	ملخص قصة بني النضير
٢٨٣	الدعايات المضللة والوقت المناسب

- ٢٨٤ كيلا يكون دولة بين الأغنياء الآية ٦ - ٨
 ٢٨٨ ويؤثرون على أنفسهم الآية ٩ - ١٥
 ٢٩٢ فلما كفر قال اني بريء منك الآية ١٦ - ٢٠
 ٢٩٤ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل الآية ٢١ - ٢٤

سورة المتحة

- ٢٩٧ لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء الآية ١ - ٣
 ٢٩٨ ملخص القصة
 ٢٩٩ أسوة حسنة في ابراهيم الآية ٤ - ٧
 ٣٠٢ لا يتهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم الآية ٨ - ٩
 ٣٠٣ الدول الصديقة والمعادية
 ٣٠٥ اذا جاءكم المؤمنات مهاجرات الآية ١٠ - ١١
 ٣٠٨ اذا جاءك المؤمنات يبائعنك الآية ١٢ - ١٣

سورة الصف

- ٣١١ كأنهم بنيان مرصوص الآية ١ - ٦
 ٣١٤ تحريف التوراة والانجيل
 ٣١٦ والله متمّ نوره الآية ٧ - ١٤

سورة الجمعة

- ٣٢١ بعث في الأميين رسولاّ الآية ١ - ٤
 ٣٢٣ كمثل الحمار يحمل أسفاراّ الآية ٥ - ٨
 ٣٢٦ صلاة الجمعة الآية ٩ - ١١

سورة المنافقين

- ٣٢٩ هم العدو فاحذرهم الآية ١ - ٦
 ٣٣٢ ليخرجن الأعز منها الأذل الآية ٧ - ١١

سورة التغابن

- ٣٣٦ فنكم كافر ومنكم مؤمن الآية ١ - ٦

٣٣٨	فلك يوم التغابن الآية ٧ - ١٣
٣٤٢	عداوة الأزواج والأولاد الآية ١٤ - ١٨

سورة الطلاق

٣٤٦	فطلقوهن لعنتهن الآية ١ - ٥
٣٥٣	لينفق ذو سعة الآية ٦ - ٧
٣٥٦	وكأين من قرية الآية ٨ - ١٢
٣٥٨	سبع سموات ومن الأرض مثلهن

سورة التحريم

٣٦٠	لم تحرم ما أحل الله لك الآية ١ - ٥
٣٦١	ملخص القصة
٣٦٤	وقودها الناس والحجارة الآية ٦ - ٩
٣٦٧	امرأة نوح وامرأة لوط الآية ١٠ - ١٢

سورة الملك

٣٧٣	تبارك الذي بيده الملك الآية ١ - ١١
٣٧٧	فامشوا في مناكبها الآية ١٢ - ١٩
٣٨٠	يمشي مكباً على وجهه الآية ٢٠ - ٣٠

سورة القلم

٣٨٥	ما أنت بمجنون الآية ١ - ١٦
٣٨٩	فأصبحت كالصريم الآية ١٧ - ٣٣
٣٩٣	أفنجعل المسلمين كالمجرمين الآية ٣٤ - ٤٣
٣٩٦	فذرني ومن يكذب الآية ٤٤ - ٥٢

سورة الحاقة

٤٠٠	الحاقة ما الحاقة الآية ١ - ١٨
٤٠٤	حمة العرش
٤٠٥	يا ليتها كانت القاضية الآية ١٩ - ٣٧
٤٠٨	ما تبصرون وما لا تبصرون الآية ٣٨ - ٥٢

سورة المعارج

- ٤١٢ مقداره ٥٠ ألف سنة الآية ١ - ١٨
٤١٤ الشيطان والبحث عن الغيب
٤١٦ من هم المصلون الآية ١٩ - ٣٥
٤١٩ فلنهم بخوضوا ويلعبوا الآية ٣٦ - ٤٤

سورة فوح

- ٤٢٣ دعوت قومي ليلاً ونهاراً الآية ١ - ١٢
٤٢٦ الايمان والرخاء
٤٢٨ خلقكم أطواراً الآية ١٣ - ٢٠
٤٢٩ ولا تفرن وداً ولا سواعاً الآية ٢١ - ٢٨

سورة الجن

- ٤٣٣ استمع نفر من الجن الآية ١ - ٧
٤٣٦ ولنا لسنا السماء الآية ٨ - ١٧
٤٤٠ إن المساجد لله الآية ١٨ - ٢٨

سورة المزمل

- ٤٤٤ يا أيها المزمل الآية ١ - ٩
٤٤٦ شخصية الرسول الأعظم
٤٤٨ واهجرهم هجراً جميلاً الآية ١٠ - ١٩
٤٥٠ فاقراوا ما تيسر من القرآن الآية ٢٠

سورة المدثر

- ٤٥٤ يا أيها المدثر الآية ١ - ١٠
٤٥٧ ذرني ومن خلقت وحيداً الآية ١١ - ٣١
٤٥٩ ملخص القصة
٤٦٣ وكنا نخوض مع الخائضين الآية ٣٢ - ٥٦

سورة القيلعة

- ٤٦٨ نسوي بنانه الآية ١ - ١٩
٤٧١ بل نجبون العاجلة الآية ٢٠ - ٤٠

سورة الانسان

- ٤٧٦ هل أنى على الانسان الآية ١ - ٦
٤٨٠ ويطعمون الطعام على حبه الآية ٧ - ٢٢
٤٨٤ إن هؤلاء نجبون العاجلة الآية ٢٣ - ٣١

سورة المرسلات

- ٤٨٨ والمرسلات عرفاً الآية ١ - ٢٨
٤٩١ إلى ظل ذي ثلاث شعب الآية ٢٩ - ٥٠

سورة النبأ

- ٤٩٧ عمم يتساءلون الآية ١ - ١٦
٤٩٩ يوم الفصل الآية ١٧ - ٣٠
٥٠٢ إن للمتقين مفازاً الآية ٣١ - ٤٠

سورة التازعات

- ٥٠٥ والتازعات عرفاً الآية ١ - ١٤
٥٠٨ هل أناك حديث موسى الآية ١٥ - ٣٣
٥١١ الطامة الطبرى الآية ٣٤ - ٤٦

سورة عبس

- ٥١٤ عبس وتولى الآية ١ - ١٦
٥١٥ من هو العابس؟
٥١٨ قتل الانسان ما أكفره الآية ١٧ - ٤٢

سورة التکوید

٥٢٣

إذا الشمس كورت الآية ١ - ١٤

٥٢٥

الخنس والكنس الآية ١٥ - ٢٩

سورة الانفطار

سورة المطففين

٥٢٣

ويل للمطففين الآية ١ - ١٧

٥٣٦

ختامه مسك الآية ١٨ - ٣٦

سورة الانشقاق

٥٣٩

إذا السماء انشقت الآية ١ - ١٥

٥٤١

فلا أقسم بالشفق الآية ١٦ - ٢٥

٥٤٤

سورة البروج

٥٤٨

سورة الطارق

٥٥١

سورة الأعلى

٥٥٥

سورة الغاشية

٥٥٩

سورة الفجر

٥٥٩

والفجر وليال عشر الآية ١ - ١٦

٥٦٢

وتحبون المال حباً جماً الآية ١٧ - ٣٠

٥٦٥

سورة البلد

٥٦٩

سورة الشمس

٥٧٠

النفس وتسويتها

٥٧٣

سورة الليل

٥٧٧

سورة الضحى

٥٨٠

سورة الانشراح

٥٨٣

سورة التين

٥٨٥

سورة الطلق

٥٨٨

المال والطينان

٥٩٠

سورة القدر

٥٩٣	سورة البينة
٥٩٧	سورة الزلزلة
٥٩٩	سورة العاديات
٦٠٢	سورة القارعة
٦٠٣	سورة التكاثر
٦٠٥	سورة العصر
٦٠٧	سورة الحمزة
٦٠٩	سورة الفيل
٦٠٩	
٦١١	سورة قريش
٦١٤	سورة الماعون
٦١٦	سورة الكوثر
٦١٧	سورة الكافرون
٦١٩	سورة النصر
٦٢١	سورة تبت
٦٢٣	سورة الاخلاص
٦٢٤	سورة الفلق
٦٢٦	سورة الناس
٦٢٩	

ملخص القصة